A B D E L   K H A L I Q   A L - R I K A B I

مكتبة بغداد

رواية
NOVEL

عبد الخالق الركابي

مقامات إسماعيل الذبيح

عبد الخالق الركابي

مقامات إسماعيل الذبيح

رواية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذه الطبعة

تُعدّ هذه الطبعة من رواية (مقامات إسماعيل الذبيح) ، الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت ، هي الطبعة المُعْتمَدة وذلك ليس لكونها طبعة منقّحة فحسب ، بل لِما جرتْ عليها من تعديلات جوهرية شملت حذف مقاطع كانت تثقل النص باستطرادات لا مسوّغ لها ، فضلاً عن إضافة مقاطع كان لا بد من إضافتها لتزيد الرواية تماسكاً ووضوحاً ودلالة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ملاحظة

ترد أسماءُ الشخصيات والأعلام ، في هذه الروايةِ ، بصيغةِ الرفعِ بمعزلٍ عن علاماتِ الإعرابِ الأخرى .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تنويـه

اعتمدتْ هذه الرواية ، في الإلمام بأهم الأحداث التاريخية للقرن العشرين والسنوات الثلاث الأولى من القرن الواحد والعشرين على مستوى المحيط العربي ، على مصادر كثيرة تخطّت الاستفادة من بعضها القراءة إلى اقتباس فقرات منها ، وإدخالها في المتن الروائي - ولا سيما الفقرات المتعلقة بالجوانب التوثيقية ، والفلكلورية ، والجغرافية ، ومقتطفات الصحف القديمة - مما تطلب ذكرها في هذا الموضع : (أعمدة الحكمة السبعة) للورانس . (جهاد شعب فلسطين) لصالح مسعود أبو يصير . (كنوز القدس) لمجموعة مؤلفين . (الرحلة الثامنة) و(البئر الأولى) لجبرا إبراهيم جبرا . (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) لعلي الوردي . (بغداد في العشرينات) لعباس بغدادي . (الزورخانات البغدادية) لجميل الطائي . (حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث) لخيري العمري . (ذاكرة المغلوبين) لفيصل دراج . (المعدان أو عرب الأهوار) لثيسيجر . (العودة إلى الأهوار) لغافن يونغ . (خمسون عاماً على ملحمة دير ياسين) لوليد الخالدي . (مجزرة صبرا وشاتيلا) لابن جبل العسقلاني . (مشاهدات في القدس والناصرة) لمارك توين . ويضاف إلى كل ذلك : ثلاث دراسات عن عمليات نهب الآثار العراقية بعد الاحتلال في ربيع عام ٢٠٠٣ منشورة في العدد الخاص عن حضارة العراق من مجلة (الآداب الأجنبية) السورية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

﴿فَبَشّرْناه بغلام حَليم فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعيَ قالَ يا بُنَيَّ إنّيَ أرى في المَنَام أنّيَ أذْبَحُكَ فانظُرْ مَاذَا تَرىَ قال يا أبَتِ افعلْ ما تُؤْمَر سَتَجدُنيَ إنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَابِرين﴾

قرآن كريم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عَلْوةُ الجَلَبي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حين أستعيد معرفتي بإسماعيل الذبيح – وأنا بصدد كتابة روايتي عنه – أُجابَهُ بهذه الازدواجية التي رافقت تلك المعرفة ؛ فبقدر ما كان الرواة ، وهم يعدّدون مآثره على مدى عقود من الزمن ، يحيطون اسمه بهالة أسطورية ، كان هو أول مَنْ يبدّد كلّ ذلك مؤكداً أن ما جرى له حصل بفعل ظروف استثنائية حدّدتْ مصيره دون اختيار منه!

مفارقة تعيدني ستاً وثلاثين سنة إلى الوراء ، مذكّرة إياي بالمرة الأولى التي التقيته فيها في (علوة الچلبي) حينما قدم إلى بغداد في جملة النازحين من عرب فلسطين عقب أيام من وقوع (نكسة حزيران) سنة ١٩٦٧ .

كانت (العلوة)[١] القائمة قرب واحدة من أكثر ساحات الشورجة[٢] صخباً وضجيجاً ، هي محلّ عمل أبي . وكانت تشغل واحداً من تلك البيوت البغدادية التي أُنشأت أواخر الفترة العثمانية على ذلك الطراز الذي أشيع آنذاك ؛ والذي يعلو على ارتفاع طابقين ، يتوسطه حوش مربع ، تتراصف حوله غرف تتقدمها طارمات بأعمدة عديدة ، وقد غُطي المحجر المفتوح على السماء بطبقات من التوتياء .

---

(١) العلوة : متجر كبير يختص ببيع الحبوب والعطاريات أو الفواكه والخضراوات عن طريق الجملة إلى صغار التجار .

(٢) الشورجة : أوسع أسواق بغداد وأكبرها تحتوي على عشرات الأسواق والمتاجر المختصة ببيع صنوف البضائع المختلفة . وتقع في جانب الرصافة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت مهمتي تتلخص بالمرور بتلك (العلوة) كلّما سنحت الفرصة بحجّة تلقّن أصول التجارة، وقد سبقني في القيام بالمهمة نفسها شقيق يكبرني في السن، ثم ما لبث أن استقلّ ببيته إثر زواجه تاركاً إياي أؤدّي دوره. ولم يكن الأمر يتطلب مني، بعيد عودتي من المدرسة، إلا إزجاء بعض الوقت في التنقل بين الأكياس، والصناديق، والسلال، التي تملأ الحوش الواسع والغرف المحيطة به، دون أن أنسى المرور بالغرفتين المتجاورتين اللتين تقعان في عمق (العلوة) في مواجهة الباب الخارجي: الكبيرة - وكنت لا أدخلها إلا مضطراً - ويتصدرها مكتب أبي وقاصته[1]، وتتوزع فيها أرائك على الجانبين يشغلها، في أغلب الأوقات، حشد من التجار الزائرين، والثانية - وكنت ألازمها في أغلب الأوقات - وهي الأصغر، وتعود لسهيل الخلف كاتب (العلوة)، وقد أضفى لمساته على ما يحيط به بدءاً باللوحة المعلقة فوق رأسه والتي خطّ عليها عبارة (القناعة كنز لا يفنى)، مروراً بالسجلات الكبيرة للبيع والشراء، وانتهاء بآلة كاتبة تتصدر مكتبه، فضلاً عن طاولة واطئة عريضة نضّدتْ عليها الصحف اليومية، وبالقرب منها مذياع صغير يلجأ سهيل إليه لمتابعة نشرات الأخبار؛ فقد كان مأخوذاً بما يجري في العالم: يكفيك أن تسأله عن آخر الأنباء ليأتيك بخلاصتها مشفوعة بوجهة نظره الشخصية التي يغلب أن تكون مطبوعة بالتشاؤم، وكأن ثمة كارثة موشكة على الوقوع!

كان أبي، يومذاك، جالساً في غرفته خلف المنضدة، جوار القاصة

(١) القاصة: خزانة حديدية محكمة للاحتفاظ بالنقود والصكوك والكومبيالات والمستندات المهمة الأخرى.

المفتوحة ، وقد انصرف إلى مراجعة (دفتر الصندوق) مطابقاً إياه ، بمعونة سهيل الخلف ، مع (دفتر الجاري) ، كدأبه عصر كل يوم حين يتهيأ للعودة إلى البيت ، وقد قبع الخال يحيى القبنچي في زاويته المعهودة على إحدى الأرائك منصرفاً إلى تدخين سيجارته ، نافثاً سحب الدخان من حوله بسخاء ، تاركاً الرماد يتساقط على الأرض كيفما اتفق غير متنبّه لتمتمات أبي الساخطة ، ولا لنظراته المستاءة التي يرمقه بها كلّما رفع عينيه عمّا بين يديه ؛ فقد كان الخال يحيى يمرّ بتلك المرحلة المتأخرة من العمر حين يبدأ المرء بقطع صِلاته مع ما يحيط به بادئاً ذلك بفقدان حاستي السمع والبصر .

في تلك اللحظة لمحتُ رجلاً كبيراً في السن ، يرتدي الكوفية والعقال ، يدخل (العلوة) تتعقّبه صبيّة في حدود الخامسة عشرة من عمرها . وكان الاثنان غارقين بملابس الحداد ، حسبتهما مستطرقين قدما لشأن يخصّ التجارة ، كما هو دأب العشرات الذين يفدون يومياً ، فلا يتميزان عنهم إلا بجلال الحزن الذي وسم وجهيهما بعلامته الفارقة التي لا تخطئها العين .

لم يكد أبي يسمع الرجل وهو يلقي بالسلام ، لحظة دخوله الغرفة ، حتى ردّ عليه تلقائياً . ورفع رأسه عما بين يديه متأملاً القادم بنظرة عابرة . ومرّتْ لحظات تبادل الاثنان ، في أثنائها ، النظر قبل أن ينهض أبي عن كرسيه ببطء ليتساءل ، وهو بين الشك واليقين :

– يا إلهي! . . أيعقل أن تكون إسماعيل الذبيح؟

– هو نفسه!

أجابه الرجل وقد اندفع نحوه محتضناً إياه . والتحمَ الاثنان في عناق حميم تبادلا خلاله عشرات القبل ، وأبي يردّد أنه لم يكد يعرف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صديق عمره بعد مرور هذه السنوات الطوال على فراقهما! .

وسارع سهيل الخلف إلى إعادة الصكوك والكمبيالات إلى القاصة لينسحب إلى غرفته ، وقد تأبط الدفترين ، مدركاً ، كما يبدو ، أن دوره قد انتهى . واستدار إسماعيل نحوي ، بعدما عرّفه أبي بي ، فعانقني مفعماً أنفي بعبق الشيخوخة الذي هو مزيج من رائحة التبغ والعرق . لكنّ المشكلة تجلّتْ بأكثر صورها بعثاً على الأسى حين ذكّره أبي ، وهو يشير إلى يحيى ، بأن هذا العجوز المتهدّم ليس إلا منافسه اللدود في المصارعة قبل أكثر من خمسين سنة ، والذي اضطر الحَكمُ ، في إحدى المرات ، إلى إيقاف المباراة بينهما ، بعدما تخطّت الوقت المقرر دون أن يفوز أحدهما على الآخر ، فصاح إسماعيل مستنكراً :

– تعني يحيى؟ لا يعقل ذلك!

وانحنى عليه معانقاً إياه بلهفة ، في حين فغر هذا فمه دهشة ، وتلفتَ حوله متسائلاً عمّن يكون الرجل؟ . . غير متنبه لأبي ، وهو يصيح به ، وقد كوّر كفه على شكل قمع أحاط به فمه ، مردداً اسم إسماعيل . ونهض يحيى ليغادر الغرفة ، وقد عقد ذراعيه خلف ظهره المحدودب متمتماً بكلمات مبهمة ، تاركاً إياي أتأمل مغزى هذه المفارقة المتمثّلة بعجزه عن معرفة الرجل الذي كان أكثر الناس إلماماً بماضيه! . والتفتَ إسماعيل نحو الصبيّة التي بقيتْ مرابطة عند باب الغرفة داعياً إياها إلى الدخول .

– ابنتي مريم .

عرّف بها وقد ارتمى على إحدى الأرائك ، فانسلّتْ مريم داخلة تحاذر أنْ يصدر عن حذائيها صوت . وجلست بهدوء إلى جواره . واكتفتْ بأن رمقتني بنظرة خاطفة من عينين ذهبيتين واسعتين سرعان

ما أسبلتْ جفنيهما لتنشغل بتلمّس شالها الأسود المحيط بوجهها الأبيض المستدير ، ماسحة فمها الصغير بمنديل مكوّر في إحدى كفيها ، دون أن تنسى سحب طرف تنورتها إلى الأسفل ممعنة في إطباق ساقيها .

وشرع أبي يطرح على إسماعيل الأسئلة المعهودة عن صحته وأحواله ، مستفسراً عن الوضع في القدس بعد هذه الحرب الخاطفة ، وعن كيفية وصوله إلى بغداد؟ لكنّه سكتَ فجأة ، وقد لاحظ ملابسه السود - كما خمّنتُ - فسأله متوجساً إنْ كان قدم بأسرته إلى بغداد؟ فلم يحر إسماعيل جواباً ، إنما اكتفى بأن استدار بوجهه في اتجاهي مطالعاً إيّاي بعينين محاطتين بالتجاعيد . وانشغل لحظات بالنبش في جيوبه ليستلّ علبة سجائر التقط منها ، بأصابع راجفة ، واحدة دسّها بين شفتيه ليعاود النبش من جديد ، فهرع أبي إليه ليجلس بجانبه مسعفاً إياه بعلبة ثقاب ، وقد أدرك أن ثمة كارثة قد وقعتْ . ومرّتْ لحظات بذل إسماعيل خلالها جهوداً جبارة للسيطرة على نفسه مغالباً رعشة عصبيّة ألمّتْ بفكه ، حتى إذا ما تكلم بدا وجهه وكأنه ازداد استطالة لهول ما ينطق به :

- عن أية أسرة تسأل يا صديقي؟ فقد نكّبتُ ، هذه المرة ، برفيقة عمري ، زوجتي فاطمة!

- لا!!

صاح أبي متألماً ليتمتم بعدها بخشوع :

- لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنّا لله ، وإنّا إليه راجعون!

وخيّم صمت ثقيل على الجلسة توضحتْ خلاله نداءات الباعة في الخارج على بضائعهم ، فيما كانتْ مريم قد كفّتْ عن تلمّس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شالها ، وزادتْ من إسبال جفنيها ، وقد تورّد وجهها ، وأخذتْ تنشج في بكاء مكتوم ، فغطت وجهها بين طيات منديلها وبدأت الشهقات تهزّ جسدها هزّاً ، فضمها الأب إلى صدره مغرقاً وجهها بقبلاته .

بدا المنظر مثيراً للمشاعر : منظر عجوز يواسي صبيّة بالوسيلة الأزلية الوحيدة التي لم يجد الإنسان عنها بديلاً : إغراقها بالمزيد من الحنان بدلاً عن حنان مفقود لا يعوّض . وأضاف إسماعيل بعدما هدأتْ ابنته :

- حدث ذلك في ثاني أيام الحرب ، في السادس من حزيران ؛ فوسط انهماكي ، مع رجال الزقاق ، بانتشال جثث أسرة كاملة من تحت الأنقاض علمتُ أن فاطمة غادرتِ البيت متجهة نحو حيّ (الشيخ جرّاح) حيث يقيم شقيقها حليم مع أسرته ؛ فانطلقتُ في أعقابها يرافقني أشقاؤها الثلاثة تحت قصف كان يزداد كثافة كلما اقتربنا من ذلك الحي ، وحينما فتح حليم لنا الباب ليخبرنا بأن فاطمة لم تمر على بيته أدركتُ كل شيء .

وراقبته يجاهد لكي يستجمع أفكاره مواصلاً تدخين سيجارته دون وعي منه قبل أن يتابع :

- ستظلّ تلك الساعات التي قضيناها في ذلك اليوم المشؤوم ، ونحن ننتقل من مستشفى إلى آخر ، عصيّة على النسيان ؛ فالردهات والممرات كانت قد ضاقت بأسرّة الجرحى حتى اضطر عدد كبير منهم إلى أن يفترش الأرض . وكان المزيد من المصابين لا يكفون عن الوصول بين دقيقة وأخرى ؛ فالإسرائيليون كانوا يمطرون الحي بقذائف طائراتهم انتقاماً من الجيش الأردني الذي حرر جبل (سكوبس) القريب في اليوم السابق .

ولاذ إسماعيل بالصمت لحظات قبل أن يتساءل وهو يتنقل بعينيه بيني وبين أبي :

– خبّراني : أسبق لكما أن سمعتما بقنابل حارقة يعجز الماء عن إطفاء النيران التي تسببها ؛ إذ إن الماء نفسه يحترق بها؟

واسترسل دون أن يسمع ردّنا :

– تلك هي قنابل (النابالم) التي أصابتْ المئات والتي تنشب نيرانها ، عادة ، بالثياب ، والجلد ، واللحم ، وتفعل فعلها حتى تبلغ العظام . . كنت أتنقل بين الجرحى المشوّهين باحثاً عن فاطمة مكتشفاً أكثر من واحد منهم كان قد هلك في سريره دون أن يتمكّن الأطباء من إخلاء جثته لفداحة أعداد الموتى ، ولولا لقائي أحد معارفي ، وهو يبحث بدوره عن مفقودين له ، لما تسنّى لي العثور على فاطمة ؛ فقد أرشدني إلى سريرها ، فوجدتها كالنائمة ملتفة بملاءتها السوداء ، فكشفتُ عن وجهها . . ذلك الوجه الذي ألفتُ ، على مدى أربعين عاماً ، رؤيته ، فإذا به سليم لم يُمسّ ، مسبل الأجفان ، وقد علاه الشحوب . . فصحتُ مستغيثاً بإحدى الطبيبات وفي ظني أنها لا تزال حية ، فخيّبت أملي بأن أخبرتني أنها أصيبتْ في قلبها بشظيّة بحجم دبوس!

وعادتْ مريم تبكي من جديد ، فيما أخذ إسماعيل الذبيح يردّد بنبرة غير مصدّقة ، كأنه يسرّ بالأمر لنفسه :

– هكذا رحلتْ فاطمة ؛ فلم يبقَ من أسرتي غيري أنا ومريم ، أما أبنائي الخمسة فقد سبق لهم ، منذ سنوات – كما أخبرتك في رسائلي – أن توزعوا بأسرهم في شتّى الأقطار العربية .

فسارع أبي إلى معانقته ، ورجاه أن يعدّ نفسه وابنته جزءاً من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أسرته ، ويعدّ بيته منزله ، فشكره إسماعيل موضحاً أن وكالة غوث اللاجئين قامتْ بواجبها حال وصولهما إلى بغداد . وأضاف ، وهو يضحك بازدراء :

– ينبغي الاعتراف بأن الأنظمة العربية امتلكت خبرة عملية في هذا الشأن ؛ فقد اعتادتْ أن تستقبل ، كل بضع سنين ، المزيد من اللاجئين .

– مَنْ كان يصدّق أنْ اليهود سيحققون انتصاراً كاسحاً على العرب مجتمعين خلال ستة أيام فقط؟

صحتُ مردداً بمرارة ذلك السؤال المؤرّق الذي بقيتُ أطرحه على نفسي آلاف المرات على امتداد الأيام الماضية ـ تلك الأيام التي حفلتْ بمظاهرات استنكار صاخبة عمت شوارع بغداد – فاستدار إسماعيل نحوي ليتأملني لحظات قبل أن يعلّق :

– ليس اليهود يا ولدي سوى الأداة التي تَحَقَّقَ بوساطتها هذا الانتصار ، أما اليد التي حرّكت هذه الأداة فلم تكن غير الغرب : أوربا وأمريكا .

واسترسل في كلامه ، مع نفثات من الدخان والأحزان ، متحدثاً عما جرى قبل خمسة عقود ، سنة سبع عشرة على وجه التحديد ، حين التحق ، مع جماعة من الأصدقاء ، بثورة الشريف حسين : فحينما أوشك الإنكليز والفرنسيون ، مع اقتراب الحرب العالمية الأولى من نهايتها ، على إلحاق الهزيمة بالدولة العثمانية ، بفضل تعاون العرب معهما ، انكشفت تلك الخديعة التي أوقعا العرب بها ؛ فقد كانا قد عقدا اتفاقية (سايكس – بيكو) بينهما سراً ، وتقاسما بموجب بنودها العراق وسوريا ، واضعين فلسطين تحت الانتداب ، في انتظار الفرصة

السانحة لتقديمها هدية لليهود بموجب (وعد بلفور)!

وأردف ، وقد التفت نحو أبي ، مستشهداً به :

– لا شك أنك تتذكر تلك الفترة الحرجة حين أصدر الجنرال (غورو) إنذاراته التي سبقتْ زحف الجيش الفرنسي على دمشق ليحتلّها بموجب تلك الاتفاقية المشؤومة التي لا نزال ندفع ثمنها حتى اللحظة .

والتفت نحوي خاتماً كلامه :

– فانتصار اليهود لم يتم يا بني إلا لأن الغرب يقف وراءهم .

وعلق أبي قائلاً إن ما حدث لن يمر دون تبعات ؛ بل ستترتب عليه نتائج خطيرة ، فأيّده إسماعيل مؤكّداً احتمال أن تكون حرب حزيران الخاطفة مقدّمة لحروب لاحقة ستزيد القضية الفلسطينية تعقيداً ، واسترسل في حديث طويل لم يقطعه إلا حينما شرع تجار الشورجة بالتقاطر على (العلوة) بعدما شاع خبر وصوله . وأخذت الغرفة تضيق بأعداد الوافدين ؛ فازدادتْ مريم انكماشاً على نفسها . وكان الجميع ، دون استثناء ، يغرقون إسماعيل ، وهم يعانقونه ، بكلمات اللوم والعتاب ، وثمة مَنْ يصيح به ، قبل دخول الغرفة ، متسائلاً إنْ كان قد ضيّع طريقه؟ وآخرون يمعنون في تقريعه ، مؤكدين ، بتلك الطريقة الشعبية اللمّاحة ، أنه معذور في (ترقّيه) و(ترفّعه) عليهم ؛ فما الذي يُتوقع من واحد مثله لم يكتفِ ، في شبابه ، بالتغلب على أبطال (زورخانة)[1] محلة الدهانة ومن ثمّ على أبطال (زورخانات) بغداد

---

(١) الزورخانة : مكان لممارسة المصارعة والتمرن على الألعاب البهلوانية ، وقد انتشرت في القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين في بغداد .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كلها ، بل أضحى مشهوراً جاب أقطار الدنيا؟

بيد أن التحفّظ الذي كان إسماعيل يجابه به تلك الانتقادات الحميمة ، فضلاً عن مظهره بملابس الحداد ، كانا يشعران القادمين بارتكاب هفوة تجعلهم يجلسون على أطراف الأرائك بحذر ، متلفتين حولهم بنظرات متسائلة كانت تضطر أبي إلى أن يلخّص لهم المأساة التي حلّتْ بأسرة صديقه .

وكان أكثر من واحد من الجالسين يحرص على مبادلة إسماعيل نتفاً من ذكرياته الغابرة حينما كان في مقتبل العمر ، وكيف أنه لم يكن يفوّت مباراة من مبارياته المتعاقبة مع متحدّيه ، فكان إسماعيل يبادله بدوره الكلام ليستدير ، في إحدى المرات ، نحو أبي سائلاً إياه بقلق :

– لِمَ لا أرى بين الحضور أقرب أصدقائي الذين توثّقت صلتي بهم خلال سنوات الغربة بعيداً عن بغداد ؛ أعني يوسف وهلال أبو خمرة وذياب رؤوف؟

– يوسف مات بعد طول معاناة ؛ لأنه فقد بصره في أعوامه الأخيرة ؛ فأخذ يتجول في الأزقة بصفة درويش متسولاً لقمة خبزه ، أما هلال أبو خمرة فإنك ستجده كما تركته منذ خمسين سنة : لا شيء تغيّر فيه ، لا يزال يتجوّل في أزقة باب الشيخ[١] متحدثاً ليس

(١) باب الشيخ : إحدى محلات بغداد العريقة الواقعة في جانب الرصافة . وكانت تعرف باسم محلة (باب الأزج) قبل أن تعرف باسم باب الشيخ على أثر دفن القطب الصوفي الشيخ عبد القادر الكيلاني فيها .

عن بطولاته أيام (السفر برلك)[١] حين كان نداً لا يلين أمام أعتى الأشقياء فحسب، بل عن مغامراته في الهند في واحد من معسكرات الأسرى حيث استطاع الإفلات من عدد لا يُحصى من النمور، والفيلة، والثعابين. . أما الحاج ذياب رؤوف فلا يزال حياً، وقد غطّى حَوَل عينيه بنظّارتين معتمتين مثل نظّارات العميان!

وحين أبدى إسماعيل رغبته بلقائهما طمأنه أبي أنه على استعداد، متى رغب في ذلك، لاصطحابه إلى حيث يقيمان. وسأل إسماعيل أبي بغتة:

- أتدري بمن يذكّرني هلال؟ بجابر البنّا؛ لأن أحدهما لم يكن يطيق الآخر، فكانا في خصام دائم بسبب وبدونه.

وأردف مستدركاً:

- لقد نحر الأتراك جابر قبل أن التقيك في دمشق، ودُفن في الحجاز في وادي (الفوره) قرب آبار قرية (خريبه)، وبسبب ما حصل له قررتُ الانضمام إلى الثورة العربية بعد طول ممانعة وتردد.

بدا أبي سعيداً بتلك الزيارة؛ فاختيار إسماعيل (علوته) محطّاً لرحاله كان امتيازاً خصّه به في منطقة شعبية يكفيك أن تذكر فيها اسم إسماعيل الذبيح أمام أي واحد من قاطنيها لتسمعه يردده من بعدك بانبهار، مؤكداً لك أنه نموذج للبطل المحبوب؛ فكونه واحداً من غمار الناس - ابن حمال - لم يمنعه من أن يتميز عن الآخرين حين لم يكتفِ بتحقيق انتصاراته في مجال المصارعة، بل تحدى المحتلّين

---

(١) السفر برلك: كلمة تركية تعني نفير الحرب. وقد اشتهرت عند العامة أثناء نشوب الحرب العالمية الأولى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العثمانيين بادئاً بذلك مغامرة حياته الكبرى التي حملته إلى شتى أقطار الدنيا قبل أن تستقر به الحال في القدس على أثر زواجه بفتاة فلسطينية .

والحق أن صداقة إسماعيل كانت مصدر فخر أبي الدائم ؛ فعلى امتداد أعوام طفولتي اعتدت أن أراه وقد استخفّه الطرب كلما تصله رسالة من القدس يوشح مغلّفَها طابعٌ يحمل صورة قبة الصخرة ؛ فلا يكتفي بقراءتها والابتسامة لا تغادر شفتيه ، بل يحرص على وضعها في متناول يده فوق المكتب ليحثّ أصدقاءه الذين كانوا يمرون به في (العلوة) على قراءتها ، وهو يردد :

- أصيل . . . سيبقى إسماعيل كما عرفته : نموذجاً للأصالة والوفاء .

ويوم بعث إليه بمظروف كبير الحجم ضمّ صورة له مع أفراد أسرته ، فضلاً عن عدد من أشقاء زوجته ، حرص على أن تتنقل تلك الصورة من يد إلى أخرى لتطوف بأغلب علاوي الشورجة ومحلاتها قبل أن تتصدر موضعها - وقد أطّرتْ - وسط صور أفراد الأسرة في إيوان البيت .

المقامة العثمانية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(١)

في (ديوخـانة) بيـتنا[١] سـمـعـتُ ، أول مـرة ، باسم إسـمـاعـيل الذبيح ؛ فقد كـان من دأب أبي ، ولا سيما في ليالي رمضان ، استقبال أصدقـائه عقب الصلاة بادئاً سـهـرته مـعـهم بتحـريك مؤشـر المذياع الضخم ، ذي العين السحرية الخضراء ، على حشد من محطات تضجّ بضروب متعددة من أصوات مبهمة ، ولغات غير مفهومة ، وموسيقى صاخبة ، قبل الاستقرار به على إذاعة لندن لحظة تدوّي ساعة (بگ بن) بدقاتها المهيبة التي تسبق قراءة نشرة الأخبار ، ليتبادلوا بعدها أسئلتهم الحائرة عن سرّ ما يجري ، في مختلف البلدان ، من أحداث غير معقولة تشي بأن العالم مقبل على نهاية محتمة .

وطوال سـاعـات الليل كنت في تنقّل دائم بين تلك (الديوخـانة) والإيوان[٢] - حيث تتربع أمي على بساطها الشيرازي أمام المجمرة التي تتوسطها أوعية الشاي و القهوة والماء الساخن- حاملاً ، من حين إلى آخر ، الإستكانات ، والفناجين ، وأطباق الكعك ، وأنا أعدّ الساعات في انتظار انتهاء الرجال من أحاديثهم المملّة ليتصدّر الملا شكر ، في

---

(١) الديوخانة : غرفة استقبال تقع بعد المدخل الرئيسي للبيت مباشرة .

(٢) الإيوان : فسحة مسقفة تكون مفتوحة عادة على الحوش أي الساحة المربعة التي تتوسط الدار البغدادية عادة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خاتمة المطاف ، الجلسة ؛ فحينها سأنزوي جالساً على إحدى الأرائك مصغياً إليه ؛ فذلك الرجل النحيل ذو الظهر المحدودب ، كان نموذجاً استثنائياً لرواة القصص ؛ يأخذ بمجامع القلوب مستحوذاً على انتباه الجميع حينما يسرد إحدى حكاياته ، ليس لسحر ما يروي فحسب ، بل لقدرته العجيبة على أن يلبس لكل حالة لبوسها ؛ إذ ما يكاد يرفع صوته مهدّداً ومتوعداً في المواقف التي تتطلب الجرأة والإقدام من حكايته حتى يعود ليخفّضه متهدجاً به في لحظات العشق والهيام ، مترنماً بصوت رقيق ، بأشعار الحب والغرام .

هكذا يظل صوت الملا شكر يتردد تحت سقف (الديوخانة) بضروب من القصص ، والأساطير ، والأخبار العجيبة ، مضفياً ، على كل ما يتلفظ به ، تلك الجاذبية التي كنت أفتقدها حين أسمع الحكايات نفسها من غيره ، بل كان يحدث أحياناً أن يتناول ، من أحد رفوف الخزانة الخشبية التي تتصدر (الديوخانة) ، واحداً من كتب أبي الموزعة بين الموسوعات الدينية ، والتراثية ، والتاريخية ، وكتب الحكايات والسمر ، مثل (ألف ليلة وليلة) و(سيرة سيف بن ذي يزن) و(التغريبة الهلالية) و(سيرة عنترة) و(سيرة الأميرة ذات الهمة) و(سيرة الزير سالم) ، ليشرع في إزجاء ساعات الليل بقراءة صفحات من إحدى القصص ، مرجئاً إكمالها عادة ، في أكثر مواضعها بعثاً على التشويق ، إلى وقت آخر ، مما كان يدفع بي إلى الانفراد بالكتاب نفسه صباح اليوم التالي محاولاً ملاحقة أحداث تلك القصة المشوقة . . ولكنْ عبثاً ؛ فما من سبيل للاستمتاع بتلك القصة إلا التجمّل بالصبر حتى المساء في انتظار أن يتصدّر الملا شكر الجلسة .

في تلك (الديوخانة) سمعتُ باسم إسماعيل الذبيح أول مرة ؛

فذات ليلة تطرّق الحضور إلى ذكر آخر أبطال (زورخانة) محلة الدهانة الحاج عباس الديك الذي ذاع صيته منذ أعوام على أثر فوزه على المصارع الألماني (الهر كريمر) ، فذكّر الملا شكر الحضور بإسماعيل الذبيح أول أبطال هذه (الزورخانة) وكيف أنه رفع صيت محلتنا بين المحلات الأخرى جاعلاً من (زورخانتها) قبلة أنظار عشاق المصارعة في زمن كانت هذه المنتديات الرياضية فيه عنوان مجد المحلات البغدادية وفخرها . وكما هو متوقع : رفع الحاج ذياب رؤوف صوته معترضاً معدداً أسماء أبطال سبقوا إسماعيل شهرة في تلك (الزورخانة) ، فاكتفى الملا شكر بأن نفث سحابة دخان باتجاهه ليعلق متهكماً :

- الأمر كما تقول يا حاج عدا أن هؤلاء الأبطال لم يتخطوا بشهرتهم حدود محلة الدهانة ، في حين تخطى إسماعيل بشهرته الهند ، والحجاز ، وبلاد الشام ، قبل أن يستقرّ في القدس إثر زواجه بفتاة فلسطينية .

فتلفتَ الحاج ذياب رؤوف حوله باحثاً عمّن يشد من أزره . وحين رأى الجميع منصرفين إلى ملاحقة الملا شكر بنظرات ترقّب في انتظار استرساله في الكلام انشغل باحتساء ثمالة القهوة المترسبة في قعر فنجانه ، وكل ملمح فيه يفصح عن أنه سيبقى يتحين الفرص للإيقاع بـ(خصمه) ليؤكد للجميع أنه لا يقلّ عنه إلماماً بحكايات الماضي لولا سوء الحظ الذي لا يسعفه للبرهنة على هذا الأمر!

وانطلق الملا شكر يتحدث عن (زورخانة) محلة الدهانة مؤكداً أنها كانت من أشهر (الزورخانات) التي انتشرت في بغداد في أوائل القرن العشرين ، يلتقي الرياضيون فيها مرتين يومياً ، صباحاً وعصراً ، لمزاولة تمريناتهم على وقع طبلة (مرشد) تقتصر مهمته على التخفيف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عنهم مبعداً عنهم السأم ، ومجدداً نشاطهم بالقرع على طبلته بإيقاعات منغّمة مصحوبة بقراءة (المقام)[(١)] والأدعية ، والمدائح النبوية مع سرد نتف من السير الشعبية الحافلة بالبطولة ، والشجاعة ، والتضحية ، والإقدام . وقد بلغتْ مقدرته على إثارة المشاعر أنه بات من المألوف أن يتوقف عن الدق على طبلته أحياناً بسبب أن أحد اللاعبين رفع يده طالباً منه بصوت متهدج (رخصة) – وهي مفردة تعني التوقف عن مواصلة التمارين لحظات – ليتجّه نحو حشد الحاضرين من أبناء المحلة ، والذين كان من المألوف أن يجلسوا على التخوت والدكك المحدقة بـ(الجفرة) التي هي أشبه ما تكون بحلبة المصارعة ، فينكبّ على رأس واحد منهم مقبّلاً معتذراً إليه ، ودموع الندم تنحدر من عينيه ، لأنه أغلظ له القول قبل يوم أو يومين في ساعة غضب .

– هكذا كانت الرياضة في ذلك الزمن : تهذّب النفوس قبل الأجساد ؛ ولذلك خلد ذكر الأبطال الذين اتصفوا بالمروءة والتضحية بالنفس أكثر من المشهود لهم بالقوة والبطش!

قطع الملا شكر حديثه مستدركاً بنبرة ذات مغزى رامقاً إياي بنظرة إدانة لكوني أنتمي إلى جيل آخر غير ذلك الجيل (الأصيل) . لكنه سارع إلى إرضائي بأن أضاف ممهداً السبيل للعودة إلى ما كان يشغلني تلك الليلة :

– وكان إسماعيل خير مثال على ذلك .

بدا من الواضح أنه كان يدرك أنني أكثر الحضور حرصاً على

---

(١) المقام : هو خلاصة ما ورثته مدينة بغداد من غناء عصور ماضية فصار طابعها المميز لها عن غناء الريف والبادية .

الإصغاء إليه ؛ ذلك ليقينه أن الجميع إنْ لم يسهموا بتلك الأحداث فمن المؤكد أنهم سمعوا بها . لكنه أبى إلا أن يمعن في شحذ فضولي ؛ فبعدما قضى لحظات في امتصاص عقب سيجارته واصل كلامه ، مع سحب الدخان ، متحدثاً عن أمر آخر :

– سيبقى يوم الثالث من آب عصيّاً على النسيان ؛ فقد صحا البغداديون فيه على ضجة قرع على الطبول تصاحب ثلّة من رجال (الجندرمة)(١) كانوا يلصقون على الجدران إعلانات تحمل صورة مدفع وبندقية خُطّتْ تحتها بالتركية عبارة (سفر برلك وار– عسكر أولانر سلاح باشنه) ، ومعناها بالعربية أنّ الدولة العثمانية أعلنت النفير العام مما يتوجّب على الجنود أن يكونوا على أهبة الاستعداد بأسلحتهم .

وعمد الملا شكر إلى الصمت تاركاً الحضور يتبارون في الإفصاح عن مشاعرهم آنذاك : فتناوب هؤلاء في التحدث عن الويلات التي ذاقوها حين شاركت الدولة العثمانية في الحرب العظمى ؛ فقد شملت (قرعة التجنيد) أغلب الشباب ، ولم يسلم منها إلا أبناء الأسر الغنية والمتنفّذة ؛ إذ عُيّنوا في وظائف عسكرية بعيدة عن ساحات القتال ، فعمد الكثيرون من أبناء الفقراء إلى الهرب . وعلّق واحد من الحضور متفكّهاً :

– لقد تحولت عبارة (سفر برلك) على ألسنة الناس إلى عبارة مناقضة وهي (سفر علّك) أي حرب الهرب!

وسارع الحاج ذياب رؤوف إلى اغتنام الفرصة السانحة بحجة أنه

---

(١) الجندرمة : لفظة تركية تعني قوات الدرك والشرطة المسؤولة عن حفظ الأمن داخل المدن .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان أحد ضحايا تلك الحرب ؛ فتحدث بانطلاق عن تعاون الناس في تضليل رجال (الجندرمة) المجدّين في أثر الهاربين . وكانت تلك المطاردات تزداد ، بمرور الأيام ، عنفاً وضراوة : فمع تفاقم هزائم القوات العثمانية في ساحات القتال كانت غارات (الجندرمة) في ازدياد مطرد ؛ يقتحمون البيوت على غير توقع ، بل يطاردون الهاربين في كل مكان ، حتى إذا ما عجزوا عن الإمساك بهم ألقوا القبض على آبائهم وأبنائهم ، وأخذوهم رهائن لا يطلقون سراحهم حتى يسلّم الهاربون أنفسهم . وسوّغ الحاج ذياب سر التنصل من الالتحاق بالخدمة العسكرية بقوله :

– لقد أصدرتْ جمعية (الاتحاد والترقّي) ، بعد إعلان (المشروطية)[1] بعام ، قانوناً جديداً للجندية يقضي على كل عثماني ، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم ، الخدمة في الجيش ، حين بلوغه الحادية والعشرين من عمره ، مدة ثلاث سنوات خدمة فعلية ، وخمس سنوات كاحتياط ، وخمس وعشرين سنة كـ(رديفة) – أي الاستجابة للدعوة عند الحاجة – لذا كان الناس ، حينما يلتحق أحد أبنائهم بالعسكرية ، يعدّونه ميتاً ؛ فيقيمون سلفاً مجلس عزاء على روحه . كما أن الدولة العثمانية كانت تدأب على خوض حروب لم يجد العراقيون من شأنهم خوضها : فقد ساقوا الآلاف منهم – وقبل الحرب العظمى بعقود من السنين – إلى جبهة (قفقاسيا) ليهلكوا هناك عن آخرهم تاركين الأمهات ، والزوجات ، والشقيقات الملتاعات ، يرددن تلك

(١) المشروطية : لفظة شاعت في الدولة العثمانية بعدما أجبرت جمعية الاتحاد والترقي التركية السلطان عبد الحميد على الالتزام بالدستور .

المرثيّة التي اشتهرتْ في سائر أطراف العراق (أويلاخ يا دگة الغربية) . . حتى إذا ما اشتعلت الحرب ، بعد ذلك بأعوام ، في صحراء القصيم بين (ابن رشيد) و(ابن سعود) بعث العثمانيون آلافاً جديدة من العراقيين لإسناد (ابن رشيد) ؛ فهلكوا بدورهم في تلك الواقعة التي اشتهرت باسم (دگة ابن رشيد) .

– في تلك الأيام بزغ نجم إسماعيل ؛ فأَضحى بطل (زورخانة) محلة الدهانة العتيد .

عاد الملا شكر إلى حديثه موضحاً كيف أن إسماعيل استطاع التغلّب على أبطال (الزورخانات) الأخرى وهو في الرابعة والعشرين ؛ فمُنح لقب (الأسطه) الذي لا يُمنح إلا لأقدم المصارعين وأكثرهم شهرة ، وبعدما يكون قد اجتاز مرتبتي (الشاغول) و(الخلفه) ؛ لذا أصبح ملزماً بالدفاع عن موقعه : لا يكاد ينتصر على واحد من متحديه الكثيرين حتى ينبري له آخر مما كان يضطره إلى ملازمة (الزورخانة) أغلب ساعات النهار لغرض التدريب .

واستدرك الملا شكر ، وقد افترّ فمه الأدرد عن ابتسامة لم يستطع لها منعاً ، متحدثاً عن تلك المشادة اليومية التي كان الجيران في محلة الدهانة يترقبون ، صباح كل يوم ، نشوبها بين والد إسماعيل ووالدته : فلحظة كان الرجل يخرج من بيته مرتدياً فوق ثوبه (الجندة) الشبيهة بالبردعة ، والتي يحمل فوقها البضائع من (علوة) إلى أخرى ، كانت زوجته تلاحقه بطلباتها حتى باب الدار ، راجية إياه ألا ينسى أن يجلب ، حين عودته ، اللحم ، والخبز ، والخضر ، فكان ينهرها بأعلى صوته ، مهيباً بها الاستعانة بابنها (البطل) الذي يكاد يرجح البغل ثقلاً ، فكانت تجيبه متحسرة :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ومن أين لي بإسماعيل وهو أما أن يكون في طريقه إلى (الجفرة) أو عائد منها ليستمتع بغفوة خاطفة قبل أن يقفل راجعاً إليها من جديد؟

فكان الأب يصيح بها وقد أولاها ظهره :

- إذن لا تنتظري مني أي شيء . . . والعتب على (الجفرة)!

وأضاف الملا شكر ، وهو يجول بعينيه الضائعتين في محجريهما العميقين على الحضور ليستقر بهما ، في النهاية ، على وجهي ، وكل ملمح فيه يوحي بأنه وصل إلى ذروة حكايته :

- وهكذا ، كان إسماعيل يسبح ، ذات يوم ، في عرقه وهو منهمك في تحريك (ميلين) ثقيلين[١] لحظة فوجئ بباب (الزورخانة) ينفتح على أثر الركلات التي انهال بها رجال (الجندرمة) عليه ليندفعوا داخلين حيث وقفوا مشدوهين على مبعدة أمتار منه ، متطلعين بانبهار إلى صدره الضخم ، وذراعيه المفتولتين ، وسرواله المزخرف بخيوط (الكلبدون)[٢] . ولم يتلكأ إسماعيل - وقد أدرك من فوره الغرض من قدومهم - في أداء تمرينه لحظة واحدة ، بل واصل تحريك (الميلين) رافعاً إياهما بالتناوب إلى ما وراء الظهر بحركات دائرية سريعة ، ثم قذفهما في الهواء ، والإمساك بهما من مقبضيهما دون أن يخطئ مرة واحدة . . . واستمر في أداء تلك الحركة ، حتى إذا ما اطمأن إلى أنه استحوذ على انتباه (الجندرمة) الذين كانوا يراقبونه فاغري الأفواه ، فاجأهم بأن قذفهم بأحد الميلين ليعقبه بالآخر ، قاطعاً من فوره المسافة

---

(١) الميل والسنك والكبادة : أدوات يستعملها الرياضيون في الزورخانة لأداء تمريناتهم .

(٢) الكلبدون : خيوط ذهبية تطرز بها الزخارف والنقوش على الأنسجة .

التي تفصله عنهم ، وقد انبطحوا على الأرض ، ليثب من فوقهم مجتازاً عتبة (الزورخانة) إلى الزقاق ليختفي بطرفة عين وسط زحام المحتشدين هناك من أبناء المحلة ، تاركاً رجال (الجندرمة) من ورائه يلملمون أطرافهم ليعاودوا الوقوف متبادلين بينهم نظرات دهشة!

ختم الملا شكر حكايته بإطفاء عقب سيجارته معلناً بذلك انتهاء جلسة ذلك المساء ، واستعداده للرحيل ، فجاراه الآخرون ، ونهضوا تباعاً تسبقهم طقطقة عظامهم الهرمة تاركين إياي إزاء معضلة البحث عن خاتمة لحكاية إسماعيل المبتورة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٢)

وهي حكاية لم أحسب حينذاك أنها ستغدو ، بتعاقب الأعوام ، بلا نهاية ؛ إذ بقيتْ تنمو ، وتتفرّع ، وتتشعّب بحسب الصيغ التي أتلقاها من رواتها لأصل بها بدوري إلى هذه الصيغة التي أحاول ترويضها بين دفتي كتاب ، كأنني أطمح إلى أن أضفي ختمي الشخصي على ما بقي ملْكاً مشاعاً للجميع : للناس ، للتاريخ ، وللمصادفات .

لقد انفضّتْ تلك الأمسية عن (شذرات) حكاية كانت تقتضي مرور عقود من السنين لتتحول إلى رواية قد تحمل عنوان (مقامات إسماعيل الذبيح) - هذا العنوان الذي أدين به للصحفي الدرزي كامل الأطرش الذي سبق له أن جعله عنواناً لسلسلة مقالات نشرها في صحيفته (اليقظة) - وبين تلك الحكاية وهذه الرواية ، سال فيض من المداد قبل أن تأخذ الحروف والكلمات صيغها النهائية ؛ فبرغم أن أصدقاء أبي واصلوا لقاءاتهم في (الديوخانة) على امتداد ليالي شهر رمضان ، متابعين تقليدهم المعهود بالإصغاء إلى نشرة الأخبار تبثها إذاعة (لندن) قبل أن يتصدّر الملا شكر الجلسة ، وبرغم تنقّلي الدائب بين الإيوان وتلك الغرفة ، حاملاً المزيد من إستكانات الشاي وفناجين القهوة ، بدت العودة إلى إكمال حكاية إسماعيل الذبيح ضرباً من محال ؛ فقد حدث ما حدث بفعل مصادفة ليس من اليسير تكرارها .

كما أنني كنت لا أزال صغيراً ، أتهيّب المجازفة بالطلب إلى الملا شكر القيام بذلك . وقد حاولت الاستعانة بأمي ، ولكنْ عبثاً ؛ إذ إنها كانت تبدو منهمكة بأشغال البيت ، لا وقت لديها لمثل هذه (الترّهات) .

وهكذا طويتُ صفحة تلك الحكاية معوّلاً على المصادفة لإعادة فتحها بشكل من الأشكال ، مكتفياً بمبادلة زملائي في المدرسة ما نعرفه منها دون أن ننسى ، حين نكون في طريق العودة إلى بيوتنا ، التوقف عند مدخل الزقاق الذي ينتهي بـ(زورخانة) محلة الدهانة التي كانت لا تزال قائمة ، متحدثين عن آخر أبطالها الحاج عباس الديك ، حتى إذا ما مرّ عامان أو ثلاثة حدث ما جدّد ذكرياتي عن إسماعيل الذبيح ؛ ففي ضحى يوم جمعة كنت في الحوش منهمكاً بإنجاز (واجباتي البيتية) استعداداً لبدء أسبوع دراسي جديد ، وقد استلقيت على بساط كنت أحس ، من خلال نسيجه الصوفي ، ببرودة الطابوق الذي يغطي الأرضية تتسرب إلى جسدي . وكانت العصافير تضج بصخبها المعهود بين أغصان السدرة الهرمة التي تعلو رأسي . وعلى مبعدة أمتار كانت أمي واقفة أمام التنور ، لا تكفّ راحتاها عن اصطفاقهما على أقراص العجين التي سرعان ما كانت تأخذ سبيلها إلى ذلك الأتون الملتهب حيث رائحة الخبز العبقة تفوح بقوة مستدرة اللعاب .

في تلك اللحظة ارتفع ، من الخارج ، صوت الدرويش يوسف الشجي الذي يأخذ بمجامع القلوب ، وهو يترنّم بمدائح بحق الأولياء ، والصالحين ؛ فقد كان من دأبه القيام بجولته الأسبوعية في مثل هذا الوقت من يوم الجمعة متلقّياً ، بالدعاء والعرفان ، ما تجود به ربات البيوت عليه ، فصاحتْ أمي بي طالبة مني الإسراع بمنحه رغيف الخبز

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المعهود ، وحينما وجدتني أتلكأ في الاستجابة لها أضافتْ بنبرة إغراء :

– ألا يهمّك أن تمنح الرغيف رجلاً أسهم مع إسماعيل الذبيح في الثورة التي أعلنها شريف مكة؟!

فسألتها ، وأنا أثب واقفاً :

– أيعقل أن يكون هذا الدرويش الأعمى أسهم مع إسماعيل في تلك الثورة؟

وحين أومأتْ أمي برأسها إيجاباً سارعت باختطاف الرغيف الساخن منطلقاً به نحو الباب الخارجي ، وأنا أتنقّل به من كف إلى أخرى لأتخلص منه بدسه في راحة الدرويش الذي سارع بدوره إلى إيداعه مخلاته . وبعدما تمتم بكلمات شكر رفع صوته بأشعاره المعهودة وقد أولاني ظهره مواصلاً تجواله ، على نقر عصاه ، بين عشرات الأزقة والدرابين المتشابكة بين جامع (المصلوب) وجامع (سراج الدين) في رحلة أسبوعية كنا نسمّيها رحلة الشتاء والصيف ، حيث كان يحط رحاله في الأول شتاء ، وفي الثاني صيفاً . وبقيتُ منتصباً عند الباب أتابع بعينيّ ظهر الدرويش ومخلاته المعلقة بإحدى كتفيه ، حتى إذا ما غاب خلف أحد المنعطفات أناب عنه صوته بالحضور ليتلاشى بدوره تاركاً إياي أتعقبه بمخيلتي هذه المرة ، وهو يذرع أزقة (صبابيغ الآل) و(الدهانة) و(القشل) و(الصدرية)[١] معوّلاً على عصاه في تجنيبه ما تصادفه من عقبات تتمثل بمجاري المياه الآسنة ، والأرصفة ، وعربات

(١) صبابيغ الآل ، الدهانة ، القشل ، الصدرية : محلات متجاورة تقع في جانب الرصافة من بغداد تتميز بطابعها الشعبي وكون غالبية قاطنيها من التجار والحرفيين وذوي الدخل المحدود .

الحمالين ، مستهدياً سبيله نحو بغيته ، دون أن يخطئ ولو مرة واحدة ، وكأن ثمة بوصلة تقبع في رأسه تقوده نحو الاتجاه المطلوب! .

حين قفلت راجعاً كانت أمي قد أنهت خبزها ، ودخلت المطبخ ، فتعقبتها لأعيد طرح سؤالي عن كيفية إسهام الدرويش في تلك الثورة برغم فقده البصر؟ فأجابتني متهكمة :

- وهل تحسب أمه ولدته أعمى؟

واستطردتْ موضّحة أن الدرويش كان واحداً ممن لازموا إسماعيل في أثناء تلك الأحداث العاصفة التي عمّت الحجاز وبلاد الشام ، ليعود بعد انتهائها إلى بغداد حيث أضحى ، على مدى أعوام ، نجم المقاهي ، والمجالس ، والدواوين ، لا عمل له سوى التحدّث بأخبار تلك الثورة ، حتى إذا ما تباعد الزمن بالناس عما جرى ، انفضّ الجميع من حوله ، وتُرك يجابه شيخوخة زاد فقده البصر من وطأتها عليه ، فاضطر إلى اتخاذ الدروشة مهنة له ؛ يستعطي ، عن طريقها ، لقمة خبزه .

- لكن صلتي بالدرويش لا تتخطى مناولته إحدى عطاياك كل يوم جمعة ، فكيف السبيل إلى إغرائه بأن يروي لي ما جرى لإسماعيل في تلك البلاد؟

أجبتُ أمي يائساً ، فسألتني ، وقد استهدفتني بنظرة منتبهة :

- أيهمّك أمر إسماعيل إلى هذا الحد؟!

ونصحتني ، وقد اشرأبّتْ على أطراف أصابع قدميها لتنزل قدراً من فوق أحد رفوف المطبخ العالية :

- في هذه الحالة عليك بأبيك ؛ فقد كان له دوره في تلك الأحداث ، والتقى إسماعيل آنذاك في دمشق .

تأملتها مستغرباً ليقيني أنها تدرك مثلي استحالة المجازفة بمفاتحة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أبي بأمر على هذه الشاكلة ؛ ذلك لأنه بقي أسير حياته العسكرية السابقة حين كان ضابطاً في الجيش العثماني ؛ يعاملنا دائماً باستعلاء وجفاء! .

وأردفتْ أمي حين وجدتني لا أحير جواباً :

– لم يبقَ أمامك إذن إلا الاستعانة بيحيى القبنچي ؛ فهو يكاد يلمّ بكل صغيرة وكبيرة تمتّ إلى ماضي إسماعيل بصلة .

يومها نعيتُ على نفسي مبلغ غبائي لأن هذا الأمر كان قد غاب عن ذهني ؛ فمن المعروف أن الخال يحيى – هكذا كان الجميع يلقبونه – كان في شبابه من أخطر منافسي إسماعيل على بطولة (الزورخانة) قبل أن يرتبط أحدهما بالآخر بصداقة غدت مضرب الأمثال .

عصر اليوم التالي توجهت إلى (العلوة) مطمئنّاً إلى أن الخال يحيى لن يبخل عليّ بما أريد ؛ فقد كان يؤثرني برعاية خاصة دونها رعاية الأب لابنه .

رابطتُ في (العلوة) وقتاً طويلاً أراقبه ، وهو يشرف على عملية الوزن : إذ كان اثنان من الحمّالين يتعاونان في تعليق الأكياس ، واحداً عقب الآخر ، بكلابة القبّان قبل أن يحملا عاموده من طرفيه تاركين للخال يحيى قراءة الوزن وهو يردد اسم الله ، هكذا استمر في عمله دون أن يوليني أدنى انتباه ؛ فلجأتُ إلى غرفة سهيل الخلف بعدما تأكدتُ من أن عملية الوزن قد تستغرق وقتاً طويلاً ، فاستقبلني الرجل من وراء مكتبه ، بابتسامة مرحبة ، ثم انصرف بعدها إلى تصفّح سجل يحمل عنوان (دفتر الذمم) وهو يقول :

– لو قيّض لشخص آخر غير أبيك أن يكون صاحب هذه (العلوة) لتوجّب عليه تصفية عمله بعد إلقاء نظرة عابرة على عدد المدينين

الذين يتهرّبون عن السداد بشتى الوسائل!

ومضى يعدّد أسماء تجار متوزعين في طول (الشورجة) وعرضها فاتت مواعيد تسديد ديونهم سواء أكانت أسبوعية ، أم شهرية ، أم بموجب كمبيالات . واستطرد ، وهو يغلي غضباً :

– والمصيبة أنني لا أجرؤ على تذكير أبيك بأسماء هؤلاء التجار ؛ ليقيني أنه لن يتورع عن ابتكار حجج وأعذار يسوّغ بها أسباب تهرّبهم عن السداد!

والحق أنه كان معذوراً في حذره وتردده بمفاتحة أبي بهذا الأمر ؛ فما أكثر ما جازف بمصارحته بذلك ؛ فكانت النتيجة ارتفاع صرخات أبي وقد خرج عن طوره معنّفاً إياه لتخطيه الحدود ، فكان سهيل الخلف يداري هزيمته حين انفراده بي قائلاً :

– على كل حال هو حرٌّ في تبديد ثروته على مجموعة مخادعين يحسبهم أصدقاءه ، وأنا الملوم لأنني أقحم نفسي في ما لا علاقة لي به!

وكان سهيل يعشق عمله كاتباً لـ(العلوة) ؛ ينصرف يومياً إلى تسجيل نشاطات ذلك اليوم في سجل بعنوان (دفتر الخرطوش) قبل أن ينتقل إلى (دفتر الصوافي) المخصص لصافي حساب البضاعة : تكاليفها ، وإيرادها ، وصافي حسابها ربحاً وخسارة .

هكذا عرفتُ سهيل الخلف آنذاك ؛ لا يكفّ عن التنقّل بين سجلاته ، مسدياً لي ، في الوقت نفسه ، النصائح بضرورة أن أضع العواطف جانباً حينما أحل يوماً ما في مكان أبي في إدارة (العلوة) . وكان يشفع نصائحه بأن يبسط أمامي سجلات (العلوة) واحداً عقب الآخر – كأنني ندّ له في معرفة أسرار تلك السجلات! – فيريني واحداً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منها يحمل عنوان (دفتر الصندوق) لأرى بنفسي حسابات الخارج والداخل من القاصة سواء أكان بشكل نقدي أم كمبيالات أم صكوك ، منوهاً بالجهود التي يُفترض به بذلها حرصاً منه على الحفاظ على رأسمال (العلوة) من التبدد . كما كان يدعوني إلى تصفّح سجل صغير كتب على غلافه (دفتر القبان) تُدرج فيه البضائع التي تباع بالوزن مثل السكر ، والصابون ، والدهن ، والبصل ، والبذور المستوردة ، وما شاكل ذلك ، لأتأكد أن مصير (العلوة) النهائي سيكون الخراب المحتوم لو أصرّ أبي على الاحتكام إلى عواطفه في إدارة عمله .

على تلك الشاكلة كان سهيل الخلف يمضي في تلقيني أصول التجارة غير مدرك أن السجل الوحيد الذي كنت أحبه من بين تلك السجلات هو (دفتر الكوبيا) ، الذي هُجر بعد شيوع الآلات الكاتبة ؛ فمنذ علّمني كيفية طباعة اسمي على ورقه الرقيق عن طريق (المنگنة) التي كانت تكبس الحروف بوساطة لولب ضاغط ، وأنا لا أملّ من طباعة الحِكَم وأبيات الشعر على أوراقه .

حين عدتُ إلى الباحة رأيتُ الحمالين يهرعون إلى حمل الأكياس إلى الخارج بعد انتهاء عملية الوزن . وكان الخال يحيى قد تهالك جالساً في موضعه على الأرض الإسمنتية العارية داعياً إياي ، بإشارة من يده ، إلى الجلوس قربه على أحد الأكياس :

- هيا أفصح عما يشغل رأسك ؛ فمرابطتك في (العلوة) طوال هذا الوقت ليست محض مصادفة .

وفاجأني بقوله إنْ كنت جئته للسؤال عن ماضي إسماعيل؟ وحين حركتُ رأسي إيجاباً مغالباً دهشتي لمعرفته بهذا الأمر ، أوضح ، وهو ينهل بتعطش الدخان من سيجارته ، أن أبي سبق له أن حدّثه ،

أكثر من مرة ، عن شغفي بماضي إسماعيل الذبيح . وطلب إليّ أن أحدّد الجانب الذي يهمني من ذلك الماضي ؛ فحكاياته لا تعد ولا تحصى شأنها شأن قصص ألف ليلة وليلة . . فأخبرته بالموضع الذي توقف عنده الملا شكر من الحكاية يوم قدوم (الجندرمة) لسوق إسماعيل إلى إحدى جبهات القتال في أثناء الحرب العالمية الأولى ، فتأملني لحظات من تحت حاجبيه الأشيبين قبل أن يقول :

- اسمع يا خال : إنْ كنت تنشد سماع ما أعرفه عن إسماعيل عليك أن توطّن نفسك على الحضور إلى (العلوة) كثيراً ؛ ذلك لان حكاياته لها أول ، وليس لها آخر .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٣)

منذ ذلك اليـوم بتّ أحـرص على التـوجـه إلى (العلوة) ، كلمـا سنحت لي الفرصة ، عقب عودتي من المدرسة ، مثيراً دهشة أبي لهذا الحـرص المفـاجئ على تعلّم (حـرفـة التـجـارة) غيـر مـدرك أن انفـرادي بالخال يحيى لشأن آخر لا علاقة له بالتجارة من قريب أو بعيد! .

والحق أنني أدين لتلك اللقاءات بمعرفة الكثير عن إسماعيل ؛ إذ إن الخال يحيى حرص على أن يحدثني عن ذلك الماضي معيداً ترتيبه بالشكل الذي جـرت فـيـه الأحـداث بادئاً بتـذكـيـري بأن اصطدام إسمـاعـيل المجلجل ذاك بالأتراك في (الزورخانة) كـان ثالـث اصطدام له بهم ؛ ذلك لأنه سبق له الاصطدام بهم مرتين أولاهما وقعتْ قبل ذلك الحادث بستة أعوام في وضع مختلف تماماً : ذلك لأن الفرحة كانت قد عمّتْ بغداد ؛ فقد فوجئ الناس ، ذات يوم ، بظهـور معالم الزينة على الدوائر الحكومية حيث رُفعتْ لافتات عريضة خُطّ عليها باللغة التركية (حرّيت ، عدالت ، مساوات ، أخوّت) ، فأشيع في بغداد أن جمعية (الاتحاد والتـرقّي) أجبـرت السلطان عبـد الحـمـيـد على إعادة العـمل بالدسـتور بعـد طول استـبـداد ؛ فأصبح المسلم وغيـر المسلم ، والتـركي والعـربي ، إخـواناً في الـوطن ، لا يفـضل أحـدهم على الآخـر بشيء ؛ فتلقّى الناس الخبر بين مستنكر ومتحمس : فالمتمسكون بأهداب الدين عـدّوا مـا حـدث خـروجـاً على الشـريعـة ؛ فـألّفـوا جـمـعـيـة سـمّـوهـا

(المشور)[1] جعلوا هدفها الدفاع عن الدين ، في حين كانت غايتهم الحقيقية الحدّ من نفوذ جمعية (الاتحاد والترقي) ، أما المتحمسون لما حصل فقد انتشوا فرحاً بالنصر ، وأخذوا يبالغون في الإعلان عن سعادتهم بمختلف الوسائل والسبل .

وتوترت الأوضاع بين الطرفين ليقع الاصطدام المرتقب بينهما إثر دخول جماعة من (الاتحاد والترقي) جامع (الوزير) الواقع قبالة (القشلة)[2] في أثناء صلاة العصر ، فاعتلى الشاعر معروف الرصافي كرسياً نُصب له في صحن الجامع ، وقرأ بياناً حزبياً ، كانت الجمعية في (سلانيك) قد بعثت به إلى فرعها في بغداد ، ثم انسحب مع جماعته مسبباً بإشعال فتيل الفتنة : إذ سرعان ما أشيع في الشوارع والأسواق أن الاتحاديين أهانوا الدين الإسلامي ، وأن الرصافي أسكت قارئ القرآن ، وأهانه ، من أجل قراءة بيانه ؛ فانطلقت التظاهرات في اليوم التالي تتقدمها الطبول ، لتطوف الحشود صارخة في الأسواق :

- الدين يا محمد!!

حتى إذا ما تم إخماد نار الفتنة عادت الحياة لتتابع مسارها على وتيرة جديدة شاع فيها إصدار عشرات الصحف ، كما انطلق الناس ، ولا سيما الشباب ، يشبعون نهمهم إلى ما كان محرّماً عليهم في عهد

---

(١) جمعية المشور : جمعية عراقية أسسها بعض الرجال البارزين بهدف الدفاع عن الشريعة المحمدية ومقاومة نفوذ جمعية الاتحاد والترقي .

(٢) القشلة : لفظة تركية تعني ثكنة ، وقد أطلقت على القلعة التي أنشأها الوالي العثماني الإصلاحي مدحت باشا بآجر سور بغداد العباسي لتصبح فيما بعد مقراً للولاة العثمانيين المتعاقبين على بغداد .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاستبداد مثل اقتناء الأسلحة التي أصبحت تُباع علناً في الأسواق ؛ فاقتنى إسماعيل بندقيته التي رافقته حتى وقوعه أسيراً بأيدي الإنكليز عقب انتهاء معركة الشعيبة . وفتحت أماكن اللهو والمجون للجميع ، حيث شرعت الراقصات ، والمغنيات ، الوافدات من تركيا ، وبلاد الشام ، ومصر ، يغنين علناً في أكثر من مقهى وملهى . وكانت الراقصة الحلبية (رحلو) الملقبة بـ(جرادة) في مقدمة الوافدات ، وسرعان ما أعقبتها (طيرة المصرية) و(فريدة استيتية) و(بهية الأنطاكية) و(شفيقة الشامية) و(زكية السدية) و(سمحة العوادة) و(جميلة خاتون) وبنات (لاطي) الثلاث (خانم ، وبديعة ، وشفيقة) . كما ذاع صيت (زكية زلط) و(ماري الرومية) و(ماريكة ديمتري) .

وكانت دور اللهو في منطقة (الميدان) في قلب بغداد ، تتقاتل من أجل التعاقد معهن ؛ فتنافس إحداها الأخرى في كسب الزبائن بالترويج لأحدث الأغاني الهابطة ، وأكثرها ابتذالاً ؛ ففي الوقت الذي ترفع فيه إحدى المغنيات عقيرتها في هذا المقهى صادحة بأغنية وسط ضجة الموسيقى :

(على البيبهْ على البيبهْ   خدّهْ رزْ ابحليبـــــهْ)

تتجاوب معها مطربة أخرى في مقهى مجاور وهي تغني :

(يا منتســـهْ يا منتسـهْ   يمْ عيـونْ الناعســـهْ)

في حين تجأر مغنية ثالثة في مقهى آخر صارخة :

(علزينو زينـــــو   أسمرْ ومكحّلهْ عينو)

وكان إسماعيل من المولعين بارتياد تلك الأماكن : لا يكاد يعود من عمله حتى يسارع إلى الاستحمام ، والتعطّر ، وارتداء أفضل ما يملك ، ليتجه إلى (الميدان) فيحط رحاله في مقهى (سبع) حيث تتثنّى

(رحلو) مسرفة في توزيع غمزاتها على جمهورها .

ذات يوم ، وبعد انتهائه من استعداداته المعهودة للخروج من البيت ، فوجئ بأبيه يعترض سبيله ليخاطبه ناصحاً :

- ألا يُفترض بك أخذ قسط من الراحة بعد عودتك من عملك المرهق عوضاً من إسراعك بالخروج؟

- وهل شكوت لك التعب يوماً ما يا أبي؟

سأله إسماعيل بدوره ، فلم يملك الأب إلا أن يقرّ ، مع نفسه ، صدق ابنه ؛ فهو مثال للصبر والتحمّل : ما عاد يوماً من عمله إلا وسلّمه أجرته لقاء الاحتفاظ بجزء ضئيل منها لنفسه . كما أنه لم يأنف عن ممارسة مختلف الحِرَف والأعمال التي تدرّ عليه الرزق في بلد محتل من قبل العثمانيين ، لا سبيل لأمثاله من الشباب إلى الحصول على لقمة العيش ألا بممارسة أشق الأعمال مثل العمل في صبغ الألبسة ، أو قص الطابوق ، أو تبييض القدور ، أو الندافة ، أو حياكة السلال ، والحصران .

- كن حذراً يا بني ؛ فثمة أماكن يصعب فيها تجنّب الاصطدام بأبناء السوء ، ولا سيما الأتراك ؛ فهم قوم جبارون لا يرحمون .

أردف الأب بنبرة مصالحة ، فردّ إسماعيل ، وقد اتخذ سبيله نحو الباب الخارجي :

- لقد كبرتُ بما فيه الكفاية ؛ فحق لي أخذ قسط من المتعة في زمن الحرية والمساواة .

لم يحر الأب جواباً وقد أسقط في يده ؛ فتعقّب ظهر ابنه العريض بنظرة غير مصدّقة أنه كبر فأضحى رجلاً! .

هكذا عرفه منذ صغره : عنيداً ، لا شيء يمنعه من تنفيذ ما ترسّخ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في ذهنه حتى بلغ الأمر به أنه أجبره ، وهو صبي ، على الرضوخ لرغبته القاهرة في التسجيل لدى (ملا) كان قد فتح مكتباً ، في جامع (المصلوب) القريب ، لتعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن .

واستدار الأب حوله بحثاً عمن يفرغ فيه غيظه ، فلم يجد غير زوجته المسكينة ؛ فصرخ فيها لعذر من الأعذار!

كان إسماعيل يحرص على أن يصطحب معه إلى المقهى بعض أصدقائه متكفلاً بالصرف عليهم من جيبه لقاء إحاطتهم إياه ، أمام (رحلو) ، بمظاهر التبجيل والاحترام ، محاولين إظهار خطورة شأنه . وكان يراقب ، مبهور الأنفاس ، راقصته المفضلة في تثنيها ، على المنصّة ، يميناً وشمالاً على وقع الموسيقى الصاخبة التي تتخللها صرخات الحشد المنتشي ، عارضة تكورات جسدها مقبلة ومدبرة ، موزعة غمزاتها على القريبين منها . وكان إسماعيل يسعى إلى أن يكون التخت الذي يجلس عليه مع رفاقه في المقدمة ليتمتع بمرأى معبودته الحلبية عن قرب ؛ فكان يصل مبكراً قبل أن يضيق المقهى بالحضور ، بيد أنه سرعان ما اكتشف أن التخوت المحيطة بالمنصة تكون محجوزة لمجموعة رجال يعتمرون الطرابيش الحمر دلالة كونهم من الأتراك ، فلا يجد مفراً من الاقتناع بأن يكون مجلسه خلفهم ، مكتشفاً زيف إحدى مفردات ذلك الشعار الذي لا تكفّ الدوائر الحكومية عن رفعه ، وهي (المساواة) .

من موقعه خلف أولئك الأتراك حاول إسماعيل ، ذات يوم ، الاستمتاع بمتابعة ما تقدمه راقصته ، ولكن دون جدوى ؛ فأمامه كان اثنان منهم يقرّبان ، بين لحظة وأخرى ، رأسيهما ليتبادلا حديثاً بصوت خافت في شأن لم يكن يمت بصلة إلى ما يجري في المقهى كما يبدو ؛

إذ ندر أن أوليا (رحلو) اهتماماً يذكر ، مسببين بطربوشيهما في حجب إحدى ساقيها عن إسماعيل تارة أو جزء من فخذها طوراً . . هكذا على مدى دقائق دفعتْ به في النهاية ، وقد نفد صبره ، إلى أن يمدّ يده ليربتَ على كتف أحدهما بمنتهى الرقة . وحين التفتَ التركي نحوه مصعوقاً نبهه إسماعيل ، بإيماءة من رأسه ، على ما يجري على المنصة معاوداً الربت على تلك الكتف بحركة مهدئة .

– عرب كلب . .أدب سيزا!

عوى التركي صارخاً وقد وثب واقفاً ، فعمّ المقهى صمت مطبق سمع إسماعيل في أثنائه أحد أصدقائه يهمس له محذراً من كون الرجل واحداً من المندوبين الذين بعثتْ بهم جمعية (الاتحاد والترقي) لأجل فتح فروع لها في العراق .

– اهدأ . . . اهدأ يا أفندي . لم أطلب منك ما يوجب هذا الغضب كله!

تكلم إسماعيل ، وقد وقف بدوره مدركاً أنه وضع نفسه في موقف لا يحسد عليه ؛ فقد استهدفته الأنظار من شتى أرجاء المقهى . وسكنت (رحلو) وسط جوقتها على المنصة في انتظار جلاء الموقف . وأمامه ، في الجانب الآخر من التخت ، أحاط الأتراك بزميلهم الغاضب رامقين إسماعيل بنظرات وعيد في انتظار أدنى إشارة للفتك به!

– اعتذر إليه .

همس له صديق آخر ، لكنه لم يجد مسوغاً للاعتذار ؛ ذلك لأنه لم يقترف ما يوجب الاعتذار . لم يبق أمامه إذن سوى الانسحاب . ولكنْ كيف ستنظر إليه (رحلو) إنْ أذلّ نفسه أمامها بهذا الشكل؟ كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الموقف قد تجاوزه ، فلم يبقَ أمامه سوى انتظار الخطوة التي سيقدم عليها التركي ؛ فراقب ، بذهن مضطرب ، ذلك الوجه المتورّد صحة وعافية ، وقد تجرد من كل ما يمت إلى الإنسانية بصلة ليقطر حقداً وكراهية واحتقاراً لإنسان لم يسبق له أن التقاه قط . وفجأة تكوّر شدق التركي الذي يعلوه شاربان مشمّعان مبروما الطرفين . وحين انفرج انطلقتْ منه بصقة أصابت إسماعيل في وجهه تماماً!

(٤)

جفلتُ لحظة سماعي الخال يحيى يحدثني عن ذلك التركي يبصق في وجه إسماعيل ؛ فقد صعقني أن يهان بطلي ، ودون سبب ، بتلك الطريقة الوضيعة .

- وكيف كان ردّ إسماعيل على تلك الإهانة؟

سألتُ وجسدي يرتجف غضباً ، فأجاب نافثاً مزيداً من سحب الدخان :

- وما الذي يسعه عمله يا خال وخصمه مسؤول تركي خطير الشأن محاط برجاله؟ ثم لا تنسَ أن ذلك كان دأب الأتراك : يستصغرون شأن العراقيين ، ويعدونهم أدنى منهم منزلة .

وأضاف مسوغاً ما جرى :

- كما يُفترض بك ألا يغيب عنك أن تلك كانت أول مرة يصطدم فيها إسماعيل بالأتراك ؛ حينها كان لا يزال فتيّاً لم يتخطّ الثامنة عشرة من عمره ، ولم يكن قد زاول المصارعة ليغدو ذلك البطل المشهور والمرهوب الجانب .

وسكت لحظات قبل أن يتابع محاولاً إعادة ترتيب الأحداث التي حصلت لإسماعيل آنذاك :

- كما قلت لك في بداية حديثي : لقد اصطدم إسماعيل بالأتراك ثلاث مرات وكانت تلك هي المرة الأولى ، ليصطدم بهم ثانية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بسبب قضية سارة خاتون ، تلتها محاولة سوقه إلى الخدمة العسكرية والحرب العظمى في ذروة اشتعالها والتي هجر بسببها مدينته بغداد .

وقبل أن يستأنف حديثه استدْرك معتذراً لما يعتور كلامه من اضطراب مبعثه طول الزمن الذي مر على تلك الأحداث ، فضلاً عن أنه سمع بتفاصيلها من أكثر من واحد من الرواة .

- كانت لحظات لا تنسى وإسماعيل يرى أصدقاءه وقد أمسكوا بيديه ساحبين إياه إلى الخارج ، وأحدهم يهمس له متوسلاً أن يهدأ ، وآخر يصيح بالحشد طالباً إفساح الطريق حيث العيون ترمقه بنظرات إشفاق!

واصل الخال يحيى كلامه متحدثاً عن إسماعيل حين ابتعد به أصدقاؤه عن ذلك المقهى ، إذ ما كادوا يقودونه إلى زقاق فرعي حتى عادت ضجة الموسيقى تنطلق من المقهى ليتردد معها من جديد غناء (رحلو) وكأن شيئاً لم يحدث! .

ظلوا يسيرون به صامتين تاركين إياه يرمق ، بعينين غشيتهما دموع القهر والغضب ، عابري السبيل ، وهم يلاحقونه بنظرات استهجان - ظناً منهم أنه ثمل! - متطلعاً إلى كل ما يمر به في ذلك الحي الذي كان من أحب أحياء بغداد إلى قلبه ، ملقياً عليه نظرة وداع ؛ إذ هيهات له أن يعود إلى ذرع تلك الأماكن بعد الذي حصل .

- شكراً على مساندتكم إياي ، دعوني الآن أكمل المشوار وحدي!

صاح إسماعيل بأصدقائه محرراً ذراعيه منهم بحركة عنيفة . وبعدما تأمّلهم بازدراء أولاهم ظهره ، وسار قدماً إلى الأمام دون أن يقوم بالتفاتة واحدة إلى الوراء . تسلل وسط الناس على غير هدى سائلاً نفسه إن لم يكن قد ظلم هؤلاء الأصدقاء؟ ألم يجنبوه مصيراً مجهولاً

محفوفاً بالمخاطر؟ لكنه عاد ليصرّ بأسنانه : فما أهمية المصير الذي سيكون في انتظاره بعد تلك البصقة؟

حين دخل البيت توجّه نحو غرفته متجاهلاً والديه اللذين استقبلاه بنظرات دهشة . نام تلك الليلة محموماً ليجفل فجراً مستيقظاً على صوت الأذان في الموعد الذي اعتاد التهيؤ فيه لمغادرة البيت إلى العمل . وحين تذكّر ما حصل عاد يواصل نومه المحموم دون أن يكفّ عن التقلّب في فراشه .

وكان والده يعمل جاهداً على إيقاظه ليعرف منه سر اعتصامه بغرفته حتى تلك الساعة ؛ فقد واصل ضجيجه في الجانب الآخر من الباب صارخاً بزوجته تارة لأنها لم تملأ له الإبريق قبل شروعه في وضوئه ، وطوراً لأنها تأخرت في تقديم فطوره ، وثالثة لأنها لم تعد قهوته كما ينبغي ، حتى إذا ما أعيته الحيل اقتحم غرفته متلمساً سبيله في الظلام نحو فراشه ليسأله بشكل مباشر إن لم يكن بصدد التوجه إلى عمله؟ فاكتفى إسماعيل ، وهو ينقلب على جنبه الآخر ، بأن أجابه بالنفي .

وعلى مدى ثلاثة أيام متلاحقة بقي مرابطاً في غرفته ، لا يغادرها إلا لقضاء حاجته ، مقيماً أوده بتناول لقمة أو لقمتين من أطباق الطعام التي كانت أمه تدخل بها إلى غرفته لتعود فتخرج بها بعد ساعات رامقة إياها بنظرات أسى لكونها لم تكد تمس . حتى إذا ما حلّ اليوم الرابع غادر البيت ليتوجه إلى عمله ، ولكنْ دون رغبة منه ؛ فبرغم إيمانه بأنه مُلزم بإعالة والديه ، إلا أنه كان يشعر ، في الوقت نفسه ، باستحالة تمكّنه من معاودة سيرته الأولى وكأن شيئاً لم يحدث . كان عليه أن يبرهن لنفسه قبل غيره ، في الأقل ، أنه قد تغيّر ، ولم يعد ذلك الشاب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البسيط الذي يتقبّل الحياة على علاتها .

وهكذا واصل مزاولة أعماله السابقة قسراً : يعمل يوماً لينقطع أياماً ، صامّاً سمعه عن التنبه لتشكّي أبيه لأمه من قلة ما يقدمه إليه من نقود ، فإذا ما أصيب بعارض برد أو بوعكة صحية مثلاً لازم فراشه أياماً كانت تتحول أحياناً إلى أسابيع ؛ فمرّت عليه مدة قاربت العامين وهو على تلك الحال يوم برّح به الحنين إلى ارتياد أماكن لهوه القديمة في منطقة الميدان ، بيد أن الغريب في الأمر هو أنه لم يكد يقترب من هناك ليُستقبل بضجة الأغاني المعهودة حتى فرّ كالملدوغ وقد تجسّدتْ في ذهنه تلك اللحظة الكريهة التي كان يجاهد لنسيانها حين انفرج فم التركي عن تلك البصقة التي أصابته في وجهه .

استدار ليجتاز ، بخطى متعثرة ، بضعة أزقة متشابكة أفضت به إلى محلة باب الأغا حيث البضائع معروضة بسخاء وبأشكال مغرية في الدكاكين والمتاجر المتراصة جنباً إلى جنب . واجتاز عقد الصخر في اتجاه رأس الجسر مراقباً بوجوم حشود الناس والعربات المتجهة نحو جانب الكرخ ، والقادمة منه . ومر بالمدرسة المستنصرية ليستريح قليلاً في مقهى الشط ، مراقباً باعة الصحف يتجولون في أرجاء المقهى محمّلين برزم منها ؛ فابتاع واحدة كيفما اتفق لينصرف إلى قراءة سطر من هنا وآخر من هناك ؛ ساعياً جهده إلى تحسين مقدرته المحدودة بالقراءة ، مصغياً ، في الوقت نفسه ، لهواة (الجالغي البغدادي)[1] وهم

(١) الجالغي البغدادي : الجالغي لفظة تركية تعني العزف على آلات موسيقية تتوزع بين الكمان والسنطور والدف . وقد تألف جوق موسيقي بغدادي بهذا الاسم في العقد الأول من القرن العشرين .

يتحاورون بينهم مرددين أسماء مطربي المقام المفضلين لديهم ولا سيما أحمد زيدان .

وكان قد انقضى أكثر من ساعة على جلوسه حين ألقى بجريدته برماً على الطاولة الملطخة بآثار أعقاب إستكانات الشاي ، وغادر المقهى متخذاً سبيله نحو شريعة المصبغة القريبة حيث أصحاب الزوارق يتسكعون بتكاسل هنا وهناك في انتظار الزبائن انتظار النوارس المحلّقة في سماء دجلة للأسماك التي تلوح لها من بين الأمواج . وفجأة تنبه إسماعيل لهم وقد اشرأبّوا بأعناقهم مثل مجموعة خيول سباق تتهيأ للانطلاق ، متطلعين بلهفة نحو ثلاث نساء سافرات الوجوه كنّ يقتربن من الشريعة ، وقد لفت كل واحدة منهن رأسها بغطاء ، رافلات بأزر مختلفة الألوان ، تتوسطهن واحدة بهرته ببياض بشرتها وسعة عينيها السوداوين اللتين مرت بهما عليه بنظرة عابرة لتتخطاه مخلّفة له رائحة عطرها النفّاذة .

وتجمّع أصحاب الزوارق حولهن ، وكلٌّ واحد منهم يحاول إغراءهن باختيار زورقه . حتى إذا ما فاز أحدهم بذلك أخذ الآخرون يشيعونه بنظرات حسد ، وهو يتقدمهن ، منحدراً نحو شاطئ النهر حيث زورقه كان في انتظاره وسط مجموعة زوارقهم المشدودة إلى الضفة .

ترى من تكون هاتيك النساء الفاتنات بوجوههن السافرة على غير المعهود بالمسلمات؟

سأل إسماعيل نفسه وهو يدنو متمهلاً من واحد من أصحاب الزوارق ليسأله ، على استحياء ، عنهن ، فعقد الرجل جبينه ، وضيّق عينيه ليسأله دهشاً إن كان حقاً يجهل من تكون تلك الفتاة التي كانت تتوسط صاحبتيها؟ وحينما أكد إسماعيل جهله صاح الرجل بأصحابه وهو يشير إليه :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- تعالوا واسمعوا هذا الفتى الذي يجهل من تكون سارة خاتون .

وتحلّق الرجال حول إسماعيل مبدين دهشتهم لكونه لا يعرف ابنة (أتوهانيس إسكندريان) الذي يكاد يملك نصف بغداد!

- وإلى أين اتجه بها ذلك الزورق؟

عاد إسماعيل يسأل ، فتبرع رجل آخر بالرد :

- إلى بيتها الكائن في محلة كرادة مريم .

وأضاف آخر :

- وهو واحد من جملة بيوت تملكها ، تتوزع بين الصابونجية ، ورأس القرية ، وأماكن أخرى .

- ومن أين كانت قادمة؟

جازف إسماعيل بالسؤال ، فأوضحوا له أن من دأبها القدوم ، من حين إلى آخر ، لزيارة عمتها في محلة رأس القرية أو لتؤمّ - يوم الأحد - كنيسة (كوك نزر) القائمة قرب منطقة الميدان ، لتعود بعدها إلى بيتها نافحة صاحب الزورق الذي يوصلها إلى هناك بسخاء .

بعد مرور أسبوع ، وفي صباح يوم الأحد ، قضى إسماعيل وقتاً طويلاً أمام المرآة لينهمك في حلاقة ذقنه ، ملقياً على بشرته المتوردة وعينيه الصفراوين الواسعتين نظرات رضا ، حتى إذا ما استحمّ وتعطّر ارتدى ثوبه الأبيض عاقداً على خصره حزامه الجلدي . وبعدما دسّ قدميه في خفين جديدين ، وأغرق رأسه في طاقيته ، ملقياً على إحدى كتفيه كوفيته ، غادر البيت متجها نحو شريعة المصبغة وهو متلهّف للقاء سارة . بيد أن اليوم مرّ دون أن يظهر لها أثر ؛ فعاد إلى البيت وقد صمم على معاودة المرور بالشريعة بين يوم وآخر على أمل أن يتحقق ذلك اللقاء ، حتى إذا ما مرتْ أيام أخرى حظي بمرأى سارة مجدداً وهي

تغادر أحد الزورق لتدرج مرتقية الجرف وفي رفقتها امرأة حيث رمقته بنظرة مصحوبة بابتسامة قبل أن تغيب وسط حشود الناس .

وقضى إسماعيل ساعات في انتظار عودتها ، مزجياً الوقت بتأمل بيوت الجانب الآخر لدجلة ، تعلوها مآذن المساجد هنا وهناك ، حتى إذا ما لمحها عائدة بصحبة صديقتها شعر بوجيب قلبه يتردد في صدره بإيقاع غريب ازداد سرعة حين رآها تتجاهل تزاحم أصحاب الزوارق من حولها لتتجه نحوه طالبة منه ، بصوت يذوب حلاوة ، إيصالها بزورقه إلى كرادة مريم ، فارتجّ الأمر عليه ، ولم يستطع النطق ، في حين ضجّ أصحاب الزوارق من حوله وهم يؤكدون لسارة أنه ليس أكثر من مستطرق!

عاد إسماعيل إلى البيت عند الظهيرة حزيناً محبطاً . وعلى مدى أسابيع لازم غرفته مفكراً بالوسيلة التي تكفل له الدنو من سارة دون أن يثير لغط الآخرين . وطوال تلك المدة كان يسمع أمه ، في الجانب الآخر من باب غرفته ، وهي لا تكف عن ترديد شكواها من أن المؤونة في البيت قد أوشكت على النفاد ، حتى إذا ما خرج من غرفته ذات يوم جابهته بسؤال مباشر إن كان سيظل مضرباً عن العمل؟ فسارع إسماعيل إلى اغتنام الفرصة مبدياً استعداده للعودة إلى العمل بعد شراء زورق له .

– شراء ماذا؟

تساءل الأب وفي ظنه أن سمعه قد خدعه ، فعاد إسماعيل يؤكد الأمر :

– زورق من تلك الزوارق التي يعمل عليها (البلّامة) على امتداد دجلة ناقلين الناس بين عشرات الشرائع المتوزعة على جانبي النهر لقاء أجور مجزية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التفت الأب نحو زوجته ليسألها وهو يبادلها نظرة دهشة :

- من الذي أوحى له بهذه الفكرة الغبية؟

وتابع متهكماً وقد التفت نحو ابنه مردداً مثلاً شعبياً :

- (سبعْ صنايعْ والبختْ ضايعْ)!

لكن ذلك لم يمنع الأب من مغادرة البيت صبيحة اليوم التالي ليعود بعد ساعات معلناً شراءه الزورق الموعود ، تاركاً إياه عند الشريعة يختضّ وسط زوارق أخرى تحت حراسة رجل كان قد أقام له كوخاً على الشاطئ ليقوم بتلك المهمة لقاء أجور شهرية .

ورفع صوته لكي يتناهى إلى سمع ابنه القابع في غرفته :

- ذاك هو الزورق على أهبة الاستعداد في انتظار من يشمّر عن ساعديه للعمل عليه .

(٥)

توجّه إسماعيل ، صباح اليوم التالي ، إلى الشريعة مبكراً ، وارتقى قاربه الجديد الذي كان يفوح منه مزيج من رائحة خشب الصاج ودهن السمك والطلاء . والتقط العصا ليغرز رأسها الملبّس بالحديد في الأرض ضاغطاً بكل قوته على الرأس الآخر الذي بين يديه ليبعد قاربه عن الشاطئ مودعاً من قبل أصحاب الزوارق الأخرى بنظرات ترقّب وانتظار مطمئنين إلى أنه لا مفر له من أن يستغيث بهم - وهو في أول عهده بالتجديف - لمساعدته في تحريك زورقه وسط صخب الأمواج الباعثة على الدوار . لكنه أولاهم ظهره تاركاً التيار ينحدر به ، حتى إذا ما نأى عنهم ، واطمأن إلى أنه أصبح أبعد من أن يتصيّدوا أخطاءه ، جاعلين منه مادة لسخرياتهم ، انصرف ، بكل جدية ، إلى معالجة المأزق الذي وجد نفسه فيه ؛ فقد اكتشف مرعوباً أن تصوّره المسبق عن سهولة التجديف محض هراء ؛ فقوة العضلات وحدها لم تكن تكفل له توجيه القارب نحو الاتجاه المطلوب ، بل كان ملزماً بالتحايل على حركة المياه ، وعلى التيارات الخفية المدوّمة في الأعماق ، والتي كانت تجرف القارب ، على غير توقع ، في اتجاهات لا تخطر في البال ما لم يسارع إلى تدارك الأمر محاولاً ترويض قاربه في تحرّكه العشوائي ترويض الخيّال لفرسه .

وعلى مدى أيام متلاحقة دأب إسماعيل على الانفراد بقاربه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسط أمواج دجلة شاعراً خلالها وكأن ثمة سكاكين تحزّ عضلات كتفيه وذراعيه ، إلا أنه وجد أن النتيجة التي انتهى إليها كانت تستحق تلك الجهود المضنية التي انسلخ بسببها باطن كفيه في أكثر من موضع ؛ فقد بات الزورق طوع حركة مجدافيه : يوجهه بهما بيسر نحو الوجهة المنشودة .

وهكذا بات إسماعيل يلازم قاربه : تراه صباح كل يوم وهو ينقل به الناس بين الشرائع وعيناه مصوبتان نحو شريعة المصبغة ، حتى إذا ما لمح ، ذات يوم ، سارة وهي تدنو من هناك بصحبة امرأتين بادرها هو ، هذه المرة ، بعرض خدماته عليها ، فسألته ، وقد تكور خداها ، وتلألأت عيناها السوداوان بنظرة باسمة :

– ما جدوى عرض خدماتك وأنت لا تملك زورقاً؟

– ذاك هو زورقي الجديد في انتظار تشريفك إياه بمقدمك!

أجابها وقد تقدمها هابطاً الجرف نحو الشاطئ يشيّعه أصحاب الزوارق الأخرى بنظرات حقد وكراهية . وقفز إلى زورقه ملتقطاً من داخله (الدواسة) الخشبية التي مدها بين حافة الزورق والشاطئ حيث ارتقتها الفتيات الثلاث ليتخذن مواضعهن في القارب ، متأملات بصمت إسماعيل ، وهو يعيد (الدواسة) إلى موضعها ليجلس بعدها بين المجدافين مواجهاً صدر الزورق .

أخذ يجدف بهدوء منحنياً بنصفه العلوي إلى الأمام غارزاً ، في الوقت نفسه ، المجدافين إلى أقصى مداهما ، ليعود إلى الوراء ساحباً إياهما في اتجاهه قبل أن يعاود الانحناء من جديد ، هكذا مضى ينساب بقاربه على وجه الماء مصحوباً بصخب النوارس ورائحة المياه الزنخة الثقيلة التي تكاد تكتم الأنفاس . ووسط إيقاع حركاته المنتظمة

كان يلاحظ ، بطرف عينيه ، الفتيات الثلاث ، وقد تجمعن على بعضهن ، متبادلات كلاماً هامساً ، تتخلله ضحكات مكتومة تأخذ بمجامع أجسادهن ، رامقات إياه ، بين لحظة وأخرى ، بنظرات خاطفة .

لم يكد يدنو من محلة كرادة مريم حتى أهابت به سارة لينحرف بقاربه يميناً موقفاً إياه إزاء سلّم حجري تلامس أولى درجاته المياه ليدرج صاعداً على امتداد الجرف المرتفع نحو حديقة خلفية عامرة بخضرة الأشجار والنباتات المتسلقة ، تشمخ ، إلى الوراء منها ، جدران قصر فخم .

– أريدك أن تنتظرني ، صباح يوم الجمعة ، في هذا الموضع لتحملني إلى شريعة المصبغة .

كلّمته سارة آمرة بعدما نقدته أجرته . وغادرت القارب في أثر صديقتيها ، في حين بقي إسماعيل يتأمل ذلك القصر لحظات متوقفاً بنظراته عند عش لقلق يعلو أحد أبراجه الشاهقة .

منذ ذلك اليوم بات إسماعيل رهن طلبات سارة : لا يحرّك قاربه بين شرائع نهر دجلة إلا بعدما يكون قد أوصلها إلى شريعة المصبغة ليلتقيها في الموضع نفسه بعد ساعات تكون قد تفقّدت خلالها أملاكها الموزّعة في شتى أرجاء بغداد فضلاً عن زيارتها لعمتها أو الكنيسة ، فيعود بها إلى بيتها في كرادة مريم مستمتعاً بتلك الرفقة الأنثوية الحافلة بحفيف الملابس الأنيقة ، ورائحة العطور ، والهمسات اللذيذة المصحوبة بضحكات ألذّ دون أن يطمح إلى ما هو أبعد عن تلك الرفقة ؛ ففضلاً عن كون سارة أرمنية ، وبالغة الثراء ، كانت بمنتهى الرصانة والوقار حينما يجد الجد : تستطيع بنظرة واحدة تحذير الطرف الآخر من تخطي الحدود . إلا أن إسماعيل كان ، في الوقت نفسه ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهو يجدف بكل قوته ، يستعيد الحكايات العديدة الدائرة حول بنات ملوك وأميرات عشقن فتياناً فقراء لا يكادون يملكون ثمن خبز يومهم ، فكان ينحني على المجدافين بكل ثقله مردداً بأمل :

- لم لا؟ فكل شيء جائز!

ذات يوم طلبت سارة من إسماعيل ، لحظة مغادرتها القارب وتحفزها لارتقاء درجات السلم عائدة إلى قصرها ، أن ينتظرها عصر الغد ، لحظة غروب الشمس ، في الموضع نفسه! . .

ما معنى هذا؟ ترى أهناك قصة غرام على وشك الحدوث فوق ظهر هذا القارب بين أرمنية بالغة الثراء وابن حمّال يكدّ نهاره وراء لقمة خبزه؟! .

بقي إسماعيل يهذي بذلك الكلام على امتداد ليلة مؤرقة أعقبها نهار طويل ما كادت شمسه تغيب حتى كان قد ركن قاربه عند السلّم الحجري في انتظار مقدم سارة التي سرعان ما ظهرت مشرقة الوجه ، تحيط بها جوقة نساء تمايل الزورق تحت ثقلهن .

كنّ في كامل زينتهن ، يرتدين ثياباً عجيبة لم يسبق له أن رأى لها مثيلاً ، ويتحلين بالذهب والمجوهرات ، وتفوح منهن روائح عطور نفاذة تبعث على الدوار . وكنّ يتحدثن بانطلاق عن الحفلة التي سيتمتّعْنَ بها الليلة .

جدّف إسماعيل بقاربه ، مقرّعاً نفسه لانسياقه وراء أحلامه الغبية التي لا تستدعي غير الرثاء ، متخذاً سبيله ، دون أن تكون به حاجة لإرشادات مَنْ معه ، نحو سفينتين راسيتين قرب الشاطئ وهما تسبحان في بحيرة من الأضواء وقد زينتهما الأعلام!

غادرت سارة ومن معها قاربه على مقربة من تينك السفينتين

طالبة منه انتظارهن هناك حتى انتهاء الحفلة . ومرت الساعات به ثقيلة ، وهو يجدف بقاربه محوّماً حول السفينتين اللتين سرعان ما ضجتا بصدح موسيقى وغناء رددت المياه أصداءها ، ولمح ، في حومانه بقاربه على غير هدى ، الرجال والنساء وقد أخذوا يتمايلون على سطح السفينتين في رقصات صاخبة جعلت حشود الناس تتجمّع على الشاطئ لتتفرج على ما لم يسبق لها أن رأت له مثيلاً في تاريخ بغداد .

وكان قد امتلأ ضجراً من الانتظار حين عادت الفتيات بعد مرور ساعات وهنّ في ذروة مرحهن ، يثرثرن ، ويتضاحكن معلقات بخبث عما جرى ، رامقات سارة بنظرات ذات مغزى مصحوبة بتعليقات ماكرة ، حتى إذا ما غادرن القارب بعد وصولهن إلى المكان المعهود خاطبته سارة طالبة منه ألا يمر عليها خلال الأيام القادمة وذلك لارتباطها بما سيشغلها عن الذهاب إلى الشريعة مدة من الزمن ، لكنها لم تنسَ أن تضيف وهي ترنو إليه بنظرة باسمة :

- بيد أن ذلك لن يعتقك من ضرورة وجودك قريباً منا ؛ فقد نحتاج إليك لأمر ما . . تزويدنا بالسمك مثلاً .

ومرّتْ بإسماعيل ليلة مضنية لم يغمض له فيها جفن ، وثمة فكرة واحدة تراوده بإلحاح من أن حدثاً على جانب عظيم من الأهمية قد وقع جعل سارة تتغير بهذا الشكل . حتى إذا ما مر يومان أو ثلاثة اكتشف سر ما حصل ؛ ففي مقهى الشط - حيث اعتاد الجلوس قبل توجهه إلى الشريعة - أخذ البغداديون يتداولون شائعة سرت بينهم سريان النار في الهشيم : فقد قيل إن والي بغداد ناظم باشا حضر تلك الحفلة الخيرية التي أُقيمتْ على ظهر السفينتين ليكون ريعها لبناء مستشفى الغرباء ، وإنه ذهل بجمال سارة وفتنتها ، فسعى ، على جلال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قدره ، إلى التعرّف إليها ، مبدياً لها إعجابه ، مسبغاً عليها عنايته لافتاً بذلك أنظار الحضور من قناصل أجانب وزوجاتهم فضلاً عن بعض الأسر المسيحية البغدادية!

ولم يكتفِ رواد المقهى بتداول تلك الشائعة ، بل أخذوا يبدون استهجانهم لرقص الرجال علانية مع النساء في مدينة يدين أهلها بالإسلام . وسرعان ما أضحى ذلك الحفل مدار مقالات نشرت في صحيفتي «صدى بابل» و«الرقيب» اللتين ناقضت إحداها الأخرى بين مؤيدة لإقامة تلك الحفلة كونها من سمات التحضّر ، وبين منتقدة لما وقع فيها من رقص وغناء يخلّان بالأعراف والتقاليد المتوارثة .

وكان لا بد من مرور بعض الوقت قبل أن تنجلي الأمور على حقيقتها : فحين كان إسماعيل يغادر المقهى إلى الشريعة القريبة كان يُجابَه بأخبار جديدة ؛ فأصحاب الزوارق كانوا يهرعون نحوه حال ظهوره ليتزاحموا حوله سائلين إياه عن آخر فضائح (صاحبته) ، وحينما لا يحير جواباً كانوا لا يتورعون - بدافع الشماتة دون شك - عن تزويده بتلك الأخبار ، زاعمين أن تلك الفتاة اللعوب لم تكتف بفضيحة إيقاعها والي بغداد الكهل في شباكها ، بل إنها عمدت ، بعد مرور أيام ، إلى طلب مقابلته ، حتى إذا ما جاءتها الموافقة ذهبت إلى قصره القائم على دجلة وبرفقتها عمتها صوفيا - من باب التمويه كما لا يُخفى على اللبيب - أما ما الذي جرى في ذلك اللقاء؟ فذلك ما يُفترض ألا يغيب عن العاقل ؛ فما الذي يُتوقع حدوثه بين والٍ ولهان صاحب سطوة ونفوذ وحسناء تسعى وراء المغامرة غير الأمر المتوقع حصوله بين الذكر والأنثى؟!

وهنا كان يعتور تلك الأخبار شيء من تناقض ؛ إذ لو كان الأمر

كذلك فما مسوّغ فرض الوالي رقابة مشددة على سارة خاتون تطورت أحياناً إلى ضرب من مضايقة شاع أمره بين الناس؟ فقد قيل إنها استيقظت صباح ذات يوم على قرع شديد على باب بيتها ، فلما أسرعت إلى إحدى النوافذ لتطل من خلالها رأت عدداً من رجال (الجندرمة) يسألون خادماتها عنها طالبين حضورها ، فهرعت من فورها ، وقد تملّكها الرعب ، إلى ارتقاء السلّم نحو سطح دارها لتجتاز السياج الواطئ الذي يفصلها عن سطح الدار الملاصقة العائدة للقنصل الألماني ، طالبة منه أن يحميها . ولم تمر سوى أيام حتى صدر قرار عجيب من الوالي يقضي بمنع أصحاب الزوارق من مساعدة سارة في تنقلاتها بين دارها وأطراف بغداد ، مكبلاً بذلك تحركاتها ؛ فمحلة كرادة مريم هي إحدى محلات بغداد النائية التي تبعد مسافة مديدة عن جسر بغداد الوحيد القائم قرب شريعة المصبغة مما كان يضطرها إلى الاستعانة بأصحاب الزوارق لمساعدتها في تنقلاتها الكثيرة بين جانبي بغداد ، وقد دفع صدور هذا القرار ببعض أصحاب الزوارق – ممن يتمسكون بأهداب الدين – إلى استغفار الله لما أشاعوه عن هذه اليتيمة المظلومة من أخبار كاذبة .

ولم يكن إسماعيل يكتفي بالإصغاء إلى هذه الأخبار المتناقضة ، بل كان يعمد – وبعدما يكون قد استوفى رزقه لذلك اليوم ضامناً بذلك رضا أبيه – إلى الانحدار بقاربه نحو كرادة مريم ، حتى إذا ما لاح له البرج الذي يعلوه عش اللقلق أخذ يحوم بقاربه قرب الحديقة الخلفية المطلّة على دجلة منتحلاً صفة صياد سمك منشغل بعمله .

كان يرى سارة أحياناً جالسة في حديقتها تلك ، تسرح ببصرها على امتداد المياه حين تعكس آخر أضواء النهار الراحل ، غير منتبهة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالتأكيد لسحر غروب الشمس قدر تنبهها للمأزق الذي تجد نفسها فيه .

كانت تبدو لإسماعيل معزولة عن الدنيا كلها ، غير مدركة أنها يكفيها أن تومئ له لينتهك دون لحظة تردد الحظر المفروض عليها ؛ إذ إنه كان يراها في تلك اللحظات ، برغم ثرائها الطائل ، ضعيفة ، وجديرة بالشفقة .

(٦)

عصر ذات يوم لاحظ إسماعيل دهشاً قارباً يقف براكبه عند درجات السلّم الحجري ، فالتقط مجدافيه ليدفع زورقه في ذلك الاتجاه محاولاً أن يخمّن من يكون هذا الرجل الذي ينتهك الحظر بمثل هذه الجسارة! .

بدا الرجل بملابس الأفندية ، يتلفّت حوله بقلق وهو يشد قاربه إلى جذع شجرة غرب قبل أن يرتقي الدرجات نحو الحديقة حيث تجلس سارة على كرسيها . ولم تكد تمرّ دقائق حتى ارتفعت صرخات استغاثة دفعت بإسماعيل إلى أن ينطلق بزورقه نحو السلم ليشدّ حبله إلى فرع صفصافة تكاد تمس بأغصانها المياه ، مجتازاً درجات السلم وثباً حيث لمح الرجل وهو يطارد سارة متقافزاً كالخنزير وسط شجيرات الورد ، والنباتات المتسلّقة ، قالباً ، في طريقه ، المنضدة ، والكراسي ، وأصص النباتات ، فاندفع إسماعيل نحوه ، وقد أعماه الغضب ، ليمسك به من الخلف . لكنه فوجئ به ينتفض لينفلت منه ، ويستدير نحوه صارخاً به ، وقد خرج عن طوره :

– من أنت؟ ومن الذي سمح لك بالتدخل في شؤوننا الأسرية ؛ فسارة ابنة عمي؟!

تجمّد إسماعيل في موضعه مصعوقاً ، وتنقل بعينيه بين الرجل وسارة المحتمية خلف جذع شجرة ، محاولاً أن يفقه سرّ ما يجري .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– إسماعيل . . . أدركني . . . إنه يحاول اختطافي!

صاحت به سارة مستغيثة ، فلم يشعر إسماعيل إلا وهو يعالج ذلك الرجل بلكمة محكمة التسديد جعلته يبصق دماً . وحين حاول الاندفاع نحوه ليأخذ بثأره عالجه بأن نطحه بضربة جبارة من رأسه جعلته ينهار بين قدميه مثل خرقة . حتى إذا ما مرت لحظات صاح الأفندي ، وقد أخذ يحبو على أربع مبتعداً عنه قبل أن يثب واقفاً :

– لن تتخلّصي مني بهذه السهولة ، وإسماعيلك هذا لا بد له من أن يدفع الثمن غالياً! .

فتعقبه إسماعيل متوعداً لولا أنه سارع بالهرب من حيث أتى ، فلبث إسماعيل واقفاً وسط الحديقة تحت أضواء القناديل الزيتية المعلقة هنا وهناك تتنازعه رغبتان متناقضتان : الانتظار بعض الوقت عسى أن تكشف سارة له سرّ ما حصل ، أو الإسراع بالعودة إلى قاربه تلافياً لتعقيد الموقف على نفسه لانتهاكه الحظر . وكانت الخادمات قد عاودن الظهور بعد زوال الخطر ، فانهمكت إحداهن بترتيب الكراسي حول المنضدة ، وأخذت أخرى تتفقد أصص شجيرات الورد التي تحف بالممر ، في حين انشغلت ثالثة بجرف شظايا الأقداح المحطمة وتجميعها في أحد الأركان استعداداً لرفعها فيما بعد . وغادرت سارة الموضع الذي كانت قد تحصّنت به لتدنو من إسماعيل صغيرة الحجم تستدر العطف والشفقة ، حاسرة الرأس ، تلملم على عجل شعرها في خصلة واحدة شدتها إلى الوراء ، داعية إياه ، بإشارة من يدها ، إلى الجلوس .

– أخشى أنني أقحمتُ نفسي ، من حيث لا أدري ، في نزاع أسري .

همس إسماعيل معتذراً ، وهو يتطلع عن قرب إلى هذا الوجه

الأبيض الذي تقاسمته عينان سوداوان واسعتان وفم وردي ملموم على نفسه .

– أي نزاع أسري وابن عمي دانيل كان قد قدم لاختطافي . . . ولمن؟ للوالي ناظم باشا . . . تصور!!

أجابته مستنكرة ، فخاطبها إسماعيل محذراً :

– أخشى أن يكرر الأمر ثانية .

فتساءلت سارة وهي تتأمله بعينين زادهما الرعب اتساعاً :

– أتظن ذلك؟

– ما الذي يمنعه عن العودة مجدداً ما دام مسنوداً من الوالي نفسه؟!

عاد إسماعيل يكرر تحذيره ، فبادلته سارة نظرة طويلة . ومرت لحظات وهي في حيرة من أمرها قبل أن تفصح عن عزمها على مغادرة البيت من فورها . وصاحت بالخادمات ليهيئن حقيبتها ، ثم خاطبت إسماعيل ، وهي تتجه نحو الباب الخلفي المؤدي إلى قصرها :

– سأستبدل ملابسي خلال دقائق ؛ فالأمر كما تقول : سيعاود الكرّة مجدداً .

لفّ إسماعيل كوفيته حول رأسه متلثماً بها وقد بقي وحده يصغي لصرير الجنادب الرتيب يتردد في أعماق الحديقة ، ونقيق الضفادع يتصاعد من النهر ، وثمة طائر بوم حوّم فوق رأسه دون صوت ليبدأ بإرسال نعيبه من أحد المواضع . وحين عادت سارة ، وفي أعقابها خادمة محملة بحقيبة ، قالت برجاء :

– أوصلنا إلى الشريعة ، ومن هناك سنتوجه إلى محلة رأس القرية حيث يقوم بيت عمتي صوفيا .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يكد القارب يشق سبيله في الظلام حتى شرعتْ سارة في الكلام :

– لو كنت أعلم بالنتيجة التي ستترتب على حضوري تلك الحفلة لتمنيت أن تشل ساقاي قبل أن أرتقي ظهر تلك السفينة المشؤومة .

شعر إسماعيل بها تحاول أن تفرج عمّا يثقلها من همّ ، فتركها تتابع كلامها مواصلاً تجديفه متطلعاً إليها وقد قبعت في الطرف الآخر من الزورق كتلة معتمة ، وبجانبها خادمتها .

ومضت سارة تحدثه عن مبلغ سذاجتها ؛ لأنها خُدعتْ بالوالي ، وهو يحيطها بظرفه ولباقته في تلك الحفلة ، فطلبتْ ، في اليوم التالي ، مواجهته متوهمة أنه سيعينها في انتشالها من براثن عمها (سيروب إسكندريان) الذي كان يستغل وصايته على الإرث الذي آل إليها بعد وفاة والدها فيسرقها على هواه ، غير مدركة أن الوالي (المتصابي) كان قد بيّتَ النية على الاستحواذ عليها بأي شكل من الأشكال ؛ فبرغم أنه وعدها بمساعدتها حين قابلته وبرفقتها عمتها صوفيا – وقد استدعى عمها صباح اليوم التالي آمراً إياه بتقديم كشف بمصروفات سارة وأموالها خلال أربع وعشرين ساعة – برغم وعده ذاك ، لكنه سرعان ما انساق لإغراء عمها الذي أقنعه بقدرته على جعلها تستجيب له لقاء إبقائه وصياً على إرثها ليسرق المزيد ، مجنّداً لتحقيق هذا الغرض الدنيء ابنه دانيل الذي زارها أكثر من مرة محاولاً أن يزين لها الأمر زاعماً تارة أن الوالي يريدها زوجة لسكرتيره الشخصي ، وطوراً له هو شخصياً ، وحين لم تستجب له عمد هذا اليوم إلى اقتحام بيتها وقد بيّتَ النية على خطفها .

لم تكد سارة تنهي كلامها حتى عمدت إلى الصمت ، ولم تتكلم

إلا لحظة انسحب صدر الزورق على الشاطئ :

- إسماعيل لا تسئ بي الظن ، ولا تصدق كل ما يثرثر به الناس ؛ فهم لا يرحمون .

ولبثت لحظات واقفة في الظلام ، والأمواج تتكسر بالقرب من قدميها .

- قد تكون هذه آخر مرة تراني فيها ، ولكن ثق بأنني سأظل مدينة لك ، وسأظل أتذكر وقوفك إلى جانبي ما حييت .

وغادرته وخادمتها المحملة بالحقيبة تسير في أعقابها ليغيّبها ظلام ليل بغداد الحافل بنباح الكلاب ، في حين بقي إسماعيل واقفاً في موضعه وقد خنقته العبرات .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٧)

لم يكد إسماعيل يقترب من مقهى الشط ، صباح اليوم التالي ، ليستريح بعض الوقت قبل أن يتوجه إلى الشريعة حتى فوجئ بالحارس المسؤول عن القوارب يعترض سبيله ليمسكه بأصابع راجفة من زنده ساحباً إياه إلى زقاق جانبي ليطلب منه همساً أن يبادر بالابتعاد عن هذا المكان ؛ فرجال (الجندرمة) صادروا قاربه ، وهم يجدّون في أثره بحثاً عنه!

لقد وشى دانيل به إذن! .

وفي طريقه إلى البيت فكّر بأن ما حصل أكبر من أن يستطيع التستر عليه بالاعتصام بغرفته ؛ ذلك لأنه لا مفر له من مكاشفة أبيه بشأن مصادرة الزورق .

ما سبب حصول هذا الأمر؟

ذلك هو السؤال الذي سيُجابه به ؛ إذ لا يعقل أن يعمد (الجندرمة) إلى مصادرة زورقه دون وجود سبب مقنع . وهكذا ، لم يملك إلا أن يصارح أباه بحقيقة ما حصل زاعماً أن بعض منافسيه على رزقه من أصحاب القوارب وشوا به عند (الجندرمة) فأخبروهم بانتهاكه الحظر المفروض على سارة خاتون .

– وما سبب انتهاكك لهذا الحظر ما دمتَ على علم مسبق بالنتيجة التي ستترتب عليه؟

فاجأه أبوه بهذا السؤال المفحم ، غير أن ذهنه سرعان ما تفتق عن جواب مقنع :

- لأنها كانت تدفع لي بسخاء .

وترك لأمه مهمة الإجهاز على بوادر ثورة كان أبوه في سبيله لتفجيرها ؛ فقد أخذت تنحي باللائمة عليه لأنه كان يشدد عليه مطالباً إياه بجلب المزيد من النقود مما اضطر الفتى المسكين إلى المجازفة بالإقدام على عمل من هذا النوع إرضاء له . وانفلت إسماعيل داخلاً غرفته مصغياً إليهما ، وهما يتجادلان في الجانب الآخر من الباب ، وقتاً طويلاً ، متبادلين التهم قبل أن يتنافسا في المزايدة على من منهما يحب إسماعيل أكثر وليذهب زورقه . . . إلى الجحيم!

رابط إسماعيل في البيت أسابيع في انتظار انحسار العاصفة التي أثارها دانيل ضده ، وثمة أمر وحيد يؤرقه يتعلق بمصير سارة خاتون ؛ فالدلائل كلها تشير إلى أنها مقبلة على فترة عصيبة بعدما تكالبت عليها أطراف متعددة سعياً منها لتحقيق مآربها على حسابها .

وحرص أبوه على ملاحقة أخبار تلك المسيحية اللعوب أولاً بأول ليبرهن لابنه إسماعيل أنه أدّى - دون أن يدري - دور مغفّل في (معضلة دولية) لم تكن فيها تلك القصة العاطفية بين سارة خاتون والوالي سوى أمر جانبي : فقد بات الأمر حديث المقاهي والمنتديات ، لا يكاد يمر عليه يوم يعود في خاتمته إلى البيت إلا ويكون محمّلاً بفضائح تلك الفتاة ؛ فالجميع يتحدثون عن أن جمعية (الاتحاد والترقي) - عقب فشلها في الانتخابات وتحوّلها إلى معارضة - وجدت في تلك الفضيحة خير فرصة للتشنيع على خصمها اللدود المنتمي إلى حزب (الحرية والائتلاف) الوالي المتصابي ناظم باشا الذي نسي خطورة مركزه فأخذ يركض وراء شهواته ونزواته المخجلة .

وجاء الأب ابنه ، ذات يوم ، بخبر أشيع في المقهى مفاده أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القناصل الأجانب - ولا سيما الإنكليزي والروسي - وجدوا في هذه الفضيحة أفضل وسيلة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية : فوقفوا إلى جانب سارة كونها مسيحية تعرضت لاضطهاد والٍ مسلم!

ولم تكد تمر أيام حتى صاح الأب لحظة عودته من المقهى :

- يبدو أن والينا الهمام يكاد يخرج عن طوره وذلك بسبب نجاح الخاتون في الهرب من بغداد!

- وكيف حصل ذلك؟

سأله إسماعيل مغالباً انفعاله بصعوبة ، فأجابه الأب وهو يتخفف من ملابسه قبل أن يجلس في مكانه المعهود في انتظار أن تأتيه زوجته بطبق الغداء :

- كانت (خاتونك) اليوم حديث الصحف ؛ فقد أخبرني عدد من أصدقائي من رواد المقهى أن أكثر من جريدة تطرقت بإسهاب إلى آخر أخبار هذه المسيحية التي كادت توقع بك لولا أن الله ستر!

ومضى الأب يحدثه عما ورد في تلك الجرائد في تعقبها تفاصيل ما جرى ، وكيف أن القنصلية البريطانية لعبت دوراً أساسياً في تهريبها من بغداد بعدما حثّتها على اللجوء إلى دير الراهبات الفرنسيات الكائن في (عقد النصارى) ، حتى إذا ما حل الظرف الملائم أوعزت إليها بالتسلل - وبرفقتها ممرضة إنكليزية وراهب إسباني - إلى باخرة من بواخر شركة (بيت اللنج)[١] ستكون في انتظارها في شريعة

(١) بيت اللنج : شركة ملاحية بريطانية أسسها الأخوان (هنري بلوس لنج) و(توماس كار لنج) عام ١٨٤٠ بعد قيامهما بمسح لمجرى نهر دجلة . وقد أسهمت هذه الشركة في ترسيخ النفوذ البريطاني في العراق ممهدة لاحتلال بغداد في الحرب العالمية الأولى .

المصبغة . وحينما اكتشف الوالي العاشق متأخراً الأمر كانت سارة قد أفلحت باللجوء إلى باخرة تحمل العلم البريطاني لا يحق للوالي اقتحامها دون إذن من القنصلية البريطانية ؛ فجنّ جنون ناظم باشا فبعث ببرقية إلى والي البصرة يطلب فيها منه إلقاء القبض على سارة لحظة وصولها إلى هناك ونزولها من الباخرة ، وإعادتها إلى بغداد مخفورة ، إلا أن والي البصرة لم يستجب لطلبه ؛ فقد كان على معرفة بقصة الغرام المجلجلة . وهكذا بات في وسع القنصل الروسي الفرار بسارة بقاربه ذي المحرك السريع ، والانطلاق بها إلى إحدى بواخر شركة الهند البريطانية التي نقلتها إلى (ألبو شهر) حيث بقيت هناك تحت رعاية مندوب الحاكم الملكي في الهند (السير بيرسي كوكس) مدة من الزمان قبل أن يبعث بها إلى بومباي .

لم تكد تمرّ أيام أخرى حتى جاء الأب مبشّراً ابنه بخبر مفاده أن جمعية (الإتحاد والترقّي) نجحت في عزل الوالي ناظم باشا عن ولاية بغداد فرحل مودعاً بالشماتة والسخرية من قِبَل مناوئيه ، والحزن والدموع من قبل محبيه . وعقّب رامقاً إسماعيل بنظرة ذات مغزى :

– لم يعد هناك الآن مسوّغ لترك العمل والاعتصام بالبيت .

فكان جواب إسماعيل ترديد أحد الأمثال الشعبية :

– (عرب وين؟ طنبوره وين؟) .

فصاح به أبوه ناهراً إياه ، فاعتذر إسماعيل مؤكداً أنه لا يسخر منه قدر حرصه على أن يبين له أن قضية سارة خاتون تخفي وراءها أموراً غامضة ستنكشف يوماً عما يعدّ في الخفاء!

صباح اليوم التالي غادر إسماعيل البيت مبكراً ، فالتفت الأب نحو زوجته ، وقد استبشر خيراً ، آمراً إياها بقوله :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أعدّي لوجبة الغداء أحب أصناف الطعام إلى قلب إسماعيل ؛ ذلك لأنه سيعود من عمله ، وهو يتضور جوعاً .

والحق أن إسماعيل عاد بعد ساعات ، وهو يسبح في عرقه ، ليلتهم ، بشهية مفتوحة ، ما وضعته أمه أمامه من طعام ، ثم استغرق في نوم عميق دون أن يدفئ يد أبيه بالنقود المنتظرة!

هكذا استمر إسماعيل يتابع أيامه على هذا المنوال صامّاً سمعه عن شكاوى أمه المعهودة بقرب نفاد المؤونة من البيت مما اضطر الأب ، وقد استشاط غضباً ، إلى إخراج (جندة) الحمالة القديمة عامداً إلى ترقيع المواضع الممزقة فيها دون أن يكف عن إرسال تمتماته الساخطة . وبعدما التقط (النوار) المعلّق على أحد الأوتاد غادر البيت صافقاً الباب وراءه بعنف ليستأنف عمله القديم حمّالاً في أسواق (الشورجة) .

واستمر الأب في ممارسة عمله الشاق ، مؤملاً نفسه بأنه لا يعقل أن تستمر الحال على هذا المنوال إلى الأبد . بيد أن الشهور تلاحقت وابنه سادر في غيه ، حتى إذا ما التقى الأب ، ذات يوم ، (مرشد) (زورخانة) الدهانة انكشف السر ؛ فبعدما بادله الأسئلة المعهودة عن الصحة والأحوال فوجئ بـ(المرشد) يهنئه على التقدم السريع الذي يحرزه ابنه البطل ، فسأله الأب دهشاً عن أي تقدم يتحدث؟ فأجابه هذا مستغرباً :

– التقدم في مجال المصارعة بطبيعة الحال!

حينها اكتشف الأب سرّ مغادرة ابنه البيت صباح كل يوم ليعود بعد ساعات ، وهو يسبح في عرقه ؛ إذ يبدو أنه استعاض عن عمله على زورقه الذي صودر منه بممارسة الرياضة في (الزورخانة)!

وأضاف (المرشد) محاولاً إفهام الأب مدى أهمية ابنه :

– لقد أصبح إسماعيل التلميذ المفضّل لصاحب (الزورخانة) يشرف بنفسه على تدريبه .

ذلك اليوم ، وهو ينقل البضائع من مكان إلى آخر ، لم يكن الأب يشعر بثقل ما يحمل قدر شعوره بثقل الخيبة الذي جثم على فؤاده ؛ فها هو ابنه الوحيد ، الذي رزق به بعد سلسلة بنات ما كدن يتزوجن حتى نسين أباهنّ ، ها هو ينصرف إلى ممارسة ضرب من هراء لا يعمد إلى ممارسته إلا البطرون . وكأي أب مفجوع بابن عاق كان يسارع إلى اغتنام أية فرصة تسنح له ليفرّج عن همه ذاك ؛ إذ لا يكاد أحد التجار يبادره بالسؤال عن ابنه حتى يندفع بإخباره بتركه العمل ، وانصرافه إلى ممارسة المصارعة ، متوقعاً من ذلك التاجر أن يشاركه في همه ، وكان ذلك ما يحصل ، لكن الغريب أنه كان يُفاجأ أحياناً بتجار آخرين يؤكدون له أن ابنه موضع فخرهم ؛ لأنه رفع رؤوسهم بين أبناء المحلات الأخرى . وكان إعجاب بعضهم بابنه يدفع بهم إلى عدم الاكتفاء بمضاعفة أجرته فحسب ، بل بمنحه هدايا مشفوعة بالطلب إليه إبلاغ إسماعيل تحياتهم! . . . وذلك ما كان يحيّره ؛ فما الذي دهى الناس ليولوا أمراً تافهاً كل هذا الاهتمام؟! . . سؤال طالما تمنّى طرحه على زوجته حين عودته إلى البيت لولا يقينه أنها ستكون غير معنيّة بالجواب قدر عنايتها بإحصاء عدد ما يحمل من هدايا تتمثّل بقطع قماش أو سلال فاكهة ، أو حفنات مكسرات!

لم تكد الشهور تتوالى حتى حدث ما جعل الأب يصدّق أن ابنه في سبيله إلى أن يغدو بطلاً ؛ فقد بلغ إعجاب تجار (الشورجة) بإسماعيل أنهم أنقذوه من الالتحاق بالخدمة العسكرية حين حلّ عليه الدور ؛ إذ دفعوا عنه البدل النقدي ، بل استثمروا نفوذهم وعلاقاتهم مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(ذوي الشأن) فتمكنوا من إعفائه من تلك الدورة التدريبية على السلاح!

وكان شغف إسماعيل بالمصارعة قد تخطّى شغفه القديم بارتياد مقاهي الميدان ؛ فلا يكاد يغادر (زورخانة) الدهانة إلا فيما ندر ، فتراه في طليعة زملائه يشاركهم في ممارسة التمارين اليومية على وقع طبلة (المرشد) وهو ينغّم ضرباته سارداً على مسامعهم أشعاراً حماسية ، ومقاطع من سير الأبطال الغابرين ، أمثال : عنترة ، والزير سالم ، وأضرابهما من الفرسان . وكما هو متوقع ، فسرعان ما أضحى إسماعيل ليس بطل (زورخانة) الدهانة فحسب ، بل بطل (زورخانات) بغداد كلها دون منازع ، يتساقط متحدّوه أمامه على (الجفرة) الواحد عقب الآخر بعد دقائق من بدء المباراة .

وكانت (الزورخانات) تتنافس على إقامة تلك المباريات ضامنة حضور حشود من المعجبين : إذ يكفي أية واحدة منها أن تعلن عن موعد تلك المباراة حتى يتم حجز المقاعد سلفاً ، ويكون تجار الشورجة ، وصبابيغ الآل ، والدهانة ، والقشل ، في مقدمة الحضور : يجازفون بالمراهنة على ابن محلتهم إسماعيل بمبالغ طائلة مطمئنين إلى أن بطلهم لن يخذلهم ، وذلك ما كان يحصل ؛ فلا يكاد الحَكَمُ يوقف المباراة بين المتصارعين معلناً فوز إسماعيل حتى كان مناصروه يندفعون نحو (الجفرة) ليعانقوه مغرقين وجهه بالقبلات ، سائلين إياه إن كان والده قد أبلغه تحياتهم؟ وهو سؤال كان إسماعيل يدرك أنه تنويه خجول بما يبعثون به إليه من هدايا كانت موضع مباهاة أمه .

واكتشف إسماعيل مذهولاً مقدار تعطّش الناس إلى وجود بطل مثله يستعيضون بانتصاراته عن إذلالهم اليومي على أيدي المحتلين ؛ إذ

يكفي أن يكون خصمه مصارعاً تركياً حتى تكاد حناجرهم تنشقّ وهم يشجّعونه مهيبين به أن يعمد دون تردد إلى (افتراس) التركي (الجلف) خلال لحظات ، وذلك ما كان يفعله ، ولكنْ ليس من فوره ، كما هو دأبه مع غيره من الخصوم ، إنما على مدى دقائق طوال كان ينفّس في أثنائها عن ذلك الإذلال الذي أُنزل بحقه ظلماً تحت سمع (رحلو) وبصرها : كان يتفنن في كيفية الإطباق على خصمه بإحدى يديه الفولاذيتين فيجعله يئن ألماً . حتى إذا ما انعكست الآية ، ووقع هو ضحية خصمه ، حبس الحشد أنفاسه هلعاً ليفاجأ ببطله ، بعد مرور لحظات مشحونة بالقلق والتوتر ، وهو ينزلق بجسده المخضل بالعرق كالسمكة من أسر خصمه لينقلب مطبقاً عليه بذراعيه ، فيطلق الجمهور المنتشي صراخاً جماعياً يهز جدران (الزورخانة) لتتردد الأصداء على امتداد محلة الدهانة حيث النساء القابعات في أعماق البيوت والأطفال المنتشرون في الأزقة يدركون أن بطلهم حقق انتصاراً جديداً معززاً بذلك حبه في قلوب الجميع ، هذا الحب الذي برهن على نفسه عملياً في ذلك اليوم الذي لا ينسى حين قدم رجال (الجندرمة) إلى (الزورخانة) لسوقه إلى إحدى جبهات الحرب ؛ إذ لم يكد إسماعيل يتخطّى العتبة واثباً إلى الخارج حتى احتضنه الحشد ، وأخفاه عن أنظار مطارديه . وبعدما كُسي بملابس لائقة ، وزوّد بالنقود ، ودّع من طرف محبيه ومعجبيه ، ليلاً ، باتجاه باب الطلسم .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٨)

لماذا اُختيرت الأحراش والبساتين القريبة من باب الطلّسم ملجأً يلوذ به الخارجون على السلطة العثمانية؟ أحدث ذلك بفعل مصادفة؟ أم لبُعد المكان عن سطوة الجندرمة؟ أم لارتباطه بأسماء مجموعة من العصاة المتمردين كانوا موضع إعجاب الناس وتبجيلهم؟ أسئلة لم تخطر للخال يحيى القبنچي دون شك في تلك الأيام التي كان ينفرد خلالها بي في (علوة الچلبي) ليحدثني عن إسماعيل ، وكيفية هربه من (الزورخانة) واعتصامه بذلك المكان ، كما أنها لم تشغلني آنذاك ، وأنا أغالب لهفتي ، لأعرف مصير بطلي الأثير . بيد أن تلك الأسئلة بدأت تخطر لي تباعاً بعد عقود من السنين حين باتت فكرة كتابة رواية عن إسماعيل أمراً لا مفر منه ؛ ففي خضم ملاحقتي لتلك الأحداث البعيدة لم أكتفِ باستثمار ما اختزنته في ذاكرتي أو بما كان يرفدني به الرواة - وأولهم كان الملا شكر يليه يحيى القبنچي - بل كان لا بد لي من أن أعزّز تلك الذكريات الغابرة بالاعتماد على مصادر تاريخية موثقة ومذكرات شخصية ، وسياسية ، وكتب في المأثورات الشعبية ، والفولكلورية : حينها تنبهت إلى تكرار ورود ذكر باب الطلسم مكاناً للجوء العصاة .

كان هذا الباب واحداً من أربعة أبواب بقيتْ شاخصة في السور الذي كان يحيط بجانب الرصافة من بغداد - هذا السور الذي هدم

بأمر من الوالي مدحت باشا ، فتحوّل موضعه إلى خنادق ومستنقعات بعدما دأب الناس ، على مدى عشرات السنين ، على استغلال آجرّه لبناء بيوتهم - وأول تلك الأبواب كان باب السلطان القائم في الجهة الشمالية من السور قرب القصر العباسي . والثاني هو باب الظفرية وموضعه شمالي السور الشرقي قرب ضريح عمر السهروردي ، وإلى الجنوب من السور نفسه يقوم باب الطلسم جوار منطقة باب الشيخ ، أما باب البصلية فكان يقع في السور الجنوبي بالقرب من نهر دجلة . بيد أن المشكلة التي جابهتني في تتبعي لتاريخ باب الطلسم تمثّلتْ بأن الأتراك كانوا قد عمدوا إلى نسفه عقب هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى ، وانسحابهم من بغداد ، فاختفى كل أثر له ، ولم يبق أمامي غير الاعتماد على ما ورد عنه في بطون الكتب من معلومات شحيحة .

كان الباب قد شُيّد على هيئة برج شاهق تنفتح في أعلاه وجوانبه مزاغل لرمي السهام . وعلى واجهته المطلّة على خارج بغداد كان ثمة عقد مقوّس يعلو مدخل الباب ، يستند طرفاه إلى أسدين حجريين مقعيين على طرفيهما الخلفيين فوق عمودين قصيرين ملتصقين بالجدار ، وفوق العقد ثمة نحت بارز يمثّل شخصاً جالساً بين ثعبانين ، وقد أمسك بلسان كل واحد منهما . وهناك كتابة تمتد بشكل شريط طويل في أعلى البرج ، ونصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم . هذا ما أمر بعمله سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على كافة الأنام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وحجة الله عزّ وجلّ على الخلق أجمعين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطاهرين ، ولا زالت دعوته الهاوية على يفاع الحق مناراً ، والخلائق لها أتباعاً وأنصاراً ، وطاعته المفترضة للمؤمنين أسماعاً وأبصاراً ، وافق الفراغ في سنة ثماني عشرة وستمائة ، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين) .

وكان باب الطلسم يتميّز عن الأبواب الثلاثة الأخرى باختيار السلطان مراد الرابع إياه ليغادر بغداد بجيوشه عن طريقه عقب احتلاله للعراق ، وقراره العودة إلى عاصمته أسطنبول . وحينما أصبح في الخارج أمر المهندسين والبنائين بسدّ مدخله بالآجرّ تيمناً ببقاء العراق تحت سيطرة الدولة العثمانية إلى الأبدّ! . .

وهكذا لم استطع الإفلات من الانسياق لإغراء إضفاء دلالة رمزية على اعتصام إسماعيل بذلك الباب المغلق الذي كان الأتراك يعدّونه أشبه بالختم الذي توّجوا به صكّ احتلالهم للعراق ، متتبعاً بعدها بطلي لحظة وصوله إلى هناك واكتشافه أن شهرته كانت قد سبقته في الوصول : فمنذ الأيام الأولى لحلوله في ذلك الموضع فوجئ بوجود معجبين به يحرصون على إحاطته برعايتهم واهتمامهم ، بادئين الأمر معه بتهيئة واحد من الأكواخ القائمة في أحد البساتين القريبة من الباب لاستقباله ؛ فقد طهروا أرضه من الأعشاب ، وكنسوها ، ورشّوها مكوّمين ، في جانب من الكوخ ، التبن كسرير للنوم .

وكان هناك معجب آخر : رجل ضئيل الحجم ، غريب الأطوار ، دائم التنقل بين بغداد وباب الطلسم ، لا يكاد يظهر محمّلاً بآخر الأخبار حتى يغيب ثانية بضعة أيام يعاود بعدها الظهور بأخبار جديدة . وكان يتجنب الاقتراب من إسماعيل مكتفياً بمراقبته من بعيد مختلساً إليه النظر من فوق حائط نصف متهدم أو من خلف جذع

شجرة ، حتى إذا ما التقت عيناه عينيه أدار رأسه جانباً بهيئة المنشغل بأمر من الأمور ، وحين سأل اسماعيل عنه ، أجابوه :

- إنه هلال أبو خمرة .

وأوضحوا له أن لقبه جاءه بسبب كونه ينحدر من عائلة تتولى سدانة تكية الشيخ محمد بن درويش الملقب بـ(أبو خمرة الهندي) .

- وهل هو هندي؟

سألهم إسماعيل ، فأجابوه مقهقهين :

- وهل هناك مجال للشك في ذلك؟!

وأكد أحدهم ضاحكاً :

- لا شك أن خيطاً من الدم الهندي تسرّب إلى دمه العراقي بسبب تلك الزيجات المتواصلة بين العراقيين والهنود الذين يولون مؤسس تلك التكية ضرباً من القدسية!

وكان هلال يبدو (نسخة عراقية) للنموذج الهندي المعهود : بشرة باذنجانية مائلة للزرقة ، وعينان شديدتا السواد ، وشعر دهني فاحم يعلو رأسه الصغير .

وحين أُخبر إسماعيل بأن هلال من المغرمين به ، يتحرق شوقاً لمصادقته ، تساءل مستنكراً :

- وما يمنعه عن ذلك؟!

فأوضحوا له ضاحكين أن تلك هي طريقة هلال في الاحتفاء بمن هم موضع إعجابه : التطلع إليهم من بعيد مراقباً إياهم في حركاتهم وسكناتهم ، ليقلدهم في لحظات الاختلاء بنفسه . وأوضح أحدهم مبتسماً :

- إنه من أكثر الناس حرصاً على متابعة أخبار أشقياء منطقة باب الشيخ والتشبّه بهم ، فلا يكاد يسمع بخبر حدوث جريمة قتل أو سرقة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حتى يحوم هنا وهناك سائلاً الناس إنْ لم يرد له ذكر ضمن المشبوهين؟ فيجارونه في زعمه ذاك ، مؤكدين أن رجال (الجندرمة) يجدّون في أثره بحثاً عنه ، فينفخ صدره وينتشى فرحاً وغروراً ، ويميل بطاقيته البيضاء نحو أحد حاجبيه ، مرخياً كوفيته على إحدى كتفيه بتلك الطريقة التي تُسمّى عند الأشقياء بـ(العدام) والتي تعني أن صاحبها في طريقه إلى الإعدام!

وأكمل آخر وسط ضحكات الجالسين :

– واعتاد أن يقضي اليوم كله ذارعاً أزقة باب الشيخ وقد جنّح ذراعيه الهزيلتين إلى جانبيه مبرهناً للجميع على خطورة شأنه ، ولكنْ ليس طويلاً إذ إن كبرياءه سرعان ما كانت تتبدد بحلول اليوم التالي ؛ فيأخذ في مراقبة الناس بتوجس : لا يكاد يلمح اثنين ، وقد انزويا بعيداً في أحد المواضع ليتبادلا حديثاً هامساً ، حتى يحسبهما يتحدثان في أمره ، ولا يبعد أن يكونا قد بلّغا (الجندرمة) بمكان وجوده ، فيقفل مبتعداً عن ذلك المكان متلفتاً إلى الوراء في انتظار لحظة إلقاء القبض عليه ، حتى إذا ما مضى اليوم دون أن يتحقق ذلك بادر بالتوجه تلقائياً صباح اليوم التالي إلى (القلّغ) ، مركز تجمّع (الجندرمة) ، طالباً لقاء مسؤولهم ليحلف له بأغلظ الأيمان أنه بريء مما نسبتْ إليه من تهم ظالمة لا أساس لها من الصحة!

على هذا النحو اعتاد هلال أن يقضي أيامه بين ادعاء بالإسهام في جرائم وهمية ، والاستماتة للتنصل منها إلى أن وقع له ما لم يكن في الحسبان : فمنذ عامين أُعجب بالشقي عباس السبع ؛ وبدأ يشيع بين الناس أنه بمثابة الذراع اليمنى لـ(عبّوسي) – هكذا من باب التبسّط والألفة! – لا يقدم على أمر دون مشورته . وكان ذلك الشقي

قد أصبح آنذاك طريد (الجندرمة) على أثر قتله واحداً منهم اسمه كدرون جاوش اشتهر بوطأته على الأشقياء الذين كانوا يحاذرون الاحتكاك به تجنباً لبطشه .

وصادف أن عباس وصديقه خماس المشهور بـ(ابن شاله) اتفقا ذات ليلة على السطو على بيت أحد الأغنياء . وقد تمّ لهما ما أرادا ، بيد أن سوء حظهما شاء لهما أن يصطدما ، عند انسحابهما ، بدورية من (الجندرمة) ، فصحا البغداديون تلك الليلة على أصداء العيارات النارية التي تبادلها الطرفان على مدى ساعات انتهت بنفاد عتاد عباس وصاحبه مما اضطرهما إلى اللجوء إلى مسجد فرج الله في محلة بني سعيد . إلا أن رجال (الجندرمة) تعقبوهما إلى هناك ليغتالوهما دون تردد عامدين بعدها إلى التمثيل بجثتيهما : فقد ربطوا كل واحدة منهما إلى حصان ، وسحبوهما والناس ، رجالاً ونساء ، يتراكضون خلفهما وقسم منهم يردد :

- (عباس السبع يا مطيّع التجار) .

فيجيبه القسم الآخر :

- (يهل الزود اطلعوا ثارت الجيلات) .

هكذا تعقبت الحشود تينك الجثتين الداميتين حتى منطقة السراي حيث تركتا حتى شروق الشمس . في اليوم التالي ، وقبل أن يتسنى لهلال الوقت اللازم ليسأل الناس إن كان قد ورد ذكر له ضمن المشبوهين ، فوجئ بمفرزة من (الجندرمة) تقتحم تكية (أبو خمرة) لتلقي القبض عليه بصفته أحد المتعاونين مع عباس السبع مودعة إياه السجن بضعة أشهر ، حتى إذا ما أنهى محكوميته ، وأُطلق سراحه أصبح من حقه اللجوء إلى منطقة باب الطلسم شأنه شأن الأشقياء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآخرين ، دون أن يقطع صلته بمحلة باب الشيخ التي يزورها من حين إلى آخر!

حكاية طريفة دفعت بإسماعيل إلى أن يبادر بالتودد إلى هلال مشجّعاً إياه على التقرّب منه ، حتى إذا ما نجح في ذلك فوجئ به يكلّمه ، ذات يوم ، وهو يتهرب بعينيه منه :

– أعلمُ بما يحدثونك عني . . . وعن الدم الهندي ، وما أشبه!

– وهل يزعجك ذلك؟!

– أبداً . . . فأنا أشعر بأنني عراقي .

– ذلك هو المهم ، لا الأصل والفصل .

أجابه إسماعيل مشجعاً ، فرمقه هلال بإحدى نظراته الخاطفة ليتأكد من جديته قبل أن يوليه ظهره مبتعداً عنه ليعاود مراقبته من بعيد . بيد أن إسماعيل لم ينهزم فقد واصل سعيه لترسيخ ثقته به ، حتى إذا ما تكللت مساعيه بالنجاح انفتح هلال له فأخذ يسعى إلى لقائه دون تهيّب أو خجل ؛ لا يكاد يمر عليه يوم لا يزوره في كوخه ليجلس عنده ساعات يمضيها عادة في تبادل أحاديث لا تخلو من ذكاء كانت تجعل إسماعيل يسأل نفسه عن حقيقة الرجل : أهو على شيء من سذاجة كما يُخيّل للآخرين؟ أم أنه في واقع الأمر ليس كذلك؟

كانت نقطة ضعف هلال الوحيدة تتمثّل بميله إلى الادّعاء وإحاطة نفسه بضروب من (بطولات) لم يكن أهلاً لها ؛ فقد كان مأخوذاً بعالم الأشقياء وما ينطوي عليه من عنف وتحدٍ .

– أسبق لك أن سمعتَ بالشقي محمود الملقّب بـ(مودي)؟

فوجئ إسماعيل ، ذات يوم ، بهلال يطرح عليه ذلك السؤال ، فسأله بدوره :

- (مودي) الذي لا يزال يلازم بيته منذ فقده البصر؟
- هو نفسه ،لكنه لم يكن قد فقد بصره آنذاك .

وطفق يحدثه بحكاية نسب بطولتها إلى نفسه برغم أن إسماعيل سبق له أن سمع بها أكثر من مرة ؛ فقد كانت متداولة بين الناس ، ومفادها أن (مودي) بعدما تاب عن السلب والنهب فوجئ ذات ليلة ، وهو في طريق عودته إلى بيته بعد قيامه بزيارة أحد أصدقائه ، بشقيّين يعترضان سبيله عند مروره بمقبرة اليهود قرب باب الشيخ آمرين إياه بمنحهما كل ما معه دون مقاومة ، ففرش (مودي) عباءته على الأرض ، وشرع في نزع ملابسه ، وهو يردد ضاحكاً :

- هذا هو شأن الدنيا : يوم لك ويوم عليك!

فعرفه الشقيان من صوته ، فانكبا على يديه مقبلين إياهما وهما يعتذران إليه لجهلهما من يكون . وختم هلال الحكاية بقوله :

- كنت أنا أحد ذينك الشقيين سواء أصدّقتني أم لم تصدقني!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٩)

ولم تقتصر صحبة إسماعيل على المعجبين به ؛ بل كان هناك المناوئون والمنافسون ؛ إذ لم تفت إسماعيل ملاحظة تلك النظرات التي كان عدد من الشباب يتعقبونه بها من بعيد محمّلين إياها بكل ضروب التحدي والوعيد . وكان يقود تلك المجموعة فتى أسمر ، مربوع القامة ، بالغ الوسامة ، يتميز بنظرات حادة تشدّ الانتباه على الفور .

كان ذلك الفتى لا يكفّ عن ملاحقة إسماعيل بعينيه موحياً إليه بشتى الوسائل والسبل أن الصراع بينهما أمر حتمي لا مفر منه ؛ فقد كان يفاجئه أحياناً بأن ينقضّ ، وعلى مرأى منه ، على واحد من المحيطين به ليصرعه ، خلال لحظات ، بالطرق والوسائل التي يتبعها المصارعون عادة . وبعدما يمدّ يده ليساعد ضحيته على النهوض لم يكن ينسى أن يرمق إسماعيل بإحدى نظراته الحادة ولسان حاله يقول : سيحلّ الدور عليك قريباً ؛ فالمسألة مسألة وقت . . لا غير!

كان اسمه جابر البنا ، بدأ حياته فتى مسالماً يُستعان به في بناء البيوت ذات الطابقين لما يتمتع به من قوة جبارة تمكّنه من قذف الطابوقات ، مهما تكن ثقيلة ، وإيصالها إلى يد البنّاء القابع على الحائط دون أن يخطئ قط . وكان قد اشتهر بحمل مشعل تُعلّق به عشرات الفوانيس ، يتعاون على حمله عادة بضعة رجال ، فيتقدم به موكب محلته في ليالي شهر محرّم حين تتنافس المحلات في إظهار

مبلغ حزنها في ذكرى استشهاد الإمام الحسين باللطم على الصدور . وحدث أن أحبّ إحدى بنات المحلة ، وخطبها من أهلها ، وتقرر أن يتم الزواج عقب انتهاء شهر محرم . لكنه فوجئ ، ذات يوم ، بأحد أشقياء المحلة يعترض سبيله آمراً إياه بفسخ خطوبته على تلك الفتاة . وحين سأله جابر عن سبب ذلك ، التفتَ الشقي إلى صحبه ليسألهم بدوره إنْ كانوا سمعوا هذا الكلام؟

وعاد يربت على كتف جابر ناصحاً إياه بالاكتفاء بحمل مشعله البائس وترك أمور الخطوبة والزواج لمن هو أهل لها ، فغادره جابر ، وقد أسرّ الأمر في نفسه ، حتى إذا ما تقدّم موكب محلته ليلاً ، وهو ينوء تحت ثقل مشعله ، اعترض ذلك الشقي سبيله مثنياً على حسن امتثاله لنصيحته ، مهيباً به المضي في هذا الأمر وذلك بترك أمور الخطوبة والزواج ، ففقد جابر السيطرة على نفسه ولم يشعر إلا وهو يصرخ بأعلى صوته ، ويدور حول نفسه كالمجنون بارماً المشعل بضع مرات قبل أن يقذف به فوق رأس ذلك الشقي الذي تحوّل إلى كتلة لهب كادت تجهز عليه لولا أنه أنقذ بمعجزة!

معلومات استقاها إسماعيل ممن كان يبادلهم أطراف الأحاديث في ساعات فراغهم - وما أكثرها! - حين كانوا يزجون أوقات العصر خارج أكواخهم متحلقين حول سلة تمر أو زنبيل يحتوي على صنف من صنوف الفواكه التي كان من دأبهم جلبها من البساتين القريبة ، لينهمكوا في ازدرادها مراقبين الشمس لحظة غروبها حين تتخاطف الخفافيش فوق رؤوسهم بطيران صامت تاركة الضفادع تنوب عنها في التفنن في إرسال نقيقها الصاخب على أطراف المستنقعات القريبة حيث كل شيء يتلوّن باحمرار الدم وكأن ثمة حريقاً كونياً شبّ في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجانب الآخر من الأرض ، ذلك الجانب الذي يحشد كل قواه لخوض حرب ستطبق بخناقها على مدينتهم الحبيبة بغداد . . . بغداد المستسلمة لقدرها على مرمى البصر .

ذات يوم فوجئ إسماعيل بجابر يترك المحيطين به ليدنو منه بحركة كلها عزم وتصميم على تصفية ما بينهما من حساب . وقف فوق رأسه ، فربت إسماعيل على جذع النخلة المقطوع والمركون على الأرض ، والذي كان يجلس عليه ، داعياً إياه إلى مشاركته في الجلوس .

– لم أقدم لأزجي ساعة العصر معك كالعجائز ، بل لأتحداك في لوي الذراع!

أجابه جابر وقد انحنى ليحدد بطرف سبابته على الأرض دائرة . وبعدما اضطجع على جنبه ثنى ذراعه اليمنى ، وقد ثبّتَ مرفقها وسط الدائرة مفرداً أصابعها الغليظة بهيئة تحفز وانتظار .

– وما حاجة أحدنا إلى لوي ذراع الآخر ونحن مطاردان من أعدائنا ، لا أرض تُقِلنا ولا سماء تُظِلُّنا؟

سأله إسماعيل معاتباً وقد نهض ماداً إليه يده . فتأمّله جابر لحظات وقد احمرّ وجهه خجلاً قبل أن يناوله بدوره كفه ويثب واقفاً وهو يقول :

– لعل أيام المطاردة أوشكت على الانتهاء بفضل هذه الحرب التي ورّطتِ الدولة العثمانية نفسها فيها .

– يبدو الأمر كذلك ؛ فمنذ شهور والصحف لا تكفّ عن التنوّيه بأن أوربا تجد في الدولة العثمانية الرجل المريض الذي ينبغي وضع حدّ لحياته!

أجابه إسماعيل وقد تذكّر تلك الضجة التي أثارتها الصحف حول قضية سارة خاتون .

وتابع بمرارة :

– لن يحزنني أبداً المصير الذي تسوق هذه السلطنة نفسها إليه ؛ فقد وقعتُ ثلاث مرات ضحيتها دون ذنب جنيته بحقها ؛ وها أنا الآن متحصّن مثلك بباب الطلسم هرباً من الجندرمة الذين حاولوا سوقي إلى إحدى جبهات الحرب على أثر إعلان النفير العام الذي يقضى بسوق حتى من سبق له دفع البدل النقدي!

منذ ذلك اليوم بات من المألوف مشاهدة الاثنين معاً – وفي رفقتهما هلال في الغالب – لا يكادان يفترقان إلا في ساعة متأخرة من الليل ، ولا حديث يتبادلانه إلا حديث هذه الحرب المخيفة التي أقحمت الدولة العثمانية نفسها فيها بوقوفها إلى جانب ألمانيا ، واحتمال أن يصبح العراق أحد ميادين القتال .

وبقي هلال ، طوال تلك الفترة ، في رواح ومجيء بين بغداد وباب الطلسم ، مزوداً إياهما بآخر أخبار الحرب . حتى إذا ما مرت أيام حفلت بهطول أمطار شديدة عاد هلال من إحدى زياراته الدورية إلى بغداد وكل ملمح فيه يوحي بأنه محمّل بأنباء بالغة الخطورة ؛ فقد بدا منفعلاّ ، لا يستطيع السيطرة على نفسه ؛ إذ لم يكد أحد مستقبليه يسأله إنْ كان يحمل أخباراً عن أهله؟ حتى صاح به ، وقد اشتعلتْ عيناه السوداوان غضباً :

– أية أخبار تريد أن أحمل عن أهلك والقيامة قائمة في بغداد؟!

وحين تأفف الرجال ضجرين طالبين منه الكف عن مبالغاته التي لن يخدع بها أحداً ، عاد يصيح وقد خرج عن طوره :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– بغداد مهددة بالغرق خلال ساعات بعدما تصاعد منسوب المياه في دجلة بشكل لم يسبق له مثيل ، وأنتم تحسبونني أبالغ في كلامي؟!

وانتظر لحظات قبل أن يضيف مستمتعاً بإرعابهم :

– وهناك الإنكليز الذين أنزلوا جنودهم في الفاو . . بل يُشاع أنهم موشكون على احتلال البصرة!!

فاستعاذوا بالله ، وزجروا هلال منبهين إياه على أنه بالغ في تجاوز الحدود هذه المرة ، لكنه طلب منهم التريث والاستماع إليه لحظات قبل الإسراع بالحكم . واستطرد موضحاً أن ثمة برقيات استغاثة وصلت من البصرة إلى علماء الدين تُليتْ على الناس في الجوامع ، ونادى المنادون بها في الأسواق ، وأخذ الوعّاظ والخطباء يلهبون المشاعر بخطبهم الحماسية مؤكدين أن الإنكليز سيعمدون ، عند احتلالهم العراق ، إلى هدم مساجده وعتباته المقدسة ، وأنهم سيحرقون القرآن ، وينتهكون الحرمات ، ويذبحون الأطفال والشيوخ!

وأخبرهم بنشوء حركة للجهاد في مختلف المدن العراقية – ولا سيما في العتبات المقدسة – لحماية البصرة من الاحتلال ، وأن مجموعة منهم بزعامة أحد علماء الدين قد توجهت إلى مدينة السماوة قبل أيام ، وأن هناك مجموعات أخرى من مجاهدي الكاظمية وبغداد ستتوجه إلى ساحة القتال قريباً .

اضطرب الرجال لتلك الأخبار ، وكبّر أكثر من واحد منهم معلناً استعداده للانضواء تحت راية هذه الحركة المباركة ، في حين أبدى آخرون شكّهم بأن ما سمعوه من هلال لا أساس له من الصحة ؛ فالرجل معروف بشطحاته التي لا تعرف التوقف عند حدٍّ . واقترح فريق ثالث الانتظار أياماً للتأكد من صحة تلك الأخبار .

(١٠)

في تلك الليلة هبّوا من نومهم فزعين على صرخات استغاثة وهلع تنطلق من البيوت البعيدة تعلوها أصوات المؤذنين تدوّي من المآذن داعية الناس إلى القدوم إلى الجوامع لأداء صلاة الخوف . وعلى مقربة منهم كانت المياه تهدر في الظلام مكتسحة ما يعترض سبيلها ، فغادروا أكواخهم فزعين ليتجمعوا في مقبرة اليهود ، في حين لاذ قسم آخر منهم بمقبرة الغزالي ، حتى إذا ما أشرقت شمس اليوم التالي تبيّن لهم صدق هلال هذه المرة ؛ فقد فوجئوا بالمياه الغرينية ، وقد استولت على أطراف بغداد ؛ فأينما مدوا البصر رأوا الأمواج المزبدة تواصل تدفقها مكتسحة كل ما يعترض سبيلها ، مخلّفة وراءها التلال والمرتفعات شاخصة هنا وهناك ، فبات المكوث وسط تلك المقبرة الموحشة التي غمرت المياه أطرافها ، تاركين أسرهم لمصيرها المجهول في تلك المدينة المنكوبة ، ضرباً من المحال ؛ فأعلن أكثر من واحد منهم نيته في العودة إلى بيته مهما تكن النتيجة .

فحذرهم إسماعيل قائلاً :

– تذكّروا أنكم لا تزالون تعدّون ، بنظر السلطات ، من الخارجين على الدولة ؛ إذ إن أغلبكم من الهاربين من الخدمة العسكرية ، وقد يلقى القبض عليكم بهذه التهمة .

فصاح أكثر من واحد مستهيناً بذلك قياساً بمحنة أطفالهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأسرهم المهددين اللحظة بالغرق . وسفّه أحدهم خشيتهم من ملاحقة السلطة لهم بقوله :

– الدولة مشغولة الآن بالتصدي للإنكليز لا بمطاردة أمثالنا .

وأفصح أكثر من واحد عن عزمه العودة إلى بيته حال انحسار السيل ؛ فسأل إسماعيل صديقه جابر عن القرار الذي ينوي اتخاذه؟ فأجابه هذا من فوره :

– سأنضمّ إلى حركة المجاهدين لا حرصاً مني على السلطنة العثمانية التي لا أثمّنها بقِران واحد ، بل لأنجو بنفسي من ملاحقة الجندرمة الذين لن يغفروا لي طبعاً إلقائي المشعل فوق رأس خصمي محيلاً إياه إلى كتلة لهب .

– أما أنا فلا أكتمك يا جابر أنني في حيرة من أمري : كيف لي الدفاع عن سلطة ناصبتني العداء دون مسوّغ؟

وأردف بعد لحظات صمت :

– ولكنْ يبدو أنه لا مفر لي من أن أقتدي بك متجنّباً بذلك مطاردة رجال الجندرمة إياي سعياً منهم لسوقي إلى إحدى جبهات الحرب .

لم تكد الشمس تميل غرباً وتنحسر مياه السيل من حولهم بعض الشيء حتى انطلق العديد من المعتصمين بباب الطلسم متخذين طريق العودة إلى بيوتهم .

– تأكد يا إسماعيل أن هذا هو آخر عهدنا بهؤلاء الرجال ؛ فما من مجنون منهم سيقتدي بي أو بك بالانضمام إلى حركة المجاهدين .

علّق جابر متهكماً وهو يشير إلى الرجال الذين كانوا يتسابقون مهرولين وسط الأوحال في اتجاه المدينة ، فأجابه إسماعيل ضاحكاً :

- يكفيني وجود مجنونين بينهم هما أنا وأنت .

فصاح هلال الذي كان يجري على مقربة منهما :

- وهناك مجنون ثالث هو أنا . . . أنسيتما ذلك؟!

حينما أمسى إسماعيل وحده بعدما تفرق الرجال من حوله تلثّم بكوفيته ، وتسلل في الظلام نحو محلة الدهانة . كانت الأزقة التي مر بها خالية من البشر ، وأبواب الدور مطبقة على أصحابها ، وما من أثر يدل على الفيضان غير سدود ترابية واطئة أحيطت بها عتبات غالبية البيوت تحسباً من تسرّب المياه كما يبدو ، فداخله شيء من الطمأنينة على والديه ؛ فمحلتهم كانت بمنأى عن السيل .

طرق الباب طويلاً قبل أن يفتح له أبوه . تقابل الاثنان يتأمل أحدهما الآخر لحظات ، وهما في حيرة من كيفية معالجة الموقف ؛ إذ لم يسبق لأحدهما أنْ كاشف الآخر بعواطفه .

- مَنْ؟ إسماعيل؟

صاحت الأم منقذة الموقف . وفي ضوء الفانوس المعلق على الحائط بدتْ ، بفوطتها السوداء المحيطة بوجهها تعلوها عصابتها المعقودة عند مستوى الحاجبين ، وقد ازدادت شيخوخة ونحولاً برغم أن إسماعيل لم يغب عن البيت سوى شهور .

- حمداً لله لأنك عدت أخيراً . لقد أعلمني قلبي بذلك ؛ فأبقيت عشاءك ساخناً على الموقد .

تمتمت أمه وهي تتقدم منه مصطدمة ، لفرط انفعالها ، بعشرات الأشياء ، حتى إذا ما دنت منه أحاطت عنقه بذراعيها مغرقة وجهه بالقبلات ، في حين صاح والده وهو يعاود إطباق الباب :

- يبدو أن قلبها لم يكف عن إعلامها باحتمال هذه العودة لحظة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واحدة ؛ فقد اعتادت إبقاء عشائك ساخناً على الموقد كل ليلة!

واتخذت جلستهم حول طبق العشاء طابعها الحميم الذي طالما افتقده إسماعيل ؛ ففي الوقت الذي كانت فيه أمه تتابعه بنظراتها الحانية ، وقد أراحت خدها المترهل على كفها متحفزة لتلبية ما تستجد لديه من حاجة - طاسة ماء ، أو رغيف خبز ، أو رأس بصل ، أو قليل من الملح - كان أبوه لا يكف عن الحديث عن الحرب التي لم يتوقف تأثيرها على إزهاق الأرواح فقط ، بل تخطاه إلى مضاعفة الأسعار عشرات المرات ، فضلاً عن ظاهرة شحة المواد الغذائية في الأسواق . وعلى غير توقع بادر ابنه بسؤال مستفز عن مغزى عودته الآن؟ فأجابه إسماعيل وهو يلاحظ نظرة الاستياء التي خصت بها أمه أباه :

- عدت عازماً على الالتحاق بحركة المجاهدين .

- في هذه الحال ما كان سبب فرارك من (الجندرمة) حين قدموا لإلحاقك بالرديفية العسكرية؟ كان يكفيك أن توفّر على نفسك هذا الجهد منذ البداية .

- الأمر مختلف يا أبتاه ؛ فحينها كانوا سيبعثون بي إلى إحدى جبهاتهم النائية في (قفقاسيا) أو (وان) أو (أرضروم) . . أو ما لا أدريه ، في حين أنني الآن جئت مخيّراً لا مجبراً وستكون وجهتي مدينة البصرة العراقية .

فعلق والده بمرارة :

- أخشى أن تكونوا قد تأخرتم بعض الشيء في محاولتكم حماية هذه المدينة من الاحتلال ؛ فقد عوّدنا العثمانيون على التحفّز للعمل بعد فوات الأوان .

بدا ذلك الكلام أشبه بنبوءة سرعان ما تأكد إسماعيل من

تحققها ؛ فعلى مدى الأيام اللاحقة سرت شائعة في بغداد عن أن البصرة سقطت بأيدي الإنكليز في اليوم نفسه الذي كانت فيه بغداد مهددة بالغرق!

كانت أخباراً صاعقة أذهلت البغداديين ، لكنها ، في الوقت نفسه ، حفّزتهم أكثر على الانضمام إلى قوافل المجاهدين ؛ فقد سمع إسماعيل بأن الخيام نصبت في ظاهر الكاظمية ، وضاقت الساحة القريبة من خان (الكابولي) بالناس حيث أخذ الفرسان يشهرون سيوفهم ليطارد بعضهم بعضاً رافعين أصواتهم بالحداء البدوي ، وهم يدعون إلى الجهاد لتحملهم السفينة (حميدية) ، بعد أيام ، نحو الجنوب ، وبرفقتهم عدد من الضابط والجنود الأتراك ، فضلاً عن أكداس من العتاد . كما سمع بأمر الحاج داود أبو التمن الذي اعتاد الجلوس يومياً في مسجده في محلة صبابيغ الآل ، وأمامه أكوام (المجيديات) ، سائلاً طوابير المتطوعين ، الذين يمرون به لغرض تسجيل أسمائهم في قوائم المجاهدين ، عن عدد أفراد أسرهم ليدفع لهم ما يكفي تلك الأسر في حالة تطوع أبنائهم للجهاد ، حتى إذا ما حل الدور على إسماعيل وجوبه بذلك السؤال تلجلج في الإجابة ؛ إذ إن آخر ما كان يخطر له أن للجهاد ثمناً . . . لكنه فوجئ بأبيه ينحيه جانباً لينوب عنه بالإجابة متسلمّاً (المجيديات) المنشودة .

في طريق العودة إلى البيت بدد الأب الصمت المتوتر بأن قال :

– لا يوجد مسوغ لشعورك بالعار مما حصل ؛ فالله سبحانه وتعالى منّ على الحاج داود أبو التمن بأموال طائلة ، وما يقدمه للمجاهدين من (مجيديات) لا يشكّل سوى جزء يسير من الزكاة المفروضة عليه .

صباح اليوم الموعود لالتحاق إسماعيل بقافلة المجاهدين عمد إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تزييت بندقيته التي كان قد اقتناها في سنة إعلان الدستور ، حتى إذا ما تهيأ لمغادرة البيت انفرد أبوه به ليدس في جيبه مبلغاً من النقود ، وهو يقول :

– اطمئن ؛ فهذه النقود من حر مالك الذي حصلتَ عليه بعرق جبينك : فمع كل مبلغ كنت تسلمني إياه من أجرتك كنت أحتفظ بجزء منه لمثل هذا اليوم .

والتقط الأب الكيس الذي كانت امرأته قد أعدته لابنها متخمة إياه بصنوف المأكولات مجابهاً احتجاج إسماعيل بقوله :

– دعني يا بني أحمله إكراماً لي ؛ فالأجدر بي عمل ذلك في مثل هذا اليوم وأنا الذي طالما حملت عن الآخرين أحمالهم لقاء ثمن .

وزجر امرأته حين تشبثت طويلاً بعنق ابنها ذارفة على كتفه الدموع . أمرها أن تتنحى جانباً ليصلا قبل إقلاع السفينة ، فهرعت الأم ملهوفة لتلتقط من فوق غطاء (الحِب) طاسة ماء حرصت على سكبها في أثر ابنها الراحل لحظة تخطى العتبة إلى الخارج .

قبل وصولهما إلى شريعة المصبغة تناهى إلى سمعهما جئير صافرة السفينة يدوّي لحظات منذراً المتلكئين بقرب موعد الإقلاع ، حتى إذا ما تخطيا آخر البنايات ، ولاحت لهما صفحة مياه دجلة نافحة وجهيهما ببرودة كانون الأول القارسة طالعتهما السفينة بهيكلها العملاق ، وثمة سحابة دخان تنبثق بكثافة من مدخنتها . وعلى امتداد الشاطئ تلاطمت حشود المودعين ، تقابلها حشود مماثلة على الشاطئ الآخر .

واستعاد إسماعيل بلمحة خاطفة ذكرياته عن هذه الشريعة حيث اعتاد أن ينطلق منها بقاربه لا لسعيه وراء رزقه قدر حرصه على أن

يصدع لطلبات سارة خاتون وصديقاتها اللائي كن يرافقنه بتلك الرحلات النهرية في اتجاه كرادة مريم ، مفعمات أنفه بروائحن العطرة ، موشوشات سمعه بهمساتهن التي تتخللها ضحكاتهن المكتومة العذبة .

- إسماعيل . .لا تنس أمك وأباك . . . أتسمعني؟ والآن هيا اذهب . . . رافقتك السلامة .

صاح به أبوه وهو يسلّمه كيسه مشيحاً بوجهه عنه مخفياً دموعه ، وهو الضنين بالكشف عن عواطفه . وارتقى إسماعيل العارضة الخشبية نحو سطح السفينة ليهرع نحو الحاجز الجانبي متطلعاً إلى الأسفل مبادلاً أباه النظر مفكراً بأنها قد تكون آخر مرة يرى فيها أحدهما الآخر . وحين شرعت السفينة تمخر في المياه جانحة غرباً نحو جانب الكرخ ، لحمل المنتظرين هناك ، بقي يبادل أباه النظر دون أن يقوم أحدهما بإيماءة للآخر وسط مئات الأذرع التي ارتفعت بتحية الوداع ، حتى إذا ما اختفى وجه أبيه وسط حشد الوجوه رفع عينيه ليتطلّع نحو سرب حمام كان يحوم في زرقة السماء فوق البنايات التي تعلو الجرف والتي تتوزع بينها بضع مآذن شخّص منها مئذنتي جامعي الآصفية والوزير .

- عهدي بالمجانين أنهم لا شأن لهم بذرف الدموع!

تنبّه لصوت مألوف يخاطبه ، وحين استدار رأى جابر البنا يطالعه بنظرته النفاذة ، وقد تنكب بندقيته!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مريم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على تلك الشاكلة بدأتْ علاقتي بإسماعيل الذبيح : محض حكاية يتداولها الرواة جيلاً بعد جيل ، وعلى مدى عقود من الزمن ، قبل أنْ التقيه ، أول مرة ، في (علوة الچلبي) حيث بات من المألوف أن يزور أبي من حين إلى آخر ، يصحبه ، في الغالب ، صديقاه الآخران : الحاج ذياب رؤوف ، وهلال أبو خمرة ؛ فتضج الغرفة بصخب أصواتهم ، وهم يقضون الوقت في استعادة ذكرياتهم بادئين إياها بالشكوى من بعض أمراض الشيخوخة : ضغط الدم ، والسكر ، والبروستات ، قبل أن ينسجموا مع ماضيهم الغابر الذي كان مصدر نزاع دائم بين ذياب رؤوف وهلال أبو خمرة ؛ فبقدر ما كان الأول يحرص على إيراد تلك الأحداث مدعمة بالشواهد والتواريخ ، كان الثاني لا يدعها تمرّ دون أن يكون له فيها دور ما ، دور بطولي في الغالب ، وهذا ما كان يستفزّ الحاج ذياب ؛ فيتصدى له بفظاظة مباشرة فاضحاً ادعاءاته ، فكان هلال يصيح ، وقد اربدّ وجهه الضئيل المملوء بالتجاعيد :

- لم يبقَ إلا أن تتهمني بالكذب واختلاق الأحداث . . . لم يبق إلا أن تتهمني بذلك!

فكان الحاج ذياب يرد عليه من فوره :

- ولِمَ أتهمك وذلك كان هو دأبك منذ التقيتك في أدغال البرجسية ، أول مرة ، ليتعزز أكثر حين عاشرتك زمناً طويلاً في معسكر (بيلاري) للأسرى في الهند؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فتمر لحظات وهلال يتفرس في خصمه بنظرة غير مصدقة قبل أن يضيف بأسى :

– لعن الله ذلك اليوم الذي تعرّفت فيه إليك بسبب ضفدعة ربيعية!

– ولكن بسبب تلك الضفدعة تذوّقتَ ، أول مرة في حياتك ، لحم المعلبات . . .أيسعك إنكار ذلك؟

وكان الحاج ذياب يضيف ، وهو يجول بنظارتيه بين الوجوه ، مردداً جملة وحيدة لا يمل من تكرارها :

– كان ما يؤرقه ، وهو يلتهم ذلك اللحم الشهي ، خوفه من أن يكون مصدر ذلك اللحم حراماً ؛ كأنْ يكون الحيوان لم يُذبح على الطريقة الإسلامية!!

فكان هلال يثب بقامته القصيرة واقفاً ، وهو يصيح ، وقد خرج عن طوره :

– هذا آخر لقاء لي معك ، وأقسم بروح أبو خمرة الهندي أنني لن أتخطى عتبة هذه (العلوة) بعد اليوم!

ويندفع خارجاً تتردد خلفه أصوات تخبطه بما يعترض سبيله في الحوش من صناديق ، وسلال ، وأكياس ، فيسارع أبي في أثره ليعود به بعد لحظات ، وهو يطيّب من خاطره مهيباً بي الإسراع إلى المقهى القريب ليسعفنا صاحبه بالشاي . حتى إذا ما عدت بعد دقائق رأيت هلال وقد انفرد على إحدى الأرائك ، أبعد أريكة عن الحاج ذياب ، رامقاً إياه بنظرات ضارية كان هذا يجابهها بلا مبالاته المعهودة ، وهو يجول بنظارتيه المعتمتين حوله . لكنهما سرعان ما كانا يتصالحان ؛ إذ لا يكاد الحاج ذياب يتطرق إلى ذكر (معركة الشعيبة) حتى كان

غضب هلال يتبدد ؛ فيقرّ معترفاً بأنه لولا مجازفة الحاج ذياب بحياته ، وذلك في بحثه عنه تحت وابل الرصاص ، لكان موته مؤكداً بعدما أصيب بتلك الجروح البليغة التي جعلته ينزف الكثير من دمه .

وكان الاثنان يعاودان سرد ذكرياتهما مستغيثين بإسماعيل إن جدّ خلاف طارئ بينهما جاعلين لرأيه القول الفصل . وكان أبي لا يكفّ عن تذكير إسماعيل بمبلغ شغفي ، في طفولتي وصباي ، بتتبع أخبار المغامرات التي خاضها في أثناء الحرب حينما انضم إلى الثورة العربية الكبرى ، معترفاً بأنه كان يغالب بصعوبة لذعة غيرة لم يكن يستطيع لها منعاً وهو يرى ابنه يعجب بغيره ، فكان إسماعيل يجيبه ، وهو يرمقني بنظرة باسمة :

- يبدو أن الحظ حالفني في هذا الجانب ؛ فجعل مني بطلاً من حيث لا أدري!

والغريب في الأمر شعوري بأن ذلك الشغف القديم كان قد خفّ كثيراً بلقائي إسماعيل الذبيح ؛ وكأن حضوره بدد تلك الهالة الأسطورية التي كان غيابه يضفيها عليه!

وكانت جلسات (العلوة) تنفضّ ، في الغالب ، على أمل أن تتجدّد بعد مرور أسابيع ، كان إسماعيل ينشغل ، في أثنائها ، بترميم بيت أبيه القديم القائم في بداية محلة الدهانة على مقربة من جامع المصلوب ، ليعمد بعدها إلى إقناع إحدى شقيقاته بالانتقال إلى ذلك البيت لتشاركه في السكن عوضاً عن تنقلها ، منذ ترمّلها ، بين بيوت أبنائها وبناتها ، حيث اعتدتُ أن أراها جالسة عند العتبة ، تمعن في تدخين السجائر ، متابعة بنظراتها الغادي والرائح ، لا تكاد تتنبه لي وأنا أحيّيها ، حين أكون في طريقي إلى (العلوة) ، حتى ترد عليّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بامتنان لاهجة بالدعاء لي برغم يقيني أنها لم تعرفني!

وكان إسماعيل قد شرع في القيام برحلات إلى خارج العراق ، بعدما اطمأن على مريم ، لتفقّد أحوال أبنائه الموزعين في شتى الأقطار ، كان يعود بعد غياب شهور ، وهو أكثر قلقاً واضطراباً ؛ ذلك لأنه لم تكد تمرّ سنتان على نكسة حزيران حتى برزت ظاهرة العمل الفدائي بصورتها الواضحة التي توّجتْ بأكثر من عملية جريئة هزت العالم ؛ فقد كانت المنظمات الفلسطينية تنافس إحداها الأخرى على القيام بها .

وكانت مريم قد تآلفت - خلال تينك السنتين - مع وضعها الجديد : أصادفها أحياناً في طريقها إلى سوق الصدرية أو عائدة منها ، وقد تلفّعت بالعباءة العراقية السوداء ، وزنبيل متخم باللحم والخضراوات والفواكه يتدلّى من إحدى يديها ، كما بدأت آنذاك بالمرور ببيتنا لتسأل أمي مثلاً عن طريقة إعداد أكلة عراقية يرغب والدها في تناولها ذلك اليوم ، أو للتأكد من مقادير طبخة أخرى غير واثقة منها .

حتى إذا ما مرت الشهور اعتادت القدوم إلى بيتنا بشكل شبه يومي : ما تكاد تدخل حتى تتخلص ، بحركة من رأسها ، من عباءتها لتعلّقها على أحد فروع السدرة قبل أن تشارك أمي في بعض أعمالها المنزلية ؛ فتنوب عنها بالوقوف أمام التنور لتتعلم كيفية إلصاق أقراص العجين به دون التعرّض للسع النيران ، أو تعينها في تقليم البامياء ، أو تقشير الباذنجان ، وما شاكل ذلك .

وكان مرور الأيام يزيدها جمالاً ، مؤججاً ، في الوقت نفسه ، رغبتي في التقرّب إليها وعدم الاكتفاء بمبادلتها التحيّات العابرة ، مدركاً استحالة أن تسمح أمي لي بذلك دون وجود سبب مقنع ؛

فعـمـدتُ ، ذات يوم - وقد تذكّـرتُ تلك الصـورة القديمة المنسيّـة وسط الصور المعلقة في الإيوان - إلى سؤال مريم إن كـانت لاحظتْ صورتها مع أفراد أسرتها؟

- صورتي أنا؟!

سألتني بدهشة ، فأومأتُ برأسي إيجاباً لأتابع بعدها قائلاً :

- ومعك أبوك ، وأمك ، وأشقاؤك الخمسة ، فضلاً عن اثنين من أخوالك .

تعقبتني مريم نحو الإيوان وهي تنفض عن كفيها الدقيق لتقف في مواجهة الصورة لحظات قبل أن تقول وقد استدارت بعينيها الذهبيتين نحوي وثمة دموع تتلألأ فيهما :

- لا أتذكـر مـتى التـقطت هذه الصـورة ؛ لأنني كنتُ لا أزال في الأشهر الأولى من عمري كما هو واضح .

وأضافت وقد عادت تمعن النظر في الصورة :

- ولكنْ ألا تلاحظ مبلغ شبهي الآن بأمي؟

كـانت تبـدو فـعـلاً نسـخـة مطابقـة لأمـهـا مع فـارق العـمـر بين الاثنتين .

- وكذلك الأمر مع أصغر أخوالي زكريا ؛ فهو أكثر أخوالي شبهاً بأمي على النقـيض من أشـقـائه الآخـرين : رمـزي ، ومنيف ، وحليم ؛ فقد كانت أمي تكرر أنهم أقرب شبهاً بأبيها .

واستطردت مريم ، وقـد انسجـمت مع ذكرياتها ، لتسـتـدرك وهي تبتسم وسط دموعها :

- وكـان خـالي سـميح يكـاد يتطابق مـعـهـا في شكله ، ولكنني لم استطع التأكد من ذلك إلا من خلال صوره ؛ لأنه رحل عن هذه الدنيا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبل ولادتي بأربعة أعوام ؛ إذ استشهد في القسطل قبل وقوع النكبة بخمسة وثلاثين يوماً .

منذ ذلك اليوم بات من المألوف أن أبادلها كلمات مقتضبة ، كلما التقيتها في بيتنا ، كلمات لا تخرج عن نطاق المجاملة كنت أنهيها تحت وطأة نظرة انتقاد لم تكن أمي تبخل بها عليّ لكوني تخطيت الوقت الذي تقتضيه الأصول ؛ فكنت أغادرها قسراً لأرتقي درجات السلم نحو غرفتي حيث أستلّ ، من أحد رفوف مكتبتي ، كتاباً أظلّ أقلب أوراقه دون أن أفقه حرفاً واحداً مما أقرأ ؛ ذلك لأنني أنصرف بكل مشاعري إلى تتبّع ما يجري في الأسفل من حوارات ، وضحكات ، ونداءات مصحوبة برائحة الخبز الساخن ، تنتهي بترديد تحية الوداع التي يعقبها ، بعد لحظات ، صوت اصطفاق الباب الخارجي وراء مريم ، فأطبق بدوري كتابي ، وأعيده إلى موضعه في انتظار تعاقب أيام موحشة مفرطة في الطول قبل أن تدبّ الحيوية في بيتنا مجدداً .

وكثيراً ما كنت التقي مريم صباحاً في الزقاق ، حين أكون في طريقي إلى الكلية ، وهي ترفل بزي الطالبات الرسمي المكوّن من قميص أبيض ، وتنورة زرقاء ، فتحيّني بإيماءة من رأسها ، وتتخطّاني متخذة سبيلها نحو شارع الجمهورية ، وقد احتضنت رزمة كتبها ، تاركة شعرها ، المشدود بشريط أبيض خلف رأسها على شكل خصلة واحدة ، يهتز على وقع خطاها الرشيقة . وفي الموقف الخاص بالحافلات ، القائم قرب تقاطع شارع الوثبة مع شارع الجمهورية ، كنت ألاحظها في وقفتها وحيدة توازن ثقلها من ساق إلى أخرى على مبعدة خطوات من زميلاتها الرافلات بالزي نفسه ، وهن يتبادلن الهمس والضحكات المكتومة ، حتى إذا ما قدمت الحافلة الحمراء اتخذت جلستها على أول

مقعد يصادفها لتنكمش على نفسها - حين يشاركها أحد فيه - محاولة جهدها احتلال أصغر مساحة ممكنة ، وقد انصرفت بوجهها إلى النافذة القريبة متأملة ما تمر به الحافلة من حشود سيارات ، وعمارات ، وأسواق تعلوها مأذنة سوق الغزل إلى اليمين وقبة كنيسة (اللاتين) إلى اليسار .

وكانت تغادر الحافلة عادة بعد اجتيازها الساحة التي يتقاطع بها شارع الأمين مع شارع الجمهورية لتتخذ سبيلها ، في أعقاب زميلاتها الصاخبات ، نحو الإعدادية المركزية القائمة إلى اليمين ، في حين أواصل أنا رحلتي ، في الحافلة نفسها ، حتى باب المعظم لأتجه من هناك مشياً إلى كلية الآداب ، حيث تبقى مريم مدار أحاديثي اليومية مع قاسم ووليد ، صديقيّ اللذين كنت ألازمهما على مدار الساعة مما دفع الزملاء الآخرين إلى تلقيبنا بـ(الثلاثي المرح) ؛ ذلك لأنهم كانوا يلاحظون حرصنا على المرابطة في نادي الكلية أكثر من رغبتنا في متابعة المحاضرات!

كنت أبثّهما (همومي العاطفية) ، وحيرتي بطريقة مفاتحة مريم بحبي ، فكانا يشبعانني لوماً وتقريعاً ، معيرين إياي بالجبن ؛ مؤكدين أن مريم قد لا تختلف عني رغبة بعقد صلة عاطفية شأنها شأن أية فتاة بعمرها .

- بابا لا تنس أنك طالب جامعي ، وهي محض طالبة إعدادية! . .أتسمع؟ فكيف تتهيب من مفاتحتها بحقيقة مشاعرك نحوها؟

كان وليد - الأنيق أبداً والحريص على متابعة أحدث التقليعات - يسألني مستنكراً ، فيعقب قاسم وهو يضرب المنضدة بجمع كفه :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أنا واثق من أنها يئست منك ومن ترددك . . . خلاص . . لا يمر وقت طويل حتى تحتقرك ؛ لن تنتظرك إلى الأبد . . .هل أنت الشاب الوحيد في المنطقة؟

كانا يشحذان همتي ؛ فكنت أعاهدهما بأنني سأحسم أمري في اللقاء القادم ، حتى إذا ما التقيت مريم في اليوم التالي تجنبتُ – كالعادة – مشاركتها في الجلوس على مقعدها في الحافلة ، مكتفياً بمراقبتها من خلال حشد رؤوس الجالسين ، وكل واحد منشغل بنفسه عمّا يجري حوله .

بيد أنه صادف ، ذات يوم ، أن مقعدها كان الوحيد الشاغر ؛ فجلست بجانبها – امتثالاً لنصائح صديقيّ – وقلبي يكاد يثب من صدري ؛ فتلفتت نحوي لترمقني بنظرة خاطفة انكمشت بعدها في زاويتها ، وقد انشغلت بإعادة ترتيب رزمة كتبها فوق ركبتيها الملتصقتين ببعضهما بإحكام . وحين مرّ بنا (المحصّل) حاولتُ ، من باب المجاملة ، أن أنوب عنها في دفع ثمن تذكرتها ، لكنني فوجئت بها تنتفض مذعورة راجية إياي أن أدعها تقوم بالأمر بنفسها ، فأرخيتُ كفي الممسكة بالنقود خجلاً مقرّعاً نفسي ، في دخيلتي ، على مبلغ غبائي ، لاعناً صديقيّ اللذين وضعاني في مثل هذا الموقف المحرج .

في الكلية وجد قاسم في ما حصل خير برهان على صدق تحذيره من أن الفتاة لن تنتظرني إلى الأبد . قال بحسم :

– خلاص ، انتهى الأمر ؛ فقد انتظرتك أطول مما ينبغي . . . دعها وشأنها يا أخي ؛ فهي ليست وحيدة في هذه المدينة التي تعجّ بالنساء ؛ فهناك غيرها!

في حين أثنى وليد على خطوتي الجريئة مؤكداً أنه واثق من أنها

ستأتي بنتيجة ؛ فما عليّ الآن سوى الانتظار .

صباح اليوم التالي لم أكد أتخذ موضعي على أحد مقاعد الحافلة حتى فوجئت بمريم تتبعني لتشاركني في الجلوس على المقعد نفسه مخاطبة إيّاي :

– آمل ألا أكون قد أحرجتك البارحة .

وسارعتْ تضيف قبل أن تسمع ردي ، وقد انشغلت بترتيب كتبها على ركبتيها :

– لم أجد مسوغاً لتنوب عني في دفع ثمن تذكرتي ما دام الأمر يتكرر يومياً .

– سأحرص على ألا أقترف هذه الخطيئة ثانية!

أجبتها متهكماً ، فالتفت نحوي لترمقني بنظرة سريعة عادت بعدها تتطلع إلى الأمام ، وهي تقول محذرة :

– أرجو أن تلاحظ أنني جادة في كلامي .

– وهل يتطلب أمر بمثل هذه البساطة كل هذه الجدية والصرامة؟

سألتها لأضيف بعدها مداعباً :

– على كل حال لا مانع لديّ من أن تنوبي عني في دفع ثمن تذكرتي اليوم .

– لا . . . اطمئن ؛ لن أنوب عنك في ذلك لا اليوم ولا في أي يوم آخر!

أجابتني مبتسمة ، فعلقتُ قائلاً :

– يبدو أنك تستبقين حياتك الجامعية المقبلة بصرامة مبالغ بها بعض الشيء .

– ومن أوهمك بأنني أتلهف للحياة الجامعية؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أليس ذلك هو السياق الطبيعي الذي يفضي إليه إنهاؤك للدراسة الثانوية؟

سألتها وأنا أتأمل أناملها التي كانت ترتب بها كتبها ملاحظاً أنها تنتهي بأظفار غير مطلية كما يكون شأن فتاة في عمرها عادة .

- لا أراني متلهفة لدخول الجامعة .

قالتها كأنها تفضي إليّ بسر ، فسألتها مستغرباً :

- ألا ترغبين في دخول إحدى الكليات؟

- ولا واحدة .

أجابتني بحسم لتعلق بعدها بمرارة بدتْ أكبر من عمرها :

- لقد أضحت الكلية ضرباً من عبث في حياة قلقة لا عهد لها بالاستقرار والأمان .

والتفتتْ نحوي لتسألني فجأة ، وهي تتأملني بعينيها الذهبيتين الواسعتين :

- قل لي : ألاحظتَ تلك الصور التي تعلّق في طول بغداد وعرضها على أعمدة الشوارع ولا سيما شارع الرشيد؟

واسترسلتْ موضحة حينما وجدتني لا أحير جواباً :

- صور شباب في مقتبل العمر يعتمرون كوفيات مرقطة ، وهم يرفعون السبابة والوسطى بعلامات النصر .

- أتعنين صور الشهداء من الفدائيين؟

- أجل . . . أجل . . . هم الذين أعنيهم .

أجابتني وهي تهز رأسها مؤكدة كل كلمة تنطق بها ، لتستطرد بعد لحظات صمت ، وهي تلملم كتبها ، وقد تهيأت لمغادرة الحافلة :

- ترى هل كانت بهؤلاء الفدائيين حاجة للدراسة في كلية ما

قبل أن يقدموا على التضحية بحياتهم لأجل القضية التي يؤمنون بها؟

في الكلية ضج صديقاي قاسم ووليد بالتطور (الدراماتيكي) - كما سمى أحدهما ما حصل - فأجبراني على اصطحابهما إلى النادي لأكافئهما على امتثالي لنصائحهما الحميدة بلفتي (همبرغر) مصحوبتين بقنينتي مرطبات . ومع كل لقمة يزدردها أحدهما مصحوبة برشفة من قنينته أخذ يؤكد ضرورة (دق الحديدة وهي حامية) ؛ حتى أنني عمدت ، صباح اليوم التالي ، إلى تعقب مريم حال صعودنا الحافلة لأسألها ، وأنا أشاركها في الجلوس على مقعدها ، كأنني أواصل حديثاً ما انقطع بيننا :

- أكنت تنوين القول ، البارحة ، إنك ترغبين في أن تصبحي فدائية؟!

هزت رأسها إيجاباً ، فعلقتُ متشككاً :

- أخشى أنك أبعد ما تكونين عن سلوك هذا السبيل ؛ ليقيني أنك لا تطيقين رؤية عصفور يذبح أمامك .

- لا . . . اطمئن ؛ فقد علّمتنا إسرائيل ، من خلال حروبها المتلاحقة - والتي استعملت في آخرها (النابالم) - ومن خلال مجازرها المشهورة ، وأبرزها مجزرة دير ياسين وكفر قاسم ، أن ضحاياها لم يكونوا عصافير ، بل كانوا بشراً من لحم ودم ؛ وكانت أمي من جملتهم .

وأردفتْ بمرارة :

- لا شيء أبشع من سفك دم الآخرين ، ولكنْ ما العمل والدنيا كلها تدفعنا إلى سلوك هذا السبيل؟

- العالم غير معنيّ بنا يا مريم .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ذلك لأننا ضعفاء .

– أو لأننا نجابه عدواً بالغ الذكاء ؛ لا يكتفي بالاستناد إلى القوة وحدها في تحقيق مشاريعه الاستيطانية ، بل يعرف كيف يستخدم عقله لخدمة أغراضه .

– الأمر كما تقول ، بيد أننا نعيش في عالم لا يُحترم فيه عادة إلا الأقوياء .

وأردفتْ متسائلة :

– قل لي : لو لم تكن إسرائيل قوية ، ولو لم تحظَ برعاية الغرب ، أكانت تجرؤ على تجاهل تطبيق قرار الأمم المتحدة القاضي بانسحابها إلى خطوط الرابع من حزيران؟

فعلّقتُ ساخراً :

– أوَلم تبعث الأمم المتحدة بمبعوثها (يارنج) إلى منطقة الشرق الأوسط لأجل تطبيق ذلك القرار؟

فعلّقت مريم بأسى :

– شدّ ما يثير شفقتي هذا الرجل ، وهو يقوم برحلاته المكوكية بين القاهرة وتل أبيب ، متوهماً أن في وسعه أن يحقّق المحال!

وأضافت وقد تألقت عيناها الذهبيتان حماسة :

– القوة وحدها ستقسرهم على ذلك الانسحاب .

وضربتْ أمثلة على ما تقول بذكر صمود المقاومة الفلسطينية أمام الإسرائيليين في بلدة الكرامة الأردنية وإغراق البحرية المصرية المدمرة (إيلات) .

على تلك الوتيرة تكررت لقاءاتنا في حافلة لم تمضِ بنا أبعد من المسافة المحصورة بين شارع الوثبة وشارع الأمين في رحلات يومية لا

تستغرق عادة أكثر من دقائق معدودة اعتادت مريم استثمارها بطرح أفكار على تلك الشاكلة متطرقة أحياناً إلى ذكر مدرّسة اسمها الست كوثر درّستها في القدس ؛ فهي التي فتحتْ عينيها على عالم السياسة ؛ إذ إنها اعتادت الخروج عن موضوع درسها لتحدّث الطالبات ، اللائي كانت تخاطبهن بكلمة (بناتي) ، عن الثورة الجزائرية ، وجمال عبد الناصر ، والجنرال (جياب) وانتصاره على الفرنسيين في معركة (ديان بيان فو) وعن (هو شي منّه) قائد الفيتناميين التاريخي الذي توفي تاركاً شعبه يواصل نضاله ضد الأمريكيين .

كنت أصغي إليها بكل حواسي مجارياً إياها في ما تقول ساعياً ، في الوقت نفسه ، إلى اغتنام الفرص السانحة للإفصاح لها عن حقيقة مشاعري نحوها ، مكتشفاً في ماضي أبيها إسماعيل الذبيح خير وسيلة لتحقيق ذلك ؛ إذ إنها كانت تشاركني في الشغف بذلك الماضي : لا أكاد أتطرق إليه عرضاً حتى تصغي إليّ بكل جوارحها ؛ وهكذا ، اعترفتُ لها ، ذات يوم ، بأن سيرة أبيها شكّلتْ ، في سنوات طفولتي وصباي ، محور اهتمامي ؛ لا أكفّ عن ملاحقة الرواة دون كلل للإلمام بكل صغيرة وكبيرة تمتّ إليها بصلة حتى انتهى الأمر بي إلى حفظ دقائق تلك السيرة عن ظهر قلب منذ لحظة هرب إسماعيل الذبيح من رجال الجندرمة ، عند نشوب الحرب العظمى ، حتى انتهاء الثورة السورية .

– ولماذا حتى الثورة السورية فقط؟

سألتني مستغربة ، فأوضحتُ لها أن سبب ذلك يعود إلى هجرة أبيها إلى فلسطين واستقراره في القدس ؛ مما حرّم الرواة من ملاحقة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مجريات حياته هناك ، فعلّقتْ بمرارة :

- ستجدني ، حين تتهيأ الفرصة الملائمة ، أكبر راوية لحياته هناك!

وتابعتْ مستدركة :

- وهناك أرشيفه الذي جلبه معه في أوبته النهائية إلى بغداد والذي يوثّق حياته منذ عمله في دمشق في جريدة (اليقظة) ، حتى الأيام التي سبقت حصول نكسة حزيران واستشهاد أمي ؛ إذ إنه يضم مئات القصاصات والوثائق والصور والمقالات والرسائل التي جمعها طوال تلك الفترة المديدة من حياته .

منذ ذلك اليوم وجدتُ ، في سيرة أبيها ، خير وسيلة لإثارة فضولها مقترباً بذلك من لحظة مكاشفتها بحبي ، مدعماً ذلك بالتطرق إلى شعراء المقاومة الفلسطينيين ، وهم مصدر شغفنا المشترك : محمود درويش ، وسميح القاسم ، وتوفيق زياد ، هؤلاء الشعراء الذين وجد القراء العرب في قصائدهم خير متنفّس بعد هزيمة حزيران المروّعة ، حتى إذا ما فاجأتها ، ذات يوم ، بأن أهديتُ لها عدداً خاصاً من مجلة (الهلال) المصرية احتوى على ديوان كامل لمحمود درويش جال الدمع في عينيها من فرط الفرح .

وكان صديقاي في الكلية قاسم ووليد مستمرين في (ابتزازي) مع كل تطور في علاقتي بمريم وذلك بـ(تغريمي) الهمبرغر والمرطبات المعهودة مع تأكيدهما ضرورة المضي في (دق الحديدة الحامية) دون أن يدركا أن توقيتي للإفضاء إلى مريم بحبي جاء في أسوأ ظرف ؛ ذلك لأنها كانت تعيش آنذاك - وقد أوشكت على الحصول على شهادتها الثانوية - أوقاتاً عصيبة كاد القلق يقتلها خلالها على أشقائها الخمسة الموزعين بين لبنان وسوريا والأردن ؛ فقد كانت الأوضاع بين المقاومة الفلسطينية

والسلطات اللبنانية مهددة بالانفجار في أية لحظة ، حتى إذا ما توسّطتْ مصر بين الطرفين وتوصلت إلى عقد (اتفاقية القاهرة) بينهما أخذ الموقف مع المقاومة الفلسطينية يتدهور في دول أخرى : فعقب قبول مصر بمبادرة (روجرز) التي أدت إلى وقف حرب الاستنزاف في الجبهة المصرية ، بادرت بعض العناصر الفلسطينية إلى مهاجمة السلطة المصرية متهمة إياها بالتواطؤ مع الأمريكيين . ولم تكد تتم معالجة هذا الأمر حتى تدهور وضع المقاومة في عمان .

كانت مريم تتابع ، واجفة القلب ، تلك الأحداث ، وهي تؤدي آخر امتحاناتها النهائية ، معترفة لي بأن ثمة حلماً واحداً لا يكفّ عن مطاردتها كل ليلة ترى فيه صورة أحد أشقائها ملصقة على واحد من أعمدة شارع الرشيد ، وقد رفع فيها كفه اليمنى بعلامة النصر .

لم تكد تمرّ أسابيع على بدء العطلة الصيفية حتى فوجئت بأبي يعود من (العلوة) منفعلاً ليخبرني بحصول أمر مروّع ؛ فقد مرّ عليه إسماعيل ليخبره ، وهو موشك على الانهيار ، باستشهاد ابنه البكر عطا!!

وأضاف ، وقد برّح به القلق :

– لقد أدهشني أن أراه ، وهو الرجل الصلب الذي عركّته التجارب ، لا يستطيع الإمساك بدموعه ، حتى إذا ما حاولتُ تهدئته مضى يحدثني ، كمن به مسّ من جنون ، عن اقتران ولادة عطا باللحظة التي كان من المحتمل أن يُعدم فيها في سجن (عكا) ؛ ففي انتظار تنفيذ الحكم به جاء المخاض فاطمة أمام بوابة ذلك السجن وسط حشد من المنتظرين والمنتظرات تنفيذ أحكام مماثلة بأحبائهم!

وتطلّع أبي إليّ بحيرة سائلاً إياي عن مغزى هذا الكلام؟ وحينما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجدني لا أحير جواباً - فما كان يشغلني تلك اللحظة هو مصير مريم - استطرد يخبرني بسفر إسماعيل إلى عمان مصطحباً معه ابنته .

قضيت ليلة كئيبة لم يغمض لي خلالها جفن وقد أيقنت أن مريم ضاعت مني إلى الأبد . كنت بأشد الحاجة إلى من أبثّه همّي ؛ فبكّرت صباح اليوم التالي بالذهاب إلى (العلوة) لأتصل عن طريق الهاتف بوليد - الوحيد بيننا الذي كان بيتهم في المنصور مزوّداً بهاتف - أخبرته بما حصل فأبدى أسفه ، فأفهمته أن الأسف وحده لن يجديني نفعاً ؛ إذ لا مفر لي من لقائه ، فتأفف مستاءً ، ودمدم متبرماً منوهاً أن من الواضح أنني بصدد أن (أضيّع) عليه العطلة التي يحلم باستثمارها للاستغراق بالنوم وقتما يشاء ليثأر من أيام الدراسة التي كانت تتطلب منه الاستيقاظ مع صياح أول ديك ، فعلّقت مازحاً مبدياً دهشتي لكون قاطني المنصور يربون بدورهم الدواجن ، فأجابني متهكماً :

- أي طالب (آداب) أنت يا صديقي ما دمت لا تفرّق بين الديك الحقيقي والمجازي؟

بعد ساعة وصل وليد وقد ارتدى بزة أنيقة على أحدث طراز ، فغادرنا (العلوة) لنجلس في مقهى قريب قائم في الجانب الآخر من الساحة التي تتوسط السوق ، حيث أعدت عليه تفاصيل لقاء إسماعيل أبي ، وحديثه عن فجيعته بابنه البكر عطا في عمّان ، وسفره المفاجئ إلى هناك مصطحباً معه مريم ، فقاطعني ليسألني متبرماً :

- أيعقل أنك استدعيتني لأقطع هذه المسافة كلها لتكرر على سمعي ما سبق لك أن حدثتني به في الهاتف؟

أحزنني رده كثيراً ، فلم أحر جواباً . وانصرفت إلى مراقبة حشود

الباعة المتوزعين بعرباتهم وبسطاتهم في شتى أرجاء الساحة وهم ينادون على بضائعهم - من فواكه وخضر ومرطبات - متأملاً واجهة (العلوة) بطابقيها : الأرضي - حيث الباب مشرع لاستقبال الزبائن - والعلوي ، المستعمل كمخزن ، وقد توسطته قطعة مديدة زيّنها سهيل الخلف بخطه الجميل بكلمتي (علوة الجلبي) .

- أرجو أن تعذرني لمزاجي النحس اليوم ؛ فحبيبتي بدورها تكاد (تطير) من يدي بعدما تقدم إليها أحد أقاربها الأثرياء خاطباً .

سوّغ وليد رده الجاف ، واستطرد ، وهو يربت على ركبتي ، معترفاً بأنني لم أخذله يوماً ما حينما كان يقدم متى يشاء ليجبرني على مرافقته على مدى ساعات للقيام بجولات في شوارع بغداد بسيارة أبيه المرسيدس لا لشيء سوى الإصغاء إليه وهو يحدثني عن تطور علاقته بابنة الجيران .

وأنهى كلامه مبدياً استعداده لموافاتي وقتما أشاء لنلتقي في أحد مقاهي شارع الرشيد كما كان شأننا قبل العطلة . لكنه عاد واستدرك متسائلاً عن كيفية إبلاغ قاسم بالأمر وهو الذي لا يزال يتكتم على محل سكناه برغم سنوات الدراسة الجامعية التي مرت على صداقتنا؟

والحق أن حرص قاسم الغريب على التكتم على عنوانه بقي موضع حيرتنا نحن الاثنين ؛ فقد كان يتهرّب ، بشتى الوسائل والسبل ، من التطرق إلى هذا الأمر حتى انتهى الأمر به ، ذات ليلة ، إلى وضعنا في مأزق حقيقي ؛ وكان وليد قد دعانا للسهر في فندق (جبهة النهر) - حيث اعتاد أن يدعونا في بعض المناسبات للسهر على حسابه برغم أنه لم يكن يقرب الخمر قط مكتفياً بتناول المقبلات - ليلتها ثمل قاسم ؛ فازداد مزاجه المتقلّب عدوانية فتورط في معركة مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مائدة مجاورة انتهت بتبادل قذف القناني مما اضطرنا إلى إخراجه عنوة قبل حصول ما لا يحمد عقباه . وقضى وليد ساعات وهو مرابط خلف مقود سيارة أبيه ، يتنقل بنا من منطقة إلى أخرى لإيصال قاسم إلى بيته دون جدوى ؛ فقد فشلت جهودنا معه لإرشادنا إلى العنوان المطلوب ؛ إذ إنه اكتفى بالاستغراق في بكاء ثمل مردداً بين شهقة وأخرى اسم صفية!

- من هي (صفية) هذه؟

سألني وليد حائراً ، فاعترفتُ ، وأنا أشدّ حيرة منه ، أنها أول مرة أسمعه فيها ينطق بهذا الاسم!!

المقامة العراقية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(١)

وسط سحابة الدخان المنبثقة من فمه ومنخريه مضى الخال يحيى القبنچي يحدّثني عن دقائق تلك اللحظات التي عاشها إسماعيل على ظهر تلك السفينة التي مخرت به مياه دجلة نحو الجنوب :

- هكذا بدأ إسماعيل رحلته التي حسب أنها لن تستغرق أكثر من أيام أو أسابيع في أبعد تقدير ، يعود بعدها إلى بغداد المدينة التي أحبها بكل جوارحه ، غير مدرك أن ذلك آخر عهده بها ؛ فها هي سنوات طوال تتعاقب في أثر بعضها دون أن يعود إليها .

يومذاك ركن إسماعيل كيسه في إحدى الزوايا ، وعدل بندقيته على كتفه ، وعاد ليشق سبيله ، في رفقة جابر البنّا ، وسط حشود الشباب المتحمسين الذين لم يكونوا يكتفون بالتلويح بالأيدي رداً على تحيات المودعين ، بل كانوا يمعنون في إطلاق الرصاص . وكانت السفينة قد عادت لتتوسط النهر ، بعدما صعد إليها مجاهدو الكرخ ، لتمخر بتثاقل منحدرة جنوباً مع التيار .

وقفا لصق الحاجز الخلفي متأملين المياه تنفرج في أثر السفينة على شكل طيّتين مكللتين بالزبد ، وهما تنداحان يميناً وشمالاً لتتلاشيا عند الشاطئين .

- يبدو أننا المتطوعان الوحيدان من مجموعة باب الطلسم ؛ إذ لا أرى أثراً لغيرنا على ظهر السفينة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

علّق إسماعيل وقد رفع وجهه ملاحقاً بعينيه أسراب النوارس الزاعقة ، وهي تحلّق في أثر السفينة كأنها تشارك الآخرين في الوداع .

– ذلك ما توقعته .

أجابه جابر ، فتساءل إسماعيل مبتسماً :

– وهلال أبو خمرة؟ أيعقل أن يفوّت مثل هذه الفرصة السانحة للبرهنة على بطولاته؟

– لا شك أنه اللحظة يذرع أزقة باب الشيخ ملهوفاً ليسأل المارة إن كانت السفينة (موصل) جازفت بالتوجه إلى الجبهة بدونه؟

تحولت ابتسامة إسماعيل إلى ضحكة ، في حين أردف جابر جاداً :

– قد يكون بعضهم التحق بالسفينة (حميدية) التي سبقتنا بالتوجه إلى هناك قبل أيام ، أو قد يكون آخرون سافروا عن طريق الفرات ؛ فهناك عشرات المراكب الشراعية التي تمخر ذلك النهر يومياً حاملة المجاهدين إلى السماوة والناصرية .

تأملا صامتين بيوت بغداد وأبنيتها ، مآذنها ، وقبابها ، أبراجها ، وبساتينها ، وطيورها ، وهي تنأى مبتعدة عنهما إلى الشمال . وكانت كرادة مريم آخر ما لاح لهما من جانب الكرخ وسط خضرة بساتين النخيل .

– أترى ذلك البيت الذي تنحدر درجات سلّم حديقته الخلفية حتى تلامس الماء؟

تساءل إسماعيل مشيراً بسبابته نحو موضع ما .

– أي بيت تعني؟ فالبيوت المحاذية للشاطئ تتشابه بحدائقها الخلفية المكتظة بكثافة أشجارها وبنباتاتها المتسلقة التي تغطي الجدران

وبسلالمها التي تتكسر أمواج دجلة على درجاتها الحجرية .

– انظر قليلاً إلى اليسار . . أترى ذلك البرج الذي يعلوه عش لقلق؟ ذلك هو البيت المنشود .

عاد إسماعيل يحدد موقع البيت قبل أن يواصل حديثه وكأنه يكلّم نفسه :

– لا شك أن ذينك اللقلقين قد هجرا الآن عشهما ذاك ؛ فقد كان من دأبهما ، كل سنة ، تدريب أفراخهما على الطيران قبل هذا الموسم ليستعدا ، مع اشتداد البرد ، للالتحاق بالأسراب المتهيئة للهجرة إلى الجنوب .

وبقي جابر ، طوال ذلك الكلام ، يتنقل بعينيه بين وجه إسماعيل وذلك البيت الذي كان يمعن في الابتعاد ، في حين واصل إسماعيل كلامه :

– ولكن . . . لا . . . ليس اللقلق هو الطائر المفضل لديّ . . . بل إنه السنونو ؛ ذلك هو الطائر الذي أحسده . أتدري لماذا؟ لأنه يفضّل أن يفرخ في البيوت التي يسكنها البشر . إنّ حلمي كان يتلخص ، قبل سنوات ، بأن أكون مثل ذلك الطائر : أستطيع أن أحمل بمنقاري الصغير الطين من هذا الشاطئ آلاف المرات لأبني لي عشاً في ذلك البيت الحبيب . . . عشاً يضمني مع أنثاي .

واسترسل إسماعيل في سرد حكايته ، وقد استند بزنديه إلى الحاجز متأملاً أثر الزبد الأبيض الذي تتركه السفينة على صفحة المياه ، في حين كان الشباب يواصلون في الخلف صخبهم المطعّم بإطلاق الرصاص :

– كانت قد اشتهرت بجمالها لدى شباب بغداد كلهم ؛ إذ إنها –

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بحكم كونها أرمنية - كانت تخرج سافرة الوجه إلا من غطاء يحيط برأسها ، لا تبخل بعرض حسنها لأنظار المعجبين على النقيض من فتياتنا المسلمات اللائي لا سبيل إلى التمتع بسحرهن عن قرب إلا ليلة الدخلة!

حدّث إسماعيل صديقه عن تلك الفترة القصيرة التي عمل خلالها (بلّاماً) ينقل بزورقه الناس بين الرصافة والكرخ حيث كانت محلة كرادة مريم محط رحاله في الغالب ، وذلك لأنها كانت أنأى المناطق عن جسر بغداد الوحيد : لا مفر لقاطنيها من الاستعانة بالزوارق لقضاء معظم أعمالهم . وكان إسماعيل في انحداره النهر يحرص على أن يدنو بزورقه من حديقة ذلك البيت مجابهاً امتعاض من معه بقوله إن ثمة تيارات خفية يفترض به تجنبها خوفاً من أن تؤدي إلى غرق قاربه . وكان يرابط أحياناً بزورقه على مقربة من ذلك البيت ليمارس الصيد بشصّه مدخراً عذراً ذهبياً لمن قد يجازف بانتقاده لاختياره ذلك الموضع ؛ وهو كثرة السمك هناك بسبب كون تلك البيوت ترمي بفضلات طعامها في النهر!

كان وقت العصر يمثّل خير فرصة ليتمتع بمرآها من بعيد : إذ كانت تحرص ، في أغلب الأيام ، على دعوة صديقاتها ليتحلّقن حول مائدة كانت تقيمها في تلك الحديقة ، أو كانت تأمر أحد خدمها بشدّ حبل لها إلى شجرتين على شكل أرجوحة كانت تقضي ساعات في التأرجح فيها على سجيتها صارخة ومقهقهة في صعودها وهبوطها ، غير آبهة بالتيارات الهوائية حين تطيّر أذيال ثوبها كاشفة عن بياض ساقين بضتين ممتلئتين . وكانت ، في أحيان أخرى ، تدعوه بإشارة من يدها ليدنو بزورقه من سلّم حديقتها حيث تمضي وقتاً طويلاً في نزهة

مع عدد من صديقاتها كانت تكافئ إسماعيل عليها بسخاء . وكانت تطلب منه أحياناً حملها إلى شريعة المصبغة حيث كانت تمضي إلى زيارة أقاربها في محلة (رأس القرية) أو في محلة (الصابونچية) أو تؤم كنيسة (كوك نزر) القائمة هناك . وكان لا يُخفى عليها إعجاب إسماعيل بها ، لا بل كانت تشحذ ذلك الإعجاب مشجّعة إياه على المضي فيه مغذيّة إياه بمبادلته نظرات خاطفة كانت تعرف كيف تحمّلها بدلالات خاصة كانت تجعله ينتفض فيما بعد ، حينما ينفرد بنفسه ، فيستعيد دقائق ما حصل مكتشفاً مبلغ غبائه لأنه تصنّع الوقار والبرود في تلك اللحظات .

على هذا المنوال مضت علاقته بها إلى أن انفرد بها عصر ذات يوم في لقاء حاسم : حينها كان قد رابط بزورقه قرب ذلك السلّم الذي تؤدي درجاته الحجرية إلى الحديقة الخلفية ، يرمي بشصّه في الماء ويسحبه ليجدد له الطعم دون أن يشغله الصيد لحظة واحدة ؛ فما كان يشغله آنذاك محبوبته التي وقفت على الدرجة الأولى لسلّم حديقتها تزدرد حبات تمر لافظة نواتها في الماء .

- آسفة . . . يبدو أنني أنفّر الأسماك عن شصّك .

اعتذرت بدلال ، فكان جواب إسماعيل هو الابتسام ببلادة ، لكنها سارعت إلى تدارك الموقف مقترحة :

- اسمع . . . إرمِ شصّك هذه المرة على اسمي ، وكل ما تصيده سيكون من نصيبي .

جدّد إسماعيل ، بيد راجفة ، الطعم قبل أن يقذف بشصه إلى لجة الماء دون أن يفارق محبوبته بعينيه ، داعياً الله في سره ألا يخذله هذه المرة . وعلى مدى دقائقَ لم تبقَ آية من آيات القرآن ، كان قد حفظها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن ظهر قلب خلال دراسته في المكتب ، لم يرددها في سرّه عشرات المرات مهيباً بأسماك دجلة أن ترأف به هذه المرة فتتزاحم على شصّه عسى واحدة منها أن تلامسه بفمها الصغير . ولحظة شعر بتوتر الخيط بين أصابعه انتفض كالمحموم وسارع بسحبه ؛ فإذا بصفحة المياه تنشق عن سمكة بنّية بطول ذراع كادت تقطع الخيط بانتفاضاتها اليائسة وهي تحاول عبثاً الخلاص .

رفعها إسماعيل عالياً عارضاً إياها لعينيها . وحين همّ بضرب رأسها بقاع الزورق ليخمد أنفاسها صاحت به محذرة آمرة إياه بالدنو منها بزورقه ، فأسقط السمكة قرب قدميه ، والتقط مجدافيه القصيرين ليلامس بقاربه درجات السلم المغمور بالماء .

– حرر فمها من الشص ، ودعني أتأملها عن قرب .

امتثل لأمرها وهو يعاود الوقوف مقرّباً منها السمكة التي لم تكف عن انتفاضاتها لحظة واحدة .

– يا عيني! . . . ما أجمل هذا اللون الذهبي الذي يكسوها! . . . وذيلها . . . يا إلهي ، ما أروعه! . . كأنه صيغ من النحاس . . . ولكن . . . حرام . . . كيف يسعها أن تبادل محبوبها قبلة بهذا الفم المجروح؟! . . . أطلقها!

وازن إسماعيل ثقله في قاربه المختض وهو يبادل معبودته النظر ظناً منه أن سمعه قد خدعه ، لكنها عادت تجدّد أمرها مؤكدة له أنها ستنقده ثمن تلك السمكة ، فتركها تنتفض قافزة من بين أصابعه لتغوص في أعماق المياه .

– ولكن ما أدهشني وملأني حيرة هو مبلغ الغباء الذي تلبسني في تلك اللحظة ؛ إذ إنني ، حين وجدتها تمد لي يدها بقطعة نقدية ،

سارعت إلى التقاطها دون أن يخطر لي أنها ستصمني بالبلادة والبخل حين رأتني أقبض ثمن سمكة أعدتها إلى النهر!

ختم إسماعيل كلامه وهو يبتسم بغموض .

– ولكن . . . من كانت تلك الفتاة؟

سأله جابر بفضول ، فرمقه إسماعيل بنظرة عابرة قبل أن يعود ليصوّب عينيه باتجاه بيوت كرادة مريم التي كانت قد اختفت خلف كثافة بساتين النخيل .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٢)

مع غروب شمس ذلك اليوم جنحت السفينة نحو الشاطئ لتطفئ محركاتها في انتظار استئناف رحلتها حين بزوغ أول خيوط الفجر . وأخذ المجاهدون يحتمون بالعنابر التماساً للدفء . وكان القمر قد ارتفع بدراً وسط سماء مرقطة بآلاف النجوم .

- هيا . . . لنحجز لنا موضعاً في أحد العنابر أسوة بالآخرين .

اقترح جابر وهو يتجه نحو السلّم ، فتعقبه إسماعيل بعدما التقط كيسه .

كانت العنابر قائمة في الأسفل ، على جانبي ممر طويل تضيئه قناديل زيتية يتصاعد منها الدخان . وكان الزحام على أشده ؛ لا تكاد بقعة تخلو من مجموعات افترشت الأرض لتنهمك في ازدراد وجبات عشائها المرتجل .

- لنجلس في هذا الركن فهو أكثر دفئاً ؛ فأمامنا ليل طويل لا سبيل لنا إلى مغالبة برده إلا بالتدثّر بهذه الأغطية القذرة التي من المؤكد أنها تعجّ بالقمل .

تكلم جابر ، وقد تهالك جالساً على طرف حشية من نسيج القنّب الخشن محشوة بالخرق ، فاقتدى إسماعيل به ليبدأ من فوره باستلال وجبة عشائهما من الكيس الذي سبق لأمه أن أتخمته بكل ما لذ وطاب .

بمرور الوقت شعر إسماعيل بالجو يزداد دفئاً بفعل تكدّس الحشود في عنابر خالية من التهوية . وكان جابر قد استغرق في نومه مع ازدراده آخر لقمة لافاً جسده بإحكام بأحد الأغطية دون أن يقلقه وجود القمل فيه . وبدأ غطيط النائمين يتردد من حوله بإيقاعات مختلفة علواً وانخفاضاً ، يتخلله شخير مفاجئ أو كلمات مبهمة ينطق بها أحد النائمين ، وهو يحلم . وكان هناك من أراح رأسه على متاعه ، وآخر غطى عينيه بساعده ، وثالث فغر فمه مشمّراً بأطرافه حوله كيفما اتفق غير منتبه لذيل ثوبه وقد انحسر عن إحدى ساقيه .

لم يجد إسماعيل إلى النوم سبيلاً برغم تعبه الشديد ؛ كانت الفكرة التي تؤرقه تتعلق بهذه المفارقة المتمثلة بوضعه الجديد ؛ ذلك لأنه لم يخطر له قط أن يبحر يوماً ما على ظهر سفينة يقودها الأتراك الذين ألف تجنّبهم تجنّبه لعزرائيل . إنه يعرف جيداً أن الجندي التركي الذي سيصطف معه ، حين احتدام المعركة ، في خندق واحد ، موجهاً بندقيته نحو الهدف نفسه ، لن يتردد لحظة واحدة ، عقب انحسار التهديد المتمثل بالإنكليز ، من أن يعود ليصوب بندقيته نحو صدره .

نام إسماعيل على ذلك الهاجس ليصحو فجراً على دوي صافرة السفينة لحظة استئنافها الإبحار .

هكذا واصلت السفينة رحلتها منحدرة مع مياه دجلة نهاراً لتجنح إلى الشاطئ ليلاً ، حتى إذا ما حل اليوم السادس خمّن إسماعيل حصول أمر ما يدعو إلى القلق ؛ فقد دبّ الاضطراب بين طاقم البحّارة الأتراك : فأخذوا يتنقلون بين مرافق السفينة مهرولين ، مبادلين بعضهم بعضاً كلاماً بالتركية لا يدعو إلى الاطمئنان ؛ فبرغم جهله بهذه اللغة التي كرهها كرهه للمحتلين الناطقين بها ، إلا أن الطريقة التي كانوا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقـولون بهـا ذلك الكلام كـانت تشي بحـصـول أمـر على جـانـب من الخطورة . وسـرعـان مـا سـرى همس بين المبـحـرين مـفـاده أن جـهـاز اللاسلكي أوعـز إلى القـبطان بتـجنب الدنو من مـدينة القـرنة ليرسـو بسفينته على مبعدة خمسة عشر كيلومتراً إلى الشمال منها عند تفرع جدول الروطة عن نهر دجلة .

– ما معنى هذا؟

تساءل إسماعيل مغالباً دهشته ، فأجابه جابر شامتاً :

– لا شك أن القـرنة سـقطت أيضـاً بأيدي الإنـكليـز بعـد سـقـوط البصرة!

– أيعـقـل حـصـول ذلك ونحن نـواصل إطلاق العـيـارات النـارية احتفاء بمعركة لم نخضها بعد؟

عاد إسماعيل يتساءل بمرارة ، فأجابه جابر متهكماً هذه المرة :

– ولن نخوضها أبداً!

عند انتـصـاف النهـار ، في اللحظة التي أطّرتْ زرقـة بسـاتين القـرنة الأفق الجنوبي تأكـد إسـمـاعـيل من صـحـة اسـتنتـاج صـديقه ؛ فـقـد جنحت السفـينة نحـو الشـاطئ الشـرقي فـإذا بـه يشـرف على عشـرات الخيام منصوبة على مدى البصر ، يتدفق منها مئات المجاهدين الذين سبقوهم في الوصول إلى هناك منذ أيام ، مستقبلين السفينة بالتهليل والتكبير . واندفع إسماعيل يزاحم المتدفقين نحو العارضة الخشبية التي مـدتّ نحـو الشـاطئ يحـاول أن يسـبق غـيـره في النزول لحظة سـمع مَنْ يناديه بـاسـمـه من وسط المسـتـقـبلين ، فـتلكأ مـدقـقـاً النظر في الحـشـد مـحاولاً مـعـرفـة من يكون المنادي ، لـكنه فـوجئ بمن يدفـعـه من الخلف حـاثاً إياه على مواصلة التـحـرك . ولم يكد يطأ بقدميه الشـاطئ الموحل

حتى فوجئ بمن يطوقه بين ذراعيه مغرقاً وجهه بالقبلات ، وهو يردد :

- ألم أخبركما بوجود مجنون ثالث لا يقلّ عنكما جنوناً؟

كان هلال أبو خمرة وقد تحوّل إلى كائن آخر ؛ فقد لف رأسه بكوفية مرقطة ، وثمة بندقية تتدلى من إحدى كتفيه ، وصف رصاص يتقاطع على امتداد صدره الهزيل!

- من المؤكد أنك ببندقيتك وصف رصاصك قد عقّدتَ على الإنكليز مهمتهم ؛ ذلك لأنهم سيفكرون ألف مرة قبل أن يجازفوا بالدنو من هذا الموضع!

تكلم جابر ساخراً وهو يبادل هلال العناق . إلا أن هذا أفحمه بقوله :

- الأمر كما تقول ، إنما ليس بسبب بندقيتي وحدها ؛ بل لعلمهم أنها واحدة من آلاف البنادق الواقفة لهم بالمرصاد!

والتفت هلال نحو عملاق كث الشاربين كان يتعقبه مثل ظله وبندقيته تتدلى من إحدى كتفيه ، آمراً إياه بحمل متاعهما ، فامتثل هذا لأمره صاغراً ، في حين تقدمهما هلال وسط الحشود الصاخبة دون أن يكف عن الثرثرة متحدثاً عن خيبة الأمل التي كانت بانتظاره يوم صعد إلى ظهر الباخرة (حميدية) واكتشافه أنه المتطوع الوحيد في صفوف المجاهدين من مجموعة باب الطلسم وهو الذي حسب أنه سيكون في رفقة العشرات منهم ، بيد أن الحظ عوّضه ، في أول يوم من وصوله ، بالتعرف إلى أحد معدان أهوار الجبايش قلّ نظيره بين الرجال .

- أليس كذلك يا حمدان؟

تساءل هلال وقد التفت إلى الوراء مخاطباً العملاق الذي اكتفى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بأن ردد بتسليم وهو يؤرجح الكيسين عند طرفي ذراعيه المديدتين :

– قسمة ونصيب . . . كل شيء قسمة ونصيب .

قادهما هلال نحو خيمة واسعة تصدّرها عدد من عسكريين أتراك كانوا جالسين على كراسيهم خلف مناضد فتحت فوقها سجلات دوّنوا فيها اسميهما مسلّمين كل واحد منهما العتاد والحصة المقررة له من الأرزاق المتمثلة بحبات تمر وخبز متيبس دون أن يكفوا عن الترحيب بهما .

– غداً سأقودكما إلى ميدان الرمي لتتعلما التصويب بالبندقية .

أعلن هلال بلهجة العارف ببواطن الأمور .

في تلك الليلة تحلّق الرجال الأربعة حول نار أشعلوها وسط خيمة هلال محاولين عبثاً إبعاد أسراب البق وهي تستهدف بطنينها المزعج آذانهم . وكان إسماعيل قد أضاف إلى الأرزاق التي تسلموها بضعة أصناف من المأكولات استلّها من الكيس الذي وضعه في متناول يده ليهرع إليه كلما استجدت بهم حاجة إلى شيء ما : حلاوة تمر ، رغيف خبز عروق ، حفنة مكسرات ، حتى أن حمدان لم يستطع مغالبة فضوله ؛ فاستأذن إسماعيل وهو يمد يده نحو طرف الكيس ليرفعه متطلعاً إلى جوفه مردداً بحيرة :

– ألا تخبرني بسر هذا الكيس يا ابن العم؟ . . . كأني به (صندوق ولايات) يحتوي كل ما يخطر في البال!

ووسط عاصفة ضحكهم لم ينسَ هلال أن يرمق حمدان بنظرة إعجاب شفعها بقوله :

– (صندوق ولايات) . . أتسمعانه؟ إنه أعجوبة مجسدة بهيئة معيدي!

ومضى هلال يحدثهما عن حمدان الذي بدد رتابة أيام الانتظار باصطحابه أكثر من مرة بمشحوفه إلى الأهوار حيث ثمة مواضع معينة، وسط مخاضات المياه ومنابت القصب والبردي، نصب فيها شباكه.

- والإنكليز؟ أيدعونكما تتجولان على هواكما وسط الأهوار ناصبين شباككما هنا وهناك؟

تساءل جابر متهكماً، فأجابه حمدان، وقد شمّر أذيال ثوبه عن ساقين مديدتين أخذ يقرّبهما بالتناوب من لهب النار المستعرة:

- الإنكليز، يا ابن العم، يكافئوننا بسخاء على ما يبتاعونه منا على النقيض من الأتراك الذين ينهبون باسم (التكاليف الحربية) كل ما يقع تحت أيديهم، حتى أنني قررتُ توسيع عمليات الصيد بالسعي إلى امتلاك طرّادة أستطيع الاستعانة بها للوصول إلى أبعد الأماكن بما في ذلك هور (الحمّار) الذي يصعب اجتيازه بمشحوف.

وحين أبدى إسماعيل دهشته لشدة تحمس حمدان للإنكليز برغم انضمامه إلى صفوف المجاهدين أوضح هذا بأن وجوده بين المجاهدين لا يعني انضمامه إلى صفوفهم؛ فهو يسعى وراء رزقه أينما كان. واستدرك موضّحاً أنه سبق له الانضمام إلى هذه الحركة مع مقدم أول رجل دين من النجف كان يصطحب معه تسعة متطوعين على أمل أن يلتحق به العشرات ليكتشف بعد مرور أيام أنه بالغ في تفاؤله؛ فالبصرة والقرنة سرعان ما سقطتا بأيدي الإنكليز، وعوضاً من أن يلتحق به المزيد نقص أتباعه إلى أربعة أشخاص، فبات يتنقل بهم من قرية إلى أخرى للنجاة بهم بعدما لم يبقَ لوجودهم مسوغ.

وصادف أن وصل بمن معه قرب قرية اشتهرتْ بمبلغ تبجيلها إياه، فإذا بعدد من رجال تلك القرية يعترضون سبيله طالبين منه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النزول عن دابته وتسليمها لهم مع كل ما معه من متاع بما في ذلك ملابسه التي يرتديها ، فدهش رجل الدين المسكين ؛ فعرّفهم باسمه خوفاً من أنهم لم يعرفوه ، لكنهم سارعوا إلى طمأنته بأنهم يعرفونه تماماً ، بيد أن المشكلة تتلخص بكونهم إنْ لم يسلبوه ما معه فمن المؤكد أن يسلبه أهالي القرية الأخرى ، وهم أعداء لهم ، فالأولى به إذن أن يسلّمهم طائعاً ، وهم أصحابه ، كل ما معه!

– وهل استجاب لابتزازهم؟

قاطع جابر البنا حمدان متسائلاً بدهشة ، فأكد له هذا أن ذلك هو ما حصل دون أن تأخذهم شفقة بشيخوخته ومرضه وضعف بنيته ؛ إذ لم يكد يصل إلى أقرب قرية ماشياً حتى اشتد عليه مرضه ؛ فتوفي هناك .

– منذ ذلك اليوم قررتُ الانصراف إلى شؤوني المتعلقة بالصيد في الأهوار تاركاً أمر الجهاد لغيري .

علّق حمدان بمرارة ليعترف بعدها بصراحة مؤثرة أنه يدهشه أن يرى العراقيين يصطفون مع العثمانيين في حربهم ضد الإنكليز متناسين أن الأتراك لم يحسبوا لهم شأناً يوماً ما . وأضاف متحدثاً عن أيام كانت سفن الأتراك تمخر فيها هابطة نحو البصرة لتعود فتمخر صاعدة نحو بغداد دون أن يولي ركّابُها المعدانَ نظرة عابرة تاركين مشاحيفهم تختضّ في مواضعها فوق المياه . حتى إذا ما تصاعدت دمدمة مدافع الإنكليز على مشارف البصرة أضحى الأتراك كرماء مع شيوخ المعدان : يبادلونهم الزيارات في مضايفهم ، مزينين صدورهم بالنياشين والأوسمة ، طالبين معونتهم في الحرب ؛ إذ باتت السفن تمر بهم هذه المرة نحو البصرة وسط أهازيج الجنود لتعود بعد أيام مصعدة

عكس التيار باتجاه بغداد ، وقد ران عليها الصمت ، لا شيء يصدر عنها غير أنين الجرحى .

وأردف حمدان منهياً حديثه :

– من المؤكد أنني لن أذرف الدموع إذا انكسر العثمانيون ؛ فما الذي جنيناه منهم غير المهانة والأذيّة؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٣)

صباح اليوم التالي قاد هلال إسماعيل وجابر إلى ساحة الرمي حيث قضوا ساعات في تصويب بنادقهم ، مع عشرات غيرهم ، نحو أهداف كانت قد نصبت بمحاذاة سفح أكمة ، وثمة عسكري تركي يرشدهما ، بعربية سقيمة تستدعي الضحك ، إلى أنجع السبل الكفيلة بإصابة الهدف بدقة .

بدا هلال في ذروة رضاه عن نفسه ؛ فقد سنحت له أخيراً فرصة ذهبية للبرهنة عملياً على أن هناك مجالاً معيناً يستطيع أن يتفوق فيه عليهما ، وهما اللذان اعتادا التفوق عليه في كل شيء . عند الظهيرة عاد الثلاثة إلى الخيمة ليفاجأوا بحمدان وقد أعدّ لهم وليمة حقيقية استثمر فيها بعض الطيور والأسماك التي كانت شباكه قد أوقعت بها .

على تلك الوتيرة تتابعت الأيام اللاحقة : إذ ألف إسماعيل ذلك الاضطراب العابر الذي ينتابه لحظة يغمض إحدى عينيه مصوباً فوهة بندقيته نحو الهدف ، حتى إذا ما مسّ بسبابته الزناد البارد ضاغطاً عليه دوّى انفجار العيار الناري ملء سمعه في اللحظة نفسها التي يشعر فيها بارتداد البندقية إلى الوراء صادمة بعقبها كتفه اليمنى . لقد ألف تلك الأمور ، لكن الغريب أنه لم يستطع مغالبة شعوره بالنفور من هذه الأداة . وحينما أخبر جابر بذلك أجابه هذا وهو يتأمل بندقيته بنظرة حائرة :

- ذلك أمر متوقع من مصارع اعتاد التغلب على منافسيه على أرض (الجفرة) بقوة ساعده لا القتل من بعيد بطريقة أقرب ما تكون إلى الغدر.

هكذا مضت أيام التدريب، حتى إذا ما حل شهر كانون الثاني سرت شائعة في صفوف المجاهدين مفادها أن أيام الانتظار المملة قد أوشكت على الانتهاء؛ فقد تم تعيين التركي سليمان عسكري بك قائداً للجبهة العراقية. وأكّد أكثر من واحد أن هذا القائد قد اشتهر بشدة اعتداده بنفسه لأن القيادة العليا في أسطنبول اعتادت أن تستشيره في أمور العراق لكونه خدم فيه ضابطاً قبل الحرب ما عزز ثقته بنفسه بشكل مبالغ فيه حتى قيل إنه خاطب الموظفين والأهالي عند وصوله إلى بغداد مؤكداً (أنه سوف يدحر الجيش الإنكليزي ويرميه في البحر خلال مدة وجيزة، وأنه سيسترجع القرنة والبصرة، ويحتل سواحل الخليج)!

وقرن ادعاءاته بالقدوم بنفسه إلى منطقة الروطة حيث شاهده إسماعيل أكثر من مرة وهو يتفقّد القوات المتجحفلة هناك ليمر، تحيط به كوكبة من مرافقيه، وسط صفوف المجاهدين، محيياً إياهم بحماسة، آمراً ضباطه، على مسمع منهم، بحماية ظهورهم بنصب مدافع الإسناد إلى الشمال من خيامهم، مؤكداً ضرورة الإسراع بحفر الخنادق استعداداً للمعركة الوشيكة.

وكانت الروطة قد سميت بـ(الجبهة الوسطى) وقد قرر سليمان عسكري بك قيادتها بنفسه، في حين كانت هناك جبهتان أخريان هما (الشعيبة) و(عربستان)، وكانت خطة القائد تقتضي توجيه هجوم كاسح على الإنكليز من هذه الجبهات الثلاث لتلتقي القوات العثمانية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد انتصارها في مدينة المحمّرة . ولاحظ إسماعيل أن الإنكليز ، من جانبهم ، بدأوا بتسخين الجبهة : فذات يوم جفل مع عشرات غيره على هدير غريب ترجّع صداه في عمق السماء . وحين وثب واقفاً ليتطلع إلى هناك لمح نقطة سوداء صغيرة تطير على علو شاهق لتختفي بعد لحظات .

– أرأيتم؟ تلك هي واحدة من الطائرات الإنكليزية أحدث مخترعات العصر!

– إنها محمّلة بالبارود والقنابل ، في وسعها قتل العشرات منا خلال لحظات!

– بل يقال إنها تقطع المسافات بسرعة البرق : تراها فوق رأسك ، وما تكاد تطرف بأجفانك حتى تكون قد غدت على بعد سحيق منك!

– ليس هذا فحسب بل إنها تطير على علو شاهق ، لا تستطيع أبعد البنادق مرمى من أن تصيبها بخدش!

ارتفعت الأصوات متحدثة عن هذه (المعجزة) التي يرونها عياناً أول مرة . وتساءل حمدان بدوره وقد ظلل عينيه بكفه مقلّباً نظره في أعماق السماء :

– أيداخل أحدكم الشك الآن من أن النصر سيكون حليف الإنكليز في هذه الحرب؟

فسأله هلال مستنكراً :

– ومن أين جئت بهذا اليقين؟

– من كونهم نجحوا في رفع طائراتهم إلى السماء السابعة دون الاستعانة بخيوط أو ريش ، في حين لا يزال صحبك الأتراك يستعينون بالبغال والخيول في سحب مدافعهم البائسة!

ولوّح بيده مودعاً معلناً أنه لا شأن له بهذه الحرب ، إنما عليه تفقّد شباكه التي أهملها في الأهوار أطول مدة ممكنة ، كما يُفترض به المرور بقرية الهويّر المشهورة بعمل المراكب والقوارب للاتفاق مع أحدهم على عمل طرادة له .

– ولِمَ لا تعترف بأنك تتحجج بهذا العذر لكي تتهرب ، في واقع الحال ، من المجابهة؟

صاح هلال في أعقابه متهكماً ، فقفل حمدان راجعاً ليمسك بهلال من ياقته رافعاً إياه ، وكأنه ريشة ، في نية واضحة ليجلد به الأرض . لكنه أعاده إلى موضعه برفق . وقال بهدوء قبل أن يغادرهم :

– لا تخف ، لن أؤذيك برغم أنه لا يليق بك إسماعي مثل هذا الكلام ؛ فأنت خير من يعلم أنني لست بالجبان .

وكانت القوارب الإنكليزية المسلّحة ذات المحركات قد أخذت تظهر بغتة لتشقّ مياه دجلة في اتجاههم بسرعة خاطفة راشقة إياهم بصليات من مدافعها الرشاشة قبل أن تستدير عائدة من حيث أتت . وسرعان ما احتدمت المعركة المنتظرة فجر العشرين من الشهر نفسه ؛ فبعدما قضى إسماعيل ، مع عشرات من المقاتلين ، ليلة مؤرقة في الخنادق جفلوا على دوي المدافع الإنكليزية التي أخذت تمهد السبيل ، لتتقدم مجموعة من المشاة ، بقصف مرعب أدخل الرهبة في القلوب ؛ فقد أخذت القذائف تنهال عليهم من البر ومن المراكب النهرية مثل حبات المطر حارثة الأرض من أمامهم بانفلاقات كانت تجعل سحب الغبار تتصاعد في الهواء حيث رائحة التراب ، والدخان ، والبارود ، أزكمت الأنوف .

وكان إسماعيل ، المتحصن بخندقه وبالقرب منه جابر وهلال ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يشعر بدنو الموت مع صفير كل قذيفة قادمة ، حتى إذا ما انفجرت ناثرة المزيد من التراب عاد ليشرئبّ بعنقه فوق حافة الخندق مرجئاً احتمال موته إلى قذيفة أخرى ستصيبه في أية لحظة . وكانت المدافع التركية ، وبإشراف من سليمان عسكري بك الذي كان يقود المعركة بنفسه ، تهدر في قصف معاكس سرعان ما أجبر القوة الإنكليزية على الانسحاب تحت حماية المراكب النهرية ، عائدة إلى المزيرعة .

– ما الذي حدث؟

– أيعقل أننا حققنا ، بمثل هذه السهولة ، أول انتصاراتنا؟

– ألا يحتمل أن هدف الإنكليز لم يكن احتلال الروطة ، بل إيقاع الخسائر بنا؟

تبادل إسماعيل الأسئلة مع الآخرين وقد خرجوا من خنادقهم يغطيهم التراب ، لينشغلوا ، على مدى ساعات ، في إخلاء الجرحى – وبضمنهم قائدهم سليمان عسكري بك ، الذي أصيب بكسر في ساقه بفعل شظية – إلى سفينة سرعان ما مخرت بهم مصعّدة شمالاً في اتجاه بغداد ، ليعودوا بعدها إلى القتلى عامدين إلى دفنهم في موضع قريب .

وعلى مدى الأيام اللاحقة بقي هذا الانتصار غير المتوقع مدار أحاديثهم ، لا يملّون ، وهم يصطلون في خيامهم على لهب النيران ، من البحث والتنقيب عن سر ما حصل . وكانت لكل مجموعة منهم وجهة نظرها في ذلك : فالمجاهدون كانوا يعزون الأمر إلى صمود أحد رجال الدين مع مجموعته ؛ فقد كانت خيامهم متقدمة على الجيش العثماني بمسافة ، وبذلك كانوا على مرأى من الإنكليز الذين وجّهوا إليهم مدافعهم جاعلين منهم هدفاً لقنابلهم وقذائفهم . وحين عرض بعض أصحاب ذلك العالم الديني عليه أن يأذن لهم بتقويض الخيام

أبى بإصرار مؤكداً أن الإقدام على هذا العمل كفيل بانكسار معنويات الجيش الذي سيظن أنهم انسحبوا من مواقعهم حرصاً على حياتهم، فتضعف بذلك معنوياتهم، وتنهار قوتهم.

وعدّ الكثيرون ما حصل كرامة من كرامات ذلك الرجل الجليل؛ فقد كانت القذائف في انطلاقها نحو خيامه، تنحرف عنها لتسقط يميناً وشمالاً؛ فكانت النتيجة أن رجاله، دون استثناء، لم يصابوا بجرح واحد، ولم تخرق لهم خيمة برغم أنهم كانوا وسط ميدان المعركة، في حين قتل المئات من الإنكليز، وتحطمت لهم باخرة حربية، وغرقت أخرى. إلا أنه كانت هناك وجهة نظر مخالفة تؤكد أن ذلك الانتصار يعود لصمود الجنود العثمانيين في مواضعهم؛ فحين همّوا بالانسحاب على أثر اشتداد القصف الإنكليزي عليهم تنبهوا لصمود ذلك العالِم الجليل بمجاهديه في وجه العدو، فخجلوا من الإقدام على تلك الخطوة، فثبتوا في موقعهم محققين بذلك النصر.

وكان إسماعيل يتوقع أن يشكّل انتصارهم في (معركة الروطة) حافزاً لمواصلة الهجوم على القوات الإنكليزية، لكنه فوجئ بالهدوء يخيم تماماً على امتداد الأيام اللاحقة وكأن الحرب انتهت بحصول تلك المعركة السريعة؛ فغالبية القوات التركية اكتفت بإبقاء قوة رمزية لها هناك لتنتقل، بجحافلها ومدفعيتها، إلى الناصرية دون أن تعير المجاهدين اهتماماً يذكر، تاركة لهم مطلق الحرية في تعقّبها إلى هناك أو البقاء في مواضعهم في الروطة. وما مرت سوى أيام حتى اكتشف إسماعيل عبث الانتظار؛ فقد بدأ الكثير من المجاهدين بالعودة إلى ديارهم بعدما جوبهوا بالموظفين الأتراك يسيئون معاملتهم قاطعين عنهم الأرزاق.

وكانت الفكرة التي تخامره صباح كل يوم، حين يفتح عينيه على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مرأى النار التي سبق لهلال إشعالها وسط الخيمة قبل أن ينصرف إلى أداء صلاة الفجر ، كانت تلك الفكرة تتلخص بحقيقة أن يوم انتظار آخر قد حلّ دون نتيجة ، وهو يوم كان يتحايل عليه بمختلف الوسائل والسبل محاولاً إزجاء ساعاته المملة البطيئة المضجرة في تلك البقعة الرطبة المغطاة ببياض الملح والخالية من خضرة الأشجار والنباتات ، حيث لا شيء يلوح على مدى البصر غير زرقة السماء التي كانت تتلبد أحياناً بغيوم سرعان ما كانت تومض بالبروق التي تسبق قعقعة الرعود وهي تدمدم في أعماق السماء ليعقبها هطول زخات المطر .

وكانت هناك زرقة المياه أيضاً ، مياه الأهوار التي تبدأ ضحلة تكتنفها العديد من الجزر الطينية لتغدو عميقة شديدة الزرقة حيث تختلط بها مياه دجلة في بعض المواضع حتى يستحيل التمييز بينها وبين مجرى النهر العريض . عصراً ، مع جنوح الشمس غرباً واشتعال المياه في ذلك الجانب بلون الذهب ، كان إسماعيل يترجم ما تشغله من أفكار على شكل سؤال يجابه به صديقيه :

– أنواصل انتظارنا المملّ هذا؟ أم نحسم الأمر باتخاذ قرار نهائي لا مفر لنا من اتخاذه؟

وعلى مدى ساعات الليل كانوا يتباحثون في هذا الأمر ؛ ذلك لأن وجهات نظرهم كانت تتباين أشدّ التباين : فجابر البنا كان لا يكفّ عن تأكيد عدم اقتناعه قط بفكرة التعاون مع الأتراك ، في حين كان من رأي هلال أنه من المخجل العودة والبصرة والقرنة لا تزالان محتلتين ، فكان جابر يصيح به وقد خرج عن طوره :

– وهل تقع تكية أبو خمرة في واحدة من هاتين المدينتين؟ أم في بغداد؟!

فكان هلال يجيبه بكل هدوء ، وعيناه السوداوان تومضان في وجهه الباذنجاني :

– ومن أوهمك أن الاحتلال سيتوقف عند هاتين المدينتين ما دامت بغداد نفسها الهدف الرئيس لهذه الحرب؟

وكان إسماعيل يحبّذ رأي هلال ، ولكنْ لدافع آخر يتمثّل بيقينه أن رجال الجندرمة سيعاودون مطاردته مجدداً لسوقه إلى إحدى جبهات الحرب النائية دون أن يشفع له إسهامه في معركة متواضعة قد لا تشكّل شيئاً يُذكر في صفحة حرب ضروس لا تزال في بدايتها .

وتعاقبت الأيام والليالي وهم في حيرة من أمرهم ليتم الحسم من حيث لا يتوقعون : فعصر ذات يوم لحوا إلى الغرب مشحوفاً يتقاطع بسواد لونه مع حمرة المياه المشتعلة بوهج الشمس الغاربة قبل أن يستقر عند الشاطئ القريب حيث لاح لهم رجل مديد القامة يثب منه متخذاً سبيله نحوهم .

– إنه حمدان . . . من المؤكد أنه محمّل بحصيلة صيده ؛ عليّ الإسراع بإعداد النار .

صاح هلال جذلاً ليستدير مهرولاً نحو الخيمة غير متنبه لجابر يقول ملاحقاً إياه بنظرة استنكار :

– وكأن هذا المعيدي هو الوحيد الذي يملك مشحوفاً في أهوار تمخر فيها آلاف المشاحيف!

ولم تمر سوى دقائق حتى كان حمدان المعيدي يقف فوق رؤوسهم ، وأسنانه البيض تومض بابتسامة مطت شاربيه الكثيفين ، وثمة مجموعة طيور يحملها بيد ومجموعة أسماك باليد الثانية .

تلك الليلة ارتفعت رائحة الشواء بعبقها من عشرات الخيم ؛ فقد أشترى الكثيرون ما كان حمدان قد جلبه معه خلال دقائق ليشبعوا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بطونهم بعدما مرت بهم أسابيع وهم أنصاف جياع يكاد طعامهم يقتصر على ما تبقى لديهم من حبات تمر وكسرات خبز متيبس . وعلى مدى ساعات توافد العديد منهم على حمدان للاستفسار عن آخر الأخبار ؛ فقد كانوا يدركون أنه ما من قرية قائمة على حافة الأهوار ، أو في أعماقها ، يستثنيها حمدان من جولاته ما دامت هناك مياه تتكفل بمساعدة مشحوفه على أداء هذه المهمة . وأكدت أخبار حمدان ، دون لبس ، أنهم يبددون وقتهم في انتظار عقيم ؛ فالأتراك والإنكليز لن يكررا الاحتكاك ببعضهما في منطقة الروطة بعدما أخذا يعدّان العدّة لمعركة حاسمة في منطقة الشعيبة الواقعة على مقربة من البصرة .

وأكد حمدان وهو يدفئ أطرافه المديدة على لهب النار :

– لقد شرع المجاهدون يتوافدون بشكل يومي على السماوة والناصرية وسوق الشيوخ ليحتشد أغلبهم في منطقة الغبيشة في انتظار انتهاء علاج القائد العام سليمان عسكري بك في بغداد ومقدمه إلى هناك للقيام بالهجوم المنتظر .

ذكر بعدها أسماء العشائر التي أرسلت مجاهديها إلى هناك مثل عشائر الشامية والبو صخير والنجف فضلاً عن عشائر الأكراد الهماوند والجاف . حتى إذا ما انفضّ الجمع في آخر الليل وانفرد حمدان بأصدقائه الثلاثة نصحهم بضرورة أن يحذوا حذو الآخرين بعدم البقاء في مكانهم هذا لكي لا (يتعفّنوا) فيه على مهل .

– وكيف السبيل إلى اجتياز مسالك هذه الأهوار الشاسعة التي تبدو دون نهاية للوصول إلى هناك؟

تساءل هلال بحيرة . فتأمله حمدان لحظات قبل أن يطمئنه :

– سأتكفّل بإيصالكم . ولكنْ ليس الآن ، بل بعد أيام .

وأضاف مسوغاً سبب تأخّره في إيصالهم إلى ضرورة التهيؤ لهذه الرحلة في مثل هذا الموسم الذي تصاعدت فيه مناسيب المياه في الأهوار بشكل لم يسبق له مثيل .

فتساءل جابر متهكماً :

– وهل جنابك في انتظار صدور (فرمان) من إسطنبول لتصحبنا إلى هناك؟

أجابه حمدان وقد انفرج شارباه عن ابتسامة متسامحة :

– لا شأن لي بالفرامين السلطانية كما تعلم يا ابن العم . كل ما هنالك هو أنه يستحيل اجتياز هور بسعة هور (الحمّار) بمشحوف ، بل لا بد من الاستعانة بطرّادة في وسعها حمل أربعة رجال ؛ فالعواصف المفاجئة تكثر في مثل هذا الموسم ، كما أن ارتفاع مناسيب المياه يدفع بالخنازير إلى التجمّع في جزر القصب مما يقتضي تجنب المرور بها ، بل اختراق الأهوار مباشرة نحو حافتها الجنوبية .

وأضاف بنبرة احتفالية :

– سأتسلم ، بعد أيام ، طرادتي الخاصة بي والتي كلفتني الكثير من المال ؛ إذ إن صانعها واحد من أفضل صانعي الطرادات والقوارب الشراعية في قرية الهويّر التي يمتهن أغلب سكانها صناعة المشاحيف .

وسارع يضيف مستبقاً اعتراضاً جديداً كان جابر بصدد الإفصاح عنه :

– ثم ما جدوى إسراعكم في الوصول إلى هناك؟ فالمعركة لن تقوم بالسرعة التي تتوقعونها ؛ فنَفَس الإنكليز طويل في مثل هذه الأمور ، فهم ليسوا في عجلة من أمرهم ، إنما يهمهم الآن المضي في تحصين معسكرهم في الشعيبة بالخنادق والأسوار وبأكياس الرمل والأسلاك الشائكة ليذيقوا الأتراك الويل إن جازفوا بالتعرض لهم .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٤)

بعد أسبوع غادروا عصراً منطقة الروطة وقد تنكبوا بنادقهم . وكان المشحوف في انتظارهم على شاطئ دجلة يرتج في موضعه صعوداً وهبوطاً ليميل إلى أحد جنبيه وقد أوشك على الانقلاب لحظة ارتقاه جابر بطريقة خرقاء لولا أن حمدان تدارك الأمر بالوثوب إليه برشاقة ليعينه على الصعود . وتكوّم هلال بجانب جابر داخل المشحوف ممسكاً بحافتيه الجانبيتين بإحكام ، رامقاً برعب الأمواج التي لا تكف عن تدفقها الواحدة في أعقاب الأخرى . وبدا إسماعيل الوحيد المسيطر على تحرّكه داخل المشحوف ، يكاد يضارع حمدان في خفة تنقله وقد التقط المجدافين ليجدف بهما بهمة متذكراً أيام عمله على قاربه على هذا النهر نفسه بعيداً إلى الشمال في بغداد حيث كانت محلة كرادة مريم ، بذلك البيت الذي يعلوه عش لقلق ، مقصده الدائم .

ما كادوا يجتازون بالمشحوف دجلة إلى جانبها الغربي حتى استقبلتهم الأهوار باتساع مياهها اللانهائية التي تتخللها ، في المواضع الضحلة منها ، أجمات البردي التي سرعان ما تفسح المجال لمنابت القصب العملاق بألوانه التي تبدو عند القمة ذهبية لتتحول إلى مزيج من ألوان فضية ورمادية عند المنتصف قبل أن تغدو عند القاعدة ، في موضع انبثاقه من الماء ، شديدة الاخضرار . وكان إسماعيل قد أدرك أنه لا جدوى من استعمال المجدافين في المياه الضحلة ، فترك لحمدان ،

المنتصب بقامته المديدة في المؤخرة ، قيادة المشحوف دافعاً به إلى الأمام بحركات منتظمة من مرديّه ، مراقباً ، في الوقت نفسه ، المقدمة المقوسة الدقيقة وهي تخترق الطبقات الطحلبية الخضر التي تغطي سطح المياه ، شاقة ، بخشخشة مسموعة ، الأجمات التي تعترض سبيلها .

وكانت الطيور ، ولا سيما حشود الخضيري والحذاف ، تفضح مواضع تحركاتهم بأن تكفّ عن الغوص عند منابت القصب حال تنبهها إليهم لتنخطف بأجنحتها وهي تهبّ في طيران جماعي مندفعة إلى السماء في مجاميع حاشدة تاركة الرذاذ المتطاير من ريشها المبتل يرسم قوس قزح تدوم من بعدها لحظات . وكان حمدان يستثمر تلك اللحظات بأن يهرع إلى بندقيته التي كان قد وضعها في متناول يده ، ليطلق النار مصيباً العديد من الطيور . حتى إذا ما مروا بأماكن معينة من الأهوار تخلّى عن مرديّه ليلتقط الفالة ذات المقبض الخيزراني الطويل الذي ينتهي بشوكة خماسية . وبعدما يحدد هدفه يطعن بها أعماق المياه ليسحبها وثمة سمكة فضية ضخمة معلقة بها وهي تنتفض بيأس لتجود بآخر أنفاسها .

– هذه الطيور والأسماك هديتي لصيهود ؛ لأن عشاءنا سيكون الليلة في مضيفه .

أعلن حمدان وهو يشير بطرف قدمه الصلبة المتقرنة إلى كومة الأسماك والطيور النازفة في قاع المشحوف . واستدرك مخاطباً إسماعيل :

– بالمناسبة . . . لا أرى أثراً لكيسك (صندوق الولايات) الذي كان يحتوي على كل ما يخطر في البال .

– لم تعد بنا حاجة إليه بعدما أفرغناه عن آخره .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجابه إسماعيل مبتسماً وهو يلهو بتحريك مجدافيه بحركات عابثة ، مراقباً ، مع كل ضربة ، الدوائر التي كانت ترتسم على سطح الماء . وأمامهم ، خلف أجمة قصب ، ارتفعت أعمدة دخان مشكّلة سحابة بيضاء في زرقة السماء .

- إنهم يشعلون النيران ليحموا جواميسهم من لسع البق .

أوضح حمدان وقد انفتحت الأجمة عن بحيرة شديدة الزرقة ، توزعت ، في طرفها القصي ، بضعة أكواخ قصبية قائمة على جزر صغيرة ، وإلى الوراء منها نهض المضيف بهيكله الشامخ .

واستقبلهم حشد رجال عند باب المضيف ، مرحبين بهم ، وكان من الواضح أن صيهود لم يكن غير ذلك الرجل الضخم الذي كان يرتدي ملابس نظيفة ، معتمراً الكوفية والعقال . وبإشارة من حمدان هرع مجموعة من الصبيان إلى المشحوف ليلتقطوا الأسماك والطيور حاملين إياها إلى بيت قريب . وكانت الكلاب قد ضجت في نباح مسعور مستميتة للدنو منهم بنيّة واضحة لنهشهم وكأنها تطالبهم بثأر ما . وكانت أرضية المضيف مفروشة بالبسط ، ورائحة نفاذة تعبق في الجو : مزيج من القهوة والدخان ؛ إذ النار كانت تستعر في موقد قائم في منتصف المضيف وقد اصطفت بالقرب منه مجموعة من دلال القهوة مختلفة الحجوم .

- أهلاً وسهلاً بحمدان وأصدقائه .

كرر صيهود ترحيبه وقد تصدّر المجلس مهيباً بـ(القهوجي) الأسود الإسراع بإعداد قهوة جديدة للضيوف . وعلى وقع دقات (الهاون) المتناغمة شرع رجال السلف في التوافد للاشتراك في احتساء القهوة . وارتفع لغط الجالسين وهم يتحدثون عن الحرب المندلعة بين الأتراك

والإنكليز مخمنين لمن ستكون الغلبة .

وكانت قد مضت ساعة أو اثنتان في مواصلة الأحاديث واحتساء القهوة لحظة اندفع جمع من صبيان إلى داخل المضيف رازحين تحت ثقل صينية بالغة السعة تحتوي على تل من الرز ، أعقبوها بأطباق المرق والدجاج المشوي والسمك ، فضلاً عن التمر واللبن . وانهمك صيهود بخدمة ضيوفه : يسكب لهم المرق على الرز ، ويقطع الدجاج بأصابع خبيرة دون أن يكف عن حثهم على تناول المزيد .

تلك الليلة اضطجع إسماعيل مع أصدقائه في المضيف ، وصوت تلاطم المياه الرتيب في الجانب الآخر من الجدار القصبي يجلب النعاس لعينيه ليجفل ، بين آونة وأخرى من إغفاءته ، على خوار عميق يطلقه أحد الجواميس أو على نباح مفاجئ ، شاعراً بتيار هواء بارد يتسرب من منفذ ما مبدداً شعوره ببوادر دفء كان يلتمسه من خلال الغطاء الصوفي الذي لفه حول جسده بإحكام ، متفقداً ، من حين إلى آخر ، بندقيته التي وضعها تحت وسادته امتثالاً لنصيحة حمدان من أن المعدان لا يردعهم رادع عن سرقتها إن سنحت لهم الفرصة ؛ ذلك لأنهم يعشقون البنادق .

استيقظوا صباحاً على ضجة (القهوجي) وهو يشعل النار في الموقد مالئاً المضيف بالدخان . وازدردوا بنهم فطورهم المكوّن من (السياح) الخبز المعمول من دقيق الرز مع إبريق من الحليب الساخن .

هكذا مضى حمدان يتنقل بهم أياماً بين مضايف الأهوار ؛ إذ يكفيه أن يلقي بتحيته على الرجال ، الذين كانوا يتجمعون عند أبواب تلك المضايف القائمة على جزر وسط المياه ، حتى تنهال عليهم الدعوات للتفضل بتناول وجبة الطعام ، حتى أن جابر لم يستطع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الامتناع من أن يسأل حمدان مازحاً :

- ما حاجتك إلى الصيد في أهوار حافلة بمضايف على هذه الشاكلة؟

فأجابه حمدان مبتسماً :

- ما أصيده أبيعه خارج الأهوار يا ابن العم ؛ ذلك لأنه من العار بيع صيدك إلى المعدان لأنهم يعدونك في هذه الحالة من (البربرة) الذين يرتزقون من بيع صيدهم . . . وهم قوم محتقرون عندهم .

وكان ما يدهش إسماعيل هو إلمام حمدان الدقيق بتلك المسالك والممرات المائية التي تكتنف متاهة الأهوار التي لا تحدها حدود ؛ ما من مرة أخطأ في الوصول إلى هدفه المنشود حيث كانت تمرّ بهم العديد من المشاحيف المحملة بأكوام الحشيش . ولعل الأغرب من ذلك تشخيصه لبعض الناس من خلال سماع أصواتهم ؛ إذ كان يكفيه الإصغاء إلى غناء شجي يقطر لوعة وأسى يأتيهم من وسط أجمة قصب حتى يشخّص المغني . وكانوا يمرون أحياناً بمنابت قصب تحوّلتْ إلى رماد انتظاراً لموسم قادم سينبت في موضعها قصب جديد . وكان أشد ما يدهشهم انفجار ذلك الضجيج الذي يكاد يصم الأسماع لحظة غروب الشمس حين تشرع آلاف الضفادع في نقيق جماعي . وكانت الطيور تلوح لهم أنى تحركوا بين طائرة وخائضة في المياه ومندفعة نحو منابت القصب لتختفي فيها : طيور البرهان والغطاس ودجاج الماء والزقزاق الذي كان يدور فوق رؤوسهم مرفرفاً بجناحيه قبل أن يحط على نبتة . وكانت النسور تحلق على ارتفاعات شاهقة باحثة عن طريدتها ، والغربان تصطخب في عراكها على جثة خنزير طافية وسط المياه .

قضوا أياماً ممتعة قبل أن ينحدر بهم حمدان ، صباح ذات يوم ،

بمشحوفه جنوباً نحو قرية الهويّر القائمة على جدول يصب في نهر الفرات . وكانت أكواخ القرية ومضايفها قائمة على جزيرة وسط زرقة المياه . وبدا من الجلي أن أغلب قاطنيها يمتهنون حرفة صناعة المشاحيف والطرادات والمراكب الشراعية ؛ فهناك أكثر من قارب جديد طلي بالقار ، كما أن ألواح الخشب وأعواد الخيزران كانت مكدسة في أفنية الأكواخ ، تلوح من خلف أسيجة القصب . ومروا بمجموعة رجال منهمكين بطلي مركب بالقار برائحته الخانقة التي تطغى على الروائح كلها . وكان النجار قد أضفى اللمسات الأخيرة على طرادة حمدان ، ووضع الألواح تحتها استعداداً لدفعها نحو الماء متى ما رغب صاحبها في ذلك . وحين أفصح حمدان عن تلك الرغبة أبى النجار أن يسمح بذلك قبل تناولهم الغداء في كوخه . وحين أصرّ حمدان على استحالة ذلك اقتنع النجار بتقديم القهوة لهم .

ونقل حمدان إلى الطرادة محتويات مشحوفه : البندقية والفالة والمردي والجدافين وبضعة أكياس تحتوي على حفنات طحين وقليل من التمر ورؤوس بصل وملح ، عاهداً بالمشحوف الفارغ إلى النجار . وانتصب وسط طرادته الجديدة متفقداً بنظرة انتصار أصدقاءه الثلاثة الموزعين من حوله قبل أن يغرز طرف المردي في الماء منحدراً بهم جنوباً .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٥)

وصلوا ، ضحى اليوم التالي ، إلى الحافة الجنوبية لهور الحمّار . وكانوا قد باتوا ليلتهم في مضيف سيد يعتمر كوفية خضراء . ترك حمدان طرادته في عهدة بعض معارفه من صيادي إحدى القرى القريبة ، وقرر اصطحابهم إلى أدغال البرجسية حيث تحتشد قوات المجاهدين ليشخّص الموضع الذي سيستقرون فيه .

– من المؤكد أن إقامتكم هنا ستطول ؛ فلا مفر لي من معرفة مكان تواجدكم فقد أفكر بالمرور بكم ذات يوم .

أوضح حمدان وهو يتقدمهم بخطى واسعة ، فسأله جابر مناكداً :

– أواثق أنت من براءة الدافع الكامن وراء حرصك على زيارتنا؟ ألا يعود الأمر مثلاً إلى رغبتك في بيع صيدك في مكان يعج بآلاف الجائعين؟

فاعترف حمدان ضاحكاً :

– يهمني الأمران معاً يا ابن العم ؛ فما من تعارض بين رغبتي بزيارتكم وحرصي على رزقي .

وجدوا أدغال البرجسية تضج بحشود من المجاهدين يتنكبون البنادق ، وتتقاطع على امتداد صدورهم أحزمة الرصاص . وكانت آلاف الخيام قد نصبت تحت ظلال أشجار الأثل ، وثمة خيول عارية الظهور مشدودة السيقان بسلاسل وهي تحجل هنا وهناك ملتقمة ،

بأشداق نهمة ، العشب وأغصان الشجيرات ، وأخرى ربطت بحبال إلى أشجار ، وقد علقت برؤوسها مراشح سود محبوكة من شعر الماعز تضم حفنات شعير كما يبدو .

بحثوا طويلاً عن الجهة المعنية بتنظيم أمور القادمين الجدد سعياً لإمدادهم بالأرزاق والعتاد ، ولكن دون جدوى ؛ فقد كان الكثيرون لا يعيرون استفساراتهم اهتماماً ، في حين كان آخرون يختصرون إجاباتهم في الغالب بجملة مقتضبة يكررونها بلا مبالاة قاتلة :

- لا أعلم .

في النهاية انفجر إسماعيل ثائراً :

- ألا تلاحظون أن الدلائل تشير ، وسط هذه الفوضى ، إلى استحالة وجود جهة على هذه الشاكلة؟

وأفضى بهم تجوالهم إلى التخوم الجنوبية للأدغال حيث فوجئوا بسماع صهيل أعقبه ظهور حصان جامح يعدو نحوهم يتعقبه صاحبه راكضاً وهو يصيح مستغيثاً :

- اعترضوا سبيله بحق الله . . . لا تدعوه يفلت منكم .

كان الحصان أدهم كأنه قطعة من الليل ، يعدو في اتجاههم بسرعة البرق قافزاً بخفة من فوق الشجيرات التي تعترض سبيله .

- من المحال المجازفة باعتراض سبيل هذا الحصان الثائر .

صاح إسماعيل مسقطاً بهزة من كتفه حزام بندقيته ليبادر بإطلاق رصاصة في الهواء كان لها مفعول السحر ؛ فقد كبح الحصان ، على بعد أمتار منهم ، من حدة اندفاعته ليستدير جانباً بشكل أخرق ، فكبا على قائمتيه الأماميتين ، وكان من المحتمل أن يدق عنقه لولا أنه عاود الوثوب بعدما تخبط لحظات وسط دغل متشابك عرقل نهوضه وقتاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كفل لصاحبه اللحاق به والإمساك بطرف الحبل المشدود إلى عنقه في اللحظة نفسها التي شبّ فيها الحصان على قائمتيه الخلفيتين مطلقاً صهيل احتجاج ليقفل عائداً من حيث أتى ساحباً وراءه صاحبه المتشبث بالحبل .

– يا له من معتوه! . . سيتحول جسده إلى ما يشبه المنخل إنْ لم يدع الحصان يواصل عدوه المجنون!

صاح هلال وهو يركض محاولاً اللحاق بأصدقائه الثلاثة الذين كانوا يهرولون في أعقاب الحصان الجامح ، مستهدين سبيلهم بما تصدر عن الرجل المنكود من صرخات كانت تفلتُ منه كلما اصطدم بالشجيرات التي تعترض سبيله . لكن الغريب هو أنه لم تكد تمر لحظات على عدوهم حتى التقوا الرجل واقفاً بسلام وأنفاسه تكاد تتقطع من فرط اللهاث . وكان قد أمسك بحبل الحصان وهو منشغل الآن بالربت على جبينه الموشوم بلطخة بياض ، مداعباً شعر غاربه محاولاً تهدئته دون أن يكف عن ترصدهم بعينيه وهم يدنون منه .

– شكراً على مساعدتكم ؛ فلولا تلك الإطلاقة لكان من المحال عليّ الإمساك به ، ولكان من المؤكد أن يفلت مني ليضيع وسط مئات الخيول التي تعج بها هذه الأدغال .

خاطبهم الرجل حينما اقتربوا منه مواصلاً مداعبة حصانه بيد ملطخة بالدم في أكثر من موضع . وكانت ثمة خدوش وشمت وجهه الأسمر الضئيل ، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يبدو في غاية السعادة والفرح وهو يرمقهم بعينين حولاوين تضفيان عليه منظراً مخاتلاً .

– تصوروا . . . لم أكد أعلّق مرشحة الشعير برأسه حتى حرن وكأنه أصيب بمس من الجنون ، فقطع حبله لينطلق في عدوه المخبول

بسبب ضفدعة من هذه الضفادع الربيعية اللعينة المنتشرة حولنا كالوباء كانت قد تسللت إلى المرشحة دون أن أدري ، فقفزت منها لتصيبه بين عينيه!

أردف الرجل ضاحكاً . ودعاهم بإلحاح إلى مرافقته إلى خيمته القريبة ليقوم نحوهم بواجب الضيافة ، مؤكداً لهم استحالة أن يتركهم قبل القيام بهذا الأمر . وشفع كلامه بأن عقد طرف حبل الحصان إلى أقرب شجرة ، وودعه بضربة تحبب على كفله المخضل بالعرق .

كان الرجل يرتدي ، فوق ثوبه ، قمصلة غريبة بأزرار نحاسية كان لا يكفّ عن تلمّس جيوبها وهو يتقدمهم نحو خيمته ليسألهم مطالعاً إياهم بنظرته الزائغة :

– أحسب أنكم قدمتم اليوم إلى البرجسية؟

فأيد إسماعيل استنتاجه ليسأله بعدها عن الجهة التي يفترض بهم اللجوء إليها في مثل هذه الحالة ، فصاح الرجل مستنكراً :

– لا تجعلني أشك بفراستي من كونكم أناساً طيبين وعلى كثير من الفطنة ؛ ذلك لأنه لا يعقل أن تتوهموا بأن الأتراك يشغلهم مثل هذا الأمر . . . لا بل إنهم يحرصون أشد الحرص على الإمعان في الإساءة إلينا بأكثر السبل خشونة .

وتساءل وقد وقف بباب الخيمة داعياً إياهم إلى الدخول :

– ثم ما حاجتكم إلى استجداء طلب معونة الأتراك ولديكم خادمكم ذياب رؤوف؟

وشفع قوله بأن دق على صدره بكفه الدامية مفصحاً عن استعداده السماح لهم بمشاركته في خيمته عن طيب خاطر . وحين رآهم يتبادلون نظرات حائرة وهم يتوزعون داخل الخيمة ليجلسوا على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصرر والأكياس المبعثرة هنا وهناك ، مضى يزين لهم الأمر بقوله :

- كما يمكنكم الاعتماد عليّ في تزويدكم بما هو أشهى من أرزاق الأتراك البائسة ؛ فلديّ ما يفيض عن حاجتي منها .

وبرهن على كلامه عملياً بأن قال ، وهو يستلّ ، من أحد الأكياس ، علبة رماها نحوهم ، فالتقطها إسماعيل وهي طائرة في الهواء :

- خذوا . . . تذوقوا هذا اللحم المعلّب الذي لم يسبق لسلاطين آل عثمان أن تذوقوا مثله!

وحين رآهم يقلّبون العلبة بين أيديهم وهم في حيرة من كيفية فتحها التقط علبة أخرى ليفتح غطاءها بلمسة سريعة من أنامله وهو يقول :

- شمّوا رائحة اللحم التي تستدر اللعاب .

فاقتطع إسماعيل برؤوس أنامله قطعة صغيرة من اللحم لم يكد يقرّبها من فمه حتى صاح هلال محذراً :

- توقّف ؛ فقد يكون لحم خنزير!

فرد ذياب مستنكراً :

- كيف يكون لحم خنزير والجندي الذي سلبته مجموعة علب كان هندياً مسلماً؟

- وهل تريد أن تطعمنا لحماً مسروقاً؟

عاد هلال يعترض ، فدس ذياب ملء أصابعه من اللحم في فمه وهو يقول متهكماً :

- عن أية سرقة تتحدث يا صديقي وهؤلاء الجنود قدموا ليسرقوا منك وطنك؟!

إلا أن هلال أبى أن ينهزم ؛ فقد بادر ذياب باعتراض جديد :

– وهل أنت واثق من أن البقرة ذبحت على الطريقة الإسلامية؟

فحسم جابر الأمر بأن جارى ذياب في حشو فمه باللحم ، وهو يقول :

– دعني أشبع بطني من هذا اللحم اللذيذ محمّلاً مَنْ ذبح تلك البقرة جريرة الطريقة التي اتبعها في ذلك!

وتنقّل هلال بعينيه بين تلك الأفواه الأربعة المنشغلة بمضغ اللحم متنشقاً تلك الرائحة الزكية ، وهو يزدرد لعابه قبل أن يمد يده طالباً منحه جزءاً صغيراً ليتذوقه على سبيل التجربة . ولم تمضِ لحظات حتى أخذ يطالب ذياب بمنحه حصته كاملة غير منقوصة!

وحدثهم ذياب ، وهو يلحس بطرف لسانه فتات اللحم الذي كان يتعلق بشعيرات شاربيه ، عن اضطراره إلى اللجوء إلى هذه الطريقة ليوفر لنفسه الطعام ؛ إذ إنه يكمن ، بين أسبوع وآخر ، في البساتين الممتدة بين الزبير والبصرة ، أو في الطرق المؤدية إلى معسكر الشعيبة والمغمورة بمياه الفيضان ، حيث يتربص بالجنود الهنود حين يكونون في طريقهم إلى معسكرهم محملين بمواد الإعاشة فيساومهم على حياتهم لقاء ما يحملون ، وقد يحالفه النجاح أحياناً ليكون الفشل نصيبه أحياناً أخرى مع ما يعقب ذلك من إطلاق رصاص تسبب بإصابته بالجروح أكثر من مرة .

وتلمّس بفخر قمصلته قائلاً إنه حصل عليها في واحدة من تلك الغارات . ودس يده في أحد جيوبها ليستلّ منه ساعة فضية ذات سلسلة ، ضغط على نابض فيها فإذا بالغطاء يرتفع لتطالع أعينهم تلك الأرقام الدقيقة الموزعة تحت زجاجة على محيط دائرة ، وثمة ثلاثة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عقارب وواحد منها يدب في دوران نشط دون كلل .

وختم كلامه بقوله :

- تلك هي الوسيلة الوحيدة التي جعلتني أتشبث بالبقاء هنا عوضاً عن الاقتداء بآلاف المجاهدين الذين شدوا الرحال عائدين إلى ديارهم .

فعلق حمدان وهو ينهض :

- يبدو أنك تجاهد على طريقتك الخاصة يا ابن العم!

وودعهم قائلاً إنه لا خوف عليهم الآن وهم في عهدة (مجاهد) على هذه الشاكلة!

وعلى مدى الأيام اللاحقة تكفّل ذياب بضمهم إلى مجموعة المجاهدين التي كان ينتمي إليها ، مزوداً إياهم بآخر الأخبار ، وكان أهمها دون شك موعد وصول القائد العام سليمان عسكري بك إلى الناصرية حيث تجمّعتْ في أطرافها فلول القوات التي انسحبت من البصرة بعد انهزامها لتلتحق بها فيما بعد فرقة الموصل التي كانت في حلب ، كما انضمّ إليها لواء الإطفائية فضلاً عن مجموعات من المجاهدين يقودهم عدد من أبرز المجتهدين مثل السيد محمد سعيد الحبوبي ، والسيد محسن الحكيم ، والسيد هادي المكوطر . وكان كبار قادة بعض العشائر العربية والكردية ، مثل : عجمي باشا السعدون ، وعبد الله السعدون ، والشيخ خيون ، وبدر الرميض ، ومبدر الفرعون ، ومحمد الحفيد ، ونامق بك الهماوندي ، قد التحقوا بدورهم بتلك القوات مع خيرة رجال عشائرهم .

(٦)

وكان موعد وصول القائد العام قد بات شغل إسماعيل الشاغل : يغادر الخيمة ، صباح كل يوم ، في أثر ذياب ليراقب ، وسط آلاف المجاهدين ، الأفق الغربي في انتظار أن يلمح سحابة الغبار التي تنبئ بوصوله .

وكانت قطعات الجيش النظامية ، من مشاة وخيالة ، شرعت في التدفق على أدغال البرجسية : لا يكاد يخلو يوم من قدومهم ، ترافقهم بطاريات مدافع السهل مقطورة إلى الخيول والبغال ؛ إذ يسارع الجنود إلى حفر مواضع لها عند الحافة الشرقية للأدغال وعلى الربايا المشرفة على تلك الأرض الخلاء الممتدة على مدى البصر ، والتي تنتهي بحصن معسكر الشعيبة ، وهو ينهض في أقصى الشرق ، وسط انعكاسات مياه الفيضان الربيعية ، أسود ينذر بالشر .

هكذا مضت الأيام وهم في انتظار نشوب بالمعركة . وسعدوا أكثر من مرة بقدوم حمدان وقد أثقلت مجموعة طيور وأسماك يديه ؛ فكان جابر يجابهه بسؤال مستفز عن النقود التي أثقل بها جيبه قبل وصوله إليهم لقاء بيع الحشود صيده؟ فكان حمدان يجيبه وقد شقّتْ ابتسامة متسامحة سبيلها وسط شاربيه الكثين :

– خير وبركة يا ابن العم . . كل ما يأتيني هو قسمتي ونصيبي .

واستدل إسماعيل ، ذات ليلة ، من خلال انهماك الجنود في جعل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تجهيزاتهم وعتادهم نظيفة ولامعة ، أن القائد سيصل صباح الغد ؛ فبادر مع من معه إلى تنظيف بنادقهم وتزييتها ، محاولين ، ما وسعتهم الحيلة ، إضفاء لمسات على مظهرهم تكفل لهم شيئاً من أناقة يجدر بهم الحرص عليها في مثل هذا اليوم المشهود . حتى إذا ما حل صباح العاشر من نيسان انهمك قادة القطعات العسكرية بإصدار الإيعازات إلى قطعاتهم لتنتظم ، بحسب مراتبها ، في صفوف طويلة : الخيّالة في المقدمة ، تليهم بطاريات المدفعية وحملة الرشاشات ، ومن ثم المشاة .

وكانوا قد انقسموا على شكل صفوف منتظمة متراصة يفصل كل صف عن آخر ممر لا يعتور استقامته أي اعوجاج . أما صفوف المجاهدين فتبدو ، على النقيض من ذلك ، على شيء من الفوضى التي زاد من تفاقمها اختلاف الملابس التي كانوا يرتدونها : فالمجاهدون العرب كانوا يعتمرون الكوفية والعقال ، في حين كان المجاهدون الأكراد والتركمان بالسراويل الفضفاضة وبأغطية الرأس ذات الشراشيب ، أما الأفندية فكانوا بالسترات والبناطيل ، تعلو رؤوسهم الطرابيش . وكان عامة الناس ، وبضمنهم إسماعيل وأصدقاؤه ، يرتدون الدشاديش مغرقين رؤوسهم الحليقة بالطاقيات .

وأخيراً ظهر الموكب المنتظر عند أقصى الصفوف يحيط بعربة مقطورة إلى حصانين سرعان ما ترجّل منها القائد العام المنتظر فإذا به لا يزال يشكو من آثار كسر إحدى ساقيه في الروطة .

وصدرت الأوامر بالاستعداد ، ومعها تحركت الأذرع ليرتفع صليل الأسلحة بالتحية النظامية . وهدرت آلاف الحناجر مرددة باللغة التركية الهتاف التقليدي بحياة السلطان العثماني :

– باديشا هم جق يشا .

ورددت الأدغال الأصداء قبل أن يخيم الصمت تماماً . واشرأبت الأعناق وقد احتبس الجميع أنفاسهم في صدورهم . وتطلعت الأنظار نحو الموكب الذي كان يتقدم حثيثاً يتوسطه القائد العام سليمان بك عسكري وهو ينقّل خطاه بصعوبة برغم استناده إلى عكازين . كان يتقدم ، وسط القادة الأتراك الذين زيّنوا صدورهم بصفوف من الأوسمة والنياشين ، محيياً المحتشدين بإيماءات من رأس أضناه المرض .

– أي نصر تحلم أن يحققه جيش يقوده قائد كسيح على هذه الشاكلة؟

سمع إسماعيل جابر يهمس له لاكزاً إياه في جنبه . وكان الاستعراض قد انتهى وانفضت الحشود ، وحُمل القائد إلى مقر القيادة العامة الذي كان قد أقيم وسط الأدغال .

في اليوم التالي جاءهم ذياب بالأخبار المرتقبة ؛ فالقائد كان في عجلة من أمره ؛ فقرر القيام بالهجوم ليلة اليوم نفسه . واستدرك وقد ازداد انحراف عينيه نحو منبت أنفه دلالة خطورة ما يصرح به :

– لقد طلب منه عجمي باشا السعدون ومن معه من قادة المجاهدين التريث في القيام بذلك الهجوم ، والاستعاضة عنه بفرض الحصار على المعسكر وعزله بقطع خطوط مواصلاته بشن غارات مفاجئة يقوم بها المجاهدون ؛ وذلك بسبب قوة الحامية البريطانية المرابطة هناك ، ولمنعتها التي عززها الجنود على مدى أربعة أشهر بإحاطتها بالأسلاك الشائكة وأكياس الرمل .

– أنه رأي سديد .

قاطعه جابر معلقاً ، فصاح ذياب ثائراً :

– بيد أن سليمان بك رفض ذلك وحدد لهم ساعة الهجوم كاشفاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خطته التي تقتضي بأن تبدأ القوات النظامية بالهجوم من القلب ليتولى المجاهدون الهجوم من الجناحين الأيمن والأيسر .

واسترسل ذياب في كلامه وقد تربع على الأرض ليعمد إلى تسوية التراب أمام الخيمة راسماً بطرف عود خطة الهجوم :

– انظروا . . . هذا الشكل البيضوي يمثّل أدغال البرجسية القائمة إلى الغرب ، أما هذه الدائرة المؤشرة في أقصى الشرق فتمثل حصن الشعيبة .

ورفع رأسه ليتنقل بعينيه الحولاوين بينهم ليتأكد من استيعابهم الدرس . وبعدما حدد ثلاثة أسهم تنطلق من الغرب باتجاه الشرق عاد يواصل كلامه :

– السهم العلوي يمثل الجناح الأيسر ، والأوسط القوات النظامية ، أما الأسفل فيمثل الجناح الأيمن ، وسيكون بقيادة عجمي باشا السعدون ، وسنكون نحن الأربعة من ضمن أفراده .

فعلّق هلال بأسى وهو يتأمل الخطوط المحددة على التراب :

– ليت الأمر يتم بهذه البساطة دون قتل وإراقة دماء!

– من أين استقيت هذه المعلومات الدقيقة التي لا يعرفها عادة إلا كبار القادة؟

تساءل جابر ساخراً ، فأجابه ذياب وهو يداعب أزرار قمصلته باعتزاز :

– وما ظنك بي؟ ألا يكفي أن أكون كذلك وتحت أمرتي ثلاثة مقاتلين على شاكلتكم؟

تبادل الأصدقاء نظرات استنكار قبل أن ينفجروا مقهقهين .

تلك الليلة لم يغمض لهم جفن . كانوا يترقبون حلول الفجر

بقلوب واجفة أرهقها الانتظار ، حتى إذا ما بدأت المدفعية التركية قصفها الرهيب ممهدة للهجوم أخذت الأرض تزلزل من تحتهم . وشعر إسماعيل بتلك الرعدة التي لا مهرب منها ، وهي تسري في جسده وقد اكتنفته حالة من الترقب والانتظار تحوّل في أثنائها إلى مجموعة أعصاب متوترة إلى مداها . وعادت المدافع تواصل قصفها فرادى : تنطلق قذيفة من أقصى الشمال ، لتعقبها أخرى من أقصى الجنوب ، فثالثة تهدر صافرة من الوسط ، هكذا استمر قصف المدافع في اتجاه الشرق قبل أن يصدر للمشاة الإيعاز بالتقدم ؛ إذ انطلقت مجموعات من المجاهدين مزودين بالمعاول لحفر الخنادق ، في حين هرول إسماعيل محني الظهر يخترق ستائر غبش كان يتوهج بعيداً إلى الشرق باحمرار قذائف المدفعية الإنكليزية وقد شرعت في الرد .

لم يعد يشغل تفكيره وجود أصدقائه بالقرب منه ؛ فقد انفصل عن كل ما يحيط به شاعراً فقط بثقل بندقيته - التي كان قد شد إلى فوهتها الحربة - بين يديه حيث أصابع اليد اليمنى استقرت قرب الزناد ، والسبابة مهيأة لأداء مهمتها عند الحاجة . كانت قدماه تحملانه في انطلاقه إلى الأمام ليجد نفسه وقد انبطح على الأرض تلقائياً حال شعوره بقذيفة معادية تصفر مخترقة الهواء في اتجاهه لتنفجر في موضع ما وسط عصف شظايا مصحوبة برائحة الدخان والبارود ، فكان يثب ليواصل هرولته إلى الأمام قبل أن يعاود الارتماء على الأرض مجدداً وكأن ثمة يداً غير منظورة أجبرته على القيام بذلك ؛ إذ إنه لم يكن يستجيب حينها لإيعازات عقله قدر استجابته لغريزة مجهولة تحرص على حمايته من الفناء .

وحين أشرقت الشمس اكتشف إسماعيل أنه كان قد تحصّن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بحفرة غمرت نصفها الأوحال والمياه الآسنة الحافلة بدعاميص الضفادع . وكان المقاتلون عن يمينه وشماله قد تحصّنوا فيما صادفوا من حفر أو عمدوا إلى حفر خنادق بعدما أصبح التقدم ضرباً من محال ؛ فالمدفعية البريطانية لم تكن تكفّ لحظة واحدة عن إرسال حمم قذائفها التي أحالت الأرض إلى جحيم حقيقي .

وعلى مدى ساعات بقي إسماعيل يشرئبّ بعنقه ، كلما هدأ القصف قليلاً ، فوق حافة حفرته متطلعاً تارة إلى الأمام حيث الإنكليز ، وطوراً إلى الخلف حيث رفاقه في انتظار أحد أمرين : أما أن تهدأ المدافع ، أو يعمد المسؤولون عن الإطعام والشراب إلى أداء واجبهم ؛ فقد أخذ شعوره بالجوع والعطش يتفاقم فعمد إلى النبش في جيوبه أكثر من مرة بحثاً عن كسرة خبز أو بضع تمرات قد يكون نسيها هناك .

وانحدرت الشمس نحو الغروب حينما لم يعد في وسعه الاحتمال أكثر ، فتلمّس حافة حفرته ليقتطع ملء قبضتيه سيقان بضع نباتات خبّاز كانت نبتت هناك . وبعدما نفخ عنها الغبار حشا بها فمه ليمضغها ملهوفاً برغم شعوره بتكسر حبات الرمل بين أسنانه . كان ما يهمه أن يعبّ ، من ذلك المزيج الدبق الذي يخالطه خيط مرارة ، المزيد عساه أن يهدئ من صرخات جوعه ، مبللاً شفتيه ، وقد كتم أنفاسه ، بقطرات من بركة المياه الملوثة . ومع هبوط الظلام شرع الإنكليز في قذف قنابر الإضاءة : فمن مكمنه في الحفرة أخذت تطالع عينيه تلك المظلات الحريرية الصغيرة وهي تتهاوى ببطء من سواد السماء المرقطة بآلاف النجوم محيلة الليل إلى نهار على مدى دقيقة قبل أن يخبو ومضها ليتحوّل في آخر الأمر إلى حشد نقاط حمر وبيض وخضر

سرعان ما تتلاشى بدورها ليعقبها انفجار قنبرة إضاءة جديدة .

ولم يدرِ إسماعيل متى نام على إيقاع القصف المتواصل وهو يتضور جوعاً ويرتجف برداً ليجفل على يد تمس كتفه ، وحينما فتح عينيه أبصر ، في ضوء شمس الصباح ، ذياب رؤوف وقد قرفص قربه وسط حفرته ، وهو يحاول إيقاظه!

– منذ البارحة وأنا في انتظار أن يهدأ القصف قليلاً لأنتقل إلى حفرتك ؛ إذ إنك لم تغب عن عيني منذ شروعنا في الهجوم ؛ فقد كنت أقبع خلفك في خندق يقع على بُعد أمتار منك ومعي جابر وثلاثة مجاهدين آخرين .

كلّمه ذياب وهو يتفحصه بعينيه الزائغتين ، فسأله إسماعيل بقلق :

– وهلال؟

– لم أعثر له على أثر ؛ وذلك لأن القوات أضاعت اتجاهها عند الهجوم فتداخل بعضها مع بعض أثناء الحركة التي أسفرت عن هذه الفوضى والإرتباك .

أجابه ذياب ليؤكد له بتصميم :

– ولكنْ اطمئن ؛ سأنبش ساحة المعركة شبراً شبراً بحثاً عنه حالما تسنح الفرصة .

وبغتة صاح بغضب :

– لقد باتت نتيجة هذه المعركة معروفة سلفاً ؛ وذلك لأن المدفعية البريطانية المتفوقة عدداً وسرعة تمكنت ، خلال نصف ساعة فقط ، من إسكات المدافع العثمانية البالية من نوع (مانتلي)!

وتابع ذياب وهو يستلّ من موضع من طيات قمصلته ذات الأزرار

https://telegram.me/maktabatbaghdad

علبة لحم معلب بادر إلى فتح غطائها قبل أن يناولها إسماعيل :

- لا شك أنك تتضور جوعاً ؛ ذلك لأنه لم يظهر أثر للمسؤولين عن الإطعام أو السقاية ؛ إذ من المؤكد أنهم لن يجازفوا بالقدوم حتى لو أنهم هُددوا بالسلاح ؛ فالقصف المعادي يغطي ساحة المعركة كلها .

لم يجبه إسماعيل بطبيعة الحال ؛ فقد كان ما يهمه في تلك اللحظة التهام المزيد من هذا اللحم الشهي الذي جاء بعد ساعات طوال في أعقاب وجبة بائسة تمثّلتْ بسيقان خباز محشوّة بالرمل . وواصل ذياب كلامه معترفاً بأن وضعهم محرج ؛ فبعد انكسار الجناح الأيسر زاد الإنكليز من ضغطهم على القوات النظامية والجناح الأيمن ؛ فالدلائل تشير إلى أنهم بصدد القيام بتعرض واسع . وحذّره من احتمال أن يصاب بإحدى الشظايا ؛ فحفرته ضحلة ومكشوفة دون سقف ، كما أن الإنكليز قد يستهدفونهم بقنابل من نوع (شرابنل) التي تنفجر في الهواء فتنتشر قطعها إلى مسافات في كل الجهات . ونصحه بمرافقته إلى خندقه إذ إنه أعمق وله سقف . وانتظر لحظات ، حتى إذا ما انفجرت قذيفة على مقربة منهما وثب منطلقاً وهو يهيب بإسماعيل صارخاً :

- هيا!

وأردف موضحاً بعدما انزلقا واحداً في إثر الآخر إلى داخل الخندق ساحبين في أعقابهما سيلاً من التراب :

- لقد اكتشفت ، من خلال التجربة ، استحالة سقوط قذيفتين في الموضع نفسه .

استقبلهما جابر منفعلاً بسبب انحشار إطلاقة في سبطانة بندقيته كان يحاول إخراجها . وكان هناك ثلاثة مجاهدين آخرين في

الخندق المسقّف ، وقد تكوّر أحدهم على نفسه لافّاً ، حول رأسه ، غطاء متسخاً ليستغرق في نوم عميق كأنه في بيته . وانتهت محنة جابر بنجاحه في التخلّص من الرصاصة المحشورة ؛ فعلّق مشيراً بإكبار إلى الرجل النائم :

– أتدري بأن هذا المجاهد قضى الليلة الماضية وهو يتنقّل ، تحت وابل الرصاص ، من موضع إلى آخر ليكلل مسعاه بنجاحه في إخلاء ضابط تركي جريح إلى الخطوط الخلفية قبل أن يلتحق بنا من جديد؟

وانبرى أحد المجاهدين الآخرين يحدّث إسماعيل عن الأعمال البطولية الخارقة التي قام بها عجمي باشا السعدون طوال اليوم السابق ؛ فقد كان يقتحم بخيّالته صفوف الإنكليز بجرأة تقرب من الجنون موقعاً بهم خسائر فادحة قبل أن يتراجع بسرعة مذهلة ناشراً من معه على مسافات متباعدة ليجنبهم تأثير قذائف المدفعية الإنكليزية . وبعدما تبتلعهم الصحراء كان يعاود الهجوم بهم ، وقد نظّم صفوفهم!

– سأتسلل بين الخنادق باحثاً عن هلال ؛ إذ لا يستبعد أن يكون قد استشهد أو جرح .

أعلن ذياب وكأن تلك الأحاديث أعدته بقبس من الشجاعة . وكان قد غاب قبل أن يتسنى لإسماعيل الوقت اللازم لمنعه عن الإقدام على هذا العمل المتهور . ومرت الساعات وإسماعيل وجابر يتوقعان ، بين لحظة وأخرى ، عودة ذياب بهلال . بيد أن ثالث أيام المعركة حلّ دون أن يظهر لهما أثر ، وكانت المبادرة قد انتقلت إلى الإنكليز ؛ فأخذوا يقومون بحركات تعرّضية لتصفية المقاتلين الأتراك الذين كانوا يجازفون بالدنو من معسكرهم .

عصراً بدأ الإنكليز في شنّ الهجوم المقابل ؛ فقد بات في وسع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إسماعيل أن يرى عياناً خيّالتهم يهجمون شاهرين السيوف ، يتعقبهم المشاة على شكل موجات : تتقدم موجة لتنبطح على الأرض مواصلة إطلاق الرصاص ، فتليها موجة ثانية قبل أن تنبطح بدورها لتعقبها موجة ثالثة ، هكذا أخذ الجنود الإنكليز يتقدمون على امتداد الأفق .

– هيا . . . كف عن إطلاق الرصاص وأنجُ بنفسك ، وتذكّر أنك لست على جفرة الزورخانة ؛ فالجميع شرعوا في التراجع!

تنبه إسماعيل إلى جابر وهو يخاطبه بذلك الكلام ليثب مهرولاً محنيّ الرأس في أعقاب المجاهدين الثلاثة الذين سبقوه بالانسحاب ، فتراجع إسماعيل بدوره ليتعثر بأولى الجثث : كانت جثة فتى في مقتبل العمر لا شك أنه عانى من نزع رهيب ؛ فقد كان ثوبه قد انحسر في اتجاه رأسه وتقوّس بطنه الضامر المشعر متصلّباً على وضعيته تلك وقد اندلقت الأحشاء إلى الخارج . وكانت هناك جثة أخرى دفنت تحت أنقاض حفرة فلم يظهر منها سوى كف متشنجة تستجدي الغوث .

وجفل إسماعيل حين شعر بيد تمسك بساقه . وحينما دقق النظر لمح ، في ضوء الشمس الغاربة التي غطت الأرض بوهجها الأحمر احمرار الدم ، فتى استلقى على بطنه وقد انحسر الدم عن وجهه تماماً وهو يطالعه بعينين متوسلتين وفم راجف وقد مد يده نحوه بحركة استغاثة مثل طفل كبا فجأة فرفع يديه في انتظاره من يقيله عثرته!

– دعه . . . إنه يحتضر ؛ ألا تراه يسحب أحشاءه وراءه؟

جاءه صوت من الخلف ، خمّن إسماعيل أنه صوت جابر ، وهو يحثّه على الإسراع بالتقهقر قبل أن يدركهم الإنكليز .

وهل ثمة مهرب منهم؟

ساءل إسماعيل نفسه وقد شدّ كفيه على بندقيته عازماً على أن يدافع عن نفسه حتى آخر إطلاقة فيها . وكانت أصوات المطاردين الإنكليز تأتيه من الخلف ، وخيّالتهم يرمحون بخيولهم في أثرهم ، في حين كان لا يكف عن التعثر ، بين خطوة وأخرى ، بجثث تغطي الأرض كلها .

ومرّ بالمدافع التركية ، وقد تحطم بعضها ، ونكّس بعضها الآخر فوهته في التراب . وكانت الشمس قد غربت حين وجد نفسه يتوغل وسط مئات المتراجعين بين أشجار أثل أدغال البرجسية ليقف معهم قرب حشد من المتراجعين ، وقد تحلقوا حول قائدهم سليمان بك عسكري الذي كان يطالعهم ، من فوق عربته ، بعينين مجنونتين وهو يصيح ، وقد علا الزبد شدقه ، بلغته التركية التي أثارت حفيظة أحد المجاهدين الذي بدا على معرفة بتلك اللغة ؛ فقد خاطب من حوله متسائلاً باستنكار :

- أيعقل أن يتهمنا هذا التركي الجلف بأننا سبب هزيمته؟

فعلّق آخر متهكماً :

- لقد انهزم جيشه ؛ فعليه الإسراع بالفرار إلى الغبيشة أو الخميسة قبل أن يأخذه الإنكليز كأسير حرب!

وبغتة فوجئ إسماعيل بذلك القائد وهو يشهر مسدسه على الجمع الهائج حول عربته ليدير فوهته على غير توقع نحو صدغه مطلقاً على نفسه النار!!

كانت إطلاقة يتيمة ، بيد أنها بدت في نظر إسماعيل وكأنها لم تضع نهاية لحياة ذلك القائد فحسب ، بل أجهزتْ على عهد مقيت آن له أن ينتهي بشكل من الأشكال!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حربٌ أخرى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عقب انتهاء العطلة الصيفية وصلتْ إلى أبي رسالة مزدانة بطابع سوري تبيّن أنها مرسلة من طرف إسماعيل يخبره فيها باحتمال أن تمتد إقامته هناك ، عند أحد أبنائه ، سنوات بسبب التحاق مريم بجامعة دمشق ؛ فعادت الحياة تمضي بي على وتيرتها المملة التي سبقتْ تعرّفي إلى مريم : أبدأ يومي بانتزاع ورقة جديدة من تقويم معلّق على أحد جدران (الديوخانة) من تلك التقاويم التي تتألف عادة من مجموعة أوراق بعدد أيام السنة : كل يوم بورقة تحمل التاريخ موشحَاً بحكمة أو أبيات شعر قديم لم أكن أفوّت قراءتها ، بل حفظها أحياناً ، أغادر بعدها البيت لأقف ضجراً في شارع الجمهورية في انتظار مقدم تلك الحافلة الحمراء مفكراً بجلساتي السابقة مع مريم وضياع أكثر من فرصة سنحتْ لي لأكاشفها بحبي .

وفي الكلية كنت أقضي أغلب ساعات النهار في رفقة وليد وقاسم ، موزعين أوقاتنا بين قاعات المحاضرات والنادي الضاج بصخب الطلبة ، حيث تتجه أعيننا تلقائياً نحو الطالبات اللائي تزداد ملابسهن انحساراً فوق الركب تبعاً لتقليعة (الميني جوب) الجديدة التي تحرص على كشف أكبر مساحة ممكنة من تلك الأفخاذ البضة . وكان صديقاي يحاولان مواساتي على ما حصل بلفت انتباهي إلى أكثر (اللقطات الساخنة) الجديرة بالمتابعة وتدقيق النظر ، مراهنين إياي – لقاء لفة الهمبرغر وقنينة المرطبات التقليديتين – أنه تكفيني مصادقة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أية فتاة منهن لكي أنسى مريم خلال أربع وعشرين ساعة ، فكنت أرفع صوتي فوق ضجة الحضور مهيباً بنادل النادي لكي يسارع بإسعافهما بما يطلبان شريطة أن يدعاني وشأني .

بعد انتهاء الدوام في الكلية كنا نتخذ سبيلنا نحو شارع الرشيد ؛ حيث يتفقّد وليد واجهات محلات بيع الملابس باحثاً عن أحدث التقليعات ، نعرّج بعدها على شارع المتنبي وسوق السراي لأقتني أحدث الروايات العربية والمترجمة التي يتلقف قاسم عدداً منها بحجة (الاستعارة) .

وكنا نعود إلى شارع الرشيد لنحط الرحال في واحد من تلك المقاهي التي اشتهرت بكونها ملتقى بعض الأدباء المعروفين ، مثل مقهى البرلمان والبلدية ، فننزوي جالسين على أحد التخوت ، مراقبين من بعيد الأدباء الذين كثيراً ما تطالعنا صورهم في الصحف والمجلات ، وقد تجمعوا مع بعضهم قرب الواجهة الزجاجية المطلّة على الشارع ، وهم منهمكون في تبادل أحاديث صاخبة تتخللها ضحكاتهم المجلجلة .

كنت أحلم باليوم الذي أستطيع فيه أن أتخطى تلك المسافة التي تفصلني عنهم لأشاركهم في تلك الجلسة ، مستمداً العزم على اتخاذ هذه الخطوة الجريئة من نجاحي في نشر بضع محاولات قصصية في بعض الصحف لم تخرج عن نطاق أسطورة إسماعيل الذبيح!

والحق أنني كنت أعيش آنذاك أتعس أيام حياتي ، ليس بسبب غياب مريم فحسب ، بل لاقتران ذلك الغياب بهذه الأحداث الدامية التي جعلت يأسي يبلغ الذروة ؛ فها هو الأمل الوحيد الذي أضاء ليل حزننا الذي خيّم منذ الخامس من حزيران وقد أوشك أن يتبدد ليتكاثف الظلام أكثر .

وكانت شاشة التلفاز المركون على رف يعلو رؤوس الحشود الضاجة الصاخبة المنهمكة بألعاب (الدومينو) و(الطاولة) ، تشعرني بما تعرض من لقطات مروعة ، بأن ما حدث عقب هزيمة حزيران كان صدعاً اعتور حياتنا ، صدعاً لا يزال يمتد ويتشعب تحت الأقدام وصولاً إلى أغوار النفوس .

وكان التلفاز يتابع حركات المقاومة الفلسطينية التي عمدت إلى اختطاف الطائرات سعياً منها للحصول على رهائن لغرض إطلاق سراح فدائيين فلسطينيين محتجزين في إسرائيل وبعض الدول الأوربية مما تسبب في انفجار الأوضاع معهم . كما كان يعرض لقطات عن الملوك والرؤوساء العرب وهم يجتمعون عبثاً سعياً منهم لحقن الدماء .

وكانت آخر اللقطات التي عرضها التلفاز تظهر شوارع القاهرة وقد ضاقت بتلك الحشود الهائلة ، وهي تحمل نعش جمال عبد الناصر إلى مثواه الأخير!

يومذاك غادرنا المقهى قبيل حلول المساء لنفترق دون وداع ، فاتخذت سبيلي صامتاً ملاحظاً صور الشهداء الفلسطينيين الملصقة على أعمدة شارع الرشيد ، وقد تمزق أغلبها ، فلم يبقَ منها سوى قصاصات تصطفق في الريح حاملة صور الأكف المرفوعة بعلامات النصر .

وبقيت ، على امتداد الطريق ، أفكر بمريم التي تعيش في دمشق إثر فترة عصيبة مرت بها في عمان ، مفكراً بيوم عودتها ، وقد تعمق حزنها ، وفاضت مرارتها أكثر ، ترفل بملابس حدادها الأبدي التي اعتدتُ أن أراها فيها .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هكذا تعاقبت آخر سنتين لي في الكلية ، حتى إذا ما أنهيت دراستي الجامعية قضيت السنة الثالثة في مرافقة قاسم ووليد في جولات أسبوعية بحثاً عن وظيفة ؛ إذ لم نترك وزارة أو دائرة إلا وطرقنا بابها ، ولكن دون جدوى ؛ فكنا نتخذ سبيلنا نحو أحد مقاهينا القديمة لنفرغ الغيظ المتراكم في صدورنا بلعبة (دومينو) صاخبة نحرص خلالها على دقّ الأحجار بقوة على الطاولة مع إرسال شتائم مبهمة بحق الوظيفة والجامعة والكلية .

وطوّر وليد قاموس الشتائم ؛ فأضاف إلى القائمة الأساتذة والطلبة و . . .الميني جوب! . . . فتشجع قاسم : فأخذ يدق قطعه مرسلاً شتائمه بحق (الحكومة)!! . .

وفاجأتنا شاشة التلفاز ، ذات يوم ، بنشوب حرب جديدة مع إسرائيل ؛ فنفضنا أيدينا عن قطع الدومينو لنتابع بنظرات غير مصدّقة قطعات الجيش المصري وهي تجتاز قناة السويس مخترقة خط (بارليف) لتشرع بتطهير سيناء من المحتلين ، في حين تخطى الجيش السوري خط (آلون) نحو الجولان المحتلة ؛ فإذا بنا نرى الجنود الإسرائيليين ، لا العرب هذه المرة ، يتمرغون في التراب ، وهم يجودون بآخر أنفاسهم ، وأعداد أخرى منهم يساقون أسرى!

وبقيت تلك الحرب مدار حديثي مع سهيل الخلف ؛ فكلما التقتيه في (العلوة) كاشفته بسعادتي بما حصل إيماناً مني بأن هذا الانتصار العربي على الإسرائيليين قد يسهم في حل القضية الفلسطينية المستعصية ، بيد أنه كان يخالفني الرأي ؛ فما كان يخشاه هو أن الهدف من حرب تشرين لم يكن التحرير بقدر ما كان الوصول إلى حل نهائي يروّج له السادات بزعم أن تسعاً وتسعين من أوراق اللعبة بيد أمريكا!

لم أكن أعارضه تهرّباً من إثارة عناده ، إنما كنت أناقشه محاولاً أن أكتشف سر تشاؤمه الدائم ، حتى إذا ما فشلت أرجأت الأمر إلى فرصة أخرى ، وتركته لأدير شؤون (العلوة) مستبقاً بذلك قدوم أبي في محاولة مني للتهوين من إخفاقي بالتعيين في عمل وظيفي هو في واقع الأمر ضرب من عبودية يُفرض على خريج الجامعة لقاء مرتب هزيل .

كنت أزجي ساعات عملي بالرد على المكالمات الهاتفية التي لا تخرج عن نطاق عقد صفقات تجارية ، مشرفاً ، في الوقت نفسه ، على تنظيم عمل الحمالين الفيلية[١] لحظة شروعهم في تفريغ إحدى الشاحنات من حمولتها ؛ إذ كانوا يتنافسون في ارتقاء تلك الخشبة الطويلة التي تمتد بين مؤخرة الشاحنة والأرض ، ليسبق كل واحد منهم الآخر في حمل أثقل البضائع ، راطنين ، في أثناء صعودهم وهبوطهم ، بلغتهم الكردية ، شاتمين بعضهم بعضاً ، وسيول العرق تسحّ من أجسادهم القوية ، وهم يرزحون تحت أثقال لا يسع عشرة رجال مثلي تحريكها من موضعها!

وكنت أستقبل ، أيضاً ، الزبائن من تجار ، وبقالين ، وأصحاب حوانيت ، محتسياً مع مقدم كل ضيف جديد مزيداً من الشاي ، مراقباً الخال يحيى القبنچي ، المتحصن في زاويته المعهودة على إحدى الأرائك ، محاولاً أن أخمّن عدد السجائر التي يدخنها يومياً .

على تلك الشاكلة كان الوقت يمر بي في (العلوة) ، حتى إذا ما وصل أبي واحتلّ كرسيه المعهود قرب القاصة سارعت بالخروج لأخترق

---

(١) الفيلية : وهي إحدى العشائر الكردية التي عرف شبابها بالقوة والتحمل واختصوا بالعمل حمالين في أسواق الشورجة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أسواق الشورجة المسقفة والمضاءة بآلاف المصابيح الكهربائية ليل نهار حيث لا يكاد المرء يتحسس موطئ قدميه وسط تزاحم المتبضعين على الحوانيت ، وعربات الباعة المتنقلين ، والبضائع المعروضة على أرضية الأسواق .

وكان جامع مرجان التاريخي آخر ما يطالع عينيّ قبل أن أصل إلى شارع الرشيد ، فأتخذ سبيلي نحو باب المعظم(١) حيث يكون صديقاي في انتظاري في المقهى المعهود وقد حضّرا أحجار الدومينو لخوض لعبة يدفع فيها الخاسر ثمن مرطبات تلك الجلسة .

وكان وليد قد عيّن مدرساً ؛ فبادر خلال أيام ، وقبل تسلّمه أول مرتب من وظيفته ، إلى الزواج بحبيبته ، وبذلك بات يتخلّف ، في الغالب ، عن حضور جلسات المقهى بسبب ارتباطاته الجديدة مثيراً بذلك حفيظة قاسم ؛ إذ ما من مرة التقيته في المقهى إلا وقال وهو يهيئ أحجار الدومينو :

- لا يعقل أن يتغيّب اليوم أيضاً!

ويظل يعبث بقطع الدومينو وقتاً طويلاً ملقياً ، من حين إلى آخر ، نظرات متبرّمة على ساعته ، حتى إذا ما صادف وقدم وليد بكامل أناقتة تصنّع قاسم البرود واللامبالاة ، مجابهاً استفزازات وليد ، وهو يعدد - أثناء لعب الدومينو - مزايا الزواج ، بابتسامات متهكمة

---

(١) باب المعظّم : إحدى محلات بغداد المهمة الواقعة في جانب الرصافة والتي تكثر فيها الدوائر الحكومية الرسمية والمستشفيات . وكان يقع فيها أحد أبواب بغداد الأربعة المسمى بباب السلطان ، أما تسمية المعظّم فقد جاءتها دلالة على الطريق المؤدي إلى مرقد أبي حنيفة النعمان الكائن في محلة (الأعظمية) .

وتعليقات ساخرة يثني بها بدوره على مزايا العزوبية ، مدندناً أحياناً بمقطع من أغنية وديع الصافي (رزق الله على العزوبيه) .

كنت أضيق ذرعاً بجدلهما الدائم ؛ فأنعي سوء حظي الذي ورطني بصديقين مثلهما ، حتى إذا ما وجدتهما يستهدفانني بنظرات متسائلة ، أتابع قائلاً :

- لقد جعلتماني في حيرة في الاختيار بين العزوبية والزواج .

- أنت لن تتزوج أبداً!

يقولها وليد بحسم ليضيف حينما يجدني لا أحير جواباً :

- ذلك لأنك مهووس بفكرة الزواج لا الزواج نفسه!

- يعني مهووس بالعادة السرية لا . . .

يعلّق قاسم بمنتهى الجدية ؛ فننفجر في ضحك صاخب . وينتظر وليد لحظات ليوضح بعدها رأيه :

- بابا أنت مهووس بفكرة اسمها إسماعيل الذبيح ، وما حرصك على الزواج بابنته إلا كتعويض عنه!

ونعود لنقهقه مجدداً ، في حين يمضي قاسم ليؤكد ضرورة أن أحسم الأمر حال عودة الرجل من دمشق وذلك بأن أبادر بطلب يده هو لا يد ابنته!!

على هذا المنوال كنت أزجي وقتي في المقهى لأعود قبيل المساء إلى البيت حيث تفتح أمي لي الباب لتبادرني بسؤالها الأزلي :

- هل أصبّ لك الغداء؟

هكذا تتابعت الأيام رتيبة متشابهة ، حتى إذا ما مرت أشهر فوجئت ، ذات يوم ، بأمي تسألني هذه المرة لحظة فتحها الباب لي :

- أين كنت؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأضافت دون أن تنتظر ردي :

- أبوك غاضب!

وكان أبي غاضباً حقاً ؛ فقد رأيته واقفاً أمام المغسلة ذات الصنبورين القائمة في الحوش قرب التنور ، وهو يتوضأ مفصحاً عن غضبه بتبليل أوسع مساحة حوله .

ترى أيكون غضب لتسللي من (العلوة) دون أن أخبره بذلك؟ لكنني فوجئت به يسألني :

- لماذا تختفي حينما تمسّ الحاجة إليك؟

وأردف وقد تأبط سجادة صلاته الصغيرة متوجهاً بها إلى إحدى الغرف ، وقطرات الماء تتساقط من أطرافه بسخاء :

- على كل حال ما الذي يجعلني آمل أن تختلف عنه؟ فهو الآخر بدأ مثلك في مساعدتي في إدارة (العلوة) ، حتى إذا ما تزوج واستقلّ ببيته ، تخلّى عني ، ولم يعد يطالعني بوجهه إلا حينما يكون بصدد طلب المزيد من النقود ، وكأنني أسكها في (العلوة) سكاً!

أومأت لي أمي ، من خلف ظهر أبي ، بحركة من رأسها عن مغزى هذا الحديث المبهم؟ فسألتها بدوري همساً إن كان شقيقي قد مر بالبيت؟ وحين أجابت بالنفي طمأنتها إلى أننا لا شأن لنا ، نحن الاثنين ، بغضبه ؛ فالأمر يتعلق بشقيقي ذاك .

بعد دقائق خرج أبي من الغرفة ، وتقدمني نحو الإيوان ليجلس على إحدى الأرائك في انتظار احتساء شاي العصر ، فتعقبته بدوري لأجلس في مواجهته على أريكة أخرى منتظراً إيضاح سر غضبه . وكانت أمي تحوم في الحوش بحجة انشغالها بإعداد الشاي ، في حين كان كل ما يهمها لا يتخطى سماع ما سيقال .

– لقد اتصلتُ بشقيقك بالهاتف على أمل أن يوافيني في البيت هذا المساء ليرافقني إلى بيت إسماعيل ؛ فقد عاد اليوم من دمشق ، فلا بد لنا إذن من زيارته للقيام بالواجب برغم مرور سنوات على استشهاد ابنه عطا ، بيد أنه تهرّب من هذه المهمة بحجج وأعذار مختلفة .

واسترسل في حديثه غير مدرك أنني لم أعد أفقه من كلامه أي شيء ؛ فها هو إسماعيل الذبيح يعود ، فلم يبقَ أمامي سوى الانتظار بعض الوقت للتأكد من أنه اصطحب مريم في هذه العودة!

ليلاً ، عقب العشاء ، غادرت البيت في رفقة أبي متوجهين إلى بيت إسماعيل القائم على مسافة دقائق . كان بيتاً صغيراً بطابق واحد يفضي بابه الخارجي مباشرة إلى غرفة الاستقبال حيث كان ثمة شباب يقاربونني في السن – عرفت فيما بعد أنهم أبناء عمات مريم العديدات – لا يكفون ، طوال جلوسنا ، عن الدخول إلى تلك الغرفة والخروج منها حاملين إستكانات الشاي تارة ، وفناجين القهوة طوراً ، وكؤوس الماء ثالثة .

كما قدمت تلك العمة ، التي اعتدت تحيتها يومياً وأنا أراها جالسة عند العتبة ، تتابع بعينيها الرائح والغادي ، قدمتْ بجرمها الضخم المغطى بالسواد ، وهي تنقل بصعوبة خطاها المتعثرة حاجلة يميناً ويساراً مثل طائر بطريق . وتأوّهتْ متألمة وقد بركت جالسة على إحدى السجادات لتلتقط أنفاسها لحظات قبل أن تعلن أنها لا تطيق الجلوس مثلنا على الأرائك . وبقيت ، طوال مكوثنا ، تتنقل بوجهها ، المنتفخ المؤطر بسواد الفوطة ، بيننا وهي تهز رأسها مؤيدة كل ما ننطق به ممعنة ، في الوقت نفسه ، في تدخين السجائر الواحدة في أعقاب الأخرى .

كانت قد بلغت تلك المرحلة المتأخرة من العمر حين تتحول المرأة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالتدريج إلى كائن لا يحمل تلك الصفة إلا مجازاً ؛ فما من شيء يربطها بجنسها غير ملابسها الأنثوية!

بدا إسماعيل وكأنه ازداد نحولاً وطعن في السن أكثر ، يتجنب ، ما وسعته الحيلة ، التطرق إلى مأساة استشهاد ابنه ، مكتفياً بالقول إنه لم يبق في عمان سوى أيام قبل أن يسافر إلى دمشق حيث استقر عند ابنه جابر ؛ فوجدتها مريم فرصة سانحة لإكمال دراستها الجامعية .

وأضاف مبتسماً :

– وهكذا يبدو أنه لا مفرّ لنا من السير على نهج (الخطوة خطوة) مستلهمين طريقة وزير خارجية أمريكا (كيسنجر) في حل معضلتنا مع العدو .

فتساءل أبي ساخراً :

– أتعني نهج المراوحة في المكان نفسه؟

فأجابه إسماعيل بجدية هذه المرة :

– تماماً ؛ إذ إن الأمريكيين لن يسمحوا للعرب بتكرار تجربة حرب تشرين التي توحدوا فيها وتجرأوا – أول مرة في تاريخهم – على قطع إمدادات النفط عن أمريكا وبعض الدول الأوربية .

واسترسل في كلامه ضارباً أمثلة على ما تقوم به أمريكا لأجل حماية حليفتها إسرائيل ولا سيما في أثناء الحرب ، وكيف أنها سارعت بإمدادها بأكثر الأسلحة تطوراً مسببة بذلك في إحداث ثغرة (الدفرسوار)[1] حيث بات سبيل الجيش الإسرائيلي سالكاً نحو

---

(١) الدفرسوار : وهي الثغرة التي أحدثها الجنرال الإسرائيلي شارون حينما اجتاز بقواته قناة السويس إلى الضفة الغربية أثناء حرب تشرين عام ١٩٧٣ .

القاهرة مضطرين بذلك المصريين إلى الدخول في مفاوضات الكيلومتر (١٠١) .

كنت أصغي بإحدى أذني إلى ذلك الحوار الدائر بين أبي وإسماعيل مجنّداً الأذن الثانية للبحث عن صوت مريم وسط جوقة أصوات أبناء العمات المستمرين في دخولهم وخروجهم مغالباً لذعة غيرة لم استطع لها منعاً وأنا أفكر بها وسط هؤلاء العمالقة .

ضحى اليوم التالي جفلتُ من نومي منتفض القلب على الصوت المنشود يتردد في حوش بيتنا ، فغادرت غرفتي على عجل لأهبط السلم وثباً حيث استقبلتني مريم مبتسمة لتصافحني بكف ملطخة بالدقيق ، فهنأتها على إكمالها دراستها الجامعية في دمشق ، فشكرتني مبتسمة تاركة لأمي مهمة التقاط الأرغفة الناضجة من التنور .

بدا وجهها وكأنه ازداد امتلاء ، بيد أنه افتقد براءته السابقة بسبب تحديد الحاجبين ، لكن عينيها الذهبيتين ظلتا ، باستدارتهما اللوزية الفاتنة ، محتفظتين بسحر نظرتهما .

وكانت صورة أسرتها المعلقة في الإيوان أول شيء تفقّدته ، حتى إذا ما اطمأنت إلى أنها لا تزال في موضعها وسط الصور الأخرى اقتربت منها لتشير إلى شقيقها عطا الذي استشهد مخاطبة إياي بقولها :

– أتتذكر ذلك الحلم الذي بقي يلاحقني أثناء الامتحانات النهائية؟ كنت أرى فيه صورة أحد أشقائي ملصقة على عمود من أعمدة شارع الرشيد ، وقد رفع السبابة والوسطى بعلامة النصر ، وحينما أجفل مستيقظة كنت أحاول أن أتذكّر مَن مِن أشقائي الخمسة لاح لي في تلك الصورة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتابعت بصوت متهدج وهي تخفي عينيها عني :

– وها أنا ذي الآن وقد عرفتُ صاحب الصورة!

في خريف تلك السنة ، ومع بدء دورة دراسية جديدة ، عرفتُ من أمي أنه تم تعيين مريم مدرّسة في مدرسة متوسطة للبنات تقع في محلة (أبو السيفين) ؛ فبتّ أتحين الفرص للقائها (مصادفة) وهي في طريقها إلى هناك ؛ فأرافقها في رحلة طويلة مشياً على الأقدام مجتازين عشرات الأزقة قبل الوصول إلى مدرستها ونحن منهمكان بالتحدث بكل ما يخطر لنا على بال!

لم تعد بي حاجة إلى مكاشفتها بحقيقة مشاعري نحوها ؛ فتعاقب الأيام زاد من شد أحدنا إلى الآخر حتى أن مريم باتت تعاتبني إن صادف ومنعتني الظروف ، مدة طويلة ، عن لقائها . وكان ما بدأ يشغلني آنذاك يتمثّل بطلب يدها : أنوّه لها ، كلما سنحت الفرصة ، بذلك ؛ فتجيبني بابتسامة ترسم أجمل غمازتين على وجنتيها .

وكان احتمال قرب تقدّمي لخطوبة مريم مصدر حزن قاسم بطبيعة الحال ؛ لا نكاد نلتقي في المقهى حتى يصارحني معترفاً :

– الأمر خارج عن إرادتي ؛ لا مفرّ لي من أن أفرح لك ظاهرياً في الوقت الذي . . .

– . . . تبكي فيه دماً دون شك!

كان وليد يقاطعه مكمّلاً ، فيجيبه قاسم وهو يتنقل بعينيه بيننا :

– لقد (حشرتماني في الزاوية) ؛ ذلك لأنني سأصبح العازب الوحيد بينكما ؛ فلا تكاد تمر أسابيع حتى تدخل أنت بدورك بيت الزوجية مقتدياً بوليد في الانقطاع عن المقهى مما سيضطرني إلى الالتحاق بحشد هؤلاء العجائز المتجمعين في إحدى زوايا المقهى

لأستغرق مثلهم بتدخين النارجيله!

فكان وليد يقترح عليه بخبث وجسده يتلوّى بفعل ضحكة مكتومة :

- في هذه الحالة ألا يفترض بك الاكتفاء بـ(فكرة الزواج) تاركاً لنا التمتع بالزواج نفسه؟

بيد أن طلب يد مريم لم يحصل بالسرعة التي توقعها قاسم ؛ ففي الثالث عشر من نيسان حملت الإذاعات نبأ إطلاق مجموعة من حزب الكتائب اللبناني نيران أسلحتها على حافلة كان يستقلها خمسة وأربعون فلسطينياً في منطقة عين الرمانة في بيروت ، مسببة في استشهاد تسعة وعشرين واحداً منهم ، فأُعلن الإضراب العام في معظم المدن اللبنانية ، وأصبح الوضع هناك بالغ التوتر ينذر باحتمال نشوب حرب أهلية .

وبات حديث مريم ، كلما التقيتها وهي في طريقها إلى مدرستها ، لا يخرج عن جزعها على وضع شقيقيها محمد وفؤاد اللذين كانا يعملان في صفوف المقاومة الفلسطينية ؛ وبذلك أرجأت فكرة طلب يدها في انتظار أن تهدأ الأحوال في لبنان . بيد أن الأحداث اتخذت هناك منحى خطيراً ، تطور ، في أواخر شهر آب ، إلى وقوع اشتباكات عنيفة في مدينة زحلة أسفرت عن سقوط خمسين شهيداً . وتعقد القتال أكثر بفعل الصراعات الطائفية التي عمد الإسرائيليون إلى تأجيجها حتى بلغت الذروة بسقوط مخيم جسر الباشا وحصار حزب الكتائب والمتحالفين معه مخيم تل الزعتر حصاراً امتد على مدى ثلاثة وخمسين يوماً ، كنا نتتبع ، بقلوب دامية ، أخبار دفاع الفلسطينيين عن أكواخ الصفيح التي تعرضت - كما ورد ذلك في وثائق الصليب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأحمر – لثلاثة وسبعين هجوماً سقطت فيها عليهم خمس وخمسون ألف قذيفة مسببة في استشهاد ألفين وخمس مئة فلسطيني بينهم الشيوخ ، والنساء ، والأطفال ، وجرح آلاف منهم لم تتمكن بعثة الصليب الأحمر الدولية أن تخلي غير مئتين وثلاثة وأربعين جريحاً!

كان ما يجري للفلسطينيين في لبنان أشد هولاً مما جرى لهم من قبل حتى اضطرت الجامعة العربية إلى عقد مؤتمر قمة سداسي في الرياض تقرر فيه تعزيز قوات الأمن العربية في لبنان وجعلها قوة ردع .

وكانت مريم ، طوال تلك الأشهر ، تحدثني عن رعبها مع قدوم كل يوم جديد ؛ إذ تتوقع فيه وصول برقية من بيروت تنبئها بحصول كارثة ؛ فلم تكن تخلد إلى النوم إلا في ساعة متأخرة من الليل في انتظار قدوم يوم مرعب آخر . وكانت معنويات قاسم قد ارتفعت بهذا التأجيل ؛ فعاد يدق أحجار الدومينو بحماسته القديمة : لا يأبه كثيراً بخساراته المتكررة ؛ فكان يتحمل عن طيب خاطر دفع ثمن ما نشرب مؤكداً أن ذلك يهون قياساً بالالتحاق بهؤلاء العجائز لأجل مشاركتهم في تدخين النارجيلة!

وكنا نتطرق بأحاديثنا في المقهى ، ونحن منهمكان باللعب ، إلى مناقشة آخر (أخبار الساعة) التي تنبئ بأن أمراً ما يُعد بشأن القضية الفلسطينية ولا سيما يوم أعلن الرئيس المصري أنور السادات في مجلس الشعب ، وبحضور رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ، استعداده لزيارة القدس ومناقشة الإسرائيليين في (الكنيست) لأجل الوصول إلى السلام!

يومها صاح وليد مستنكراً :

– لا يعقل أن يؤخذ ما قال الرجل على محمل الجد!

فأيده قاسم قائلاً :

– يبدو لي أن ما قاله ليس غير نوع من المبالغة الكلامية في التحدي .

– أخشى أنني على النقيض منكما أخالفكما الرأي .

علقت لاستطرد مؤكداً أن أمريكا وإسرائيل نجحتا في الإيقاع بالسادات بعدما لوّحتا له ، مدة طويلة ، بذلك (الطعم المسموم) المتمثل بشروط عقد مؤتمر للسلام في (جنيف) ، مرجئتين ، من حين إلى آخر ، موعد الانعقاد أبعد فأبعد!

يومها عرجت ، في طريق العودة ، على إسماعيل في بيته ، وكان قد سمع بالخبر . وجواباً على سؤالي عن رأيه بذلك قال بعدما أوقد سيجارة :

– إنها اللعبة القديمة يا بني يعاد تكرارها بشكل أكثر قسوة هذه المرة .

ومضى يدخن سيجارته لحظات ليستطرد مع سحابة دخان كثيفة :

– لا جديد في ما يجري ؛ فعلى امتداد السنوات الأربعين التي تعاقبت على استقراري في القدس مررنا بـ(تمثيليات) مشابهة : فقد أغرقنا البريطانيون بتلك اللجان التي كانت تتعاقب على البلاد كلما استجد الصراع مع اليهود : (لجنة شو) و(اللجنة الملكية) و(اللجنة الفنية) . . إلخ . وكانت هناك أيضاً (الكتب البيض) التي كانوا يصدرونها تباعاً عقب كل انتفاضة ليتنصلوا من تنفيذها حال انتهاء العنف . هكذا بدأ الأمر هناك : على شكل بضعة أسطر حملت اسم (وعد بلفور) ليتوافد بموجبه آلاف اليهود من شتى بقاع العالم مشيعين حولهم أنهم سيتعاونون مع الفلسطينيين في جعل بلادهم تجري فيها أنهار اللبن والعسل .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتحدث عن أول صدام حدث بين الفلسطينيين واليهود - ذلك الصدام الذي حكم عليه بسببه بالإعدام ؛ فأودع سجن عكا الرهيب في انتظار تنفيذ الحكم - وكان (ممر البراق) الذي يزعم اليهود أنه (حائط المبكى) الأثر الوحيد الباقي من هيكل سليمان هو سبب ما حصل . حتى إذا ما مرت السنوات شمل اليهود بأطماعهم جزءاً من فلسطين فالبلاد كلها قبل أن يمتدوا بأطماعهم إلى شبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان السورية .

- لذلك أنا واثق أن السادات كان جاداً تماماً في كلامه ذاك ، وأن زيارته للكنيست ستتم دون أن يتحقق السلام الذي يحلم به ؛ ذلك لأن إسرائيل ستنفرد بعربدتها في المنطقة بعد نجاحها في إخراج أكبر الدول العربية من حلبة الصراع معها .

لم تكد تمر أيام حتى وصل السادات إلى القدس ، وقدم إسماعيل إلى بيتنا متوكئاً على عصا . قال بعدما تهالك جالساً على إحدى أرائك (الديوخانه) :

- جئتكم لأنني خشيت أن أموت قهراً وأنا أسمع وحدي خطاب هذا الفرعون الجديد في الكنيست الإسرائيلي!

وطالعنا السادات بوجهه من خلال الشاشة ، ومضى يلقي خطابه في الكنيست كأي ممثل عريق من ممثلي هوليبود!

تلك اللحظة ، وأنا أصغي إليه ، وهو يتحذلق على طريقته في إلقاء خطابه ، انتابني شعور غريب بأن ما يحدث محض كابوس لا يمت إلى الواقع بصلة .

وحينما أنهى السادات خطابه بعاصفة من التصفيق حاول إسماعيل النهوض عن أريكته أكثر من مرة دون أن يفلح ، فمددت

يدي إليه مساعداً إياه . ورافقته إلى بيته للوصول إلى هناك بسلام . ولحظة وقف إزاء باب بيته سمعته يقول بصوت راجف :

- ما معنى أن تُبدّد أنهار الدماء التي جرت على مدى ستة عقود ، منذ إعلان وعد بلفور ، على عتبة الكنيست الإسرائيلي على هذه الشاكلة؟!

ورفع رأسه مطالعاً إياي بوجه هرم رأيته ، في ضوء مصباح الشارع القريب ، وقد تبلل بالدموع .

منذ ذلك اليوم اعتكف إسماعيل في بيته ، فكنت أمر به بين آونة وأخرى متفقّداً أحواله حيث كانت عمة مريم العجوز تستقبلني مرحبة ، متلقّية بامتنان ما أحمله لها من علب سجائر وأكياس معجنات قبل أن ترافقني إلى غرفة الاستقبال لتتربع جالسة على إحدى السجادات ممعنة في تدخين السجائر .

في السادس عشر من آذار بثّت الإذاعات نبأ قيام إسرائيل بغزو جنوب لبنان مستثمرة خروج أكبر قوة عربية من الصراع معها ؛ ففاجأني إسماعيل ، حين زرته عصر اليوم التالي ، بقراره السفر إلى لبنان منوّهاً أنه قد لا يعود إلى بغداد مجدداً مفضّلاً الاستقرار هناك . وتابع مسوّغاً قراره ذاك :

- لا تنسَ يا بني أنني في الثامنة والثمانين من عمري ، وكل شيء متوقع في مثل هذه المرحلة برغم أن الأعمار بيد الله . . . سأسافر إلى بيروت لأكون مع ولديّ محمد وفؤاد ليحدث لي ما يحدث لهما ؛ ذلك لأنني لن أطيق أن يتكرر ما وقع لعطا في عمان بغيابي .

واسترسل في كلامه بعدما أوقد سيجارة :

- لقد كان أبنائي بارين ؛ جعلوني ، أنا وشقيقتهم مريم ، نعيش

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مـرفـهين بفـضل دأبهم على إرسـال النقـود لنا من حين إلى آخـر ؛ فيفترض بي أن أشاركهم في محنتهم حينما يجد الجد .

يومـذاك عـدت إلى البيت وأنا لا أكـاد أبصر سبيلي ؛ أيعـقل أن تضيع مريم مني مجدداً؟ كنت متأكـداً أنها سـترافق أباها في هجـرته النهـائيـة إلى بيـروت ؛ وهذا أمـر لـن أسـمح بحـصوله بأي شكـل من الأشكال ؛ وهكذا استجمعت شجاعتي فطلبت من أبي ، فور عودته من (العلوة) ، أن يتقدم إلى صديقه إسماعيل خاطباً ابنته لي!

وكـانت مريم تحسب أن أباها سيعود بعدما يتفقّد أحوال ابنيه في بيـروت ، غيـر مدركـة أن هجرة إسـماعيل الذبيح ، هذه المرة ، نهـائيـة ؛ لذلك كـانت تسعى جهدها إلى إرجاء الزفاف بحجج وأعذار لم أقتنع بها أبداً لإدراكي أن السبب الحقيقي يعود إلى أن أملها لـم ينقطع بعودة أبيـهـا إلى بغداد ليبارك زواجـهـا . وكنت أجاريها في رغبـتـهـا برغم انتـقـادات أمي اللاذعة عن (بنات آخر الزمن) ، تاركـاً لـلأيام مـهـمـة إقناعها بالاستسلام للأمر الواقع .

وكـان شغـفي القـديم بحكايات إسـمـاعيل الذبيح قـد عـاودني مجدداً - بسبب غيابه الجديد كما يبدو - فحاولتُ الشروع في كتابة روايتي المنتظرة ، وحين أخبرتُ مريم بذلك فوجئتُ بها تسألني بحيرة :

- أيفـتـرض بي ، مسـاعـدتك ، بأن أروي لك ما حـصل لأبي في القدس؟

- ذلك ما لا مفرّ منه ؛ إذ إنك الوحيدة الملمّة بتلك الأحداث .

- لقد استقرّ في القدس قبل ولادتي بربع قرن ؛ ولذلك سأعتمد على مـا سمعتـه من أمي ومن خـالي زكريا الخالدي في رواية أحداث تلك الفترة .

واستطردتْ مترددة :

- بيد أن المشكلة تتجسد بأكثر صورها بشاعة حين أصل بتلك الأحداث إلى سنواتي الخمس عشرة التي عشتها هناك .

وتأملتني لحظات ، قبل تضيف ، وهي في حيرة من أمرها :

- يبدو أن كتابة هذه الرواية مرتهنة بأن أنكأ جروح الماضي العصيّة على الاندمال .

واستدركتْ موضّحة أنه لو كان الأمر مقتصراً على حياة أبيها في فلسطين لكان في وسعها الشروع في التحدث عنها متى ما رغبتُ ، لكن المشكلة أن ثمة سلسلة كوارث اكتنفتْ تلك الحياة لتتوج بكارثة استشهاد أمها فاطمة فضلاً عن صديقتها فدوى التي استشهدتْ في اليوم نفسه .

وفجأة أخفت وجهها بين كفيها لتقول وهي تنشج :

- سأظل أتذكر ما حييتُ تلك اللحظة المرعبة حينما كان رجال الزقاق منشغلين في رفع أنقاض البيت الذي ساوته الطائرات الإسرائيلية بالأرض فوق رؤوس تلك الأسرة المنكودة ؛ إذ لم يكد أحد الرجال يرفع حجراً من بين الركام حتى اندفعتْ ضفيرة فدوى بحركة كان من دأبها تكرارها حينما كانت تشمّر بها خلف ظهرها!

بدا من الواضح أن مريم لا تزال غير مهيّأة لمساعدتي في رواية أحداث تلك الحقبة التي لن تقوم لروايتي قائمة دونها ، كما أنني بدوري كنت أتهيّب من كتابة هذا النمط الإبداعي الصعب برغم تمرّسي بكتابة القصة القصيرة ، فصرفتُ النظر عنها مؤقتاً تاركاً للمستقبل مهمة تذليل العقبات ، مستعيضاً عن ذلك بالتقدم إلى الدراسات العليا في جامعة بغداد للحصول على شهادة الماجستير في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحد فروع الأدب الحديث . حتى إذا ما تم قبولي تكفّلت مريم بمساعدتي في إعداد مصادر البحث ومراجعه ، كأني بها تحاول التكفير عن تهرّبها من مساعدتي على كتابة الرواية ، موفّرة بذلك عذراً مشروعاً للقدوم إلى بيتنا بشكل يومي لينفرد أحدنا بالآخر في المكتبة بحجة تصفّح تلك الكتب ، مغتنمين الفرصة بالتسلل إلى غرفة النوم المجاورة بسريرها الوثير الذي كان يغرينا باللجوء إليه ، والإمعان في تبادل القبل ، ونحن نلهث من فرط الرغبة قبل أن تنتبه مريم لنفسها فتوقفني عند حدي ، وهي تهمس في أذني :

– كفى . . . يفترض بنا التوقف عند هذا الحد ؛ وإلا ما الذي نبقيه لليلة زفافنا إذن؟

فكنت أردّ بمرارة :

– حمداً لله لأنك لا تزالين تتذكرين أن ثمة ليلة زفاف في انتظارنا!

في غمرة انشغالنا بتبادل القبل ، تنبهتُ ، ذات يوم ، لمريم تهمس لي ، وهي تنزلق من بين ذراعي مبتعدة عني :

– أظن أن أمك تناديك .

تجمدت في موضعي مصيخاً السمع قبل أن أسرع إلى مغادرة الغرفة لأطلّ ، من فوق سياج (المحجر) ، على أمي في الأسفل وقد رفعتْ وجهها نحوي وهي تخاطبني مقرّعة :

– الله أكبر . . . يبدو أن هناك ما يشغلك عما يدور حولك فلا تنتبه حتى لو انقلبت الدنيا فوق رأسك . . . ألا تسمع عويل صافرات الإنذار وهي تدوي منذ دقائق؟!

فتنبهت ، في تلك اللحظة فقط ، إلى ذلك العويل المتقطع الذي لم

يسبق لي سماعه إلا في الحالات التي كانت تجرى فيها الاختبارات الدورية لتلك الأجهزة . وكان يعلو وينخفض بتلك الطريقة التي تدخل الرهبة في النفس .

- ما الذي حدث؟

سمعتُ مريم تسألني لتتعقبني وأنا انطلق نحو السلم هابطاً الدرجات وثباً قبل أن أجتاز الحوش نحو الباب الخارجي حيث الزقاق كان قد امتلأ بالجيران ، وهناك وجوه نسائية تطلّ من شبابيك الشناشيل . وكانت الأنظار كلها مصوّبة نحو زرقة سماء الخريف الملطخة بسحب رمادية كست الشمس حواشيها بلون الذهب .

كان الجميع يتحدثون بانفعال عن قيام الإيرانيين بأولى غاراتهم على بغداد ردّاً على تخطّي الجيش العراقي للحدود الدولية بين البلدين ، وثمة أصوات تنطلق من هنا وهناك محذّرة ومنذرة ومنبّهة على ضرورة الاحتماء تحت سقوف مكينة لأن ما يحصل أمر جاد لا عهد لنا به من قبل ، فقفلت داخلاً متجنّباً الاصطدام بأمي ومريم اللتين التحقتا بي لتعرفا سر ما يجري .

- لقد نشبت الحرب مع إيران!

قلتها وأنا أدخل (الديوخانة) القريبة لأسارع بانتزاع ورقة ذلك اليوم من تقويم الحائط ؛ فإذا بها تحمل تاريخ الثاني والعشرين من شهر أيلول سنة ١٩٨٠ يليه بيتان للمعري يقول فيهما :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
يحطّمنا ريب الزمان كأننا
زجاج ولكنْ لا يعاد له سبكُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسألتني أمي التي دخلتْ في أعقابي :

– ما أدراك أن الحرب نشبت مع إيران لا غيرها؟

– والآن من منّا يا أمي لا ينتبه حتى لو انقلبت الدنيا فوق رأسه؟ أيعقل أن يداخلك الشك في حقيقة ما أقول والمناوشات الحدودية تتواصل بين العراق وإيران منذ أشهر؟

سألتها وأنا أشغّل التلفاز الذي تصدّر ، في الأعوام الأخيرة ، موضع المذياع القديم ، فضجّت الغرفة بصخب أنشودة حماسية تصاحبها لقطات لطائرات مغيرة ولمدافع تنطلق وجنود يتقدمون بكامل تجهيزاتهم . وبغتة امتلأت الشاشة بوجه مذيع أخذ يكرر ، بصوت هادر ، قراءة البيان العسكري الصادر عن القوات المسلحة العراقية معلناً عن اندفاع الجيش لاستعادة منطقتي زين القوس وسيف سعد الحدوديتين .

– أتأكدتِ الآن أن الحرب نشبت مع إيران لا غيرها؟

عدتُ أسأل أمي ، في حين تردد صرير الباب الخارجي ، وهو ينفتح ، وينطبق ثانية قبل أن يظهر أبي داخلاً (الديوخانة) محتقن الوجه .

– لقد نشبت الحرب مع إيران . . . سمعت بذلك وأنا في طريقي إلى (العلوة) ؛ فاضطررتُ إلى العودة .

صاح وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة بصعوبة . وتهالك مرتمياً على أقرب أريكة تاركاً لأمي مهمة تخليصه من عباءته وعقاله وكوفيته مبقياً طاقيته البيضاء فوق رأسه الحليق . وأردف بأسى وهو يتابع بعينيه ما تبثّه الشاشة من صور :

– لقد اندلعت الحرب حقاً . . . لا حول ولا قوة إلا بالله!

– ذلك ما كان متوقعاً منذ سقوط (شاه) إيران ونجاح (الخميني) في ثورته .

علّقت بدوري وأنا أراقب بقلق أبي ؛ فمنذ إصابته مؤخراً بارتفاع ضغط الدم ووجهه يحتقن على هذه الشاكلة كلما انفعل أو قطع المسافة الفاصلة بين (العلوة) والبيت .

قالت مريم وهي تخفض من صوت التلفاز :

– توقعتُ نشوب الحرب منذ تموز من السنة الماضية ؛ إذ لم يكد رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر يمنح نائبه صدام حسين أعلى رتبة عسكرية حتى آمنت أن الحرب واقعة لا محالة : فإزاء انتصار الثورة الإسلامية في إيران عمد المسؤولون هنا إلى استبدال قيادة شابة بالقيادة القديمة تحسباً من شروع القوى الإسلامية في العراق بالتحرك .

ومضينا نستعيد الأحداث التي تلاحقت بين البلدين على مدى الأشهر الماضية منبئة بحتمية حصول الحرب . وتدخل أبي محاولاً طمأنتنا :

– لعلها ستكون حرباً خاطفة لن تستغرق سوى يوم أو يومين كما حدث في زمن (الشاه) في السبعينيات .

– سيكون الأمر كما تقول يا أبي ؛ فليس من مصلحة الدول الكبرى نشوب صراع في منطقة بالغة الحيوية تطفو فوق بحر من النفط .

فأيّدتني مريم متهكمة :

– ذلك ما سيحدث ؛ فالعرب بارعون في خوض حروب خاطفة لن تستمر ، في أبعد تقدير ، أكثر من ستة أيام!

وتواترت الأيام دون أن تنتهي الحرب . وتعددت الغارات الجوية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على بغداد شهوراً : غارات يسبقها عادة عويل صافرات الإنذار المتقطع ؛ فتسكن الشوارع على أثره ؛ إذ السيارات تتوقف في مواضعها ؛ فيسارع ركابها ليحتموا تحت أقرب سقف وهم يصوّبون بأنظارهم القلقة نحو السماء ، حتى إذا ما انطلق العويل المستمر ، دلالة انتهاء الغارة ، دبّت الحياة مجدداً في الشوارع حيث تنطلق مئات السيارات هادرة دفعة واحدة .

على تلك الوتيرة تعددت الغارات باستثناء مرة واحدة كنت في أثنائها متّجهاً إلى البيت حين تنبهت لصدى انفجارات بعيدة صاحبها ومض مدافع (الدوشكا) وهو يمرق مضيئاً سماء الغروب إلى الجنوب من بغداد دون أن تطلق صافرات الإنذار عويلها المعهود . وخلال الليل شاع الخبر بين الناس ، وسرعان ما أصبح يقيناً ؛ فقد استثمر الإسرائيليون فرصة نشوب الحرب بقيام سرب من طائراتهم بقصف المفاعل النووي العراقي في موقع (التويثة)[١] والذي كان بصدد التشغيل التجريبي بعد أيام ، منفّذين بذلك تهديداتهم من أنهم لن يسمحوا للعراق بامتلاك القدرة النووية حتى لو كانت لأغراض سلمية .

هكذا استمرت الحرب لتشتعل ، في أثنائها ، حرب أخرى غير معلنة قادتها أمي من طرف واحد ضد مريم وكأنها لم تعد صديقتها

---

(١) موقع التويثة : يقع إلى الجنوب من بغداد ، وقد أقيم فيه مفاعل (تموز) العراقي الذي قصفته الطائرات الإسرائيلية في السابع من حزيران عام١٩٨١ في أثناء انشغال العراق في حربه مع إيران ، وذلك قبل يوم واحد من افتتاحه رسمياً من قبل الفرنسيين .

التي كانت تعينها في أعمال البيت ؛ فقد أخذت تبدي استياءها منها لإمعانها في (دلالها) مستغلة إياي في الوقت نفسه ؛ إذ ما مسوغ تأجيل الزفاف هذه المدة كلها؟ ثم ما معنى (مرابطتها) في بيتنا أغلب ساعات النهار إنْ كانت زاهدة في الزواج؟ فإذا كانت متعلقة بي إلى هذا الحد فالأولى بها أن (تذبحها على القبلة) فتتزوجني عوضاً عن الانفراد بي بحجة دراستي وما شابه ذلك من هراء لن ينطلي عليها ؛ ذلك لأنها لا تجهل الدافع الحقيقي لقدومها إلى بيتنا يومياً!

وكانت تنهي أسئلتها المستاءة بتحذير مبطّن :

- لا تنسَ أنها تقترب من الثلاثين ، وفترة حمل المرأة محددة بعمر معين لن تحبل بعدها!

وكانت أمي قد أفلحت ، بطريقة ما ، بتجنيد عمة مريم إلى جانبها ؛ فكلما مررت بها لأزوّدها بما تكون بحاجة إليه نصحتني بضرورة الإسراع بالزواج ؛ ذلك لأن أبناءها وأبناء شقيقاتها الأخريات أخذوا يشعرون بالحرج وهم يرون ابنة خالهم تكاد تلازمني ليل نهار . وهكذا اضطررت إلى أن أضع مريم أمام الأمر الواقع كاشفاً لها حقيقة ما يجري حولها دون أن تدري ، ففوجئت بها تعلن موافقتها على تحديد موعد الزفاف في أقرب فرصة شريطة أن يتم ذلك بأكثر الطرق زهداً وبعداً عن الصخب ، فسألتها مستغرباً :

- عجباً! . . . عهدي بالمرأة أنها تميل بطبعها إلى المبالغة في الإعلان عن زفافها!

- ألا تكفينا هذه اللافتات السود التي أخذت تطالعنا في منعطف كل شارع وزقاق لكي تجعلنا نزهد في المبالغة في الاحتفال بزفافنا؟

ووسط تجنيد جهودي للزفاف المرتقب فوجئت ، صباح ذات يوم ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

برجل ملثّم يرفل بدشداشة بيضاء يدخل عليّ في (العلوة) . لم يكد يلقي بالسلام حتى تلفت حوله ليطمئن إلى خلو المكان مما يبعث على الريبة قبل أن يشرع في رفع الكوفية التي كان قد تلثم بها ؛ فإذا به ليس سوى صديقي قاسم وقد أطلق لحيته!

– ما الأمر؟ هل احترفت تمثيل الأدوار البوليسية بعدما ضاقت بك سبل العمل؟

سألته مازحاً وأنا أترك المكتب لأقوده من يده إلى أقرب أريكة ، فأجابني بغضب وقد وثب واقفاً معيداً لفّ الكوفية حول وجهه من جديد :

– اسمع . . .لا أريد أن التقي أباك ليبدأ معي بالسين والجيم . . .احشرني بعيداً عنه في أي مكان في (العلوة) لا يقربه عادة حتى لو كان وسط الركام الذي يملأ الطابق العلوي .

تقدمته إلى غرفة سهيل الخلف مطمئناً إياه بقولي :

– ستبقى هذه الغرفة المكان الوحيد الذي لا يقربه أبي برغم أنها تجاور غرفته وذلك هرباً من كاتب (العلوة) الذي اعتاد تذكيره ، كلما التقاه ، بحشد من أصدقائه التجار الذين يتهربون من سداد ما بذممهم من ديون متراكمة .

وقف سهيل مرحباً بنا قبل أن يستأذننا ليوصي صاحب المقهى على الشاي . حتى إذا ما خرج سألني قاسم إن كان هذا الرجل يؤمن جانبه؟ فطمأنته لأعود فأسأله عما دهاه ليتصرف بهذا الشكل الشاذ؟

– إنه الجيش الشعبي!

أجابني متفجعاً ليستطرد متحدثاً عن مبلغ غبائه لأنه انتمى إلى الحزب لكي يوفر له فرصة عمل مضمون بعدما أرهقه التنقّل من عمل إلى آخر : لا يكاد يعمل في هذه الشركة أو تلك حتى يستغنى عنه

بعد مرور أشهر ، فلم يجد بداً من طرق باب الحزب : فإذا بهم يطالبونه بالانضمام إلى أحد قطّاعات الجيش الشعبي قبل أن (يحلم) بالحصول على عمل مضمون!!

وعاد يتلفت حوله بقلق مردداً أن ما يبعث على اطمئنانه جهلهم عنوانه ، فعلقت ملمّحاً أنهم ليسوا وحدهم من يجهل عنوانه ، وسارعت أضيف ، مستبقاً بذلك بوادر نوبة غضب جديدة بدت على وشك الانفجار :

– المهم الآن الصعود إلى المخازن لتهيئة مكان مناسب لك قبل قدوم أبي .

– والشاي؟

– لندع سهيل الخلف يتمتع باحتساء الإستكانات الثلاثة وحده ؛ فهو من المغرمين بهذا المشروب الوطني .

قمنا بجولة سريعة شملت غرف الطابق العلوي ، مكتفين بإلقاء نظرات عابرة على محتوياتها الموزعة بين أقفاص وسلال وزنابيل وصناديق وأرائك ومقاعد معطوبة وما شاكل ذلك ، ليقع اختيارنا على الغرفة القائمة في الواجهة والتي تطل على ساحة الشورجة من خلال شناشيل تراكمت طبقات من الغبار على زجاجاتها الملونة التي كانت تحيل الضوء المتسرب من خلالها إلى قوس قزح يرتسم على الأرضية .

– هذه أفضل الغرف وأكثرها بعثاً على البهجة فضلاً عن كونها أبعدها عن غرفة أبي ؛ وبذلك تستطيع أن تتحرك فيها مطمئناً إلى استحالة أن يتنبه إلى وقع خطاك من خلال السقف .

طمأنته وأنا أرشده إلى الحمام ودورة المياه التي كانت أغلب صنابيرها معطوبة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبقي قاسم طوال فترة تخفّيه في الطابق العلوي من (العلوة) يغبط نفسه للإفلات من الانضمام إلى صفوف الجيش الشعبي في الوقت المناسب ؛ فآنذاك تكاثر عدد الضحايا بعدما بدأ الإيرانيون هجومهم الكبير على القوات العراقية التي كانت قد أخفقت في الاستيلاء على (سوسنكرد) دافعين بها نحو الحدود الدولية . وبحلول شهر أيلول تضاعفت خسائر العراقيين على أثر إبعادهم عن (عبادان) .

وكانت شاشة التلفاز لا تكفّ عن تقديم أبشع المناظر أثر كل معركة : فقد كانت تعرض حصاد الحرب المتمثل بآلاف الجثث الممزقة والمنتفخة والمبقورة الأحشاء وهي مرمية على السواتر أو الأسلاك الشائكة وسط خضرة القصب وزرقة مياه الأهوار ، تحوم حولها أسراب الذباب . كانت مناظر يومية أضحت ، بمرور الأشهر ، جزءاً من روتين حياتنا ؛ قد تطالع أعيننا لحظة انصرافنا إلى تناول وجبة الغداء أو العشاء!

وسط ذلك الجو المأتمي الباعث على اليأس تمّ زفافنا ، كما شاءت مريم ، بأكثر الطرق زهداً وبعداً عن الضجيج . حتى إذا ما وصلت الزفة إلى بيتنا انقلبت الآية رأساً على عقب ؛ فقد استقبلت العروس بأكثر الطرق انطلاقاً وصخباً وضجيجاً : فقد شمّرتْ زوجة شقيقي عن ذراعيها لتعمد ، بمساعدة جوقة متكونة من بناتها ومن القريبات والجارات ، إلى إظهار مدى إلمامها بالفلكلور الشعبي الذي توارثته جيلاً عن جيل والمتوزع بين إطلاق الزغاريد ، وتمايل الأرداف على وقع الدفوف ، مع تطعيم كل ذلك بدق الإصبعتين ونثر حبات الحلوى .

كنت في (الديوخانة) برفقة شقيقي وأقاربي ووليد وقاسم – الذي ارتدى إحدى بزاتي مضيفاً إلى تنكّره قبعة ونظارتين سوداوين! – أرى وأسمع كل ما يجري ، وقد رسمتُ على فمي ابتسامة دبلوماسية تليق

بالموقف . وكان أبي يجلس في مواجهتي على أريكته رافلاً بملابس جديدة فصّلها خصيصاً لهذه المناسبة ، يتابعني بنظرات حانية مبدياً تسامحه لما يصدر من المحيطين بي من كلمات وعبارات مصحوبة ببعض الحركات مدركاً ، دون شك ، أن الأمور كانت ستجري مجرى أكثر خلاعة ومجوناً لولا وجوده وسطنا .

وأبت عمة مريم إلا أن تشارك الرجال في جلستهم ، مبدية احتقارها لضجة النساء في الحوش ؛ فتربّعت على إحدى السجادات لتمعن في تدخين السجائر مفصحة عن سعادتها لما يجري ؛ فها هي تفي بالتزامها لشقيقها إسماعيل برعاية ابنته مريم حتى إيصالها إلى أيدٍ أمينة ؛ إذ آن لها الآن التحرر من هذا الالتزام والعودة إلى تنقلها المعهود بين أسر أبنائها وبناتها : تقضي عند هذه الأسرة شهراً وعند الأخرى شهرين مستمتعة ، في جميع الحالات ، بتدخين سجائرها وهي جالسة عند عتبات البيوت متابعة بعينيها الرائح والغادي!

وكان أبناء عمات مريم آخر القادمين ، ليظهر في أعقابهم سهيل الخلف كاتب (العلوة) الذي كان دائب الظهور والاختفاء : لا تكاد الحاجة تدعو إليه بسبب نقص في متطلبات المناسبة – حلويات ، أو مرطبات ، وما أشبه – حتى يظهر لينصاع لأداء المهمة التي يكلف بها دون أن ينطق بكلمة احتجاج أو تذمّر .

وكانت مريم قد جلبتْ معها ، إلى بيتنا ، أهم مقتنياتها ، وبضمنها حقيبة جلدية كانت تضم (أرشيف) أبيها – ذلك الأرشيف الذي كان إسماعيل الذبيح قد حرص على حمله معه من القدس – وكان يتألّف من مجموعة ملفّات تضمّ صوراً ، ووثائق رسمية ، ورسائل ، ومقالات صحفية قديمة اصفرّ ورقها فبات عرضة للتلف مع أدنى لمسة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكثيراً ما كان يطيب لي الانفراد بذلك الأرشيف في مكتبتي متصفّحاً أوراقه بروية وحذر ، حتى إذا ما التحقت مريم بي ، جالبة لي فنجان قهوة ، شاركتني في تقليب تلك الوثائق والصور ، متحدثة عن جانب من ذكرياتها ، وهي تحفّزني ، دون أن تدري ، إلى معاودة هوسي القديم بتتبع سيرة أبيها والتفكير بكتابة تلك الرواية التي ما انفكت فكرتها تلازمني منذ سنوات ، ولا يمنعني عن الشروع في كتابتها غير انشغالي بدراستي الجامعية ؛ فبعد إنهائي السنة التحضيرية ، أصبحت ملزماً بلقاء الأستاذ المشرف على أطروحتي بين فينة وأخرى ، وهي لقاءات يغلب عليها طابع المجاملة أكثر من الطابع الأكاديمي ؛ ذلك لأن حسن حظي شاء أن يكون الرجل من الشغوفين بالأدب الحديث ؛ يولي قصصي القصيرة المنشورة اهتماماً واضحاً .

وطالت الحرب لتأخذ إيقاعاً يومياً مألوفاً هيمن على حياتنا ؛ فكلما تجمعت الأسرة في (الديوخانة) ، بعد تناول العشاء ، جابهتنا شاشة التلفاز بسيل من مشاهد دموية كانت تدفع بأبي إلى مغادرتنا مستغفراً الله مع كل خطوة يخطوها .

وكان قاسم قد اعتاد أن يأخذ سبيله تلقائياً نحو غرفته في الطابق العلوي من (العلوة) كلما تجددت حملات الانضباط العسكري بحثاً عن الهاربين والمتخلّفين . وكنا – أنا ووليد – نتسلل أحياناً صاعدين إلى (وكره) – هكذا بتنا نسمي تلك الغرفة!– لنخفف عنه شعوره بالوحدة ، متوقعين منه جحوده المعهود الذي كان يدفعه إلى استفزازنا لكوننا حرين نسرح ونمرح في الشوارع والبارات على هوانا ؛ فما أكثر ما سفّه انهماكي بدراستي العليا ، زاعماً أن هدفي منها لا يتخطى التنصّل من ورطة الجيش الشعبي ، أما وليد – هذا الطاووس الذي يملك

بزات بعدد أيام السنة! - فلا مسوغ له ليقلق نفسه بمثل هذا الأمر ؛ والبركة بنفوذ أبيه الذي يجعل كبار الضباط طوع بنانه!

وأخذ سهيل الخلف يشكو إليّ من سوء سلوك قاسم في الآونة الأخيرة ولا سيما بعد إمعانه في السكر ، محذّراً إيانا من أن أمره سينكشف سريعاً إن لم يتوخَ الحيطة والحذر ؛ وقد ضبطناه - أنا ووليد - في إحدى المرات ثملاً ، لم يكد يعرفنا ؛ حتى أنه صاح متسائلاً - دون أن يأبه باحتمال افتضاح أمره - إنْ كنا من الانضباط العسكري جئناه متنكرين لسوقه إلى أحد قطّاعات الجيش الشعبي؟! انخرط بعدها في بكاء ثمل مردداً اسم صفية المسكينة وحظها التعس!!

وبلغت المعارك ذروتها في مايس سنة ١٩٨٢ ؛ فقد نجح الإيرانيون في إخراج الجيش العراقي من مدينة المحمّرة ، فتراجع إلى الحدود الدولية مع احتفاظه بجيوب قليلة غرب دزفول وحول قصر شيرين[(١)] . وفي السادس من حزيران نشبتْ حرب جديدة كان مسرحها لبنان هذه المرة ؛ فتوزع اهتمام مريم بين جبهتين تفصل مئات الكيلومترات إحداهما عن الأخرى ، فتفاقم رعبها أكثر ؛ فبقدر خوفها من احتمال أن تصبح بغداد ، من جديد ، هدفاً يومياً للطائرات والصواريخ الإيرانية ، باتت الأوضاع في لبنان مصدر قلق دائم لها بسبب وجود شقيقيها محمد وفؤاد هناك فضلاً عن أبيها .

كانت تسألني بنبرة متشككة :

- أيعقل أن تورّط إسرائيل نفسها في حرب طويلة وهي التي

---

(١) المحمرة ، دزفول ، قصر شيرين : مدن إيرانية تقع إلى الغرب قرب الحدود العراقية ، وكانت مسرحاً لمعارك عديدة خلال الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨ .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اعتادت تبنّي فكرة الحروب الخاطفة المضمونة النتائج؟

فكنتُ أجيبها بشيء من حذر :

– الأمر يختلف هذه المرة ؛ فبعد مرور ثلاث سنوات على خروج مصر من دائرة الصراع معها تعمل إسرائيل الآن على قطف ثمار اتفاقية (كامب ديفيد)(١) بإشعال حرب قد تطول بعض الوقت .

فكانت تتأملني لحظات قبل أن تسألني وقلقها آخذ بالازدياد :

– ولماذا تطول حربها الجديدة هذه المرة؟

– لان هدفها منها إجلاء منظمة التحرير الفلسطينية عن لبنان .

فكانت تعلق بهلع :

– ذلك يعني الوصول إلى بيروت!

فكنت أجيب ببرارة :

– ومن يمنعها عن ذلك؟

فكانت تعاود مبادلتي النظر لحظات قبل أن تعمد إلى مخادعة نفسها زاعمة أن هدف إسرائيل لن يتخطى اجتياح الجنوب اللبناني لإبعاد نيران المقاومة الفلسطينية عن مستوطناتها الشمالية .

---

(١) اتفاقية (كامب دايفيد) : عقدت هذه الاتفاقية بعد قيام الرئيس المصري أنور السادات بزيارة إلى مدينة القدس ، وقد جرت برعاية الرئيس الأمريكي كارتر ، وتم التوقيع عليها في السادس والعشرين من آذار ١٩٧٩ ، ومن أبرز بنودها إنهاء الحرب بين مصر وإسرائيل ، وانسحاب إسرائيل من سيناء ، وإقامة علاقات طبيعية بين الطرفين ، وتمتع السفن الإسرائيلية بحق المرور الحر في قناة السويس ، واعتبار مضايق (تيران) وخليج العقبة من الممرات الدولية المفتوحة لكافة الدول دون عائق .

المقامة الحجازية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(١)

- ذلك كان آخر العهد بإسماعيل ؛ إذ لم يرد له بعدها ذكر على مدى ثلاث سنوات عُدّ في أثنائها ضمن شهداء معركة (الشعيبة) ، وهو أمر عززته تلك اللافتة السوداء التي حرص المسؤولون عن إدارة زورخانة محلة الدهانة على رفعها فوق بابها معلنين فيها استشهاد بطلهم دفاعاً عن الوطن .

واصل الخال يحيى القبنجي سرد حكاية إسماعيل ليتحدث بعدها عن أمه المسكينة وقد فتحت باب بيتها على مصراعيه لتستقبل بالدموع نساء المحلة ، تاركة لزوجها مهمة تزويدها بالقهوة والسجائر ؛ ذلك لأنه لا يطيب للنساء عادة التفريج عن أحزانهن المتوارثة بمعزل عن مرارة القهوة المشفوعة بدخان السجائر اللاذع . وكان من المؤكد أن يطوي النسيان اسم إسماعيل لولا حصول أمر لم يكن في الحسبان ؛ فعقب انتهاء الحرب العظمى بإعلان الهدنة شرع بعض الأسرى بالعودة إلى ديارهم ، وكان هلال أبو خمرة ضمن العائدين ، وبعودته شاع خبر غريب مفاده أن إسماعيل كان بدوره قد وقع في الأسر!

- لو كان الأمر كذلك فلمَ لم يعد إلى بيته أسوة بالأسرى الآخرين؟!

ساءل أبناء محلة الدهانة بعضهم بعضاً بين مصدّق ومكذّب ؛ فمن منهم لا يعرف هلال واختلاقه أموراً يعجز عن تصورها العقل؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– وهكذا ، لم أجد مفرّاً من القيام بزيارة هلال حرصاً مني على أن أقطع الشك باليقين .

تكلم يحيى القبنچي وقد انصرف إلى لف سيجارة جديدة سرعان ما دس أحد طرفيها بين شفتيه الرماديتين لينشغل بمعالجة قداحته التي لم تجد عليه بنارها إلا بعد بذله جهوداً مضنية .

– حسن . . . أين وصلنا في حكايتنا يا خال؟

سألني بعدما سحب نفساً عميقاً من سيجارته . وحينما ذكّرته بذلك استطرد في كلامه مطلقاً الدخان ملء فمه ومنخريه :

– توجهتُ إلى محلة باب الشيخ حيث استقبلني هلال في غرفته الملاصقة لتكية الشيخ أبو خمرة الهندي . وبعدما ذرف على كتفي سيلاً من الدموع انطلق ، حال جلوسنا على البساط ، يحدثني عما جرى له في الهند .

ومضى الخال يحيى يلخّص لي ما أخبره به هلال : وكان ذياب رؤوف قد عثر عليه وسط احتدام المعركة وقد أصيب بجرح في خاصرته ؛ فحاول إخلاءه لولا أن سوء حظه أبى إلا أن يوقعه – ومعه صديقه – بأسر الإنكليز الذين قادوهما في طابور طويل يتكون من مئات الأسرى ، وقد شُدّ وثاق كل أربعة منهم معاً . حتى إذا ما وصلوا إلى البصرة أودعوهم معسكراً محاطاً بالأسلاك الشائكة قبل أن يشحنوهم كالبهائم ، بعد مرور أسابيع ، في عنبر باخرة قضوا فيه يومين كادوا يهلكون في أثنائهما من شدة شعورهم بالحر ؛ ففضلاً عن أن إبحارهم بدأ في حزيران كان عنبرهم يقع بجانب اسطوانة المدخنة ، كما أن ارتجاج الباخرة المتواصل ، بفعل الأمواج التي كانت تتقاذفها صعوداً وهبوطاً ، جعل الكثيرين منهم يصابون بالغثيان ، فأخذوا يفرغون ما في جوفهم ،

فارتفعت رائحة لا تطاق دفعت بهم إلى الصراخ طالبين الغوث . وزحف عدد منهم صاعدين السلم ، يقودهم ذياب ، محاولين تحطيم الباب الحديدي . وحينما أعياهم الأمر تهالكوا على الشقوق والفتحات جاهدين لتنسّم نسمة هواء واحدة . وكان من المؤكد أن يموت بعضهم لولا أنهم نقلوهم إلى عنبر آخر أكثر سعة حيث كان من دأب أحد الهنود أن يدخل عليهم كل يوم أكثر من مرة داعياً إياهم إلى الطعام بترديد كلمة هندية (كانا) وهي أجمل كلمة كانت تداعب أسماعهم .

ويوم وصلوا إلى ميناء بومباي وارتقوا صاعدين السلّم نحو سطح الباخرة هالهم منظر ذلك الميناء العظيم الممتد على مدى البصر حيث مئات البواخر واقفة إزاء الأرصفة ، وثمة رافعات عملاقة تعمل على إفراغ حمولتها في قاطرات دائبة الحركة . وحملهم القطار في سفرة امتدت على مدى يومين انتهت بمعسكر (بيلاري) للأسرى الواقع قرب مدينة (حيدر آباد) في الهند . في ذلك المعسكر تمتعوا بشيء من الراحة ؛ فقد كان يسمح لهم بمغادرته مرة كل أسبوع ليقوموا بنزهات في الغابات المجاورة متأملين باندهاش تلك المعابد الهندوكية ، ومحارق الموتى التي اعتاد الهنود حرق جثث موتاهم فوقها . وكانوا يصادفون في طريقهم الأفاعي تنسل بالعشرات ، كما كانوا يلتقون القرود والنمور . . . بل حدث في إحدى المرات أن انفرد هلال عن رفاقه فالتقى ، في أحد أطراف الغابة ، نمراً وجهاً لوجه ، فسارع إلى إطلاق ساقيه للريح ليشرع في تسلق أول شجرة صادفها في طريقه . لكنه لم يكد يبلغ منتصفها حتى فوجئ بالدنيا تسودّ في عينيه على أثر تلقيه ضربة على أم رأسه جعلته يرفع وجهه ليتطلع ، هذه المرة ، إلى الأعلى : فإذا بقرد يتأرجح بين أغصان الشجرة التي كانت من صنف جوز الهند وهو يتهيأ ليقذفه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بجوزة جديدة اقتطفها من عشرات الجوزات المعلقة في متناول يده . وهكذا مرت عليه ساعات وهو معلّق بين السماء والأرض : يستهدفه القرد بجوزاته من الأعلى ليكشّر له النمر عن أنيابه من الأسفل!

– وكيف أفلتَ من هذه المحنة؟

سألتُ الخال يحيى وقد شاقتني القصة ، فأجابني رامقاً إياي بنظرة استنكار :

– أية محنة يا خال والحكاية بأكملها مختلقة؟ فذلك كان دأب هلال حين كان يسكن على بعد بضعة شوارع منا ، فكيف به وقد فصلته عنا سبعة بحور؟

واسترسل القبنچي في كلامه متحدثاً كيف أنه توسّل إلى هلال راجياً إياه إرجاء التحدث عن (بطولاته) ومغامراته إلى وقت آخر ؛ ذلك لأنه سيزوره أكثر من مرة ليسمع منه تفاصيل ما جرى له ولإسماعيل منذ لجوئهما إلى منطقة باب الطلسم حتى اشتراكهما في معركة الشعيبة ، طالباً منه إخباره بحقيقة ما أشاعه من أن إسماعيل كان ضمن الأسرى أيضاً ، فعاد هلال يؤكد ذلك ليستدرك قائلاً إنه سمع بالأمر من ذياب رؤوف ؛ ذلك لأنه كان من المتحمسين للانضمام إلى صفوف (الثورة العربية)[1] التي كان الإنكليز يروّجون لها مكافئين

(١) الثورة العربية الكبرى : هي تلك الثورة التي أعلنها الشريف حسين (شريف مكة) على الدولة العثمانية صباح العاشر من حزيران عام ١٩١٦ ـ الموافق للتاسع من شعبان ١٣٣٤هـ ـ وذلك بعد تبادل رسائل عديدة بين الشريف حسين والمندوب السامي البريطاني في مصر مكماهون تعهدت فيها بريطانيا بإسناد تلك الثورة ودعمها بالمال والسلاح والخبراء .

المتطوعين من الأسرى بمنحهم مرتبات سخية مع تكفّل إيصالهم إلى مدينة الإسماعيلية المصرية حيث يتم تدريب المتطوعين الجدد على السلاح قبل إلحاقهم بصفوف الثورة . وحينما عارضه هلال في هذا الاختيار مذكّراً إياه بأنه لا يعقل أن ينضمّ إلى حركة مريبة تبنّاها الإنكليز وهو الذي سبق له الانضمام إلى المجاهدين الذين حالفوا العثمانيين لغرض استعادة البصرة من الإنكليز ، حينما أخبر ذياب بذلك أفحمه هذا بقوله إنه يشاع أن إسماعيل نفسه كان على رأس مجموعة الأسرى العراقيين في معسكر (سمر بور) الذين تطوعوا في صفوف هذه الثورة!

- عدتُ أتأمل هلال بحيرة خوفاً من أن يكون بصدد اختلاق خرافة جديدة . لكنه أقسم بروح صاحب التكية محمد بن درويش الملقب بأبو خمرة الهندي بأنه صادق في كلامه ، وهو قسم لم يكن يسعه الحنث به .

تابع الخال يحيى الكلام ليحدثني بعدها كيف عاد إلى محلة الدهانة محمّلاً بالخبر الجديد الذي دفع بأم إسماعيل إلى أن تفتح باب بيتها على مصراعيه ثانية لتستقبل ، هذه المرة ، بالزغاريد النساء اللائي شاركنها في الندب في المرة السابقة ، مقدمة لهن الحلويات التي كلفت زوجها المسكين أكثر مما كلفته السجائر والقهوة تلك المرة .

ذلك كان آخر ما حدثني به القبنچي عن إسماعيل معترفاً بأن معرفته بما جرى له في الحجاز لا تتخطى ما هو شائع ومعروف لدى الجميع ، ناصحاً إياي باللجوء إلى الدرويش يوسف ؛ ذلك لأنه لازم إسماعيل منذ وصوله إلى ميناء جدة حتى توجههم نحو دمشق .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٢)

بيد أن صلتي بالدرويش – على النقيض من تلك الصلة الحميمة التي جمعتني بالخال يحيى – كانت عابرة ، لا تتخطى تلك اللقاءات الخاطفة أيام الجمع حينما يمرّ بباب بيتنا وهو يقوم بجولته الأسبوعية ؛ إذ أسارع بمنحه إحدى عطايا أمي لأظل دقائق أتتبعه بعينيّ وهو يواصل تجواله ، على نقر عصاه ، خلال الأزقة المتشابكة بين جامع المصلوب وجامع سراج الدين مردداً بصوته الشجي مدائحه بحق الأولياء والصالحين . وقد عمدتُ ، في أحد الأيام ، إلى تعقبه حتى دخوله جامع المصلوب القريب مؤملاً نفسي بالوقوع على الوسيلة الكفيلة بترسيخ صلتي به ، ولكنْ عبثاً ؛ إذ إنني لم أكد ألمحه وهو يختفي في حجرة منزوية سارع بردّ بابها خلفه حتى تنبهتُ لجمع من المصلين المنهمكين ، قرب صنابير الماء ، بالوضوء وهم يرمقونني بنظرات استنكار ، فقفلتُ مغادراً الجامع على عجل .

كما فكرت بأن أغامر بتعقّبه حتى جامع سراج الدين ، لكنني سارعت إلى إبعاد هذه الفكرة ؛ إذ الأمر كان يتطلب مني المجازفة بتخطي الشارع الغاص بالسيارات في مرحلة من العمر لم يسبق لي أن تخطيت فيها شارعاً إلا وثمة كفّ تمسك بزندي ، وصوت يهدي خطاي . وكان عليّ الاعتراف بأنني لا أزال أصغر من أن أقدم على مجازفة من هذا النوع . وهكذا تركت الأسابيع تتعاقب لتتلوها الأشهر

التي استطالت إلى سنوات . وكنت قد طويت صفحة إسماعيل الذبيح يوم سمعتُ أمي تتساءل لحظة إنهائها خبزها :

– ترى ماذا حلّ بالدرويش؟

فرددت سؤالها في سري :

– ترى ما الذي حل به؟

– لعله مات ؛ فقد مرت أشهر لم أسمع فيها صوته الشجي يتردد في الزقاق!

قد يكون الأمر كذلك ؛ فمآل البشر ، دون استثناء ، هو الموت . وفجأة وجدتني أجفل هلعاً على وقع هذه الحقيقة التي كانت غائبة عني ؛ فمصير حكاية إسماعيل مرتهن بحصول هذا الأمر المتوقع حصوله في أية لحظة . وعمدتُ من وقتي وساعتي إلى مغادرة البيت متوجهاً نحو جامع المصلوب حيث راعني منظر قفل ضخم أُثقل به باب تلك الحجرة المنزوية في جانب من الفناء والتي كان من المألوف ترك بابها مفتوحاً دائماً ، يكتفي الدرويش بمواربته خلفه حين يطيب له الاختلاء بما أثقل به مخلاته من عطايا ربات البيوت .

ترى أيكون قد اتخذ من جامع سراج الدين له مأوى؟ ولكن كيف يصحّ ذلك والموسم كان شتاء ؛ إذ اعتاد اللجوء إلى حجرته في جامع المصلوب تبعاً لتقليده في (رحلة الشتاء والصيف)؟

كان عليّ التوجه إلى هناك للتأكد من ذلك ، وهذا ما كان قد بات في وسعي القيام به ؛ فقد كبرت بما فيه الكفاية ودخلت المرحلة المتوسطة ؛ فأصبح في وسعي التجوال في شوارع بغداد على هواي .

كان فناء الجامع الواسع خالياً في مثل هذا الوقت من النهار باستثناء رجل عجوز انحنى بظهره على مقبض مكنسة استقر بين يديه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان يكنس بها ما حوله بكل همة ونشاط .

انحرفت يميناً متخطياً ضريح سراج الدين القائم في حجرة تعلوها قبّة صغيرة لأتجه نحو غرفة منفردة في زاوية الفناء حيث اعتاد الدرويش الإقامة ، لكنني فوجئت بصاحب المكنسة يصيح بي متسائلاً عما أبغي؟ اقتربتُ منه لأذكر له غرضي من الزيارة ، فأسند لحيته الشائبة إلى مقبض المكنسة المستقر بين راحتيه متأملاً إياي .

– وما الذي يجنيه الدرويش من زيارتك هذه ما دمت قد جئته خالي اليدين؟

سألني وقد عاد ينشغل بكنس المسافة الفاصلة بين قدميه العاريتين وحذائيّ اللذين كنت أنتعلهما :

– كان يفترض بك أن تجلب له ما يسد به رمقه ؛ فمنذ أشهر ، وعلى أثر انزلاق إحدى قدميه في فتحة لمجرى مياه آسنة ، كُسرتْ ساقه ؛ فاضطر إلى ملازمة حجرته منذ ذلك اليوم بعدما عجز عن القيام بجولاته الأسبوعية بين الأزقة معولاً ، في إقامة أوده ، على ما يجود به أبناء الحلال .

تركته يواصل ثرثرته ، وغادرت الجامع لأبحث عن مطعم قريب وقد استخفّني الطرب ؛ فقد اطمأننت إلى كون الدرويش لا يزال حياً يرزق . وحين عدت داخلاً الجامع بوجبة كباب لمحت الرجل العجوز يواصل كنسه دون أن يكف عن ثرثرته مع نفسه متحدثاً عن المآسي التي تسببها مجاري المياه الآسنة ؛ إذ إنها أشبه ما تكون بفخاخ لا تطبق عادة إلا على أقدام العميان ومن هم على شاكلة الدرويش المسكين .

ما كدت أدخل الحجرة حتى فاجأني الظلام ورائحة هواء راكد مقبض للنفس .

– من هناك؟

سمعت صوت الدرويش ينطلق من موضع قريب ، حتى إذا ما انفتح الباب الذي لم أكن قد أحكمتُ إطباقه مصدراً صريراً معدنياً لمحته مضطجعاً على سرير خشبي قائم في منتصف حجرة كاد نصفها الخلفي يمتلئ بمخلفات الجامع : أرائك معطوبة ، ومقاعد تنقصها القوائم ، فضلاً عن مراوح سقفية وقدور نحاسية وأنابيب ماء وأكداس من الحصران والبسط المتهرئة وعشرات الأشياء الأخرى المكوّمة كيفما اتفق .

– أنا!

أجبته وأنا أدسّ ما حملته إليه بين أصابعه ، فقرّبه من أنفه وقد استوى جالساً في سريره .

– تغنيك لفّة الكباب هذه عن التعريف بنفسك ؛ فأنا أرحّب عادة بضيوف على شاكلتك!

تكلّم مصدراً صوتاً غريباً خمّنت أنه ضحكة! . . وكان قد فغر فمه عن سنين أو ثلاث صفر ناتئة في أحد فكيه ، متلمساً بأنامله قطع الكباب والمخللات والبصل المتداخلة ببعضها فوق رغيف خبز تشرّب بالدهن .

– إنها وجبة استثنائية مضتْ أعوام لم أحظَ بمثيل لها . . اسحب لك كرسياً واجلس هنا . . . بالقرب من السرير .

امتثلت لطلبه وجلست على مقعد مراقباً إياه وقد انهال على ما بين يديه نهشاً وقضماً كأنه لم يسبق له تناول الطعام منذ دهر . كان حليق الرأس تماماً ، تبدو عظام صدغيه واضحة في تحركها مع حركة فكيه المجدين في المضغ ، وثمة أوردة زرق تبدو هناك . وكانت تجاعيد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجهه قد ازدادت عمقاً ، وغارت عيناه أكثر في محجريهما . وكان يداور ويناور مع كل لقمة يدسّها في فمه مبدياً حرصاً غريباً على أن يحوّل اللقمة نحو تلك الأسنان المعدودة في فكه ليطحنها بها كأنه لا سبيل له إلى الاستمتاع بالأكل إلا باتباع هذه الوسيلة!

- ابن من أنت؟

سألني عقب هدنة طارئة عقدها بين لقمتين . وحينما أخبرته أثنى على أبي قائلاً إنه صديق قديم سبق له أن التقاه منذ سنوات طوال في مدينة دمشق . وأكّد أن أبي يحرص على أن يحيطه برعايته : يزوّده بما تحفل به (علوته) دون أن ينسى منحه (فطرة العيد) كل سنة .

- والآن خبّرني بحاجتك .

عاد يواصل المضغ . حتى إذا ما تأخرت في الرد علّق ، وقد أولاني جانب وجهه - كما هو شأن العميان - كأنه يتطلع إليّ بإحدى أذنيه :

- لا توهمني بأن أمك بعثت بك إليّ بهذه الوجبة الفاخرة!

وعاد يصدر ذلك الصوت الغريب قبل أن يضيف موضحاً :

- إن كرمك يثير التساؤل يا بني . لا بد أنك اقتطعت جزءاً من مصروفك الشخصي لتتحفني بهذه الوجبة الرائعة ، وهذا عمل لا اعتراض لي عليه ، بل لعلني أشجّعك على تكراره شريطة أن تكاشفني بالدافع الكامن وراء هذه التضحية .

- جئتك لغرض أن . . . تسمعني حكاية .

أجبته وجلاً بعدما قمت باستدارة إلى الوراء لأطمئن إلى أن الباب لا يزال مفتوحاً وأن في وسعي اجتيازه هارباً في حال ظهور أولى بوادر الخطر . . . لكنني فوجئت به يطلق ، هذه المرة ، قهقهة جبارة أدهشني صدورها منه ؛ فقد كنت أحسبه في الرمق الأخير!

- أتريد أن تسمع حكاية لقاء لفة كباب؟ إنها مساومة أحبذها من صميم قلبي . لكن خبّرني : أية حكاية هي تلك التي اضطرتك إلى خسارة ثمن هذه الوجبة والحكايات عادة مبذولة دون ثمن؟

- إنها حكاية إسماعيل .

وحين رأيته يعقد ما بين حاجبيه وقد تهدلت أسارير وجهه كأنه يحاول أن يعرف من الذي أعنيه بذلك الاسم سارعت أضيف موضحاً :

- أعني إسماعيل الذبيح .

وأخذ يمسح يديه بالغطاء الذي كان قد لفّ به نصفه السفلي . وعدّل بضربة من مرفقه الوسادة خلف ظهره . وتكلّم وقد دبّت الحيوية في أساريره المتهدمة :

- ولكن إسماعيل لم يكن يومذاك قد لُقّب بعد بكنية (الذبيح) التي أطلقها عليه كامل الأطرش حينما التقيناه في دمشق ، إنما كان يعرف باسمه المجرد . . . إسماعيل . . . لا غير .

ومرت لحظات أسند الدرويش في أثنائها ذقنه المشعرة إلى صدره الأعجف وقد غرق في أفكاره قبل أن يتكلم :

- على الرحب والسعة . . لا مانع لديّ من أن أقصّ عليك كل ما أعرفه عن إسماعيل لقاء وجبات على هذه الشاكلة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٣)

– لقد اقترن أول لقاء لي بإسماعيل بسماعي دويّ عيار ناري انطلق عرضاً تحت شرفة غرفتي في ميناء جدّة إيذاناً بدويّ العيارات الدائم الذي سيظل يرافقنا قبل أن نصل إلى عمّان حيث اتجهتُ ، برفقة فايد العايد ، إلى دمشق ، في حين رافق هو رمزي الخالدي إلى القدس .

هكذا بدأ الدرويش يوسف حكايته التي ستظلّ بدورها ترافقني – مثل دويّ ذلك العيار الناري – عدداً لا يحصى من السنين قبل أن يحلّ الوقت الملائم لإدخالها في صلب رواية تتطلب مني التفريط بأمور يعزّ علي التفريط بها ؛ فبقدر ما كانت طريقة الدرويش في سرد حكاياته – مثلما كان شأن سلفيه الملا شكر ويحيى القبنچي ، وكما سيكون شأن من سيعقبه من رواة – تنطوي على مادة ثريّة للمهتمين بهذه الأمور ، لكنه لم يكن ثمة مفرّ من التضحية بها وصولاً إلى كتابة رواية تهدف إلى إمتاع قارئها قبل كل شيء .

– حدث ذلك بعد مضيّ أشهر على التحاقي بالثورة العربية التي كان الشريف حسين قد أعلنها في العاشر من حزيران سنة ١٩١٦ ؛ إذ إنني كنت من ضمن المجموعة الأولى من المتطوعين العراقيين .

أوضح الدرويش يوسف قبل أن يستدرك منبهاً إياي على أن الإلمام بكيفية انضمام إسماعيل إلى صفوف الثورة العربية يتطلب منه العودة بحكايته إلى الوراء والتطرّق إلى ذكر أشخاص آخرين – وأبرزهم فايد

العايد وكامل الأطرش – لا مفرّ له من ذكرهم ؛ فدونهم لا يستقيم سير الأحداث .

– كان من دأبي ، كلما قدمت إلى جدة ، النزول ضيفاً على صديقي الصحفي الشامي فايد العايد في ذلك البيت ذي الطوابق الثلاثة والذي كانت الثورة قد خصصته له : يستقبل فيه الوافدين الجدد الذين يكونون بصدد الالتحاق بالثورة .

انطلق يوسف في سرد حكايته ، متطرقاً إلى كيفية توثّق علاقته بفايد منذ الأيام الأولى لوصوله إلى جدّة من معسكر (بونه) للأسرى في الهند وذلك في أعقاب ارتداد أكثر من مئة ضابط وجندي مدفعي أثّرتْ فيهم الدعاية المناهضة للثورة ؛ ففضّلوا العودة إلى معسكرات أسرهم على الانضمام للثورة!

وكان معظم سكان جدّة يعادون الثورة سراً ، في حين كان جنود الحامية التركية ، الذين تركوا يسرحون في المدينة على هواهم بعد استسلام قادتهم ، يجهرون بذلك العداء علناً ، وكذلك كان شأن المصريين والهنود والجاويين ؛ إذ إن قاطني المدينة كانوا خليطاً من أعراق متعددة ، لا يجمعها إلا الانتماء للدين ؛ لذلك لم يستطيعوا مغالبة شعورهم بالامتعاض من إعلان العرب ثورة باسمهم ؛ فدأبوا على إظهار استغرابهم ، كلما التقوا المتطوعين ، مفصحين عن استنكارهم من أن يعمدوا إلى محاربة بني جلدتهم متحالفين مع بني (السكسون)!

كان يوسف واحداً من قلّة من المتطوعين الذين حافظوا على ولائهم للثورة الوليدة ، وكان لفايد العايد الدور الرئيس في تعزيز ذلك الولاء ؛ فعلى مدى أيام متلاحقة لازمه خلالها محاوراً إياه في كل ما يخصّ الثورة مبدداً ، على مهل ، تلك الشكوك التي أثيرت حولها بسبب تبنّي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الإنكليز إياها علانية محاولين بشتّى الوسائل تجنيد الأسرى العرب ، الموزعين على أكثر من معسكر من معسكرات الأسرى في الهند ، في صفوفها فضلاً عن دعمها بالأموال والسلاح والخبراء ، ضارباً أكثر من مثال عن حركات تحرر وطنية لم تستطع الانتصار دون معونة قوى عظمى ، متطرقاً ، في أثناء حواراتهما تلك ، إلى تجربته الشخصية في الانضمام إلى الثورة ، هذه التجربة المريرة التي تطلّبتْ منه التخلّي عن حبيبته روز : ذلك لأنه كان قد انتمى إلى إحدى الجمعيات السرية التي كانت قد نشطت في بلاد الشام ؛ فعلى أثر تبنّي جمعية (الاتحاد والترقّي) سياسة (تتريك) العرب وإذابتهم في الكيان العثماني عمد العرب إلى الوقوف بوجه تلك السياسة (الطورانية) وذلك بإنشاء جمعيات سرية تهدف إلى فصل سوريا وفلسطين والعراق عن الدولة العثمانية ، وإعلانها دولاً مستقلة . وصادف أن جمال باشا ، الذي عيّن حاكماً عسكرياً لبلاد الشام فضلاً عن كونه قائد الفيلق الرابع ، عثر في القنصليتين الفرنسيتين في دمشق وبيروت على وثائق بأسماء شخصيات مسلمة ومسيحية مشهورة انضمّتْ إلى تلك الجمعيات مبدية استعدادها للتعاون مع دول الحلفاء لأجل تحقيق ذلك الغرض ؛ فعمد من فوره – وكان يعاني من هزيمته على أثر الحملة التي قادها إلى السويس – إلى إحالة معظم تلك الشخصيات إلى (الديوان العرفي) بتهمة الخيانة العظمى ، فصدرت الأحكام بإعدامهم ، وتمّ التنفيذ في مدينة عاليه في لبنان ، وسرعان ما تعاقبت حملات الإعدام في ميدان المرجة في دمشق ، وفي ميدان الحرية في بيروت ، كما استمرّت حملات الملاحقة والنفي بشكل أثار الرعب في بلاد الشام .

وسط تلك الأحداث العاصفة كان فايد العايد يعيش أغرب قصة

حب زلزلتْ حياته ؛ ليس لكون مَنْ أحبّها مسيحية فحسب ، بل لكونها روز تلك الفتاة التي تخطّت بشهرتها زقاق الوسطاني لتعمّ بها محلة باب المصلّى كلها!

كانت صغرى بنات المهاجر سمعان الذي قدم من حوران ليسكن بأسرته ، في أول الأمر ، في محلة باب توما في دمشق القديمة قبل أن ينتقل بها إلى باب المصلّى ليسكن في منزل متواضع قبالة بيت أسرة فايد . وبقدر ما عُرف سمعان في زقاق الوسطاني بالطيبة والوداعة اشتهرت ابنته روز ، دون شقيقاتها الأخريات ، بشراسة طبع كانت تدفع بنساء الزقاق إلى تعقبّها ، في رواحها ومجيئها ، بنظرات استنكار مؤكدات إحداهن للأخرى أنها ذكر في هيئة أنثى!

والحق أنهن كن مصيبات في تشبيههن ذاك ؛ إذ إنها لم تكن تكتفي بتقليد الصبيان ، المقاربين لها في السن ، في بعض هواياتهم وألعابهم مثل صيد العصافير بـ(النقيفة) ، أو الإغارة على فوانيس الأزقة لتحطيم زجاجها ، بل إنها كانت تتورط ، مع بعض الصبيان ، في معارك حقيقية كانت تخرج منها ، في الغالب ، دامية الأنف ، معارك لم تكن تتورع من أن تستعمل فيها تلك الأسلحة البدائية التي كان من المألوف الاستعانة بها مثل (المداحة) و(الشبرية) و(البونية)[١] .

---

(١) المداحة ، الشبرية ، البونية : تسميات شامية تطلق على أسلحة بدائية كانت تستعمل في المعارك بين الشباب ، والأولى تتكون من قطعة قماش صوفي بيضوية الشكل موثقة إلى حبلين قصيرين إلى الجانبين ، توضع فيها حجارة لتقذف إلى مسافة بعيدة . والثانية : خنجر صغير . أما الثالثة فهي قطعة حديد أو نحاس مستديرة فيها أربعة ثقوب تدخل فيها الأصابع وتستعمل في اللكم أثناء المعارك .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بل بلغ بها الأمر أنها أخذت تنافس الصبيان في تربية الحمام : فقد اتخذت من غرفة منفردة فوق سطح الدار (حضيراً) لطيورها حيث غطت الحيطان بمكعبات خشبية واضعة في كل مكعب زوجاً من الحمام . وكثيراً ما شوهدت روز فوق سطح الدار حاملة بيدها (كشاشة) ، تلك العصا الطويلة التي تنتهي بحزمة خرق ، وهي تلوّح بها على طيورها لغرض الاستمرار في الطيران أطول مدة ممكنة . وحدث أن بلغ طرف من أخبارها أحد أقاربها الغيورين الساكنين في باب توما فقدم إلى الزقاق الوسطاني لينفرد بسمعان في بيته مقرّعاً إياه لتركه ابنته تسرح وتمرح على هواها دون رقيب ، فتساءل الأب الوديع مستنكراً :

– وما حاجتها إلى رقيب وهي لا تزال طفلة؟

فعاتبه الرجل على تسامحه معها في زقاق مختلط تشاركهم السكن فيه أسر مسلمة ألفت أن تأخذ المرأة بالشدة والقسوة ، فصاح سمعان منادياً ابنته وقد صمم على تأديبها لا عن قناعة منه ، بل إرضاء لقريبه . حتى إذا ما قدمت روز بعد مرور دقائق ارتمت في حضن أبيها باكية ، فبهت سمعان ، وانهال على طفلته لثماً وهو يسألها عن سبب بكائها ، فأجابته وسط دموعها وشهقاتها قائلة إن أحد منافسيها في تربية الحمام نجح في صيد اثنين من طيورها واحد من صنف (البغدادي) والآخر من صنف (الحلبي) ، وأنه لن يعيدهما إليها إلا لقاء دفع (الفكاك) المعهود . ووسط دهشة ذلك القريب واستنكاره عاد سمعان ينهال على ابنته تقبيلاً مطمئناً إياها ، وهو يمسح لها دموعها :

– لن أكتفي باستعادة حمامتيك ، بل سأشتري لك أخريات من بقية الأصناف (البربريسي) و(الأبلق) و(القلاب)!

فغادر ذلك القريب بيت سمعان وهو لا يكاد يبصر سبيله ليشيع ، بعدها ، الحكاية على الألسن مؤكداً بأسى أن ما تقوم به روز لم يعد يقلقه الآن قدر قلقه عما ستقدم عليه حينما تكبر ؛ ذلك لأنه لن يدهشه يومذاك لو سمع بأنها قدمت إلى البيت متأبطة ذراع شاب ، طالبة من أبيها المسكين أن يبارك زواجها منه . وبرغم أن روز تغيرت كثيراً حينما كبرت بعض الشيء ودخلت طور البلوغ ، فأضحت رزنة تتصرف بحكمة ووقار ، إلا أن طبيعتها القديمة كانت تطفو إلى السطح ، ولا سيما في لحظات غضبها ، فكانت تبدر عنها ردود فعل على شيء من عنف دفعت ، مَنْ كان على معرفة بها ، إلى التعامل معها بكثير من الرويّة والحذر . وكان فايد واحداً من هؤلاء ؛ يحرص على أن يوجز كلامه إلى أقل حد ممكن حينما كانت روز تستقبله استجابة منها لطرقه الباب ، مجابهة إياه بعينيها الزرقاوين المتحديتين أبداً ، فكان يسلّمها صحيفة (الشام) التي اعتاد سمعان استعارتها منه بعد انتهائه من قراءتها ، ليغادرها دون وداع .

لكنه فوجئ بها ، ذات يوم ، تخاطبه متهكمة وهي تتسلم الصحيفة منه :

- الشام . . . الشام مرة أخرى؟ أخلت مدينة دمشق من الصحف الأخرى؟!

وبرغم أن فايد كان يشاركها في سأمها من تلك الصحيفة التي كانت السلطات الرسمية العثمانية تروّج لانتشارها لكونها تكيل المديح للسلطان عبد الحميد الذي كان يعيش أواخر أيام مجده قبل إعلان (الدستور) ، لكنه لم يملك إلا أن يجيبها بمكر متخطياً حذره الغريزي منها :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ليست الصحف محض حمام (يكش) عليه ليطير في السماء ، إنما لا بد من جهات تتبناها وتصرف عليها وتقوم بتحمّل أعباء مسؤوليتها!

فأجابته وعيناها الزرقاوان تومضان بنظرة تحد :

- والصحف المصرية التي تتبادلونها - أنتمً الرجال - بينكم سراً مثل (المقطّم) و(الأهرام) و(المؤيد)[1] ، ألا يسعك أن تطلعنا على بعض منها؟

فتلفت فايد حوله مذعوراً خوفاً من أن يكون مستطرق قد سمع كلامها ؛ ذلك لأن السلطات كانت قد حظرت تداول تلك الصحف علناً ، وغادرها دون أن يستطيع النطق بكلمة واحدة . حتى إذا ما مرّ أسبوع طرق باب سمعان ليدسّ في كفّ روز صحيفتين وهو يقول لها همساً :

- سلّمي إحداهما لأبيك مع إبلاغه تحياتي ، أما الأخرى فإنها لك ، وسأزوّدك بغيرها إنْ عرفت كيف تصونين السر!

فأجابته بدورها هامسة وهي تدق على صدرها الناهد بحركة (رجولية) :

- اطمئن ؛ فسرك في بئر لا قرار لها!

فودّعها فايد مكتشفاً مقدار الظلم الذي كانت روز قد أنزلته

---

(١) المقطم ، الأهرام ، المؤيد : صحف كانت تصدر في مصر ، رأسَ تحرير الأولى (جبرائيل تقلا) والثانية (نمر وصروف ومكاريوس) والثالثة (الشيخ علي يوسف) وعرفت بمناصرتها للحركة القومية العربية وتأييدها لها مما دفع بالسلطة العثمانية إلى منع تداولها .

بنفسها ؛ فقد كانت - ببياض بشرتها وشقرة شعرها وزرقة عينيها - خارقة الجمال دون أن تدري!

منذ ذلك اليوم نَمتْ بين الاثنين عاطفة ودّ تحوّلت بمرور الأعوام إلى حب جارف جعلهما يجازفان أحياناً بالتواعد في منطقة باب توما الحافلة بالمتنزهات والتي كادت تكون مقتصرة على المسيحيين مما كان يسهّل عليها اللقاء فيها بحبيبها دون وجل أو خوف . وعلى امتداد الأعوام التي أعقبت إعلان الدستور ، وعزل السلطان عبد الحميد ، وإطلاق الحرية للناس ، وما صاحب ذلك من إصدار العديد من الصحف تعزز حبهما أكثر فباتا يفكّران جديّاً بالزواج ؛ ذلك لأن فايد أصبح صحفياً مرموقاً يدير صحيفة (اليقظة) نيابة عن صاحبها كامل الأطرش الذي اشتهر آنذاك بدعوته الجريئة إلى تحرر العرب والاستقلال عن السلطنة العثمانية .

وكان فايد يتسلّم مرتبه الشهري من تلك الصحيفة فيحرص على أن يوفّر جزءاً كبيراً منه لتحقيق ذلك المشروع ، لا شيء يعكّر عليهما ذلك سوى أمرين تمثّل أولهما بتعيين جمال باشا قائداً للفيلق الرابع وما تبع ذلك من حملات ملاحقة للداعين إلى الاستقلال العربي ، وأما الأمر الثاني فقد تمثّل بأن قريب سمعان الغيور ضبط ، ذات يوم ، روز وفايد منفردين في إحدى زوايا حديقة الأفندي ، فأدرك أن ما كان يخشاه منذ سنوات قد أوشك على أن يتحقق ؛ إذ لم يعد من المرجح أن تتقدم هذه الفتاة المتهورة إلى أبيها متأبطة ذراع شاب طالبة منه أن يبارك زواجهما فحسب ، بل الأنكى من ذلك أن الزوج المرتقب مسلم من ملّة أخرى!

وهكذا عاود ذلك القريب زيارة سمعان في بيته لا ليطلب منه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تأديب ابنته وما شابه من أمور تجاوزتها الأحداث ، بل ليطلب منه موافقته على أن يزوّج روز من ابنه هو!

يومذاك أدركت روز أنه لا حيلة لها للإفلات من هذه المصيبة ؛ فلا مجال بأي حال من الأحوال للمفاضلة في زواجها بين مسيحي ومسلم ، فطلبت من أبيها إمهالها لتخبره برأيها بعد أيام . وفي فجر اليوم التالي جازفت بطرق باب البيت المقابل ، وكان من حسن حظها أن فايد هو الذي فتح لها الباب ، فأخبرته بالقصة وقد اغرورقت عيناها الزرقاوان بالدموع ، وأمهلته ثلاثة أيام لإقناع أهله بالتقدم إلى خطوبتها وإلا فأنها ستقدم على عمل لن يخطر له على بال!

ومرّت بأسرة فايد أيام عاصفة بدا فيها البيت وكأنه يتقلّب على فوهة بركان على وشك الانفجار ؛ فقد رفض الجميع الإقدام على خطوبة من هذا النوع ليس لكون المرشّحة للزواج مسيحية بل لأنها ليست سوى روز التي (تكش) الحمام فوق السطوح!

فجر اليوم الموعود رابط فايد خلف الباب بانتظار قدوم حبيبته وهو في حيرة من كيفية التصرف . حتى إذا ما جفل على الطرقات التي انهالت على الباب فتحه وهو في الرمق الأخير ، فإذا به يفاجأ بأن حارس الصحيفة هو الطارق!

طالعه الحارس بوجه مرعوب غاض الدم عنه . وقبل أن يتسنى لفايد الوقت اللازم لسؤاله عما حصل ناوله الحارس بيد راجفة (إشعاراً رسمياً) يقضي باستدعاء كامل الأطرش ، صاحب الصحيفة ، للمثول أمام الديوان العرفي!

– معنى ذلك أنه سيحكم عليه بالإعدام حال إلقاء القبض عليه ؛ فذلك هو دأب الديوان العرفي!

خاطب فايد الحارس ليبادر من فوره ، ودون إضاعة لحظة واحدة ، إلى مغادرة دمشق ليستقلّ قطار الحجاز الذي أوصله إلى مدينة درعا . وتوجّه من هناك ، على ظهر عربة مقطورة إلى الخيول ، إلى مدينة السويداء حيث استعان بـ(مكاري) شق به ، على ظهر بغلته ، شعاب جبل الدروز الوعرة ليوصله إلى قرية كامل الأطرش ، حيث كان قد استقرّ عند أسرته منذ اشتداد حملة مطاردة الوطنيين .

كان فايد يعدّ كامل الأطرش أستاذه الروحي ، يستلهم طريقته النارية في تدبيج مقالات كان يجازف بنشرها في الصحيفة إيماناً منه بإحدى الحِكَم التي تفتق عنها ذهن الأطرش المولع بهذه الأمور : (حروب الكلمات لا تقلّ شأناً عن حروب الرصاص ، بل إنها أبعد أثراً منها وأبقى) .

حين التقى التلميذ أستاذه في بيته الحجري القائم في طرف القرية الدرزية ، والذي تطل نوافذه الواسعة على سفح الجبل المغطى بكثافة الأشجار ، اكتشف أن كامل الأطرش يخبئ له بدوره مفاجأة من أغرب المفاجآت ؛ إذ لم يكد فايد يسلّمه (الإشعار الرسمي) ناصحاً إياه بضرورة البقاء في قريته وعدم العودة إلى دمشق ، حتى ناوله هذا صحيفة ، طالباً منه قراءة ما ورد على إحدى صفحاتها : فإذا به يصعق على حروف اسمه فايد العايد وسط عشرات الأسماء الأخرى المطلوب منهم المثول أمام الديوان العرفي!

تبادل الاثنان نظرات دهشة علّق فايد على أثرها قائلاً :

- سبحان الله! . . . هرعت إليك وفي ظني أنني أعمل على إنقاذك من موت محتّم غير مدرك أنني أسعى ، في واقع الحال ، إلى إنقاذ نفسي!!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اقترح كامل الأطرش على فايد فكرة البقاء في الجبل ؛ ذلك لأنه لن يسع جمال باشا إلقاء القبض عليهما حتى لو جنّد أفراد الفيلق الرابع لهذا الأمر ؛ فهناك مخابئ سرية يعرفها جيداً وسط الغابات وكهوف الجبل لن يهتدي إليها الجن الأزرق . لكن فايد فضّل الهرب إلى الحجاز ؛ فالشريف حسين – كما كان يشاع عند الوطنيين سرّاً – كان قد أوشك على أن يعلن ثورته ؛ ولهذا عمد كامل الأطرش إلى الاتصال ببعض المهرّبين الذين لا يخلو الجبل منهم ، واتفق مع مجموعة منهم ، كانوا في سبيلهم إلى التسلل نحو غور الأردن ، على إيصال فايد إلى الحجاز . حتى إذا ما بلغ بغيته كان الشريف قد أعلن قيام الثورة ، وعهد إلى فؤاد الخطيب ومحب الدين الخطيب إنشاء صحيفة في مكة باسم (القِبلة) لتكون لسان حال الثورة : تروّج لاستقلال العرب ، داعية إلى وحدتهم كما كان شأنهم في الماضي ، فجرى تعيين فايد العايد مراسلاً للجريدة في جدّة الميناء الذي لا بد للمتطوعين من المرور به قبل التحاقهم بالثورة .

(٤)

- حين فتحتُ عينيّ على أثر انطلاق ذلك العيار الناري فوجئت بجريح متين البنيان ، عرفته فيما بعد باسم إسماعيل ، يدخل الغرفة يسنده فايد العايد من جانب وفتى أشقر نحيل القامة من الجانب الآخر .

استطرد الدرويش يوسف في كلامه متحدثاً عن ذلك الماضي البعيد موضّحاً أنه كان قد قدم من مدينة رابغ - حيث كان القائد العربي الشهير عزيز علي المصري منهمكاً ، ليل نهار ، بإعداد المعسكرات الخاصة بتدريب المتطوعين الجدد - لغرض التوجّه إلى مكة لأداء (العمرة) ، فنزل في ضيافة فايد ، كما كان شأنه دائماً ، ففوجئ بصديقه الشامي يخبره بأنه بصدد استقبال أسير عراقي قادم من الهند لا يبعد أن يكون سمع باسمه . . . وحين سأله يوسف عمن يكون هذا الأسير اللامع؟ أجابه فايد أنه مصارع عراقي يدعى إسماعيل اشتهر أمره في السنوات الأخيرة بعد انفراده ببطولة (زورخانات) بغداد ، فأكدّ يوسف ليس سماعه باسم ذلك الرجل فحسب بل توقه الشديد للقائه ؛ إذ اشتهر أمره في زمن ناظم باشا حين أُثيرتْ تلك الضجة حول فتاة أرمنية بالغة الغنى اسمها سارة خاتون استثمر القناصل الأجانب شغف الوالي بها لأغراض سياسية!

- أرجئ سفرتك إذن إلى مكة يومين أو ثلاثة لتحظى بذلك اللقاء .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نصحه فايد ، وأضاف موضحاً أن الباخرة التي توقفت البارحة بعض الوقت في ميناء جدة قبل استئناف إبحارها إلى مدينة رابغ كانت قادمة من الهند محمّلة بأسرى كان إسماعيل من جملتهم ، وبسببه إنما توقفت الباخرة لإصابته في بومباي بجروح التهبت على مدى أيام الرحلة مما تطلب الأمر الإسراع بإيصاله إلى المستشفى لأجل معالجته ؛ إذ إن تطوّع معظم هؤلاء الأسرى مرتهن بشفاء إسماعيل من جروحه .

- وما علاقة هذا بذاك؟

تساءل يوسف ، فأجابه فايد قائلاً إن الإنكليز الذين التقاهم على ظهر الباخرة بدوا مذهولين لفرط الولاء الذي كان هؤلاء الأسرى يولونه إسماعيل ؛ فمنذ الأيام الأولى لحلولهم في معسكر (سمر بور) في الهند التفّوا حوله وانتخبوه من بينهم (عريفاً) لسريتهم المتكونة من مئة أسير والتي شغلت ردهة من جملة عشرات الردهات التي ضمّت آلاف الأسرى الأتراك والعراقيين والسوريين والفلسطينيين والأكراد والأرمن واليهود . وكانت تلك الردهة من أكثر الردهات ضبطاً وتنظيماً ، لا يخالفون لإسماعيل أمراً . وكان تفسير الإنكليز لتلك الظاهرة كون المجتمعات العربية بقيت أسيرة الماضي : تجد في عنترة والزير سالم وأمثالهما من أبطال السير الشعبية ، التي لا تزال أحداثها تروى في المضايف والدواوين ، نماذج استثنائية يستميتون للاقتداء بها .

- وهكذا أكّد الإنكليز لفايد العايد ضرورة الإسراع بحمل إسماعيل إلى المستشفى ليتولّى الأطباء معالجة جروحه تاركين له مهمة علاج رأسه ؛ إذ إن إسماعيل كان من الرافضين لفكرة الانضمام إلى الثورة!

علّق الدرويش ضاحكاً ليتطرّق بعدها إلى ما حدث في ذلك اليوم الذي سبق سفره إلى مكة لأداء (العمرة) : فقد وثب من سريره للمساعدة في إيصال إسماعيل إلى السرير الآخر حيث استغرق من فوره في نوم محموم كان يتنفّس ، في أثنائه ، بصوت مسموع كأنه ينتزع الهواء انتزاعاً . وكان مناخ جدة – كما عهده يوسف منذ قدومه إليها أول مرة – وخماً مثقلاً بالرطوبة ، يعسر التنفس فيه ؛ ولعل ذلك هو السبب الحقيقي للجوء سكان المدينة إلى بناء بيوتهم على ارتفاع بضعة طوابق تصل الخمسة أحياناً ، مكثرين من عدد النوافذ فيها مع إبقاء مصاريعها دون زجاج حيث هواء البحر الرطب يندفع داخلاً مع أعداد لا تحصى من العصافير التي اعتادت بناء أعشاشها بين عوارض السقوف .

تركوا الرجل المحموم يأخذ كفايته من النوم هاذياً بكلمات وألفاظ غامضة يتخللها اسم جابر الذي كان يلحّ في تكراره مما دفع الفتى الأشقر الذي كان في صحبته ، والذي كان يُدعى رمزي الخالدي ، إلى أن يوضّح الأمر بقوله :

– كان جابر البنا صديقه الحميم ، يلازمه في معسكر (سمر بور) للأسرى في الهند ملازمة ظله ، لكنهما اختلفا في الأيام الأخيرة بسبب تطوّع جابر في صفوف الثورة على العكس من إسماعيل الذي لم يقتنع بفكرة قيام ثورة بدعم من البريطانيين ؛ فحاول جهده ثني جابر عن المضي في هذا الأمر مؤكّداً أن ما يخشاه أن يتنبه متأخراً إلى خطأ اختياره محمّلاً إياه بالنتيجة عدم إسداء النصح له .

واسترسل الدرويش يوسف في حديثه ، مستعيداً تفاصيل ما جرى ذلك اليوم في تلك الغرفة القائمة في الطابق الثالث من بيت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فايد ، حيث كانوا قد جلسوا على الكراسي المركونة قرب نافذة كانت تتصاعد ، من خلالها ، ضجة السوق ، يتخللها رغاء الإبل . وأمامهم كانت تطالعهم مئذنة مسجد مزدانة بشرفة في الوسط ، وهنا وهناك تناثرت البيوت المبنيّة بالحجر المرجاني ، وإلى الوراء منها ، إلى جهة الغرب ، لاح مرسى البواخر الصاعدة من اليمن والهند ، والمنحدرة من مصر وبلاد الشام ، وثمة أشرعة مراكب تسطع ببياض لونها وسط زرقة مياه البحر الأحمر المنداحة على مدى البصر .

واستدرك الدرويش يوسف فمضى يحدثني ، هذه المرة ، عن رمزي الخالدي وكيفية تعرّفه إلى إسماعيل - وكان رمزي قد سبقه في الوقوع في الأسر بأشهر ؛ إذ إنه كان ضمن الحملة التي قادها جمال باشا إلى مصر حيث اصطدموا ، في السويس ، بالجيش الإنكليزي فهزموا شر هزيمة - وكيف أن هيئة إسماعيل أدخلتِ الرهبة إلى نفسه ؛ فكل ما فيه كان يشي بقوة خارقة كان يبرهن عليها عملياً وذلك حين يستعين بواحد من أثقل الأسرى وزناً فيحمله على كتفيه ليقرفص به وينهض مرات لا تُحصى حتى يبتلّ جسده بالعرق!

- واعترف رمزي أنه كان يتجنب إسماعيل ما وسعته الحيلة خوفاً من أن يبطش به في لحظة غضب إلى أن اكتشفه على حقيقته ؛ فبات أقرب صديق إلى قلبه .

قالها الدرويش مبتسماً ليستطرد متحدثاً عن السبب الذي جعل رمزي يرتبط بإسماعيل بتلك الصداقة ؛ فقد اختلفتْ آراء الأسرى ، ذات يوم ، حول السلطان عبد الحميد : أكان يستحق تلك الخاتمة المأساوية التي انتهى إليها حينما عزله (الاتحاديون) عن سدّة الحكم أم لا؟ فتناقضت الآراء حوله بين مدافع عنه وشامت به ، إلا أن رمزي

اكتفى بقوله إنه مهما اختلفت الآراء فيه إلا أنه كان يُفترض بـ(الاتحاديين) ألا ينسوا أنه بقي خليفة للمسلمين عقوداً من الزمن لذا كان يتوجّب عليهم ألا يعمدوا إلى إهانته وذلك بتبليغه قرار عزله بوساطة وفد ضم اليهودي عمانوئيل قره صو!

وعلى الفور ضجّ الأسرى اليهود بالاحتجاج متهمين رمزي الخالدي بمعاداة (السامية) ، فسارع رمزي إلى استنكار تلك التهمة الظالمة ؛ لأنه لا يُعقل أن يكون معادياً للسامية وهو ابن القدس حيث تعايش المسلمون والمسيحيون واليهود منذ مئات السنين . . فعاد هؤلاء الأسرى يتساءلون عن مسوّغ تصوّره أن وجود ذلك اليهودي ضمن الوفد شكلّ إهانة للسلطان دون الأعضاء الآخرين؟ فذكّرهم رمزي بتلك الحادثة المشهورة حين التقى الرجل نفسه السلطان سنة ١٩٠٠ موفداً من قبل (الجمعية العالمية الصهيونية)(١) لغرض منحهم الأراضي الواقعة في المثلث القائم ما بين يافا وغزة والبحر الميّت مقابل خمسة ملايين ليرة تقدّمها الجمعية هدية إلى الخزينة الخاصة ، فضلاً عن عشرين مليوناً تُقدم إلى الحكومة العثمانية دون فائدة ، فاحتدّ السلطان وخرج عن طوره ، وأمر حراسه بطرد الرجل ، فأسرّ (الاتحاديون) الأمر

(١) الجمعية العالمية الصهيونية : انبثقت هذه الجمعية عقب عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة (بال) السويسرية عام ١٨٩٧ برئاسة (هرتزل) وحضور (٢٠٤) من المندوبين اليهود من شتى أقطار العالم . وقد تبنى المؤتمر المبادئ الآتية : تطوير المستعمرات اليهود ية في فلسطين ، وتنظيم وتوحيد جميع اليهود في العالم ، وإيجاد حكومة يهودية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في نفوسهم وقرروا إهانة السلطان بضم ذلك اليهودي إلى الوفد الذي أبلغه بقرار عزله .

وعاد الأسرى اليهود يضجون مهددين رمزي بالانتقام هذه المرة لولا أن إسماعيل سارع بوضع حد لثورتهم محذّراً إياهم من مسّ رمزي بأي شكل من الأشكال ؛ لأن عملاً على تلك الشاكلة سيغضبه دون شك ؛ وهو أمر يتمنى عدم حصوله لأنه سيجد نفسه مرغماً على الإقدام على ما لن يُدخل البهجة إلى نفسه!

منذ ذلك اليوم لازم رمزي إسماعيل ، مثل جابر البنا تماماً ، حتى أنه كان مستعداً للتضحية بحياته دفاعاً عنه يوم تكالب عليه الجنود الهنود في ميناء بومباي فأصابوه بتلك الجروح الخطرة .

- وما سبب حصول ذلك؟

سأل يوسف رمزي الخالدي ، فالتفت هذا نحو السرير متفقّداً بعينيه صديقه الجريح قبل أن يحدثهما بكيفية حصول ذلك : فقد حاول المسؤولون الإنكليز في معتقل (سمر بور) إغراء إسماعيل ، بشتى الوسائل - ولا سيما بعد نجاحهم مع جابر - للانضمام إلى ثورة الحجاز ليقينهم بأن ذلك يكفل لهم انضمام السرية كلها . لكنه رفض ؛ فقد بقي يؤكد أن ترويج الإنكليز لهذه الثورة يثير لدى الأسرى الريب والشكوك . كما أن الاحتقار الذي كان يُقابل به كل من يتطوع في صفوف هذه الثورة ؛ فيودّع برميه بالبيض وبقايا الأطعمة الفاسدة ، جعل الجميع يحجمون عن هذا الأمر .

وهكذا عمد الإنكليز ، حينما أعياهم الأمر ، إلى تجميع خيرة الأسرى وتسفيرهم في قطار ما كاد يصل بهم إلى بومباي ليقف قرب مرسى البواخر حتى شاع بينهم أن الإنكليز بصدد إرسالهم إلى الحجاز

قسراً ، فضجوا بالاحتجاج ، وارتفعت صرخاتهم في العربات ، فعمد الجنود الهنود إلى تطويق القطار وقد تسلّحوا ببنادق ثبتوا إليها الحراب ، فحاول بعض عقلائهم تهدئتهم . واختاروا مجموعة منهم للتفاوض مع الجهات المعنيّة لغرض إعادتهم إلى (سمر بور) ، بيد أن المفاوضات طالت وامتدت ساعات وهم محبوسون داخل عربات يطوقها هؤلاء الجنود ؛ وكان أن برّح بهم الجوع والعطش والغضب ، فهاجوا وماجوا ، وأخذوا يحاولون تحطيم الأبواب لمغادرة القطار وفي مقدمتهم إسماعيل الذي استطاع ، بضربات جبارة من كتفه ، تحطيم باب إحدى العربات والوثوب إلى الخارج ، فتدفق في أعقابه الآخرون حيث شهد ميناء بومباي ، الغاص بالبواخر العملاقة ، معركة بالأيدي كاد إسماعيل يفتك فيها بالعديد من الجنود لولا أن أحدهم عاجله بطعنات من حربة بندقيته جعلته يسقط بعدما نزف الكثير من دمه . وعلى الفور تمّت السيطرة على الأسرى ؛ فأجبروا على صعود الباخرة التي سارعت بالإبحار بهم وإسماعيل بين الحياة والموت!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٥)

بيد أن إسماعيل ، وبفضل العناية الشخصية التي أحاطه بها الدكتور أمين معلوف مدير مستشفى جدة الذي كان يتفقّده يومياً ، سرعان ما تماثل للشفاء حتى أن يوسف لم يصدق عينيه يوم قفل راجعاً من مكة عقب أدائه (العمرة) – ولم يكن قد مرّ على غيابه سوى أسبوع – إذ فوجئ بإسماعيل متمدداً وسط الغرفة على وجهه وقد استند إلى باطن كفيه وأصابع قدميه وهو يفرد ذراعيه ويثنيهما محرّكاً جسده صعوداً وهبوطاً بذلك التمرين المعروف لدى مصارعي (الزورخانات) باسم (الشناو) . وكان رمزي الخالدي وفايد العايد واقفين فوق رأسه ، وأولهما يعدّ له بصوت مسموع الحركات التي يقوم بها ، والآخر يتواثب هنا وهناك وقد اشتعل حماسةً مشجّعاً إياه على تجاوز العدد الذي سبق له الوصول إليه ، حتى إذا ما تحقق ذلك وثب إسماعيل واقفاً وسط تهليل الآخرينِ ، وتقدم من يوسف ليصافحه مهنئاً إياه بسلامة العودة ليردف بعدها موضحاً وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة :

– عذراً . . . لا مفرّ لي من أن أحاول استعادة لياقتي البدنية بعد طول رقادي في الفراش .

فعلّق فايد بمكر وهو يصافح بدوره يوسف :

– إنه معذور يا حاج يوسف ؛ لأنه مقبل على مباراة سينازل فيها الأتراك!

فسارع إسماعيل إلى الرد وقد جلس على حافة السرير ملتقطاً منشفة اخذ يمسح بها عرقه :

– لا شأن لي بمباراة على هذه الشاكلة ؛ فصحبك الإنكليز هم الأولى بلعبها .

– إنهم ماضون في لعبها ، كما تعلم ، على أمل أن نسهم نحن العرب فيها أيضاً .

– أحسب أن إقحام طرف ثالث نفسه في مباراة بين اثنين ليس إلا ضرباً من غش!

– ألا ترى أنه لا مفر من اللجوء إلى ما تسميه بـ(الغش) حين يكون خصمك أقوى منك بكثير؟

– يبقى الغش غشاً ، وهو ما يناقض الأخلاق الرياضية المبنيّة على المبادئ .

فتقدم فايد ليجلس في مواجهة إسماعيل على حافة السرير الآخر مكلّماً إياه بجدية :

– ولكنْ تذّكر يا صديقي أنه لا توجد في السياسة مبادئ ؛ إنما هناك مصالح فقط .

– وما المصلحة التي تدفعنا إلى التحالف مع الإنكليز؟

تساءل إسماعيل ثائراً ليستطرد بعدها بحرقة :

– إنهم ماضون في احتلال وطني العراق ؛ فعقب الانتكاسة التي منوا بها في الكوت وانتهت باستسلام قائدهم طاوزند ومعه الآلاف من الجنود ، ها هم يحشدون قواتهم مجدداً تحت أمرة جنرالهم مود الذي يتبجح بأن هدفه احتلال بغداد .

– قلْ لي يا صديقي : أيكفّ الإنكليز عن احتلال بلدك إن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

امتنعنا نحن عن التعاون معهم؟

- كلا بطبيعة الحال ؛ فهدفهم يتخطى العراق إلى إسقاط الدولة العثمانية وصولاً إلى تحقيق مآربهم الاستعمارية المعهودة .

- ما الضير إذن ، والأمر كذلك ، من التعامل معهم ما دام هذا التعاون سيأتي بالنفع على العرب؟

- لأن هذا الأمر يخالف مبادئي .

- عدنا إلى المبادئ مرة أخرى!

صاح فايد بيأس وقد نهض ليتخلّص من ثوبه ويشرع في ارتداء ملابس الخروج : القميص والبنطال ، مهيباً بالآخرين الاقتداء به وقد برّح بهم الجوع . وعلّق بمرح وهو يلقي على مظهره ، في المرآة المعلقة قرب النافذة ، نظرة عابرة :

- علينا الإسراع بملء بطوننا ؛ فعهدي بالمبادئ أنها لا تغني عن جوع!

منذ ذلك اليوم اعتاد يوسف متابعة فايد العايد وإسماعيل وهما يخوضان ، من وقت إلى آخر ، حواراً على تلك الشاكلة كان يذكّره بحوارات سابقة دأب فايد على خوضها مع آخرين ، من المترددين الذين لم يكونوا قد حسموا بعد قرارهم النهائي بالانضمام إلى صفوف الثورة ، اعتاد فايد الخروج منها بإقناعهم بصواب رأيه .

بيد أن الأمر بدا مختلفاً هذه المرة ؛ فبرغم الجهود المضنية التي بذلها فايد ، معززاً إيّاها بالاستناد إلى مقالات منشورة في صحيفة (القِبلة) وفي صحف أخرى كانت ترده من الخارج ، ولا سيما من مصر ، وبرغم رجوعه إلى صفحات من كتب كان يحثّ إسماعيل على قراءتها ، برغم هذه الجهود كلها لم يتزحزح إسماعيل عن موقفه قط ؛

فقد كان ينحّي كل ما أمامه مكرراً أنه لا شأن للصحف والكتب بتعلّم مثل هذه الأمور التي يدركها المرء تلقائياً . وكان يضيف بعدها مذكّراً بأن فترة السنة والنصف التي قضاها في الهند أسيراً علّمته أن الإنكليز لا يبحثون عن حلفاء إنما عن عبيد .

وتطرّق إسماعيل ، في إحدى المرات ، إلى ذكر شخص اسمه حمدان تعرّف إليه أثناء تلك الفترة التي قضاها في (الروطة) :

– كان إنساناً دمثاً بطبيعته ، يحرص أن يخاطب محاوره ، أيّاً كان ، بكنية (يا ابن العم) . ولم أره يخرج عن طوره قط ؛ فقد كان من دأبه غضّ الطرف عما توجّه إليه من إساءات اعتاد مجابهتها بابتسامة متسامحة يرسمها وسط شاربيه الكثين ، في حين كان في وسعه أن يردي خصمه بضربة واحدة من قبضته الضخمة التي كان منظرها يبعث على الرعب . وبرغم أنه كان أميّاً ، لا شأن له بالقراءة والكتابة – فقد كانت مهنته التي يعتاش عليها هي صيد السمك والطيور في الأهوار – لكنه كان يمتلك حكمة علّمته الحياة إياها ؛ فقد قرر الامتناع عن الإسهام في حركة المجاهدين الذين كانوا يسعون إلى تحرير البصرة من الاحتلال الإنكليزي بعد خوضه تجربة مريرة جعلته يحسم أمره باتخاذ ذلك القرار .

يومها التفت فايد نحو يوسف ورمزي طالباً منهما العون ، فسارع الاثنان بالنهوض والشروع في استبدال ملابسهما معلنين أنهما سيسبقانهما في الخروج للجلوس في مقهى قريب اعتادوا اللقاء فيه قبل الشروع في جولاتهم اليومية .

كان يوسف يرجّح احتمال أن تكون آراء إسماعيل صائبة ؛ لأنه رأى بنفسه مدى استغلال الإنكليز للهنود . كما كان واثقاً من نبل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أفكار فايد الذي أفلت من الإعدام بأعجوبة ؛ لذا فقد كان يتمنى وجود طرف ثالث يمكنه الركون إليه ليساعده في الوصول إلى يقين ، بيد أن سوء حظه شاء ألا يتمثل ذلك الطرف إلا برمزي الخالدي الذي كان يجد في هذه الحرب الوسيلة الوحيدة التي تكفل له العودة إلى القدس حيث ترك أربعة أشقاء صغار لا أحد لهم يرعاهم سوى أخته فاطمة التي تكاد تكون بدورها طفلة ؛ إذ إنها تصغره بستة أعوام .

وكان رمزي يحدّث يوسف ، حال جلوسهما في المقهى وشروعه في تدخين نارجيلته ، عن الأعباء التي ألقيتْ على فاطمة عقب وفاة أمه التي كانت دائمة المرض ؛ فقد أضحت تلك الطفلة ملزمة بأن تنوب عنها في إدارة شؤون الأسرة . ولا يزال رمزي يتذكر بحنان ذلك اليوم الذي تربّعت فيه فاطمة إزاء الطابون لعمل الخبز ؛ إذ لم يكد ينضج أول رغيف حتى انطلقتْ به إلى زير الزيت القريب لتغمسه فيه قبل أن تناوله شقيقها الصغير زكريا مكررة بذلك ما كانت تقوم به أمها لها يومياً ؛ فاحتضنها أبوها ليلثمها وقد أخضلت عيناه بدموع الشكر والإكبار ، حتى إذا ما اختطف الموت ذلك الأب سيق رمزي مع تلك الحملة التي كانت نتيجتها وقوعه في الأسر .

ذلك كان حديث رمزي الدائم ، يعود إليه بصيغ وأشكال متعددة حتى أن إسماعيل كان يخاطب فايد حال التحاقه بهما في المقهى :

– من المؤكد أن رمزي صدع رأس يوسف المسكين بحديثه عن فاطمة ؛ لأن هذا الأمر بقي شغله الشاغل منذ التقيته في معسكر الأسرى حتى أنه نجح في إصابتي بعدوى ذلك القلق على أخته فاطمة التي لم تسبق لي رؤيتها!

كانوا يستريحون في ذلك المقهى عادة ، وبعدما يحتسون شايهم

وقهوتهم ، ويدخّن بعضهم نارجيلته كانوا يبدأون جولتهم ، متوغلين في أعماق مدينة جدة التي تتميز بخلوها من الأشجار باستثناء بضع نخلات تتطاول بقاماتها بالقرب من أحد المساجد . وكانت شوارع المدينة الداخلية تعيش هدوءاً عجيباً يندر أن يصادف المرء فيها عابر سبيل ، تحفّ بها بيوت تتألف من طوابق عدة وتكون عادة مشيدة بحجر مرجاني يبهر البصر ببياض لونه ، تتخللها عشرات النوافذ ذات المصاريع الخشبية . وكانوا ، وهم ينقّلون خطاهم التي لا يصدر عنها صوت بسبب طبقات الرمل المتراكمة ، يتخذون وجهتهم شرقاً نحو باب مكة المزدان ببرجين مزينين عند قمتيهما بالزخارف ، حيث يتسلّم فايد العايد نسخته من جريدة (القِبلة) ؛ إذ كان من المألوف وصول البريد من مكة قبل شروق الشمس .

كان من دأبهم تناول فطورهم هناك في واحد من تلك الأكشاك الصغيرة القائمة قرب ذلك الباب ، حيث تقام عادة سوق الماشية والحطب والخضار والفاكهة الواردة من وادي فاطمة ، وقد يطيب لهم المرور بالباب الشمالي المسمى باسم باب المدينة أو الباب الجديد ، حيث تقوم بالقرب منه القنصليات الأوربية ، ويقع قبالته - خارج السور - قبر حواء الذي كان يؤمّه الكثير من الزوار . وكان الباب الثالث ، القائم غرباً قرب دار المكوس والمسمى باب الشريف ، أقرب الأبواب إلى منزل فايد ، يراقبون من خلاله بفضول القادمين من شتى أطراف الأرض وهم يجتازونه داخلين أو خارجين نحو المرفأ الذي لا يخلو عادة من عشرات المراكب الشراعية ، وثمة بواخر راسية في عرض البحر الأحمر متجنبة الاقتراب من الساحل الحافل بالشعاب المرجانية ، تاركة أمر إفراغ حمولتها إلى تلك القوارب الدائبة الحركة بينها وبين الرصيف .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت سوق جدة المسقفة بالخشب والممتدة بطول المدينة أكثر الأماكن صخباً وضجيجياً ، شديدة الزحام ، تذكّر يوسف بسوق الشورجة في قلب بغداد ، ولا تكاد تختلف عنها إلا بأمرين أولهما وجود الإبل فيها وهي تنقل البضائع على ظهورها ، والثاني تعدد الأعراق والملل والنحل بشكل لافت للانتباه : فمع وجود أعراب المدن ، وبدو الصحراء ، كان هناك تجار قادمون من مسقط والبصرة فضلاً عن التجار الترك والسوريين واليونانيين والمصريين والبربر والماليزيين واليابان . كانوا خليطاً عجيباً يتميز بعضهم عن بعض بسحنهم وبأزيائهم الوطنية ولغاتهم الأصلية التي كانوا يتصايحون بها وهم جالسون على أبواب متاجرهم أو في المقاهي ، يتبادلون آخر أخبار الحرب ، أو يتباحثون في شؤون التجارة سعياً لإنجاز الصفقات .

وكان هناك الهنود أيضاً ، وهم في الغالب قدموا إلى مكة لأداء فريضة الحج فنفدت أموالهم وانقطعت عنهم مواردهم الكفيلة بعودتهم إلى ديارهم ، فاضطروا إلى التنقل هنا وهناك بأسمال بالية موقفين المارة ، بين وقت وآخر ، ليلخّصوا لهم محنتهم بلغة ندر أن يفقه المستمع منها حرفاً واحداً ، مستعينين بالدموع للتعبير عن معاناتهم . وكان من النادر أن يلتقوا النساء في تلك الأسواق ، وإن صادف وحصل ذلك فإنهن يكنّ عادة محجّبات يتوارين خلف كسوات زرق رخيصة حين يكنّ رقيقات الحال ، أما الثريات فكسوتهن الزرقاء تكون عادة مطرزة بخيوط فضية ، تظهر من تحت أطرافها أذيال ثيابهن الفاخرة المعمولة من الحرير الهندي ، وقد ازدانت أكفهن المحنّاة بالخواتم والأساور .

كانوا يعودون إلى المنزل عقب غروب الشمس حين تضج مآذن المساجد بأصوات المؤذنين الشجية ، فيرتقون السلالم نحو الطابق الثالث

الذي كان فايد يستثمر غرفه كلها لسكنه وكتبه واستقبال ضيوفه ، تاركاً غرف الطابقين الآخرين مهملة يكدس فيها الكتب والصحف القديمة التي سرعان ما تعلوها طبقات الغبار ورطوبة الملح وذروق العصافير . وكان فايد لا يترك ليلة تمرّ دون استثمارها بفتح الحوار مع إسماعيل مجدداً ليصل ، بعد جهد ، إلى أنهما ، مهما اختلفا في شأن التعاون مع الإنكليز ، يتفقان على أمر واحد هو بغضهما للأتراك .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٦)

يوم ودّع يوسف أصدقاءه الثلاثة الذين رافقوه حتى المرفأ – حيث كان في انتظاره قارب مهيّأ لإيصاله إلى الباخرة الراسية في عرض البحر الأحمر – خاطب إسماعيل وهو يعانقه :

– آمل أن ألتقيك قريباً في رابغ .

فأجابه إسماعيل متهرباً مما يرمي إليه بكلامه :

– رافقتك السلامة .

بيد أن فايد العايد طمأن يوسف بقوله :

– سيلتحق بك قريباً ؛ فأمامه فرصة لا تعوّض ليشفي غليله من أعدائه الأتراك!

وبرغم أن إسماعيل لم يلتحق بيوسف في مدينة رابغ إلا أن فايد لم يجانب ، في تفاؤله ، الصواب ؛ فقد تم ذلك اللقاء عقب مرور أسابيع في ميناء (الوجه) بعدما بات اسم إسماعيل يتردد على ألسنة الجميع!

لم يبقَ يوسف في رابغ إلا ثلاثة أيام انتقل بعدها ، بمعية سريته ، إلى ميناء ينبع الذي أضحى قاعدة لجيش الثورة الشمالي بقيادة الأمير فيصل ، ثالث أنجال قائد الثورة العربية الشريف حسين ، في حين كان أبناء الشريف الثلاثة الآخرون – علي وعبد الله وزيد – يطبقون بقواتهم على المدينة محاصرين بذلك الآلاف من الجنود الأتراك بقيادة فخري باشا : فالأمير علي كان يرابط بمقاتلي الجيش الجنوبي في رابغ محاصراً

المدينة من الجنوب . أما الأمير عبد الله فقد اتخذ من موقعه الصحراوي في الحناكية ، الواقعة على بعد ثمانين ميلاً إلى الشمال الشرقي من المدينة ، مقراً لقوات الجيش الشرقي المكوّن من مقاتلين غير نظاميين قاطعاً بذلك خطوط الإمداد القادمة من الخليج . وكان أصغر أبناء الشريف حسين الأمير زيد يقود قواته الخاصة هنا وهناك مستعيناً بأفراد العشائر في مهاجمة القوافل التي تكون في طريقها إلى المدينة بالمؤن ؛ فيشتبك معها في معارك سريعة تكون حصيلتها مجاميع من الأسرى يبادر بإرسالهم إلى أخيه فيصل وفي رفقتهم عدد من الإبل وكميات لا بأس بها من السلاح والعتاد .

في ميناء ينبع المحاط بالأسوار والأبراج والقائم على شعب مرجانية مرتفعة التحق يوسف بواحدة من تلك السرايا التي كان عدد من الضباط قد شرع في تشكيلها آنذاك من سكان المنطقة مع دعمها بالأسرى العراقيين القادمين من الهند . وكان الضابط العراقي مولود مخلص قد تولّى تدريب مجموعة من هؤلاء المتطوعين تدريباً يومياً ضارياً كاد يودي ببعضهم ، بيد أن النتيجة كانت مثمرة ؛ فقد جعل منهم وحدة مثالية للاستطلاع ، لا تكاد تضارع في خشونتها وقوة تحمّلها حتى أنها أثارت إعجاب المغامر البريطاني لورنس[١] الذي

(١) لورنس (العرب) : أحد أعضاء المكتب العربي الذي أنشأته وزارة الخارجية البريطانية في شهر شباط ١٩١٦ في القاهرة لأجل جمع المعلومات عن البلاد العربية ، وقد انضم إلى ثورة الشريف حسين عقب أسابيع من إعلانها ، وأصبح من أهم مستشاري الأمير فيصل (نجل الشريف حسين) ، ولازمه حتى تحرير دمشق من العثمانيين ، وقد قاد العديد من حرب العصابات ضد محطات سكة حديد الحجاز ـ دمشق . وقد وصف تلك الأحداث في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التحق منذ أسابيع بالثورة كضابط ارتباط ومستشار للأمير فيصل ، فقرر مكافأتهم بتوفير دواب لهم ، فبعث بهذا الشأن طلباً تلغرافياً إلى مصر لإرسال باخرة على وجه السرعة محمّلة بالبغال .

لم يكد يوسف ينهي ، مع زملائه ، التدريبات حتى تلقّوا تعليمات تقضي بإخلاء ينبع والتخييم في وادٍ قريب استعداداً للقيام بحملة كبرى بعد أيام . وسرعان ما كاد ذلك الوادي يضيق على سعته بآلاف المقاتلين الذين أخذوا يتقاطرون عليه وسط صخب الإبل والبغال والخيول ليحتلوا مواضعهم تحت ظلال النخيل وأشجار الأثل القليلة المتناثرة هنا وهناك حيث انتظموا على شكل مجموعات انهمكت كل واحدة منها بتجميع الحطب وإشعال النيران ليعدوا عليها قهوتهم وطعامهم ولا حديث لهم ، في أثناء ذلك ، إلا تقصّي الهدف المستتر من وراء هذه الحملة : فمن قائل إن الأمر لا يعدو أن يكون مهاجمة المدينة للتخلّص من الحامية التركية التي بقيت صامدة حتى الآن في وجه الثورة في الحجاز . بيد أن هذا الاحتمال سرعان ما كان يُسفّه ؛ ففضلاً عن استحالة الإقدام على قصف المدينة ، التي يثوى فيها مرقد الرسول ، لا طاقة لهم على المجازفة بمغامرة على هذه الشاكلة ؛ فجيش فخري باشا يتكون من آلاف المقاتلين الأتراك المزودين بالمدافع . وكانوا يرجحون احتمال أن يكون الهدف مهاجمة محطات سكة حديد الحجاز التي تكاد تكون شريان الحياة الوحيد للجيش المحاصر ؛ فعن طريقها يتمّ تزويدهم بالمؤن والذخائر والمقاتلين . إلا أن هذا الاحتمال سرعان ما كان يرد بدوره ؛ فعمل على هذه الشاكلة لا يقوم به جيش مؤلف من آلاف المقاتلين ، أنما هو من شأن مجموعات صغيرة مُدرّبة على أعمال من هذا النمط تضرب وتنسحب بأسرع ما يمكن ؛ وذلك ما

كان الجميع يعلم أنه في طور الإعداد له عن طريق الضابط البريطاني جارلند الذي شرع في تأليف قوة عرفت باسم (مفرزة التخريب) .

وسرعان ما سرت بينهم شائعة بدت الأرجح احتمالاً : فقد قيل إن الأمير فيصل قرر أن يتخطّى نطاق تحركاته المحدودة حول المدن والقرى المحيطة بمكة والمدينة وذلك بالاندفاع شمالاً نحو ميناء (الوجه) لتحريره من الأتراك ممهداً بذلك السبيل لتحرير ميناء العقبة واتخاذه قاعدة ينطلق منها في مغامرة كبرى تنتهي بدخول دمشق . بيد أن هذه الشائعة لم تنجُ بدورها من اعتراضات : ذلك لأنه لا يسعهم ، وهم جيش غالبية أفراده من البدو الذين لا يزالون يتعاملون مع الحرب كـ(غزو) يأتي عليهم بـ(الغنائم) ، لا يسعهم الانتصار في مغامرة بهذا الحجم . . . ثم كيف يتم لهم ذلك الانتصار ببنادق قديمة ومدافع من طراز كروب البالية؟ وفي حالة حصول ذلك ألا يحتمل أن يستثمر فخري باشا إخلاء ينبع ، المرفأ الثاني في الحجاز من حيث الأهمية ، من المقاتلين فيعمد إلى احتلاله لينحدر منه جنوباً نحو رابغ ومكة للإجهاز على الثورة في مهدها؟

أسئلة شارك يوسف زملاءه في طرحها وهم يصطلون على لهب نيران كانت تكشف ليلاً سعة ذلك الوادي وامتداده ؛ فقد كانت ترقط المدى الشاسع بآلاف النقاط المضيئة حيث ألسنة النار تتصاعد في الجو الرطب دون أن تنثني أو تميل مضيئة هيئات الإبل الباركة وقد عقدت قوائمها وهي ترغي مستاءة منشغلة ، في الوقت نفسه ، بتحريك أشداقها المزبدة مجترّة ما اختزنته باستمتاع . وكان جبل رضوى ، الواقع خلف ينبع ، آخر ما يلوح لعيني يوسف قبل أن يستغرق في نومه وقد غطت سحب الضباب قاعدته العريضة ، في حين قرّب نور القمر قمته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشاهقة فبدت وكأنها على مرمى حجر منه .

ذات ليلة جفل يوسف من نومه على شعور غامض باهتزاز الأرض من تحته . وحين انثنى جالساً وسط أغطيته الثقيلة لمح بعيداً إلى الشرق وهجاً خافتاً يضيء الأفق استمر دقائق قبل أن ينطفئ ليطبق الظلام من جديد .

ترى أتكون مفارز التخريب بدأت عملها ففجرت أول محطة من محطات سكة حديد الحجاز؟

ساءل نفسه وهو يعاود الاضطجاع لافاً دثاره المثقل بالرطوبة حول جسده سعياً منه ليخلد إلى النوم ثانية ، بيد أن الطبول أخذت تقرع هذه المرة إيذاناً بالاستعداد للمسير ، فوثب واقفاً لينتهي من إعداد نفسه للتحرك خلال لحظات ، إذ سارع إلى الانضمام إلى الجنود الآخرين الذين كانوا قد أعدوا بدورهم رواحلهم للسفر ، مشاركاً إياهم بتحية الأمير فيصل حين مروره بهم فوق ناقته وهو بملابسه البيض حيث الهتافات تعالت من كل جانب بحق الأمير وأسرته الشريفة . وكان يسير إلى جانبه ، على ظهر راحلة ، أحد الأشراف وهو بعباءة حنائية وكوفية حمراء ، يوازيه في الجانب الآخر لورنس بملابسه العربية ، وسار خلفهم ثلاثة فرسان يحملون ألوية حمراً تتهدل منها خيوط بيض حريرية . ووسط جئير النياق عادت الطبول تقرع منبهة إذ انطلق أحد الشعراء صادحاً بأهزوجة في مدح الأمير أخذ الجميع من بعده يرددونها بايقاعات منغومة .

وامتلأ الوادي بسيل المقاتلين الذين ساروا في خط طويل لا يدركه البصر ، متخذين وجهتهم نحو وادي مسارح ، الواقع على بعد خمسة عشر ميلاً شمال ينبع ، ليعسكروا هناك ليلتهم حيث أشيع بين

الجميع أن الأمير يحرص على الإبطاء في الابتعاد عن ينبع وذلك ليمنح شقيقه الأمير عبد الله ، الذي بعث بطلبه ، الوقت اللازم للقدوم من الحناكية ليرابط بمقاتليه في وادي العيص محيلاً بين فخري باشا والتفكير باحتلال مكة . وعلى مدى أيام متلاحقة استمر حشدهم الهائل في تحركه شمالاً ساحباً معه بضعة مدافع كانت تتطلب منهم بذل الكثير من الجهود ليخترقوا بها تلك الأراضي الوعرة التي تكتنفها الوديان والكثبان الرملية والأشجار الشائكة التي توهم الناظر إليها بكونها يابسة لولا اخضرار غصن هنا وورقة هناك .

وبقي يوسف ينتبه من نومه ، في أغلب الليالي ، على أصداء تلك الانفجارات النائية تواكب مسيرهم إلى الشمال ، ومعها أخذ رجال الكشّافة العسكرية يتقدمونهم لرصد الأخبار وتحديد مواقع العيون والآبار ، وكان هؤلاء الكشافة يؤكّدون أن مفرزة التخريب قد شرعت فعلاً بتفجير تلك المحطات .

كانوا يخيّمون ليلاً بالقرب من عيون الماء التي سبق لكشافتهم أن حددوا مواقعها ليلجأوا ، لشدة إرهاقهم ، إلى النوم حال انتهائهم من تناول طعامهم واحتساء قهوتهم . وكانوا يستيقظون فجراً على صوت المؤذن وهو يردد الأذان فوق تلة من التلال ، وبعدما يؤدون الصلاة يهيئون أمتعتهم في انتظار خروج الأمير فيصل من خيمته إيذاناً باستئناف المسير ؛ إذ ينحدر جمعهم الحاشد إلى بطون الوديان التي تبدو ساكنة شديدة الحرارة تقوم في جنباتها أشجار الأثل والسنط والشجيرات الشوكية الغبر ، تعقبها تلال رملية تمتد على مدى البصر .

ومكثوا في منطقة بئر الوحيدي يومين تسلّم في أثنائها بعض أفراد العشائر مرتباتهم الشهرية وتزودوا بالمؤن والماء . وشوهد الأمير فيصل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جالساً وسط كبار موظفيه ورجال أركانه الذين كانوا خليطاً من موظفين سبق لهم العمل في الإدارة العثمانية ، ومن ملاكين معروفين انسلّوا هاربين من الشام بعد صدور أحكام بإعدامهم . وكان هناك أيضاً طبيب القيادة العامة للثورة الذي كان دائم التفقد لصندوقه المتخم بقواريره وعقاقيره الطبية .

في اليوم التالي اجتازوا بساتين الغواشية ليسيروا بعدها في حقل بركاني مدة ساعة انتهت بارتقائهم سفوحاً رملية هبطوا منها إلى وادٍ واسع تحفّ به بساتين النخيل حيث تقع قرية سمنة .

أناخ الأمير فيصل راحلته على حافة الوادي ، فسارع رجاله إلى فرش البسط ليجلس عليها وسط حاشيته ، في حين انصرف العبيد إلى إعداد القهوة لهم . وأناخ آلاف المقاتلين رواحلهم على امتداد مسافة طويلة ، وانشغلوا بتجميع الحطب لإعداد الطعام . وقبل أن يتابعوا سيرهم في اليوم التالي بعث الأمير فيصل برسله إلى شيوخ القبائل القريبة من ميناء (الوجه) منبئاً إياهم بأن جيشه سيكون قريباً عندهم ، طالباً منهم إعداد أنفسهم لمشاركته في تحرير ذلك الميناء .

كان هدفهم التالي الوصول إلى موقع أبو زريبات حيث قرروا التحشّد في وادي حميص الذي هو آخر مورد ماء لهم في طريقهم إلى الوجه ، فساروا في ذلك الاتجاه تحت وهج شمس تبهر بأشعتها البصر وهي تنعكس على ذرات الرمل والأحجار الصوانية . واجتازوا في طريقهم وادي حمد مخترقين كثافة أدغال متيبسة مغطاة بطبقات طمي جاف أثارت من حولهم سحابة غبار غطت ضوء الشمس . وكانت عيون ماء أبو زريبات تقع أمامهم إلى الشمال ، فخيموا هناك عند قاعدة جبل رعل وتزاحموا بشراً ودواباً على المياه ، وكل واحد

منهم يحاول أن يسبق الآخر في إطفاء عطشه .

وقبل أن يواصلوا السير صباح اليوم التالي حمل رجال الكشافة إليهم أخباراً طيبة مفادها أن حاكم (الوجه) العثماني فرّ على ظهر جمله تاركاً وراءه حامية تركية لا قدرة لها على الصمود أمامهم دقائق . ولحظة قوّضوا الخيام هبّتْ في وجوههم رياح شمالية باردة حاملة إلى أسماعهم لعلعة رشاشات متقطعة رددت الصحراء أصداءها لحظات قبل أن يخيم سكون تعلقت الأبصار ، في أثنائه ، بطائر جارح كان يحوم فوق رؤوسهم في زرقة السماء .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٧)

حينما لم يبقَ بينهم وبين الوصول إلى (الوجه) سوى مسافة قصيرة صدر إليهم الإيعاز بالتقدم على شكل سرايا قتالية في نظام مكشوف تفصل خمس ياردات كل سرية عن غيرها ، تتبعها سرايا مساندة . لكنهم سرعان ما اكتشفوا أن الأمر لم يكن يتطلب منهم تلك الاستعدادات ؛ ذلك لأنه لم يجابههم في تقدمهم سوى مجاميع مشتتة من جنود أتراك مذعورين سارعوا بوضع خاتمة لمقاومتهم اليائسة . حتى إذا ما تسلقوا آخر مرتفع اعترض سبيلهم لاحت لهم بلدة (الوجه) في الأسفل تمتد تحت أبصارهم مستسلمة دون مقاومة بعدما كانت بوارج البحرية البريطانية قد أمطرتها بمئات القذائف التي انهالت على البيوت والمتاجر والحوانيت على مدى ساعات تاركة لرجال العشائر الإجهاز على ما لم تنل منه ؛ فقد بدت البلدة ، تحت عيني يوسف ، خربة بشكل مريع : فالسلب والنهب طالا كل زاوية فيها ؛ فعقب تصفية من تبقى من رجال الحامية التركية كان البدو قد انصرفوا إلى اقتحام البيوت والحوانيت ، محطّمين في طريقهم الأبواب والصناديق والخزائن ، منقّبين في الغرف بحثاً عن غنائم . وكان يوسف يجابه ، أينما تحرك وسط زملائه ، بالسكان يرمقونهم بنظرات عدائية تنذر بالشر ، ولولا الحزم الذي أخذهم به مولود مخلص ، الذي عُيّن حاكماً للبلدة ، لوقع ما لا يحمد عقباه .

لم تكد تمضي أيام حتى وجد يوسف الحياة في البلدة تأخذ رويداً رويداً طابعها المألوف الباعث على الاطمئنان : فالأمير فيصل نصب الخيام الخاصة به وبحاشيته وحرسه قرب البحر الأحمر فوق مرتفع مرجاني ينحدر شرقاً لينتهي بوديان عريضة تزاحم فيها بحر من خيام لا آخر له حيث المقاتلون كانوا في حركة دائبة لا تعرف السكون . وكانت المدافع قد وضعت إلى الجنوب ، وأقيمت بجوارها خيام طاقم المدافع الرشاشة في صفوف منتظمة ربطت قربها البغال ، في حين تركت مئات الإبل ترعى في سهل مكشوف لا يحده البصر .

وداخل يوسف الشعور بالنشوة والزهو يوم تمّ فيه نصب محطة لاسلكية متنقلة فوق ربوة يعلوها هوائي شاهق . ولحظة هدر مولّدها الكهربائي قبيل الغروب بات في وسعهم استقبال عشرات البرقيات على مدار الساعة بثلاث لغات وبعشرين نوع مختلف من رموز الجيش .

وجاء انضمام القائد العراقي المشهور جعفر العسكري إلى صفوف الثورة تتويجاً لتلك الأفراح ؛ فقد عهد الأمير فيصل إليه بإنشاء قيادة عسكرية لتنظيم خطط الحركات في الجيش الوليد : فأصدر أوامر مفصّلة إلى رؤساء القبائل بضرورة الامتناع عن القيام بتحركات دون استشارة تلك القيادة والحصول على رأيها . كما أوعز إلى ضباطه بأهمية أخذ المقاتلين بالتدريبات اليومية المعهودة التي دونها لا تقوم للجيوش النظامية قائمة ؛ فأصبح يوسف ملزماً بمغادرة خيمته صباح كل يوم ليلتحق بأفراد سريته التي كانت واحدة من عشرات السرايا التي توزعت وسط تلك الوديان العريضة لتنهمك على مدى ساعات في تدريباتها المتنوعة على فنون القتال . حتى إذا ما تجمعوا ظهراً حول أوعية الطعام ، وقد أنهكهم الجوع ، تبادلوا آخر الأخبار ولا سيما تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المتعلقة بانصراف الأمير فيصل إلى تعزيز صلاته بالعشائر التي تقع مضاربها وأماكن تجوالها إلى الشمال من (الوجه) سعياً منه إلى تحريضها ضد الأتراك والسماح لأفراد جيشه بالتغلغل بينها ليشكّلوا تهديداً مباشراً لخط حديد الحجاز الممتد بين تبوك ومعان .

ولم يكن يخفى على يوسف وزملائه أن هدف الأمير فيصل الرئيس من هذه التحركات يتعلق بالاتصال بالأمير نوري الشعلان أمير عشائر الرولة الواسعة النفوذ ؛ ذلك لأن كسْب ولاء هذا الزعيم القبلي الكبير إلى صفوف الثورة كان يعني فتح وادي السرحان أمام الجيش العربي الذي سيتسنى له سلوك طريق مشهور يمتد من الجوف شمالاً إلى الأزرق القريب من جبل الدروز في سوريا ، كما سيصبح في وسعهم الوصول إلى مضارب عشيرة الحويطات الشرقية وزعيمها عوده أبو تايه ذلك الفارس الذي حاز سمعة أسطورية في البوادي : (فقد تزوج ثماني وعشرين مرة ، وجرح ثلاث عشرة مرة حتى لم يبقَ عضو من أعضائه لم يصب بجرح رصاصة أو سيف أو خنجر ، وقتل بنفسه خمسة وسبعين في معاركه التي خاضها ضد أعدائه . أما قتلاه من الأتراك فلم يكن يحصرهم العد ؛ لذا كان يبعدهم من سجلات بطولاته)!

وكان توافد زعماء تلك القبائل على الوجه برهاناً على نجاح الأمير فيصل في سعيه ؛ إذ لم يمر يوم لم يشارك يوسف زملاءه في استقبال أحد زعماء العشائر المشهورين الذين كانوا يقدمون عادة على صهوات الخيول أو النياق يحيط بهم جمع من فرسان مدججين بالبنادق ، تتقاطع أحزمة الرصاص على صدورهم ، كانوا يترجّلون من دوابهم عند قاعدة المرتفع الذي يقوم مخيم الأمير فيصل فوقه حيث تجري الأمور

المعهودة التي كان يوسف على علم بها : مشاركة الأمير في تناول وجبة غداء دسمة ومن ثم القسم بالقرآن يمين الولاء للثورة .

وعمت هزّة فرح آلاف المقاتلين يوم أشيع أن عوده أبو تايه وصل إلى الوجه ، فاندفع يوسف مع حشود المندفعين ليرابط قرب مخيم الأمير فيصل متسقّطاً أخبار اجتماع الرجلين . وسرعان ما تناقل الجميع كيف أن عوده جفل في أثناء المأدبة التي أقيمت له لينهض واقفاً وهو يصيح :

- سامحني الله!

وسارع بمغادرة الخيمة ، ولم يقفل عائداً إليها إلا بعدما أخرج طاقم أسنانه الصناعية من فمه ليعمد إلى تحطيمه على صخرة وهو يردد بأسى أنه كاد يأكل زاد الأمير فيصل بأسنان تركية!

وتناقل الجميع عمله هذا بإكبار ؛ ذلك لأنه تخلّص من ذلك الطاقم الذي ركّبه له الطبيب الخاص بجمال السفاح وبأمر منه كعربون صداقة للعثمانيين .

وعلى امتداد الأيام التي أعقبت رجوع أبو تايه إلى عشيرته أصبح خبر ذلك الاتفاق الذي عقده الأمير فيصل معه مدار أحاديث وتخمينات عديدة تبادلها يوسف مع زملائه : فقد أشيع بينهم أنه قد تم تحديد فصل الربيع موعداً لإرسال وفد إلى عشيرة الحويطات مزود بالسلاح والمتفجرات والأموال لأجل تجنيد وحدة هجانة من أبنائها تتولى الهجوم على العقبة من حيث لا يتوقع الأتراك ؛ ذلك لأنه لن يخطر لهم أبداً أن مواقعهم القائمة على رؤوس تلال منيعة ستهاجم من قبل قوة قادمة من بعد ست مئة ميل!

وكان الجميع يؤكدون أن لورنس هو صاحب هذه الخطة ؛ فقد اعتاد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن يذكّر المحيطين به أنه (يتوجب على الجيش العربي توسيع جبهته إلى أكبر مساحة ممكنة لغرض فرض أطول خط دفاعي على الأتراك لإنزال أضخم الخسائر المادية بهم) . بيد أن فرحة يوسف الحقيقية التي لا تحدّها الحدود تمثّلتْ بتلك الظهيرة التي كان قد انفرد فيها بخيمته للاستمتاع بقيلولة خاطفة عقب تناوله الغداء ؛ فقد انتبه من إغفاءته على صوت مألوف خارج الخيمة يسأل عنه ، وحين أُجيب أنه وصل إلى بغيته علّق صاحب الصوت قائلاً إنه قضى ساعات وهو يتنقل بين الخيام بحثاً عن هذه الخيمة ، فأجابه صوت آخر ، بدا بدوره مألوفاً ، بشيء ما أثار ضحك الرجلين ، أعقبه وقع خطواتهما وهما يدنوان من خيمته .

ترى من الذي يسأل عنه؟

ساءل يوسف نفسه وقد بارحه النعاس نهائياً . حتى إذا ما مرت لحظات اعتكر جوف الخيمة على قامة رجل وقف عند فتحتها حاجباً وهج الشمس الساطع من التدفق إلى الداخل .

بدا بملابس المقاتلين الخاكية التي كادت تضيق بجسده الممتلئ وقد اعتمر الكوفية والعقال المعهودين ، وثمة بندقية معلقة بإحدى كتفيه ، وناظور يتدلى من عنقه .

أيعقل أن يكون إسماعيل؟

ساءل يوسف نفسه بين مصدّق ومكذّب ، حتى إذا ما خفّض الرجل رأسه وهو يدخل تأكد من صحة تخمينه ؛ فها هو وجه إسماعيل الوسيم وقد ازداد تورداً ، تتألق وسطه عيناه الصفراوان برموشهما السود الكثيفة التي تكاد تضفي عليه جمالاً أنثوياً لافتاً للانتباه . ولم يشعر يوسف إلا وقد وثب تلقائياً ليتعلق بعنق إسماعيل

شاعراً بألم في صدره بسبب انغراز الناظور فيه ، موسعاً إياه لثماً ليقوده بعدها إلى البساط دون أن يكف عن تلمّسه كأنما ليتأكد من صحة ما يرى!

– وأنا؟ ألا تراني جديراً بجزء من ترحيبك؟

سأله الرجل الآخر مازحاً ، فاستدار يوسف ليعانق هذه المرة رمزي الخالدي مسوغاً هفوته بقوله :

– أعذرني على ما حصل ؛ إذ إن آخر ما كنت أتوقعه ليس لقاء إسماعيل فحسب ، بل رؤيته بالزي العسكري الخاص بالجيش العربي!

– لا تتسرع في إصدار حكمك عليّ يا يوسف ؛ فأنا لا أزال كما عهدتني في جدة أتشكك بصدق الإنكليز في دعمهم لهذه الثورة .

هتف إسماعيل معترضاً ، حتى إذا ما تربع على البساط وسط صديقيه أردف وهو يتخلص ، بهزة من كتفه ، من حزام البندقية :

– . . لا بل أستطيع الآن الجزم بصحة تلك الشكوك جملة وتفصيلاً ؛ ذلك لأن الإنكليز فضحوا صراحة هدفهم المستتر من هذا الدعم الزائف ؛ إذ إنهم يسعون لتحقيق غاية معينة سينكشف أمرها في النهاية ، في حين يسعى العرب لغاية أخرى لا يستطيعون الوصول إليها دون دعمهم!

وتساءل وهو يومئ برأسه نحو رمزي :

– أتدري بسبب قدومنا ، نحن الاثنين ، إلى الوجه؟ ذلك لأننا قدمنا بصحبة مفرزة التخريب التي يقودها الضابط الإنكليزي جارلند . . . انتظر . . سأخبرك لاحقاً بكيفية انضمامنا إلى هذه المفرزة . . . المهم هو أن مقدمنا إلى هنا يعود لمضاعفة أعمال التخريب في سكة حديد الحجاز ، والإمعان في مهاجمة محطاتها وذلك لنحول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بين فخري باشا والتفكير بسحب جنوده المتحصنين في المدينة!!

فقاطعه يوسف معترضاً :

- انتظر . . . انتظر . . . فأنا عاجز عن فهم مغزى كلامك ؛ ذلك لانطوائه على شيء من الالتباس : فمن المعروف أن هذا القائد التركي يتّصف بالعناد ، ويصرّ على البقاء في المدينة مهما كلفه الأمر ، فما معنى منعه عن التفكير بالانسحاب وهو أول الرافضين لهذه الفكرة؟ وفي حالة حصول هذا الأمر المستحيل ما مسوغ سعيكم لمنعه من القيام بهذا الانسحاب؟!

وأستطرد يوسف في كلامه موضحاً وهو يتنقل بعينيه بين صديقيه :

- لقد مثّل تشبث فخري باشا بالبقاء في المدينة بجيش قوي مزود بعشرات المدافع شوكة في خاصرة الثورة التي اضطرت إلى تشتيت جهودها بمرابطة الجيش الشرقي والجيش الجنوبي حول المدينة والامتناع عن الانضمام إلى الجيش الشمالي للعمل معاً على تحرير دمشق ؛ وذلك خوفاً من أن يستثمر فخري باشا أية فرصة تسنح له للانقضاض على مكة للإجهاز على الثورة ؛ فما معنى العمل على منع ذلك القائد من سحب جيشه؟!

- أخبره!

أهاب إسماعيل برمزي وهو يبتسم ببرارة ، فمضى هذا يتحدث ، بلهجته الفلسطينية القريبة إلى القلب ، موضّحاً أن الإنكليز ضبطوا مؤخراً برقية مطوّلة مرسلة من جمال باشا السفاح إلى فخري باشا تحتوي على تعليمات صادرة من قبل وزير الحربية التركي أنور باشا ومن هيئة الأركان العامة الألمانية تأمره فيها بإخلاء المدينة فوراً والانسحاب

بقواته شمالاً نحو تبوك ومن ثم معان لإقامة خطوط دفاعية جديدة هناك .

فصاح إسماعيل وقد خرج عن طوره :

- أعلمتَ الآن سبب حرصهم على بقاء ذلك الجيش التركي الجرار في المدينة؟ إنهم يخشون تمركزه في معان لأن ذلك سيهدد تهديداً مباشراً ميمنة جيشهم العامل في قطاع بئر السبع ، كما أن ذلك سيحرر جيش الثورة الشرقي والجنوبي فيصبح في وسعهما الانضمام إلى الجيش الشمالي الذي لا يخفى أن هدفه الرئيس هو تحرير دمشق ، في حين يعمل البريطانيون - وبمعونة حلفائهم الفرنسيين - على حصر الثورة في الجزيرة العربية فقط!

وهتف رمزي مؤيداً :

- وبسبب ذلك لم يستجيبوا لإلحاح الأمير فيصل المتكرر بتزويده بمدافع حديثة من طراز (شنيدر٦٥) برغم وجود أعداد منها لدى حليفهم الفرنسي بيرموند تركها في السويس نهباً للصدأ والغبار!

- في هذه الحالة ما مسوغ انضمامك إلى الثورة؟

تساءل يوسف وقد فاض به الكيل ، فمضت لحظات صمت انشغل إسماعيل في أثنائها في العبث بشريط ناظوره وقد استغرق في تفكير طويل أنهاه بقوله :

- آمل ألا تتوهم بأن فايد العايد نجح في إقناعي بهذه الفكرة بعد مغادرتك جدة ؛ ذلك لأنني خرجتُ في أعقابك بأيام ومعي رمزي ، فوصلنا إلى رابغ وقد بيّتُ النيّة على دعم قرار الأسرى العراقيين الذين كان أغلبهم من رأيي ؛ يصرّون على عدم الانضمام للثورة مفضّلين على ذلك العودة طائعين إلى معسكرات أسرهم في الهند . بيد أنني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فوجئت بنبأ زلزل كيـاني ؛ فقد علمتُ باصطدام صديقي جـابر البنا ، الذي كان يقود مجموعة من زملائه ، بقوة تركية في وادي فوره ليقعوا في أسـرها عـدا واحـداً منهم اسـتطاع الإفـلات والوصـول إلى رابغ ، فتهيأت قوة من الجيش العربي لملاحقة الخاطفين على أمل تحرير هؤلاء الأسرى ، فلم أملك سوى الانضمام إليها ، بيد أن تحرّكنا جاء متأخراً جداً ؛ ذلك لأننا ضيّعنا وقتاً ثميناً في اجتياز البساتين المحيطة بالبلدة لنتوغل بعدها في سهل تهامة حيث يمر طريق الحج الشهير . وأسهم الأدلاّء بإضاعة المزيد من الوقت قبل أن يقترحوا علينا ضرورة التوجه نحو قرية خريبه الواقعة على مسيرة ساعتين ، حتى إذا ما وصلنا إلى هناك فوجئنا بأسراب من طيور جارحة أوشكتْ على الإجهاز على جثث هؤلاء الأسرى الذين كان الأتراك قد ذبحوهم ذبح النعاج!

واستطرد وهو يصرف بأسنانه :

– وهكذا قررتُ ، فور الانتهاء من دفن جابر وزملائه في وادي فوره ، الانضمام إلى الجيش العربي حال وصولي إلى رابغ ؛ فبرغم كراهيتي للحروب والقتال وسفك الدماء آمنتُ أن عدواً يعمد إلى قتل أسراه يجب أن يُقتل بدم بارد حيثما وجد!

(٨)

منذ ذلك اليوم أصبحت خيمة يوسف محطّ لقائه إسماعيل ورمزي ، كما كان شأنهم في بيت فايد العايد في جدة ؛ لا يكاد الاثنان يعودان من إحدى غاراتهما على خط حديد الحجاز حتى كانا يتخذان سبيلهما نحو تلك الخيمة ليقضيا فيها أياماً قبل أن يستدعيا للاشتراك في حملة جديدة . وكان يوسف يتوقع منهما أن يزجيا معه ساعات ليالي الشتاء الطويلة الباعثة على الملل بالتحدث عما يقومان به ، ولكنْ عبثاً ؛ فإسماعيل كان يسارع بالتوجه إلى البحر ليستحم في مياهه المتجلدة التي كانت تجعل أسنانه تصطك في فمه حين عودته إلى الخيمة ؛ فكان يندس تحت أغطية ثقيلة ، وقد لف كوفية حول رأسه ، ليشرع في الشخير حالما يمس رأسه الوسادة!

أما رمزي فقد بقي كما عهده يوسف في جدة : ينهمك في تدخين السجائر مراقباً ، بنظرات شاردة ، حلقات الدخان وهي تتصاعد في أثر بعضها لتتلاشى في فضاء الخيمة . ولم تكن بيوسف حاجة ، بطبيعة الحال ، إلى سؤاله عما يشغل تفكيره ؛ ذلك ليقينه أنه سيجابهه بالرد المعهود : أنه قلق على فاطمة وأشقائه الصغار في القدس . بيد أن يوسف لم يكن يعدم الوسيلة التي تكفل له التخفيف ، بعض الشيء ، من معاناة صديقه ؛ فكان يعمد إلى تذكيره بأن من المؤكد أن أشقاءه قد كبروا بعض الشيء في أثناء سنوات غيابه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عنهم ، وكذلك الأمر مع فاطمة التي يفترض به الآن التفكير جدياً بمستقبلها بعدما أضحت آنسة . وكان يختم كلامه ذاك بترديد جملة كان يدرك مبلغ تأثيرها السحري على رمزي :

– ثم لا تنسَ أن بلدة الوجه أقرب إلى القدس من جدة!

فكانت أسارير رمزي تنفرج ؛ فيبادر إلى سحق عقب سيجارته بالأرض مردداً كلام يوسف كالصدى :

– الأمر كما تقول : فبلدة الوجه أقرب إلى القدس من جدة .

وهكذا كان يوسف يسارع إلى اغتنام الفرصة السانحة لإشباع فضوله وذلك بحثّ رمزي ليحدثه بتفاصيل ما يقوم به بصحبة إسماعيل ضمن (مفارز التخريب) ؛ فالعمليات التي كانت تقوم بها هذه المفارز أصبحت المحرّك الرئيس لهجمات متلاحقة باتت تُعرف باسم (حرب المحطات) . ولم يكن رمزي يستطيع إخفاء إعجابه بثلاثة ضباط بريطانيين تلقّى تدريباته على أيديهم من جملة ضباط آخرين أرسلوا إلى الشريف حسين كمدربين كان لهم الدور الرئيس في إنشاء تلك المفارز والعمل على تدريبها على أحسن وجه ؛ فبرغم أنه كان يشارك إسماعيل في شكوكه حول الدوافع الحقيقة الكامنة وراء حماسة هؤلاء في الإسهام في هذه الحرب بجانب العرب ، لكنه لم يكن يملك إلا الاعتراف بصدق تفاني هؤلاء الضباط في عملهم . وكان لورنس في مقدمتهم ؛ فبرغم الشهرة التي نالها بملازمته اليومية للأمير فيصل بحكم عمله مستشاراً له ، بيد أنه لم يكن يعفي نفسه من الإسهام في تلك العمليات التي قد تكلفه حياته : تراه دائم التنقل هنا وهناك وهو بصدد خوض مغامرة جديدة ، يسير بخطى خفيفة كأنه لا يمس بقدميه الأرض ، وملابسه العربية الفضفاضة تهفهف حول جسده

الضئيل ، وثمة عقال مقصب يعلو كوفيته التي تنافس ببياض لونها بياض وجهه المستطيل المشرّب بالحمرة والذي تومض فيه عينان زرقاوان تتألقان بنظرة نفاذة لا يكاد يستقر بها على وجه محدثه إلا لحظة خاطفة .

وكان هناك جارلند الذي اشتهر بمقدرته على كسب قلوب أفراد مفرزته ليس بسبب إتقانه اللغة العربية فحسب ، بل لحرصه على تعليمهم كيفية نسف الخطوط الحديدية بالديناميت ، وطريقة زرع الألغام الموقوتة وتحديد موعد انفجارها تحت الهدف المنشود . أما نيوكمب فبلغ عشقه لعمله الحد الذي جعل المحيطين به يرددون عنه طرفة مفادها أنه لا يستطيع النوم إلا ورأسه مستقر على الخط الحديدي . وكان من دأب هؤلاء البريطانيين الثلاثة الخروج بمفارزهم لمهاجمة مواضع سبق لهم تحديدها على الخرائط الخاصة بالخط الحديدي . وكان إسماعيل ورمزي يعملان ، في الغالب ، تحت قيادة جارلند الذي كان يحرص على الإعداد لحملاته بتوفير الكميات اللازمة من المتفجرات والذخائر الضرورية لبنادقهم ولمدفعهم الرشاش من طراز (لويس) ، مع التزوّد بأكياس من الطحين والتمر تكفيهم الأيام التي تستغرقها العملية .

كانوا يغادرون الوجه فجراً متجهين بقافلتهم نحو الهدف المنشود ، يتقدمهم عادة مرشدون وقصاصو أثر من أبناء العشائر القاطنة في تلك الأماكن ، وهم في الغالب فتيان متحمسون طمعاً بالغنائم ، يمتازون بقدرة عجيبة على التحمل والجلد ، يسيرون حفاة الأقدام على الصخور والجلاميد المدببة على مدى ساعات دون أن ينال التعب منهم ، لأجسادهم النحيلة الضامرة قدرة الماعز ومكره في تسلق سفوح التلال والمرتفعات .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت المفرزة تعتمد عليهم للتزود بالماء الذي يستحيل ، دونه ، اجتياز الصحراء ؛ يعرفون مواقع الآبار والعيون معرفتهم لخطوط أكفهم ، يحددون سلفاً الوقت اللازم للوصول إلى الموضع الذي سيستريحون فيه بعد قطعهم المرحلة المطلوبة حيث تكون خضرة أشجار النخيل أول ما يلوح لهم عند خط الأفق قبل أن يشخّصوا أشجار الأثل والسدر والسنط ونباتات الشيح والقيصوم والأسل النامية قرب المياه وعلى أكتاف الوديان .

وكانوا ، عند وصولهم إلى الموضع المناسب ، يحررون نياقهم من أحمالها ، ويتركونها تسرح على هواها مغترفة الماء طويلاً لتنصرف بعدها إلى التهام ما طاب لها من الأعشاب ، في حين يسارعون هم إلى تجميع الحطب وإشعال النار التي يدسون وسط جمرها أقراص عجين سميكة سرعان ما يلتهمونها حال نضجها مع حفنات تمر محولين ما في أفواههم من جانب إلى آخر تجنباً للسع حرارتها الكاوية . بعدها كانوا يلتفون بعباءاتهم الصوفية ليستغرقوا في نوم عميق لا يعكره سوى قلق دفين من لسع العقارب ولدغ الثعابين .

كانوا يستيقظون بعد ساعات وقد جددوا نشاطهم بعدما نالوا كفايتهم من النوم ، فيستأنفون المسير متأرجحين طويلاً على ظهور النياق وهي تراوح بهم بمشيها الرتيب المعهود واطئة الرمال بأخفافها المستديرة بثقة سرعان ما تتبدد حين اجتيازهم بطون الوديان المغمورة ببقايا طمي السيول ؛ إذ إنها تحني رقابها الطويلة مادّة أطرافها بجبن وتردد إلى الأمام كأنها تتوقع الانزلاق في أية لحظة ، حتى إذا ما بلغوا غايتهم اختاروا أحد الوديان القريبة مرعى لتلك النياق تاركين إياها تحت حراسة أحدهم لينصرف الآخرون إلى تسلق أكثر التلال ارتفاعاً

وقد لفوا كوفياتهم حول رؤوسهم تاركين فيها شقاً ضيقاً تومض عيونهم خلاله وهم يزحفون نحو القمة ، والرياح القارسة تجلد ببرودتها الأجزاء المكشوفة من أجسادهم .

ومن علو عشرات الأقدام كانوا يشرفون على الجانب الآخر من التل حيث يلوح لهم الخط الحديدي جاثماً على امتداد الصحراء مثل أفعى أسطورية سوداء لا رأس لها ولا ذنب تنهض بمحاذاته مرافق المحطة .

كانوا يقضون ساعات مستطلعين بنواظيرهم المستودعات المشيدة بالحجر الصواني ، وأبراج الماء ، ومواضع رصد الجنود الأتراك وخنادقهم ، مستهدفين من عملهم ذاك تخمين عدد جنود تلك المحطة ومواعيد تحرك الدوريات المسلحة حينما تخرج في أوقات محددة متفقدة الخط الحديدي وأعمدة التلغراف . حتى إذا ما انتهوا من ذلك انحدروا منسحبين نحو الموضع الذي اختاروه لمبيتهم حيث يتناولون عشاءهم المتواضع محاذرين أن يصدر عنهم ما يسترعي انتباه العدو .

فجراً كانوا يستيقظون على نفير البوق الصادح في الجانب الآخر من التلال ، فيهرعون مجدداً نحو القمة زاحفين ليلمحوا جنود الحامية التركية ، في زرقة ضوء النهار الوليد ، وهم يتراكضون لينتظموا في خط مستقيم سرعان ما ينفرط بعدما ينتهي آمرهم من استعراضهم إذ ترتفع أعمدة الدخان من مهاجعهم دلالة شروعهم في إعداد فطورهم ، فيسارع أفراد المفرزة إلى الهبوط نحوهم بخفة ، مستثمرين فرصة انشغال جنود الحامية ، فيختارون الاتجاه الذي يخمّنون قدوم القطار منه ليبدأوا بزرع اللغم متوجسين ، على مدى الوقت الذي تستغرقه تلك العملية ، ليس من احتمال انكشاف أمرهم من قبل إحدى دوريات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العدو فحسب ، بل توقّع انفجار اللغم بين أيديهم خطأ مسبباً في نسف أفراد الدورية مجتمعين ؛ ذلك لأن له قوة تدميرية هائلة بسبب انطوائه على ميكانيكية معقدة ترتكز على زناد يفجر بصورة متتابعة كبسولات تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة ثلاثين ياردة .

وفي الوقت الذي ينشغل فيه طاقم المدفع الرشاش باختيار الموضع المناسب لسلاحهم الفتاك ، كان آخرون يعمدون إلى قطع خطوط التلغراف قبل أن يتوزع الجميع على التلال والصخور القائمة هنا وهناك متحصنين خلفها ، وفوهات بنادقهم مصوبة دائماً وأبداً نحو الاتجاه الذي يتوقعون قدوم الخطر منه . وقد تمرّ بهم ساعة أو اثنتان أو أكثر قبل أن تردد التلال صدى صفير القطار القادم بقعقعته المدوية وبسحابة دخانه التي ترافقه في عدوه مثل غيمة صغيرة ، فيحتبس الجميع الأنفاس شاعرين بدبيب الدم يجري في عروقهم بايقاع متسارع بانتظار أن يتوج ترقّبهم المتوجس بذلك الدوي الهائل الذي تتصاعد على أثره سحابة دخان تنبئ بأن القطار قد وقع في الفخ حيث يراقب أفراد المفرزة باستمتاع الجنود الذي يستقلون العربات وهم يتدافعون نحو الأبواب والنوافذ ، وكل واحد منهم يحاول أن يسبق الآخر في النجاة بنفسه ليكتشفوا متأخرين عبث مسعاهم اليائس ذاك ؛ ذلك لأن المدفع الرشاش يشرع في العمل ، وتقعقع بنادق القناصة متصيدة إياهم واحداً واحداً ، ويكون النصيب الأوفر حظاً لبندقية إسماعيل بطبيعة الحال ؛ إذ إن جنود الحامية الذين يهرعون من المحطة للدفاع عن زملائهم يعرضون أجسادهم بسخاء للرصاص الذي ينهال عليهم مثل حبات المطر .

حتى إذا ما هدأ كل شيء ، ولم يعد يسمع إلا أنين الجرحى

ونداءات التوسل التي يطلقها الناجون وقد رفعوا الأيدي معلنين استسلامهم ينطلق بعض أفراد المفرزة - ولا سيما الذين يعملون مرشدين وأدلاء - للاستحواذ على الغنائم : فتمتد الأيدي نحو أجساد الجرحى والأسرى وجثث القتلى نابشة إياها جزءاً جزءاً بحثاً عن ساعات الجيب والنقود والحلي ، بل الملابس والأحذية أيضاً .

هكذا كانت تجري الأمور في الغالب ، لكنْ كان يحدث أحياناً أن يمر القطار فوق اللغم دون أن ينفجر ، فكان أفراد المفرزة يتعقبونه بنظرات غير مصدقة وقد وقف في المحطة الوقت المقرر لوقوفه قبل أن يستأنف التحرك مطلقاً في الفضاء صفيراً شامتاً كان يجعلهم يتبادلون نظرات يأس وقد ارتخت أكفهم عن البنادق التي كانت قد بقيت متشنجة عليها وقتاً طويلاً ؛ إذ إن ما حدث يعني خسارة يوم آخر من التوتر والترقب والانتظار القاتل والتسلل مجدداً نحو اللغم لفحصه لاحتمال وقوع خلل فيه لا مفرّ من إصلاحه والعودة للتحصن خلف التلال والصخور في انتظار قدوم قطار آخر .

كما كان يحدث أن تعترضهم صعوبات ، منذ بدئهم بعملية استطلاع إحدى المحطات ، تتمثّل بفشلهم في رصد عدد الجنود المتحصنين هناك ، أو يستحيل عليهم التأكد من احتمال امتلاك تلك الحامية للمدافع أم لا مما يعني أنهم مقدمون على مجازفة قد تنتهي بكارثة ؛ فعدم تكافؤ قوتهم مع قوة العدو كان يعني أن يقدموا ضحايا لا يسعهم تقدير عددها ؛ ذلك لمعرفتهم سلفاً أن الأتراك يعمدون إلى قتل أسراهم ، فكان لا مفرّ لهم من اختيار واحد منهم يتصف بالجسارة والجرأة ليستلل تحت جنح الظلام نحو تلك المحطة للقيام بعملية الرصد المطلوبة عن كثب ، وهنا كانت الأنظار تتجه تلقائياً نحو إسماعيل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي لا يملك إلا أن يبتسم بتسليم ؛ فقد بات من المتعارف عليه تكليفه بأداء مهمات على هذه الشاكلة .

وكان إسماعيل يعمد إلى تسليم بندقيته إلى رمزي مكتفياً بالتزود بمدية مرهفة النصل . وبعدما يلف حبلاً طويلاً حول خصره يغادرهم دون وداع حيث يبتلعه الظلام . وبعد مرور وقت طويل - يحسبه رمزي بطول دهر - كان الظلام ينشق عن قامة إسماعيل قادماً من الاتجاه المعاكس ، يتأرجح على إحدى كتفيه أسير تركي موثق اليدين والقدمين ومكمم الفم ، تكاد عيناه تخرجان من محجريهما من فرط الرعب!

وكان إسماعيل يقذف بأسيره وسط أفراد المفرزة ليقف فوق رأسه منفرج الساقين ، وملامحه الجهمة توحي بالشر . ولم تكن بهم حاجة إلى بذل الكثير من الجهود للحصول على المعلومات المطلوبة من الأسير ؛ ذلك لأنهم ، حين امتناعه عن كشف الأسرار ، كان يكفيهم أن يهددوه بأنهم سيتركون إسماعيل (يتفاهم) معه بطريقته الخاصة ليتراجع من فوره عن قراره المتهور ذاك ؛ إذ كان لذلك التهديد مفعول السحر : ذلك لأن الأسير يسارع إلى لثم أكفهم مخاطباً إياهم بعربية مشوهة مشفوعة بالكثير من الإشارات محاولاً إبلاغهم عن استعداده للاستجابة لأي شيء يطلبونه منه لقاء إبعاد هذا الـ(إسماعيل) عنه!

لقد تحوّلتْ هذه الحالة إلى ظاهرة لافتة للنظر ترسّخت بتعدد العمليات على محطات سكة حديد الحجاز حتى أشيع أن ذكر اسم إسماعيل بات كفيلاً بإدخال الرعب في قلوب العديد من الجنود الأتراك . وبرغم أنه لم يكن من اليسير التأكد من صحة هذه المعلومة ، إلا أن ما عززها لجوء السلطات المسؤولة في الجيش التركي إلى الإعلان عن رصد جائزة قيّمة لمن يأتي بإسماعيل إليهم حياً أو ميتاً!

(٩)

هكذا بدأتْ حكاية إسماعيل : محض أحاديث شخصية يزجي بها صديقان ساعات ليالي الشتاء الطويلة الباعثة على الملل قبل أن تتحول إلى أسطورة يرددها الجميع ؛ فبتعاقب الأسابيع ، وازدياد الهجمات على المحطات عنفاً وضراوة ، ومع رفع السلطات التركية قيمة الجائزة المرصودة لمن يأتي بإسماعيل حياً أو ميتاً بات من المألوف أن يفاجأ يوسف بمن يسأله عمن يكون صديقه هذا؟ ومتى عرفه؟ وكيف؟ وأين؟

وكانت (حرب المحطات) قد بلغت الذروة : لا يكاد يوسف يسمع الجنود يتحدثون اليوم عن هجوم قامت به إحدى مفارز التخريب على محطة زمرد القريبة من الوجه حتى يسمع ، بعد أسبوع أو أسبوعين ، بهجمات شنت على محطات نائية تقع إلى الجنوب بالقرب من المدينة مثل محطة المحيط أو حفيرة أو بواط أو بيار ناصيف . وتعاقبت الهجمات على المحطات لتشملها جميعها دون استثناء شمالاً وجنوباً مثل بير الجديد وبثيرة وإسطبل عنتر وطويرة والمدرج وجداعة وهدية .

ومع قدوم الربيع تطورت تلك الحرب إلى الشمال باتجاه محطة تبوك القريبة من العقبة ؛ فدأب الجنود على ترديد أسماء المحطات التي كانت تهاجم تباعاً مثل محطة سهل المطر والبدايع ومشهد والعلا ومداين صالح ومبرقعة الناقة وأبو طاقة ومطالع ودار الحمرا وخشم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصفا والمعظم والأخضر ومستبقة ودار الحج ووادي الأثل .

وبدأت الشائعات تشير إلى أن الجيش العربي بصدد تحرير العقبة انطلاقاً من كونها (الباب الوحيد الذي يمكن فتحه والعبور منه بأمان إلى سوريا) . بيد أن الاستيلاء على ذلك الميناء الحصين انطلاقاً من الوجه ، كما كان يعلم يوسف ، ضرب من محال ؛ ذلك لكون القوات المهاجمة ستغدو مجبرة على اختراق ممرات ومضايق تشرف عليها تلال صوانية يبلغ ارتفاع كل واحد منها آلاف الإقدام ، وبذلك تصبح تلك القوات المهاجمة تحت رحمة نيران المدافع التركية المتحصّنة فوق تلك القمم الشاهقة مما يتطلب تقديم ضحايا فادحة لا قدرة للجيش العربي على تقديمها .

وكانت الشائعات نفسها تنوّه بأن ثمة خدعة قد يتم اللجوء إليها لتحقيق هذا الغرض بأقل خسائر ممكنة - أوَ ليست الحرب خدعة؟! - وقد يكون لورنس هو الذي أوحى بها : وهي مهاجمة العقبة ليس من الوجه ، الاتجاه البديهي الوحيد الذي يخطر على البال تلقائياً ، بل من اتجاه آخر لن يخطر للأتراك أبداً ؛ وتحقيقاً لهذه الغاية أرسل الأمير فيصل فريقاً صغيراً مزوّداً بالمال والسلاح والمتفجرات كان هدفه المعلن التمهيد لهجوم يقوم به الجيش العربي انطلاقاً من الوجه نحو دمشق لا العقبة . كما عمد نيوكمب - سعياً منه لتمرير تلك اللعبة - إلى ترك أوراق في موضع قريب من الوجه فيها إشارات عن مخطط هجومي يلعب ذلك الفريق فيه دور الكشافة لهجوم سيتم في اتجاه دمشق وحلب .

ويوم علم يوسف بأن إسماعيل ورمزي سيكونان ضمن أعضاء الفريق الذي سيخوض هذه المغامرة طلب إليهما مساعدته للالتحاق بهما :

- لن يسعني الانزواء في خيمتي يأكلني القلق والحسرة في انتظار ما ستسفر عنه هذه الحملة الكبرى .

ولم تواجه إسماعيل - بما يملك من صيت مدوٍ - صعوبة تذكر في إقناع المسؤولين بقبول يوسف ضمن أعضاء الفريق الذي كان يقوده الشريف ناصر ، ويضم لورنس فضلاً عن مقاتلين آخرين بلغ عددهم الثلاثين .

غادروا بلدة الوجه متخذين سبيلهم باتجاه الشمال الشرقي . وكان يوسف خير من يدرك المخاطر التي ستكون في انتظارهم ؛ ذلك لأن اجتياز تلك البوادي المنقطعة عن الدنيا كان ضرباً من مغامرة لم يجازف بالإقدام عليها إلا قلة اكتسبت المجد والشهرة لقيامها بذلك العمل الاستثنائي ؛ إذ إن اختراق صحراء النفود الكبرى وسلسلة التلال والكثبان الرملية التي تعزل جبل شمّر عن البادية السورية مغامرة مهلكة ؛ ذلك لأن العواصف كانت تهب على حين غرة لتستمر أياماً محيلة النهار إلى ليل ، مسببة في ضياع كثيرين لم يكن يُعثر لهم على أثر إلا بعد مرور أسابيع وأشهر وقد تحولوا إلى هياكل عظمية تتخذ الأفاعي والسحالي من جماجمها لها مأوى ، أما من حالفه الحظ وتم العثور عليه ، بعد طول بحث وسط كثبان رملية لا أول لها ولا آخر ، فقد وجد وهو في النفس الأخير شبه أعمى مشقق الشفتين من شدة العطش!

وكان مما يزيد من صعوبة عبور تلك الصحراء شحّة الماء بل انعدامه في بعض المواضع ، فضلاً عن ندرة النباتات والأعشاب ، التي لا سبيل إلى الاستغناء عنها علفاً للنياق التي يفضل الاستعانة بها في اجتياز تلك الصحراء عوضاً عن ذكور الإبل ؛ ذلك لاتصافها بالصبر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والجَلَد وتحمّل التعب والاستمرار في السير حتى تسقط ميتة على النقيض من الذكور التي ما تكاد تشعر بالتعب حتى تبرك في موضعها مفضلة الموت على أن تتقدم خطوة واحدة . وبرغم أن تلك المصاعب كانت تقلّ بالوصول إلى وادي السرحان بسبب وجود القليل من العشب والآبار ، بيد أن المعضلة كانت تتمثل في ذلك الوادي بكثرة الثعابين فيه ؛ ما من نبتة أو صخرة يمر بها المرء إلا يتوقع أن يفاجأ بأفعى متربصة خلفها بأنياب تقطر سماً . وحتى الآبار لم تكن تخلو من تلك الثعابين ؛ إذ يكفي المرء أن يسحب دلاء الماء ليجدها طافحة بالعديد منها ، فضلاً عن رغبة تلك الأفاعي بالتسلل تحت أغطية النائمين لتشاركهم في الاستمتاع بالدفء!

بيد أن ذلك الفريق برهن على جدارته بالثقة التي أولي إياها ؛ فقد نجح في تذليل تلك العقبات كلها ؛ فاجتاز وادي عيسوية النبك ليصل إلى عشيرة الحويطات حيث كان في استقبالهم عودة أبو تايه ؛ فحلّوا ضيوفاً في خيمته القائمة على سبعة أعمدة طولاً وثلاثة عرضاً . وطوال تلك الرحلة لم يحدث أي اشتباك مع الحاميات التركية التي كانت تتجنب عادة الصحارى والبوادي حرصاً منها على أن تكون قريبة من المدن والمحطات القائمة على الخط الحديدي حيث يكون في وسعها تفقّد الجسور والقناطر وخطوط التلغراف دون مخاطرة . لكن الأمر تغير بمرور الأسابيع ؛ إذ إن ذلك الفريق الصغير تحوّل - بعد وصوله إلى وادي باير - إلى حملة حقيقية بعدما انضمّ إليه العشرات من المتطوعين حتى بات من المتعذر الاحتفاظ بسرية التحرك وسط عشائر لا تخلو عادة ممن بقي محتفظاً بولائه للعثمانيين ، فلم يجدوا بدّاً من التذكير بالخدعة التي كانوا قد لجأوا إليها منذ الأيام الأولى لمغادرتهم الوجه ؛

فشكّل لورنس فرقة من أفضل رجال الحملة لغرض الوصول قريباً من درعا لمهاجمة الخط الحديدي هناك مع نشر أخبار عن كون هدفهم هو الوصول إلى جبل الدروز ، وهو أمر تعزز بعثور الأتراك على تلك الأوراق التي سبق لنيوكمب أن تركها قرب الوجه وعليها ذلك المخطط الوهمي ؛ إذ إنهم عدّوا تلك الأوراق مستندات صادقة ؛ فأرسلوا حامية كبيرة إلى تدمر لأجل مباغتة الحملة وهي في طريقها إلى دمشق!

وكانت الدلائل قد أخذت تشير إلى قرب اصطدام الطرفين بشكل من الأشكال ؛ فمع تعدد غارات رجال الحملة على الخط الحديدي قدم إليهم ، في باير ، رسول من قبل حليفهم نوري الشعلان منبهاً إياهم على أن الأتراك قرروا إرسال أربع مئة جندي في أثرهم ، معتمدين في ذلك على دليل من عشيرته سيعمل - بتوصية منه - على تضليلهم وتوجيههم نحو طرق وعرة تنهكهم هم مع خيولهم مع الإيحاء لهم بأن رجال الحملة مخيمون في وادي السرحان لا باير .

وكان الأتراك ، في أثناء تحركهم في ذلك الاتجاه ، قد نسفوا ما صادفوا من آبار مما اضطر رجال الحملة إلى بذل الكثير من الجهود لإصلاح بعضها للتزود منها بالماء قبل أن يغادروا وادي باير ، وذلك ما حصل في الثامن والعشرين من حزيران إذ اجتازوا سهل الجفر ليرسلوا بعض رجالهم إلى إحدى القبائل ، المخيمة في الجوار والمتحالفة معهم ، ليحثوهم على القيام بهجوم مباغت على إحدى الكتائب التركية المشرفة على حراسة ممر أبو اللسن .

منذ ذلك اليوم ازداد اصطدام رجال الحملة بالأتراك عنفاً وضراوة . وكانوا قد اقتربوا من العقبة ؛ إذ لم يعد يفصلهم عنها سوى محطة غدير الحاج وجبل قائم بين البتراء وأبو اللسن ، فضلاً عن سهل قويرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حيث لم يبق أمامهم سوى سلسلة تلال تحجبهم عن العقبة والبحر . ومن هناك تمت مطاردة الأتراك حتى المريجة ومن ثم القواعيد .

وكان قتلى الأتراك قد بلغوا المئات ، وتخطى عدد أسراهم الحد الذي اضطر معه رجال الحملة إلى أن يخلّفوا الكثيرين منهم وراءهم . وكان ممر الشتار الوعر آخر مانع يتسلقونه ليهبطوا مشدوهين إلى سهل قويرة لحظة شروق الشمس بعدما ظلوا مدة طويلة حبيسي الأودية ، حيث امتدت الأرض خضراء على مدى البصر ، فانطلقت النياق ، التي كانت قد أمست من شدة الجوع هياكل عظمية ، إلى التهام ما تشاء من العشب واغتراف الماء . وفي السادس من تموز تم تحرير العقبة بعد إجراء مفاوضات مع الجنود الأتراك انتهت باستسلامهم ؛ فدخل رجال الحملة ذلك الميناء وهم يسوقون أمامهم أسرى يفوقونهم عدداً!

(١٠)

نصب الأصدقاء الثلاثة خيمتهم المشتركة وسط مئات الخيام التي أقيمت تحت ظلال أشجار النخيل المثقلة بعذوق تمر أخضر لم ينضج بعد . وكانوا - على امتداد أيام الحملة - قد أطلقوا لحاهم وأرسلوا شعرهم فحاكى أحدهم الآخر ببشرته الغامقة التي أحرقتها الشمس والرياح السموم . وعلى امتداد أيام تموز القائظة تدفقت قطعات جيش الشمال من الوجه إلى العقبة ؛ فاستقبل يوسف أفراد سريته السابقة التي قدمت على ظهر إحدى البوراج البريطانية . وفي انتظار صدور أوامر جديدة عاد إسماعيل ينزوي في جانب من الخيمة وقد التزم الصمت ، وعيناه الصفراوان المتألقتان وسط أهدابهما السود تفصحان عن كآبة متأصلة لا سبيل إلى تبديدها . أما رمزي فعلى الرغم من أنه كان يماثل صديقيه بخشونة مظهره الخارجي ، إلا أنه كان يختلف عنهما بنحوله المعهود وشقرة شعره فضلاً عن طبع مرح سارع إلى تسويغه مبتسماً :

- سأسبقكما أنا هذه المرة بالقول إن العقبة أقرب كثيراً إلى القدس من الوجه ؛ إذ لم يبق بيننا وبين الوصول إليها سوى سلسلة سهول وتلال وقرى ومدن . . .

فقاطعه إسماعيل متهكماً :

- ومدافع وبنادق والمزيد من الأتراك الذين لا مفرّ لنا من قتلهم قبل أن يقتلونا هم!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولم تمضِ أيامٍ معدودة حتى فاجأ إسماعيل يوسف بقوله إنه سيغادر العقبة غداً برفقة رمزي .

– إلى أين تغادران بمثل هذه السرعة؟

– إلى حيث يمتد هذا الخط الحديدي اللعين .

– ألم تهاجما هذا الخط بما فيه الكفاية؟

– كيف ذلك وأمامنا المزيد من المحطات التي تفصلنا عن دمشق؟

رد رمزي وقد وقف بقامته الممشوقة لصق عامود الخيمة ، فخاطبه إسماعيل متهكماً :

– ثمة محطة واحدة يهمك الوصول إليها من بين هذه المحطات كلها وهي محطة القدس .

– ليكن الأمر كما تقول ؛ أوَ ليستْ القدس مدينتي؟

أجابه رمزي ليسارع إلى التقاط صرّة كان قد أخفاها في أحد جوانب الخيمة حيث انهمك لحظات بحلّ عقدتها مستلّاً منها قطعة قماش حريرية بيضاء مطرزة الحواشي عرضها على الأنظار وهو يقول :

– لم استطع الامتناع عن إغراء التقاطها من قطار تمكّنا من نسفه من بين عشرات الأشياء الثمينة التي يستميت البدو للحصول عليها . . . قلت : قد تصلح غطاء رأس لأختي . . . فاطمة .

– لعل صاحبها التركي القتيل كان بدوره بصدد إهدائها إلى أخته أو . . حبيبته!

خاطبه إسماعيل منتقداً ، فأجابه رمزي بعصبية وهو يعيد القطعة إلى موضعها :

– كان عليه إذن أن يحمل هديته إليها من إحدى المدن التركية لا من أرض الحجاز .

– وأنت يا يوسف : متى تحمل هداياك إلى أحبابك في بغداد؟

تساءل إسماعيل بمرارة ليستدرك من فوره قائلاً :

– بالمناسبة . . . أتعلم بأن بغداد سقطت بأيدي الإنكليز منذ شهور . . . في شهر آذار على وجه التحديد؟

فصحح رمزي كلامه قائلاً :

– بغداد حُررتْ من قبل الإنكليز لا سقطت .

فأجابه إسماعيل بازدراء :

– كما ستحرر القدس قريباً على يد واحد من الجنرالات البريطانيين!

وعاد إسماعيل ورمزي يواصلان نهجهما السابق في مهاجمة المحطات مع (مفارز التخريب) : لا يكادان يغيبان أياماً حتى يعودا ليستقرا بعض الوقت في العقبة حيث أسهما مع يوسف وآلاف الجنود في إعداد هذا الميناء قاعدة جديدة للجيش العربي ؛ فعلى أثر قدوم القائد العام جعفر العسكري تمّ اتخاذ القلعة القائمة شرقي الخليج مستودعاً للذخائر والمؤن الحربية ، كما أن البريطانيين سارعوا إلى تزويد القاعدة الجديدة بمحطة تلغراف سرعان ما أخذت مرسلاتها الهوائية الشاهقة تنافس أشجار النخيل في ارتفاعها . وكذلك تمت إقامة مطار ، ومدت أرصفة على ساحل الخليج لإنزال المؤن من البواخر التي طفقت تتوافد يومياً من مصر .

في بداية أيلول قدم الأمير فيصل وسط حاشيته من الأشراف ، يحفّ به حرسه وعبيده . وكانت قوة مختلطة مؤلفة من مشاة ومدفعية وخيّالة قد تقدمت شمال العقبة لتتمركز في وادي التيم في موضع القويرة الذي سبق للحملة التي قادها الشريف ناصر أن استولت عليه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مثبتة بذلك النقاط الأمنية الممتدة بين وادي اللسن ومعان ، هذه المدينة التي باتت الهدف العسكري التالي لجيش الشمال ؛ إذ تجمعت هناك حشود ضخمة للعدو .

آنذاك قدم من مصر (الفيلق العربي) الذي اشتهر باسم (فوج الإسماعيلية) ، ففوجئ يوسف بإسماعيل يولي هذا الحدث جلّ اهتمامه ؛ فقد غادر الخيمة متوجساً ليعود بعد غياب نهار كامل وهو في غاية الفرح وذلك بسبب لقائه صديقاً كان قد فقد كل أثر له في (معركة الشعيبة) ليتبين الآن أنه كان قد وقع في أسر القوات البريطانية التي قادته إلى أحد معسكرات الأسرى في الهند حيث التحق بذلك الفوج الذي أُلّف من الأسرى العراقيين القادمين من الهند .

وانضم (فوج الإسماعيلية) إلى الجيش العربي ؛ وبذلك بات ذلك الجيش يتكون من فرقتين من المشاة بألوية وأفواج وسرايا ولواء مدفعية ونقليات ووحدة هجانة . وكان الضباط والخبراء البريطانيون والفرنسيون قد أخذوا يتوافدون على العقبة بكثافة دون أن يمنعهم مانع ؛ وذلك لكون هذا الميناء يقع خارج حدود الديار الإسلامية المقدسة التي لا يُسمح لغير المسلم بدخولها . ولم يغب عن يوسف اكتشاف سر الاهتمام المفاجئ الذي أخذ البريطانيون والفرنسيون يولونه الجيش العربي ؛ فمنذ تحريره العقبة عدّوه بمثابة الجناح الأيمن للجيش البريطاني الذي كان يتهيأ للتحرك نحو فلسطين ؛ لذا أصبح من المألوف أن يقدم هؤلاء الضباط الأجانب ليعملوا مستشارين ورؤساء حاميات خاصة للعربات المصفحة والطائرات وفرق الهجانة .

وكان يوسف قد عُيّن ضمن طاقم التدريب الذي كان يستقبل ،

بشكل متواصل ، المتطوعين الجدد ، فيعمل ، مع زملائه ، على تجهيزهم بعد تدريبهم تدريباً بسيطاً لتعمل القيادة على إرسالهم إلى الوحدات الأمامية . وكان صديقاه إسماعيل ورمزي يزودانه - في مرورهما العابر بالعقبة - بآخر أخبار مفارز التخريب التي لم تكن تكفّ عن شن حملاتها على الخط الحديدي مخرّبة في طريقها المحطات والطرق والقناطر والجسور ، موقعة ضربات مريعة بالأتراك لعل أبعدها أثراً تلك التي نجح فيها لورنس بنسف قطار محمّل بجنود قُتل منهم سبعون فرداً ، ليستولي بعد أسابيع على كمية كبيرة من المال كانت مرسلة من الأتراك إلى حليفهم ابن رشيد(١) .

وكانت قوة ، قوامها فوج مشاة وسرية رشاشات ورعيل خيالة ، قد هاجمت الأتراك في المريغة مجبرة إياهم على الارتداد منسحبين إلى سمنة ومعان . وفي شهر تشرين الأول سارت قوة عسكرية إلى الجفر انضم إليها عوده أبو تايه برجاله الأشداء من عشيرة الحويطات ، فهاجموا محطة جرف الدراويش ومن ثم زحفوا نحو الطفيلة لغرض احتلالها ومشاغلة الأتراك شرقي نهر الأردن لتخفيف العبء عن الجيش البريطاني الذي كان قد بدأ حملته الكبرى ، تحت قيادة الجنرال

---

(١) ابن رشيد : هو عبد العزيز آل رشيد أمير حائل ، وقد اشتهر بخصومته وعدائه لعبد العزيز آل سعود ، ووقعت بينهما معارك كانت أشهرها (دقة ابن رشيد) التي حدثت عام ١٩٠٤ والتي ساندت السلطات العثمانية فيها (ابن رشيد) بإرسال جيش إليه .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللنبي[1] نحو فلسطين ليحتل سريعاً غزة والخليل ويافا وبيت لحم ، متوجاً تلك الانتصارات الكاسحة بدخول القدس في التاسع من كانون الأول . وبات في وسع القيادة العامة الانتقال إلى القويرة ومن ثم أبو اللسن . وضاق يوسف ذرعاً ببقائه في العقبة ضمن أفراد طاقم التدريب ؛ فقد بدأت الاستعدادات تجري للهجوم النهائي على معان حيث تتمركز أكبر قوة للأتراك تحول بين الجيش العربي والتقدم شمالاً نحو الأردن وسوريا .

وفكّر في تقديم طلب للانضمام إلى إحدى الوحدات العاملة التي كانت تتهيأ للانطلاق شمالاً وقد اشتعل أفرادها حماسة لولا وقوع حدث كان له وقع الصاعقة : فوسط حالة الترقب والاستعداد للقيام بذلك الهجوم وردت إلى العقبة تعليمات تقضي بإرسال كل ما هنالك من وسائط نقل فضلاً عن الإسراع بنصب خيام واسعة مزودة بالأسرّة لتستعمل كمستشفى ميداني يفترض به استيعاب العشرات من الضحايا!

ما الذي حدث؟ أيكون سبب إصدار هذه التعليمات تحسباً لما سينجم عنه الهجوم المرتقب من إصابات؟ أم نتيجة وقوع معركة فعلية تسببت في حصول خسائر فادحة؟

---

(١) الجنرال اللنبي : هو السير (أدموند اللنبي) أحد أبرز القادة البريطانيين ، وقد تم تعيينه في عام ١٩١٧ قائداً للجيش البريطاني الذي اجتاز سيناء متجهاً إلى فلسطين حيث تمكن من إيقاع الهزيمة تلو الهزيمة بالجيوش العثمانية محتلاً المدن الفلسطينية الواحدة عقب الأخرى ليتوجها باحتلال القدس قبل أن يمضي في مطاردته للجيوش العثمانية حتى دمشق .

وسط تلك التساؤلات التي أخذ يوسف يتبادلها مع زملائه شرعت وسائط النقل ، التي بعثت بها القيادة إلى الشمال ، تقفل راجعة محمّلة بجثث لا يحصرها العدّ فضلاً عن كثيرين من الجرحى حتى كادت أسرّة المستشفى الميداني تضيق بهم!

قد يكون إسماعيل أو رمزي ذهبا ضحية هذا الحدث المروّع!!

فكر يوسف وقد انطلق مهرولاً نحو المستشفى الذي كان يتألف من بضع خيام بالغة السعة نُصبت على رقعة أرض خلاء أحيطت بالأسلاك الشائكة ، ففوجئ بمجموعة جنود محتشدين عند البوابة الخشبية ، يتقدمهم رجل أحول كثير الصخب كان لا يكفّ عن الصراخ مؤكداً أنه لا مفرّ له من الدخول مهما كلفه الأمر ليطمئن على أحوال عدد من أصدقائه العاملين في إحدى مفارز التخريب ، فكان يتصدى له موظف صحي بصدرية بيضاء يصرخ به بلهجته المصرية مؤكداً أنه سيتسنى له الدخول وتفقّد أحوال من يشاء بعد مرور يوم أو يومين ريثما يكون الأطباء قد أجروا اللازم لجرحاهم ، إلا أن الأحول كان يواصل ضجيجه مؤكداً أنه لا بد له من رؤية أصدقائه اليوم وليس غداً!

بيد أن قدوم أحد الأطباء سرعان ما وضع حداً لذلك الصراع بين الاثنين ؛ إذ إنه أمر الموظف بإغلاق الباب وراءه ، فصدع هذا لتنفيذ الأمر مانحاً الرجل الأحول ابتسامة شامتة ، فالتفت هذا إلى الواقفين مشهداً إياهم على مقدار الظلم الذي أنزل بحقه وهو الذي كان من المحتمل أن يكون ضمن هؤلاء الجرحى الراقدين على أسرّة المستشفى ؛ ذلك لأنه كان واحداً من المشاركين في تلك الحملة الفاشلة التي انتهت بهذه الكارثة . وانصرف وهو يصيح مفرغاً غيظه هذه المرة بقيادة الجيش التي لو كانت تملك أمرها بيدها لما اضطرت إلى الإقدام على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا العمل الغبي . وسارع يوسف إلى تعقّبه ، حتى إذا ما لحق به ترجّاه أن يخبره بحقيقة ما حصل ، فجنح الرجل بوجهه جانباً ليتطلع إليه بنظرته الزائغة وهو يقول :

– ما حصل كان انتقاماً ربانياً تجسّد على شكل ثلوج وأمطار هطلت بغزارة مسببة في تشتيت حملتنا بين تلك التلال الوعرة الممتدة جنوب معان . كما أن أعداد الضحايا تضاعفت بسبب انفجار لغم كانت إحدى مفارز التخريب تحاول زرعه تحت الخط الحديدي . . .

فقاطعه يوسف منوّهاً بأن اثنين من أصدقائه كانا ضمن تلك المفرزة ، ولا يبعد أن يكونا قد ذهبا ضحية ذلك الانفجار .

– وما اسم صديقيك هذين؟ إذ من المؤكد أنني أعرفهما ؛ ذلك لأنني التحقت بـ(مفارز التخريب) منذ انضمام (فوج الإسماعيلية) إلى جيش الثورة .

قاطعه الرجل متسائلاً . ولم يكد يوسف ينطق باسم إسماعيل ورمزي الخالدي حتى توقف هذا ليمسك بيده وهو يقول :

– يا لها من مصادفة ؛ فإسماعيل هذا صديق مشترك لنا نحن الاثنين!

وعرّف باسمه ذياب رؤوف ، مؤكداً أنه سبقه بالتعرّف إلى إسماعيل ؛ فقد أسهم معه في (معركة الشعيبة) التي وقع بنتيجتها في أسر الإنكليز فأرسل إلى معسكر (بيلاري) للأسرى الواقع قرب مدينة (حيدر آباد) في الهند . وأوضح أنه قدم في الفترة الأخيرة من مصر ضمن (فوج الإسماعيلية) .

وطمأن يوسف على حالة إسماعيل ؛ فقد رآه بأمّ عينيه لحظة انفجار اللغم ؛ إذ إنه لم يصب إلا بحروق طفيفة وبضع شظايا سيتمكّن

الأطباء من سحبها بيسر ، بيد أن الأمر يختلف مع صديقه الفلسطيني رمزي ؛ ذلك لأن حالته بالغة الخطورة ؛ فقد كان على مقربة من موضع الانفجار . فتساءل يوسف عن المسوغ للقيام بهذه الحملة على إحدى المحطات في الوقت الذي كان الجميع يستعدون فيه للزحف نحو دمشق؟ فأجابه ذياب ثائراً :

- ذلك هو قرار الإنكليز والفرنسيين ؛ فهم يهدفون إلى إشغال الجيش العربي بهذه الحركات الجانبية!

وأردف قائلاً إن بعض الضباط الغيورين سبق لهم أن عاتبوا القائد العام جعفر العسكري أكثر من مرة لتبديد جهود الجيش العربي بهذه الأمور الجانبية في حين يفترض به استئناف الزحف نحو دمشق ؛ فأجابهم بصراحته المعهودة :

- ماذا أعمل والإنكليز والفرنسيون لا يريدون أن يتقدّم الجيش النظامي نحو الشام ، فهم طامعون في سوريا؟

صباح اليوم التالي لم يكد يوسف يقترب من بوابة المستشفى حتى التقى ذياب رؤوف خارجاً من هناك حيث بادر بطمأنته على حالة إسماعيل واحتمال أن يغادر سريره خلال أيام معدودة . وأضاف وهو يرمقه بعينيه الحولاوين :

- بيد أن الأمر يختلف مع رمزي الخالدي ؛ فقد بتروا له ذراعه اليمنى!

- بتروا ذراعه؟

تساءل يوسف مستنكراً وهو يبادل ذياب نظرة ذهول ليغادره بعدها دون وداع عائداً إلى الخيمة متذكراً سعادة رمزي التي أفصح عنها منذ أسابيع لكون القدس باتت أقرب إليه ، واحتفاله بتلك الهدية التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ينوي تقديمها إلى شقيقته فاطمة والمتمثلة بقطعة قماش بيضاء مطرزة الحواشي .

هكذا تكررت لقاءات يوسف وذياب عند بوابة المستشفى على مدى أيام متلاحقة حيث أصبح من المألوف أن يتجمّع حشد من الجنود على أمل السماح لهم بالدخول لتفقد أحوال زملائهم الجرحى . وكاد ذياب يكون الوحيد الذي يحظى بذلك الامتياز ؛ فقد كان خبيراً في ابتكار وسائل تكفل له إقناع ذلك الموظف المصري الذي كان يضطر في النهاية إلى التخلص منه بالسماح له بالدخول شريطة ألا تمتد زيارته أكثر من دقائق معدودة كان ذياب يؤكد التزامه بها ليغيب ساعات يعود بعدها محمّلاً بأخبار هؤلاء الجرحى إلى زملائهم المنتظرين عند البوابة .

ولم تكن جعبة ذياب تخلو ، في يوم من الأيام ، من أخبار جديدة كان يحرص على أن يتحف بها يوسف كلما التقاه : فبعدما يسحبه جانباً كان يتلفت حوله إلى شتى الاتجاهات ليسرّ إليه بنبرة متآمرة بخبر جديد . وكان آخر خبر كاشفه به خبر تمرد بعض ضباط جيش الشمال على تنفيذ أوامر القيادة العامة القاضية بالاستمرار في مهاجمة المحطات متحججين بأن تلك الأوامر قد صدرت بوحي من الضباط الإنكليز والفرنسيين الذين يعملون طبقاً لتعليمات سرية ترد من حكومتيهما تقضي بالعمل على صرف الجيش العربي عن التفكير بالتقدم نحو الشمال لكي يبقى في الجزيرة العربية ، في حين كان من رأي هؤلاء الضباط المتمردين أن يولي الجيش وجهه نحو الشمال تاركاً قوة كافية لحصار معان ريثما تسقط جوعاً كما فعلوا في المدينة مع جيش فخري باشا .

وبعدما عاود ذياب التلفت حوله أضاف وقد شحن نبرته المتآمرة بمزيد من التوتر :

- لقد رفع هؤلاء الضباط مذكرة بهذا الشأن إلى الأمير فيصل مؤكدين فيها أنهم لم يتطوعوا في الجيش الحجازي إلا لأجل تحرير البلاد العربية وتشكيل حكومة عربية تأخذ مكانها بين حكومات العالم ، وأنهم حينما تطوعوا لم يخطر لهم ببال تنفيذ خطط الإنكليز والفرنسيين ، لذا فإنهم لن يقبلوا أن يكون على قيادتهم قادة يأتمرون بأوامر الأجانب .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(١١)

لم يكد يوسف يغادر خيمته ، صباح اليوم التالي ، متخذاً سبيله نحو المستشفى حتى فوجئ ، عند ساحل الخليج ، بمن يصيح منادياً إياه باسمه من على متن بارجة بريطانية كانت قد رست منذ دقائق ، فتوقف منتظراً شروع الركاب في الهبوط ليتبين أن فايد العايد في جملتهم!

والحق أن يوسف لم يفاجأ بقدوم فايد إلى العقبة قدر مفاجأته بأنه لا عودة له إلى جدة ؛ فعلى مدى الدقائق ، التي تطلبها وصولهما إلى الخيمة ليتركا حقيبة فايد هناك قبل أن يواصلا سيرهما نحو المستشفى الميداني ، علم منه أنه لم يقدم بسبب ما جرى لإسماعيل ورمزي ؛ ذلك لأنه كان قد باع أثاثه وكتبه قبل أن يحمل جهاز التلغراف إليه هذا النبأ ، ولم يكن قد أبقى إلا على ما لا سبيل له إلى الاستغناء عنه ملء تلك الحقيبة التي جلبها معه . وأضاف وهو يجيل بعينيه بين صفوف الخيام المنتظمة وسط أشجار نخيل لا تكف عن التمايل تحت عصف الريح :

– لقد باتت العودة إلى دمشق أمراً مؤكداً ؛ فمنذ شروع الجنرال اللنبي في حملته على فلسطين أصبحت المسألة مسألة وقت .

واستطرد معترفاً بأنه لم يعد في وسعه الاستمرار في اصطناع اللامبالاة إزاء معضلة شخصية تركها وراءه في دمشق دون حل متهرباً

من التصدي لحلها بالاندفاع في تجنيد نفسه لخدمة قضية الثورة العربية التي يخشى أن تكون الأحداث الأخيرة قد برهنت على تسرّعه في ذلك الاندفاع في تأييدها . فقاطعه يوسف منوّهاً ، وقد استعاد الشكوك التي دأب ذياب رؤوف على بذرها في أعماقه في الأيام الأخيرة :

– يخيل إليّ أن هناك أموراً مريبة تكشّفتْ مؤخراً مصدرها البريطانيون والفرنسيون .

– ثمة صحف حملتها معي في تلك الحقيبة تؤكد صحة ما ذهبتْ إليه ظنونك يا صديقي .

أجابه فايد ليضيف بمرارة :

– لقد نبهتني تلك الصحف على مقدار سذاجتي في التخلي عن روز في أشد ساعات حياتها حاجة لي لأنساق وراء أحلامي الثورية التي أوهمتني بأننا بصدد نيل استقلالنا ، على أيدي الأجانب ، كاملة غير منقوصة!

وأردف مقرّعاً نفسه :

– لا أخفي عنك أنه لم يمر عليّ يوم ، منذ هروبي من دمشق ، لم أعد فيه بذهني إلى هناك مفكراً بروز لحظة طرقها الباب لتفاجأ بغيري يستجيب لها!

وتوقّف فايد في منتصف الطريق ليتساءل كالمستغيث وقد أمسك بزند يوسف :

– أتستطيع أن تصدّق لو اعترفت لك بأنه ما من ليلة أرحت فيها رأسي على وسادتي إلا وفكرت فيها بروز وقد ازدادت عيناها الزرقاوان الحبيبتان اتساعاً لحظة اكتشافها أني تخلّيت عنها وفررت بجلدي؟

واستطرد في تقريع نفسه مواصلاً السير :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– لا يسعك يا صديقي تصوّر عمق شعوري بالخزي والعار وأنا أفكر بمقدار الخذلان الذي لا شك أن روز منيتْ به في تلك اللحظة الرهيبة ، مؤكداً لك أنني لن أغفر لنفسي جنايتي بحقها إن كانت قد أقدمت ، في غيابي ، على عمل متهور قد تكون انساقت إليه في ذروة يأسها ؛ فأنا أعرفها جيّداً : لن تتورع عن الإقدام على ما لا يخطر في البال!

عند باب المستشفى التقى الاثنان ذياب رؤوف الذي سرعان ما تآلف مع فايد كأنه سبق له معرفته ؛ فأخذ يسدي له النصح ، مؤكداً له أنه لا حاجة به إلى إرهاق نفسه لإقناع ذلك الموظف المصري الواقف في الباب كعزرائيل للسماح له بالدخول ؛ ذلك لأن إسماعيل سيغادر المستشفى بين لحظة وأخرى مصطحباً معه رمزي الخالدي .

وأضاف موضحاً :

– كنت في الداخل منذ دقائق أحاول مساعدة إسماعيل في إقناع رمزي بأنه لم يعد ثمة مسوغ لبقائهما في المستشفى بعدما انتهى الأطباء من معالجتهما مزودين إياهما بالأدوية اللازمة التي يفترض بهما تعاطيها فيما بعد ، فصاح رمزي به ثائراً طالباً منه أن يحتفظ بتلك الأدوية لنفسه ؛ ذلك ليقينه أنها لن تعيد له ذراعه المبتورة!

فانتفض يوسف على هول هذه الحقيقة الجديدة التي سيفترض به ، بعد دقائق ، التعامل معها : حقيقة كون صديقه رمزي – هذا الفلسطيني الأشقر الممشوق القوام – قد أمسى بذراع واحدة!

حتى إذا ما ظهر إسماعيل أخيراً وهو يسير باتجاههم ضالعاً بإحدى ساقيه ، ورمزي يسير في أعقابه محني الرأس ، وكُمّ سترته الأيمن الفارغ يرفرف إلى جانبه في الريح اقترف يوسف أول أخطائه معه ؛ فقد مدّ

يده محاولاً مصافحته لولا تنبهه لغباء حركته تلك ، فانقضّ عليه معانقاً مشاركاً إياه في البكاء .

عادوا إلى الخيمة صامتين ، لا أحد منهم يجرؤ على الكلام عدا ذياب الذي انصبّت معظم تعليقاته على الطقس وهذا البرد الذي فاجأ الجميع في غير موسمه . وحينما دخلوا الخيمة سارع يوسف إلى إشعال النار في الموقد راكناً دلة القهوة وسطها ، ملاحظاً ، دون قصد ، الحذر الذي كان إسماعيل وفايد يعاملان به رمزي ، متجنبين التطلع نحو كمه الفارغ .

وكان ذياب الوحيد الذي اتخذ كامل حريته في التحرك داخل الخيمة مدققاً ومنقّباً بين الأشياء التي يصادفها في طريقه ، حتى إذا ما عثر على كيس يحتوي على قليل من التمر التقطه دون تردد ليضعه وسطهم مزدرداً منه ما طاب له وهو يدعوهم بكرم إلى مشاركته في هذه الوليمة!

وكان فايد العايد أول من بدد الصمت المخيم مع احتسائه آخر قطرة من فنجانه ، موضحاً لهم أن القيادة العامة للجيش العربي تتهيأ للتقدم بقواتها شمالاً لتوزيعها على المناطق المحررة استعداداً للزحف نحو دمشق لتفتح حينها باب التسريح للراغبين في الرجوع إلى أهلهم .

وانتظر لحظات قبل أن يقترح بشكل عرضي :

– وهي فرصة في وسع من يرغب في العودة إلى دياره اغتنامها .

– قد أكون أكثركم تبرّماً بالاستمرار في خدمتي في الجيش ، لا سيما بعد الكارثة التي حلت بنا مؤخراً ، لولا أنه لا رغبة لي في العودة إلى بغداد ؛ فهي بدورها محتلة من قبل الإنكليز ، كما أنه لا أحد لي هناك باستثناء أم عجوز لا شك أنها شبعت الآن موتاً .

تكلم ذياب ضاحكاً ، في حين هتف يوسف بحيرة رامقاً إسماعيل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بنظرة متسائلة في انتظار أن يدلي برأيه ليقتدي به دون تردد :

- ليس من اليسير الحسم في أمر على هذه الشاكلة .

- لعلني كنت أكثر منك تردداً في اتخاذ قراري النهائي بترك عملي في صحيفة (القِبلة) . . .

هتف فايد العايد وقد سحب حقيبته نحوه لينبش فيها مواصلاً الكلام :

- . . لولا تكشّف خفايا برهنت لي على صحة توجّس إسماعيل وتردده ، منذ البداية ، من الانضمام إلى الجيش العربي ؛ فقد أكدت لي تلك الخفايا أن الإنكليز يتعاملون معنا تعاملهم مع الهنود الذين يستخدمونهم وقوداً في حرب لا غاية لهم من ورائها سوى توسيع استثماراتهم الاستعمارية .

وأردف وقد استلّ من الحقيبة رزمة صحف ألقى بها وسطهم ، فانزلقت إحداها باتجاه الموقد حتى كادت النار تشب فيها لولا أن يوسف سارع في انتشالها :

- يكفيكم الاطلاع على ما ورد في هذه الصحف لتتفهموا سبب إنهاء عملي في (القِبلة) وعزمي على العودة إلى دمشق .

وانهمك إسماعيل وقتاً طويلاً في تصفّح تلك الجرائد متتبعاً إرشادات فايد بقراءة مقاطع من مقالات منشورة فيها كانت تجعله يطلق صرخات استنكار وقد فغر فمه دهشة ، فلم يعد يوسف يطيق صبراً ؛ فطلب منه الإفصاح عما يثير دهشته .

- كارثة! . . . نحن مقبلون على كارثة لا خلاص لنا منها!

أجابه إسماعيل وقد شحب لونه ، وأضاف مناولاً إياه إحدى الجرائد :

- هاك . . . اقرأ لتكتشف مبلغ غدر البريطانيين والفرنسيين ؛ ففي الوقت الذي كانوا يحرضوننا ، نحن العرب ، لنعلن ثورتنا على السلطة العثمانية لننال بدعم منهم - كما كانوا يزعمون - استقلالنا ، كانوا يجتمعون من خلف ظهورنا ليعقدوا اتفاقية سيتقاسمون بموجب بنودها العراق وبلاد الشام بينهم بعد هزيمة العثمانيين!

وأوضح فايد قائلاً إن الفضل في كشف بنود تلك الاتفاقية التي عرفت باسم (سايكس - بيكو) يعود للحزب البلشفي ؛ فعلى أثر استيلائه على السلطة في روسيا القيصرية في شهر تشرين الأول المنصرم عمد إلى نشر بعض الوثائق السرية الموضوعة في محفوظات وزارة الخارجية القيصرية ، من بينها نصوص تلك الاتفاقية التي كانت روسيا طرفاً فيها .

فصاح رمزي وهو يكاد يبكي :

- أيعقل أننا كنا نجازف بحياتنا كل لحظة لنستبدل احتلالاً بآخر؟

وتساءل ذياب رؤوف بمرارة :

- أكان الشريف حسين على علم بهذه الاتفاقية؟

- يبدو أنه كان على علم بها .

أجاب فايد العايد ليستدرك بعد لحظة تفكير :

- ولكن ذلك لا يجعلني أشك بعمق إخلاصه للثورة ؛ فمشكلة الشريف الحقيقية تتمثل بكونه رجلاً سليم النية ، ينساق أحياناً لشكوك قد لا يوجد لها أساس من الصحة حتى أنه فرط بشخص مثل عزيز علي المصري الذي اضطر للعودة إلى مصر بعدما اكتشف أنه لم يعد موضع ثقته ، وكذلك كان شأنه مع ضباط آخرين التحقوا بجيش الثورة مثل علي جودة الأيوبي ونوري السعيد . . وآخرهم جعفر العسكري .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واسترسل فايد في كلامه مؤكداً أن نموذجاً على تلك الشاكلة يسهل خداعه من قبل سياسيين إنكليز وفرنسيين دهاة .

– ولكنْ . . . ألم يكن الأَوْلى به الانتباه إلى حقيقة ما يجري بعدما أرسل الأتراك إليه نصوص تلك المعاهدة عارضين عليه الصلح للتصدي لتلك المطامح الاستعمارية كما ورد في هذه الصحيفة؟

تساءل يوسف وهو يطوي الجريدة التي كانت بين يديه ليرميها بعيداً عنه بحركة اشمئزاز ، فأجابه فايد وهو يلوّح بيده بيأس :

– ألم تسمعني وأنا أتحدث ، منذ لحظات ، عن طبيعة الشريف المتشككة؟ لقد حسب أن الأمر ليس سوى خدعة يحاول بها جمال باشا السفاح – وكان هو الذي عرض عليه الصلح باعثاً في الوقت نفسه رسولاً سرياً محملاً برسالتين بهذا الشأن إلى الأمير فيصل وجعفر باشا العسكري – الإيقاع بينه وبين الحلفاء للنجاة من المأزق الذي وجد نفسه فيه ، ساعياً ، في الوقت عينه ، إلى تسويغ إخفاقه في موقفه العسكري أمام قوات اللنبي ولا سيما بعد خسارته القدس ؛ وهكذا حسب الشريف حسين أن جمال باشا تعمّد التضخيم من شأن تلك الاتفاقية والتشهير بها علناً ؛ ذلك لأنه فضحها على الملأ في خطاب ألقاه في بيروت في مأدبة أمر بإقامتها هناك وبحضور شخصيات مشهورة ، ركّز فيها على الضرر الذي يزعم أن الثورة العربية سببته ليس لوحدة الإسلام فحسب ، بل لمصالح الثورة نفسها . وإمعاناً من جمال باشا في زرع بذور الشك أمر بنشر نص ذلك الخطاب في عددين متلاحقين من جريدة (الشرق) حرص على إرسال نسخ منها إلى المدينة مهرّباً نسخاً أخرى إلى مكة وجدة .

واستطرد فايد في كلامه منوّهاً بأنه كان في وسعه تفهّم موقف

الشريف حسين من عرض جمال باشا وتشككه بصدق نيته لولا نجاح الإنكليز في تمرير خدعة أخرى عليه أتت تتويجاً لخدعة (سايكس - بيكو) .

فصاح الجميع مستنكرين :

- أهناك المزيد من الخدع؟

أجابهم فايد وقد استلّ من بين الصحف جريدة أجنبية :

- لقد صدر هذا العدد من الجريدة التي تحمل اسم (التايمز) في لندن بتاريخ السادس والعشرين من تشرين الأول المنصرم ، وقد أرسلها لي أحد معارفي في القاهرة . أتدرون ما هو مضمون مقالها الرئيس؟ حسن . . . أصغوا إليّ بانتباه . . . فقد استطعت بفضل معرفتي المتواضعة باللغة الإنكليزية وبعد الاستعانة بأحد المعاجم من أن أفهم أن كاتب المقال يهاجم الساسة الإنكليز لتأخّرهم حتى الآن في إصدار تصريح قاطع بتحقيق أماني اليهود بإنشاء دولة لهم . . . وأين؟ في فلسطين!

صعق الذهول الجميع حتى أن أي واحد منهم لم يجرؤ على النطق باستثناء رمزي الخالدي الذي ترجم ألمه على شكل أنّة لم يستطع لها منعاً . وكان فايد قد التقط هذه المرة عدداً من جريدة (القِبلة) لوّح بها أمام أنظارهم قائلاً :

- أتدرون ما كان رد فعل الشريف حسين؟ لقد نُشرتْ مقالة في هذا العدد الذي صدر قبل أيام فقط ، ومن الواضح أنها كُتبتْ بإيعاز منه ، يدعو فيها السكان العرب في فلسطين - مستبقاً بذلك رد فعلهم حين يشيع الخبر - إلى أن يتذكروا أن كتبهم المقدسة وتقاليدهم توصيهم بواجبات الضيافة والتسامح ، ويحضّهم على أن يرحبوا باليهود

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إخواناً ، وأن يتعاونوا معهم في سبيل الصالح المشترك .

وانتظر لحظات قبل أن يستدرك قائلاً :

– المفارقة الكامنة في هذه المقالة أن الشريف حسين انطلق في كتابتها من المبادئ السليمة التي ربي عليها ظناً منه أن الإنكليز سيتفهّمون عمق تحرره من الهوى والتعصّب الديني عاكساً بذلك النزعة العربية العامة نحو اليهودية كديانة سماوية أشاد بها القرآن في أكثر من موضع ، غير مدرك أن الإنكليز يسعون إلى هدف لا شأن له بالمبادئ والقيم . . . هدف سيكشف المستقبل وحده هوله!

فتساءل رمزي الخالدي متأملاً :

– لم يجانب الشريف حسين الصواب ؛ فذلك هو ما حاصل في فلسطين منذ مئات السنين ؛ فاليهود وكذلك المسيحيون يعيشون معنا منذ الأزل ، وحارة اليهود في القدس واحدة من ضمن حارات المدينة الكبيرة . . . بل في وسعي اللحظة أن أذكر لكم العديد من الأحياء التي أنشأها اليهود في العقود الأخيرة خارج أسوار القدس دون أن يمنعهم أحد مثل (شكينوت شعانيم) و(نحلات شيفع) و(مائة شعاريم) و(بيت أسرائيل) و(محنية يهوذا) و(شعاري تصيدق) و(زخروم موشه) و(جفعات شاؤول) . . . فما معنى إنشاء دولة لليهود وحدهم في فلسطين؟

وعاد الصمت يخيّم مجدداً على الجميع ، صمت كان يملؤه عصف الريح المتفجر خارج الخيمة .

– ما الذي يتوجّب علينا الآن القيام به بعد انكشاف هذه الأسرار المذهلة؟

تساءل يوسف حائراً ، فأجابه إسماعيل بحسم :

– سأتقدم بطلب تسريحي من الجيش ؛ ذلك لأن شكوكي قد اقترنت الآن باليقين ؛ فلم يعد أمامي مسوغ لخداع نفسي بالأوهام!

وسرعان ما أعلن الآخرون أنهم سيحذون حذو إسماعيل ، فطلب فايد العايد منهم الهدوء والتروّي مذكّراً إياهم بأن باب التسريح لم يفتح بعد ؛ فالجهات المعنيّة التي استقى منها هذا الخبر وقتت صدوره باستئناف الجنرال اللنبي حملته شمالاً نحو دمشق ؛ إذ سيحتم على الجيش العربي مواكبة تلك الحملة شرقي الأردن .

والتفتَ نحو رمزي منبّهاً :

– كما لا تنسَ أنه لن يسعك العودة إلى القدس وقتما تشاء ؛ ذلك لأن فلسطين كلها تُعدّ الآن ساحة عمليات ؛ لذا لا يسع أي إنسان الدخول إليها أو الخروج منها إلا بعد الحصول على إذن مسبق من السلطات البريطانية في القاهرة من قسم الدول الأجنبية في دائرة الجوازات العامة ؛ فقد منع الإنكليز منعاً باتاً السفر والتنقل بين المدن والقرى الفلسطينية إلا في حالات نادرة وبإذن خاص ، فلا مفرّ لنا من الانتظار أسابيع قد تمتد إلى شهور قبل أن أستطيع ، بالاعتماد على معارفي من المتنفذين الإنكليز في الجيش العربي ، الحصول على الجوازات المرفقة بتأشيرات القنصل البريطاني ليُسمح لنا بالسفر إلى الشام .

وعاد رمزي الخالدي يؤكّد إصراره على العودة إلى القدس في أقرب فرصة ممكنة . وأردف متجنباً مبادلة الجالسين النظر :

– لم يعد ثمة مسوّغ لبقائي في الجيش بعدما دفنتُ ، دون جدوى ، ذراعي اليمنى في أرض العقبة .

وأضاف وهو يحاول السيطرة على نفسه بصعوبة :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أمر واحد يحزّ في نفسي من هذه العودة : فعوضاً من أن يكون لي دور في التخفيف من أعباء فاطمة وأشقائي الآخرين ، بعد مرور كل هذه الأعوام ، سأصبح جزءاً من تلك الأعباء!

وبغتة تساءل وقد أجهش في البكاء :

– تُرى كيف يسعني الآن احتضان أصغر أشقائي زكريا ، لحظة اللقاء ، بين ذراعيّ؟

العدّ التنازلي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صباح ذات يوم فوجئتُ ، حين وصولي إلى (العلوة) ، بحشد من الحمالين وباعة الخضر والفواكه والمرطبات ، مع عدد من المتسولين ، وقد تجمعوا عند الباب المشرع حيث كان يقف سهيل الخلف وهو يدعوهم إلى الانصراف .

- ما الذي حدث؟

سألته وأنا أفكر بقاسم ، فتقدمني إلى غرفته بعد اطمئنانه إلى انفضاض الحشد لينبئني بصدق حدسي ؛ فقد أُلقي القبض عليه منذ دقائق . وأضاف وهو يقلّب الصحف المتراكمة على منضدته التي تتوسط غرفته :

- كان لا يزال تحت وطأة سكرة الليلة الماضية لا يعرف رأسه من رجليه . . . تصوّر . . لقد خرج لأنه اشتهى فجأة (الكاهي)!

- وما الذي سيفعلونه به؟

- لا أكثر من توقيفه بضعة أيام تسبق سوقه إلى أحد قطّاعات الجيش الشعبي .

أجابني باستهانة لينصرف بعدها إلى تصفّح جرائده .

آنذاك كانت أمي قد دأبت على سؤالي ، كلما انفردت بي ، إن كانت علاقتي بمريم طبيعية؟ وحينما كنت اسألها عما تعنيه بذلك؟ كانت تتمتم وهي تغادرني :

- لا شيء . . . لا شيء يا ولدي ، فكل ما أتمناه لكما هو الخير .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت تبدو مشغولة البال بأمر ما تتحرج من التصريح به ، وهو أمر كنت على ثقة من أنه يتعلق بمريم ، مريم التي كنت أراقبها بإكبار وهي ترعى أبي رعاية البنت لأبيها : تحرص على أن تجنّبه تناول أكلات قد تسبب في ارتفاع ضغط الدم لديه ، أو تفاجئه بحمل إستكان شاي إليه في وقت مناسب كان يجعله يرمقها بنظرة شكر وعرفان . وكثيراً ما كان السأم ينتابه بسبب ملازمته المستمرة للبيت ، فكانت مريم تجبره على النهوض والجلوس على كرسي عند باب البيت الخارجي بحجة حرصها على كنس البيت . وكانت تتعقبه بعد دقائق (بنارجيلته) الأثيرة لديه ، وبعدما تقرقر بها ساحبة منها بضعة أنفاس كانت تسلّمه مبسمها مطلقة سحابة دخان مرهفة من أنفها الجميل .

كانت مريم تعمل جهدها على تجنيب أبي ملاحقة أخبار الحرب التي كانت قد بلغت آنذاك أخطر مراحلها بعدما نجحت القوات الإيرانية ، في شهر تموز ، في اختراق الجبهة والوصول إلى مشارف البصرة حيث جرت معارك شرسة بين الطرفين تكبدا فيها خسائر هائلة في الأرواح ؛ فكانت تنسجم مع أبي في تبادل أحاديث حميمة لم تكن بي حاجة لمعرفتها ؛ ذلك ليقيني أنها لا تخرج عن نطاق تلك السنوات الغابرة التي قضاها أبي في دمشق حيث التقى أباها إسماعيل الذبيح وارتبط معه بصداقة العمر .

وكان إرسال المزيد من القطعات العسكرية إلى الجنوب يجري على قدم وساق ؛ ومعها كنت أتذكر صراخ قاسم – ترى تحت أي نجم اختفى الرجل؟! – في وجهي ، وهو ثمل ، مؤكداً أن حرصي على إكمال دراستي العليا ليس سوى حجة للتهرّب من الالتحاق بإحدى وحدات الجيش الشعبي!

تُرى ألم يكن الرجل صادقاً في كلامه ذاك؟

وكانت مريم قد اعتادت آنذاك أن تصحب معها ، إلى غرفة نومنا ، مذياعاً صغيراً تظل تتنقل بمؤشره بين مختلف المحطات متتبعة أخبار الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان ، حتى إذا ما فوجئت بخبر جديد لكزتني في جنبي دون أن تأخذها شفقة بي وقد غفوت لأشاركها في الإصغاء وهي تعلق :

– لقد أمست الحرب في لبنان تسير بحسب السيناريو الذي سبق لك توقعه ؛ إذ إن إسرائيل ماضية في زحفها نحو بيروت!

ويوم عرض التلفاز تلك اللقطات المؤثرة للمقاتلين الفلسطينيين وهم يتدفقون على باخرة يونانية يتوسطهم ياسر عرفات وهو يرفع باسماً السبابة والوسطى بعلامة النصر ، في حين يودعهم حلفاؤهم اللبنانيون بإطلاق الرصاص في الهواء ، تابعتهم مريم بعينين دامعتين لتهمس بأمل :

– لعل شقيقيّ محمد وفؤاد كانا ضمن هؤلاء المبحرين!

والتفتت نحوي لتسألني وهي تمسح عينيها :

– هل تثق بتعهّد الإسرائيليين لممثل الحكومة الأمريكية (فيليب حبيب) بأنهم لن يقتحموا بيروت الغربية ، وأنهم سيحترمون سكان المخيمات الفلسطينية المدنيين بعدما باتوا ، برحيل المقاومة ، دون حماية؟

لم أجبها ليقيني أنها سبق لها أن خبرت بنفسها هذا الجانب لدى الإسرائيليين .

والحق أن سهيل الخلف اعتاد أن يؤكد لي ، كلما التقيته في غرفته في (العلوة) ، أنه يتوجس من وجود مؤامرة كبيرة يجري الإعداد لها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للاجئين الفلسطينيين . وكان يستند في ذلك إلى انتخاب (بشير الجميّل) رئيساً للجمهورية إذ سرعان ما تسربت أخبار عن قيامه بزيارة سرية إلى صديقه (بيغن) في إسرائيل . وكان ينبهني على الأخبار التي تتحدث عن تدفق القوات الأمريكية والفرنسية والإيطالية على بيروت ، حتى إذا ما انتشر نبأ اغتيال بشير الجميّل مع عشرين من أعوانه على أثر نسف مقر حزب الكتائب صاح سهيل بانفعال :

– لقد أزف الموعد ؛ إنها فرصة مثالية لاقتراف أقذر مجزرة بحق الفلسطينيين!

صباح الأربعاء رابطت في البيت لأتابع من خلال شاشة التلفاز عملية اقتحام القوات الإسرائيلية بيروت الغربية : كانت الكاميرا ترصدهم من بناية عالية وهم يتقدمون من جهة الميناء في صف واحد وفي أعقابهم الدبابات ومن ثم سيارات الجيب . ولم تمضِ سوى ساعات حتى أُعلن عن احتلالهم السفارة الكويتية المشرفة على مخيمي (صبرا) و(شاتيلا) للاجئين الفلسطينيين في بيروت .

بعد أيام معدودة دوّى نبأ تلك المجزرة المرعبة التي جرت بحق الفلسطينيين والتي اعتاد سهيل الخلف أن يقول عنها :

– إنها فلم من أفلام الرعب من إخراج وزير الدفاع الإسرائيلي شارون لا المخرج هتشكوك!

ولم تمضِ سوى أسابيع – وبعد ملاحقة محمومة لمختلف الصحف ، ومتابعة نشرات الأخبار – حتى كان سهيل قد ألمّ بتفاصيل ما حدث ؛ فحدثني بخبر اجتماع شارون برئيس جهاز أمن قوات الكتائب إيلي حبيقه في (الكرنتينا) حيث اتفق الاثنان على ضرورة الإسراع بإدخال مجموعات من أفراد الأمن إلى المخيمين . وكان ثمة أفراد

شرعوا في التجمّع بالفعل في مطار بيروت الدولي وهم بكامل عدتهم . وما أن حلّ الليل حتى أخذ الإسرائيليون يلقون بالقنابل المضيئة فوق المخيم .

بدأت العملية بمنتهى السرية والتكتم ، ولم تكشف وسائل الاعلام أمرها إلا بعد مرور أيام : فليلة السادس عشر من أيلول أخذت آليات إسرائيلية تجوب الشوارع المحيطة بمخيمي (صبرا) و(شاتيلا) حاملة مسلحين مقنّعين ليؤمنوا الحماية لمسلحين آخرين توغلوا في أزقة المخيمين الضيقة مزودين بأسلحة كاتمة للصوت ، وبسكاكين ، وبلطات . وبدأت المذبحة مع اشتداد الظلام ، ولم تتكشف إلا بعد مرور ساعات ، وبعدما تمكن عدد المصابين من الفرار ليفضحوا الجريمة ، ولكن دون نتيجة ؛ فقد استمر القتل ثلاثة أيام متلاحقة!

خلال الساعات الأولى أجهزت الميليشيات الكتائبية على مئات الأشخاص : كانوا يحطّمون أبواب الصفيح ليذبحوا أفراد الأسر المتحلقة حول وجبات العشاء . كما ذبحوا الكثيرين من فقراء العمال النائمين في أسرّتهم بعد عودتهم من أعمالهم المرهقة . وكانوا يحطمون رؤوس الأطفال الرضّع بضربها بالجدران . كانوا يقتلون بالأسلحة البيضاء دون تمييز ؛ فقد كان المهم لديهم أن يجري كل شيء بصمت ودون ضجة ، وهكذا كان من جملة الضحايا فقراء مصريون وسوريون وإيرانيون وباكستانيون مع لبنانيين شاء لهم العوز السكن في محيط المخيم في منطقتي (الحرش) و(الحي الغربي) في حي (البعلبكية) قرب مستشفى عكا . كانت الميليشيات تجهز على كل من يتحرك في الأزقة مطمئنة إلى أن الآليات الإسرائيلية قد أغلقت مداخل المخيمين ، فجرى الذبح على قدم وساق حتى استحال ، فيما بعد ، حصر أعداد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الضحايا التي تراوحت بين المئات وثلاثة آلاف قتيل!

ذهلتُ لهول ما سمعت ؛ حتى أنني لا أتذكر كيف عدت يومذاك إلى البيت ، بيد أن ما لن أنساه تعثري بالعتبة لحظة فتحت لي مريم الباب وارتطام جبيني بالحائط القريب وسماعي صرخة مريم المحمّلة بكل معاني الرعب قبل أن يُغمى عليّ!

حينما أفقت من إغماءتي وجدتني ممدداً على إحدى أرائك (الديوخانة) معصوب الجبين ، وقد تحلّق حولي أبي وأمي ومريم وهم يسألونني بإلحاح عما بي؟

بعد أيام عمد التلفاز إلى عرض فلم تسجيلي عن مجزرة (صبرا) و(شتيلا) ؛ فحاولت دون جدوى حمل مريم على الامتناع عن رؤيته ؛ فقد رمتني بنظرة ضارية هتفتْ بعدها بازدراء وجسدها يرتجف انفعالاً :

- لا تخشَ على أعصابي من الانهيار ؛ فسبق لي أن رأيت مجازر مماثلة منحتني الحصانة اللازمة لرؤية المزيد منها!

بدأ الفلم بلقطات بعيدة للمخيّمين ترافقها موسيقى تصويرية غامضة على شكل طنين كان يزداد ارتفاعاً مع توغل الكاميرا في أزقة المخيم الضيقة لتحط بحركة (زوم) خاطفة على كتلة سوداء ضخمة سدّت مدخل أحد الأزقة ، ومعها ارتفع الطنين إلى أعلى درجة قبل أن يفضح مصدره ؛ إذ طارت ملايين الذباب على شكل سحابة كاشفة عن حقيقة تلك الكتلة ؛ فإذا بها جثة منفوخة تمّ التمثيل بها بسحبها ، بوساطة حبل عُقد أحد طرفيه حول ساقيها ، بضعة أمتار مخلّفة وراءها ، على الأرض ، أثرها الدامي . وواصلت الكاميرا تنقّلها إلى جثتين فثلاث فتلال من الجثث ملأت زقاقاً بأكمله ، وكانت سحب الذباب ، بموسيقاها التصويرية ، تطير مع اقتراب الكاميرا لتحط على

الجثث من جديد مواصلة بإلحاح مهمتها الأزلية .

على تلك الوتيرة تتابعت مئات الجثث تحت العدسة ، وهي تملأ الشوارع والأزقة راقدة أو معلّقة على أعمدة الكهرباء بوضعيات مختلفة : أطفال مرميون على الطرقات . نساء وفتيات تعرضن للاغتصاب وتركتْ أفخاذهن مفتوحة على مداها . رجال قطعت أعضاؤهم التناسلية ووضعت في أفواههم!

وأخذتِ الكاميرا تواصل تنقّلاتها ، هذه المرة ، بين تلك الجثث يصحبها صوت أحد الناجين من المذبحة (ماهر مرعي) ، وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره :

- (رأيت الجثث أمام الملجأ مربوطة بالحبال . لكنني لم أفهم ، عدت إلى البيت لأخبر أسرتي . لم يخطر في بالنا أنها مجزرة ؛ فنحن لم نسمع إطلاق رصاص . أذكر أني رأيت كواتم صوت مرمية قرب الجثث هنا وهناك ، ولكني لم أدرك سبب وجودها إلا بعد انتهاء المجزرة . بقينا في البيت ولم نهرب حتى بعد أن تنبهنا إلى أن شيئاً مريباً يحدث في المخيم . رفض والدي المغادرة بسبب جارة أتت للمبيت عندنا ، وكانت أول مرة تدخل بيتنا . زوجها خرج مع المقاتلين على متن إحدى البواخر ولم يكن لديها أحد ، فقال أبي لا يجوز أن نتركها ونرحل ، كان اسمها ليلى .

عندما دخل الصهاينة إلى بيروت الغربية كنا نعتقد أن أقصى ما يفعلونه بنا هو الاعتقال وتدمير بيوتنا ، كما فعلوا في صور وصيدا وباقي الأراضي التي احتلوها . أذكر أني ذهبت صباح يوم المجزرة - وكان يوم الخميس ١٦ أيلول - مع مجموعة كبيرة من النساء والأطفال لإحضار الخبز من منطقة الأوزاعي سيراً على الأقدام . كنا (مقطوعين)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من الخبز وليس لدينا ما نأكله . رفض أصحاب الأفران يومها أن يبيعونا . كان الخبز متوفراً وكانوا يبيعونه إلى اللبنانيين فقط مع أنه كان متوفراً بكثرة . عدنا إلى المخيم فلم نستطع الدخول ؛ إذ كانت الطرقات المؤدية إلى المخيم جميعها مقطوعة ، وكان الصهاينة يقنصون من السفارة الكويتية باتجاه مدخل المخيم الجنوبي . . . تمكّنا بعد ذلك من العودة إلى المخيم في المساء ، كانت القذائف المضيئة تملأ سماء المخيم . . . حينما أخبرت أبي عن الجثث ، طلب منا أن نلزم الهدوء وألا نصدر أي صوت . تتألف أسرتنا من اثني عشر شخصاً : ستة صبيان وأربع بنات وأبي وأمي . . . وكانت جارتنا ليلى عندنا . قرابة الفجر ، صعدتْ أختي إلى السطح مع ليلى كي تطمئن على بيتها ، كان النعاس قد غلبنا أنا وأبي إذ بقينا ساهرين ننصت إلى ما يجري في الخارج ونسكت أختي الصغيرة التي كانت تبكي من وقت إلى آخر . لم نشعر بصعود ليلى وأختي إلا عندما نزلتا . كانتا خائفتين ؛ فقد رآهما المسلحون . ما هي إلا لحظات حتى بدأنا نسمع طرقاً عنيفاً على الباب . عندما فتحنا لهم أخذوا يشتموننا وأخرجونا من البيت ووضعونا صفاً أمام الحائط يريدون قتلنا . أرادوا إبعاد ليلى إذ ظنوا أنها لبنانية لأنها شقراء ، وأبعدوا أختي الصغيرة معها لأنها شقراء هي الأخرى وظنوا أنها ابنة ليلى . رفضت ليلى تركنا . وأخذت أختي تصرخ وتمد يديها إلى أمي تريد (الذهاب) معها ، كان عمرها أقل من سنتين . . . طلبوا من والدي بطاقة هويته ، وما أن أدار ظهره ليحضرها حتى انهال الرصاص علينا جميعاً كالمطر ، لم أعرف كيف وصلت إلى المرحاض واختبأت فيه ، وفي طريقي إلى المرحاض وجدت أخي الصغير إسماعيل فأخذته معي وأقفلت فمه . رأيت من طرف باب المرحاض

كل أسرتي مرمية على الأرض ، ما عدا أختي الصغيرة ، كانت تصرخ وتحبو باتجاه أمي وأختي ، وما أن اندسّتْ بينهما حتى أطلقوا على رأسها الرصاص فتطاير دماغها وماتت .

إسماعيل وأنا لم نتحرك ؛ فقد لزمنا الصمت فترة . لم أعد أستطيع التنفس ، فحاولت بلع ريقي لاستعادة تنفسي ، وكنت متردداً في فعل ذلك ؛ إذ كنت - عادة - أصدر صوتاً عندما أبلع ريقي . وخفت أن يسمعوا الصوت ويأتوا لقتلي . وبالفعل عندما فعلت كان صوت البلع مسموعاً من شدة السكون الذي سيطر على البيت ، لكنهم لم يسمعوني ؛ فقد خرجوا بعد أن نفذوا جريمتهم . كان كل شيء ساكناً . أمسكت الباب كي لا يتحرك لأنه كان يصر - في العادة - صريراً . خفت أن يسمعوه فيعودوا ، ورحت أحركه ببطء شديد . . . وحينما تيقنت من خروجهم وعدم عودتهم خرجت من المرحاض وأبقيت إسماعيل فيه . بدأت أتفقد أسرتي ، والدتي تظاهرت بداية بالموت وكذلك أختاي نهاد وسعاد ، ظناً منهما أنني كتائبي . ولكن والدي وباقي أخوتي الخمسة وليلى كانوا جميعاً أمواتاً ، كانت أمي مصابة بعدة طلقات وكذلك نهاد وسعاد) .

وأعقبت نهاد أخاها ماهر في الكلام ، وهي في الخامسة عشر من عمرها ، وكانت تحمل أختها الصغيرة على يدها عندما بدأ المسلحون بإطلاق النار . تحدثت قائلة :

- (لا أعرف كيف سقطت أختي من يدي ، أصيبت بطلقة في رأسها ، وأنا أيضاً وقعت على الأرض . أخذتْ أختي تحبو وتفرفر باتجاه أمي وهي تصرخ : ماما . . . ماما . أطلقوا الرصاص على رأسها ، فسكتت على الفور . جارتنا ليلى كانت حاملاً . عندما أصيبت بدأ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الماء يتدفق من بطنها فماتت . تظاهرتُ بالموت . وبعد خروجهم بقليل بدأت أتفقد الجميع ؛ فهمست لي أمي : ارتمي وتظاهري بالموت قد يعودون . أجبتها : لا آبه ، فليعودوا! . . . عندها خرج ماهر وإسماعيل فيما بعد . كنت أظنهما ميتين . ما أن رأيت ماهر حتى ارتميت على الأرض ، فقال : لا تخافي أنا ماهر) .

والغريب أن مريم ، وهي تتابع تلك المشاهد ، كفّت عن البكاء لتراقب بعينين جافتين لا تطرفان ما يجري على الشاشة . وكان تعليقها الوحيد :

– لماذا يستمر ذبح الفلسطينيين على هذه الشاكلة منذ عشرات السنين؟ كنت أحسب أن مذابحهم انتهت بدير ياسين وكفر قاسم ؛ ولكن ها هي تلاحقهم من بلاد إلى أخرى ، ومن المؤكد أنها ستستمر في المستقبل!

في تلك الفترة بدأتْ أمي بتطوير حواراتها الغامضة معي مذكّرة إياي بأن مدة طويلة قد مرت على زواجي بمريم . حتى إذا ما أجبتها ، ذات يوم ، بأنني على معرفة بذلك انفجرت متسائلة :

– فما معنى ألا تحبل زوجتك حتى الآن؟

هدّأتها مهوناً عليها الأمر بقولي :

– صبرك يا أماه ؛ فنحن لسنا في عجلة من أمرنا ؛ فالعمر بأكمله لا يزال أمامنا .

فصاحت وقد فقدت السيطرة على نفسها :

– ولكننا ، أنا ووالدك ، على النقيض منكما ؛ نستعجل رؤية حفيدنا .

وأردفت وقد خفّضت صوتها :

– ألا ترى مدى تدهور صحة أبيك؟ لقد بدأ الضغط يشتدّ عليه مؤخراً حتى أنه يضطر أحياناً إلى أداء صلاته جالساً خوفاً من أن يسقط في موضعه بسبب شعوره بالدوار .

فتطلعت إليها حائراً ؛ إذ ما الذي أستطيع عمله والأمر خارج عن إرادتي؟ بيد أنها سارعت بإسعافي بقولها :

– أليست زوجتك متعلمة؟

وحين أومأت برأسي إيجاباً استطردت متسائلة :

– فما الضير من أن تراجع طبيبة نسائية مختصّة لتعرف سبب تأخر حملها حتى الآن؟

لم أجد ضيراً في اقتراحها ، بل إنني سارعت بمفاتحة مريم بالأمر ، وحينما رأيتها ترمقني بنظرة غضب سارعت أضيف بأرق نبرة ممكنة :

– أمي امرأة طاعنة في السن ، فما الضير من إرضائها بالاستجابة لطلبها هذا؟

بعد أيام مررت بـ(العلوة) ، وكنت قد عهدت بإدارتها إلى سهيل الخلف الذي تقبّل الأمر برحابة صدر بطبيعة الحال ؛ ففضلاً عن زيادة مرتبه الشهري كنت أعلم بأنه يؤمن بأنه أجدر العاملين في (العلوة) – بعد أبي – بالجلوس خلف ذلك المكتب العريض وفي متناول يده قاصة مملوءة بأكداس النقود والكومبيالات والسندات ؛ فهو أكثرنا إلماماً بكل صغيرة وكبيرة ، وهناك علاقات راسخة تربطه بالزبائن دون استثناء .

استقبلني واثباً عن الكرسي متنازلاً لي عنه ، تاركاً إياي أتمتع بالجلوس تحت لوحة (القناعة كنز لا يفنى) التي كان قد نقلها من غرفته السابقة . وبعدما صلصل بسلسلة مفاتيحه حرص على أن يطّلعني على دقائق مجريات العمل مستعيناً بسجلاته العتيدة التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كتب على غلاف كل واحد منها عنوانه بخط (الثلث) ، مردداً عبارة كانت قد دخلت قاموس كلماته آنذاك وهو يربت على صدره :

- اطمئن يا أستاذ ؛ فالأمور تجري في (العلوة) بفضل عمك سهيل مثل (ميل) الساعة .

قضيتُ بعض الوقت عنده مصغياً إليه وهو يحدثني عن آخر أخبار هذه الحرب التي تحرص الولايات المتحدة وإسرائيل على إطالتها أكثر ؛ ذلك لأن استمرارها في صالحهما دون شك .

عصراً عدت إلى البيت لأفاجأ بخلوه من أمي ومريم . وحينما مررت بأبي المضطجع على سريره في غرفته أخبرني بأنهما خرجتا منذ ساعات ، فطمأنته بدوري على سير العمل في (العلوة) ، ولم تمر سوى دقائق حتى دخلت الاثنتان البيت واحدة عقب الأخرى : في المقدمة مريم التي تخلصت من عباءتها بهزة من رأسها طاوية إياها على زندها لتمر بي عابسة ، وأعقبتها أمي بالدخول ووجها يطفح بشراً .

- اطمئن ؛ فقد أكدت الطبيبة أن الأمور تجري معها على ما يرام ، وحبلها مسألة وقت .

بشّرتني مبتسمة ، فسألتها عن سر عبوس مريم إذن ، فأجابتني ضاحكة :

- إنه دلع بنات يا ولدي .

وعلى مدى شهور متلاحقة دأبت الاثنتان على مراجعة طبيبات متعددات أخضعن مريم لأنواع الفحوصات والاختبارات التي كانت تخرج بنتيجة واحدة مفادها أن كل شيء على ما يرام ، فكانت أمي تنتظر شهراً أو شهرين قبل أن تقود مريم إلى طبيبة جديدة دون أن يردعها عن ذلك أن القصف بالصواريخ أخذ يطال بغداد نفسها بشكل

يومي ؛ فبات التجوال في الشوارع غاية في الخطر : فعلى أثر احتلال إيران شبه جزيرة الفاو ، أقصى جنوب العراق ، في شهر شباط صعّد العراق من قصفه للمدن الإيرانية مستعيناً بأكثر الأسلحة الحديثة تطوراً . وكانت إيران قد بدأت ، منذ شهر آب ، بتصعيد هجماتها على ناقلات النفط الكويتية مسبّبة بذلك في تدويل الحرب ، فردّ العراق عليها باستخدام الطائرات الفرنسية (سوبر أتندار) حاملة الصواريخ البحرية (أكزوزيت) ، ووجدت أمريكا الفرصة سانحة للتدخل بحجة حماية الناقلات ، فرفعت علمها عليها .

وسط تلك الأجواء المحتدمة جفلتُ ، ذات ليلة ، على صياح أمي ومريم يتصاعد من الأسفل ، فسارعت بهبوط درجات السلم عدواً وفي ظني أن مكروهاً أصاب أبي ، لكنني لدهشتي رأيت الاثنتين في المطبخ تتصايحان ، وقد تلازمتا بالأيدي متنازعتين على شيء ما كانت مريم تحرص على الاحتفاظ به وهي تصرخ بأمي :

- دعيني وشأني ، لا يحقّ لك التدخل في هذا الأمر!

- كيف لا يحقّ لي التدخل والأمر لا يتعلق بك وحدك بل بابني أيضاً؟!

ونجحتْ أمي بانتزاع ذلك الشيء من مريم فهرعت به إليّ لتدسه في كفي وهي تصيح لاهثة :

- تفضل . . . انظر إلى ما كانت تتعاطاه (الخاتون) في الوقت الذي لم تبقَ طبيبة في بغداد لم نراجعها تحت قصف الصواريخ!

كان ما وضعته أمي في كفي شريط حبات صغيرة الحجم بقيت أتأمله دون أن أفقه شيئاً ، في حين ظلت مريم تكرر أنها حرة ، تتصرف في هذا الأمر كما تشاء .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لقد كانت تتعاطى حبوب منع الحمل في الوقت الذي كانت تخدعني فيه بمرافقتي من طبيبة إلى أخرى!

تابعتْ أمي موضحة ، فصاحت مريم وقد خرجت عن طورها :

- لا شأن لكِ بذلك . . . بل لا شأن لك أنتَ الآخر بذلك . . لا أريد أن أحبل . . أتسمعان؟ لا أريد أن أحبل!

وأردفتْ وقد انخرطت في البكاء ، فأخذت تتنقل بعينيها الساطعتين بيني وبين أمي :

- لا أريد أن أقدّم لكم ضحية أخرى ستنحر في حرب لاحقة . . . لا رغبة لي بابن سيتحول يوماً ما إلى جثة منتفخة تحوم حولها أسراب الذباب!

- ما الذي يجري في البيت؟ ما سبب هذه الضجة التي تثيرانها في مثل هذا الوقت من الليل؟!

تنبهنا لصوت أبي ؛ فالتفت لأراه قادماً من غرفته وهو يستند إلى الحيطان . وعلى الفور هدأت المرأتان ، فانسحبت مريم من المطبخ منكسة الرأس ، في حين هرعت أمي نحو أبي لتعود به إلى غرفته وهي تهمس له مهدئة إياه .

لم أعاتب مريم على ما بدر منها ، بل عذرتها مع نفسي إدراكاً مني لعمق معاناتها ؛ ففظاعة الحرب لم تتوقف على ما يجري عندنا ؛ بل امتدّتْ منذ شهور لتعصف مجدداً بوطنها فلسطين : فعلى أثر دهس شاحنة إسرائيلية لأربعة عمال من مخيّم (جباليا) ، مساء الثامن من كانون الأول ، هاجمت الجماهير الغاضبة مواقع الجيش داخل المخيم لتواصل هجماتها على امتداد الأيام اللاحقة . وأنضمّ إليها العمال ، وربات البيوت ، والشباب ، متحولة بذلك إلى انتفاضة كان أغلب

ضحاياها من الأطفال ؛ فمع كل حجر يرمي به هؤلاء الأطفال جنود الاحتلال كانوا يتلقون عليه زخات رصاص ؛ فيسقط العشرات منهم ضحايا!

وكانت مريم تعلّق بمرارة كلما طرق سمعها نبأ جديد عن الانتفاضة :

– لقد ضرب الفلسطينيون أرقاماً قياسية بعدد الانتفاضات التي خاضوها ليس منذ النكبة فقط ، بل قبل ذلك بكثير!

وفي بغداد أُعلن عن وقف إطلاق النار مع إيران ؛ وبذلك انتهت تلك الحرب الطويلة ، لكنني فوجئتُ بسهيل الخلف يدلي بأغرب (تصريح) :

– هل تصدق أن الولايات المتحدة ستسكت عما جرى؟

– ولمَ لا تسكت وهي التي سعت إلى انهاء هذه الحرب بنفسها بعدما امتدت على مدى ثماني سنوات توجت بتهديد مصالحها النفطية؟

سألته بحنق وأنا أتأمله في جلسته الواثقة خلف منضدته وقد غزت التجاعيد وجهه فابيضّ ليس شعر رأسه فحسب ؛ بل دب المشيب حتى في حاجبيه السميكين وفي شعر صدره الغزير الذي تنفر خصل منه أحياناً من بين أزرار قميصه برغم حرصه على تحسس تلك الأزرار بحركة تلقائية دون أن ينسى تلمّس ربطة عنقه الملازمة له صيفاً وشتاء!

– أبداً ؛ لن تغفر أمريكا للعراق خروجه منتصراً وبجيش قوامه أكثر من مليون مقاتل خبر القتال عملياً وهو على مرمى حجر من إسرائيل!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجابني بحسم ليهملني بعدها وقد انصرف إلى سجلاته البائسة منهياً بذلك جداله معي!

والحق أنني لم أفكر يوماً ما بفتح هذا الموضوع معه وذلك لمعرفتي الجيدة به بعد مرور كل هذه الأعوام . لكنني لم أغفر له التزامه الصمت المطبق وسط ضجة تلك الفرحة العارمة التي اجتاحت الشوارع كلها واستمرت أياماً وليالي منذ ليلة إعلان إيران موافقتها على وقف اطلاق النار!

كنت أعرف أنه ضد هذه الفرحة المبالغ بها بسبب طبيعته المتحفّظة ، أما أن يفاجئني بذلك الكلام غير المتوقع فهو أمر أخرجني عن طوري بعض الشيء ؛ فنهضت لأغادر غرفته مكتفياً بأن علّقت بمكر :

– يبدو أننا سنبقى أسرى نظرية المؤامرة إلى الأبد!

– (إن غداً لناظره قريب)!

ردد ذلك المثل بصوت مسموم ؛ فحسمت أمري على أن أمتنع عن الدخول معه في جدال على هذه الشاكلة!!

وبرغم أن فرحتنا كانت كبيرة بانتهاء الحرب إلا أن الأجواء السياسية سرعان ما أخذت بالتلبد خلال الشهور اللاحقة منبئة بأن الأمور لا تسير على ما يرام . وكان سهيل الخلف قد طفق ينذرني ، كلما التقيته ، بأن طبخة ما تعد على نار هادئة لتوريط العراق بمحنة جديدة . وحينما كنت اسأله باستياء – وكأنه المسؤول عن إعداد تلك الطبخة! – إنْ لم تكفنا الطبخات التي تذوقناها حتى الآن؟ كان يطمئنني أنه يعدّ نفسه لما سيحدث بعدم الاكتفاء بملء (العلوة) بالبضائع اللازمة فحسب ، بل ملء غرف الطابق العلوي والمخازن التابعة

لنا والمنتشرة في أكثر من خان من خانات الشورجة ، فكان استيائي منه يتحول إلى غضب حقيقي كان يجعلني أنفجر به صارخاً :

- أتريد أن تجنني يا رجل؟ ما علاقة تلك الطبخة المزعومة بملء العلوة والمخازن بالبضائع؟

إلا أنه كان يصرّ على ترديد جملته الجديدة من أن الأمور تجري ، بفضل إدارته ، (مثل ميل الساعة) ، فكنت أتأمله حائراً وقد داخلني الشك في سلامة قواه العقلية ، فأتركه لأعود إلى البيت مطمئناً أبي كالعادة على أن الأمور تسير على ما يرام .

وسط ذلك الجو المشحون بالقلق حدث ما كنت أخشى وقوعه : فعصر ذات يوم ، والشمس الغاربة تصبغ بآخر أشعتها أغصان السدرة ، حيث عشرات العصافير كانت تضجٍ مزقزقة وهي تودع النهار الراحل ، تابعتُ أبي بعيني وهو ينتهي متثاقلاً من وضوئه ليدخل إحدى الغرف وقد تأبط سجادة صلاته الصغيرة . ولم تكد تمر لحظات حتى جفلت على ارتطام شيء ثقيل بالأرض ، فهرولت داخلاً تلك الغرفة لأرى أبي ممدداً على سجادته المفروشة في اتجاه (القِبلة) وهو يجود بآخر أنفاسه!

صرخت منادياً أمي فهرعت داخلة في أعقابي ، وهي تصيح متسائلة ، عما حصل؟ وقدمت مريم راكضة لتشرع ، من فورها ، في نحيب صادق يقطع نياط القلب . وأذهلني ما حصل حتى أنني عجزت عن التصرف بالطريقة الملائمة ؛ فأخذت أتلمّس بأصابع راجفة ما حولي كالأعمى كأنني أبحث عن شيء ما أضعته!

كنت حزيناً ، أتذوق مرارة اليتم ، وأنا في الأربعين من عمري ، أكرر في سري أن ما كنت أخشاه قد حصل ، فلا مفر إذن من الاستسلام للأمر الواقع .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد خففت هذه الفكرة عني كثيراً ومنحتني القوة اللازمة للإسراع بالقيام باتصالات هاتفية بشقيقي وببعض التجار لإبلاغهم بالنبأ . وتذكرت ، على حين غرة ، الحاج ذياب رؤوف وهلال أبو خمرة ؛ ترى ألا يزالان على قيد الحياة؟ لقد انقضت أعوام على آخر مرة التقيتهما في (العلوة) ، ولعلهما ماتا شأنهما شأن يحيى القبنچي المسكين الذي لم أعلم بموته إلا بعد مرور شهور .

وكان من الضروري أيضاً الاتصال بسهيل الخلف ؛ فهو وحده الكفيل بالقيام بالاجراءات اللازمة على أحسن وجه : وذلك ما حصل ؛ فقد سارع هذا الرجل الستيني الذي أمسى ، بعد أربعين عاماً من العمل في (العلوة) ، أشبه بواحد من أفراد الأسرة ، سارع إلى إنجاز الأمور كلها بما فيها نصب (سرادق) مجلس الفاتحة في الزقاق حيث ارتفع صوت المقرئ (عبد الباسط عبد الصمد) يرتل آيات من القرآن ، فأخذ الجيران ، على أثرها ، بالتوافد إلى تلك الخيمة لقراءة سورة الفاتحة قبل تذوّق مرارة القهوة .

كان الرجال يقدمون بوجوه واجمة ليتوزعوا على صفي الكراسي المتقابلين . وبعدما يقومون بالواجب يغادرون مفسحين المجال لغيرهم في طقس مأتمي مارسوه طويلاً على مدى ثماني سنوات نكّب أغلبهم خلالها بفقد عزيز له في الحرب .

وقدم وليد الذي لم أكد أتعرّف إليه ؛ فعلى غير مألوف عادته كان يرتدي بزة متواضعة ودون ربطة عنق ، وكان قد أطلق لحيته ، وثمة مسبحة طويلة سوداء لا تغادر يمناه وهو يداعب حباتها مستغفراً الله!

– ستبقى كما عهدتك : تواكب أحدث التقليعات وآخرها الإسلامية كما يبدو!

قلتها متهكماً ، فكرر استغفاره بصوت مرتفع ليردد بعدها الآية القرآنية :

- (كل من عليها فان) .

وفاجأني بسؤال غير متوقع :

- أعلمت بمصير صديقنا قاسم؟

- وكيف لي أن أعرف وهو الذي كان يتكتم على عنوانه وكأنه من أسرار الدولة العليا؟

سألته لأضيف قائلاً إن آخر عهدي به كان مع خبر إلقاء القبض عليه لحظة مغادرته (العلوة) وسوقه إلى أحد قطاعات الجيش الشعبي ، فعاد يسألني :

- وصفية التي كان يبكيها بدموع غزيزة كلما ثمل ، أعرفت من تكون؟

أزعجتني طريقته (الوعظية) في إلقاء أسئلته ، لكنني لم أملك إلا الإصغاء إليه وقد أثار فضولي .

- لقد اتصلت بي صفية هذه معتذرة لاضطرارها القيام بذلك لكون رقم هاتفي كان الوحيد الذي يحتفظ به زوجها قاسم!

- زوجها من؟

سألته خوفاً من أن يكون سمعي قد خدعني ، لكنه عاد وأكد الأمر ، موضحاً أن صفية وقاسم أبناء عم ، وأنهما من سكنة مدينة (الثورة) ، وقد زوّجهما والداهما وهما في مقتبل العمر ؛ فأبتليا بمجموعة أطفال متخلفين عقلياً!

- أيكون ذلك سبب تكتمه على مسألة زواجه؟

عدت أسأله ، لكنه مضى يحدثني عن مأساة صفية التي فجعت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بزوجها في إحدى المعارك الأخيرة مع إيران ، فقاطعته صارخاً وقد نسيت نفسي :

– قاسم استشهد؟

– تلك هي المسألة ؛ فمأساة صفية أن زوجها لا يُعرف مصيره : أاستشهد؟ أم أسر؟ أم فُقد؟ لقد صارحتني بأنها تعوّل عليّ في معرفة ما جرى له عسى أن يكون قد استشهد ؛ لأنها حينها ستتلقى مكافأة من الدولة تستعين بها على (سد) أفواه أطفالها المعاقين ، أما أن يبقى مصيره مجهولاً فهذا ما لا يرضاه الله!!

وعاد وليد يستغفر الله بصوت مسموع .

وكان ما يضاعف من وطأة الحزن ذلك الشعور الجماعي بقرب وقوع كارثة جديدة لن تعود الحياة بعدها تمضي على وتيرتها المعهودة ؛ فعلى مدى السنة والأشهر الثمانية التي مرّت على انتهاء الحرب مع إيران لاحت في أفق حياتنا نذر تنبئ بما سيحصل من شر مستطير قد يكون أشد هولاً مما حصل حتى الآن .

وكان سهيل الخلف لا يكف عن تكرار قوله إنه موقن من أن حرباً جديدة ستنشب لا محالة . وحينما كان يجابه بسؤال مستفز عن مصدر يقينه هذا؟ كان يرجئ الإجابة دقائق يقوم خلالها بجولة في الخيمة وما جاورها ليطمئن على أن الأمور – توزيع القهوة والشاي والماء والسجائر – تسير على ما يرام يعود بعدها ليتخذ مجلسه وسطنا قبل أن يجيب :

– وما مسوغ البحث عن مصدر اليقين والدلائل كلها تشير إلى أن الولايات المتحدة الأميركية . . .

ويخفض صوته ليتابع مكرراً حجته ، وهو يتلفت بعينين مذعورتين إلى جميع الاتجاهات :

- . . . لن تسمح للعراق ، وهو على مرمى حجر من إسرائيل ، بالخروج من هذه الحرب محتفظاً بجيش جبار قوامه مليون جندي خبر القتال عملياً على مدى ثمانية أعوام بنهاراتها ولياليها؟!

ويضيف موضحاً تصوّره بكون أمريكا باتت القطب الوحيد الذي أخذ يتحكّم بالعالم بعد انتهاء الحرب الباردة ؛ فعلى أثر تبنّي الرئيس السوفيتي (غورباشوف) لسياسة (البيروسترويكا)(١) أخذت الأنظمة الاشتراكية بالتفكك لتنهار تباعاً مثلما انهار سور برلين ، فلم تعد أمام أمريكا قوة تخشاها .

- أنا موقن من أن حرباً جديدة ستنشب في المنطقة قريباً . . . بل قريباً جداً .

وكان يعود ليكرر جملته مذكياً حمى الحوار بين الجالسين ؛ إذ إنهم كانوا يتبارون بتعداد الشواهد التي تؤيد ما يذهب إليه الرجل : مثل التهديدات التي أطلقها رئيس أركان الجيش الإسرائيلي (باراك) ومفادها أن حكومته جاهزة لتوجيه ضربة وقائية ضد العراق في أي وقت تشعر فيه أن قواتها في خطر ، ليعقبه رئيس الوزراء (شامير) بالقول إن بلاده سوف تهاجم العراق إن أحسّتْ بأنه اقترب من إنتاج أسلحة نووية ، وهكذا سارع رئيس جمهورية العراق صدام حسين

---

(١) البيروسترويكا : مصطلح أطلق على السياسة التي اتبعها آخر رؤساء الإتحاد السوفييتي (غورباتشوف) وتلخصت بالانفتاح والتغيير من أجل إخراج بلاده من النظام الشيوعي وعصرنتها وصولاً إلى تغيير النظام الشمولي الذي كان يحسب أنه سبب تأخر الاتحاد السوفييتي ومعاناته .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالتهديد بأنه سيحرق نصف إسرائيل إن استخدمت الأسلحة غير التقليدية ضد العرب!

وكان سهيل الخلف يستمد من هذه الشواهد الحماسة اللازمة للمضي في كلامه :

- ثم لا تنسوا أن هذه الأمور جرت على خلفيّة إعدام الجاسوس البريطاني من أصول إيرانية (بازوفت)[1] فضلاً عما أشيع عن المدفع العملاق ، دون أن ننسى استمرار الانتفاضة الفلسطينية التي ضاقت إسرائيل بها ذرعاً ؛ لأن مجابهتها المفرطة في قسوتها طالتْ أكثر مما ينبغي ضد أطفال عزّل سلاحهم الوحيد لا يتخطى الحجارة!

عقب انتهاء مجلس الفاتحة دأبتُ على التوجه إلى (العلوة) لألتقي شقيقي الذي كان يقدم بدوره إلى هناك لغرض تصفية التركة المشتركة بيننا . وكان من رأي سهيل الخلف أن الوقت غير ملائم للقيام بهذه الخطوة ؛ فحالة السوق غير مستقرة ، وأسعار السلع آخذة بالتصاعد ولا سيما بعد إصدار لجنة العلاقات الخاصة في مجلس الشيوخ الأمريكي قراراً بفرض العقوبات التجارية والاقتصادية على العراق بسبب انتهاكه حقوق الإنسان . واقترح علينا إرجاء الأمر بعض الوقت في انتظار أن تتحسن الأمور بعدما تنفرج الأزمة ، وذلك ما لم يحصل في واقع الحال ؛ فقد استمرت الأمور في التردي ، وأصبح العراق يتهم

---

(١) بازوفت : صحفي بريطاني من أصل إيراني ألقت السلطات العراقية القبض عليه بتهمة التجسس لصالح إيران ، وقد حوكم وصدر عليه الحكم بالإعدام ونفذ فيه برغم الاعتراضات التي أبدتها بعض الدول .

علناً الكويت ودولة الإمارات بأنهما تحاربانه اقتصادياً بسبب إغراقهما السوق النفطية بكميات تتخطى حصتيهما المقررتين من قبل (الأوبك) سعياً منهما لتخفيض سعر النفط أكثر في وقت يحتاج العراق فيه إلى الدولار الواحد بعد خروجه من تلك الحرب الطويلة .

في تلك الفترة شرعت قوات مختارة من الجيش العراقي بالتحشد على الحدود الكويتية ، ومعها شاع خبر قرار العراق والكويت إرسال وفدين إلى (جدة) للاجتماع على أمل معالجة الأمر ، فتجددت الآمال بقرب انفراج الأزمة ، بيد أن سهيل الخلف فاجأني ذات يوم ، حين مررت به في (العلوة) ، بقوله إن ذلك الاجتماع فشل وإن آخر الأخبار التي سمعها من إذاعة لندن أكدت أن أحدث الصور التي أرسلتها الأقمار الصناعية أظهرت أن القوات العراقية غيّرتْ مواقعها ، وأن الدبابات تقدمت إلى خط الحدود ، وأن المدفعية أضحت وراء المدرعات دلالة أن الأمر النهائي بالهجوم اتخذ ، وأن ساعة الصفر أصبحت معروفة ؛ فمرّتْ بي ليلتان لم يغمض لي فيهما جفن إلا على صوت المؤذن وهو يؤذن لصلاة الفجر . وكان ما يفاقم أرقي أنني كنت انتبه أحياناً إلى مريم وهي تتقلّب بجانبي على سريرنا المشترك ناشجة ؛ فكنتُ أسارع إلى إيقاظها لأسألها ، وأنا أناولها كأس ماء ، عما يبكيها؟ فكانت تخبرني ، ودموعها تواصل انحدارها ، أنها حلمت بأمها أو أبيها أو أحد أفراد أسرتها وهم في بيتهم في حارة (سرايا الست) في القدس القديمة حيث كانت تستغيث بهم دون أن يولوها أدنى اهتمام ؛ ذلك لأنهم يكونون منشغلين عادة بترصّد الطائرات الإسرائيلية المغيرة وهي تطير على ارتفاع منخفض مخترقة حاجز الصوت!

لم تكد تمر أيام حتى صعقت على ذلك النبأ غير المعقول والذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تناقلته وكالات الأنباء عن احتلال الجيش العراقي الكويت في ٢ آب ١٩٩٠!!

منذ ذلك اليوم المشؤوم وسهيل الخلف لا يكفّ عن (إتحافي) بأكثر توقعاته سوداوية وبعثاً على اليأس ؛ فكلما التقيته في (العلوة) أهاب بأحد الحمالين ليسارع بالتوجه إلى المقهى القريب ليوصي صاحبه بجلب الشاي يبادرني بعدها بقوله إن العد التنازلي قد بدأ ، وإن الأرقام الحمر أخذت بالتراجع لتنتهي بالصفر حيث القنبلة ستنفجر ليغطي اللون الأحمر وحده الشاشة! . . . وكأي ملمّ بتقنية الأفلام البوليسية يذكّرني باللقطة التي تبدأ بها غالبية تلك الأفلام : حيث تظهر ، على الشاشة ، كف غارقة في قفّاز وهي تزرع القنبلة في المكان المنشود لتنسحب بعدما تكون قد كبست الزر لتشرع الأرقام الحمر عدّها التنازلي ؛ إذ سيكون في وسع المخرج الانتقال إلى لقطات أخرى لغرض الإلمام بأطراف القصة دون أن ينسى شحذ تشويق المشاهد بطرق وأساليب متعددة كأن يكتشف البطل القنبلة ، فيقف إزاءها حائراً وهو متردد بين سلكين بلونين مختلفين ؛ ذلك لأنه لا بد له من المجازفة بقطع أحدهما ليحول دون حصول الانفجار!

وهنا يكون سهيل الخلف قد وصل إلى جوهر المسألة ؛ فيستدرك بحرقة :

– ومشكلة قنبلتنا أنها ليست بسلكين كقنابل تلك الأفلام ؛ ذلك لوجود عدد لا يحصى من الأسلاك : فهناك سلك (تحرير الكويت) ، وسلك (حماية السعودية) ، وسلك (الحفاظ على أمن إسرائيل) ، وسلك (مصالح أمريكا الاستراتيجية) ، وسلك (أسلحة الدمار الشامل) ، وسلك (حقوق الإنسان) ، وسلك (تحقيق الديمقراطية) . . .

وفي وسعك أن تضيف ما تشاء من أسلاك ما دام الأمر سينتهي بتفجير تلك القنبلة ، إذ اللون الأحمر سيغطي الشاشة في النهاية!

على تلك الوتيرة كان سهيل الخلف يبدأ أحاديثه ، ويكون صاحب المقهى ، في أثناء ذلك ، قد جلب لنا الشاي ؛ فيواصل سهيل كلامه على وقع رنين الملعقة وهو يديرها في إستكان الشاي ليعقبه برشفاته الصاخبة معدداً الأحداث التي يستشفّ منها أن تلك الأرقام الحمر قد بدأت فعلاً تراجعها نحو لحظة الانفجار : فأمريكا تبدو في عجلة من أمرها تتحرّق لهفة للقيام بهذه المهمة ؛ فقد جنّدت كل ما تملك من نفوذ هائل في عالم أضحتْ فيه القطب الوحيد لتدفع مجلس الأمن إلى إصدار القرار٦٦٠ – وبعد ساعات من احتلال الكويت! – داعية من خلاله إلى الانسحاب الفوري للقوات العراقية لتعمد في اليوم التالي – وبمؤازرة بريطانيا – إلى تجميد أرصدة وأموال العراق والكويت لديها ، إذ سرعان ما اقتدت بها ألمانيا واليابان ، كما أن وزير خارجيتها هرع إلى لقاء نظيره السوفيتي في الرابع من آب ليصدر معه بياناً مشتركاً يعلنان فيه وقف تجهيز الأسلحة للعراق ، حتى إذا ما مرّ يومان توّجتْ ضغطها على مجلس الأمن بصدور قرار بمقاطعة تجارية ومالية شاملة ضد العراق ، ليسارع الرئيس (بوش) في اليوم التالي إلى إصدار أمر بالإرسال الفوري للقوات الأمريكية إلى السعودية لحمايتها من هجوم عراقي محتمل!

وبعدما يجهز سهيل الخلف على آخر قطرة من شايه يعود إلى تكرار لازمته المقيتة عن الأرقام المتراجعة والقنبلة الموشكة على الانفجار غير مدرك أنه أصابني بعدوى القلق ، وأنني لن أستطيع أن أمنع أرقامه اللعينة من مواصلة عدّها التنازلي داخل رأسي وأنا أتجول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في شوارع بغداد حيث الدلائل كلها تنبئ بصحة ما يقول : فها أنا أصادف ، من حين إلى آخر ، تلك السيارات الفارهة المحمّلة بالحقائب ، والتي تحمل أرقاماً كويتية ، وهي تجتاز الشوارع ، وثمّة وجوه جهمة تطلّ من خلف زجاج نوافذها رامقة كل ما يلوح لها بنظرات عابسة ، كما أنني أصادف ، على نواصي الشوارع والساحات ، حشود الناس وقد تحلّقوا حول عمال باكستانيين وسريلانكيين ومصريين افترشوا الأرض عارضين ما حملوه معهم من الكويت من أغطية وأجهزة كهربائية يابانية المنشأ ، للبيع بأسعار زهيدة وهم في عجلة من أمرهم للتوجّه إلى العاصمة الأردنية عمّان ليعودوا من هناك إلى بلدانهم .

بل إن الأرقام عينها كانت تطالعني في البيت وأنا أرى أمي العجوز تتحامل على نفسها وقد شمّرت عن ساعديها للتعامل مع الكميات الكبيرة من البامياء والباذنجان والطماطة التي جلبت من السوق لتجفيفها أو عصرها لتصبح زاداً للأيام العجاف القادمة . وكانت مريم منصرفة إلى تخزين الطحين والرز والسكر والشاي ، فضلاً عن النفط ، وقناني الغاز السائل ، دون أن تنسى تثبيت الأشرطة اللاصقة على زجاجات النوافذ وعلى واجهة خزانة كتب أبي القديمة وواجهة خزانة جديدة تطلّ من خلفها تحفياتها الموزّعة بين أقداح كريستال وشمعدانات نحاسية وفناجين قهوة .

كان كل ما يجري حولي يبرهن على أن قنبلة سهيل الخلف موشكة على الانفجار ولا يمنعها عن ذلك إلا حصول معجزة كأن تتفق الدول العربية ، في مؤتمر القمة الموشك على الانعقاد ، على تلافي الكارثة بشكل من الأشكال .

لقد أنعش هذا الاحتمال آمالي ودفع بي إلى الإسراع بشراء

بطاريات جديدة للمذياع الصغير الذي أخذت أحمله أينما تحركت في البيت بين (الديوخانة) والإيوان ومكتبتي وغرفة نومي ، ألصقه بأذني حرصاً مني على متابعة آخر الأخبار ، مجيباً على استفسارات مريم بأن كل شيء بات الآن مرهوناً بعقد مؤتمر القمة .

في العاشر من آب ، يوم الجمعة ، انعقد المؤتمر في القاهرة ؛ ولم تمضِ سوى ساعات حتى أخذت الأرقام الحمر تسرع في تراجعها نحو الكارثة ؛ فقد كشف ذلك المؤتمر أن أغلب هؤلاء الملوك والرؤساء لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وأنهم ملزمون بالسير على النهج الأمريكي في معالجة هذه المعضلة!

يومها فكرت ، في سورة غضب ، بضرورة التخلص من هذا القلق كله وذلك بتحطيم ذلك المذياع ، بيد أنني سرعان ما تداركت الأمر ليقيني أنني ، في حالة حصول ذلك ، سأكون ملزماً بالمرابطة أمام شاشة التلفاز لملاحقة آخر المستجدات ، وذلك هو ضرب من غباء ؛ فمحطة بغداد كانت ، كدأبها ، حريصة على اتباع طريقة النعامة في التعامل مع الواقع ؛ فعوضاً من أن يدرك المشرفون عليها حجم الكارثة الوشيكة انشغلوا بملاحقة آخر أخبار العاملين بعقود والزوار الغربيين الذين تقرر ألا يسمح لهم بمغادرة العراق لغرض جعلهم دروعاً بشرية لحماية بعض المنشآت الحيوية التي ستكون في طليعة الأهداف المرشحة للقصف .

في الثلاثين من تشرين الثاني صدر قرار مجلس الأمن رقم ٦٧٨ تحت بند الفصل السابع والذي أباح للأمم المتحدة استعمال القوة ضد العراق بعد مهلة أمدها خمسة وأربعون يوماً . لحظتها ، وأنا أسمع بذلك الخبر المشؤوم ، لم أملك إلا أن أطفئ المذياع وألقي به على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطاولة ؛ فكفّت أمي ومريم عن متابعة شاشة التلفاز ، واستدارتا نحوي فاغرتي الفم وقد أدركتا أن أمراً جللاً قد حصل .

– الحرب واقعة لا محالة بعد مرور ستة أسابيع!

أعلنتُ وأنا أغلي غضباً ، فتطلعت أمي نحوي بهلع ، في حين قالت مريم بعدما أنهت العدّ على أصابعها :

– معنى ذلك أنهم سيهاجمون في السادس عشر أو السابع عشر من كانون الثاني من السنة القادمة .

فاستدارت أمي نحوها لتخاطبها بغضب مفاجئ :

– لم أكن أعرف أنك تحسنين العدّ على هذه الشاكلة!

فلم تحر مريم جواباً وقد فوجئت بذلك الهجوم غير المتوقع ، إنما بقيت ترمقها بنظرة متسائلة ، فتابعت أمي قائلة :

– . . . ذلك لأن سنوات مرت على زواجك فاتك عدها!

– ألا ترين أن الوقت غير ملائم لهذا الكلام يا عمة؟

تساءلت مريم متألمة ، فأجابتها أمي ثائرة :

– أوَ تظنين أن الوقت سيكون أكثر ملائمة بعد مرور خمسة وأربعين يوماً؟ لا . . . لقد فات الأوان بعدما ضيّعتِ على نفسك وعلينا أفضل سنوات زواجك دون أن تحققي أول شيء تسعى المرأة إلى تحقيقه ألا وهو الإنجاب!

فتساءلت مريم بيأس :

– وما جدوى هذا الإنجاب ما دامت حياتنا جميعاً باتت مهددة بالفناء بعد أسابيع؟

بعد مرور أيام زادت أجواء البيت توتراً ؛ فقد قدم شقيقي بأسرته ليكتسح حشد من أولاد وبنات بأعمار مختلفة مرافق البيت بطابقيه ؛

فأرائك (الديوخانة) شغلها جمع مراهقين ومراهقات لا عمل لهم إلا العبث بكل شيء : تشغيل التلفاز وإطفاؤه ، فتح بابي الخزانتين والعبث بمحتوياتهما محاولين اقتلاع الأشرطة الملصقة على الزجاج ، متبادلين ، في أثناء ذلك ، لكمات مصحوبة بلعنات مكتومة دون أن يخشوا أن تردعهم أمهم المنشغلة بإرضاع طفلها الصغير الذي كان الوحيد الذي لم يشارك في تلك الحملة!

وكان دويّ خطى الصغار ، الذين احتلوا الطابق العلوي ، لا يكفّ عن تردده من خلال السقف كالزلزال وهم يطاردون بعضهم بعضاً ، وحتى شجرة السدر لم تنج من تلك الهجمة ؛ فقد تسلق أغصانها أكثر من واحد منهم باحثين عبثاً عن الثمار التي لم يكن موسم نضجها قد حلّ ، فاستعاضوا عن تلك الخيبة بالقفز كالقرود من غصن إلى آخر مطاردين العصافير ومخربين ما يصادفونه في طريقهم من أعشاش .

ظهراً ، وبعد الانتهاء من تناول الغداء بسلام ، أفصح شقيقي عن الغرض من القيام بزيارته ؛ فبعدما تهالك على أريكته وعمد إلى إرخاء حزام بنطاله أوقد سيجارة ليعلن وهو يرتشف الشاي تارة ويعب الدخان طوراً :

– يشاع أنه قد يتم اللجوء إلى استعمال الأسلحة الكيماوية عند نشوب الحرب!

وعلى الفور تجمّدت أمي ومريم على أريكتيهما مصعوقتين ، في حين تابع شقيقي بعدما طلب من مريم إضافة ملعقة سكر أخرى إلى شايه :

– . . . وفي حال حصول ذلك سننفق في بيوتنا كالجرذان في جحورها ؛ ذلك لأنه لم يخطر للجهات المختصة تزويدنا بالأقنعة الواقية من الغازات شأن الدول المتحضّرة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- والحل؟

تساءلت مريم وهي تبادلني النظر ، فأجابها شقيقي وهو يناولها الإستكان الفارغ طالباً منها ملأه ثانية :

- الحل واضح : الابتعاد عن بغداد بالذهاب إلى إحدى المدن البعيدة . . . الكوت مثلاً . . . بل الأفضل التوجه إلى بدرة ؛ فلدينا هناك أكثر من قريب . . . تصوروا! . . . من كان يصدّق أن هذه المدينة الحدودية التي كانت تمطرها القنابل في الحرب مع إيران ستصبح في الحرب القادمة ملجأ أميناً للنازحين؟

لم أبدِ اعتراضاً على الفكرة شريطة ألا تشملني أنا ؛ فقد قررت البقاء في بغداد مهما حصل ، فاتفقنا على أن يتمّ السفر إلى مدينة بدرة قبل انتهاء موعد الإنذار النهائي بيومين أو ثلاثة . ونصح شقيقي أمي ومريم بضرورة تهيئة الكثير من الأغطية الثقيلة ؛ ذلك لأن الموسم سيكون شديد البرودة آنذاك . واستدرك وهو يلتفت نحوي :

- كما يفترض بنا أن نذهب إلى هناك محمّلين بكميات مناسبة من الطحين والرز والسكر والشاي والبقول وما أشبه ؛ فمن المؤكد أن بيت قريبنا سيغصّ بعشرات غيرنا من الأقرباء .

هنا مربط الفرس إذن ؛ فشقيقي يريدها رحلة استجمام سياحية من الدرجة الأولى وبأقل خسارة ممكنة! . . أجبته مطمئناً :

- تستطيع أن تقدم إلى (العلوة) للتزود بما تشاء لهذه الرحلة ؛ فهذا حقك المطلق .

قبل أن يغادرنا شقيقي لم يجد مفرّاً من الصراخ وقتاً طويلاً على أبنائه وبناته المبعثرين في شتى أرجاء البيت ، حتى إذا ما تم تجميعهم بعد مرور دقائق واطمأن إلى اكتمال العدد تقدمهم مودعاً تاركاً إياي

أفكر بالسيارة التي ستتكفل بإيصال كل هذا العدد إلى تلك المدينة . . ثم السائق . . ذلك السائق المسكين الذي سيقود سيارته تلك : أيسعه القيام بمهمته بسلام وسط هذه الجوقة المرعبة؟

وبدأتْ أمي ومريم تستعدان ، منذ ذلك اليوم ، للقيام بتلك الرحلة موفرتين كل ما ستحتاجان إليه محاولتين عبثاً إقناعي بالتنازل عن قراري وذلك بمرافقتهما إلى هناك ، حتى إذا ما يئستا أخذتا تتنافسان في توفير ما سأحتاج إليه من طعام لولا أنني نبهتهما على عبث ما تقومان به ؛ ذلك لأن مصير تلك الأطعمة سيكون صفيحة النفايات ؛ إذ إن الكهرباء ستكون في مقدمة الأهداف المرشحة للقصف . وطلبت منهما الاكتفاء بإعداد بعض الأكلات التي لا تفسد بسرعة . وأردفت مهوّناً عليهما الأمر :

- وعلى كل حال لا يعقل أن تخلو بغداد ، مهما طالت الحرب ، من بعض المطاعم ومن باعة الأرصفة وأصحاب العربات المتجولين .

والغريب أنني كنت لا أزال آمل بحصول معجزة تمنع وقوع هذه الحرب برغم يقيني بانتهاء عصر المعجزات : فالولايات المتحدة كانت قد نجحت في تأليب العالم كله ضد العراق بما فيه بعض الدول العربية . وبرغم خروج ملايين الناس في مختلف المدن في تظاهرات احتجاج ضد الحرب إلا أن الأمريكيين نجحوا في حشد نصف مليون مقاتل من ثلاث وثلاثين دولة تتهيأ على قدم وساق للانقضاض على دولة من العالم الثالث اسمها العراق!!

وكانت أمريكا قد نجحت بإزالة آخر العقبات التي تعترض سبيلها للقيام بهجومها الكاسح بعد أن قرر العراق الإفراج عمن تبقّى لديه من (رهائن) ؛ فسارع الأمريكيون إلى إرسال وزير خارجيتهم (جيمس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بيكر) إلى (جنيف) ليلتقي الموفد العراقي طارق عزيز ، وهو لقاء زاد الأجواء توتراً بعدما رفض عزيز تسلّم الرسالة المهينة المرسلة من قبل (بوش) إلى صدام حسين .

وحرصاً من الأمريكيين على إضفاء لمسة (دولية) على حربهم القادمة ، أوعزوا إلى السكرتير العام للأمم المتحدة (دي كويلار) بالتوجه إلى بغداد ليكون وجهه ، المزدان بابتسامة حزينة ، آخر وجه دبلوماسي تعرضه شاشة التلفاز وكل ملمح فيه يفصح عن أن الأمر أكبر من قدراته المتواضعة .

اتفقنا ، تلك الليلة ، على أن تصطحب مريم أمي ، في الصباح ، إلى بيت شقيقي في إحدى ضواحي بغداد استعداداً للتوجه إلى بدرة . وتعاونتُ أنا ومريم في إعداد (الديوخانة) لنومي عوضاً عن غرفتنا في الطابق العلوي ؛ فدفعنا الأرائك والطاولات نحو الجدران مهيّئين فسحة في الوسط لفراشي . واقترحتْ مريم فكرة جلب الحقيبة التي تضم أرشيف أبيها لأستثمر انفرادي بنفسي في تصفّح ملفاته سعياً مني لكتابة روايتي ، فأجبتها بلهجة ذات مغزى :

– وما جدوى ذلك التصفح بغيابك؟ لأنه لن تقوم لتلك الرواية قائمة دون معونتك!

صباح اليوم التالي ، وعقب مغادرة الاثنتين البيت ، توجّهتُ إلى السوق القريبة لأتزوّد ببطاريات احتياطية لمذياعي ، كما اشتريت ما قد احتاج إليه ؛ ذلك ليقيني أن المحلات ستغلق أبوابها حال نشوب الحرب . وفكرت بضرورة أن أفرد الكتب العزيزة إلى نفسي مثل بعض كتب التراث ، والفلسفة ، والرواية ، والأساطير ، وأنزل بها إلى (الديوخانة) . لكنني سرعان ما صرفت النظر عن ذلك ؛ فـ(الديوخانة)

ليست بالملجأ المحصن ضد الغارات ، ومن المؤكد أن الصاروخ الذي سيصيب مكتبتي لن يبقي على (الديوخانة) أيضاً ، فاكتفيت بجلب بعض الروايات لغرض قراءتها ، وفي مقدمتها رواية تولستوي (الحرب والسلم) .

مكثت تلك الليلة يقظاً إلى ساعة متأخرة ، أتنقّل بمؤشر مذياعي - وقد تدثرت بأغطية ثقيلة - بين مختلف المحطات الإذاعية : لندن ، وصوت أمريكا ، ومونت كارلو ، متابعاً الأخبار وتعليقات المحللين ، والندوات التي لا تخرج عن نطاق الحرب القادمة . وكانت الخلاصة التي خرجت بها من كل ما سمعتُ أن تهديد بيكر لطارق عزيز من أن بلاده ستعيد العراق إلى القرون الوسطى في طريقه إلى أن يتحقق . ولم أدرِ متى نمت على وشوشة المذياع الذي نسيت إطفاءه لتطاردني سلسلة كوابيس على وتيرة تلك الهلوسات التي تطاردنا عادة حينما نصاب بالحمّى ويستحيل الإلمام بتفاصيلها ، فالشيء الوحيد الذي أتذكره من تلك الكوابيس يتمثل بتلك الأرقام الحمر وهي تواصل عدّها التنازلي ، وصوت سهيل الخلف يأتيني من موضع ما في الظلام وهو يردد أن المعضلة تكمن في أن الأسلاك التي ينبغي لنا قطعها منعاً لحصول الانفجار لا تعد ولا تحصى . وكانت ثمة أصابع تمتد تحت بصري - أكانت أصابعي؟ أم أصابع غيري؟ - محاولة القيام بذلك ، ولكن دون جدوى ؛ فقد حصل الانفجار ، وغطى اللون الأحمر الشاشة . . وجفلت مستيقظاً من نومي على عويل صافرات الإنذار المتقطع المنذر بحصول أولى الغارات . وكان صوت مذيع ينعق ملء المذياع مؤكداً بشماتة أن (عاصفة الصحراء) قد بدأتْ!

وكنت أنا خير من يعلم أنها بدأت حقاً ؛ فقد ارتجّت الأرض من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحتي بفعل سلسلة انفجارات هائلة ما كادت أصداؤها تتلاشى حتى أعقبتها انفجارات أخرى أشد هولاً . بدا الأمر أشبه ما يكون بزلزال كوني لا يعرف التوقف لحظة واحدة ؛ إذ لم يكد يبدأ حتى استمر على مدى أسابيع بقي العراق كله ، بمدنه وقصباته وقراه ، يتقلّب خلالها ، دون توقف ، ظهراً لبطن!

كنت أشعر بالأرض تميد من تحتي ، والجدران تصطك من حولي مهددة بالانهيار ، والسقف يئنّ لتتساقط منه سحب غبار . وكان زجاج البيت يرتج مصلصلاً دون توقف .

واستمر القصف طوال الهزيع الأخير من ليلة السابع عشر من كانون الثاني ، ليتواصل على مدى أيام تلاحقت تباعاً كالكابوس كنتُ أبدؤها عادة بانتزاع ورقة من التقويم مستخيراً الحكمة الواردة فيها . وكان يتوجّب عليّ في آخر الأمر المجازفة بالخروج إلى الشوارع الخالية إلا من أفراد مثلي يسيرون وهم في عجلة من أمرهم رامقين السماء المزدانة بصليات مدافع الدوشكا بنظرات رعب .

كان لا بد من الخروج لأكتشف أن كل ارتجاج واهتزاز وصليل حوّل سلاسل بنايات ومنشآت صناعية وبيوت إلى ركام ، وثمة عشرات من البشر طمروا موتى وأحياء تحت السقوف المنهارة ، وهناك أكثر من جسر ، كان من المألوف أن يربط الرصافة بالكرخ ، وقد انقصم ظهره . ولعل أغرب ما صادفته في ذلك العالم المقلوب رأساً على عقب مجموعة رجال ملتحين يرتدون زيّاً موحداً يتكون من دشاديش مقلمة بالغة القذارة وهم يسيرون في الشوارع على غير هدى متطلعين حولهم بتوجس وكأنهم أضاعوا سبيلهم . كان بعضهم يسير وعيناه معلقتان بالسماء كمن يحاول اكتشاف سر هذا الدوي المستمر ، وآخرون يذرعون

الأرض بخطى متمهلة وهم يتأملون كل ما حولهم بنظرات حكيمة ، وثمة أعداد منهم - بالدشاديش المقلمة نفسها - جلسوا بكل رزانة ووقار على المصطبات الإسمنتية القائمة في المحطات الصغيرة الخاصة بحافلات نقل الركاب وكأنهم في انتظار مقدم حافلة لن تصل أبداً .

حين سألتُ عنهم قيل لي إنهم مجانين أطلق سراحهم من مستشفى (الشماعية) بعدما عجز الكادر الطبي عن السيطرة عليهم بسبب انقطاع الماء والكهرباء والطعام . هكذا تتابعت أيام بدا من المحال عليّ الإمساك بتفاصيلها ؛ إذ لا أزال أجهل كيف نمت أو تناولت الطعام أو استحممت . . . وهل كان بإمكاني القيام بذلك والريح تصفر في أنابيب المياه؟

كان الشيء الوحيد الذي أغبط نفسي عليه يتمثّل بشراء ما أحتاج إليه من بطاريات ؛ ذلك لأنني كنت أجد في المذياع عزائي : لا أكف عن تحريك المؤشر بين (مونت كارلو) و(صوت أمريكا) . وكانت إذاعة (لندن) تفتتح نشراتها الإخبارية بدقات (بگ بن) المعهودة قبل أن تتحدث عن آخر أخبار طائرات (بي٥٢) التي كانت تسميها بـ(القلاع الطائرة) - مذكّرة بأن حمولة كل واحدة منها تبلغ ثلاثين طناً من المتفجرات - وموعد إقلاعها من جنوبي لندن ومن إسبانيا لتقطع آلاف الكيلومترات حاملة الموت والدمار إلى . . . أرض بابل!!

وكانت صواريخ (الكروز) و(التوماهوك) قد أمست من أبجديات المذيعين اليومية ، وهم يتحدثون بلذة ساديّة عن كيفية انصبابها اليومي على العراقيين أصحاب الرؤوس السود!

هكذا تتابعت أيام الحرب متشابهة في حجم الدمار العاصف ، والقتل المبرمج ، باستثناء ثلاثة أيام شذّت بما ميزها عنها : وكان أولها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يوم الثالث عشر من شباط حين اهتزّت بغداد بأسرها بفعل دوي انفجارين متعاقبين سرعان ما أصبحا محور نشرات الأخبار حتى بلغ التأثر ببعض المراسلين أنهم كانوا ينقلون مشاهداتهم وهم يبكون . وكان ملخّص ما حصل أن طائرتين أمريكتين من نوع (اف -١١٧) مزودتين بقنابل صنعت خصيصاً لهذه العملية من نوع (جي بي يو/٢٧) موجهة بالليزر قصفتا على التعاقب ملجأ (العامرية) الحصين : فاخترق الصاروخ الأول الجدار الكونكريتي السميك مولّداً بذلك عصفاً شديداً داخل الملجأ أدى إلى إغلاق الأبواب المصفحة أوتوماتيكياً ، في حين نفذ الصاروخ الثاني من الثغرة التي أحدثها الصاروخ الأول لينفجر داخل الملجأ مولّداً درجة حرارة تخطت الآلاف حيث بقيت صرخات الضحايا المكتومة تتناهى لأسماع أهاليهم في الخارج ، فكانوا يجيبونهم بصرخات مماثلة وهم يحاولون عبثاً إنقاذهم بتحطيم الأبواب الفولاذية . واستمر صراخ المحاصرين دقائق تخللها دقهم بأيديهم وأرجلهم ورؤوسهم على الأبواب والجدران وهم يكبّرون ويستغيثون لتخفت أصواتهم بالتدريج حتى صمتت نهائياً تاركة حفيف النار وحده يتردد تصحبه رائحة اللحم البشري المحروق . وكانت المحصلة استشهاد ١٣٨رجلاً و٢٦٩امرأة من بينهم٥٤ طفلاً رضيعاً و٢٦مواطناً من جنسيات أخرى!

وتمثّل اليوم الثاني بالسادس والعشرين من الشهر نفسه حين أظلمت الدنيا وغابت الشمس تماماً في عزّ الظهيرة بفعل تراكم سحب سود ثقيلة سرعان ما أخذت تمطر زيتاً ونفطاً حتى اصطبغت جدران البيوت والحدائق بالسواد . أما اليوم الثالث فقد تمثل بالثامن والعشرين من شباط حين أعلن عن وقف إطلاق النار ؛ ففجأة خيّم صمت

شامل ، وكفّت صافرات الإنذار عن إطلاق عويلها ، وعادت الجدران من حولي لتستقر في مواضعها مكينة راسخة ، ولم تعد سحب الغبار تتساقط من السقف . ووسط السكون الشامل صلصل فجأة لوح زجاجي من واجهة إحدى الخزانتين ليتشظى في ارتطامه بالأرض إلى عشرات القطع بعدما بقي معلقاً بموضعه طوال أيام الحرب بفضل الشريط اللاصق .

كان أول ما قمت به هو تفقّد الكتب المبعثرة من حولي ، لجأت بعدها إلى فراشي ؛ ذلك لأنني كنت متعطشاً إلى النوم ، أرغب في أن أنام نوماً طويلاً لا تعكّره الطائرات المغيرة بقصفها المستمر ، بيد أن الغريب في الأمر هو أنني لم أكد أغفو حتى انفجر القصف أشد وأعتى في أحلامي!

بعد يومين عادت أمي ومريم من رحلتهما الطويلة متعبتين منطفئتين ، فهالهما الإهمال الذي ضرب بأطنابه في كل ركن من أركان البيت ؛ فشمّرتا عن ساعديهما لتعيدا الأمور إلى نصابها كاشفتين لي ، وهما منهمكتان بحملتهما ، عن معاناتهما في ذلك البيت الذي غصّ بأقارب لا يحصى عددهم حيث المماحكات التي كانت تتطور أحياناً إلى شجارات فاضحة ، لأسباب تافهة تتعلق بالأطفال في الغالب ، كانت تحدث يوميا ؛ إذ الجميع كانوا مستفزين ومهيئين للتخلي عن كل مظاهر الوقار والهدوء وطول الجَلَد التي كانوا يلتزمون بها عادة . وكانتا ، طوال مكاشفاتهما تلك ، تغبطان نفسيهما لأنهما عادتا إلى البيت الذي لم تكتشفا مقدار تعلقهما به إلا بعد قيامهما بهذه الرحلة .

حينما انفردت مريم بي في غرفتنا تلاشى تصنّعها التماسك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واللامبالاة ؛ فقد ارتمت على صدري باكية ، وأخذت تكرر وسط شهقاتها :

– كل شيء انتهى . . . كل شيء انتهى!

تركتها تفرغ ما يكربها ، حتى إذا ما هدأت بعد دقائق قالت ، وقد رفعت نحوي عينيها الذهبيتين المخضلتين بالدموع :

– لقد دمروا كل شيء . . . كل ما صادفته في طريق ذهابي إلى تلك المدينة عامراً يضج بالحياة رأيته في طريق العودة محض ركام تتصاعد منه سحب الدخان!

أجبتها وأنا أمسح الدموع عن عينيها مقبّلاً إياها في شفتيها الراجفتين :

– ستعود الأمور إلى نصابها ، والجدران التي هدمت ستقام من جديد .

– والإنسان؟ أهناك وسيلة لإعادة بناء الإنسان؟

سألتني لتتابع قبل سماع ردي :

– لقد رأيت عراقيين مثلنا يتكالبون على تلك المنشآت لا لأجل إطفاء النيران المشتعلة فيها ، بل لسرقة ما لم ينل القصف منه! . . . رأيتهم يحمّلون سياراتهم ليمروا بنا متجنبين مبادلتنا النظر!

وتساءلتْ وقد أجهشت في البكاء ثانية :

– يا إلهي! . . . أيوجد إنسان يسرق بيته؟!

ومرّ بعض الوقت قبل أن تسيطر على نفسها ، فتهالكت جالسة على السرير وربتتْ على موضع قربها داعية إياي إلى مشاركتها في الجلوس لتحدثني ، هذه المرة ، عن أبيها إسماعيل الذبيح وكيف كان يحدّثها ، في طفولتها ، عن بداية استيطان اليهود في فلسطين ، وأنهم

لم ينجحوا في مشروعهم ذاك بفضل حماية الانتداب البريطاني لهم وبذلهم الأموال الطائلة في شراء الأراضي فحسب ، بل بفضل نجاحهم في شراء الذمم ، ذمم بعض الفلسطينيين والعرب أيضاً .

لم تفاجئني مريم بكلامها بجديد بقدر ما فاجأتني - دون أن تدري - بربطها ما جرى في فلسطين بما يجري في العراق الآن ؛ ترى أثمة (نكبة) جديدة يُقاد العرب إليها في العراق هذه المرة بعد نكبة فلسطين؟

وكانت الأوضاع تزداد تردياً بمرور الأيام منبئة بأن الحرب لم تنته دون أن تخلّف وراءها تبعاتها التي كانت تزداد تعقيداً ؛ فقد راجتْ شائعات عن سيطرة القوى المعارضة للنظام على غالبية المحافظات الجنوبية ، رافقتها أعمال مماثلة في كردستان . وتلاحقتْ الأنباء عن حصول مواجهات دموية أوقعت آلاف الضحايا ، كما بدأت حركة نزوح جماعي للأكراد تصدّرت نشرات الأخبار العالمية . وكان الأمر المثير للدهشة اتخاذ الولايات المتحدة الأمريكية دور المتفرج على ما يجري في الوقت الذي كانت تبدو فيه معنيّة بإرسال المزيد من فرق التفتيش بحثاً عن أسلحة الدمار الشامل ، وكانت أولى الفرق قد وصلت إلى بغداد في الرابع عشر من مايس لتعقبها فرق أخرى : فرق تبحث عن أسلحة كيماوية ، وأخرى عن أسلحة بيولوجية ، وثالثة عن أسلحة ذرية!

وأصبح من دأبنا ، مع إنهاء كل فرقة مهمتها ، انتظار تحقق (المعجزة) المتمثلة برفع ذلك التقرير الذي يعلن خلو العراق من تلك الأسلحة المحظورة لنكتشف أن تلك الفرق ليستْ في عجلة من أمرها ، وأن تقريرها (العتيد) لن يُرفع بهذه البساطة!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكنتُ قد عدتُ أتابع حياتي على وتيرتها السابقة : أستيقظ عادة مبكّراً لحظة تبدأ العصافير أولى زقزقاتها في سدرة البيت ، فأنسلّ بحذر من السرير لأنفرد بمكتبتي تاركاً مريم تكمل نومها قبل أن تتهيأ ، بعد ساعة ، للتوجه إلى مدرستها .

كنت أفكر آنذاك بتحقيق مشروع العمر بكتابة روايتي المنتظرة عن إسماعيل الذبيح مستثمراً في ذلك أرشيفه الذي عمدتُ إلى ترتيب ملفاته ووثائقه وصوره على المكتب حيث كنت أتصفّح بحذر تلك الأوراق التي اصفرّت بفعل القدم فباتت عرضة للتمزق مع أدنى لمسة متهورة .

وكانت مريم قد اعتادت ، وسط استعداداتها للمغادرة ، إسعافي بفنجان قهوة أكون في أشد الحاجة إليه . بيد أنني تنبهت ، ذات يوم ، إلى مرور أكثر من ساعتين على انفرادي بتلك الملفات دون أن أحظى بفنجان القهوة المعهود ؛ فعدت إلى غرفة النوم وأنا أسائل نفسي عن سر امتناع مريم اليوم عن الذهاب إلى مدرستها؟ ففوجئت بها تتحامل على نفسها ، لحظة دخولي ، محاولة النهوض قبل أن تتهالك على السرير مجدداً .

- لا أدري ما الذي دهاني!

خاطبتني رامقة إياي بنظرة اعتذار لتعترف بأنها ، منذ أيام ، تشعر بألم خفيف في عظام يدها اليسرى مصحوب بشعور بالخمول والدوار تطوّر اليوم إلى أوجاع انتشرت في جميع أعضائها .

- لعلك تشكين من عارض برد .

قلتها محاولاً طمأنتها ، فأكّدتْ أن ذلك ما خطر لها أيضاً ؛ فلجأت إلى تعاطي بعض الحبوب ، فلم تجدها نفعاً . واعتذرتْ ثانية وهي

تطلب مني الذهاب إلى مدرستها ولقاء إحدى صديقاتها من المدرّسات لأجل أن تتكفل بأمر الحصول على إجازة مرضية لها .

حين عدت ضحى التقيت أمي في الحوش وهي في طريقها إلى المطبخ لإعداد وجبة الغداء ، فأخبرتها بمرض مريم ؛ فإذا بها تعلّق ساخرة :

– لعلها فاتها تعاطي حبوبها هذا الشهر فحبلت بعد طول انتظار!

أغضبني ردّها ، لكنني فضّلتُ تجاهل الأمر ؛ فالوقت ليس ملائماً لإثارة حساسيات مهيأة للانفجار سلفاً . طمأنت مريم ، وأنا أتحسس زندها الساخن ، إلى أن مديرتها تكفلت بإنجاز معاملة إجازتها دون الحاجة إلى الاستعانة بتلك الصديقة . وسألتها بشيء من تردد :

– ألا يحتمل أن تكوني حاملاً؟

بادلتني نظرة طويلة قبل أن تعلق مستنكرة :

– محال ؛ فما أعاني منه هو ضرب من مرض حقيقي يزيده مرور الأيام تفاقماً .

وازدادت حالتها تردياً مع شكواها الدائمة من الدوار المصحوب بارتفاع الحرارة ، فلازمت الفراش ؛ لا تستطيع مغادرته والهبوط إلى الحوش دون معونتي . وأصبح من اللازم مراجعة أحد الأطباء ، ولكن السؤال تمثّل باختصاص الطبيب الذي يُفترض بنا مراجعته ؛ فحالة مريم بدت غامضة كأنها تشكو من جملة أمراض دفعة واحدة ، فوقع اختيارنا على أقرب عيادة إلى بيتنا ، وهي لطبيب أمراض باطنية ، لم تجد مريم مفراً من الاستناد إلى كتفي وهي تجتاز السوق لاهثة قبل أن ترتقي درجات سلم مظلم لا يكاد المرء يبصر فيه مواطئ قدميه .

حوّلنا الطبيب فور انتهائه من فحص مريم إلى أخصائي بأمراض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدم تقع عيادته في شارع الرشيد ، فأوصلتنا سيارة أجرة إلى هناك خلال دقائق انتهت بارتقاء درجات سلّم مماثل لسلم العيادة السابقة مع كونه أكثر ضيقاً وظلمة . وكما هو متوقع : حوّلنا هذا الطبيب إلى مختبر لتحليل الدم يقع على بعد بنايتين ارتقينا إليه سلماً تميز هذه المرة بالقذارة . لم نكد نصل إلى صالة توزعتها مقاعد خشبية حتى ارتمت مريم على أقربها إليها وهي تومئ لي لاهثة بإشارة من يدها إلى أن أسعفها بكأس ماء .

طلب مني المحلل ، بعد أخذ عينة من الدم ، مراجعته عقب مرور ثلاثة أيام لم تكد تنقضي حتى توجّب علينا مجدداً اجتياز محنة الوصول إلى شارع الرشيد وارتقاء درجات سلم عيادة الطبيب لأترك مريم في صالة الانتظار متخذاً سبيلي إلى المختبر حيث ناولني المحلل ورقة الفحص وهو ينظر إلي بإشفاق ، فسألته وأنا أشعر بتصاعد وجيب قلبي ، عن النتيجة ، فأجابني وهو لا يزال يرمقني بنظرة الإشفاق المرعبة تلك :

– خير إن شاء الله .

حينما عدت إلى العيادة رأيت مريم وقد نامت في استلقائها على كرسيها ، فدخلت على الطبيب دونها .

– لا أخفيك أن حالتها تبعث على القلق .

خاطبني الطبيب وهو يتطلع إليّ من فوق إطار نظارتيه ، ليضيف بعد لحظات صمت :

– هناك قريصات غريبة في الدم!

– هل يعني ذلك أنها . . .

– لا تستبق الأمور يا أستاذ ؛ فالمهم أنك جلبتها في الوقت المناسب .

وأضاف مؤكداً ضرورة معاودة فحص دمها من حين إلى آخر لمراقبة تطور الحالة ، فبتنا ملزمين بالتوجه إلى شارع الرشيد بين أسبوع وآخر مرتقيين تلك السلالم المظلمة وهابطين منها مرات لا تعد ولا تحصى مع ما يرافق ذلك من نظرات الإشفاق التي يودعني المحلل بها ليستقبلني الطبيب بكلامه الغامض الذي لم أفقه منه إلا حدوث انخفاض خطير بنسبة الكريات البيض . ومرّ شهران يوم ناولني الطبيب ورقة وهو يطالعني بعينيه من فوق إطار نظارتيه :

- سأحوّلها إلى (مديرية المختبرات الطبية المركزية) في مستشفى مدينة الطب لإجراء تحليل للنخاع .

- معنى ذلك أنها مصابة بالسرطان!

صحت هلعاً ، فعاد الطبيب يتأملني لحظات قبل أن يعترف بحيرة :

- ثق يا أستاذ أنني لا أقل عنك جهلاً بحقيقة مرضها .

وتابع وهو يشيّعني حتى باب غرفته :

- لقد مرت بي حالات كثيرة مماثلة منذ انتهاء الحرب .

- وما علاقة الحرب بانتشار هذه الحالات؟

- ما أدرانا! . . . فقد استهدفونا بأسلحة من مختلف الأنواع أخطرها (اليورانيوم المنضّب) الذي قد يكون له الدور الرئيس في تفشّي هذه الحالات الغامضة ، ولا سيما في المدن الجنوبية التي تعرضت لهذا النوع من الأسلحة بكثافة أكثر من المدن الأخرى .

وأضاف وهو يصافحني مودعاً :

- لقد تفشّت بين العراقيين أمراض جديدة لم يكن لنا بها سابق عهد قبل الحرب .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الطابق الأول من (مديرية المختبرات الطبية المركزية) واجهتنا صالة واسعة تتخللها أعمدة كونكريتية وقد قسّمت إلى شعب صغيرة بوساطة مناضد خاصة بالمختبرات تفصل إحداها عن الأخرى قواطع ألمنيومية . كانت غرفة مديرة المختبرات تقع في ممر إلى اليمين . وكانت المديرة امرأة كهلة في منتصف العمر زادتها الخصل البيض التي تخالط شعرها الململوم خلف رأسها وقاراً ، يزدان صدرها بسلسلة ذهبية مرهفة تنتهي بصليب صغير . قالت ، بعدما انتهت من تدوين المعلومات اللازمة ، إنه يفترض بنا الصعود إلى الطابق الخامس لإجراء اللازم . ونادتني بعد مغادرتنا الغرفة لتسألني إن كانت المريضة زوجتي؟ نصحتني بعدها بتجنّب حضور عملية سحب النخاع موفّراً بذلك على نفسي ألماً لا مسوغ له ؛ إذ إن العملية تجرى عادة دون تخدير .

وأضافت وهي تمنحني ابتسامة حانية متفهّمة :

– لا تقلق ؛ فقد تكون النتيجة إيجابية إن شاء الله .

في الطابق الخامس تركتُ مريم مع الطبيب لأطلّ من خلال الواجهة الزجاجية على مياه دجلة الغرينية في انحدارها الوقور جنوباً والنوارس لا تكفّ عن التحليق فوقها جيئة وذهاباً .

جاءني الطبيب بعد نصف ساعة ليبلغني بانتهائه من العملية . قال ونظارتاه تسطعان فوق أنفه الطويل :

– لم تكد المسكينة ،لشدة ضعفها ، تشعر بالألم .

واقترح عليّ تركها ترتاح في الغرفة بعض الوقت ؛ إذ إنه بصدد إجراء تحاليل أخرى لدمها وإدرارها لكي تكون النتيجة التي ستظهر بعد عشرة أيام شاملة . حبذت فكرته ، وهبطت نحو الطابق الأول مزجياً الوقت بمراقبة المرضى وهم يتوافدون على تلك المختبرات ، أو يمرون بغرفة

المديرة ليغادروا بوجوه تطفح بشراً أو تعاسة تبعاً لنتيجة تحاليلهم . وتوجهت ، بعد شيء من تردد ، إلى غرفة المديرة مستمداً من تعاطفها معي الجرأة على طرق بابها مجدداً . لم تكد تراني داخلاً حتى دعتني إلى الجلوس على كرسي قرب مكتبها عادت بعدها تطمئنني مؤكدة حصول حالات مماثلة لحالة زوجتي انحسرت من تلقاء نفسها دونما اللجوء إلى أي علاج .

- وما تفسير حصول هذه الحالات طبياً؟

سألتها وأنا أنظر إلى الصليب المدلى من عنقها دون وعي مني ، فأجابتني دون أن يغادر الابتسام فمها :

- العلم عند الله ؛ فالأمريكيون أنفسهم لا يزالون عاجزين عن فهم حالات مماثلة أصيب بها الآلاف من جنودهم الذين شاركوا في الحرب الأخيرة حتى اضطروا إلى أن يطلقوا على تلك الحالات اسم (مرض الخليج) .

ومضت تلخّص لي ما قرأت من تقارير صادرة عن الأمريكيين عن أعراض المصابين بهذه الحالات والتي بدت مشابهة لحالة مريم مثل الشعور بالإرهاق والتعب المزمن والصداع وألم المفاصل وإجهاد المعدة والأمعاء والغيبوبة والأرق وفقدان الذاكرة .

وأضافت موضحة :

- يبدو أن سبب إصابة هؤلاء الجنود بتلك الأمراض يعود إلى تعاملهم المباشر مع الأسلحة المصنوعة من اليورانيوم المنضب .

- ولكن ما سبب إصابة العراقيين بالأعراض نفسها برغم عدم تعاملهم مع أسلحة من هذا النوع؟

- السبب واضح ؛ ويرجع إلى استنشاقهم الهواء الملوث بآثار تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأسلحة وشربهم المياه الملوثة بها .

وعلى الفور تذكّرتُ حديث مريم عن مشاهداتها عقب عودتها إلى بغداد حيث المنشآت الصناعية التي مرت بها في طريق الذهاب تحولت في طريق الإياب إلى أنقاض يتصاعد منها اللهب .

- والمشكلة الأخطر تتمثل بأن نتائج أسلحة من هذا النوع تكون مؤجّلة قد تظهر في أجيال قادمة على شكل ولادات مشوهة .

وسألتني بغتة :

- أتدري ما المدى الزمني الذي سيواصل اليورانيوم المنضب تأثيره المدمر على البشر؟ إنه يمتد إلى مئتين وخمسين ألف سنة قادمة!

وتابعتْ وأنا أبادلها نظرة ذهول :

- لقد زرت الكثير من الأجنحة الخاصة بالأطفال المولودين حديثاً فرأيت - واعذرني لصراحتي - أطفالاً بأصابع أكثر عدداً من المألوف في أذرعهم وأقدامهم . وقد ولد بعضهم دون آذان أو عيون مع معاناتهم من ضيق في التنفس . وهناك أطفال يشكون من أعراض داخلية وأبرزها الإصابة باللوكيميا وأمراض الكلى والكبد ؛ حتى باتت هذه الأمراض سبباً مباشراً لوفاة الأطفال من فئة الذين تجاوزوا الخامسة من عمرهم .

وحدثتني عن مقالة نشرتها إحدى الصحف الأمريكية اعترفت فيها صاحبتها - وهي إحدى المجندات اللائي شاركن في حرب الخليج - بأنها أملتها على زوجها بسبب عدم قدرتها على التركيز مع ما يصاحب ذلك من شعور بالدوار والغثيان وفقدان الذاكرة . واستطردت وهي تقلّب مجموعة أوراق على مكتبها لتستلّ من بينها ورقة معينة أخذت تمعن النظر فيها :

- كما أنها تشكو من خلل في غدتها الدرقية ، فضلاً عن معاناتها من أعراض التهاب الرحم السرطاني .

وتابعت وهي تبادلني النظر :

- لقد اضطرت هذه المجندة إلى الاستعمال الدائم لموانع الحمل خوفاً من إنجاب طفل مشوه ولا سيما أن مجلة (لايف) نشرت صور أطفال بتشوهات خلقية تعود إحداها لابن زميل لها في الوحدة الطبية نفسها . والأدهى من ذلك اضطرار هذه المجندة إلى اللجوء لاستعمال الحفاظات ما بقي لها من عمر بسبب عدم استطاعتها السيطرة على أمعائها!

قاطعتها هلعاً :

- إذا كان الأطباء الأمريكيون عاجزين عن معالجة تلك الحالات ، فكيف الأمر مع أطبائنا وقد جرّدهم الحصار من كل وسائلهم؟

- لا يملك الأطباء العراقيون شيئاً إزاء هذا البلاء ؛ إذ لا تتوافر لديهم الأدوية اللازمة بعد انقطاع معظم الإمدادات الطبية من عقاقير التخدير إلى مخففات الألم وما أشبه .

أجابتني بتسليم لتتابع وقد افترّ فمها عن تلك الابتسامة المعهودة :

- إنهم لا يملكون إلا ذكاءهم وخبرتهم لمساعدة آلاف المرضى الذين يموتون شهرياً .

عدتُ بمريم إلى البيت ، وتركتها تلجأ إلى فراشها لأصعد إلى مكتبتي حيث كانت الملفات والوثائق والصور في انتظاري على المكتب ؛ فتأمّلتها بأسى مفكراً بكارثتي الجديدة المتمثّلة بمرض مريم ، هذه الكارثة التي بدت وكأنها امتداد لسلسلة كوارث لخّصتْ تاريخ أبيها إسماعيل الذبيح الذي ظلت المآسي تلاحقه من بلد إلى آخر حتى وصوله إلى بلاد الشام .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المقامة الشامية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(١)

لـم يتـم الذهاب إلى بلاد الشــام بالطريقــة التي كــان الدرويش يوسف ينوي أن يحدثني عنها ؛ ذلك لأنه قيّض لراوٍ آخر أن يأخذ على عاتقه مهمة رواية بقية الأحداث . وكنت اغتنم عادةً أية فرصة تسنح لي للتسلل نحو جامع سراج الدين حيث أنفرد بالدرويش في غرفته ، مـراقبـاً إياه وقـد دبّ النشـاط في جسـده المكوّم على سرير المرض وهو يلتـهم متلذذاً مـا كنت قد حملته إليه من مـشويات أو فواكـه يعقبـها بالتقاط الجرة المركونة في متناول يده ليغترف منها الماء طويلاً قبل أن يولـيني إحـدى أذنيـه ليسـألني مناكـداً عن غـرضي من القـدوم إليـه؟ وبعدما يطلق ضحكة يستعرض بها بقايا الأسنان الصفر الناتئة من أحد فكيه يتابع سرد بقية حكايته .

على تلك الوتيرة مضى الدرويش يوسف يحدثني عما جرى له مع إسماعيل منذ أول يوم تعرّف فيه إليه على أثر استيقاظه بسبب دوي عيار ناري انطلق عرضاً تحت شرفة غرفته في جدة حتى لقائه الأخير إياه في خيمته في العقبة يوم كشف فايد العايد الخديعة التي أوقع بها البريطانيون والفرنسيون العرب بإبرام اتفاقية (سايكس - بيكو) السرية بينهما ، حتى إذا ما تهيّأ ، ذات يوم ، لاستئناف الكلام صرّ باب الغرفة منفتحاً ؛ فإذا بي أفاجأ بأبي وجهاً لوجه!

وثبتُ واقفاً مسقطاً المقعد الذي اعتدت الجلوس عليه ، مبادلاً أبي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نظرة دهشة وهو يمرّ بي ليقف فوق رأس الدرويش سائلاً إياه عن صحته وأحواله .

وانقضتْ دقائق وأنا أراقب مرتبكاً ذينك الرجلين وهما يتبادلان الكلام : أبي بكامل أناقته وقد اعتمر الكوفية والعقال ، تتدلى عباءته الحنائية المطرزة بالكلبدون من كتفيه ، وتتألق سلسلة ساعة الجيب الفضية المشدودة إلى عروة في سترته ، والدرويش المتجمّع بأسماله على سريره وقد انحسر الغطاء عن ساقه الموضوعة في جبيرة ، وهو يبدي فروض الولاء والاحترام .

وانتهى ذلك الحوار بين الاثنين بأن دسّ أبي شيئاً ما تحت وسادة الدرويش ليغادر الغرفة رامقاً إياي بنظرة ثانية جعلتني لا أفهم من سيل الكلام الذي تدفق به الدرويش سوى ثنائه على أبي وهو يكيل له المديح والإطراء مؤكداً أنه لم ينسَ ، ولو مرة واحدة ، أن يمنحه نصيبه من (فطرة العيد) .

غادرتُ الغرفة في أعقاب أبي متابعاً بعينيّ عقاله وسط تزاحم الرؤوس وهو يشقّ سبيله في سوق الصدرية حيث دكاكين الحلويات ، والعطارين ، والبزازين ، والبقالين ، والقصابين ، أضاءت مصابيحها برغم أن الشمس لم تكن قد غربت بعد ؛ كأن أصحابها يستعجلون بيع آخر بضائعهم قبل أن يغلقوا الأبواب مستبقين انطلاق مدفع الإفطار الذي يعقبه ارتفاع تكبيرات المؤذنين وهي تنطلق من مئات المآذن داعية المؤمنين إلى أداء الصلاة قبل التجمّع مع أسرهم حول موائد الإفطار الشهية .

اتخذت سبيلي نحو البيت متوجساً من أن عاصفة ستكون في انتظاري هناك . بيد أن شيئاً من ذلك لم يحصل ؛ فبرغم أن المائدة

جمعتني بأبي إلا أنه اكتفى بأن أمرني ، دون أن يبادلني النظر ، بأن لا أكتفي ، حين يسهر مع أصدقائه في (الديوخانة) بعد دقائق ، بحمل إستكانات الشاي وفناجين القهوة لأنسحب بعدها بعيداً عنهم ، كما كان دأبي في ليالي رمضان التي مضت ، بل يفترض بي البقاء معهم – ولا سيما الليلة – لأن له معي كلاماً عليّ سماعه!

دقّ قلبي لهذا الطلب ؛ فقد خمّنتُ أن أبي قرر الاقتصاص مني أمام أصدقائه ، فانتظرت قدوم هؤلاء الرجال العجائز وأنا أقلّب أفكاري بحثاً عن حجة مقنعة أسوّغ بها وجودي عصر اليوم في غرفة الدرويش . حتى إذا ما أزف الموعد حملت صواني الشاي والقهوة إلى (الديوخانة) وأنا أنتظر أن تنفجر العاصفة في وجهي في أية لحظة ، بيد أن الجلسة مضت على وتيرتها المألوفة بالإصغاء إلى إذاعة لندن وهي تبثّ نشرة الأخبار ، والانصراف إلى تبادل التعليقات المعهودة التي أثارتها لديهم تلك الأخبار .

وكانت جلسات (الديوخانة) قد فقدت لديّ سحرها القديم ؛ فالشيخوخة أثقلت كاهل الملا شكر ؛ فتلاشت حيويته القديمة في سرد القصص والأساطير : لا يكاد يتهالك على أريكته وينتهي من احتساء قهوته معقّباً إياها بإيقاد سيجارة حتى يصبح شغله الشاغل مغالبة شعوره الملازم له بالنعاس : يرفع رأسه منتفضاً كلما مسّ ذقنه صدره . كما أن الأحاديث التي يتبادلها الجالسون أمست مكررة إلى درجة الملل ، لا جديد فيها ؛ وهكذا يبدو أنني – وبعدوى من الملا شكر – كنت قد غفوت في انزوائي على أريكتي لحظة جفلت على اسمي يردده أبي ؛ ففتحت عيني على سعتهما لأفاجأ بأنظار الجالسين مصوّبة ، دون استثناء ، نحوي ، لكنني تنفست الصعداء حين سمعت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أبي يواصل كلامه وهو يغالب ضحكه :

– . . . رأيته جالساً على مقعد يصغي بانبهار إلى الدرويش يوسف وهو يحدثه عما جرى لإسماعيل حين كان بصدد التوجه إلى الشام!

واستدرك موضحاً مغزى كلامه :

– والحق أنني لم أصدق يوسف حين أخبرني قبل أيام – وكنت قد زرته في غرفته مصطحباً طبيباً ليقرر موعد رفع الجبيرة عن ساقه – أن ابني يدأب على زيارته من حين إلى آخر محمّلاً بكل ما لذ وطاب لقاء رواية القصص!

والتفت نحوي ليكلّمني باسماً :

– لم تكن يا بني مجبراً على أن تبدد مصروفك اليومي لقاء سماع ما جرى لإسماعيل ولديك من هو على استعداد ليسمعك ذلك دون مقابل . . . أليس كذلك يا حاج ذياب؟

– لابنك الحق عليّ في أن أشفي غليله بأن أقصّ عليه كل ما أعرفه عن إسماعيل ؛ ذلك لأنه لم يقصّر معنا في ليالي رمضان المباركة : لا نكاد نطلب منه فنجان قهوة أو طاسة ماء حتى يستجيب لنا دون تردد .

ردّ الحاج ذياب رؤوف على أبي وقد استدار نحو الملا شكر رامقاً إياه بنظرة شامتة من وراء عدستي نظارتيه وكأني بلسان حاله يقول إنه آن للملا الاعتراف بأن دوره في رواية القصص والأخبار قد انتهى بعدما حلّ دور من هو جدير بهذه الأمور!

(٢)

هكذا تجددت لهفتي لحضور جلسات (الديوخانة) ؛ فمنذ تلك الليلة ، وعلى امتداد ما تبقى من شهر رمضان ، دأب الحاج ذياب رؤوف على سرد الأخبار المتعلّقة بإسماعيل ولا سيما منذ وصولهم إلى مدينة عمان : فقد حدث ذلك ضحى اليوم الأول من شهر تشرين الأول ؛ ففي اللحظة التي غادروا فيها العربة قرب الفندق القائم قبالة المدرج الروماني فوجئوا بحشود الناس تتقاطر على ذلك المدرج حيث كان لواء من الخيّالة البريطانيين يقوم ، على وقع الموسيقى ، باستعراض جميل ، فسارع فايد العايد إلى إيقاف أول من مرّ بهم ليسأله عن سر ما يجري؟ فأجابه هذا وهو في عجلة من أمره :

- ألم تدرِ بما حصل؟ لقد تحررت دمشق منذ ساعات ؛ فقد حملت أجهزة التلغراف خبر دخول مفرزة من الخيالة البريطانيين المدينة يتبعهم الشريف ناصر وسلطان باشا الأطرش ونوري الشعلان وحاشيتهما!

كانت لحظة مؤثرة هزّتهم من الأعماق ؛ فبرغم أن صلتهم بالجيش العربي كانت قد انتهت بعد تسريحهم عقب انتظار أشهر في العقبة ، وبرغم أن حماستهم للثورة العربية شابها الكثير من الفتور بعدما كشف فايد أسرار اتفاقية (سايكس - بيكو) و(وعد بلفور)[١] ، بيد أنهم لم

---

(١) وعد بلفور : تصريح صدر في الثاني من تشرين الثاني سنة ١٩١٧ وتعهد فيه وزير خارجية بريطانيا (بلفور) للزعيم اليهود يالبريطاني (روتشيلد) بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يستطيعوا مغالبة عواطفهم وهم يسمعون بهذا الحدث الكبير .

صاح فايد معانقاً إياهم واحداً واحداً :

- أصبح طريق دمشق الآن سالكاً بعدما اندحر العثمانيون ؛ وبذلك انتهى إرهاب جمال السفاح المقرون بالأحكام العرفية .

وتابع وهو يتقدمهم نحو الفندق :

- سأكاشفكم بفكرة خطرت لي اللحظة : ما رأيكم لو رافقتموني إلى دمشق ، المدينة الوحيدة التي ستوفّر لنا جميعاً العيش المضمون؟

وحينما جابهوه بالصمت أضاف قائلاً :

- لندخل الآن الفندق مرجئين التحدث في هذا الأمر الآن .

نزلوا في ذلك الفندق . وكان أول ما عمدوا إليه هو الاستحمام في حمامه ، ساكبين على أجسادهم فيض المياه كأنهم يثأرون بذلك من الشهور التي قضوها في العقبة حيث لم يكن في وسعهم الحصول على قطرات من مياه الآبار غير السائغة إلا بشقّ الأنفس .

بعد تناولهم الغداء في مقهى قريب عاد فايد يكرر عليهم فكرة توجههم جميعاً إلى دمشق ، فسأله ذياب عن مغزى اقتراحه المفاجئ هذا؟ فأجابه فايد :

- لأن من المؤكد أن كامل الأطرش أعاد الآن إصدار صحيفته (اليقظة) ؛ وسيسلّمني إدارتها حال وصولي إلى هناك ، كما كان شأنه معي في الماضي ، لينصرف هو إلى إدارة أملاكه الشاسعة .

استحسن الجميع رأيه خلا رمزي الخالدي الذي أصرّ على قراره السابق بالعودة إلى القدس . قال مسوّغاً إصراره :

- أعلم مبلغ حرصكم على مساعدتي ، لكنني أدرك ، في الوقت نفسه ، أن المكان الوحيد الذي يلائمني بعد ما حصل لي هو . . بيتي .

وحينما حاولوا ثنيه عن قراره طلب إسماعيل منهم احترام رأيه معلناً أنه سيصحبه إلى القدس ليلتحق بهم ، بعد مرور أسبوع ، في دمشق ، فأبدى ذياب رغبته بمشاركتهما في رحلتهما إلى هناك .

استيقظوا صباح اليوم التالي مبكرين . وبعدما ودّعوا فايد ويوسف وهما يتخذان سبيلهما نحو دمشق ، قضوا سحابة نهارهم متجولين في مدينة عمّان التي فوجئوا بسحرها الخلاب ؛ فقد كانت بيوتها الحجرية تقوم وسط بساتين تمتد على ضفتي نهر يبدأ من رأس العين غرباً ، لينتهي شرقاً بنبع عين غزال . وكانت هناك النساء أيضاً ؛ فبعدما سأمت عيونهم منظر تلك السحن الرجالية الباعثة على اليأس - خليط من بدو الحجاز والمتطوعين اليمانيين والعراقيين والشاميين - فوجئوا بمدينة عمّان تزدهر بجمال الشركسيات اللائي كن يشاركن ، سافرات الوجوه ، أزواجهن في أشغالهم في السوق وقد ارتدين أزياءهن الوطنية الحافلة بالوشي والألوان . وكانت هناك المسيحيات أيضاً . . . نساء بوجوه بيض كالأقمار تتألق وسطها عيون كحيلة .

هكذا قضوا ثلاثة أيام في تجوال دائم في أرجاء المدينة التي كانت تبدو أشبه بسلسلة بساتين متصلة تغطي سفوح جبال النظيف والأشرفية والجوفة لتتكاثف حول مجرى النهر الذي لا يكاد يمر تحت جسر الحمام حتى يختفي تحت كثافة أشجار اللوز والكرم والمشمش والعناب .

وخصصوا آخر يوم لهم في عمّان لشراء بعض الهدايا . كما اقتنى كل واحد منهم قمبازاً استبدله بملابسه العسكرية التي لم تعد بهم حاجة إليها منذ حصولهم على (أذونات) التسريح من الجيش . ولم يستطيعوا الامتناع عن الابتسام وهم يرون بعضهم بعضاً بزيهم الجديد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والطرابيش الحمر ذوات الشرابات السود المدلاة إلى الوراء تعلو رؤوسهم .

ويوم اتفقوا مع أحد الشراكسة على إيصالهم إلى القدس بعربته لقاء ثمن معقول لبث ذياب وإسماعيل وقتاً طويلاً مرابطين عند باب الفندق في انتظار أن يبارح رمزي الغرفة ، حتى إذا ما التحق بهما أخيراً بدت عيناه محمرتين من أثر البكاء وهو يبذل جهده ليبدو متماسكاً .

حين اتخذوا مواضعهم خلف ظهر الشركسي الذي جلد حصانيه بطرف سوطه لتستدير بهم العربة متخذة سبيلها غرباً حاول إسماعيل مواساة رمزي بكلمات لم يستجب لها هذا إلا بالإمعان في الصمت ؛ فعلى امتداد الوقت الذي استغرقته العربة في اجتيازها الطرق الوعرة التي تتلوّى صاعدة وهابطة خلال سفوح سلاسل التلال الخضر لم ينطق رمزي بكلمة واحدة ، مكتفياً بتأمل ما يمرون به بنظرات شاردة . لكن أساريره أخذت ، بمرور الوقت ، بالانفراج لتعاوده بعدها حيويته القديمة : فأخذ يعدد أسماء الأماكن التي يمرون بها مثل وادي شعيب الذي شرعت عربتهم تجتازه منحدرة نحو جسر مقام على نهر أعلن رمزي أنه نهر الأردن الذي لم يمنعه صغر حجمه من أن يصبح أشهر أنهار الدنيا ؛ ذلك لأن يوحنا المعمدان عمّد بمياهه المباركة المسيح .

وتابع قائلاً إن المنطقة التي يجتازونها اللحظة تُعدّ أخفض منطقة على سطح الأرض : إنها الغور . واجتازوا الجسر الخشبي ليقفوا عند مركز البوليس البريطاني حيث أنهى مجنّد إنكليزي مرح فحص جوازاتهم خلال دقائق ليتابعوا رحلتهم متتبعين توضيحات رمزي وهو يشير هذه المرة نحو بيوت قائمة على حافة الطريق الذي أخذ يصعد بهم معلناً أنها مدينة أريحا أقدم مدن التاريخ . ولاحت لهم في أحد

منعطفات الطريق قرية العازرية التي أقام المسيح لعازر فيها من الموت . وبغتة أطبق رمزي الخالدي شفتيه صامتاً ، وإلى الأمام لاحت لعيني ذياب رؤوف ، من وراء أسوار ، قباب ومآذن تتوسطها قبة عظيمة تتوهج ، تحت ضوء الشمس ، بلون الذهب .

- إنها القدس . . . وتلك هي قبة الصخرة .

همس رمزي الخالدي بصوت متهدج قبل أن ينخرط في البكاء من جديد .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٣)

لم يستطع ذياب رؤوف مغالبة شعوره بالرهبة لحظة ترجّل عن العربة في أعقاب إسماعيل ومد يده نحو رمزي الخالدي مساعداً إياه على الهبوط ؛ ذلك لأنه كان قد أوشك على أن يدخل القدس أكثر المدن عراقة وقداسة لدى الديانات الثلاث . وقف مع صديقيه يتأمل بانبهار باب الأسباط ، هذا الصرح الحجري الشامخ الذي يتخلله عقد مدبب القمة ، ينفتح فيه مصراعا باب من الخشب المصفح بالبرونز ، حتى إذا ما اجتازوه طالعهم إلى اليسار السور الجانبي للحرم القدسي ، وإلى اليمين كان ثمة سبيل ماء حجري مزدان بالزخارف والنقوش الإسلامية المعهودة .

– ما من مرة دخلت من هذا الباب ، وأنا صبي ، إلا وهرعت إلى سبيل ستي مريم لأشرب من صنبوره الماء قبل أن أذرع درب الآلام الذي سبقنا في اجتيازه السيد المسيح عليه السلام قبل ألف وثماني عشرة سنة حاملاً صليبه على ظهره .

خاطبهم رمزي الخالدي وقد تقدّمهم سالكاً بهم ذلك الطريق الذي كانت تحف به ، من الجانبين ، أبنية حجرية متصلة تتوزع بين مساكن ، وزوايا ، ومدارس ، ومساجد ، وكنائس ، وأديرة ، وخانات ، تطل منها شبابيك صغيرة قد تجاور بعضها مشربيات خشبية جميلة ذكّرتْ ذياب بشناشيل البيوت البغدادية .

كان الطريق ضيّقاً لا يكفّ عن الصعود والهبوط ، تتكئ أبنيته بعضها على بعض ، لتلتقي أحياناً بوساطة عقود مقوسة تعلو رؤوس السابلة الذين كانوا يصادفونهم من حين إلى آخر . وعلى حين غرة ضجّت نواقيس الأديرة بالدويّ معلنة انتصاف النهار ، فانطلقت أسراب الحمام من كل حدب وصوب لتحوم في زرقة السماء .

بدا رمزي مستثاراً ، لا يكفّ عن التلفّت حوله ، يتأمل بنظرات متعطشة كل ما كانوا يمرون به معدداً لصديقيه أسماء أهم تلك المعالم . وكانوا قد شرعوا في ارتقاء درجات زقاق لا يكاد يحصرها العدّ وقد تآكلتْ بفعل أقدام الصاعدين والهابطين على مدى مئات السنين .

- لقد وصلنا .

أعلن رمزي وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة . وأضاف وقد صعّد بعينيه متأملاً بخشوع بنائين عظيمين قائمين على جانبي الزقاق :

- ها هي (سرايا الست) تواجهها تربتها : معلمان أثريان بقيا ، بعد مرور أكثر من خمسة قرون على بنائهما ، مصدر عبرة لنا نحن سكنة الزقاق ؛ فحياة الترف التي عاشتها (الست طنشق بنت عبد الله المظفرية) في هذا القصر العظيم القائم إلى اليسار انطوت لينزوي جثمانها في هذه التربة القائمة إلى اليمين .

وأردف وقد تقدمهما صاعداً تلك الدرجات واحدة عقب الأخرى :

- كان من دأب المرحوم أبي أن يذكّرني ، كلما تلمّس لديّ بادرة اغترار بالنفس ، بسرايا الست وتربتها ، مؤكداً أن الحياة ليست أكثر من رحلة لا يتجاوز أمدها الوقت الذي يتطلبه اجتياز عرض الزقاق الفاصل بين هذين البنائين!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد تخطّيهم مئات الدرجات استداروا يميناً داخلين زقاقاً جانبياً ، فوقف رمزي عند مدخل ممشى ، مظلل بأغصان أيكة وشجرة لوز ، وثمة طفل في حدود السادسة من عمره يجلس ساهماً على العتبة .

- يا إلهي! . . لا شك أنه أصغر أشقائي زكريا! . . . تركته وهو في عامه الثاني!

تكلّم رمزي كمن يسرّ بالأمر إلى نفسه ليصيح بعدها منادياً أخاه باسمه ، فوثب الطفل ليتقدم منهم وهو يتطلع إليهم بوجل ، حتى إذا ما تنبه لذراع رمزي المقطوعة ثبّت عينيه على ذلك الكُمّ الفارغ وقد تحول وجله إلى خوف!

- ألا تعرفني؟ . . . أنا أخوك رمزي!

خاطبه وقد انحنى محاولاً احتضانه لولا أن الطفل استدار لينطلق راكضاً نحو البيت معلناً بصوت صارخ عن عودة رمزي ، وعلى الفور تدفّق من ذلك الباب ثلاثة صبيان بأعمار مختلفة وهم يطلقون صرخات ابتهاج سرعان ما ماتت على شفاههم لحظة تنبههم لذلك الكم الفارغ ، فكبحوا من حدة اندفاعتهم ليقفوا على مبعدة خطوات من شقيقهم وهم في حيرة من كيفية التصرف . وكانت فتاة شابة آخر الخارجين من البيت . كانت تتقدم مهرولة ، ويداها منشغلتان بلف شال أسود حول وجه مشرق تتألق فيه عينان واسعتان .

وفجأة أخذت تطلق زغردة ثاقبة سرعان ما قطعتها لحظة فطنت بدورها إلى يد رمزي المقطوعة ، فأخذت تتنقل بعينيها الجميلتين بين ذياب وإسماعيل كأنها تطلب منهما أن يفسّرا لها مغزى ما ترى!

- أعذريني يا فاطمة . . . كنت أتمنّى لو رجعتُ إليك بغير هذه الهيئة!

كلّمها رمزي مستعطفاً وقد رفع ذراعه الوحيدة داعياً إياها إلى معانقته ، فارتمت على صدره لتصيح وقد غصّت بدموعها :

- أبداً . . . أنت الآن أجمل يا رمزي . . . ذلك لأنك أصبحت بطلاً . . . وإذا ما كانت تنقصك ذراع فلديك ذراعان أخريان هما ذراعاي أنا . . . فضلاً عن أذرع أشقائك منيف . . . وحليم . . . وسميح . . .

كانت فاطمة تتكلم وقد تبلل وجهها بالدموع ، دافعة مع كل كلمة تنطق بها أحد أشقائها نحو صدر رمزي حتى اختلطت أذرع الجميع في عناق جماعي ارتفع معه صوت بكاء ذلك الحشد الذي اتخذ سبيله نحو البيت تاركين ذياب وإسماعيل واقفين في موضعهما ، وكل واحد منهما يمسح دموعه خلسة عن الآخر .

- يا لها من فتاة! . . . أسمعتها يا ذياب؟ قالت له : إنك الآن أجمل لأنك أصبحت بطلاً . . . تلك هي فاطمة التي لم يكن رمزي يكفّ عن قلقه عليها وهو في الحجاز . . . كان معذوراً إذن ؛ فهي درّة لا تقدر بثمن!

وكانت فاطمة قد غادرت الدار مجدداً وقد احمّر وجهها خجلاً ، داعية إياهما لـ(التفضل) بالدخول ، وهي تكرر لهما اعتذارها لكونها قد أخلّتْ بواجب الضيافة نحوهما فتركتهما واقفين كـ(الأغراب) بباب البيت في الوقت الذي لا تقلّ (معزّتها) لهما عن معزّتها لشقيقها رمزي!

كان البيت يتكوّن من ساحة مكشوفة تتوسطها بئر ، وتحيط بها أبواب غرف عديدة . أدخلتهما فاطمة إلى غرفة إلى اليسار نصب في جانب منها نول شدّ إليه بساط لم يكتمل نسجه بعد ، وهنا وهناك تبعثرت أشياء أخرى توزّعت بين زير كبير قائم على حمالته الخشبية ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأكياس مؤونة ، وأوانٍ نحاسية ، وحصران ، وبسط .

لم تكد تمضي ساعة حتى تسنّى لذياب وإسماعيل أن يتذوقا ما أعدّته فاطمة على عجل من أكلات فلسطينية لم يسبق لهما أن تذوقا أشهى منها ولا سيما صنف من حلويات أبيض اللون كان قد صُبّ في أوعية فخارية مسطحة ، بلغ إعجاب إسماعيل به أنه رفع رأسه ليسأل فاطمة ، التي كانت دائبة الحومان حولهم لتزودهم بما يحتاجون إليه ، عن اسم هذه الحلوى اللذيذة ، فأجابته وقد تألق وجهها اعتزازاً :

- هيطلية .

وأضافت موضّحة أنها تتكون من مزيج من الحليب والرز . واستدركت مؤكّدة أنها تصبح ألذّ حين تؤكل باردة . ولم تمض دقائق حتى جاءت بطبق آخر من الهيطلية خصّت به إسماعيل دون غيره بحجة حرصها على أن يتأكّد من أنها تكون أطيب مذاقاً حين تبرد!

ليلاً أعدّت فاطمة لضيفيها إحدى الغرف فارشة إياها بالعديد من البسط والسجادات حيث تسنّى لذياب وإسماعيل ، وبعد مرور مئات الليالي التي لم يكن يحميهما فيها من قرّ الشتاء وحرّ الصيف سوى سُمْك نسيج خيمة مهلهل ، تسنّى لهما التمتع بالنوم تحت سقف مكين طالما افتقداه على مدى السنوات الماضية .

وعلى امتداد اليومين اللاحقين كانا ملزمين بالبقاء في البيت حيث الرجال المعممون والمطربشون والذين تعلو رؤوسهم الكوفيات البيض والعُقُل كانوا يتوافدون ليلتقوا رمزي في إحدى غرف المنزل مهنئين إياه بسلامة العودة ، حتى إذا ما انتهى اليوم الثالث بوداع آخر الزوار انفرد رمزي بهما في غرفتهما وعيناه الذهبيتان تفصحان عن قلق دفين دفع بإسماعيل إلى أن يسأله مناكداً :

– أيظل القلق يلازمك وقد عدت إلى فاطمة وأشقائك؟

– قد يكون استجدّ الآن مصدر آخر لقلق أكثر هولاً!

– أيتعلق الأمر بشقيقتك؟ أم بأحد أشقائك؟

عاد إسماعيل يتساءل متوجساً ، فطمأنه رمزي أن الأمر ليس كذلك . وأضاف مؤكداً أن فاطمة برهنت له أنها كانت أكبر من قلقه عليها وهو بعيد عنها ؛ فقد عرفت كيف تحمي أشقاءها الصغار ، طوال سنوات الحرب ، مجنّبة إياهم الفاقة والعوز ؛ إذ إنها كانت قد اتصلت بالصليب الأحمر الأمريكي ، الذي نشط آنذاك بسبب توافد اللاجئين الأرمن إلى فلسطين ، فطلبت منهم تزويدها بنول من تلك الأنوال التي كانوا يقدمونها لهؤلاء اللاجئين – ممن كان يتقن الحياكة والنسج – بدلاً عن إعانات مادية ، ليتولّى الصليب الأحمر بيع منتوجاتهم لقاء مكافآت مجزية . ونجحت فاطمة في مسعاها برغم كونها مسلمة ؛ ذلك لأنها أفلحت في إقناعهم حينما أظهرت لهم مدى إتقانها لهذه المهنة التي كانت قد تعلمتها منذ طفولتها .

وأضاف مفتخراً :

– كما أن منيف وحليم اتخذا ، في السنة الأخيرة ، لهما مهنة ؛ فقد اتفقا مع صاحب محل لبيع التحفيات التي يستميت السيّاح على اقتنائها ، بتزويده بمسابح صدفية وبصلبان وإطارات للصور والمرايا مزدانة بالأصداف أيضاً فضلاً عن إبل منحوتة من خشب الزيتون .

– فما مسوّغ قلقك إذن؟

سأله ذياب مستنكراً ، فأجابه رمزي وهو يتنقل بعينيه بينهما :

– أخشى أن الكارثة التي توقّع فايد العايد حصولها بسبب تلك الاتفاقية السرية التي عقدها البريطانيون والفرنسيون بينهما من خلف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ظهورنا قد شرعت بوادرها بالظهور . . . هنا في القدس!

واسترسل في كلامه ملخّصاً لهما ما كان بعض زواره قد أخبروه به : فقد وصلت إلى القدس في العاشر من آذار بعثة صهيونية برئاسة زعيم يهودي بارز اسمه الدكتور حاييم وايزمن . وقد استقبلت تلك البعثة استقبالاً رسمياً في دار الحكومة . وكان السير رولاند ستورس الحاكم العسكري البريطاني على رأس المستقبلين حيث أقام لهم حفل غداء حرص على أن يحضره عدد من وجهاء القدس وأعيانها مثل رئيس البلدية موسى كاظم باشا الحسيني ونائبه السيد سلامه ، ومفتي القدس كامل الحسيني ، فضلاً عن عارف داودي الدجاني وأبو صوان عن البطركية اللاتينية ، وكوشاجيان عن البطركية الأرمنية . وقد نوّه الحاكم العسكري في ختام الحفل أن الغرض من عقد ذلك الاجتماع هو لإزالة المخاوف العربية من فكرة توطين اليهود في فلسطين .

- ما ذكرتَه يستدعي الاطمئنان لا القلق!

قاطعه إسماعيل متعجباً ، فترجّاه رمزي أن يمهله دقائق ليتسنّى له نقل ما أخبره به زواره ؛ ذلك لأن تلك البعثة عمدت إلى الاتصال بالجماعات اليهودية معلنين بوقاحة أنهم بصدد إقامة وطن قومي لهم في فلسطين ، وليس هذا فحسب بل إن رئيسها وايزمن حاول تملّك بعض المواقع والممتلكات الإسلامية الهامة مثل الممر المؤدي إلى (حائط البراق) بحجة أنه (حائط المبكى) الأثر الوحيد المتخلّف عن هيكل سليمان . ولعلمه باستحالة بيع أو شراء أية أملاك للأوقاف الإسلامية تقدّم بعرض سخي للإدارة العسكرية تمثّل بطلب مبادلة قطع أخرى بهذا الوقف وبشكل قانوني فضلاً عن دفع خمسة وسبعين ألف جنيه على سبيل التعويض .

- وهل نجح في مسعاه؟
سأله ذياب ، فأجابه رمزي قائلاً :
- يبدو أن الحاكم العسكري كان يميل إلى الموافقة ، برغم علمه باستحالة ذلك دون موافقة المفتي ؛ وهكذا اتصل به وحاول إغراءه بالقبول لقاء رصد ذلك المبلغ الكبير لتعليم أولاد المسلمين . بيد أن كامل الحسيني رفض الأمر رفضاً قاطعاً مؤكداً أنه لا يسع أي إنسان التصرّف بأملاك الوقف ولا سيما (ممر البراق) على وجه التحديد - إذ انه من وقف (أبو مدين) - وبأي مبلغ حتى لو كان الطرف المستفيد مسلماً ، فكيف والمستفيد يهودي ، بل من كبار زعماء هذه الطائفة التي لا يخفى على أحد سعيها الدؤوب لامتلاك الحائط وما جاوره؟

أنهى رمزي إليهما بما أخبره به زواره ليطلب منهما ، في خاتمة كلامه ، إرجاء سفرهما إلى دمشق بعض الوقت ليشاركاه في مراقبة تطور تلك الأحداث ؛ ذلك لأن تلك البعثة لم تغادر فلسطين ، بل إنها شرعت في القيام بجولة في مدنها موسّعة اتصالاتها باليهود .

- ولكننا وعدنا فايد العايد على موافاته في دمشق بعد مرور أسبوع على أبعد تقدير .

رد ذياب معترضاً ، فأجابه رمزي مبتسماً :
- تأكّد يا صديقي أن فايد هو الآن في شاغل عن الاهتمام بإيفائكما بذلك الوعد ؛ ذلك لأن من المؤكد أن لقاءه روز أنساه اسمه!

وهكذا قرر إسماعيل وذياب إرجاء سفرهما إلى دمشق وفي ظنهما أن بقاءهما في القدس لن يتخطى الأسبوع دون أن يخطر لهما أنه سيمتد إلى أسابيع يقضيانها بمرافقة رمزي وهو يقودهما إلى زيارة أشهر معالم هذه المدينة العريقة التي ما مرّ بها محبّ أو غازٍ أو مستطرق إلا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ورغب في أن يخلّف وراءه أثراً يستدلّ به على ذلك المرور . وكانت قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وما توزع حولهما من منشآت إسلامية ومدارس وقباب وأسبلة وزوايا ، في مقدمة الأماكن التي قضوا فيها أياماً توزعت بين أداء الصلاة وتفقّد روعة تلك الصروح المعمارية الحافلة بصنوف الريازة الإسلامية التي تأخذ بجمالها بالألباب .

وكان لمنبر المسجد الأقصى سحره الخاص عليهما ليس لجماله فحسب - إذ إنه كان مصنوعاً من قطع خشبية مرصعة بالعاج والأبنوس جمعت إلى بعضها دون استعمال مسمار معدني واحد - بل لارتباطه باسم صاحبه صلاح الدين الأيوبي الذي أمر بجلبه من حلب ليوضع في حرم ذلك المسجد رمزاً لانتصاره على الصليبيين في معركة حطين . وكان (ممر البراق) ، الذي يشكّل الجزء الجنوبي من جدار الحرم ، من الأماكن التي حرصوا على زيارتها حيث وقفوا دقائق يتأمّلون ذلك الحائط محاولين اكتشاف سر حرص اليهود على امتلاكه ببذل مبالغ طائلة .

وكان الحائط بعلو عشرين متراً ، يتكون من أحجار ضخمة تدلّتْ من بين مفاصلها نباتات طفيلية ، وثمة أعداد قليلة من اليهود الغارقين بملابس سود يتلمّسون تلك الأحجار بخشوع مقبّلين إياها بولهٍ .

كما خصّوا كنيسة القيامة ، التي أنشئت على الموضع نفسه الذي صلب فيه السيد المسيح فوق تلة الجلجلة ، بأكثر من زيارة . ويوم قادهما رمزي لزيارة كنيسة ستنا مريم تلفت الاثنان حولهما دون أن يريا غير أرض صخرية امتلأت بأشجار زيتون تخللتها بضعة قبور قال عنها رمزي إنها تابعة للروم الأرثوذكس . وحين سألاه عن الكنيسة تقدمهما مسروراً لينحدر بهما نحو سلّم محفور في جوف الأرض انتهى بكهف

واسع انتصب فيه سرير العذراء الرخامي حيث يحرص المسيحيون على المرور تحته متبركين دون أن ينسوا سحب الماء من بئر قديمة ليتطهروا به .

وصعد رمزي بهما بعد أيام جبل الزيتون ليزوروا قرية الطور وكنيسة الصعود حيث ثمة صخرة صقلتها الشفاه والأكف على مدى قرون وهي تنكبّ عليها لثماً تبرّكاً بأثر قدم المسيح الذي انطبع عليها لحظة صعوده إلى السماء .

هكذا تعاقبت الأيام ورمزي لا يكلّ ولا يملّ من القيام بتلك الجولات دون أن ينسى إثارة حميّة ذياب ، كلما أفصح عن بادرة سأم ، بتذكيره باستمرار تلك البعثة الصهيونية في تحرّكها بين المدن الفلسطينية لتعمد إلى عقد مؤتمر في يافا أعلنت فيه برنامجها الهادف إلى إنشاء وطن قومي لليهود في (أرض إسرائيل) ـ شاطبين بذلك اسم فلسطين! ـ اختاروا له علماً مزدانا بنجمة داود السداسية .

وعلى النقيض من ذياب لم يكن إسماعيل يكتفي بالاستمتاع بتلك الجولات فحسب ، بل إنه كان يستعيد تفاصيلها لحظة انفرادهما بغرفتهما ، لا شيء يمنعه عن ذلك الاسترسال في أحاديثه إلا لحظة سماعه صوت فاطمة أو وقع قبقابيها الخشبيين يتردد خلف الباب الموارب وهي تجتاز الحوش لأمر ما ؛ إذ إنه كان يتجمّد في موضعه مصعوقاً وقد شحب لونه . وكان ذياب يتلفّت حوله حائراً محاولاً أن يفقه سر الأعراض البادية على صديقه ، حتى أنه لم يملك ، في إحدى المرات ، إلا أن يسأله عما دهاه؟ ففوجئ بإسماعيل يمسك بكفه ليضعها على الجانب الأيسر من صدره ، فجفل ذياب على دقات ذلك القلب الذي بدا موشكاً على الانفجار!

– يا إلهي! . . . أوقعتَ في حب فاطمة بمثل هذه السرعة؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صاح ذياب وقد نسي نفسه ، فأجابه إسماعيل همساً مطبقاً كفّه على فمه حتى كاد يكتم أنفاسه :

– لقد جعلني رمزي ، بقلقه الدائم عليها ، أحبها قبل أن أراها ، أما الآن . . . فالأمر كما ترى!

صباح اليوم التالي حمل رمزي طبق الفطور إلى غرفتهما ليخبرهما ، وهو يشاركهما في التهام حبات الزيتون ، بضرورة الاستعداد للاشتراك صباح الغد في موكب سيتصدّى لموكب لليهود يسعى وايزمن إلى إقامته في القدس للاحتفال ابتهاجاً بالثاني من تشرين الثاني الذكرى الأولى لوعد بلفور . وقبل مغادرتهم البيت ، قدم من أبلغ رمزي بأن الحاكم العسكري البريطاني أعلم المسؤولين عن تنظيم ذلك الموكب أنه سيعتقل كل من يشارك فيه . وحين سُئِل عن مغزى إقراره البرنامج الاحتفالي الصهيوني؟ أجاب أنه اشترط عليهم التفرّق قبل وصولهم إلى باب الخليل تجنّباً للاصطدام بالمسلمين والمسيحيين المنتشرين هناك بكثافة!

بيد أن ذلك لم يمنع الثلاثة من مغادرة البيت ليلتقوا أعداداً من المقدسيين وقد خيّم الوجوم على وجوههم . وكان الجميع يبدون التذمر والاستنكار لانحياز الحاكم العسكري إلى جانب اليهود . حتى إذا ما سَرَتْ شائعة مفادها أن القيادة العسكرية ألقت القبض على اثنين من الشباب العرب ، كانا من جملة حشد اصطدم بمسيرة من الطلبة اليهود ، انفجرت مشاعر الغضب ؛ فتقاطر الناس من مختلف الأحياء لينطلقوا في تظاهرة احتجاج صاخبة ذكّرتْ ذياب بالمعارك الحربية التي أسهم فيها في غزّة منذ التحاق فوج الإسماعيلية بالجيش العربي مع التنبه لفارق جوهري تمثل باستبدالهم الصراخ بالرصاص!

(٤)

– تلك كانت أول مظاهرة نشارك فيها لتعقبها سلسلة مظاهرات ضجّت بها مدينة دمشق حيث التقيتُ أباك هناك أول مرة .

تحدث الحاج ذياب رؤوف وقد وجّه نحوي نظارتيه ، فضجّ الجالسون في (الديوخانة) في التعليق عن تلك الأيام الغابرة وذكرياتهم عن المظاهرات التي انطلقت في بغداد أيضاً حيث رجال الشبانة كانوا يتصدون لهم بالرصاص .

واعترض أبي مصحّحاً كلام الحاج ذياب :

– نحن لم نلتقِ في دمشق إلا في شهر آذار من سنة ١٩٢٠ ، في الثامن منه على وجه التحديد حينما عُقد ذلك المؤتمر الذي اجتمع فيه العراقيون الموجودون في سوريا ليعلنوا ، من شرفة دار البلدية في ساحة المرجة ، استقلال العراق في اليوم نفسه الذي أعلن فيه السوريون استقلال بلدهم .

– لعل الأمر كما تقول يا صديقي ، ولكن ما قيمة سنة أو أكثر أخطأتُ في تحديدها وقد أهدرنا أعمارنا دون حساب؟

أجابه الحاج ذياب مستهيناً ، لكن أبي ، بدقته وصرامته المعهودتين ، لم يستسلم ، إنما مضى يذكر له الشواهد والأدلّة التي برهن بها على صحة رأيه تاركاً إياي أصغي إليه وأنا أغبط نفسي لحصول تلك المصادفة التي (ضبطني) فيها أبي منفرداً بغرفة الدرويش يوسف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بجامع سراج الدين ؛ ذلك لأن الأوان كان قد حان ليغدو أبي نفسه أحد رواة تلك الأحداث!

وانقضت دقائق وأبي والحاج ذياب يتجادلان عمّا حصل آنذاك مقلّبين صفحات ذكرياتهما المشتركة في دمشق ، في حين كان الملا شكر قد نام وهو جالس على أريكته وثمة سيجارة تجود بآخر أنفاسها لا تزال مستقرّة بين أصابعه ، معلناً بذلك استسلامه النهائي لغريمه الحاج ذياب رؤوف الذي كان قد استقطب انتباه الحضور دون استثناء .

– ستبقى دمشق مرتبطة في ذهني بخرير المياه ، المياه المنبثقة من الفسقيات التي لا يكاد بيت من البيوت يخلو منها وهي تنبثق عالياً لتعاود انصبابها في البرك المحيطة بها والتي يسميها الدمشقيون باسم (البحرات) .

واصل الحاج ذياب الكلام متحدّثاً ، هذه المرة ، عن اليوم الأول لوصوله إلى دمشق وفي رفقته إسماعيل ، والجهود التي بذلاها في البحث والسؤال عن البيت المنشود الذي سبق لفايد العايد أن سجّل لهما عنوانه والزقاق الذي يقع فيه في حارة باب المصلى . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب لحظة انفتح الباب على وجه فايد الوسيم . وبرغم حرارة استقباله إياهما لم يفت ذياب ملاحظة مسحة حزن كانت تثقل اساريره لتتوضح بشكل جليّ في عينيه السوداوين ولا سيما حين كانت تطلّ منهما نظرات شاردة مثقلة بالأسى ، وهو أمر لم يغب عن إسماعيل أيضاً ؛ فقد همس لذياب قائلاً إن ثمة أمراً ما حصل كدّر على صديقهما صفو عودته إلى مدينته .

كان البيت يبدأ بدهليز ينفتح على أرض مرصوفة بالأحجار ، تتوسطها فسقية لا تكفّ عن الخرير ، وثمة نباتات متسلقة عرّشت

على الجدران فضلاً عن بضع شجيرات حمضيات موزّعة هنا وهناك .

قادهما فايد إلى إحدى الغرف المطلّة على تلك الحديقة الداخلية حيث ما كادوا يجلسون على المقاعد حتى قال ذياب :

- لم يعد ينقصنا الآن سوى يوسف ؛ فقد توقعت أن التقيه في صحبتك .

فطمأنه فايد على يوسف قائلاً إنه الحقه بالعمل في صحيفة (اليقظة) . وأردف وهو يسحب نحوهم طاولة واطئة كانت في متناول يده :

- كما سألحقكما صباح الغد بالعمل هناك وذلك باقتراح من كامل الأطرش نفسه!

وحين تساءل إسماعيل عن سرّ اهتمام رجل بشهرة كامل الأطرش بشأن شخصين مغمورين مثلهما؟ أجابه فايد منوّهاً بأن كامل الأطرش حرص ، منذ عودته إلى دمشق ، على أن يلمّ بدقائق أحداث الثورة العربية ولا سيما الأدوار البطولية التي تميّز بها عدد من المساهمين فيها ليتوقّف مليّاً عند إسماعيل الذي وجد فيه نموذجاً نادراً يستدعي التأمّل حتى أنه بقي مدار أحاديثه مع فايد أسابيع متلاحقة : لا يكادان يلتقيان حتى يحثّ فايد على أن يزوّده بكل ما يعرف من أخبار إسماعيل سواء قبل انضمامه إلى الثورة العربية أم بعدها ، عامداً إلى تدوين ملاحظات سريعة قد تعينه في كتابة سلسلة مقالات يفكر بكتابتها ونشرها في جريدته عن تلك الثورة متخذاً من إسماعيل نموذجاً لما جرى .

وكان قد جيء بالعشاء الذي ضمّ أكلات شامية لم يسبق لذياب وإسماعيل تذوقها مثل (فتة المكدوس) و(البرك) و(اليلنجي) . حتى إذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما أنهوا عشاءهم انصرفوا ، في أثناء تناولهم الفواكه ، إلى تبادل آخر الأخبار ، متوصّلين في ختامها إلى أن الوضع لا يبشّر بخير ؛ فالدلائل كلها تشير إلى أن البريطانيين والفرنسيين مستمرون في تنفيذ بنود اتفاقية (سايكس - بيكو) و(وعد بلفور) ؛ فبعد انحياز الإنكليز الواضح في القدس إلى جانب وايزمن واليهود الذين معه ها هو كولوندر نائب المندوب السامي الفرنسي يقابل الأمير فيصل في السابع من تشرين الأول المنصرم ليحتجّ بكل وقاحة على إرسال الحكومة السورية الجديدة شكري باشا الأيوبي إلى بيروت بصفة حاكم عام على لبنان حيث عمد إلى رفع العلم العربي على دار الحكومة هناك ؛ فلم يجد الأمير فيصل بّداً من إصدار أمر بسحب الأيوبي ليتولى الكولونيل بياباب الحكم في لبنان بادئاً عمله بإنزال ذلك العلم الذي لم يخفق في سماء بيروت سوى يومين فقط .

- أذلك إذن سبب حزنك؟

فاجأ إسماعيل فايد العايد بذلك السؤال ، فأعاد هذا التفاحة التي لم يكن قد انتهى من تقشيرها إلى الطبق ، وأجاب وهو يمسح كفيه بمنديله :

- لا بطبيعة الحال ؛ فما جرى كنت أجزم حدوثه ، لا بل إنني أتوقّع حصول الأسوأ في المستقبل ؛ ذلك لأنه آن للمنتصرين في الحرب - أعني بريطانيا وفرنسا - توزيع الغنائم بينهما!

- أيتعلّق الأمر بروز إذن؟

تساءل ذياب هذه المرة ، فرمقه فايد بنظرة سريعة وهو يهز رأسه إيجاباً ، فعاد إسماعيل يسأله :

- أتزوجتْ ابن قريبها المسيحي؟

- لا . . . لم تتزوجه .

أجاب فايد ليستطرد ، وسط حيرة صديقيه ، متحدّثاً عن يوم وصوله إلى دمشق ولهفته لمعرفة مصير حبيبته ؛ إذ حرص ، على مدى أيام ، على الوقوف وقتاً طويلاً عند باب الدار دأب في أثنائه على الردّ ، على ترحيب الجيران بعودته ، بأعلى صوته على أمل أن يتناهى إلى سمع روز لتعلم بوصوله . بيد أن الأبواب القريبة انفتحت باستثناء باب البيت المقابل ؛ فقد بقي مطبقاً وكأنما هجره أهله ، فصبر أياماً مؤمّلاً نفسه باحتمال أن يتبرع واحد من أفراد أسرته فيفضي إليه بما حصل لروز عقب رحيله ، بيد أن تلك الأمنية لم تتحقق ؛ فمنذ اليوم الذي انقلب البيت فيه رأساً على عقب ، حين طلب من أهله التقدّم إلى خطبة روز ، بات ذكر هذا الاسم محظوراً على الجميع ، فلجأ فايد إلى وسيلة أخرى سعياً منه لمعرفة ما جرى لحبيبته بغيابه ؛ فكلّما اجتاز الزقاق ، متّخذاً سبيله نحو مقر جريدة (اليقظة) الواقع على بعد بضعة أزقة ، قفل راجعاً إلى البيت بعذر من الأعذار عسى أن تتحقق المعجزة ويلتقي روز . ولكن عبثاً ؛ فالأمر الوحيد الذي حصل هو لقاء إحدى شقيقاتها وجهاً لوجه لحظة فتحها باب بيتهم ، لكنها سارعت بإطباقه بعنف كأنها حسبته عزرائيل!

ما الذي حصل في أثناء سنوات غيابه في الحجاز؟ ولماذا يحمّله الجميع وزر أمر مجهول يتحرّق رغبة لمعرفته؟ هكذا مرت الأيام وهو يقلّب الأمر في ذهنه إلى أن حدث ذات يوم آخر ما خطر له على بال ؛ فلحظة مروره بكنيسة القديس جاورجوس الصغيرة فوجئ بطابور أطفال يخرجون من هناك بانتظام تقودهم راهبة شابّة غارقة بملابسها السود لم تكن غير روز نفسها!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- روز راهبة؟!

- كيف حدث ذلك؟!

صاح إسماعيل وذياب بدهشة ، فتنقّل فايد بعينيه المثقلتين بالأسى بينهما ، وهو يقول :

- ما آلمني في تلك اللحظة ، وقد التقت عيناي عينيها الزرقاوين اللتين كنت متعطشاً لنظرة واحدة منهما ، ما آلمني حقاً هو أنها تخطتني بنظرتها كأنها لم يسبق لها أن عرفتني لتواصل قيادة هؤلاء الأطفال على امتداد الشارع دون أن تقوم بالتفاتة واحدة إلى الوراء!

ومضت دقائق وفايد يتجنّب مبادلتهما النظر . حتى إذا ما سيطر على نفسه واصل الكلام متحدثاً عن كيفية معرفته بما جرى لروز بعد رحيله إلى الحجاز : فبوساطة أحد أصدقائه المسيحيين من قاطني الزقاق نفسه عرف بالضجّة التي أثارتها روز بعدما بقي ذلك القريب مصرّاً على تزويجها ابنه ؛ فقد عادت كما كانت في صباها لا تتورع عن الإقدام على ما لا يخطر على بال حتى أنها عمدت إلى إغلاق الباب في وجهه يوم قدم لسماع رأيها الأخير ، وهي تصيح به محذّرة إياه من أنها (ستكسر رجليه) إن تجرأ على تخطّي عتبة البيت مجدداً ، فصاح بها بدوره من وراء الباب المغلق إنْ كانت ستخيفه بتهديده بـ(شبريتها) أم بـ(بونيتها)؟ - قال ذلك في محاولة لئيمة منه ليذكّرها بشيطنتها في طفولتها - بيد أنها لم تنهزم ؛ فقد أجابته وهي تركل الباب بقدمها :

- بالاثنتين معاً!

وبرغم أنها نجحت في مسعاها ؛ فانقطع ذلك القريب عن القدوم إليهم بعد تلك (الفضيحة) التي أصبحت حديث الزقاق ، إلا أنها خسرت دعم أبيها ؛ فقد خرج عن طوره - وهو الوديع المسالم - وصاح

بها منوّهاً أنه لا يخفى عنه سر رفضها لهذا الزواج ، وأنه سيعمد إلى تزويجها صاغرة متى ما (تنازل) مسيحي صالح بـ(المجازفة) بالتقدم إليها خاطباً ؛ ذلك لأنه آن لها أن تدرك أنها كبرت ولم تعد تلك الطفلة التي لم يكن يردّ لها طلباً . منذ ذلك اليوم أدركت روز مغزى فقدها دعم أبيها ، فلاذت بالصمت ، وأصبح من دأبها التوجه يومياً إلى كنيسة القديس جاورجوس القريبة لتفاجئ أباها ذات يوم بقولها إنها انتسبت إلى سلك الرهبنة ناذرة نفسها لخدمة تلك الكنيسة ملتزمة ، في الوقت نفسه ، بالعمل في مجال التمريض وتربية الأيتام!

- أيعني ذلك أنه لا سبيل إلى أن تتزوجها في المستقبل؟

تساءل ذياب مستنكراً ، فأجابه فايد جازماً :

- قطعاً .

ومضى يشرح لهما كيف أن الانتساب إلى الرهبانية لدى المسيحيين الكاثوليك يشترط كون الفتاة عذراء فضلاً عن شروط أخرى لا تقلّ صرامة عن ذلك الشرط مثل الالتزام بالصلاة وطاعة قوانين الرهبنة والخدمة والعيش في الكنيسة طيلة أيام حياتها بعد إيفائها بآخر نذورها .

تلك الليلة ، وبعد لجوئهما إلى فراشهما الذي أعدّه لهما فايد في الغرفة نفسها ، بقي ذياب يتقلّب على حشيته وقد جفاه النوم مفكّراً بخاتمة قصة حب فايد غير المتوقعة : فعلى امتداد الأشهر الأخيرة التي مرّت بهم في العقبة - وهم في انتظار فتح باب التسريح من الجيش العربي - كان حب فايد لروز مدار أحاديثهم حتى أن فايد كان يصارحهم بأنه يجد في روز عزاءه الوحيد بعد تبدد حلمه (الثوري) بقرب تحرر العرب!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ألم تنم بعد يا ذياب؟

انتبه ذياب لإسماعيل يسأله ، فانقلب على جنبه ليجيبه وهو يحدق في ظلام الغرفة :

- وكيف أجد إلى النوم سبيلاً وسط ضجة هذه الفسقية التي لا تكف عن الخرير؟

- أتدري بأنني أشكر الله لأنه لا توجد رهبانية في الإسلام؟

- ولماذا؟ أهناك حبيبة تركتها وراءك في بغداد كنت تخشى أن تترهبن؟

- كانت لدي واحدة توهّمتُ ، قبل أعوام ، بأنني أحببتها ، لكنها عوضاً عن أن تترهبن هجرت بغداد إلى بومباي ، فلندن .

أجابه إسماعيل قبل أن يضيف :

- كان اسمها سارة!

فعلّق ذياب بمكر :

- ظننت اسمها . . . فاطمة!

ومرّت لحظات قبل أن يتردد صوت إسماعيل في ظلام الغرفة :

- أخشى أنك مصيب في ظنك .

- أأنت واثق من حبك إياها؟

- ثقتي بأن قلبي لا يخدعني حينما يتسارع نبضه مع ذكر اسمها!

وخيّم صمت جديد ملأته الفسقية بضجة المياه المنبثقة منها قبل أن يهمس إسماعيل بشيء من تردد :

- لقد انفردتُ بها قبل مغادرتنا القدس وصارحتها بحقيقة مشاعري نحوها!

صاح ذياب وقد انثنى جالساً في فراشه :

– محال! . . . كيف انفردت بها في بيت يكاد يكون أشبه بخلية نحل؟

– لم انفرد بها في البيت بطبيعة الحال ، إنما عند مدخل الزقاق بين (سرايا الست) وتربتها على وجه التحديد ، وقد حدث ذلك مصادفة ؛ إذ إنني كنت عائداً من آخر جولة قمت بها في الأزقة المجاورة مودّعاً القدس حين مرّت بي فاطمة مرتقية درجات الزقاق وهي محمّلة بأكداس من الخضر والفواكه وأكياس المؤونة . حيّتني بصوت أخذ به التعب ، فسارعت إلى إيقافها لأتلقف منها حملها معاتباً إياها لكونها لم تكلفني بأداء تلك المهمة ، فأجابتني وهي تلتقط أنفاسها معيدة ترتيب الملاءة حول جسدها رامقة إياي بنظرة باسمة من عينيها الذهبيتين بأنها اعتادت القيام بهذه المهام منذ سنوات ، فقلت لها إنه آن لها أن تكفّ عن الاستمرار بها الآن ، فسألتني وقد تحولت ابتسامتها إلى ضحكة : ولكن لماذا الآن؟ فلم أحر جواباً وإنما اكتفيت بأن بادلتها نظرة طويلة قبل أن أواصل معها ارتقاء الدرجات الحجرية وقد تلبّستني حالة غريبة هجست معها بأن فاطمة تبادلني المشاعر نفسها . لا تطلب مني أن أفسرّ لك كيفية تأكدي من ذلك ؛ فالمهم في تلك اللحظة هو تلك المشاعر المشتركة التي تلبّستنا نحن الاثنين والتي دفعت بفاطمة إلى أن تعلّق ، وهي تكاد تذوب حياء ، أنها بصدد أن تعدّ لسفري إلى دمشق بضع أكلات فلسطينية ، فضلاً عن أن طبق الحلوى لتلك الليلة سيكون الهيطلية! . . وسألتني ، حينما وجدتني لا أحير جواباً ، إن لم تكن تلك الحلوى قد أعجبتني؟ فأجبتها مازحاً : أعجبتني كثيراً حتى أنها قد تدفع بي إلى العودة إلى القدس مجدداً لأجل تذوّقها ، فأبدت استعدادها لتعمل ذلك الصنف مع كل زيارة لي إلى القدس . وأضافت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

محاولة تسويغ فلتة لسانها أن أخاها رمزي يعزّني كثيراً ، وأنني أكاد أشكّل محور أحاديثه ، لا يكفّ عن إشادته بي منذ تعرّفه إليّ في معسكر الأسرى في الهند إلى يوم اصطحابه إلى القدس ، فوجدتها فرصة سانحة لأنوّه لها بحقيقة مشاعري نحوها ؛ فحدّثتها عن قلق رمزي الدائم عليها ، وكيف أنه أعداني بذلك القلق . وعلّقتُ قائلاً إن المرء لا يقلق عادة إلا على من يمنحه عميق حبه ، وذلك كان شأن رمزي معها . وأضفتُ ، حينما وجدتها لا تحير جواباً وهي تمشي بجانبي بخطاها الرشيقة ، أن ذلك لم يكن شأن رمزي وحده . وجازفت بأن أكملت - وأنا أرى وجهها وقد تشرّب بحمرة الخجل - بل شأني أنا كذلك!

(٥)

صباح اليوم التالي توجّهوا إلى صحيفة (اليقظة) التي كانت تشغل مجمّعاً يتكوّن من غرف وقاعات لا يحصرها العدّ ، موزّعة على فسحة أرض شاسعة تتقدمها الفسقية المعهودة القائمة وسط ساحة مزدانة بدورها بأشجار ليمون وياسمين وبعرائش نباتات متسلقة ، تتطاير حولها العصافير مزقزقة مقتنصة بمهارة أسراب النحل المجدة في أثر رحيق آخر الأزهار التي كانت بتلاتها تتساقط على مياه البركة وقد استسلمت لمقدم الشتاء الوشيك . وكان المبنى يتميز بسعته وترفه ؛ ذلك لأن أرضه كانت مرصوفة بالرخام ، وحيطانه وسقوفه مزخرفة بالفسيفساء . وكان الجانب الأيمن يتألّف من غرف لسكن بعض العاملين في الصحيفة وبضمنهم يوسف ، في حين شغلت المطبعة وملحقاتها الجانب الأيسر . وكانت غرف المحررين تشغل الجانب المواجه للباب الخارجي .

قبل أن يتوجه بهما فايد إلى غرفته قادهما إلى قاعة التنضيد حيث يوسف كاد ، لفرط فرحته بلقائهما ، يبعثر حروف المقالة التي كان موشكاً على الانتهاء من تنضيدها . عانقهما وبادلهما القبلات وأكدّ لهما أنه سيلتحق بهما بعد دقائق .

ما كادا يستقران في غرفة فايد حتى جيء إليهما بالقهوة ، وأخذ العاملون في الجريدة يتقاطرون على تلك الغرفة مبادرين فايد بتحية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصـبـاح ، وكل واحـد منهم يعـرض عليـه مـا انتـهى من إعـداده ، مستشيرين إياه في ما يفترض بهم إنجازه ذلك النهار . بدا من الواضح أن فايد العايد يشكّل محور الصحيفة : يشرف – من خلف منضدة مثقلة ببضعة ملفات تجاورها علبة خشبية ومحفظة أوراق ومحبرة – على كل شاردة وواردة فيها .

كانت الغرفة واسعة ، تطلّ نافذتها على الساحة الضاجّة بخرير الفسقية وبصخب العصافير . وكانت جدرانها البيض تزدان بصفحات من الجريدة ، تحمل عناوين خُطّتْ بحروف كبيرة الحجم ، ترحّب بمقدم الأمير فيصل إلى دمشق ، مثنية على العهد الوطني الذي أنجز إصلاحات شاملة مطلقاً الحريات للناس . وكانت ثمة عناوين أخرى تدعو إلى العمل على لمّ شمل العرب ، تجاورها عناوين تطالب بالإبقاء على الحريات التي منحها الحكم العربي لحملة الأقلام الذين عانوا ما عانوه في عهد الاستبداد ومصادرة الحريات .

لم تكد تمضي دقائق على جلوسهم حتى التحق بهم يوسف مستبقاً اعتراض فايد بقوله :

– في وسعك الاطمئنان إلى أنني أنجزت كل ما كلّفت به ؛ فقد سهرت حتى مطلع الفجر في تنضيد حصتي من مقالات العدد اللاحق .

– سأعدّك مجازاً ليس اليوم فحسب ، بل على مدى اليومين القادمين لتصطحب صديقينا إلى أسواق دمشق لشراء ما سيحتاجان إليه .

أجابه فايد مبتسماً ، فاقترح يوسف وسط ضحكة لم يستطع لها منعاً :

- لم يبقَ إذن سوى إضافة يوم ثالث لأستثمره باصطحابهما لرؤية أبرز معالم المدينة ، فضلاً عن الاغتسال في حمام الدرب لإزالة غبار آخر المعارك عنهما .

- ولك ذلك أيضاً .

أجابه فايد ليستطرد متحدثاً عن الإجازات التي دأب يوسف على (استيفائها) منه منذ أول يوم من التحاقه بالعمل متحججاً تارة بزيارة الجامع الأموي ، وطوراً القلعة ، وثالثة للتمتع بجمال الطبيعة في الصالحية ، لينتهي في آخر الأمر بطلب إجازة لزيارة منطقة لا يكف الدمشقيون عن الإشادة بها ؛ فأينما توجه وجد الناس ولا حديث لهم سوى (السيران) . . وحينما حاول فايد أن يوضّح له أن (السيران) ليس مَعْلَماً من معالم المدينة ليزوره ، إنما هو تسمية تطلق على النزهات التي يقوم بها الناس ، ولا سيما في الربيع ، إلى بعض البساتين والمتنزهات ، سارع يوسف من فوره - دون أن يولي خطأه أي اهتمام - إلى تأكيد حرصه على مشاركة الدمشقيين في التمتع بـ(السيران) في عدد من المتنزهات!

وقال يوسف وهو يشاركهم في الضحك :

- يكفي إسماعيل وذياب العيش في دمشق بضعة أيام ليقتديا بي بمطاردتك في طلب الإجازات ؛ فالمدينة ساحرة كأنها جنة الله على الأرض ، لا يملّ المرء مداومة التجوال فيها .

فأجابه فايد ضاحكاً وهو يوقّع على ورقة ناولها إسماعيل :

- في هذه الحالة سارع بإرشادهما إلى مدير الحسابات ليصرف مقدماً ما يكفل لهما الإيفاء بحاجتهما قبل أن أصرف النظر عن تعيينهما!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فتبادل إسماعيل وذياب نظرة حائرة أدرك فايد من فوره مغزاها ؛ فقد سارع يضيف مهوّناً عليهما الأمر :

ـ لا تقلقا لكونكما لم يسبق لكما العمل في الصحافة ؛ ذلك لأنكما ستتعلمانها بالممارسة ؛ إذ ما من صحفي مرموق إلا وبدأ مهنته كمخبر محلي ، فكاتب شؤون محلية ، فكاتب مقالات سياسية ، وأخيراً كاتب مقالات افتتاحية . . . أو بدأها – على شاكلة يوسف – منضّد حروف ، فرئيس منضّدين ، فمشرف عام على طبع الجريدة شريطة الإقلال من أخذ الإجازات!

في الطريق إلى غرفة الحسابات تساءل ذياب عن سر تصرّف فايد العايد وكأنه صاحب الصحيفة ؛ يعيّن ويصرف المكافآت ويوجّه العاملين على هواه؟ فأجابه يوسف :

– إنه كذلك في واقع الحال ؛ فقد خوّله كامل الأطرش إدارة شؤون الجريدة نيابة عنه لينصرف هو إلى ملاحقة أعماله الخاصة ؛ إذ إنه بالغ الثراء : عمد إلى اقتناء سيارة – هذا الاختراع الجديد الباهظ الثمن – ليتنقل بها بين مزارعه وحقوله وبساتينه الموزعة بين سهول حوران ودرعا والسويداء ومعامل الحرير في دمشق ، باعثاً ، من حين إلى آخر ، بمقالاته الافتتاحية إلى جريدته .

وأردف موضّحاً أن إيرادات الجريدة لا تكاد تغطي تكاليف الطبع ومرتبات الموظفين والعمال لولا حرص كامل الأطرش على الصرف عليها من ماله الخاص حتى أنه لم يتوقف عن منح الموظفين مرتباتهم حينما أوقفت الجريدة عن الصدور في زمن جمال باشا السفاح .

وأضاف باعتزاز :

– لذا ترى العاملين يتفانون في عملهم كأنهم أسرة واحدة تجمعهم

الصحيفة تحت سقفها برغم أنهم خليط من سوريين ولبنانيين وعراقيين وفلسطينيين .

وهذا أمر تأكّد ذياب من صحته بعد مرور أيام ؛ فقد أُختيرتْ إحدى غرف الصحيفة لسكنهما - هو وإسماعيل - وبذلك تسنى له أن يلاحظ بشكل يومي جو الألفة والانسجام الذي يجمع المشتغلين في الصحيفة من عمال ورؤساء أقسام ومخبرين ومترجمين ومحاسبين وموزعين ومصححين ومصممين .

ولم يكن الدوام الرسمي في الصحيفة محدداً بساعات معينة ، بل كان مفتوحاً على مدار الساعة ؛ فعمال المطبعة مثلاً - ولا سيما الذين كانوا يسكنون خارج مبنى الجريدة - كانوا يفدون في الغالب فجراً ، أما الموزعون فكانوا يقدمون عادة ضحى لحظة صدور العدد الجديد ليتسلّم كل واحد منهم حصته التي يكون ملزماً بتوزيعها على مكتبات دمشق ، في حين كان المصححون أطول العاملين بقاء في الجريدة : ينكبّون على تصحيح المقالات والأخبار منذ لحظة تنضيدها حتى دفعها إلى المطبعة ؛ لذلك لم يكن مستغرباً أن ترى أحد العاملين في الجريدة مستغرقاً في وضع اللمسات الأخيرة على ما هو مكلف بإنجازه وهو جالس في مطعم الجريدة أو مقهاها في انتظار وجبة طعام أو كوب شاي يتمتع بهما في أثناء قيامه بعمله .

وكان إيليا خوري - رئيس مصممي الجريدة - الوحيد الذي كان يشذّ عن ذلك الجو الأسري ؛ ذلك لأنه كان نفوراً شديد الانطواء على نفسه ، يتجنّب ما وسعته الحيلة مخالطة الآخرين ، يردّ بلطف وابتسامة حذرة من يحاول اقتحام (مملكته) الموزّعة بين قاعة التصميم ومختبر الزنكغراف ، حتى إذا ما ثمل - وذلك ما كان يحدث كثيراً - انقلب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأساً على عقب ؛ إذ يغدو صريحاً ، بل على شيء من وقاحة : لا يردعه رادع من التصدي لأكبر العاملين في الجريدة وليكن كامل الأطرش نفسه!

وكان قد جسّد (وقاحاته) تلك بأكثر من رسم كاريكاتيري لم تسنح لذياب وإسماعيل فرصة التمتع بمشاهدتها إلا في إحدى نوبات ثمله ؛ فقد تبرّع بدعوتهما إلى قاعة التصميم حيث الجدران كانت مغطاة بمئات القطع الفنية الموزّعة بين لوحات وتخطيطات ورسوم كاريكتيرية وصور فوتوغرافية وخطوط محفورة بالزنكغراف وما شاكل ذلك . وكان من ضمنها بضعة رسوم رفضت الجريدة نشرها خوفاً من إثارة بعض الحساسيات لدى المسؤولين في السلطة الجديدة ، لعل أبرزها رسم كاريكتيري بدا من العسير فهم مغزاه دون الاستعانة بتفسير الرسام نفسه : وكان يتألّف من رسمين كُتبتْ تحتهما عبارة (سيزيف العرب) ، وكان الرسم الأيمن يمثّل مجموعة رجال يرتدون الكوفيات والعقل والطرابيش وهم يبذلون جهدهم في دفع صخرة هائلة الحجم تحمل عبارة (سايكس - بيكو) نحو أعلى تلة شديدة الانحدار . أما الرسم الثاني فكان يمثّل الرجال أنفسهم وقد انسحق أغلبهم تحت ثقل الصخرة التي شرعت بالانحدار إلى الأسفل لحظة بلوغها القمة!

بيد أن أبرز تلك الرسومات تمثّل برسم كاريكتيري عُلّق في صدر القاعة انتصب وسطه شخص عملاق بملامح بولغ في تضخيمها ، وقد أُسند إلى إحدى كتفيه سلّم خشبي طويل وقف على أعلى درجاته رجل ضئيل الحجم يشبه إيليا نفسه تماماً ، وكان قد كوّر كفه حول فمه ليصيح في أذن العملاق بعبارة كُتبَ نصّها أسفل الرسم على شكل حوار :

- متى سترقّيني يا (أطرش)؟

فيجيبه العملاق وهو يشير بسبابته الغليظة نحو السلّم :

- أتنشد ترقية أعلى من هذه؟

لقد أضحك ذلك الرسم ذياب وإسماعيل كثيراً ، إلا أن ما لم يستوعباه هو المبالغة في تضخيم كل ما يمتّ إلى كامل الأطرش بصلة . وحين سألا إيليا عن سر ذلك ردّ وهو يرمقهما بنظرة ماكرة :

- يبدو أنكما لم تلتقيا الأطرش بعد!

وحين أيّدا استنتاجه أكمل ضاحكاً :

- إذن ستكتشفان السر لحظة حصول ذلك اللقاء!

بيد أن ذلك اللقاء لم يتم إلا بعد مرور أشهر بقي كامل الأطرش خلالها محور اهتمام العاملين في الجريدة : يلاحقون متلهفين ، بين أسبوع وآخر ، مقالاته الافتتاحية التي كان قد كرّسها لموضوع الساعة : مؤتمر الصلح في فرساي ؛ ذلك لأنه ، بأسلوبه التهكّمي اللمّاح ، كان يعرف كيف يكسب تعاطف القراء معه : فقد تابع ، في مقالاته ، رحلة الأمير فيصل إلى أوربا ، والتي لم تنتهِ بعد ، سعياً منه إلى تذليل العراقيل التي دأب الفرنسيون على وضعها في طريقه محاولين بذلك نفي الصفة التمثيلية والرسمية عنه وصولاً إلى إبعاده عن المشاركة في هذا المؤتمر الذي عُقد عقب انتهاء الحرب .

كان كامل الأطرش يبدو ملمّاً بكل صغيرة وكبيرة مرّت بالأمير فيصل في تلك الرحلة كأنه رافقه فيها ، أو استقى معلوماته من مصادر مقربة ملمّة بأدق أسرار تلك الرحلة الطويلة . وكان أكثر ما أثار ذياب في تلك المقالات ذلك الحديث المرير عن انكشاف (الوجه المستتر) للسياسة الأوربية للأمير فيصل ؛ إذ إنه أدرك آنذاك فقط أن اتفاقية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(سايكس - بيكو) السريّة لم تكن (خرافة) ابتدعها الخيال (البلشفي) الماكر، بل إنها حقيقة مجسّدة وضعها كليمنصو، رئيس وزراء فرنسا، ولويد جورج، رئيس وزراء بريطانيا، بينهما على مائدة أطماعهما الاستعمارية لينكبّا عليها بمخالب وأنياب تقطر دماً متخلين بذلك عن (أتكيتهما) المتحضّر الذي كان يفترض بهما استعمال الشوكة والسكين!

بتلك الطريقة اللمّاحة تحدّث كامل الأطرش عن كيفية إغراق الفرنسيين الأمير فيصل بالشكليّات الرسمية التي كفلت لهم إبعاده عن المؤتمر أطول مدة ممكنة: فمن إقامة مأدب فخمة له، إلى الحرص على قيامه بزيارات إلى ميادين القتال في الجبهة الغربية، إلى نفض الغبار عن وسام مهمل في أحد أدراج وزارة الخارجية ليعلّقوه على صدره... حتى إذا ما استنفدوا تلك الوسائل تخلوا فجأة عن (بروتوكولاتهم) - كما كان شأنهم في التخلي عن استعمال الشوكة والسكين - ليعلنوا صراحة اعتراضهم على تعيينه ممثلاً عن العرب!

هكذا وجد الأمير فيصل نفسه وحيداً دون معين، لا أمل له في كسب من يقف إلى جانبه خلا البريطانيين الذين أبدوا له استعدادهم للقيام بذلك الدور لقاء موافقته على (الأماني الصهيونية) في فلسطين، بحجة أنهم لا يستطيعون دعم الأمير فيصل بمعزل عن حصولهم على مثل هذا (العمل الناجز) الذي سيواجهون به الفرنسيين في مؤتمر الصلح. وكان قد سبق للأمير فيصل أن التقى (وايزمن) في العقبة في شهر حزيران من السنة الماضية، فأكّد هذا له (أن الصهيونيين لا ينوون أن يعملوا على إنشاء حكومة يهودية في فلسطين، وأن كل ما يرغبون فيه هو أن يساعدوا في تطوير البلاد)!

انطلاقاً من هذا الفهم قرر الأمير فيصل التوقيع على تلك الاتفاقية مبرهناً للأوربيين على مدى استعداده للمضيّ في مسألة التعاون بين العرب واليهود ما دام ذلك لا يتعارض مع استقلال العرب ، وهو أمر حرص على أن يعززه بهامش كتبه بخط يده أسفل تلك الاتفاقية قبل أن يوقّعها مشترطاً موافقته على تنفيذها مقترنة بـ(إنجاز بريطانيا العظمى لوعودها التي قطعتها على نفسها في أمر استقلال العرب) .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٦)

ومضى كامل الأطرش في نشر مقالاته دون أن يدرك وجود معجبين على شاكلة ذياب وإسماعيل اللذين كان أحدهما ينافس الآخر في قراءة تلك المقالات في أثناء تنضيدها وقبل ظهورها منشورة في صدر صحيفته ، حتى إذا ما تردد ، ذات يوم ، صوت منبّه سيارة أعقبه صليل بوابة مبنى الجريدة وهي تفتح لاستقبال كامل الأطرش هرع ذياب وإسماعيل إلى غرفة فايد العايد لعلمهما أن صاحب الجريدة اعتاد المرور بتلك الغرفة قبل أن ينفرد بغرفته التي كان من المألوف أن تبقى في غيابه مغلقة .

لم تكد تمضي دقائق حتى اعتكر الضوء المتدفق من خلال الباب على قامة كامل الأطرش العملاقة الذي كان يرتدي ملابس على أحدث طراز ، يعلو رأسه الضخم الطربوش الأحمر المعهود . وهبّ فايد واقفاً في استقباله متنحّياً عن منضدته جانباً ، فجاراه ذياب وإسماعيل بالوقوف متأمّلين ذلك الوجه اللحيم الذي تقاسمته ملامح ثقيلة ذكّرتْ ذياب برسم إيليا خوري الكاريكتيري ؛ فقد كانت عيناه كبيرتين ، يعلوهما حاجبان كثّان ينحدر منهما انف ضخم يجثم تحته شاربان جباران معقودا الطرفين إلى الأعلى .

- انتظر . . . دعني أخمّن من منهما إسماعيل!

صاح كامل الأطرش بصوت مدوٍ مانعاً فايد من التعريف

بصديقيه . ودحرج هيكله العملاق ليتهالك جالساً على الكرسيّ الذي أنّتْ مفاصله تحت وطأة الثقل المفاجئ ، في حين اندفعت المنضدة إلى الأمام مفسحة أكبر مجال للوافد الجديد .

– من المؤكد أن إسماعيل هو أنت!

أعلن كامل الأطرش وهو يشير بسبابته الغليظة نحو إسماعيل .

بدت طريقته في الكلام على شاكلته في ضخامة الحجم : حاسمة ، لا تدع للآخرين مجالاً للاعتراض ؛ حتى أن ذياب رؤوف تردد طويلاً قبل أن يجازف بسؤاله :

– ولكنْ . . . كيف شخّصتَ إسماعيل من بيننا نحن الاثنين؟

– الأمر غاية في البساطة ؛ فبوجود شخصين يتصف أحدهما بكل السمات الجديرة بالمغامرين ، في حين يبدو الآخر وكأنه استعار عيناً من الشرق والثانية من الغرب لا تملك إلا أن توقن بأن الشخص الأول هو المنشود!

وضجّت الغرفة بعاصفة ضحك . وكان كامل الأطرش الوحيد الذي حافظ على وقاره في انتظار أن يعمّ الصمت ليضيف قائلاً بكل جدية :

– كأنني بكما أشبه ما تكونان بعنترة و . . . شيبوب!

وعادوا يضجّون في ضحك ازداد استعاراً حين تساءل ذياب بكل براءة :

– ولكن . . . من منا هو شيبوب؟

هكذا بدأ كامل الأطرش في إتحافهم بطرائف كان يزيد من وقعها حفاظه الدائم على جديته ووقاره . وكان أحد المستخدمين قد جاءه بعدد اليوم من الجريدة الذي كان يحمل على صفحته الأولى عنواناً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بخط كبير يعلن عودة الأمير فيصل إلى دمشق . وقضى كامل الأطرش دقائق في تصفّح الجريدة قبل أن يطويها ويركنها أمامه على المنضدة وهو يقول :

- ها هي أولى جولات فيصل تنتهي بنصف نجاح ونصف فشل .

- وهل هناك جولة أخرى؟

تساءل فايد متشككاً ، فأجابه كامل الأطرش وهو يرمقه بنظرة سريعة من عينيه الكبيرتين :

- بل قد تكون جولات ؛ ذلك لأنه لو كان مؤتمر الصلح مقتصراً على البريطانيين والفرنسيين لأنهوا المسألة خلال أيام تكفيهم لكي يتقاسموا بينهما تركة الدولة العثمانية بالتساوي مع منح الأمير فيصل المزيد من الأوسمة . لكن مشاركة دول أخرى في المؤتمر - ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية - حال بين تينك الدولتين وتحقيق مآربهما ؛ فالرئيس الأمريكي ولسون كان أول المؤيّدين للاقتراح الذي تقدّم به فيصل إلى المؤتمر بضرورة التحقق من رغبات الشعوب المعنيّة بالأمر حتى يمكن الوصول إلى تسوية عادلة ومستديمة . ولم يكتفِ ولسون بالتأييد فقط ؛ بل إنه طرح الأمر على الاقتراع في مؤتمر سري ، حتى إذا ما فاز بالموافقة اقترح ضرورة تعيين لجنة تحقيق مؤلّفة من أعضاء فرنسيين وبريطانيين وإيطاليين وأمريكيين ، يبعث بها إلى سوريا وإلى المناطق المجاورة لها لغرض استطلاع الحقائق وكتابة تقرير إلى مؤتمر الصلح .

واستدرك وهو يرمق الباب بنظرة محاذرة ليتأكّد من عدم وجود من يصغي إلى كلامه :

- أتدرون بردّة فعل فيصل حينما سمع بتأليف تلك اللجنة؟ لقد

أقدم ، من شدة فرحته ، على أمر لن يسعني ذكره في جريدتي .

وترك الرجال الثلاثة لحظات يتطلعون إليه بترقّب قبل أن يكاشفهم بالأمر :

– لقد عمد إلى عبّ كأس شمبانيا عبّاً كمن يشرب الماء – شأن كل مستجدّ على الشرب – حتى إذا ما دبّتْ النشوة في رأسه استقلّ عربة جاوز بها مقر الوفدين الأمريكي والبريطاني ليقف بها قبالة مبنى الفندق الذي ينزل فيه أعضاء الوفد الفرنسي ، ليقذفه بكل ما ملأ عربته من وسائد وحشايا قائلاً إنه لا يستطيع التعبير عن مشاعره إلا بتلك الطريقة ما دام لا يملك القنابل!

وأضاف بأسى :

– بيد أن ما أخشاه حقاً هو أن تكون فرحة فيصل دون مسوّغ ؛ ذلك ليقيني أن البريطانيين والفرنسيين سيعملون جهدهم على أن تكون النتائج ، التي ستتمخض عنها جولة تلك اللجنة ، في صالحهم .

فأيّده فايد العايد قائلاً :

– سيكون الأمر كما تقول ؛ فقد سبق لي أن اكتشفت هذا الأمر لدى الأوربيين – ولا سيما الإنكليز منهم – من خلال تعاملي معهم في جدة : لا بد لهم من تحقيق مآربهم بأية وسيلة من الوسائل .

– لعل ذلك كان سبب ترددي في الانضمام إلى صفوف الجيش العربي .

تكلم إسماعيل قبل أن يتابع :

– . . . ففرض الإنكليز وصايتهم على هذا الجيش أثار نفوري ؛ ذلك لأنني سبق لي أن عرفتهم على حقيقتهم أثناء فترة أسري في الهند .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتابع وقد ثبّت عينيه على كامل الأطرش كأنه يخصّه وحده بكلامه :

- ولا أكتمكم سراً أنني لم أستطع مغالبة مشاعري يوم سمعت بسقوط بغداد بأيدي الإنكليز في الحادي عشر من آذار - هذا تاريخ أسود لن أنساه أبداً - فانفردت بنفسي لأبكي بحرقة متذكّراً أبي يوم اصطحبني إلى السفينة التي كانت بصدد الإبحار بمجموعة من المجاهدين لغرض حماية مدينة البصرة من الاحتلال البريطاني ، وتذكرت إصراره على أن يحمل ، عوضاً عني ، متاعي . تذكرته وهو يشيح بوجهه الهرم عني كي لا أرى دموعه وهو يودعني بقوله (لا تنسَ أمك وأباك) . . لقد تذكّرت كل تلك الأمور لحظة سماعي باحتلال بغداد ومعها شعرت وكأنني تخليت عن أبي!

- ولكنْ لِمَ لا يكون أبوك هو الذي تخلّى عنك شأن آلاف الآباء الذين قدموا أبناءهم أضاحي مجانية في حرب لم يكن لهم فيها ناقة ولا جمل؟

تساءل كامل الأطرش قبل أن يضيف بطريقة ملغزة :

- بلى . . . لِمَ لا يكون هو الذي تخلّى عنك يا إسماعيل . . . الذبيح؟

(٧)

– تلك كانت المرة الأولى التي يُلّقّب فيها إسماعيل بـ(الذبيح) ، وهو لقب كان من المحتمل أن يطويه النسيان لولا أن كامل الأطرش رسّخه في الأذهان بعدما نشر في جريدته ، وعلى مدى أسابيع ، سلسلة مقالات سياسية جعل عنوانها (مقامات إسماعيل الذبيح)!

قالها الحاج ذياب روؤف وهو يشمل الحضور في (الديوخانة) بجولة من نظارتيه توقف بها على وجه أبي كأنه يستشهد به على صحة ما ذكر ، فسارع أبي إلى تأييده مؤكداً أنه سمع باسم إسماعيل الذبيح أول مرة عن طريق تلك المقالات التي شغف بها الكثير من القراء قبل أن يلتقيه شخصياً في ساحة المرجة يوم الثامن من آذار .

وصمت أبي لحظات استجمع خلالها أفكاره قبل أن يتابع :

– وقد تمثّلت المفارقة بأن إسماعيل الذبيح هذا لم يكن سوى بطل زورخانة الدهانة نفسه الذي كنت قد شغفت بمتابعة مبارياته في صباي!

وعاد الحاج ذياب رؤوف يكمل حديثه قبل مقاطعة أبي إياه :

– بدأ كامل الأطرش مقالته الأولى بطريقة ماكرة خيّل معها إلى من قرأها أنه بصدد فتح سجال ديني من تلك السجالات المعهودة التي يحاول أصحابها البرهنة على صحة وجهة نظر الطرف الذي ينتمون إليه بذكر حجج مفحمة سرعان ما يسعى الطرف الآخر إلى تفنيدها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بحجج مماثلة ، وذلك ما حصل مع تلك المقالة ؛ فقد أثارتْ ردود أفعال بين العاملين في الجريدة في أثناء تنضيدها وقبل ظهورها منشورة . وكان يوسف - الذي عُرف عنه منذ تلك الفترة إلمامه بالأمور الدينية - وإيليا خوري - الذي لم يكن يشارك في السجال عادة إلا وهو ثمل - أكثر العاملين حماسة في تناول هذا الموضوع ؛ فرأي يوسف كان يتطابق مع وجهة النظر التي طرحها كامل الأطرش في مقالته من أن (الذبيح) ، من ابني النبي إبراهيم ، كان إسماعيل لا إسحاق بدليل ما ورد في القرآن في سورة (الصافات) ؛ فبعد قوله تعالى : (فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) ، بعد ذلك ترد الآية : (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) ، أي أن البشارة بإسحاق جاءت بعدما صدع النبي إبراهيم لنداء ربه فحاول التضحية بابنه البكر الذي لا خلاف عند أهل الكتاب جميعهم أنه إسماعيل . بيد أن إيليا خوري كان يرى أن هذا الأمر ليس ملزماً لغير المسلم ما دام قد ورد في الكتاب المقدس أن إسحاق هو الذبيح .

واستمر الحاج ذياب في ذكر أمثلة مشابهة من ذلك الجدل الذي جرى بين ذينك الزميلين والذي كان من المحتمل أن يستمر بينهما طويلاً لولا أن كامل الأطرش كشف ، في مقالاته اللاحقة ، أنه أبعد ما يكون عن هذا النمط من السجال ؛ فالغرض الذي كان يسعى للوصول إليه من بدء أولى مقالاته على تلك الشاكلة هو التطرق إلى فكرة (الفداء) و(التضحية) التي عُرف العرب بها من قديم الزمان وحتى الوقت الحاضر : فقد شهدت (الثورة العربية) مثلاً نماذج من المضحين

الذين (وضعوا أرواحهم على أكفهم في حرب ضروس لم تبقِ ولم تذر) .

وهنا ذكر اسم إسماعيل الذبيح واحداً من هؤلاء المضحين : فانضمامه إلى صفوف المجاهدين حصل تلقائياً حينما كانت مدينة البصرة مهددة بالاحتلال من قبل البريطانيين . لكنه وقع في الأسر عقب انتهاء (معركة الشعيبة) ، وعاش مدة في معسكر سمر بور للأسرى في الهند حيث كان شاهد عيان على استغلال الإنكليز للهنود وقوداً في حرب استعمارية لا شأن لهم بها . حتى إذا ما أعلن عن قيام الثورة العربية في الحجاز ، وسعى البريطانيون إلى تجنيد الأسرى العرب في صفوفها ، تزعّم إسماعيل مجموعة الرافضين انطلاقاً من إيمانه بأن هذا السعي ليس حباً بالعرب قدر ما هو لأجل استغلال تلك الثورة لتحقيق المآرب الاستعمارية المعهودة ، وكاد يدفع حياته ثمناً لإصراره على ذلك الموقف بعدما أصابه أحد الجنود بطعنات بالسلاح الأبيض في بومباي حيث تمّتْ السيطرة على تمرد الأسرى ؛ فاقتيدوا على ظهر أحدى البواخر إلى الحجاز وإسماعيل بين الحياة والموت .

وتساءل كامل الأطرش ، في إحدى مقالاته ، عن المصير الذي كان إسماعيل الذبيح سينتهي إليه لو لم يعمل الأتراك إلى نحر صديقه جابر ألبنا بعد وقوعه في أسرهم؟ أكان سيعود إلى بغداد ليرعى أباه الحمّال الذي أنهكه نقل البضائع في أسواق الشورجة؟ أم كان سيتنقل بزورق جديد بين شرائع الرصافة والكرخ باحثاً بعينين ملهوفتين عن عش لقلق قائم فوق أحد قصور كرادة مريم حيث أمواج دجلة ستظل تتلاطم غاسلة درجات سلم حجري يرتقي ضفة النهر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لينتهي بحديقة مهجورة غزتها الحشائش والنباتات الشوكية من كل جانب؟ كلا . . . لم يحدث هذا ولا ذاك ؛ فقد اختار إسماعيل الانضمام إلى صفوف الثورة برغم هواجسه وشكوكه ، وأبلى فيها بلاء حسناً دفع بالسلطات التركية إلى رصد جائزة ثمينة لمن يأتي به حياً أو ميتاً .

وخصص كامل الأطرش آخر حلقات تلك المقالات بالتطرّق إلى ما يجري في دمشق الآن : فها هي المدينة تضجّ ، من حول إسماعيل الذبيح ، بمظاهرات تجوب الشوارع ليل نهار داعية إلى وحدة العرب واستقلالهم بعدما عاد الأمير فيصل من جولته الثانية في أوربا عقب إقراره - بما يشبه القسر - الاتفاق الإنكليزي الفرنسي على سحب الحاميات البريطانية من سوريا وإحلال الكتائب الفرنسية في محلها تمهيداً لتسليم لبنان والمناطق الساحلية إلى فرنسا . وتساءل كامل الأطرش في النهاية عن دور إسماعيل الذبيح ومن هم على شاكلته في هذه الأحداث؟ أيظل يهتف مع المتظاهرين بوحدة العرب واستقلالهم؟ أم سينضمّ - وقد اكتشف أن تحالف بريطانيا وفرنسا مع العرب كان (تكتيكياً) وصولاً منهما إلى تحقيق (إستراتيجيتهما) الاستعمارية المعهودة - إلى تلك المجاميع الصغيرة التي أخذت تعبّر بشكل عفوي بأعمال عدوانية تطورت إلى مصادمات صغيرة أدت إلى حصول معارك ذات طابع خطير مع القوات الفرنسية في طرابلس وبعلبك وفي الجنوب في منطقة مرجعيون وفي الأردن الأعلى؟

وصمت الحاج ذياب رؤوف لحظات مقلّداً الملا شكر في شحذ اهتمام مستمعيه وقد وصل إلى ذروة الأحداث قبل مواصلة الكلام :

- هكذا أنهى كامل الأطرش سلسلة مقالاته تاركاً قراءه يشاركونه

في ترديد سؤاله ذاك وهم يرون بلادهم مقبلة على مصير مجهول ؛ فالآمال التي عقدوها على مبادئ ولسون القاضية بحق الشعوب في تقرير مصيرها تبددت بفعل حملة التشويه والتآمر التي قادتها وزارة الخارجية الفرنسية ضدها ، كما أن البريطانيين كانوا قد ازدادوا فتوراً بعدما أيقنوا أن التحقيق سيمتد إلى العراق وفلسطين . أما الإيطاليون فقد وقفوا من تلك المبادئ موقف غير المكترث لأنهم لم تكن لهم مصلحة مباشرة في الأمر .

وعاد أبي يقاطع الحاج ذياب قائلاً :

– وجاء رد عدد من الزعماء السوريين بعقد (المؤتمر السوري العام) في الثامن من آذار في دار البلدية في ساحة المرجة معلنين استقلال سوريا والعراق .

واستطرد أبي متطرقاً إلى قرارات ذلك المؤتمر التي كان من أهمها رفض ادعاء فرنسا بحقها في أية بقعة من البلاد السورية . ورفض مطالب الصهاينة بجعل القسم الجنوبي من البلاد – فلسطين – وطناً قومياً للإسرائيليين . ورفض هجرتهم إلى أي قسم آخر من البلاد مع تأكيد المندوبين حق اليهود (الموسويين) الذين هم من سكان البلاد الأصليين ؛ إذ إنهم أخوان للعرب ، لهم ما للعرب وعليهم ما على العرب .

وكان أبي قد انسجم مع ذكرياته عن ذلك (اليوم التاريخي) العصيّ على النسيان ؛ فطفق يتحدث عن تلك الساحة التي ضاقت ، على سعتها ، بآلاف المتظاهرين القادمين من شتى أرجاء البلاد محمّلين بالأعلام واللافتات . وحرص العراقيون اللاجئون إلى دمشق على التجمّع مع بعضهم في جانب من الساحة حيث كنتَ ترى من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حافظ على ولائه التقليدي للدولة العثمانية يعانق من تمرد على تلك الدولة وانضم إلى صفوف الثورة العربية متناسين عداءهما القديم الذي كان يهيب بكل واحد منهما إلى الإجهاز على الآخر دون لحظة تردد إن صادف والتقيا في ميدان القتال .

وجال أبي بعينيه المتألقتين بنشوة النصر في أرجاء (الديوخانة) باحثاً عني وهو يقول :

– لقد اغرورقت عيناي ، في تلك اللحظة ، بالدموع ، فتلفت حولي باحثاً ، وسط صخب المحتفين ، عمن يشاركني في مشاعري ، فوقعت عيناي على رجل راسخ البنيان ، يطفح وجهه الوسيم بدلائل الصحة والعافية خيّل إليّ أنني سبق لي أن التقيته في مكان ما ، بيد أن ذلك لم يشغلني آنذاك قدر انشغالي بمعانقته مشاركاً إياه في الفرحة .

واعترف أبي بأنه لم يستطع أن يغالب دهشته آنذاك لأن المصادفة جمعته في دمشق – وليس في بغداد – بأهم شخص أيقظ لديه نوازع البطولة والتحدي منذ صباه ؛ إذ إن ذلك الرجل لم يكن غير إسماعيل الذي كان أبي من أشد المعجبين به في طفولته ، وبسبب حرصه على حضور مبارياته مع الأبطال الآخرين نال أكثر من مرة عقاب أبيه وتقريعه لإهماله في عمله في الدكان وتسلله إلى (الزورخانة) للتمتع بمشاهدة بطله الأثير يخوض نزالاته مع خصومه!

ذلك اليوم ولدتْ بين الاثنين صداقة شاء لها الله أن تستمر حتى الآن ؛ فقد انضمّ أبي إلى إسماعيل وصحبه الذين شاركوا المتظاهرين في احتفائهم بذلك الحدث : فانطلقوا يجوبون تلك الأماكن المحيطة بدار البلدية والمستوصف الطبي ودار البرق والبريد وجامع يلبغا ومسرح زهرة دمشق وقصر العابد والسراي وجامع البصروي وفندق فكتوريا ، متطلعين

بافتخار إلى النساء المطلات عليهم من شرفات البيوت وهنّ يصدحن بالزغاريد ناثرات على رؤوسهم الورود والزهور وأغصان الآس والريحان. وكان إيليا خوري الوحيد الذي لا يكفّ عن إظهار التشكّي والاستياء معلناً أنه لم يعد في وسع ساقيه حمله ؛ فسأله فايد العايد مداعباً :

– أهما ساقاك اللتان تشكو منهما؟ أم هو رأسك الذي لا مفر لك من إسعافه برشفة أو رشفتين محترمتين؟

فرمقه إيليا بنظرة متوسلة دفعتْ بفايد إلى أن يقترح عليهم الذهاب إلى مطعم لتناول الطعام بعدما برّح بهم الجوع ، فرحّبوا من فورهم بالفكرة ، فقادهم فايد نحو حي باب توما لينزوي بهم في مطعم للمشويات ما كادوا يتحلقون حول إحدى موائده حتى استلّ إيليا ، من بين ثنايا ملابسه الفضفاضة ، قنينة خمر أخذ يحتسي منها خلسة رشفات أتت على نصفها قبل وصول النادل بالطعام ، حتى إذا ما انتهوا من تناول آخر لقمة كان إيليا قد أجهز على قنينته ؛ فتقدّمهم بخطاه المترنحة معلناً أن احتفالهم بالمناسبة لن يكتمل إلا بالمرور بجنينة الأفندي القريبة ، فتعقّبوه طائعين وفايد يحذّرهم همساً طالباً منهم التروّي والحذر في تعاملهم معه ؛ ذلك لأنه بات الآن مُهيّأ لتخطي تهذيبه بعدما تحكّم به السكر!

وانطلقوا يتجولون في جنينة الأفندي حيث اكتنفتهم ظلال أشجار التوت والمشمش والجوز . وكانت شجيرات الجوري والبيلسان قد ارتفعت من حولهم كأسيجة . وعلق فايد قائلاً إنه من المألوف أن تضيق هذه الحديقة في مثل هذا الموسم من الربيع بالحشود التي تتقاطر عليها للتمتع بـ(السيران) . واستدرك قائلاً إنه سبق لجوقة سلامة حجازي أن مثّلتْ فيها ، قبل أعوام ، مسرحيات عالمية . فتساءل إيليا متحدياً :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وهل مثّلوا فيها مسرحيات . . . عشق وغرام؟

فأجابه فايد محاولاً مجاراته :

- وكذلك مثلوا مسرحيات حب .

- وهل انتهت واحدة من تلك المسرحيات بأن أمسك مسيحي غيور بابنة أحد أقاربه وهي برفقة شاب مسلم؟

فتلفت فايد حوله كالمستغيث ، بيد أن إيليا لم يرحمه وقد تحكّم فيه سكره ؛ فعاد يصيح وقد احمرّ وجهه الضئيل غضباً :

- قل لي يا أستاذ : تُرى كيف كانت ستنتهي تلك المسرحية لو انعكست الآية فأمسك مسلم غيور بابنة أحد أقاربه وهي في رفقة شاب مسيحي؟ ألم تكن تنقلب إلى تراجيديا؟!

فعانق إسماعيل إيليا محاولاً أن يهدّئه ، بيد أن هذا سارع بالتخلص من بين ذراعيه وهو يقول حانقاً :

- ابتعد . . . دعني وشأني ؛ فأنت بدورك لك مسرحية بعنوان (صانعة الهيطلية الحسناء) مّثلتْ فصولها في القدس!!

صعق إسماعيل ، فاستدار نحو ذياب رامقاً إياه بنظرة عتاب ، فهوّن هذا من الأمر بقوله :

- أعذره ؛ فهو ثمل!

وتابع مدافعاً عن نفسه :

- لعلني أخطأت بمكاشفتي إياه أموراً كان يفترض بي عدم كشفها!

وأردف مسوّغاً خطأه :

- حسبته مسيحياً متنوراً ، ولم يخطر لي قط أنه أكثر تعصباً منّا نحن المسلمين في مثل هذه الأمور!

(٨)

بقدر ما كانت جلسات (الديوخانة) تقترن لديّ بالإصغاء إلى المزيد من حكايات إسماعيل الذبيح ، اقترنتْ آخر تلك الجلسات بالفوز براوٍ جديد لولاه لما تهيّأتْ لي فرصة كتابة هذه الرواية ؛ فمنذ تلك الليلةً اخذ أبي على عاتقه مهمة سرد كل ما يعرفه عن إسماعيل كلما سنحت الفرصة له .

وكان أبي ، قبل لقائه إسماعيل الذبيح بثلاثة أعوام ، يعيش صراعاً محتدماً بين الاستجابة لوازع قاهر بالانخراط في السلك العسكري للدفاع عن (حياض) الدولة العثمانية التي تكالبت عليها قوى الغرب مستثمرة اندلاع الحرب ، فتحالفت لإسقاطها بزعم أنها أضحت (الرجل المريض) ، وبين الخضوع لإلحاح أبيه بضرورة استمراره في دراسته في الإعدادية الملكية ليشرف من بعده على إدارة دكانه القائم في الشورجة . وجاء انتصار العثمانيين في واقعة كوت الإمارة وأسر طاوزند ومعه الآلاف من الجنود الإنكليز والهنود ليضع حداً لذلك الصراع : فالتحق بآخر دورة لضباط الاحتياط تخرّج منها بعد أشهر برتبة ملازم نُسب من فوره إلى إحدى الوحدات القتالية في مدينة السماوة . وعلى مدى الوقت الذي استغرقه الإبحار في نهر الفرات على ظهر مركب شراعي انحدر به جنوباً لم يكن أبي ، وهو يتأمل بنظرات شاردة أشجار الصفصاف والغَرَب وأدغال القصب النامية بكثافة على الضفتين ، وإلى الوراء منهما تمتد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بساتين النخيل على مدى البصر ، لم يكن يكفّ عن التفكير في الغزاة الإنكليز بعيونهم الزرق حالماً بلقاء واحد منهم ليرديه من فوره برصاصة من بندقيته المزيتة جيداً!

لقد هيمنت عليه تلك الفكرة إلى الحدّ الذي دفعت به إلى أن يفصح عنها لأحد رفاق الرحلة ، فخيّب هذا أمله حين كاشفه بأنه سيكون من النادر أن يلتقي إنكليزياً ؛ ذلك لأن من دأب هؤلاء دفع المتطوعين الهنود أمامهم ليأتوا هم في أعقابهم بعدما يكون الطريق قد بات سالكاً!

واستدرك ذلك الرفيق متسائلاً بتهكم :

- ثم لنفترض أنه حدث والتقيت أحدهم مصادفة ، فما أدراك أنه لن يسبقك بأن يباغتك برصاصة محكمة التسديد يرديك بها قتيلاً؟!

بيد أنه لم يحصل لا هذا ولا ذاك ؛ إذ لم تكد تمضي أيام على وصوله حتى صدر الأمر إليه بترك خندق القتال والإسراع بالصعود على ظهر سفينة من جملة بضع سفن كان مئات الضباط والجنود يستميتون ليسبق أحدهم الآخر في صعودها .

- ما الذي حدث؟ هل انتهت الحرب؟

تلفت أبي حوله طارحاً سؤاله على الحشود التي كانت تعج بها تلك السفينة وقد شرعت تمخر في مياه الفرات عكس التيار هذه المرة مصعّدة شمالاً .

- لا . . . لم تنتهِ الحرب ، بل سقطت بغداد بأيدي الإنكليز!

ردّ عليه أحد الضباط ليعود فيطمئنه مؤكداً أنهم سيحررون عاصمتهم ثانية بعد الالتحاق بالقوات العثمانية الرابضة في سوريا والمتحفّزة لصدّ الجيش الإنكليزي القادم من شبه جزيرة سيناء والذي

دخل فلسطين عازماً الوصول إلى دمشق بأسرع ما في وسعه .

غادر الجيش المنسحب السفن في مدينة المسيّب حيث التحق به متصرف كربلاء وموظفو أقضية الحلّة والديوانية والنجف فضلاً عن أعضاء محكمة كربلاء .

ليلاً ترددت أصداء عيارات نارية في المدينة الغارقة في الظلام ، وسرعان ما أشيع أن السوق أغلقت وأن العشائر والأهالي هاجموا مخازن الجيش المنسحب لينهبوا كل ما احتوت من أرزاق قبل أن يضرموا فيها النار حيث بقيت مياه النهر تعكس ، حتى مطلع الفجر ، وهج ألسنة اللهب المتصاعدة منها .

لم تكد تبزغ شمس اليوم التالي حتى أوعز أعلى الضباط رتبة الأمر باعتلاء صهوات الخيول حيث ارتفعت سحابة غبار في أعقابهم وهم يتجهون غرباً يسبقهم أفراد منهم إلى القرى التي سيمرون بها لغرض توفير الخبز والبيض والتمر . وكانت أسراب الطائرات الإنكليزية لا تكفّ عن تعقّبهم ، يسبقها هدير محركاتها المكتوم وهو يتردد في عمق السماء قبل أن تظهر هياكلها المعدنية وسط الزرقة المريّشة بالسحب لتنقضّ عليهم انقضاض الطيور الجارحة ، مفجّرة وسطهم حمم قذائف كانت تصيب بشظاياها من تصيب ، مفزعة ، بدويها الهائل ، الخيول التي تقفل مرعوبة على أعقابها ملقية عنها فرسانها لتحرن رامحة على امتداد الصحراء التي لا يحدها البصر .

هكذا واصل ذلك الجيش تنقّله بين الفلّوجة والرمادي وهيت وحديثة وعانة ليعبر في خاتمة المطاف الحدود ملتحقاً بالقوات العثمانية التي لم تصمد بدورها أكثر من عام ونصف قبل أن تنهار أمام زحف قوات اللنبي التي سرعان ما دخلت دمشق ظافرة!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٩)

في تلك الأيام العصيبة عمد أبي إلى استبدال ملابس مدنية بزيه العسكري الذي ودّعه دون ندم . واتجه إلى دمشق بعدما أدرك استحالة العودة إلى بغداد بسبب أنه كان أحد ضباط الجيش العثماني المهزوم . وكانت المدينة تعجّ بالكثير من العراقيين : متطوعين أسهموا في الثورة العربية سرعان ما التحق أكثرهم بوظائف وفّرها لهم الحكم العربي الجديد ، وعسكريين ظلوا على ولائهم للعهد العثماني المندثر ؛ فاستقبلتهم المقاهي القائمة على جانبي نهر بردى زبائن دائميين لا عمل لهم سوى احتساء الشاي وتعقب المارة بنظرات شاردة .

في واحد من تلك المقاهي بدأ أبي ذلك العمل الذي انتهى به ، بعد سنوات ، إلى أن يجعل من جدي صاحب واحدة من أعرق علاوي الشورجة في بغداد : (علوة الچلبي) التي لم تقتصر على تجارة الجملة ، بل عملت في الاستيراد والتصدير خارج العراق بفضل تلك الصلات التي بدأها صاحبها من تخت ذلك المقهى ليمدّ بها إلى دمشق وبيروت وحيفا والقدس!

حدث ذلك بفضل مصادفة ؛ فقد لمح أبي ، ذات يوم ، عربة يقف بها صاحبها أمام المقهى . كانت من تلك العربات التي يسحبها حصان واحد والتي يسميها الشاميّون باسم (الطنبر) . ودخل صاحبها المقهى ليجلس على التخت نفسه ، فبادره أبي بالتحيّة العراقية المعهودة :

- الله بالخير .

وحين أجابه الرجل عليها تلقائياً أدرك أنه مثله عراقي ، ولم تمر دقائق حتى تأكّد من ذلك ؛ فقد شكا الرجل من تورّطه بشراء تلك العربة لغرض أن ينقل بها البضائع في أسواق دمشق ، بيد أنه حين سمع أحد التجار يناديه بـ(عتّال) داعياً إياه إلى نقل بضاعته استدار بعربته ليعود بها إلى خان السفرجلاني الذي كان قد استأجر غرفة فيه!

- لم أطق يا أخي أن أنادى بكنية (العتّال) ؛ فقد شعرتُ وكأنما صُفعتُ بين عينيّ ؛ ذلك لأنه لا يُعقل أن ينحدر رفعت بك الضابط في الجيش العثماني السابق وسليل إحدى أعرق الأسر البغدادية المنتمية بأصلها إلى عروق تركية موغلة في القدم إلى أن يصبح حمّالاً!

صاح بزهو وهو يتحسس طرفي شاربيه ليطمئن إلى أنهما مبرومان للأعلى ، فاقترح عليه أبي - وقد تذكّر فجأة دكان والده في الشورجة - فكرة أن يتعاون معه في حمل الفواكه من بساتين الغوطة لبيعها بالجملة في الأسواق ، فاعترض الرجل مستنكراً :

- وما الجديد في هذه الفكرة؟ إنها لا تخرج عن نطاق العمل في الحمالة .

- لا بل إن هذا العمل هو ضرب من التجارة ، وسيكون في وسعك أن ترفع صوتك منادياً أي حمال ليعينك في تفريغ عربتك . . . ألا يتصرف التجار على هذه الشاكلة؟!

بادل رفعت بك أبي نظرة حائرة انتهت بانطلاق الاثنين في الضحك . وبقيت ذكرى تلك الضحكة تعاودهما كلما نادى أحدهما على حمّال لأجل إفراغ العربة من سلال الفاكهة ، ومعها كانا ينخرطان في ضحكة جديدة . هكذا بدأ الاثنان عملهما ذاك الذي سرعان ما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طوّراه بتبضع الطحين والسكر والمواد التموينية الأخرى لبيعها إلى سكان القرى في الغوطة قبل أن يعودا بالعربة محمّلة بالفواكه ، حتى إذا ما انتهى موسم الفاكهة عمدا إلى شراء الجوز واللوز والمشمش المجفف .

بيد أن انشغال أبي بعمله ذاك لم يحل بينه وبين تتبع آخر الأحداث السياسية التي تمخّضت عنها الحرب مثل انعقاد مؤتمر الصلح في فرساي ليعقبه مؤتمر سان ريمو الذي فرض الانتداب على المستطيل العربي الممتد بين البحر المتوسط غرباً والحدود الفارسية شرقاً ، متوصلاً بالنتيجة إلى صحة قراره بالمحافظة على ولائه للدولة العثمانية ؛ ذلك لأن الإنكليز والفرنسيين سارعوا إلى التنكّر للعرب بعدما سبق لهم أن أوهموهم بأن تحالفهم معهم سيضمن لهم حصولهم على استقلالهم كاملاً غير منقوص ، فإذا بهم يتكالبون دون خجل أو حياء ليس على تطبيق بنود اتفاقية (سايكس - بيكو) فحسب ، بل تعديل تلك البنود لما يوائم جشعهم ؛ فلقاء تنازل فرنسا عن (حقها) في ولاية الموصل الغنية بالنفط مثلاً تخلّى الإنكليز عن دعم الحكم العربي في دمشق ؛ فقرروا سحب قواتهم لتحلّ قوات فرنسية بدلاً عنها ، فانفجر غضب الناس وعمت مظاهرات الاستنكار المدن السورية كلها مطالبة بانعقاد (المؤتمر السوري العام) مجدداً ، وذلك ما حصل : إذ سارع ذلك المؤتمر بإعلان استقلال سوريا مستبقاً بذلك الهجمة الفرنسية المرتقبة .

لقد أرّخ أبي ذلك اليوم بداية لصداقة ربطته بإسماعيل الذبيح زادتها حياة الغربة عمقاً ورسوخاً ؛ فقد دأب الاثنان على اللقاء من حين إلى آخر : لا يكاد يمر أسبوع أو اثنان دون أن يتبادلا زيارات كانت تنتهي بقيامهما بجولات يبدءآنها ، في الغالب ، من ساحة المرجة ،

وهي ملتقى غالبية شوارع دمشق ، ليذرعا على مهل أحد الشوارع مثل شارع الدرويشية حيث يمران بالمستوصف الوطني وحمام الحدادين وصيدلية العناية قبل أن يستقرا في واحد من المقاهي الكثيرة المنتشرة في ذلك الشارع . وكان أبي ، بحماسة فتى لا يزال في بداية العشرين من عمره ، يغلي بالمشاعر والعواطف المحتدمة بسبب تلك الأحداث المنذرة بما هو أخطر : فقد بات من المعروف أن بعض الضباط العراقيين - وبتشجيع خفي من الملك فيصل - توجّهوا إلى مدينة دير الزور ليجنّدوا متطوعين أخذوا يتسللون إلى داخل العراق ليفجروا ثورة في مدينة تلعفر لم تودِ بالعديد من البريطانيين فحسب ، بل ها هي تصيب بعدواها منطقة الفرات الأوسط التي أخذت تمور ببداية ثورة ستكون بالغة الخطورة على الإنكليز لاتخاذها منحىً دينياً . وهناك أيضاً تلك الأحداث العاصفة بجنوب لبنان ، في جبل عامل ، بين المسيحيين والمسلمين ، وفي الشمال في جبل النصيرية ، بل في سوريا نفسها ، تلك الأحداث التي كان من المعروف أنها تحدث بتشجيع وتمويل من المفوض السامي الفرنسي في بيروت الجنرال غورو لأجل بذر الشقاق بين المسلمين والمسيحيين الموارنة وصولاً إلى فصل لبنان نهائياً عن سوريا بحجة حماية فرنسا للمسيحيين .

كان أبي لا يكفّ عن التفكير بتلك الأحداث متمنياً أن يعرف رأي إسماعيل فيها ؛ ليس لأنه يكبره في السن - إذ إنه كان في بداية الثلاثين من عمره ، بدأت طلائع شيب مبكّر تغزو رأسه - بل لعنف التجربة التي خاضها بإسهامه في الثورة العربية ؛ ذلك لأنه رافقها منذ بداية نشوبها حتى تحرير العقبة . بيد أن المشكلة التي كانت تجابه أبي تمثّلت بزهد إسماعيل في الكلام : لا يكاد ينطق إلا حينما يُسأل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مضفياً بذلك على نفسه سمة من التعالي والكبرياء كان أبي يعزوها إلى الشهرة التي حازها أثناء تلك الثورة والتي عززها كامل الأطرش بسلسلة مقالات توّجها باسمه . بيد أن أبي سرعان ما اكتشف أن صديقه الكبير أبعد ما يكون عن ذلك ؛ إذ ما كاد يذكّره ، ذات يوم – وهما يقومان بإحدى جولاتهما الدورية – بتلك (البطولات) حتى عقد ما بين حاجبيه مستنكراً مؤكّداً أن البطولات في الحروب الحديثة ضرب من هراء!

ومرت دقائق قبل أن يضيف موضحاً مغزى كلامه الغامض :

– لقد انتهت البطولات في الحروب باستعمال البندقية ؛ ذلك لأن في وسعك أن تردي برصاصها خصماً لم تلتقِ عيناك عينيه .

وأردف بمرارة :

– الحرب كريهة يا صديقي وليست مبعث فخر لأحد .

وفي طريقهما إلى جريدة اليقظة كانا يمران بحي الميدان ، حيث كان أبي قد ارتبط بعلاقات وثيقة بالعديد من تجار تلك الأحياء الجنوبية ولا سيما تجار سوق السويقة التي تباع فيها عادة النحاسيات والأدوات الزراعية ومناشر الخشب فضلاً عن المواد التموينية . وكانا يمران بسوق الغنم الواقعة بين مقبرة الباب الصغير ومسجد الجراح ، سالكين في طريقهما سوق الجزماتية المعروفة بصناعة الأحذية . وكان مقر جريدة اليقظة يقع في حي الميدان الفوقاني قريباً من جامع الدقاق وحمام الدرب حيث تعرّف أبي إلى كامل الأطرش مكتشفاً ذلك التناقض بين ضخامة حجمه و(خفّة دمه) ؛ فعلى مدى الساعات التي كان أبي يقضيها في تلك الغرفة المشرفة على ساحة تضج بخرير المياه المندفعة من فسقية كان كامل الأطرش يظل يمطر الجالسين بطرائف كان

يزيد من وقعها حفاظه الدائم على وقاره وتجهّمه ، حتى إذا ما صادف ومرّ إيليا خوري بتلك الغرفة جعل كامل الأطرش منه مادة لطرائف جديدة بدأها ، في إحدى المرات ، بإظهار دهشته لكون إيليا لم يلتحق بعد بـ(جماعته) في بيروت ، فتلفت إيليا حوله مراقباً وجوه الجالسين وكأنه يخشى من أن تكون ثمة مؤامرة للإيقاع به . حتى إذا ما اطمأن على الوضع التفت نحو رئيسه ليسأله مستنكراً :

– ومن هم جماعتي في بيروت؟

– الجنرال غورو دون شك!

رد كامل الأطرش بصرامة ، فحملق إيليا فيه مصعوقاً وقد اخذ جسده الضئيل في الارتعاد . ومرّت لحظات بدا خلالها وهو يحاول جهده السيطرة على نفسه ، حتى إذا ما تكلم فاحت رائحة الخمر في الغرفة :

– ليس الجنرال غورو من أصحابي كما تعلم يا أستاذ ، وأنا لا أقلّ وطنية عنك وعن أمثالك بحال من الأحوال ، وأعلمُ تماماً أن اهتمام فرنسا بلبنان لا يعود لحبها المسيحيين ، بل لحرصها على مصالحها وامتيازاتها التي تمكنت من الحصول عليها من الدولة العثمانية منذ مئات السنين . . .

وانفجر أحد الجالسين في ضحكة مجلجلة طال احتباسها في صدره ، فأصابت عدوى الضحك الجميع ، فجال إيليا حوله بنظرة ضارية جعلت الضحكات تزداد استعاراً ، فوثب مغادراً الغرفة ، واخترق الساحة صارخاً بكلمات غضب واستنكار جعلت كامل الأطرش يعلّق قائلاً :

– من المؤكد أنه سيسارع اليوم إلى إبداع رسم كاريكتيري سيعلّقه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في قاعة التصميم بجانب رسوماته السابقة عني!

لكنه عاد يثني على وطنية إيليا خوري ، تلك الوطنية التي جسّدها عشرات المرات برسومات كاريكتيرية زيّنت صفحات جريدة اليقظة لخّص بها كراهيته للأطماع الفرنسية التي أخذت تفصح عن نفسها دون لبس ، فعلّق فايد العايد متهكماً :

- لن تخيف تلك الرسومات الكاريكتيرية فرنسا بالتأكيد وستمضي في تنفيذ خططها في احتلال سوريا .

- تماماً ، كما أنه لا يسعنا منعها من تنفيذ تلك الخطط بقوة السلاح ؛ ذلك لأنها أقوى منا بكثير ؛ فهي تملك الطائرات والدبابات والمدافع فضلاً عن آلاف الجنود السنغاليين والمغاربة المساكين الذين ستدفع بهم في أتون معاركها شأنها شأن البريطانيين مع الهنود .

أجابه كامل الأطرش قبل أن يضيف مستدركاً :

- بيد أن الحروب لم تكن في يوم من الأيام وقفاً على قوة السلاح وحدها - على أهمية السلاح بطبيعة الحال - وخير مثال يحضرني اللحظة يتمثّل بما يجري في مصر الآن : فمنذ السنة الماضية والشعب المصري بمسلميه وأقباطه ، بمثقفيه وتجاره وعماله وفلاحيه ، بل بنسائه المحجّبات ، لا يكفّ عن التظاهر والإضراب دعماً لزعيمه مؤسس حزب الوفد سعد زغلول . منذ عام والشعب المصري ، الذي عُرف بوداعته ، بات مصدر رعب للبريطانيين ؛ ذلك لأنه تكاتف ورفع شعار الهلال يعانق الصليب ، فلم يجد الإنكليز مفراً من الاستجابة في آخر الأمر لمطالبه القاضية بالاستقلال .

واستدرك كامل الأطرش مبادراً الجالسين بسؤال مفاجئ :

- أتدرون من كان المحرّك الطليعي لهذه الثورة السلمية؟

وسارع يجيب وهو يشير بسبابته الغليظة إلى الجدران المزدانة من حولهم بصفحات من جريدته (اليقظة) :

- الصحافة ولا سيما صاحب جريدة (اللواء) مصطفى كامل!

ومضى كامل الأطرش يحدثهم عن مصطفى كامل الذي كان قد برز في أعقاب ثورة أحمد عرابي التي قمعها الإنكليز بحجة إنقاذ (رجلهم) الخديوي توفيق . وكان مصطفى كامل يدعو المصريين ، من خلال جريدته (اللواء) ، إلى نبذ العنف والاعتماد على الكتابة والخطابة والفضح والتشهير وسيلة للنيل من المحتلين وكشف مساوئهم ؛ فسار على خطاه سعد زغلول ؛ إذ إنه استثمر انعقاد مؤتمر الصلح في باريس فشكّل وفداً من مجموعة من الوطنيين تقدم بهم إلى المندوب السامي طالبين منه إلغاء الأحكام العسكرية وقوانين الطوارئ ورفع الحماية البريطانية عن مصر ومنحها الاستقلال بسبب انتهاء الحرب . وأعقب ذلك بالإكثار من نشاط حزبه في عقد المؤتمرات مع تعدد الاجتماعات ونشر المقالات مما دفع بالإنكليز إلى اعتقاله ونفيه إلى جزيرة مالطة فانفجر المصريون بهذه التظاهرات والاحتجاجات التي اضطرت الإنكليز إلى الإفراج عنه وإعادته إلى بلده .

- أحسب أن ما يجري في منطقتنا أكثر تعقيداً مما يجري في مصر .

قاطع فايد كامل الأطرش الذي ردّ مؤيداً :

- تماماً ، لذا يفترض بنا أن نتوخى الحذر أكثر ، وإلا فإننا مقبلون على كوارث لا تعد ولا تحصى ستكون أولاها ابتلاع فرنسا لسوريا الذي لن يتأخر طويلاً .

وأخذ كامل الأطرش يعدد بؤر الصراع المرشحة للانفجار في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المنطقة : فبعد الثورة العارمة في العراق والتي تزداد توسعاً في الفرات الأوسط سيأتي الدور على فلسطين ؛ فحشود اليهود الذين تفرغهم السفن الأوربية في مرافئها تؤكد ذلك . كما أن الوضع في الجزيرة العربية لن يستقر على صورته الحالية أبداً : فبعد انهزام العثمانيين سيبدأ ابن سعود سريعاً في الاقتصاص من حليفهم - غريمه الأبدي - ابن رشيد قبل أن يلتفت إلى منطقة العسير ليحتدم صراعه ، ذات يوم ، مع شريف مكة حسين ؛ فهناك قنبلة موقوتة تتمثل بذلك النزاع الدائم على واحتين حدوديتين في الظاهر ، في حين أن الأمر يعود في حقيقته إلى صراع مذهبي خفي ومنافسة على الزعامة .

وختم كامل الأطرش كلامه المغرق في التشاؤم بقوله وهو يلتفت نحو إسماعيل :

- أخشى أن يكون القرن العشرون قرنك أنت يا إسماعيل الذبيح . . . سيكون قرن صراع لا يهدأ ليس بين العرب والأجانب ، بل العرب أنفسهم!

(١٠)

لم تكن توقعات كامل الأطرش المتشائمة رجماً بالغيب ؛ ذلك لأن الأحداث اللاحقة برهنت على صحتها : فقد فوجئ أبي ، صباح ذات يوم ، بإسماعيل يزوره في غرفته في خان البيطار ليناوله نسخة من جريدة (اليقظة) وهو يقول :

- ها هي الحرب مع الفرنسيين باتت أمراً مؤكداً!

كانت الجريدة تحمل ، في صدر صفحتها الأولى ، صورة كبيرة للجنرال غورو[١] بذراعه اليمنى التي بترت في معركة الدردنيل وقد ازدان صدره بالنياشين والأوسمة ، يعلوها عنوان بالخط الأحمر :

- (إنذار غورو الأخير)!

وكان كامل الأطرش قد نشر ، في الصفحة نفسها ، افتتاحية بعنوان (الرابع عشر من تموز : أهو احتفاء بالتحرر؟ أم نذير بالعبودية؟) ركّزتْ على المفارقة المتمثلة باختيار الرابع عشر من تموز - ذكرى الثورة الفرنسية وتحطيم سجن باستيل - موعداً لتوجيه إنذار إلى الملك فيصل يحثّه على إعلان قبوله الانتداب الفرنسي على سوريا دون قيد أو

---

(١) الجنرال غورو : أحد قادة الجيش الفرنسي البارزين وقد فقد ذراعه اليمنى في معركة (الدردنيل) . تم تعيينه من قبل حكومته في شهر تشرين الثاني عام ١٩١٩ قائداً أعلى ومن ثم مفاوضاً سامياً في المنطقة الواقعة تحت الانتداب الفرنسي .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شرط ، وإلغاء التجنيد الإجباري ، وتسريح المجندين ، ومعاقبة المتهمين بمعاداة فرنسا!

– أتظن أن الملك فيصل سينصاع لإنذار مهين على هذه الشاكلة؟

تساءل أبي متشككاً ، فأكد إسماعيل أنه لا يملك خياراً آخر ؛ ذلك لأن أعضاء حكومته اتفقوا على ضرورة تجنّب التورط في مواجهة مع الجيش الفرنسي لا قِبَل لهم بها . وأضاف مستدركاً :

– على أن وزير دفاعه يوسف العظمة هو الوحيد الذي أصرّ على ضرورة التصدي للغزو المرتقب إيماناً منه بأن الفرنسيين لن يعوزهم اختلاق الذرائع التي ستكفل لهم تحقيق مآربهم في النهاية .

ما كادا يغادران الخان ويجتازان سوق باب سريجة ليصلا إلى أول الشوارع الرئيسة حتى توجّب عليهما شق سبيلهما بصعوبة وسط حشود غاضبة تعالت بهتافاتها إلى عنان السماء داعية إلى سقوط الوزارة . بدا الناس موزّعين بين فئة تدعو إلى التوجّه إلى القلعة بغية اقتحامها للتسلح بالأسلحة الموجودة فيها ، وفئة تحثّ على ضرورة التوجّه نحو قصر الملك . وكانت ثمة أصوات ترتفع ، من حين إلى آخر ، متهمة الملك نفسه بالخيانة ، داعية بسقوطه مع سقوط الوزارة!

– ما يثير غضب الجماهير ظنهم أن الوزراء لم يوافقوا على الإنذار إلا حرصاً منهم على البقاء في مناصبهم .

صاح إسماعيل بذلك الكلام محاولاً أن يعلو بصوته على ضجة المتظاهرين ، فتساءل أبي وهو يجاريه في الصياح :

– أليس الأمر كذلك في واقع الحال؟

– أبداً ؛ ذلك لأن الإنذار يشترط كذلك تغيير الوزارة!

وتابع قائلاً :

- الأمر غاية في الوضوح : فالفرنسيون متشبّثون بتطبيق بنود اتفاقية (سايكس - بيكو) حرفياً . . . أي ابتلاع سوريا بأي شكل من الأشكال!

في اليوم التالي فوجئ أبي بشريكه رفعت بك يمرّ عليه في خان البيطار دون عربته برغم اتفاقهما على اللقاء ذلك اليوم لإيصال شحنة ضخمة من المواد التموينية إلى بعض القرى ، محاولين بذلك استثمار تهافت الناس على شراء تلك المواد والمبالغة بتخزينها تحسّباً لنشوب الحرب .

- لن نستطيع اليوم التوجّه إلى الغوطة .

أعلن رفعت بك ليردف موضحاً :

- ذلك لأن الجيوش الفرنسية تقدمت من شتورة وزحلة باتجاه مجدل عنجر لتدخل بعدها وادي الحرير مواصلة بذلك تقدمها نحو دمشق دون أن تصادف أية مقاومة بسبب تسريح الجيش!

- ولكن كيف يتقدمون من دمشق والحكومة السورية وافقت على الإنذار؟!

- ذلك لأنهم الأقوى!

أجابه ليسترسل قبل أن يغادره :

- المهم هو استحالة تمكننا من إيصال بضاعتنا بسلام ؛ إذ إن الطرق بين دمشق ومجدل عنجر مزدحمة بالسيارات وقوافل البغال والجمال وقطعات الجنود والمتطوعين ؛ فيوسف العظمة ، برغم موافقة الوزارة على الإنذار ، اختار السفوح المطلة على ممر ميسلون ووادي الزرزور لتحشيد قواته ، محصّناً تلك المواضع بحفر الخنادق في مختلف الاتجاهات .

سارع أبي من فوره بالتوجّه إلى مقر جريدة (اليقظة) ليفهم من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إسماعيل والآخرين سر ما يحصل . وصادفته في الطريق مظاهرات حاشدة تهتف بحياة الملك فيصل الذي كان قد أمر بإيقاف تسريح الجيش ، والتصدي للغزاة بعد اكتشافه غدر الفرنسيين . وحين وصل إلى مقر الجريدة أذهله التغيير الحاصل ؛ إذ إن الساحة الواسعة التي تتوسطها الفسقية المعهودة حوّلتْ إلى ساحة تدريب حيث موظفو الجريدة وعمالها ومستخدموها تخلصوا من قمصانهم مبقين على البناطيل وحدها وهم يمارسون تدريبات القتال .

وكان إسماعيل ، بصدره الضخم العاري ، وبزنديه المفتولين ، يتولى تدريب مجموعة منهم على كيفية استعمال مدفع رشاش لا يعلم من أين جيء به ، وعشرات العيون مصوبة إليه ، وهو يفكك بمهارة أجزاء ذلك المدفع ليعيد تركيبها دون أن يكفّ عن شرح عمل كل قطعة منه وطريقة الحشو ، ووضع شريط العتاد بشكل صحيح ، وعملية التصويب الدقيق ، وتثبيت المحرك ، والمدى اللازم للرمي المؤثر مع الانتباه لقوة الريح واتجاهها .

وفي موضع آخر من الساحة كان يوسف منهمكاً بتعليم المحيطين به كيفية قذف القنابل اليدوية ؛ فقد أمسك بإحداها وراح يلقنهم طريقة فتل الحلقة إلى اليسار مع ضرورة الإمساك بالعتلة محذراً أنه في حالة إفلاتها ستنفجر في يد الممسك بها ، منبهاً على ضرورة الانبطاح على الأرض لحظة قذفها بعيداً تجنباً من الإصابة بشظاياها المتناثرة ، فيما كان ذياب رؤوف منصرفاً إلى تعليم مجموعته الرمي بالبندقية ، محاولاً جهده تجاوز التعليقات المتهكمة التي كان يجابهه بها أحد العمال الخبثاء بسؤاله عن أي العينين يفترض به إغماضها لحظة التصويب؟ فكان ذياب يجيبه متذمرا ، وقد ازداد حوَل عينيه وضوحاً

بسبب غضبه، أنه حرّ في ذلك شريطة ألا يصيب (. . .) أمه!

استمرت التدريبات حتى تجاوز النهار منتصفه وحان موعد تناول الغداء في مطعم الجريدة إذ أصر إسماعيل على ضرورة أن يشاركه أبي في وجبة غدائه التي ربما تكون آخر وجبة يتناولانها معا في هذا المكان .

- ولمَ تكون آخر وجبة؟

سأله أبي وفي ظنه أنه يمزح، بيد أن إسماعيل رد بكل جدية، وهو ينتهي من تزرير قميصه ليتقدمه نحو المطعم :

- لأنني سألتحق مع الآخرين بجبهة ميسلون مساء هذا اليوم، أو في صباح الغد .

- هل سجلت اسمك ضمن المتطوعين؟

- وهل أملك خياراً آخر؟

واستطرد إسماعيل وقد انفرد بأبي على مائدة تجاورها بضع موائد تحلّق حولها الآخرون :

- ما يدهشني في الفرنسيين والإنكليز مقدار جهلهم بطبيعتنا نحن العرب : يعملون ليل نهار، سواء هنا في سوريا أم في العراق أم فلسطين، على إذلالنا كأنهم لم يقدموا إلا لأجل الثأر من هزيمتهم في الحرب الصليبية ؛ فما يقومون به، كما يقول فايد العايد، ليس أكثر من حرب صليبية مستترة!

- لقد كتب علينا التيه منذ أدرنا ظهورنا لخلافة آل عثمان الإسلامية .

- ولكن متى تنبهت تلك الخلافة البائسة لنا سواء أدرنا لها ظهورنا أم وجوهنا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تساءل إسماعيل بازدراء ليضيف بعد لحظات صمت :

- لقد أُجبرنا على الاستعانة بالإنكليز والفرنسيين لقاء وعود اكتشفنا أنها محض سراب .

ومضى إسماعيل يتحدث بمرارة عن تلك الوعود الفارغة ، لينصرف بعدها إلى التهام ما جيء به من طعام مشاركاً أبي في الإصغاء إلى ثرثرة الموائد المجاورة والتي كانت تنصبّ على إيليا خوري الذي بدا شديد الانفعال مهيأً للانفجار في نوبات غضب كان فايد يعرف كيف يغذيها ، بين فينة وأخرى ، بالتشكيك في وطنيته بحجة رفضه تسجيل اسمه ضمن المتطوعين لأنه - كما هو شأن كثير من اللبنانيين - يطمح إلى أن يعمل غورو على فصل لبنان الكبير عن سوريا!

- أتشك بوطنيتي أنا يا أستاذ لكوني لم أتطوع للقتال؟ ألا تعلم أنني أحارب الفرنسيين بسلاحي الخاص ؛ سلاح الفن والإبداع؟

- ولكنني لم اسمع بأن الفن أسال دم عدو في يوم من الأيام!

- وما شأني بإسالة الدماء؟ فالجبهة التي أحارب فيها هي جبهة القيم ، والأخلاق ، والجمال ، نعم تلك هي جبهتي التي لا سلاح لي فيها غير ريشتي وعلبة ألواني!

فتلفت فايد مجيلاً عينيه بنظرة خبيثة على الموائد القريبة وهو يقول :

- يفترض بنا إذن تنبيه يوسف العظمة على ضرورة أن يهيّئ الفرش وعلب الألوان لنردي بها الفرنسيين حينما يهجمون على ميسلون!!

فوثب إيليا عن مائدته معلناً امتناعه عن تناول الطعام . وصاح وهو يكاد يفترس فايد بنظراته الضارية :

- سأترك ميسلون لك ولصحبك ، وسأبقى صامداً هنا في الجريدة في انتظار مقدم غورو وعصابته لأصيح به بأنه يبقى عدوي برغم كونه مسيحياً مثلي ؛ لأن أصدقائي الحقيقيين هم مسلمو سوريا ومسيحيوها ويهودها ، هؤلاء الذين لن يتخلوا عن وطنهم أبداً!

وغادر المطعم مشيّعاً بعاصفة من الضحك ، فعلّق إسماعيل بيأس :

- محزن أن تراهم يضحكون دون أن يخطر لهم ما سينتظرهم في ميسلون!

- كأني بك ترثيهم وهم أحياء!

- وهل يخامرك أي شك بالمصير الذي ينتظرنا؟ ستقع في ميسلون مجزرة يتساقط فيها معظم هؤلاء الشباب!

وأضاف ، وقد شملهم بنظرة حنان تقطر أسىً :

- من المؤلم أن يموت الإنسان في مقتبل عمره بدخول معركة خاسرة لا جدوى منها . كان لي صديق اسمه جابر البنا تعرفت إليه أثناء هربي من (الجندرمة) عقب إعلان النفير العام الذي أعلنته السلطنة العثمانية . وكان مثلي هارباً ، ولكن لسبب آخر ؛ فقد تسبّب في إحراق أحد أشقياء محلته الذي حاول إذلاله وسلبه حبيبته . وخسر الفتاة التي أحب ؛ إذ انقطعت صلته بمحلّته ، لكنه كان سعيداً لأنه لم يسمح لخصمه بإذلاله .

وتابع قائلاً :

- في ظني أن هذا الأمر لن يخطر للأوربيين على بال ؛ إذ ما معنى أن يجازف المرء بحياته لأمر على تلك الشاكلة؟ لقد وقع ذلك الصديق أسيراً بيد الأتراك ، فعمدوا إلى ذبحه ، كما كان دأبهم مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أسراهم العرب . وبسبب ما حصل له تطوّعتُ أنا في صفوف الثورة العربية ، ومعها ألفت فكرة الموت ، الموت من أجل هدف مهما كان ، وليس الموت بلا معنى ولا غاية ، لكنني ، في الوقت نفسه ، بقيت متمسكاً بالحياة حالماً بأن أتوّجها بتكوين أسرة كما هو شأن خلق الله أجمعين منذ آدم وحواء .

– وما الذي حال دون ذلك؟

– ما حال دون ذلك كون المرأة التي أتمناها زوجة لي تسكن القدس . . لا دمشق .

– أهي نفسها صانعة حلوى (الهيطلية)؟

جفل إسماعيل على سؤال أبي ، فتأمله لحظات قبل أن ينفجر ضاحكاً وهو يقول :

– لعن الله إيليا ؛ لقد فضحني في حديقة الأفندي وهو ثمل بسبب غباء ذياب الذي لا أعلم ما الذي دفع به إلى أن يسرد له قصة حبي فاطمة؟

واستطرد بعينين غائمتين تحت وطأة الذكريات :

– أتصدقني لو أخبرتك بأنني عشقتها سماعاً قبل أن التقيها؟ لقد أحببتها من خلال شقيقها رمزي ، ولم أنسَ حديثه عنها يوم تربّعتْ أمام (الطابون) ، عقب وفاة والدتها ، لتعمل الخبز للأسرة ؛ فقد عمدت إلى غمس أول أرغفتها بالزيت لتناوله شقيقها الصغير زكريا . . . حتى إذا ما التقيتها في القدس ، ورأيت نولها الذي نصبته في إحدى غرف البيت ، وأسراب الدجاج والبط التي ربتها في (الحاكورة) أمام البيت ، معيلة أشقاءها الصغار ، عشقتها بكل وجودي ، عشقت صوتها وهو يتردد في البيت ، ورنّة قبقابيها الخشبيين المزدانين بالأصداف تتردد

بإيقاع موسيقي ، عشقت كل شيء فيها ؛ فقد وجدت فيها نموذجاً لهاتيك النساء العربيات الصابرات المضحّيات اللائي يجدن لذتهن في إسعاد المحيطين بهن . . ويوم صارحتها بحبي لم تعد الدنيا تسعني حينما وجدتها تستجيب لي . . . صحيح أنها لم تتفوه بحرف ، لكن سكوتها ، متورّدة الخدين ، كان أبلغ كلام في الدنيا!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(١١)

ذلك كان آخر ما حدّث إسماعيل به أبي قبل أن يودّع أحدهما الآخر ليعود أبي إلى غرفته في خان البيطار مفكّراً بسرّ اختيار إسماعيل إياه ، دون أصدقائه الآخرين ، ليكاشفه بأمور شخصية لم يكن ، بطبعه المتحفّظ الصموت ، من دأبه التحدث بها لأحد؟ لقد شغل هذا الأمر أبي على امتداد تلك الأيام التي سبقت وقوع الكارثة مورثاً إياه ضرباً من توجس بدنو أجل صديقه .

وبلغ توتر الأحداث الذروة ؛ ففي انتظار انتهاء المهلة الجديدة التي حددها غورو في الرابع والعشرين من تموز للتسليم بكل طلباته حشد يوسف العظمة في ممر ميسلون ما استطاع حشده من جنود ومتطوعين لا يملكون سوى بنادق بدائية في مواجهة جيش فرنسي جرار مزود بأحدث الأسلحة وأكثرها فتكاً من مدافع ، ودبابات ، وطائرات .

وكان أبي قد لازم غرفته بسبب إقفال الأسواق بعدما اتفق مع رفعت بك على التوقف مؤقتاً عن التنقل ببضائعهما بين قرى الغوطة في انتظار ما ستنجلي عنه تلك الأحداث ، فراح يقضي وقته في فراشه وسط غرفة عارية يشغل نصفها سرير ، وخزانة خشبية ، ومشجب مثبت بالحائط تدلت منه بدلته العسكرية ، بدلة ضابط في الجيش العثماني لم يدرِ أبي بسرّ احتفاظه بها ، مزجياً أغلب ساعات النهار بتدخين السجائر ، متنبّهاً إلى الصمت والسكون اللذين خيّما

على الشـوارع إثر المظاهرات الصـاخـبـة ، وكـأن دمـشق بدورها تتـرقب واجفة القلب حلول اليوم الموعود .

صباح الرابع والعشرين ارتدى ملابسه ، وغادر الخان ليتجول في الشوارع على غير هدى ملاحظاً العديد من الدمشقيين يتجولون مثله وقد علا الوجوم وجوههم . وبُعيد الضحى ، والنهار يناوش منتصفه ، تسرّبت أخبار القتال بين الطرفين ، حتى إذا ما حلّ وقت العصر شوهد أعداد من الجنود والمتطوعين يجوبون الشوارع منكسرين ؛ فقد انسحبوا من المعركة ، وبوصولهم انتشر الخبر المروع عن استشهاد وزير الدفاع يوسف العظمة مع مئات من نخبة رجاله!

لقد وقع ما كان أبي يتوجس من وقوعه ؛ ولا يبعد أن يكون بعض أصدقائه قد استشهد ، فسارع بالتوجه إلى جريدة (اليقظة) ، ففوجئ ببوابتها الحديدية الضخمة مقفلة ، فدق على باب جانبي صغير وقتاً طويلاً قبل أن تنفتح فيه كوة أطلت من خلالها عينان لا شك أن صاحبهما شخّصه ؛ إذ إنه سارع بالاعتذار إليه لاستحالة استقباله بسبب خلو الجريدة من أصحابها . وشفع كلامه بإطباق الكوة واضعاً بذلك حداً لاستمرار الحوار ، فانسحب أبي مبتعداً وقد داخلته الشكوك بحدوث أمر جلل دفع الحارس إلى أن يتصرف على تلك الشاكلة ؛ فمن المحال أن يترك إيليا خوري الجريدة . ولم يكد ينحرف داخلاً زقاقاً جانبياً حتى لمح إيليا قادماً من بعيد وهو يتلفت ، بين فينة وأخرى ، إلى الوراء بطريقة تبعث على الريب ، فتخفّى أبي خلف أحد منعطفات الزقاق محاولاً اكتشاف سر ما يجري . ولم تمر لحظات حتى مر إيليا على بُعْد أمتار منه ، تسير في أعقابه راهبة بملابسها التي توزعها اللونان الأسود والأبيض!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تابعهما بعينيه وهما يتجهان نحو باب الجريدة الجانبي الذي انفتح لهما من فوره . لقد كان مصيباً في شكوكه إذن ، ولكن ما شأن إيليا مع تلك الراهبة؟ لعلها ليست راهبة ، إنما هي امرأة متنكرة بذلك الزي لسبب من الأسباب . وهرع أبي نحو الباب ليدق عليه طويلاً دون أن يحظى هذه المرة بجواب .

عاد أبي إلى الخان ليقضي في غرفته ليلة مؤرقة . ومع حلول مساء اليوم التالي انتشر بين النزلاء خبر شروع القوات الفرنسية بدخول دمشق وعلى رأسهم الجنرال غوابيه ، وانسحاب الحكومة السورية وانتقالها بالقطار إلى محطة الكسوة الواقعة على بعد اثني عشر ميلاً إلى الجنوب ، فدأب أبي على التوجه إلى مقر الجريدة صباح كل يوم عساه أن يحظى بخبر عن مصير أصدقائه ، بيد أنه اعتاد أن يكلّ يده بالدق دون أن يحظى بجواب .

في الأول من آب سمع أبي بنبأ وصول الجنرال غورو إلى دمشق ، وتوجهه نحو ضريح صلاح الدين الأيوبي حيث وضع قدمه على قبره المهيب ، مخاطباً إياه بشماتة : (ها إننا قد عدنا يا صلاح الدين ، فانهض لترانا هنا في سوريا)!

وبعد مرور أيام كوفئ أبي على دأبه بالتوجه يومياً إلى الجريدة بلقاء إيليا خوري وجهاً لوجه لحظة خروجه من الباب .

– ما الذي يحصل لديكم؟ ولمَ لم تستجب على طرقي قبل أيام عقب دخولك الجريدة وفي صحبتك . . . راهبة؟

صاح أبي متسائلاً بانفعال ، فسارع إيليا بسحبه إلى الداخل متوسلاً إليه هامساً ألا يرفع صوته خوفاً من لفت انتباه جواسيس الفرنسيين المنتشرين في كل شارع وزقاق .

– وما شأني أنا بالفرنسيين أو جواسيسهم وقد جئت لغرض الاطمئنان على أصدقائي؟

– أرجوك . . . أخفض من صوتك ؛ ستعرف بكل شيء خلال دقائق .

بدت الجريدة خاوية من الداخل وقد كفّ الماء عن التدفق من الفسقية . وكانت الريح تجرف ، من حين إلى آخر ، أوراق الأشجار التي جف معظمها . قاد إيليا أبي إلى قاعة التصميم ليؤكد له أن امتناعه عن الالتحاق بالمتطوعين لم يحل بينه وبين محاربة الفرنسيين بطريقته الخاصة ؛ فقد انتهى من تصميم عشرات الرسومات الكاريكتيرية حول الاحتلال الفرنسي لسوريا لعل أبرزها رسم مثّل به الجنرال غورو على هيئة قرصان ؛ فإحدى عينيه مغطاة برقعة سوداء مستديرة ، وذراعه المبتورة تنتهي بطرف صناعي على هيئة كلّابة وقد أمسك بذراعه الوحيدة بطرف حبل وهو بصدد القيام بقفزة من قارب صغير ، كُتب عليه اسم لبنان ، إلى سفينة كُتب عليها اسم سوريا ، وثمة عبارة ثُبتتْ تحت ذلك الرسم هي (القرصان غورو)!

– وإسماعيل ، والآخرون . . . ما أخبارهم؟

ذكّر أبي إيليا بما قدم للسؤال عنه ، فطمأنه هذا مؤكداً أنهم بخير باستثناء فايد العايد الذي أصيب بجروح خطيرة كادت تودي به . وتابع مؤكداً أنه كان سيقضي نحبه لولا معالجة الأخت روز إياه .

– ومن تكون روز هذه؟ أهي تلك الراهبة التي رأيتها تتعقبك ذلك اليوم؟

أكد إيليا صحة استنتاج أبي ، وأضاف موضحاً أن إسماعيل ويوسف وذياب قدموا بفايد الجريح إلى الجريدة مساء اليوم نفسه الذي انتهى بمأساة استشهاد يوسف العظمة ، وكان قد نزف الكثير من دمه ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبدا من المؤكد أنه سيموت خلال ساعات لاستحالة الاستعانة بمن سيجازف بحياته لمعالجته خوفاً من انتقام الفرنسيين من المتعاونين مع الثوار ، فضلاً عن خوف فايد من الوشاية به . ولم يدرِ إيليا ما الذي ألهمه ليقترح عليهم الاستعانة بالأخت روز : فبرغم أنهم أبدوا شكوكهم من أن تجازف تلك الراهبة بالقيام بتلك المهمة ، ليس لكونها محفوفة بالمخاطر فحسب ، بل بسبب ذلك الماضي الذي جمعها بفايد ، والذي كانت تعمل جاهدة على نسيانه ، برغم تلك الشكوك ، توجه إيليا إلى كنيسة القديس جاورجوس لينفرد بالأخت روز مهيباً بها مساعدته في إسعاف جريح مطارد من الفرنسيين ، فعمدت من فورها إلى التقاط حقيبتها الصغيرة التي تحتوي على الضماد والأدوية ، حتى إذا ما وقفت فوق رأس الجريح ، وعرفت من يكون ، اكتفت بأن رمقت إيليا بعينين زرقاوين أخذتْ الدموع تتجمع فيهما .

وأنهى إيليا حديثه قائلاً :

– هكذا دأبت الأخت روز على معالجة فايد ثلاثة أيام متلاحقة ، حتى إذا ما اطمأنت إلى تجاوزه مرحلة الخطر مدت يدها إليه مودعة وهي تقول : (ما حدث حدث ليس بخطأ منك أو مني ، بل لأمر أراده الله) .

وتابع إيليا متحدثاً أن إسماعيل وأصدقاءه سارعوا بالتسلل بصديقهم الجريح من دمشق قبل استفحال الخطر وشروع الفرنسيين في البحث عن المطلوبين ، فتوجهوا به إلى جبل الدروز حيث يقع بيت كامل الأطرش في إحدى قراه ؛ لأنه لم يعد في وسعهم البقاء في سوريا ولا سيما بعد قرار المجلس العسكري التابع للفرقة الثالثة من الجيش الفرنسي في الشرق ، القاضي بإعدام كل من تعاون مع أعداء الحكومة الفرنسية بأي شكل من الأشكال .

(١٢)

يومذاك خيّل إلى أبي أن ذلك هو آخر عهده بإسماعيل الذبيح ؛ فلقاؤهما بات مستحيلاً سواء في دمشق – حيث إسماعيل محكوم بالإعدام – أم في بغداد – حيث لا يحق لأبي العودة بحكم كونه أحد ضباط الجيش العثماني السابقين – فطوى صفحة تلك الصداقة دون أن يخطر له أن الزمن هو الذي سيتكفل بفتحها مجدداً بعد مرور خمسة أعوام على آخر لقاء لهما في جريدة (اليقظة) .

وكان أبي قد انصرف إلى تجارته مطوّراً إياها مع شريكه رفعت بك ؛ إذ ما عادا يكتفيان بنقل البضائع بعربة الطنبر بين دمشق وقرى الغوطة ، بل عمدا إلى فتح متجر لهما في سوق الحميدية الشهيرة ، تلك السوق التي تبدأ قرب سور دمشق الغربي ، عند باب النصر ، لتمتد حتى سوق العصرونية وسوق المسكية الخاصة بالوراقين والكتبيين ، والتي تنتهي بباب الجامع الأموي الغربي المسمى باب البريد .

وبدا رفعت بك وكأنه وجد في ذلك المتجر ضالته ؛ فلقربه من مكان سكنه في خان السفرجلاني ، القائم في سوق التبغ جنوبي الجامع الأموي ، أخذ يرابط فيه أغلب ساعات النهار ، لا يكاد يغادره إلا تحت إغراء الجلوس عصراً في أحد المقاهي حيث كان أبي يحرص على متابعة أخبار الثورة المشتعلة في العراق ، تلك الأخبار التي كانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد أصبحت الشغل الشاغل للعراقيين المغتربين في دمشق ؛ فبرغم أن العديد من الصحف احتجبت عن الظهور واضطرت الأخريات إلى التروي والحذر في نشر الأخبار - بسبب الأحكام العرفية التي فرضتها سلطة الاحتلال - لكن أخبار الثورة كانت تصل إلى دمشق ، ولا سيما بعد صدور خمسة أعداد من جريدة (الفرات) لسان الثورة العراقية ، لتعقبها جريدة (الاستقلال) التي دأبت على نشر أخبار القتال مع الإنكليز .

وكان من البديهي أن تتسرب نسخ من تينك الجريدتين إلى دمشق حيث كان العراقيون يتلقفونها ملهوفين ، فيتبادلونها مثل منشورات سرية في لقاءاتهم اليومية في المقاهي المنتشرة حول نهر بردى وفي ساحة المرجة وفي شارع الدرويشية ، مؤملين أنفسهم بقرب العودة إلى ديارهم ؛ فبرغم يقينهم من استحالة انتصار الثورة على الإنكليز ، لكنهم كانوا متأكدين أن هذه الثورة ستحدث تغييراً ما سيساعدهم على تلك العودة .

لم يكد أبي ينتهي ، ذات يوم ، من احتساء شايه في ذلك المقهى الذي يتكوّن أغلب رواده من العراقيين حتى فوجئ برفعت بك يعود من جولته التي اعتاد القيام بها بين الموائد الأخرى ، وهو يلوّح بجريدة ، وثمة نظرة انتصار تتألق في عينيه .

- ها هم الثوار العراقيون يثأرون لمعركة ميسلون!

صاح وهو يجلس على كرسيه تاركاً أبي يتصفح بيدين راجفتين من فرط الانفعال تلك الجريدة التي تصدّرها خبر معركة الرارنجية حيث انهزمت فيها قوة مانشستر الإنكليزية على أيدي الثوار في الكفل .

- لقد وقعت هذه المعركة في الرابع والعشرين من تموز أي في اليوم

نفسه الذي وقعت فيه معركة ميسلون هنا في سوريا .

نبهه رفعت بك ليضيف مذكّراً إياه بأنه آن لمعنوياتهما أن تتعزز على أثر هذا الانتصار بعد تزعزعها بسبب استشهاد يوسف العظمة واحتلال دمشق . وعلى مدى الأسابيع اللاحقة انصرف الاثنان إلى الطواف يومياً في المقاهي مقتنصين آخر الأخبار : إذ إن الثوار العراقيين تمكنوا من تحرير الدغارة وطويريج وتهيأوا لعبور نهر الفرات ليدخلوا الحلّة ، وانسحبت القوات البريطانية تحت ضغطهم من الديوانية ثم بعقوبة وقلعة سكر بعدما شعرت بأن بغداد نفسها باتت مهددة بحمّى الثورة ؛ إذ إن عدداً من الثوار عمدوا إلى إضرام النار في مركز النقليات الميكانيكي ، كما هاجم غيرهم دائرة المالية في ديالى .

وأعلنت كربلاء الجهاد ؛ فعلى إثر وفاة الشيرازي الذي كان أول من أعلن الجهاد على الإنكليز ، سار على نهجه شيخ الشريعة الأصفهاني ؛ فألقى خطبة طويلة حثهم فيها على مواصلة الجهاد . وانطلق ثوار زوبع لمهاجمة سكة حديد بغداد – سامراء ، وتقدموا بقيادة الشيخ ضاري نحو الفلوجة ، ودخل الثوار مدينة كفري فأجهزوا على الحاكم السياسي فيها . واضطر الإنكليز إلى إخلاء سوق الشيوخ . وقضى ثوار الجنوب على قوة بريطانية قدمت لإنقاذ الحامية المحاصرة في السماوة .

بقي أبي يلاحق ، مع رفعت بك ، تلك الأخبار على امتداد أشهر الصيف ، حتى إذا ما حل الخريف حملت الأخبار إليهما نبأ شروع الإنكليز في تعزيز قواتهم باستدعاء أعداد جديدة مدعمة بأسراب طائرات وبوحدات طبية عسكرية ، معلنين ، في الوقت نفسه ، عن رغبتهم بتشكيل حكومة عراقية سرعان ما عززوها بتنصيب فيصل ملكاً على العراق .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ها هم الإنكليز يعوضون صديقهم القديم فيصل عن الإذلال الذي ألحقه به الفرنسيون .

علق أبي بمرارة أثر سماعه بالخبر ، فخفف رفعت بك عنه الأمر بقوله :

– الأمر المؤكد هو قرب صدور عفو عام ، وفي حالة حصوله أنعود إلى بغداد؟ أم نبقى في دمشق؟

تبادل الاثنان نظرات حائرة ؛ فعملهما كان قد بلغ آنذاك أوج ازدهاره : إذ إنهما لم يكتفيا بفتح ذلك المتجر في سوق الحميدية ، بل شرعا في إرسال شحنات من البضائع إلى بغداد مستثمرين شيوع وسائط النقل السريعة . وكانت الرسائل التي ترد إلى أبي من بغداد تجعله نهباً للتردد في اتخاذ القرار الحاسم ؛ فبقدر ما كان والده يشجعه ، في رسائله ، على البقاء – مزيناً له الأمر بأنه ، بفضل البضائع التي يرسلها إليه ، بصدد شراء بيت بطابقين يشرف على إحدى ساحات الشورجة سيحوّله إلى (علوة) – كانت أمه ، بهوامشها التي تذيّل بها تلك الرسائل ، تحثّه على العودة لتزوّجه بواحدة من قريباتها سعياً منها إلى أن (تكحل) عينيها برؤية أحفادها منه قبل أن تموت .

وانقطعت صِلات أبي بأصدقائه القدامى منذ هربهم من دمشق بعد معركة ميسلون ، وبقي إيليا خوري الوحيد الذي يزوده بآخر أخبارهم : فكلما التقاه ، سواء في سوق الحميدية أم في مقر الجريدة المهجور ، حدّثه عن استقرار كامل الأطرش في القاهرة ، واختيار فايد العايد جبل الدروز له ملجأ . أما إسماعيل ويوسف وذياب فقد انقطعت أخبارهم عنه ؛ فتعيّن على أبي العودة إلى طريقته القديمة في إزجاء وقته موزعاً إياه بين الجلوس في المتجر والتجوال في شوارع دمشق

منصرفاً إلى تأمل تلك المعالم التاريخية التي تحفل بها المدينة : حيث الجوامع والمساجد والكنائس والمزارات والأضرحة والتكايا لا يكاد يحصرها العدّ .

وكان الجامع الأموي يقع في طليعة تلك المعالم التي يحرص على زيارتها ليس لقربه من متجره فحسب ، بل للصيت الذي حازه على مرّ القرون حتى ان الرحالة ابن جبير خصّه بعبارة بليغة حفظها أبي عن ظهر قلب (أشهر جوامع الإسلام حسناً ، وإتقانَ بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق . وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه) .

كانت واجهة الجامع الجنوبية ، التي يتخللها باب الزيادة الثلاثي المدخل ، من مخلّفات معبد روماني قديم أمر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك المهندسين بالإبقاء عليها حين شروعهم بالتشييد ؛ فجاءت آية في الجلال والشموخ ، تمتاز بدقة الزخرفة والريازة . وكانت للجامع ثلاثة أبواب أخرى يُسمّى الشرقي منها باسم باب جيرون ، ويُسمى الغربي باب البريد ، أما الشمالي فيحمل اسم باب الفراديس . وسط تلك الأروقة الموغلة في الارتفاع والتي تحفّ بها أعمدة رخامية مكللة الرؤوس بالتيجان كان أبي يؤدي صلاته ، تحيط به جدران مزدانة بآيات قرآنية مكتوبة بخطوط بيض وسط زرقة القاشاني .

وكان مرقد صلاح الدين الأيوبي ، القائم إلى الجهة الشمالية للجامع الأموي في حي الكلاسة وسط عدة معالم تاريخية تتوزع بين المدرسة الإخنائية والخانقاه السميساطية والمدرسة الچقمقچية ، من ضمن الأماكن التي يطيب لأبي زيارتها متأملاً بأسى مغزى هذه المفارقة المتمثلة بأن يرقد ، ذلك الذي حقق أكبر انتصار على الصليبيين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لتعم شهرته الخافقين ، وسط حديقة بالغة التواضع لا تتخطى مساحتها بضعة أمتار .

وكان هناك مَعْلَم آخر قائم غربي دمشق في منطقة الصالحية كان أبي ينفسّ بزيارته إياه عن شعوره بالغربة ؛ ذلك لأن صاحبه اغترب بدوره عن بلاده الأندلس ليثوى في دمشق : ذلك كان ضريح محي الدين بن عربي قطب الصوفية الأكبر القائم بجانب جامعه في جادة المدارس قبالة تكية السلسمية ، يجاوره مرقد مريده الأمير عبد القادر الجزائري .

كان يطيب لأبي التجوال في تلك المنطقة الساحرة العابقة بأريج القداح والياسمين حيث أسيجة الحدائق مغطاة بسيقان النباتات المتسلقة ، تطل من خلفها أشجار البرتقال والنارنج والليمون ، تعلوها مشربيات البيوت . من هناك كان يدرج مرتقياً سفوح جبل قاسيون ليتجوّل في مقبرة المراودة المزدانة بأشجار التوت سارحاً بنظراته على مدينة دمشق الممتدة على مدى البصر حيث المآذن تمتد برشاقة نحو زرقة السماء المرقطة بأسراب الحمام ، تجاورها قباب توشّيها الأشجار بخضرتها .

كانت جولات يعود أبي بعدها إلى المتجر تاركاً شريكه رفعت بك يمارس هوايته المتمثلة بترسيخ علاقته بمعارفه الجدد ، أصحاب المتاجر والدكاكين في سوق الحميدية : يزور صاحب المتجر المقابل بحجة احتساء فنجان قهوة ، أو يعرّج على الدكان الذي إلى اليمين لشرب كوب شاي ، أو الذي إلى اليسار لتدخين نارجيلة ، ليعود من تلك الزيارات الخاطفة محمّلاً بآخر الأخبار ولا سيما أخبار المحتلين الفرنسيين ودأبهم على تقطيع أوصال الدولة السورية : فبعدما نجحوا في

فصل لبنان عنها عمدوا إلى إعلان حلب دولة مستقلة عن دمشق ، ليعقبوها بإنشاء دولة للعلويين جاعلين اللاذقية عاصمة لها قبل أن ينصرفوا إلى تأسيس دولة جبل الدروز!

- إنهم ينفذون برنامجهم الاستعماري المعروف .

كان أبي يعلق بازدراء على تلك الأخبار ، فكان رفعت بك يسارع بالرد :

- لكنهم لن ينجحوا في برنامجهم البائس هذا ما دام هناك وطنيون يتصدّون لهم : فهناك إبراهيم هنانو الذي اتخذ من جبل الزاوية قاعدة ينطلق منها بمقاتليه ليباغت بهم الفرنسيين ، في حين اختار الشيخ صالح العلي مدينة اللاذقية مركزاً لتجمّع رجاله .

وكان أبي يضيف مفتخراً :

- ولا تنسَ مجموعات المقاتلين التي ظهرت عند نهر الفرات وكادت تستولي على دير الزور ، فضلاً عن مقاتلي الشوف الذين أقلقوا الفرنسيين ، وهناك مقاتلو بعلبك الذين اغتالوا أحد الضباط الفرنسيين .

- بل إن الجنرال غورو نفسه تعرض لمحاولة اغتيال حينما كان في طريقه من دمشق إلى القنيطرة .

هكذا كان الاثنان يتباريان في ذكر تلك الأخبار التي تبشّر بقرب انفجار الثورة ، بيد أنهما كانا يتفقان على أن الدروز - أصحاب العيون الكحيلة والجدائل المسترسلة - هم الذين سيبادرون إلى إشعال فتيل الثورة ؛ لأنهم أول من تصدى للمحتلين ففتكوا ، في محطة خربة الغزالة ، بعلاء الدين الدروبي رئيس الحكومة العميلة التي نصبها الفرنسيون على البلاد لتنفيذ مآربهم ، كما أن سلطان باشا الأطرش -

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحد أكبر زعماء الدروز الذين أسهموا في الثورة العربية ، وكان في طليعة من دخلوا دمشق حين تحريرها من العثمانيين - كان أول من ثار على الفرنسيين على أثر محاولة اغتيال غورو فقصف الفرنسيون بيته في الجبل بالطائرات .

- من المؤكّد أن إصرار الفرنسيين على إبقاء الكابتن كاربيه حاكماً عسكرياً على جبل الدروز هو الذي سيعجّل بقيام الثورة المنتظرة .

ذلك ما كان أبي يردده كلما تطرّقا إلى أخبار الجبل ، فكان رفعت بك ينفجر مقهقهاً ليستعيد مع أبي تلك الطرائف التي اشتهر بها ذلك الضابط الفرنسي المتهور ، والتي بقدر ما هي شاذة تثير السخرية ، تستدعي ، في الوقت نفسه ، الغضب والاستنكار : فحين ضاعت هرّة أحد ضباطه في مدينة السويداء فرض على الأهالي دفع غرامة قدرها عشر ليرات . وكان كل من يخطئ فيتنحنح عند مروره به يأمر بإيداعه السجن ؛ لأن جواسيسه كانوا قد أبلغوه أن نحنحة الدرزي ما هي إلا ضرب من لعنة ، وهكذا كان نصيب كل من أصيب بعارض برد الحجز في انتظار شفائه وزوال السبب الذي أوجب عليه الاعتقال!

(١٣)

وهكذا لم يفاجأ أبي بأن يستقبله رفعت بك ، ذات يوم ، حين وصوله إلى المتجر بقوله :

- أبشر . . . فقد عملها أصحاب العيون الكحيلة والجدائل المسترسلة فأعلنوا الثورة!

وكانت أخبار تلك الثورة لا تزال غامضة يستحيل الإلمام بتفاصيلها ، تطلّبتْ مرور أسابيع قبل أن تنجلي على حقيقتها ؛ فإذا بها ثورة لا محض فورة ما تكاد تهب حتى تخمد ؛ فقد أشيع أن الفرنسيين وجهوا إلى جبل الدروز أكثر من حملة عسكرية ارتدت منكسرة!

وكان نطاق الثورة قد اتسع ليتخطى الجبل متغلغلاً في دمشق نفسها حيث أوشكت سلطة الاحتلال على أن تفقد السيطرة على المدينة ؛ فأخذت المجموعات المقاتلة تظهر بأسلحتها علانية ولا سيما في الأحياء المفتوحة على الغوطة مثل حي الميدان والخراب وقبر عاتكة ومسجد الأقصاب والعمارة وباب السريجة ومأذنة الشحم والقيمرية وسوق القطن .

وعمد الفرنسيون إلى مدّ الأسلاك الشائكة في الشوارع والأحياء السكنية ، ناصبين المتراليوزات[1] في أكثر من مكان ، لا بل لم يتورعوا

---

(١) المتراليوز : مدفع رشاش سريع الإطلاق .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن استعمال المدفعية حين هاجم أعداد من الدروز حي الميدان ؛ فدوّتْ القذائف ولعلعت صليات الرشاشات ، وشوهدت الطائرات وهي تنقضّ على ذلك الحي ملقية حمولتها قبل أن ترتفع مجدداً مخلّفة على الأرض سحب الدخان .

يومذاك فكر أبي جدياً بتصفية تجارته والعودة إلى بغداد ؛ فقد برهنت الأحداث المتلاحقة على أن الثورة في اتساع مستمر ، وأنها قد تشمل سوريا كلها . وكانت سوق الحميدية قد أوشكت أن تقفر من زحام المتبضعين الذين كانوا لا يكفّون عن التقاطر على دكاكين العطارين والبزازين والسروجية والخبازين وباعة اللحم المشوي حيث كان في الوسع تمييز العربي عن الكردي والشركسي عن الأفرنجي بأزيائهم الخاصة بهم . وكذلك قلّ ظهور حملة المباخر الذين كانوا من سمات السوق المميزة : يرتفع صوت أحدهم بالدعاء والصلوات قبل أن يظهر في السوق المسقفة بالحديد والتوتياء وهو يؤرجح مبخرته في شتى الاتجاهات مخلفاً وراءه أريج سحب دخانه المعطر .

وفوجئ أبي ، ذات يوم ، بقدوم إيليا خوري إلى المتجر ، فاستقبله بفرح حقيقي ؛ فقد مضت مدة طويلة على آخر لقاء بينهما . بدا إيليا كعادته شديد الاضطراب ، لا يكف عن التلفت حوله كالمطارد ، ماسحاً بمنديل مبلل تماماً سيول العرق المتصببة من وجهه وعنقه ، فسارع أبي إلى استدعاء بائع جلاب مرّ بالسوق مصادفة ليسعف إيليا بكأس من عصير التمر الهندي عمد إلى اكتراعها دفعة واحدة وقد تهالك جالساً على مقعد . حتى إذا ما مرت دقائق وتمكن من التقاط أنفاسه قرّب فمه من أذن أبي ليهمس له - ورائحة الخمرة المعهودة تفوح منه - طالباً منه القدوم بعد غروب الشمس إلى مقر الجريدة ؛ إذ

ثمة مفاجأة في انتظاره . وهبّ واقفاً ليضيف متوسلاً قبل أن يغادر المتجر :

– كن حذراً عند قدومك ، واحرص على ألا يتعقبك أحد جواسيس الفرنسيين .

لم يكد أبي يتلمّس ، في الموعد المحدد ، سبيله في ظلام الليل الحافل بأصداء عيارات نارية لا تكف عن الانطلاق من شتى أرجاء المدينة مقترباً من البوابة المغلقة حتى انفتح باب الجريدة الجانبي حيث فوجئ بإيليا يدعوه هامساً للإسراع بالدخول ليتساءل وهو يطبق الباب وراءه مديراً فيه المفتاح :

– أتأكدت أنه لم يتعقبك جاسوس؟

وتقدم إيليا أبي في الظلام لينحرف به يساراً نحو المطبعة وهو يرشده همساً محذراً إياه تارة من الاصطدام بما يعترض سبيله ، طالباً منه طوراً تحسس موطئ قدميه وهو ينحدر بضع درجات انتهت به إلى غرفة يضيئها مصباح حيث وجد نفسه وجهاً لوجه مع إسماعيل الذبيح وفايد العايد!!

عانق الرجال الثلاثة بعضهم بعضاً بعد فراق تخطى خمسة أعوام ، وتهالكوا جالسين على أرائك معطوبة احتلّتْ نصف غرفة أشبه ما تكون بالسرداب ، شغلت نصفها الآخر رزم صحف ومجلات قديمة . ولاحظ أبي بندقيتين ألمانيتين من صنف الموزر مستندتين إلى أحد الجدران . وكان إيليا خوري قد اختفى دقائق قبل أن يطلّ برأسه الصغير من باب الغرفة متفقّداً الجالسين الثلاثة بنظرة قلقة اختفى على أثرها مجدداً وكأنه يؤدي دور الحارس .

لم تكن بأبي حاجة إلى سؤالهما عن طبيعة المهمة التي دفعت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بهما إلى المجازفة بدخول دمشق ؛ ذلك ليقينه أنها على صلة بثورة الجبل ؛ إذ بات من المعروف أنه سبق لبعض زعماء الدروز أن اجتمعوا سراً - وقبل إعلان الثورة - ببعض زعماء حزب الشعب وعلى رأسهم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، وحلفوا بأقدس الإيمان على التحالف ، وتوحيد العمل للدفاع عن استقلال البلاد .

- ها هي ثورة أخرى تنطلق وأنت لا تزال كما عهدناك : تنأى بنفسك عما يجري حولك .

علّق فايد العايد مبتسماً ، فأجابه أبي من فوره :

- ذلك لأنه لا شأن لي بثورة بدأت بإسقاط الدولة العثمانية المسلمة بمعونة الأجانب .

- لم يكن إسقاط الدولة العثمانية هدفنا ، بل إنشاء الدولة العربية .

- وأين هي تلك الدولة العربية؟ لا تقل إنها تتمثل بالعراق أو بشرق الأردن ، أما فلسطين فأنت أدرى بما يجري فيها مع اليهود القادمين إليها من كل حدب وصوب . . . ثم أية دولة سعت هذه الثورة إلى إنشائها وقد تمّ نفي قائدها الشريف حسين إلى قبرص؟ لقد اعترف الرجل ، وهو يقاد إلى المنفى ، أنه غُدر به وهو الرجل الصادق الذي كان يجهل حقيقة أخلاق الأوربيين وما ينطوون عليه من غلّ .

وتدخل إسماعيل في الكلام مقاطعاً :

- الأمر كما تقول يا صديقي : فقد سبق لي أن آمنت أن حلفاءنا السابقين - الإنكليز والفرنسيين - يسعون إلى تحقيق مآربهم الاستعمارية المعروفة غير آبهين بالإيفاء بتعهداتهم التي وثّقوها بالرسائل المتبادلة بين الشريف حسين والسير مكماهون ، بيد أن ذلك

لا يعني الكف عن مواصلة النضال ، بل على العكس تماماً : إنهم يحفزوننا على النضال أكثر وخير مثال أضربه على ذلك ما يحصل الآن في جبل الدروز .

فقال فايد بمرارة :

– تصوّر أن دولة بحجم فرنسا وقوتها تلجأ إلى طرق وأساليب وضيعة للإيقاع بخصومها لا يتبعها عادة إلا اللصوص ؛ فقد بعثت سلطة الاحتلال بدعوات إلى زعماء الدروز للقدوم إلى دمشق بحجة إجراء مباحثات معهم في شؤون الجبل . حتى إذا ما صدع هؤلاء الزعماء لتلك الدعوات عمد المحتلون إلى إلقاء القبض عليهم لينفوهم بعيداً عن موطنهم!

وأكمل إسماعيل باعتزاز :

– بيد أن هذه اللعبة الوضيعة لم تنطلِ على سلطان باشا الأطرش ؛ فقد اعتذر عن تلبية دعوتهم بالقدوم إلى دمشق ، حتى إذا ما وجدهم يلحّون على طلبهم ذاك عمد إلى الطواف في قرى الجبل جامعاً الفرسان من حوله ليهاجم بهم مدينة صلخد حيث تم إحراق دار البعثة الفرنسية معلناً بذلك ثورته .

وأوضح فايد أن تسلله مع إسماعيل إلى دمشق جاء لغرض التنسيق مع قادة ثورتها ليسارعوا إلى التحرّك لتخفيف ضغط الفرنسيين على الجبل ، وأنهما قد اتصلا بأغلب هؤلاء الثوار ولا سيما ثوار الأحياء المفتوحة على الغوطة لأجل استدراج الفرنسيين للقدوم إليها ليتمكن الثوار بالنتيجة من ضربهم قبل أن ينسحبوا متخفين في البساتين .

وقال إسماعيل مبتسماً :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– لقد نجحنا في مهمتنا مع الجميع باستثناء عدد محدود منهم أحدهم أنت ؛ إذ يبدو أن التجارة أنستك حياتك العسكرية السابقة مبعدة إياك عن طريق الثورة .

فأجابه أبي وهو يبادله الابتسام :

– لم أسلك يوماً طريق الثورة لتبعدني التجارة عنه الآن ؛ فمنذ تخرّجي ضابطاً في الجيش اخترت الذود عن الخلافة العثمانية ، فانتهى دوري بسقوط تلك الخلافة .

صباح اليوم التالي فوجئ أبي برفعت بك يقدم إلى سوق الحميدية بعربته الطنبر ليشرع من فوره بتحميلها بأكياس البضائع ، وهو يقول ناصحاً :

– علينا الإسراع بتخزين البضائع في غرفتك في خان البيطار وفي غرفتي في خان السفرجلاني ، ولا نترك في المتجر إلا ما لا يشكّل ضياعه خسارة لنا .

– وما مسوغ ذلك؟

– لقد أضحت الأسواق معرضة لغارات اللصوص ، هذا إن سلمت من قصف الفرنسيين .

ولم تكد تمر أسابيع حتى تيقّن أبي من صحة ذلك الإجراء ؛ فقد أخذ القتال يشتدّ ولا سيما في الأحياء الجنوبية مثل حي الميدان والشاغور ، ليقترب رويداً رويداً من خان البيطار حيث أخذ أبي يشعر بالجدران ترتجّ من حوله على دوي القذائف التي كان الثوار يتبادلونها مع الفرنسيين في منطقة باب السريجة ، بل بات في وسع الثوار التقدم حتى منطقة باب الجابية التي تقع وسط المدينة مهددين بذلك دار الحكومة والقلعة . ويبدو أن اتصال إسماعيل وفايد بزعماء الأحياء

القريبة من الغوطة قد أثمر ؛ فقد لاحظ أبي لجوء الفرنسيين إلى إحراق قرى جرمانا والمليحة وزبدين وداريا ودير محد انتقاماً من الثوار الذين أوقعوا بهم خسائر فادحة ؛ فعمد القرويون إلى الهرب من قراهم والنزوح إلى دمشق .

في الرابع عشر من تشرين الأول لم يكد أبي يغادر الخان لشراء بعض المواد الغذائية حتى فوجئ بحشود تمرّ به مهرولة وهم يستغيثون بالله ، وحينما تمكن من إيقاف أحدهم ليسأله عما يجري ، أجابه هذا وهو يلهث :

- الفرنسيون يطوفون في الأسواق بجمال شدوا إلى ظهورها جثث قرويين أعدموهم انتقاماً على أثر انسحابهم منهزمين من معركة خاضوها مع الثوار وذلك لغرض عرض تلك الجثث اليوم في ساحة المرجة!

لم تكد تمر أربعة أيام حتى شاع في خان البيطار أن الثوار هاجموا حي البزورية حيث يقوم قصر آل العظم على أثر سماعهم بوصول المندوب السامي الفرنسي إلى هناك لغرض إلقاء القبض عليه حياً .

- سيحرق الفرنسيون دمشق بعد هذه الحادثة .

أعلن أحد النزلاء ، فعقب عليه آخر :

- لقد مهدوا لذلك بالطلب إلى أفراد جاليتهم رجالاً ونساء باللجوء إلى الصالحية حيث أقاموا حولهم المتاريس ، وحموهم بالدبابات .

ظهراً أخذ الخان يهتز منذراً بالانهيار على أثر انفجار قذائف شرعت الدبابات الفرنسية بإطلاقها وهي تجوب الشوارع .

صباح اليوم التالي ، وفي تمام الساعة العاشرة ، بدأت المدفعية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والدبابات والطائرات قصفاً مركّزاً استمر حتى ظهيرة اليوم التالي إذ أُعلن عن هدنة أمدها أربع وعشرون ساعة قبل استئناف القصف .

وسط جو الترقب والقلق فوجئ أبي برفعت بك يندفع داخلاً الخان ليعلن صارخاً :

– لقد تهدّمت أغلب أسواق دمشق واحترقت ، ولا سيما سوق الحميدية ، وسوق مدحت باشا ، وكذلك كان شأن سوق الخراطين والبزورية ، كما أن جامع السنانية احترق عن آخره فتحطمت نوافذه الجميلة المزدانة بالفسيفساء ، وقد أتت النيران على اغلب قصور الأسر المشهورة .

واستدار نحو أبي ليهمس إليه بقوله :

– يفترض بك الآن أن تشكرني ؛ إذ لولاي لكانت بضاعتنا استحالت إلى رماد .

في تلك اللحظة حسم أبي أمره ؛ واستقرّ رأيه على العودة إلى بغداد حالما تسنح له الفرصة . ولبث في الخان أياماً في انتظار أن تهدأ المعارك ليتسنّى له الوصول بسلام إلى مقر الجريدة للقاء إيليا خوري وسؤاله عن آخر أخبار أصدقائه ولا سيما إسماعيل ، حتى إذا ما مرّ أسبوع جازف ، عصر ذات يوم ، بالتوجّه إلى هناك ، فحالفه الحظ بأن يكون إيليا هو الذي فتح له الباب ؛ إذ سارع بسحبه إلى الداخل ليرتمي على عنقه باكياً وهو يردد مع كل نفثة من أنفاسه المشبعة برائحة الخمر :

– أرأيت ما فعل الفرنسيون بدمشق الجميلة؟ أرأيت ما فعلوه بها؟ أرأيت؟

وظل يكرر ذلك السؤال دون أن يكف عن البكاء ، حتى إذا ما هدأ

بعض الشيء قاد أبي إلى غرفة صغيرة مضاءة بشمعة كادت تنطفئ لحظة أطبق إيليا الباب مديراً فيه المفتاح وهو يقول :

– سأصمد على الرغم من الغزاة ، ولن أغادر دمشق هارباً شأن الآخرين .

بدا من الواضح أنه ، وهو في ذروة ثمله ، يعرّض بفايد وإسماعيل ؛ فاغتنم أبي الفرصة السانحة ليسأله عنهما ، فأجابه مستاء :

– وما أدراني بذلك؟

وانشغل لحظات في إعادة ترتيب مائدته الصغيرة التي كانت تتوسطها قنينة خمر ، حتى إذا ما أفرغ كأسه في جوفه دفعة واحدة عاد يقول وقد ألقم فمه بقطعة مخللات انهمك في مضغها مستمتعاً :

– إنهما في مأمن . . . هذا ما أنا واثق منه ؛ فهما أدهى من أن يجعلا الفرنسيين يوقعون بهما ؛ ذلك لأنهما يتحسّبان لكل خطوة يخطوانها حسابها .

واستطرد وهو (يعمّر) كأساً جديدة :

– لقد استعدّا سلفاً للنجاة بنفسيهما في حالة فشل هذه الثورة وذلك باللجوء إلى مكان آمن .

لم يجد أبي مفرّاً من التجمل بالصبر وتحمّل ثرثرة إيليا وصولاً إلى معرفة مصير صديقيه ، وذلك ما فاز به بعد مرور ساعة كادت رائحة الخمر تكتم خلالها أنفاسه ؛ فقد ذكر إيليا بشكل عرضي أنهما اعتادا اللجوء إلى إحدى قرى جبل الدروز على أمل أن يلتحق فايد العايد بأستاذه كامل الأطرش الذي استقرّ منذ سنوات في القاهرة .

– حسن . . . وإسماعيل؟ . . . إسماعيل الذبيح؟ أيرافق فايد إلى القاهرة؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أي ذبيح هو هذا الذي تتحدث عنه؟

صاح إيليا محتجّاً ليتابع بعدما اكترع رشفة من كأسه :

– الذبيح هو إسحق . . ذلك ما ينصّ عليه الكتاب المقدس . . . أما إسماعيل . . .

وبغتة أكمل وهو ينفض كفه في الهواء بحركة لا مبالية :

– . . . أما صاحبك العراقي إسماعيل فذكر أكثر من مرة أن وجهته ، في حالة انتهاء الثورة ، ستكون القدس حيث تسكن صاحبته . . . صانعة حلوى الهيطلية!

وجد أبي في ما حصل عليه الكفاية ؛ فكتب عنوانه في بغداد على ورقة أكّد على إيليا ضرورة إيصالها إلى إسماعيل حالما يلتقيه ؛ لأنه عزم على العودة نهائياً إلى العراق .

أُمَّةُ النملِ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في انتظار موعد تسلّم نتيجة تحاليل مرض مريم مرّتْ بي أقسى عشرة أيام في حياتي ، كنتُ أجفل فيها مستيقظاً مع أول خيوط الفجر ، حين تبدأ العصافير صخبها المعهود في السدرة ، فأستدير نحو مريم متأملاً بهلع وجهها المستسلم للنوم مفكراً باحتمال فقدها في أية لحظة . وكنت أفاجأ بها أحياناً تفتح عينيها – وكأنما بفعل تركيز نظراتي عليها – فتبتسم لي وتتمتم وهي تدسّ رأسها في صدري :

– اطمئن ؛ فأنا اليوم أفضل حالاً من البارحة .

حتى إذا ما حلّ اليوم الموعود فوجئت بمريم وقد سبقتني في الاستيقاظ مفعمة بالنشاط ، لا شيء يستدل به على مرضها سوى نحولها بعدما فقدت الكثير من وزنها .

– لن أرافقك اليوم لتسلم النتيجة خوفاً من أن يصدمني الأطباء بما يبدد فرحتي .

كلمتني ضاحكة لتضيف وهي تجلس أمام مرآة الزينة التي كانت قد هجرتها منذ إصابتها بمرضها :

– دعني أعش وهم أنني شفيت ولو بضع ساعات .

وفي المستشفى استقبلتني مديرة المختبرات مستبشرة لحظة رؤيتها إياي داخلاً غرفتها :

– لقد تحققت المعجزة ؛ فأظهر تحليل النخاع خلوه من أي عارض غير طبيعي .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأردفت بنبرة مغايرة بعدما تركتني استمتع بسعادتي لحظات :

– بيد أن تحليل الإدرار كشف أن زوجتك حامل!

بادلتها النظر وأنا في حيرة من كيفية التعبير عن مشاعري ؛ أيفترض بي أن أفرح أم أحزن لكون زوجتي حاملاً؟ ويبدو أن الاحتمال الثاني كان الأكثر ترجيحاً ؛ ذلك لأن المديرة أضافت بجد :

– لقد جاء حملها في الوقت غير المناسب على الإطلاق ؛ فنجاتها من مرضها لا يعني نجاة جنينها ؛ فسبق لي أن حدثتك عن تأثير اليورانيوم المنضب على الكثير من الأطفال الذين ولدوا بعد الحرب .

– أتقترحين علينا إسقاط الجنين؟

سألتها وأنا أراقب فمها كأنني في انتظار أن أسمع منه الحكم بالإعدام .

– أنا لا أقترح أي شيء ؛ فالأمر منوط بكما ، ولكنني لا أضمن أن طفلكما سيولد سليماً معافى من أية عاهة!

كان من الضروري إرجاء لقاء مريم بعض الوقت ؛ فقررت العودة إلى البيت سيراً على قدمي مجتازاً زحام باب المعظم وضجة شارع الكفاح . ولحظة مروري بالشورجة فكرت أن أعرّج على (العلوة) لولا يقيني أنني لست مؤهلاً للإصغاء إلى كلام سهيل الخلف المغرق في التشاؤم ؛ فاتخذت سبيلي نحو البيت مجتازاً متاهة الأزقة الضيقة الطافحة بمجاري المياه الآسنة .

– بشّرْ . . . حمامة؟ أم غراب؟

فوجئتُ بصوت مريم يأتيني من المطبخ فور دخولي البيت . كانت منصرفة بهمة ونشاط إلى غسل أوعية الطعام ، وثمة قدور بالقرب منها تغلي على الموقد الغازي .

– حمامة دون شك ؛ فالنخاع سالم تماماً!

– فما سبب قلقك إذن؟

سألتني وهي تدقق فيّ النظر ، فأجبتها بشيء من حذر :

– يبدو أنك حامل يا مريم!

– حامل؟

تساءلتْ بدهشة وقد باعدت ما بين يديها البليلتين وخفضت عينيها متأمّلة بطنها لحظات قبل أن تعود إلى صنبور الماء لتواصل غسل الأوعية وهي تقول :

– وهل يقلقك حملي؟

– لا بطبيعة الحال ، إنما الأمر يتعلق بما قيل لنا عن تأثير اليورانيوم المنضب على الأجنّة و . . .

قاطعتني بعصبية وهي ماضية في غسل أحد الصحون :

– اسمع جيداً : سأحتفظ بجنيني حتى لو كان مسخاً برأسين!

وصلصل الصحن متهشماً بين أصابعها بعد اصطدامه بالحوض .

وتتابعت تسعة شهور انقلبتْ أجواء البيت خلالها رأساً على عقب ؛ ففجأة باتت مريم موضع رعاية أمي الدائمة : تصرخ بها محذّرة حين تراها تقدم على عمل قد يجلب الأذى لحفيدها ، دون أن تنسى إتحافها بكؤوس العصير وصنوف الفاكهة التي كانت تقشّرها لها بنفسها وتطعمها إياها وهي تدللها بمناداتها باسم (أم إسماعيل)!

وعلى النقيض من أمي كان قلقي يتصاعد مع اقتراب موعد ولادة مريم ؛ فقد انصرفتُ بكل اهتمامي إلى متابعة الآثار التي يخلفها اليورنايوم على الأطفال مستعيناً على ذلك بمراجعة بعض الموسوعات الطبية واستشارة اختصاصين في هذا الأمر لأخرج بنتيجة مرعبة تمثلت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بأن كمية اليورانيوم التي ألقتها القوات الأمريكية على العراق على شكل قنابل وصواريخ وإطلاقات بمختلف الأنواع والحجوم بلغت سبعة أضعاف ونصف القوة التدميرية والحارقة لقنبلة هيروشيما النووية!

كما اطلعتُ على تقرير عن آثار الإشعاعات النووية على جزر (مارشال) التي اتخذت منها القوات الأمريكية ميداناً لتجاربها النووية عقب الحرب العالمية الثانية ؛ فقد ذكرتْ امرأة من جزيرة (أوتريك) أنها ، وبعد عودتهم إلى تلك الجزيرة ، رأت إحدى صديقاتها تلد شيئاً يشبه بيضة السلحفاة . . . كما ولدت أخرى شيئاً أقرب ما يكون إلى الأمعاء كان يلتصق كالصمغ بكل شيء . وقد أحسّت الكثير من النساء أنهن حوامل قبل أن يتبين لهن ، بعد مرور خمسة أشهر ، أنهن واهمات!

يومها أخذتُ أترقّب برعب ولادة مريم لطفلها الذي كان سيغدو ، في ظرف آخر ، مصدر فرح حقيقي لبيتي ، حتى إذا ما أزف الموعد وقدمت القابلة إلى البيت لينطلق بعد ساعتين ، من إحدى الغرف الداخلية ، صراخ طفلي الوليد كان أول سؤال طرحته على أمي ، حين قدمت لتبشّرني بأن المولود ذكر ، إنْ كان سليم الخلقة؟

ولم أكد أطمئّن على هذا الأمر حتى تجدد قلقي ؛ إذ ما أدراني بسلامة حاستي السمع والنطق لديه؟ سؤال قد لا أحصل على جواب له إلا بعد مرور سنوات!

وكنت أتوجّه ، من حين إلى آخر ، إلى (العلوة) لأفاجأ ، في كل مرة ، بأسواق الشورجة تبدو على غير عهدي بها ؛ فقد كانت أغلب متاجرها وعلاويها ودكاكينها مغلقة ، لا أكاد أصادف ، في طريقي ، غير دكان هنا ومخزن هناك قد فتح أبوابه . وكانت النفايات والأوراق

والأكياس البلاستيكية مبعثرة في كل مكان ، والريح تدفع بها في شتى الاتجاهات .

وكنت أمرّ برجال معدودين وقد جلسوا في مكان مشمس يتجاذبون أطراف الكلام ، وثمة متسول تكوّم بأسماله في إحدى الزوايا وهو يرفع صوته ، بين فينة وأخرى ، مستجدياً المارة النادرين دون جدوى . وكانت (العلوة) تبدو خالية مطفأة الأضواء قبل أن أفاجأ بارتفاع صوت سهيل الخلف من غرفة أبي داعياً إياي للجلوس على الكرسي الدوّار لينصرف إلى وضع وعاء الشاي على المدفأة النفطية ، يخرج بعدها إلى الباحة حيث يتردد صوت اندفاع الماء من صنبور ، يعود بعدها ليضع أمامي على المكتب قدحين تتسابق قطرات الماء في سيلانها على جوانبهما . وكان يخرج ثانية ليتردد بعد لحظات هدير مولّدة كهربائية تستضيء ، على أثره ، الغرفة والباحة دفعة واحدة .

- عليك الإسراع بشراء مولّدة يابانية قبل أن تختفي من الأسواق ؛ ذلك لأن الكهرباء ستبقى غير مستقرة سنوات متعاقبة .

كان ينصحني في كل مرة وهو يدخل ليلتقط من أحد رفوف الخزانة الخشبية علبة يصبّ منها ، في كل قدح ، ملعقة سكر قبل أن يعيدها إلى موضعها ليجلس على أريكة مجاورة طارحاً عليّ سؤاله التقليدي عن حالة ابني إسماعيل ، فكنتُ أطمئنه على سلامة سمعه ؛ فقد أخذ يستجيب ، في الأشهر الأخيرة ، للضجّة التي نعمد إلى إثارتها فوق رأسه كلما نام وذلك بالإجهاش في البكاء .

ويوم نطق إسماعيل بأولى كلماته كان سهيل أول من بشّرته بتحقق هذه المعجزة ، فهنأني على انتهاء مخاوفي ، حتى إذا ما تنبه لي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأنا أرمقه بنظرة غير واثقة سألني إنْ كان هناك ما يبعث على القلق؟ فأجبته وأنا أومئ برأسي ايجاباً :

– الغريب في الأمر أنه ينطق ببعض الكلمات بشكل غير طبيعي ؛ فكلمة (البرتقال) مثلاً يلفظها (تربقال)!

– تربقال؟!

ردد سهيل الخلف الكلمة بعدي بشكل آلي ليتأملني لحظات بحيرة قبل أن ينفجر بي صارخاً :

– يُفترض بك أن تحمد ربك ألف مرة لكون تأثير اليورانيوم المنضب اقتصر على إحلال حرف في موضع آخر .

وأضاف بشيء من عناد :

– ثم إنني أرى وقع كلمة (تربقال) على السمع أحلى من كلمة برتقال!

فتأملته لحظات قبل أن ننفجر فجأة في ضحك محموم .

وكنت لا أنسى ، في كل مرة ، سؤاله عن وضع السوق ، فكان يجمل رده بترديد كلمة واحدة :

– زفت!

ويتابع قائلاً إن السلع تختفي تباعاً ، وأسعارها تتصاعد بشكل يومي حتى أن ما يخشاه حقاً هو أن يحلّ وقت يعجز الناس فيه عن شراء ما يقيتون به أنفسهم . لكنه كان يعود ليطمئنني على وضع (العلوة) مذكّراً إياي بأنه تدارك الكارثة المقبلة بملء المخازن كلها بالبضائع . وبعدما يصب الشاي في القدحين دون أن يكفّ عن الكلام ، كنتُ أعمد إلى مقاطعته بكلام ما وأنا أتذوق بحذر شايه الساخن الذي يخالطه خيط مرارة لقلة السكر فيه .

– ترى ما الذي يكتبه المؤرخون عما جرى بعد مرور خمسين . . . أو مئة سنة؟

طرحتُ عليه ، ذات يوم ، ذلك السؤال ، فأجابني وهو يدير ملعقته في شايه بهمّة ونشاط :

– يا لك من متفائل! . . من أوهمك بأن الأرض ستبقى ، بعد مرور مئة سنة ، عامرة بالأحياء ليعمد المؤرخون إلى الكتابة عما حصل؟

وأضاف عقب إحدى رشفاته الصاخبة :

– من المؤكد أن النهج الذي شرّعته أمريكا منذ انفرادها بقيادة العالم – وما حصل لنا في العراق ، فضلاً عما يحصل ، في هذه الأيام ، في البوسنة والهرسك من تصفيات عرقية وإبادة جماعية واتجار بالنساء والفتيات بإرغامهن على البغاء في نوادٍ ليلية ، خير نموذجين عليه – سيؤدي إلى فناء البشر قبل اكتمال القرن!

فتساءلتُ وأنا ألعنه في سري لفرط تشاؤمه :

– وازدواجية المعايير؟ كيف للأمريكان أن يسوّغوا حروبهم الأخيرة على الإرهاب ، مباركين في الوقت نفسه ، الإرهاب الحقيقي المتمثّل باحتلال إسرائيل ، ومنذ سنوات ، للضفة الغربية ، وقطاع غزة ، ومرتفعات الجولان السورية ، وجنوب لبنان؟

– اطمئن فهذا الأمر لم يغب عنهم ؛ فالأخبار تشير إلى أنهم بصدد إلهاء العرب والفلسطينيين بضع سنوات : فبعد مفاوضات مؤتمر مدريد فوجئ العالم بالإعلان عن رسائل متبادلة سراً بين عرفات ورابين تضمّنتْ اعترافاً بين الطرفين ، حتى إذا ما تمّ توقيع ذلك الاتفاق تخلّت منظمة التحرير رسمياً عن الكفاح المسلح ؛ فأصبح في وسع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إسرائيل الآن تمثيل مسرحية جديدة لن تتمخض في النهاية عن شيء ؛ ذلك لأنها غير معنيّة بالوصول إلى حل نهائي لهذه المعضلة .

وأردف قائلاً :

– ما يهمّ الأمريكيين الآن أنهم – وبمباركة بعض الأنظمة العربية – يصولون ويجولون في المنطقة دون رقيب وعينهم على العراق في انتظار إكمال احتلاله في الوقت المناسب!

أزعجتني الفكرة ؛ فسألته بغلّ :

– وما الذي كان يمنعهم عن ذلك بعدما دمروا أفضل القطعات في الجيش العراقي؟

– إنهم ليسوا في عجلة أمرهم . ما يهمهم أن يتمّ الأمر لهم بأقل خسائر ممكنة ؛ ولذلك فإنهم سيدعون الثمرة تسقط بين أيديهم من تلقاء نفسها ، ويومها ستجد (المارينز) يتبضعون السلع هنا . . . في الشورجة!

وأضاف بعد لحظات :

– لقد انفجرت القنبلة يا أستاذ وغطى اللون الأحمر الشاشة ، وما سيجري لاحقاً سيتمّ خارج صالة العرض ؛ ففضلاً عن أنهم سيتركون للحصار مهمة الإجهاز على كل شيء ، يملكون الآن أوراقاً كثيرة سيعمدون إلى استثمارها تباعاً وصولاً إلى سقوط الثمرة بين أيديهم دون خسائر ، وكانت أولاها ورقة أسلحة الدمار الشامل : فها هي فرق التفتيش تصول وتجول على امتداد العراق دون حسيب أو رقيب .

وكان آخر ما قاله وهو يودّعني حتى باب (العلوة) ، حيث بدت الساحة القريبة خالية من حشود الباعة المتجولين وأصحاب البسطات الذين كانوا يعرضون في السابق بضاعتهم مالئين السوق بصخبهم :

– ما يحزنني كثيراً ظن بسطاء الناس أن الأمور ستعود إلى نصابها بعدما تنهي فرق التفتيش عملياتها برفع تقاريرها إلى الأمم المتحدة معلنين خلو العراق من الأسلحة المحظورة ، غير مدركين أن ذلك هو المحال عينه ؛ فالحصار لن يرفع أبداً إلا بقرار من الولايات المتحدة الأمريكية وبعدما تكون قد حققت أهدافها كاملة غير منقوصة ممهّدة السبيل لإكمال ما بدأتْ به بريطانيا وفرنسا في الحرب العالمية الأولى حينما أصدرتا اتفاقية (سايكس – بيكو) وذلك بإعادة ترتيب المنطقة من جديد ، وهذا أمر جسيم لن يحدث بين عشية وضحاها ، بل إنه يقتضي مرور سنوات ستبقى دوامة الحصار خلالها تفعل فعلها الرهيب بالعراقيين طاوية أعمارهم دون رحمة .

والحق أن الآمال كلها انعقدتْ على هذا الأمر برغم يقين الجميع أن الوطن بأسره تحول إلى سجن كبير ؛ ما من شيء يدخل إليه أو يخرج منه دون موافقة الأمريكيين . وفي انتظار تحقق (معجزة) رفع الحصار استماتت العراقيون للحفاظ على وجودهم بشتّى الوسائل الممكنة مذكّرين إياي – وأنا أتجول يومياً في شوارع بغداد – بتلك الصورة البليغة التي أوردها همنغواي في الفصول الأخيرة من روايته (وداعاً للسلاح) حينما يشبّه بطل الرواية – عقب موت حبيبته – المجتمع الإنساني بأمّة من النمل على طرف لوح خشبي يحترق ؛ إذ يموت بعضها بالنار حينما يجيئها مختاراً ، ويسلم بعضها الآخر حين ينأى بنفسه ليتجمّع على الطرف الذي لم تمسسه النار ، ويظل إلى أن تبلغه النار من بعد!

ولعل شارع المتنبي كان من أكثر الأماكن التي تذكّرني بعبارة همنغواي تلك ؛ فقد كان يتحوّل ، كل يوم جمعة ، إلى أغرب معرض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لبيع الكتب القديمة والمستنسخة ؛ ذلك لأن الأدباء والمثقفين كانوا في مقدمة من وقعوا تحت وطأة الحصار ، فعمد أغلبهم إلى عرض مكتباتهم الشخصية للبيع ، في حين لجأ غيرهم إلى استنساخ الكتب الحديثة ، بعدما توقف استيراد الكتب نهائياً ، لبيعها بأسعار معقولة . وهكذا ، كان المحتشدون على أرصفة ذلك الشارع يتوزعون بين من يعمل جاهداً على بيع ما يستطيع بيعه من كتبه ليضمن لأسرته يوماً آخر ، وبين من كان يجد الفرصة سانحة - بما يملك من نقود - لتوسيع مكتبته الشخصية أكثر رافداً إياها بما كان ينقصها من كتب!

كنت أقصد ، في نهاية جولتي ، مقهى الشابندر[١] الواقع قبالة سوق السراي والذي تطل إحدى واجهتيه على الشارع والأخرى على القشلة مقر الولاة العثمانيين حتى نشوب الحرب العالمية الأولى . وكان هذا المقهى قد تحوّل إلى ملتقى جديد للأدباء والمثقفين بعد اندثار دور مقهى البلدية والبرلمان وتحولهما إلى حوانيت لبيع الكماليات . كنا نتجمع عادة في زاوية مزدانة بصور فوتوغرافية بالأسود والأبيض وقد أُطِّرتْ وعلّقت واحدة جنب الأخرى . وكانت كلها ، دون استثناء ، قد التقطت أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، تحاول جاهدة إبراز طابع تلك الفترة بولاتها العثمانيين بسحناتهم الجهمة وشواربهم الكثة ، تعلو رؤوسهم الطرابيش المعهودة ، وبكبار القادة ببزاتهم

(١) مقهى الشابندر : أحد مقاهي بغداد التاريخية . وكان يقع في شارع المتنبي (شارع المكتبات) قبالة (القشلة) مقر الولاة العثمانيين في السابق ، وقد تم تفجيره في عام ٢٠٠٧ بوساطة سيارة مفخخة فتحول إلى أنقاض فوق جثث العشرات من رواده الذين كانوا من أصحاب المكتبات ومن المثقفين ، وعشاق الكتب .

العسكرية المزدانة بالنياشين والأوسمة وقد تقلدوا السيوف، وبالسياسيين المشهورين ورجال الدين، وثمة صور تتوزع بين تلك الصور الشخصية لتكون بمثابة الديكور الذي يجسد طابع العصر: فصورة علقت هنا تمثّل زقاقاً بغدادياً مزداناً بالشناشيل، وأخرى علقت هناك تمثل إحدى وسائط النقل المندثرة - الترمواي الذي كانت تسحبه الخيول على سكة حديدية، والعربات المقطورة إلى خيول أيضاً وما أشبه - وثالثة تمثل جسراً خشبياً يربط الرصافة بالكرخ، أو تمثل إحدى الشرائع وقد تجمّعت عندها القوارب والقفف.

في تلك الزاوية من المقهى كنت التقي، كل يوم جمعة، أصدقائي الأدباء لقاء (أمّة النمل) على طرف خشبة همنغواي المحترقة؛ نتفقّد بقلق آخر الغائبين: من نجح بالتسلل هارباً خارج الوطن، ومن اعتكف في بيته مودعاً الأدب إلى الأبد، ومن مات. ووسط ضجة رواد المقهى التي تكاد تصمّ الأسماع كنا ندلي، بدورنا، بآرائنا عما يجري: فتعلو أصواتنا وتتداخل على إيقاع قرقرة النراجيل، ورنين الملاعق، وهي تدار في إستكانات الشاي متوقعين، كالعادة، احتمال رفع الحصار بعد انتهاء آخر فرق التفتيش من عملياتها وتقديم تقريرها إلى الأمم المتحدة. بيد أن تلك الأمنية لم تتحقق، وليس هذا فحسب؛ بل الأدهى من ذلك أن تلك الفرق باتت مصدر قلق دائم لنا بعدما تسببت في قصفنا بالصواريخ؛ فكلما فقد أحد المسؤولين العراقيين حظوته لدى رؤسائه عمد إلى التسلل والهرب خارج الحدود ليسارع من فوره إلى الاتصال بالجهات المعنيّة بالتفتيش زاعماً وجود وثائق ومستندات سرية محفوظة في مواقع لا يعرفها غيره تكفي الاستعانة بها لاكتشاف أسلحة كيماوية وبيولوجية بل ذرية مخبأة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بكميات تكفل فناء الحياة على هذا الكوكب بضع مرات!

وسرعان ما كانت الأجواء تحتقن على أثر وصول فرق جديدة تسارع إلى محاصرة مواقع معينة تتوزع بين معامل ألبان وحقول دواجن ومنشآت للصرف الصحي . وبعدما تنصب الصحون الخاصة بالأقمار الصناعية - لكي تكون على اتصال مباشر بالجهات المعنية بحماية كوكب الأرض من الفناء! - تشرع في التنقيب والنبش بحثاً عن تلك الوثائق ، وتكون النتيجة الوحيدة التي تتمخض عنها كل تلك الضجة هي حصول ذلك المسؤول الهارب على حق اللجوء في إحدى الدول والتمتع بالرفاهية . . . وليذهب الوطن إلى الجحيم! . .

بيد أن الأمور تطورت ، في شهر نيسان ، بشكل جدي وسريع ينذر باحتمال وقوع كارثة جديدة ؛ فقد تمّ إخلاء المفتشين وسحبهم من العراق خلال ساعات على أثر رفع رئيس لجنة التفتيش تقريراً إلى الأمم المتحدة يفيد بالعثور على (كواشف بيولوجية) على صاروخ عراقي قديم!

وفي الزاوية المعهودة من المقهى كنّا نتلفت إلى جميع الجهات للتأكّد من عدم وجود من يسترق السمع لنا قبل أن ندلي بتوقعاتنا :

- الضربة قادمة لا محالة .

- وستكون ، هذه المرة ، قاصمة للظهر .

- (على نفسها جنت براقش) ؛ ذلك لأنه كان يفترض بساستنا الانحناء عند هبوب العاصفة لا الوقوف في وجهها .

- علينا الآن أن نترحّم على الاتحاد السوفيتي ، والمعسكر الاشتراكي ؛ فبسبب انهيارهما انفردت أمريكا بقيادة العالم على طريقة الكاوبوي .

- لا شأن لانهيار الاتحاد السوفيتي بما يجري ، بل العيب فينا نحن

العرب ؛ فبسبب تفرّقنا شجّعنا أعداءنا على الانفراد بنا واحداً عقب الآخر و(أُكلتُ يوم أُكل الثور الأبيض) .

– بل ما يجري هو أمر طبيعي في عالم لم يعد فيه مكان للسلطة الشمولية المطلقة .

– ولم لا يكون ما يجري عقاباً ربانياً حلّ بنا بسبب انحرافنا عن طريق الله؟

هكذا مرّتْ بنا فترة عصيبة كنا نلتقي خلالها ، كل يوم جمعة ، في زاويتنا تلك من المقهى ، محددين ، كل مرة ، موعد الضربة القادمة لنصحو ذات يوم على عويل صافرات الإنذار ودوي صواريخ (الكروز) و(التوماهوك) وهي تنهال على بغداد ؛ إذ إن الولايات المتحدة وبريطانيا نفذتا وعيدهما فقامتا بعملية (ثعلب الصحراء)(١) مجهزتين بذلك على منشآت التصنيع العسكري والمؤسسة الأمنية فضلاً عن قتل مئات المدنيين . والغريب أن بعض رواد زاويتنا تفاءل بما حصل بحجة أن الولايات المتحدة الأمريكية قد قصفت المنشآت المشكوك في أمرها ؛ فما مسوغ استمرار الحصار؟

---

(١) ثعلب الصحراء : هي العملية المفاجئة التي هاجمت بها الولايات المتحدة الأمريكية العراق فجر يوم السابع عشر من كانون الأول ١٩٩٨ ، بعد مرور اثنتي عشرة ساعة من سحب (بتلر) رئيس (الأنسكوم) مفتشيه من العراق . وكانت النتيجة إصابة مئة هدف فضلاً عن تدمير بيوت ومساكن شعبية . وقد استمرت العملية أربعة أيام وخمس ليال أسقطت القوات الأمريكية خلالها على العراق ٣٢٥صاروخ توماهوك وتسعين صاروخ كروز . وتسببت تلك الهجمة في تدمير شبكة الرقابة والتحقق التي كانت الأمم المتحدة نصبتها بأموال عراقية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجاء الجواب في شهر كانون الأول على شكل قرار جديد حلّ مجلس الأمن بموجبه لجنة الـ(أنسكوم) السابقة ليستعيض عنها بلجنة جديدة باسم الـ(أنموفيك)[١] . وكانت شاشة التلفاز قد استعاضت عن متابعة أعمال فرق التفتيش - التي توقفتْ مؤقتاً - بملاحقة أحداث (انتفاضة الأقصى) التي انفجرت في فلسطين في الثامن والعشرين من شهر أيلول : فعلى أثر انسحاب الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان بعد هزيمته على يد (حزب الله) عمد (شارون) إلى حركة استعراضية من أجل رفع معنويات جيشه ؛ فاقتحم الحرم القدسي تحت حراسة ثلاثة آلاف جندي مطلقاً بذلك رصاصة الرحمة على اتفاق (أوسلو)[٢] الذي تمخّض عنه قيام السلطة الوطنية الفلسطينية منذ ست سنوات وبضعة شهور .

---

(١) الأنسكوم ، والأنموفيك : الأولى هي اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة والتي تشكلت بموجب القرار رقم ٦٨٧ لغرض مراقبة ونزع أسلحة الدمار الشامل العراقية . وبعد مرور سبعة أعوام أوقفت أعمال التفتيش في نهاية تشرين الأول ١٩٩٨لتسحب اللجنة أعضاءها من العراق في السادس عشر من كانون الأول من السنة نفسها ممهدة بذلك السبيل لتنفيذ عملية ثعلب الصحراء . أما الثانية فقد أنشئت بموجب القرار ١٢٨٤ في كانون الأول عام ٢٠٠٠ لأجل مواصلة عمليات التفتيش والبحث عن الأسلحة العراقية المحظورة ، وانتهت أعمالها باحتلال العراق من طرف الولايات المتحدة الأمريكية في ربيع ٢٠٠٣ دون أن تعثر على أية أسلحة محظورة .

(٢) إتفاقية أوسلو : هي الاتفاقية التي عقدت بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل أثر مفاوضات سرية جرت في أوسلو ، وبعد رسائل متبادلة بين الزعيم =

وكانت هذه الانتفاضة أشد ضراوة ودموية من الانتفاضة الأولى ؛ إذ يبدو أن الإسرائيليين كانوا في انتظار حصولها ليجابهوها بكل ما يملكون من وسائل البطش موقعين عشرات القتلى والجرحى في مشاهد مرعبة باتت مادة يومية للفضائيات التي وجدت فيها ضالتها ، تلك المشاهد التي بلغت الذروة في ذلك المشهد الاستثنائي الذي بثّه التلفاز العراقي ، مشهد استشهاد الصبي الفلسطيني محمد الدرّة البالغ الثانية عشرة من عمره .

كنتُ أشارك ابني إسماعيل الصغير في مراقبة الشاشة وهي تعرض لقطات عن ذلك الأب المنكود وابنه وقد تحصّنا خلف برميل والرصاص ينهال عليهما من كل جانب ، حتى إذا ما انتهى المشهد باستشهاد الصبي نهض إسماعيل بهدوء ليتقدم مني وهو يغالب ارتعاش شفتيه بصعوبة . اندسّ بين ركبتيّ كمن يطلب الحماية ، ورفع وجهه البريء ليسألني والدموع تترقرق في عينيه الذهبيتين المشابهتين لعيني أمه :

= الفلسطيني ياسر عرفات ورئيس وزراء إسرائيل إسحاق رابين ، وجرى التوقيع المبدئي عليها في التاسع من أيلول عام ١٩٩١ ، ومن أهم بنودها الإعلان عن أن هدف المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية هو تشكيل سلطة فلسطينية انتقالية ذاتية في الضفة الغربية وقطاع غزة كمرحلة انتقالية لا تتعدى خمس سنوات تؤدي في خاتمة المطاف إلى تسوية نهائية مبنية على أساس قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ . وجرى التوقيع الرسمي عليها بين الطرفين في واشنطن يوم الثالث عشر من أيلول ١٩٩٣ بحضور الرئيس الامريكي (بيل كلنتون) وبها تخلت منظمة التحرير الفلسطينية عن الكفاح المسلح أسلوباً لتحرير فلسطين .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لماذا قتلوه؟!

لم أستطع النطق ؛ ذلك لأنه كان يكفيني أن أفتح فمي لأجهش ، مثله ، في البكاء!

والحق أن إسماعيل نفسه كان قد أضحى مصدر حزن دفين لي ولأمه مريم ؛ فأخطاؤه المتكررة بالتلفظ ببعض الكلمات ، والتي كانت مصدر تفكّه لنا ، سرعان ما تكشّفتْ - حين تم تسجيله في المدرسة ، صف ذوي الحاجات الخاصة - عن كونها دلائل على إصابته بمرض عجيب لم يسبق لنا السماع به وهو (حبسة فيرنيك) أو (حبسة بروكا) التي قد لا تتوقف عند اللجلجة اللفظية فحسب ، بل قد تصاحبها حالة شلل نصفي!!

لم نيأس ، كان لا بد لنا من الإلمام بكل ما يمت إلى هذا المرض بصلة سعياً منا لعلاج ابننا . وكانت مريم تعمد يومياً إلى تلقين إسماعيل كيفية تلفّظ الكلمات بصورة صحيحة ، فكنتُ أعمد إلى مراقبتهما بعدما أخفّض صوت التلفاز مستمتعاً بمنظرهما وقد انكبّا على الأوراق التي بين أيديهما .

- ما الذي يجري؟!!

صحتُ ، ذات يوم ، وقد شدّت الشاشة انتباهي ؛ فقد كانت تعرض مشهداً مروّعاً لم يسبق لي أن رأيت مثيلاً له حتى في أفلام الخيال العلمي : فقد كانت اللقطة تظهر جانباً من مدينة عامرة بناطحات السحاب ، وثمة اثنتان في المقدمة كانت النيران قد اشتعلت في أحداهما لسبب مجهول سرعان ما انكشف حين مرقت طائرة ركاب كبيرة الحجم من أحد الجوانب لتصطدم بناطحة السحاب الثانية مخترقة إياها مثل سكين تخترق قالباً من الزبد!

- يا إلهي . . . أرأيتِ؟

عدتُ أصيح وقد عجزت عن فهم مغزى ما يحدث ، فأجابتني مريم وهي تجمّع أوراقها حاثّة إسماعيل على التوجه إلى غرفة جدته محاولة إبعاده عن رؤية ذلك المنظر المخيف :

- لقد حصلتْ كارثة في إحدى المدن!

- لعل ما يجري حدث بسبب خطأ ملاحي أدى إلى اصطدام هذه الطائرة بناطحة السحاب!

أجبتها دون أن أستطيع إبعاد عيني عن الشاشة التي كانت تعيد عرض اللقطة بين لحظة وأخرى ، فعلّقتْ مريم :

- ذلك محال ؛ إذ لا يعقل حدوث خطأ ملاحي مرتين متعاقبتين!

هرعتُ إلى المذياع لمعرفة سر ما يجري ، وبعدما تنقّلتُ بالمؤشر بين مختلف المحطات توقفت به على محطة لندن التي عرفنا منها تفاصيل ما حصل : ففي صباح هذا اليوم ، الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ ، وفي تمام الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة - بحسب توقيت شرقي الولايات المتحدة - اصطدمت طائرة مختطفة تابعة لشركة الخطوط الأمريكية بالبرج الشمالي لمركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك محدثة فيه فجوة هائلة تحولت إلى حريق مريع . ولم تمضِ سوى ثماني عشرة دقيقة حتى اصطدمت طائرة ثانية مختطفة من مطار بوسطن أيضاً تابعة للشركة نفسها بالبرج الجنوبي . وفي التاسعة وثلاث وأربعين دقيقة اصطدمت طائرة ثالثة ، مختطفة من المطار نفسه وتابعة للشركة عينها ، بمبنى (البنتاغون) في واشنطن ، فهدمت ركناً منه ، وأشعلت حريقاً في ركن آخر يقع فيه مكتب وزير الدفاع!

وأمامي كان التلفاز يعرض لقطات جديدة للحادث الرهيب مظهرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن قرب أيادي بعض المحاصرين في الداخل وهم يلوّحون من خلال النوافذ بقطع قماش طلباً للنجدة . وفجأة تهاوى البرجان بآلاف المحاصرين في الداخل ، وغمرت سحب غبار هائلة الشوارع المجاورة حيث مئات الرجال والنساء والأطفال كانوا يتراكضون هلعين وفي أعقابهم تنطلق تلك السحب السود المرعبة!

- ما معنى هذا العمل الدموي؟

تساءلتُ وأنا عاجز عن فهم مغزى ما يجري ، فتساءلتْ مريم بدورها وقد شحب وجهها :

- وما مسوغ مَنْ قام به؟!

وتبادلنا نظرة طويلة دون أن يستطيع أحدنا أن يحير جواباً ؛ ذلك لأن الدهشة كانت قد عقدتْ لسانينا!!

سارعت باستبدال ملابسي ، وانطلقت من فوري إلى (العلوة) ايماناً مني بأن عند سهيل الخلف الخبر اليقين!

ذعرت حين شاهدته ؛ فقد طالعني بنظرات زائغة ؛ كأنه لم يأخذ قسطه اللازم من النوم ، وغمغم بألفاظ مبهمة قبل أن يفصح عمّا يفكر به :

- المارينز قادمون!

ومضى يبرهن على (واقعية) هذا اليقين بطرق وأساليب لم أجد في نفسي الرغبة لمناقشته فيها إيماناً مني بأن (هيغل) نفسه - لو قيّض له أن ينفض عن عظامه تراب القبر ويقطع كل هذه المسافة التي تفصلنا عنه لينتصب واقفاً وسط (العلوة) بين سلال الفواكه وأكياس الرز العنبر - غير قادر على أن يجاري سهيل في (الجدل) في مثل هذا الأمر!

منذ ذلك اليوم غيّر سهيل الخلف (استراتيجيته) في كيفية تعامله

مع المحيطين به ؛ إذ كان يكفيه حصول مشادة بين الحمّالين ليغادر الغرفة من فوره محاولاً تهدئتهم بأرق الكلمات ، حتى إذا ما نجح في مهمته وعاد أسرّ لي لحظة دخوله الغرفة :

– لا يسعنا الآن التعامل مع الحمالين كالسابق خوفاً من أن ينقلبوا علينا حينما يجد الجد .

ويضيف بأسلوبه الدبلوماسي أن الحرب الموشكة على الاندلاع لن تقتصر ، هذه المرة ، على الحدود النائية ، بل إن ميدانها سيكون هنا وسط الشوارع والبيوت في قلب بغداد ؛ فالأمريكان قادمون لقطف الثمرة التي أنضجوها على أحسن وجه ، ويومها لن يسع الأخ أن يأمن أخاه ؛ فالحابل سيختلط بالنابل .

وسعياً منه لاستباق الفوضى المنتظرة ، وما سينجم عنها من سلب ونهب في حال سقوط السلطة ، وذلك ما كان يرجّحه ، اقترح عليّ تصفية غالبية البضائع وبيعها بأسعار متهاودة مبقين على القليل منها فقط . وفي ضوء هذا القرار تعيّن على شقيقي القدوم إلى (العلوة) ومشاركتنا في اللقاءات اليومية ، ونحن بصدد تنفيذ تلك العملية .

وكان أخي لا يقدم عادة إلا وتحيط به جوقة صاخبة من أبنائه الذين كانوا يتوزعون من فورهم – وكأنما بحسب خطة معدة سلفاً – في شتى أرجاء (العلوة) قالبين كل ما يقع في متناول أيديهم رأساً على عقب ، تاركين لشقيقهم الأكبر مهمة المرابطة معنا في الغرفة لا ليكون لنا عوناً في مراجعة السجلات ، وتدقيق الحسابات ، بل ليصبح مصدر قلق لي ولسهيل ؛ يبدي تشككه في كل ما نقوم به ، منوّهاً ، بشكل غير مباشر ، أنه لن يسمح بخداع أبيه بأية وسيلة من الوسائل!

وكان دور شقيقي يقتصر على تأمّل ابنه البكر بافتخار مؤيداً كل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما ينطق به بإيماءات من رأسه مؤكداً أنه منذ دخول ابنه طور الرجولة ترك له طوعاً مهمة إدارة شؤون الأسرة ، مكتفياً بالتدخل حينما ينجم خلاف ما ، وكدليل على صحة ما يقول كان يسارع بالوثوب حال وقوع مشادة بين اثنين من أبنائه ، فيصيح بهما ، ويرفع يده في الهواء مهدداً ومتوعداً ليقفل بعدها عائداً إلى الغرفة وهو يلهث من فرط الانفعال . إلا أن ذلك لم يكن يمنعه من معاتبة سهيل لتأخره بجلب المزيد من الشاي مذكّراً إياه بضرورة أن يوصي صاحب المطعم القريب ، عند موعد الغداء ، بجلب كمية من الكباب والمشويات الأخرى دون أن يغفل عن إضافة المخللات والزيتون - من الصنف الأسود - والخضراوات والبصل!

وكان سهيل يفرغ كل ما تراكم في دخيلته من غيظ عقب مغادرة شقيقي (العلوة) وسط جوقة أبنائه بقوله :

- تفضّلْ . . . ها هو خير نموذج للنمط الذي سيسود حياتنا عند قدوم الغزاة . . نمط صلف وعدواني ، ودون حياء!

والحق أن ابن شقيقي ذاك لم يكن يكتفي بتنغيص لقاءاتنا في (العلوة) فحسب ، بل بدا وكأنه بصدد تطوير الأمر ليشمل به بيتي ؛ فبحجة حرصه على الاطمئنان على صحة (ابن عمه) ابني إسماعيل كان يمر علينا ، من وقت لآخر ، ليتجول في البيت دون استئذان منبهاً إياي على الأماكن التي تبقّعتْ بفعل الرطوبة ، والحيطان التي اعتورتها الشقوق ، وسقوف بعض الغرف التي تسرّبت من خلالها مياه الأمطار!

وبعدما ينهي تناول غدائه وشايه يعقد ساقيه إحداهما بالأخرى - على طريقة أبيه نفسها - في جلسته المريحة على إحدى أرائك (الديوخانة) وقد تفتقت قريحته ، هذه المرة ، عن جملة مشاريع مستقبلية ستدرّ علينا أرباحاً طائلة إن عرفنا كيفية استثمار هذا البيت

العتيق بالطريقة الصحيحة لا الاكتفاء بإشغال غرفتين أو ثلاث منه تاركين الأخريات نهباً للغبار ؛ وذلك بجعله (نزلاً) لعشرات الأسر لقاء مبالغ مجزية ، أو تحويله إلى محلات تجارية . . . بل الأفضل هدمه وإنشاء عمارة في موضعه!

على تلك الشاكلة كان يتابع طرح مشاريعه الخيالية لولا أن أمي كانت توقفه عند حده ؛ فتنبهه على ضرورة إرجاء مشاريعه تلك لما بعد موتها . وكانت تشفع تقريعها المبطّن ذاك بتركه دون استئذان ، والتحامل على نفسها وهي تتشبث بما حولها من أشياء قبل أن تفلح في الوقوف لتتخذ سبيلها نحو غرفتها دون أن تكف عن الاستناد إلى الحيطان مواصلة تمتمات الاستياء .

وكانت صحة أمي قد تدهورت آنذاك حتى أنها صارحتنا بعزمها على البقاء في بغداد عند نشوب الحرب ؛ لأنها لن تطيق تكرار رحلة الحرب السابقة بالسفر إلى مدينة بدرة والمعاناة التي تجرعتّها وسط الأقارب المهيأين لخوض معارك ضارية لأدنى عذر ، فنال قرارها استحسان مريم التي همست لي قائلة :

– سنلازمك هذه المرة – أنا وإسماعيل – ولن ندعك تسرح وتمرح على هواك ، بل قد أتجاوز مشاعري الشخصية المثيرة لشجوني فأحدّثك بما جرى لأبي في القدس لكي تشرع في كتابة روايتك بعدما أرجأتَ الأمر أطول مما ينبغي .

– يا له من وقت مناسب لكتابة الروايات!

– لن تكون أول روائي يكتب روايته تحت انهمار الصواريخ!

ووقع اختيارنا على (الديوخانة) مكاناً لجلوسنا ونومنا ؛ وذلك لوجود التلفاز فيها ؛ فبرغم ثقتنا أن الكهرباء ستكون في مقدمة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأهداف المرشّحة للقصف الأميركي - كما حدث في الحرب السابقة - لكننا لم نجد مفراً من المرابطة أمام شاشة التلفاز مراقبين ، بقلوب واجفة تطوّر الأحداث : وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قد اتخذت من انهيار برجي التجارة العالمية في نيويورك وتدمير جزء من (البنتاغون) ذريعة لإعلان حربها العالمية على الإرهاب ، واضعة تنظيم القاعدة ، ونظام الحكم العراقي ، وحركات المقاومة اللبنانية ، والفلسطينية في مقدمة أعدائها الذين ينبغي الاقتصاص منهم .

وجاء انتقامها من حكومة (طالبان) سريعاً وحاسماً ؛ فقد اكتفت بقصف أهم المدن الأفغانية على مدى أربعين يوماً لتترك لقوات الشمال المؤتلفة من الفصائل الطاجيكية والأوزبكية والهزارة مهمة دخول العاصمة (كابول) بعد انهيار قوات (الطالبان) .

وحلّ دور العراق ؛ فأخذتْ بتحشيد قواتها في الكويت ، تساندها في ذلك الحكومة البريطانية ، ممهدة بذلك السبيل - وسط صمت العالم وذهوله - لضربتها الثانية بعد (عاصفة الصحراء) التي ختمت بها أزمة الكويت . وكان ذلك القرار مثار جدل دائم بيني وبين مريم ؛ فبقدر ما كنتُ موقناً من تصميم الأمريكان النهائي على احتلال العراق مهما حدث ، كانت مريم تتوهم العكس مستندة في ذلك إلى موجة الاحتجاجات التي عصفت بالعالم كله فخرج ملايين الأوربيين في كبرى المدن مستنكرين قيام الحرب .

وتعزز موقفها أكثر بامتناع الأمم المتحدة عن إصدار قرار جديد يخوّل الولايات المتحدة قيامها بالغزو . وكانت أخبار المذياع تؤكد استمرار الأمريكيين والبريطانيين في تحشيد قواتهما في الكويت ، لا بل إن العديد من ساستهم أخذوا يعلنون صراحة ودون لبس أن الهدف

النهائي من هذه الحرب سيكون احتلال العراق!

– أيعقل أن يتم إحياء سياسة الغزو والاحتلال مجدداً؟

كانت مريم تسألني بنبرة غير مصدّقة ، فكنت أجيبها مؤكداً أن ذلك حاصل لا محالة وخير مثال على ما أقول يتمثل بأفغانستان ، فكانت تعود لتتساءل مستنكرة :

– وإسرائيل؟ ألا تمثّل ممارساتها القمعية اليومية ضد الشعب الفلسطيني واللبناني ذروة الإرهاب؟!

– لقد تبنّت الحكومة الأمريكية سياسة التأييد المطلق لحليفتها إسرائيل ، معلنة في الوقت نفسه العداء الفاضح للشعب الفلسطيني وقيادته انطلاقاً من أن ما يقوم به الجيش الإسرائيلي ضد الفلسطينيين هو حرب على الإرهاب لا بد من خوضها ليعم بنتيجتها الأمن والسلام المنطقة!

– والأراضي المغتصبة؟ والتوسع الاستيطاني غير المشروع؟ والقدس؟ واللاجئون المشردون منذ عشرات السنين؟ أيسع الحكومة الأمريكية تجاهل هذه الأمور كلها؟

وحينما لا أحير جواباً كانت تعود لتتحدث عن الحرب الجديدة المرشحة للاشتعال والتي ستنتهي باحتلال العراق ، ثم تنتفض لتصيح بغضب :

– لا أستطيع أن أتخيّل العراق بلداً محتلاً ، ولا أستطيع أن أتصور العراقيين خاضعين مستكينين لذلك الاحتلال في حال حصوله!

– ذلك ما سيحدث تماماً ؛ فالاحتلال أضحى أشبه بـ(قَدَر) لا مفرّ من وقوعه ، بيد أن المهم هو ما سيحصل بعد ذلك وصولاً إلى أحد أمرين لا ثالث لهما : فأما الاستسلام النهائي للغزاة والالتحاق بالهنود

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحمر في مصيرهم ، أو المقاومة ، وتكرار التجربة الفيتنامية ؛ إذ يبدو أن الأمريكان لم يتعظوا من تلك التجربة ؛ فلا بد من تكرارها للبرهنة عملياً على أن عصر الغزوات قد انتهى دون رجعة .

يوم العشرين من آذار ٢٠٠٣ ، لم أكد انتزع ورقة جديدة من التقويم المعلّق على أحد حيطان (الديوخانة) لأقرأ على ظهرها بيت شعر للمتنبي :

وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ فعلى أيّ جانبيك تميلُ؟

حتى انطلق عويل صافرات الإنذار معلناً بدء الحرب . وعلى الفور خمد ضجيج الأطفال في الزقاق ، وارتفعت نداءات الأمهات من البيوت المجاورة على أبنائهن ، وسُمع صوت اصطفاق أكثر من باب وصرير نافذة تغلق ليخيم صمت متوتر كنا نرهف خلاله السمع بأفواه مفغورة ، وقد صوبنا بأنظارنا نحو السقف ، وكأن الحرب ستطلّ برأسها من هناك . وحين ارتجّ البيت من حولنا بفعل أولى الانفجارات ارتمى إسماعيل في حجري ليسألني بصوت راجف وهو يجول بعينيه حوله باحثاً عن مصدر هذا الدوي المخيف :

- بابا . . هل سيقتلوننا مثل محمد الدرّة؟!

وكانت أمي قد انزلقتْ عن أريكتها لتتربع جالسة على السجادة دون أن تكفّ عن ترديد آياتها وأدعيتها ، في حين عضت مريم شفتها ، وبادلتني نظرة صامتة وقد غاض الدم عن وجهها .

- يبدو أنهم استهدفوا بصواريخهم أحد المواضع البعيدة ؛ إذ لا توجد ، في الجوار ، أهداف تستدعي القصف .

علّقتُ محاولاً طمأنتهم مستبقاً بذلك دوي سلسلة انفجارات جديدة تردد على مسافة أقرب جعل إسماعيل يطلق صرخة خافتة وقد

سارع بستر فمه بكفه الصغيرة تاركاً الدموع تسيل على خديه الشاحبين .

- المهم أن حياتنا ، نحن الأربعة ، أهون لدى الأمريكان من أن يضيّعوا عليها صاروخاً ثميناً صمموه لأهداف أخطر شأناً!

كنت لا أكفّ عن طمأنتهم تاركاً لاستمرار الانفجارات مهمّة جعلهم يعتادون الأمر ، وذلك ما حصل بتعاقب الأيام وتكرار انتزاع أوراق التقويم ، حتى أن أمي أخذت تسترجع ذكرياتها ؛ فتحدثنا عن حروب سابقة لا تعد ولا تحصى ، فكنت أعمد إلى مناكدتها ، فاسألها عن ذكرياتها أيام (السفر برلك) ، فكانت تتساءل مستنكرة :

- وما أدراني بتلك الأيام؟

وكانت تضيف مؤكدة أنها تصغر المرحوم أبي بعشر . . . لا بل بخمس عشرة سنة ؛ ذلك لأنها حينما زفّت إليه كانت لا تزال طفلة!

وكانت مريم قد تأقلمت بدورها مع الوضع الجديد ؛ فأخذت تحدثنا عن ذكرياتها عن أبيها إسماعيل الذبيح في القدس ، وعن أحداث وقعت في حرب حزيران حينما كانت الطائرات الإسرائيلّية تحلّق على ارتفاع منخفض مخترقة حاجز الصوت .

وبلغ انسجام إسماعيل مع أجواء الحرب أنه أخذ يكمن لنا خلف الأرائك والأبواب ليباغت أحدنا بالصراخ لحظة مروره به شاهراً في وجهه فوهة رشاشته البلاستيكية آمراً إياه بالاستسلام فوراً!

وانقطعت الكهرباء منذ الأيام الأولى للحرب ؛ فبات مذياعي الصغير المصدر الوحيد لملاحقة تحرّك القوات الغازية في احتلالها المدن العراقية جاعلة بغداد هدفاً نهائياً لها . وكانت المرة الأولى التي لم أعد أعمد فيها إلى إهمال أوراق التقويم بعد انتزاعها كل يوم وقراءة ما طبع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عليها من حكمة أو بيت شعر ، بل دأبت على الاحتفاظ بها مسوّغاً عملي ذاك لمريم بقولي :

– إنها أيام استثنائية لا يصح التفريط بها مثل آلاف الأيام التي سبقتها ؛ ذلك لأنها ستحدد مصيرنا النهائي .

وعمدت مريم إلى استثمار تلك الأوراق بالكتابة على ظهر كل واحدة منها إيجازاً بأهم أخبار الحرب لذلك اليوم ؛ وكانت المحصّلة سجّلاً شبه متكامل لما حدث ، كنا نقلّبه بين أيدينا معاودين قراءة تلك الأخبار ، متوقفين ملياً عند الأخبار التي انطوت على ضرب من (كوميديا سوداء) تستدعي الضحك بقدر ما تستدعي البكاء ؛ فبين اليوم الأول من اختراق الغزاة للحدود الجنوبية ، واليوم الحادي والعشرين من الحرب حين توغل المارينز في قلب مدينة السلام ، جرت أحداث كثيرة ومؤلمة ؛ فتلك الأيام كانت أطول أيام التاريخ بالنسبة لنا ؛ فقد تتبعنا جميعاً تقدّم القوات الأجنبية في أرض السواد ، وتجنّبها المرور بالمدن المقدسة كالنجف وكربلاء . ثم تابعنا كل ضروب المقاومة التي قوبلت بها ليسود في النهاية منطق القوة .

وفي اليوم الأخير ، الأربعاء ، التاسع من نيسان ضجّتْ سماء بغداد بهدير المروحيات الأمريكية وهي تستعرض سطوتها ، ومعها شاع خبر دخول قوات الاحتلال بغداد والسيطرة على أهم مرافقها ، فطلبتُ من مريم الإبقاء على ورقة ذلك اليوم في موضعها من التقويم وعدم انتزاعها ، كما كان شأننا مع أوراق الأيام السابقة ، إيماناً مني بأن يوم الاحتلال – مهما طال وامتدّ إلى سنوات – سيبقى يوماً واحداً لا غد له ؛ ذلك ليقيني أن أبواب الجحيم قد فتحت على سعتها أمام الغزاة ، وأن الكوارث ستتعاقب تباعاً حتى رحيل آخر جندي!

وتصاعدت سحب الدخان في سماء بغداد بسبب الحرائق . وانتشرت شائعات عن حدوث أعمال سلب ونهب . ولم تمضِ أسابيع حتى بات سكنة زقاقنا يتناقلون أخبار حشود من اللصوص المزودين بالبنادق ، والمسدسات ، والسكاكين ، وهم يقتحمون الوزارات - عدا وزارة النفط المحروسة من قبل المارينز! - والدوائر الحكومية ، والمؤسسات الخدمية ، والجامعات ، والأسواق المركزية ، والمنشآت الصناعية ، والمراكز الثقافية والفنية - من دور نشر وتوثيق ، ومتاحف ، ومكتبات عامة ، ومسارح - لينهبوا منها كل ما تطاله أيديهم قبل أن يضرموا فيها النار .

كان يكفيني أن أقف عند باب بيتي دقائق ليتقاطر عليّ الجيران محمّلين بأنباء تلك الكوارث ، وكانت أكبرها فضيحة سرقة المتحف العراقي .

- إنها (جريمة العصر)!

هكذا اعتاد أحد جيراني تسمية ما حصل للمتحف . كان رجلاً عجوزاً وسم بياض الشيب حتى حاجبيه . وكان قد سبق له العمل مدرساً للتاريخ القديم قبل إحالته على التقاعد .

انفرد بي ذات يوم عند باب البيت ، وكل ملمح فيه يفصح عن حاجته إلى التنفيس عما يثقل صدره من همّ بسبب ما جرى لمتحف اعتاد أن يجعل منه قبلة سفرات طلابه العلمية .

- تصور يا أستاذ : لقد شرع اللصوص باقتحام المتحف في اليوم التالي للاحتلال لتستمر عملية النهب مدة أسبوع كامل!!

واستطرد بعدما تأملني بنظرة طويلة :

- لقد توسّل أحد المواطنين إلى قائد طاقم إحدى الدبابات الأمريكية الواقفة على مسافة قريبة طالباً منه تحريك دبابته بضعة أمتار

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فقط ليقف بها أمام بوابة المتحف الرئيسية لردع مئات اللصوص الذين كانوا قد تجمعوا هناك في نيّة واضحة لاقتحامه ، لكن الأمريكي اعتذر لأن ذلك الأمر ليس من ضمن مهام طاقمه!

وتابع متحدثاً عن تسلل بعض هؤلاء اللصوص من خلال باب خلفي إلى داخل المتحف لفتح البوابة الأمامية حيث تدفق المتربصون هناك مكتسحين كالإعصار القاعات الاثنتين والثلاثين بادئين بسرقة أجهزة الكومبيوتر ، وآلات التصوير ، وأجهزة التسوية ، وآلات النسخ ، والنسخ الضوئي ، وأجهزة التلفاز والتبريد ، وما أشبه .

قاطعته مذكّراً إياه بأن ما حصل كان أمراً متوقعاً ؛ إذ ما الذي كان يمنع هؤلاء اللصوص عن سرقة تلك الأجهزة من المتحف ما داموا لم يستثنوا أية مؤسسة من حملاتهم المتلاحقة؟

- ومَنْ الذي يأبه بسرقة تلك الأجهزة ؛ إذ لا أسهل من تعويضها؟

صاح مستهيناً قبل أن يضيف وقد خفّض صوته :

- هناك مؤامرة دولية يا أستاذ لا تستهدف حاضر العراق فحسب بل ماضيه أيضاً!

وتابع مفصّلاً كلماته واحدة واحدة :

- لم يكن السماح لهؤلاء اللصوص باقتحام المتحف بتلك الطريقة الفظّة ، وتركهم يسرحون ويمرحون في قاعاته على هواهم ، إلا ستارة للتغطية على السرقة الحقيقية التي حدثت لأهم القطع الآثارية بطريقة منظّمة دلّتْ على أن من قام بها محترفون كانوا على معرفة تامة بالمنافذ المؤدية إلى القطع المخفيّة في أماكن سرية ؛ ففي فلم وثائقي ، عرضته إحدى الفضائيات التي بات في وسعنا الآن التقاط بثها ، صرّح أحد المسؤولين عن المتحف قائلاً إن هؤلاء اللصوص عمدوا إلى اقتحام نافذة

سرية كانت مبنيّة بالآجر الزجاجي ومغلّفة من الخارج بستارة حديدية . . . وهكذا كانت حصيلة تلك العمليات فقدان مجموعة تضم ثمانين ألف لوح من الكتابات المسمارية ، كما اختفت آنية وركاء السومرية المشهورة ، وتمثال دون رأس لملك سومري ، وقطع من النقش النافر على البرونز ، وقطعة أخرى من عمود مزيّن ومطعّم ، وبعض الأحجار المصممة على شكل وردة . والغريب أنهم نجحوا في سرقة تمثال برونزي ضخم يزن أكثر من مئة وستين كيلوغراماً . . . فضلاً عن نماذج من الآجر المختوم . وما لم يستطيعوا أخذه حطموه في مكانه كما حدث لبعض الأسود الفخارية ولبعض التماثيل الرومانية التي كسروها مكتفين بسرقة رؤوسها فقط!

عدت أقاطعه متسائلاً وأنا أغالب دهشتي بصعوبة :

- وكيف سمح الأمريكيون بحصول ذلك؟

- لقد طرح أكثر من مراسل هذا السؤال على الأمريكيين ، فدافعوا عن أنفسهم زاعمين أنهم كانوا قد أدرجوا قائمة بأهم الأماكن التي يفترض بالجيش الأمريكي حمايتها ، وكان المتحف العراقي يحتل المرتبة الثانية في تلك القائمة ، في حين احتلت وزارة النفط المرتبة السادسة عشرة!

أجابني ليضيف وهو يضحك بازدراء :

- وقد علّق أحد المراسلين الفكهين على هذا الجواب قائلاً إنه يبدو أن القوات الأمريكية قرأت القائمة من الأسفل إلى الأعلى فذهبوا مباشرة لحماية وزارة النفط تاركين المتحف للصوص لم يبقَ من أثر يستدل به عليهم سوى بقايا تماثيل من رخام وجرار وقوارير ولقى سحقت تحت الأقدام بعدما صمدت آلاف السنين أمام أعتى الكوارث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لتتحطم مع مجيء الأمريكيين لـ(تحرير) العراق!

لم تكد تمر أيام حتى تبيّن للجميع أن تلك العمليات لم تكن تلقائية ؛ فقد كانت توجهها مجاميع منظّمة تقودها نحو الأهداف المطلوبة محرّضة على اقتحامها تحت سمع وبصر طواقم الدبابات الأمريكية الرابضة في منعطف كل شارع .

يومها نصحني أكثر من جار بالاقتداء به بشراء قطعة سلاح من مخلفات الجيش التي باتت تباع علناً بأسعار بخسة ، فسألته بحيرة :

- وما جدوى شراء شيء لا أجيد استعماله؟

وفضّلتُ استقدام حداد عمد إلى دعم الباب الخارجي والشبابيك المطلّة على الزقاق بكتائب حديدية ؛ فكل شيء بات متوقعاً ؛ إذ ما الذي يمنع هؤلاء اللصوص من أن يتحولوا نحو المناطق السكنية بعد إجهازهم على آخر الدوائر الحكومية؟

ووسط هدير الطائرات الأمريكية التي لم تكف يوماً واحداً عن الحومان فوق الرؤوس ارتفعت نداءات مكبرات الصوت في جامع المصلوب داعية أبناء المحلات المجاورة - صبابيغ الآل والدهانة والقشل والشورجة - إلى التجمّع لأداء صلاة الجمعة ، فانطلقتُ ، بتحريض من مريم ، إلى هناك حيث حشود الناس أدوا الصلاة تحت رفيف مراوح سقفية كانت تدار بطاقة مولّدة كهربائية ضخمة ضجت بهديرها في فناء الجامع .

عقب الصلاة اعتلى المنبر إمام الجامع الكهل الذي كان البياض قد خالط لحيته المسترسلة ، فاكتفى بإلقاء خطبة قصيرة بدأها بالحديث النبوي (كلكم راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته) ، دعا بعدها المحتشدين إلى أن يكونوا بمستًوى المحنة المتمثلة بخلو البلاد من أية حكومة أو

جيش أو شرطة ، عرّج بعدها إلى تذكير من أخطأ واقترف جريمة السرقة من المال العام بأن باب التوبة سيظل مفتوحاً له ، وأن في وسعه التكفير عن إثمه بتسليم ما سرقه إلى المسؤولين في الجامع مع الاطمئنان إلى الإبقاء على اسمه طي الكتمان . ثم اعتلى المنبر بعده شاب ثلاثيني بلحية فاحمة السواد ألقى كلمة حماسية دعا فيها شباب المحلات إلى تنظيم أنفسهم للقيام بحراسات دورية بعدما يطمئنون إلى تحصين المنافذ المؤدية إلى أزقتهم بأكياس الرمل والعوارض وأي شيء يساعد على عرقلة المتسللين بعض الوقت ريثما يتسنى للقائمين بالحراسة الوقت اللازم لردّ كيدهم إلى نحورهم .

حين عدت إلى البيت لخّصت الأمر لمريم بقولي :

- كأني بالحرب انتقلت من حدود الوطن لتنشب ، هذه المرة ، في كل زقاق وبيت!

وجاءت زيارة سهيل الخلف المفاجئة لتعزز مخاوفي تلك ؛ فقد بدا جهماً منقلب السحنة ، لا تكفّ الأريكة من تحته عن إرسال صريرها لكونه لم يستقر في موضعه لحظة واحدة .

- ما أخبار (العلوة)؟

سألته بعد انتهائه من احتساء شايه ، فانفجر صارخاً :

- ذلك ما جئتك من أجله .

وعمد إلى إخراج حلقة مفاتيح من أحد جيوبه وضعها على الطاولة بجانب الإستكان الفارغ ليوقد بأصابع مرتعدة سيجارة - وتلك كانت أول مرة أراه فيها يدخن برغم تخطيه السبعين من عمره - وبعدما عبّ منها الدخان ، على طريقة المستجدّين ، كيفما اتفق واصل الصياح ، وهو يغالب نوبة سعال ألـمّتْ به فجأة :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وها هي مفاتيح (العلوة) أعيدها لك لتتصرف بها كما تشاء .

حاولتُ تهدئته مؤكداً له ثقتي به واستحالة تمكّني من إدارة (العلوة) بمعزل عنه ، فعلّق بمرارة :

- بيد أن ابن أخيك ليس من رأيك!

ومضت لحظات قبل أن يسترسل في كلامه متخلّصاً ، في الوقت نفسه ، من سيجارته بسحقها في المنفضة وقد اكتشف ، كما يبدو ، صعوبة الكلام مع التدخين :

- إنه لا يكفّ عن المرور يومياً ببيتي طالباً مني الإسراع بفتح (العلوة) ليخزن فيها بضائع ، استطاع الحصول عليها بشكل من الأشكال ، وإلا فانه سوف يحرّض أباه على عمل (قسّام شرعي) ليستقل بحصته من (العلوة) والبيت!

وعلّق متهكماً بعدما بادلني نظرة طويلة :

- فاتني أن أسأله عن تلك المحكمة التي ستكفل له إصدار ذلك (القسّام) واللصوص باتوا يتحكّمون في الشوارع بتلك الطريقة البشعة التي وجدتْ فيها الفضائيات الأجنبية مادة يومية للتشهير بالشعب العراقي .

طيّبتُ من خاطره مطمئناً إياه ، وأكدت له أنني سأزور شقيقي في أقرب فرصة ليمنع ابنه من الدنو منه مجدداً .

لم يكد سهيل الخلف يغادرني بحلقة مفاتيح (العلوة) حتى اجتزت الحوش نحو السلّم متجهاً إلى مكتبتي سامعاً ، في طريقي ، ضجة مريم في المطبخ وهي بصدد إعداد وجبة الغداء . وجاءني صراخ إسماعيل الصغير من غرفة مجاورة وهو يأمر جدته بالاستسلام قبل أن يرديها بالرصاص ، في حين كانت هي تتوسل إليه راجية إياه إرجاء

الأمر إلى ما بعد انتهائها من صلاتها!

في المكتبة ملأني منظر رفوف الكتب من حولي بأسى على كتب مثلها ذهبت طعماً للنيران على مدى الأسابيع الماضية ، مذكّراً إياي ، في الوقت نفسه ، بمياه دجلة وقد اسودّتْ بالمداد بسبب آلاف المخطوطات التي ألقيت فيها منذ مئات السنين على أثر غزو المغول لبغداد .

كانت الأوراق المصفرّة بفعل القدم مبعثرة على المنضدة : مقالات وأخبار مستلّة من صحف - ولا سيما صحيفة (الأهرام) المصرية - ورسائل ووثائق وصور حملها إسماعيل الذبيح من القدس إلى بغداد ليتركها عند ابنته وديعة ، وكأنما في انتظار من يأخذ على عاتقه مهمة استثمار محتوياتها بشكل من الأشكال .

وتعقبتني مريم بعد دقائق مسعفة إياي بفنجان القهوة المنتظر لتنصرف إلى تأمّل الصور واحدة واحدة محدّثة إياي عن المناسبات التي التقطت فيها والذكريات المرتبطة بها .

منذ ذلك اليوم دأبتْ مريم على الانفراد بي ، من حين إلى آخر ، في المكتبة لتروي لي ما جرى لأبيها إسماعيل الذبيح منذ تسلله من غوطة دمشق أواخر سنة ١٩٢٧ على أثر انتهاء (الثورة السورية) وفي رفقته فايد العايد ، ليتجها إلى جبل الدروز ؛ حيث اعتادا أن يتّخذا من أكثر قراها منَعَة محطة استراحة لهما طوال سنوات الثورة ، حتى إذا ما مرّتْ أسابيع التحق فايد بأستاذه كامل الأطرش في القاهرة ، في حين توجّه إسماعيل الذبيح إلى القدس ليحقق حلم عمره بالزواج من فاطمة .

وكانت مريم تستدرك معتذرة للاضطراب الذي يعتور طريقتها في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رواية تلك الأحداث ؛ ذلك لأنها وقعتْ قبل ولادتها ؛ فاستقتها من رواة آخرين ولا سيما أمها فاطمة وخالها زكريا الخالدي ، فكنتُ أسارع إلى طمأنتها طالباً منها أن تترك لي مهمة تنسيق تلك الأحداث بالصيغة التي تتطلبها كتابة رواية ستسهم في بنائها أصوات رواة عديدين فضلاً عن ملفات أرشيف أبيها التي ستأخذ على عاتقها أمر توثيق معظم تلك الأحداث .

وهكذا كان لا بد لي من أن أبدأ روايتي بالعودة ستاً وثلاثين سنة إلى الوراء لأنطلق بأحداثها من لحظة لقائي إسماعيل الذبيح في (علوة الجلبي) ، عقب أيام من نكسة حزيران ، متتبعاً بعدها أثر خيط الدم الذي لم يكف عن النزف حتى هذه اللحظة ، وصولاً إلى مصدر الجرح الرئيس : فلسطين حيث استقرّ إسماعيل بعد رحلة عجائبية بدأها بهربه من رجال الجندرمة ليتنقل بعدها بين البصرة ، وسمر بور ، والحجاز ، وعمّان ، ودمشق ، قبل أن ينتهي به المقام في القدس!

المقامة الفلسطينية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(١)

حينما هبطتِ السيّارةُ بفاطمة آخر التلال لتدرج بها وسط السهل الساحلي في اتجاه مدينة عكا هبط معها قلبها وهي تفكّر بزوجها الحبيب إسماعيل الذبيح ؛ أيعقل أن يكون يوم الغد هو آخر مرة تكحل فيها عينيها بمرآه قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه؟

كانت قد ألفتْ ، طوال الأشهر الماضية ، القدوم إلى عكا ؛ فمنذ انتهاء (ثورة البراق) اعتادت مغادرة القدس قبل يوم واحد من مقابلة المعتقلين لتقضي ما تبقى من نهارها في التجوال في أسواق عكا لشراء ما سبق لإسماعيل أن أوصاها بشرائه ، متخذة سبيلها ، في خاتمة المطاف ، نحو بيت أحد أقربائها لتبيت هناك في كل زيارة .

وكان من المألوف أن يبلّغها شقيقها رمزي الخالدي بموعد المقابلة المرتقبة قبل يومين أو ثلاثة لترتّب أمورها مع أشقائها الآخرين منيف وحليم وسميح ؛ فتتوسل إليهم طالبة منهم ضرورة مرابطتهم في البيت طوال أيام سفرها مبدين حرصهم على ألا يغيب أصغر أشقائهم زكريا عن أنظارهم وذلك لأنه لم يألف الاعتماد على نفسه بعد .

وكانت تعمد إلى إعداد ما يكفي زكريا من طعام طوال مدة غيابها دون أن تنسى التأكيد عليه ضرورة تجنّب الاشتراك في واحدة من هذه المظاهرات المتلاحقة ، فكان زكريا يسألها مداعباً :

- أيُفترض بي تقديم تعهّد خطي لك بهذا الشأن لكي تذهبي إلى عكا مطمئنة البال؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فكانت تجيبه ، وهي تقبّله مودعة :

- أريد أن أجنّبك كل مكروه وأنت في مقتبل العمر ؛ ذلك لأننا دفعنا حتى الآن أكثر ما في ذمتنا من استحقاق : بتر ذراع رمزي في ثورة شريف مكة ، وسجن إسماعيل في ثورة البراق!

بعدها كانت تسلّم أمرها إلى رمزي مطمئنة إلى أنه سيتكّفل بإذلال ما سيعترض سبيلها من عوائق دون أن يخطر لها أنه هو شخصياً سيغدو ، في الرحلة الأخيرة ، أكبر تلك العوائق ؛ ذلك لأنها فوجئتْ به يحاول جهده ثنيها عن القيام بهذه الرحلة : فتارة يتحجج بطول المسافة التي يفترض بها قطعها على متن سيارة عتيقة ستخضّها خضاً في صعودها وهبوطها مئات التلال والأودية قبل أن تصل بها إلى تلك المدينة الساحلية النائية القابعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط على مبعدة سبعة عشر كيلومتراً فقط من الحدود اللبنانية ، وطوراً يؤكد لها أنه وحده سيتكفل بالقيام بهذه الرحلة لينوب عنها في مقابلة إسماعيل . حتى إذا ما أعياه الأمر دون نتيجة تساءل بحياء وهو يومئ برأسه نحو بطنها الذي كان في ذروة تكوّره :

- ولكن . . . ألا يُفترض بك الحذر في مثل هذه الأيام لقرب موعد وضعك؟

وبرغم وجاهة هذا العذر ؛ ففاطمة كانت قد تخطت شهور حملها التسعة بأيام ، لكنها اختزلت ردها بترديد مفردة فلسطينية واحدة محمّلة بالإصرار والعناد :

- ولو!

وعادت تسأله عن سر حرصه على منعها من القيام بالرحلة هذه المرة؟ فقال بعد لحظات تردد :

– ذلك لأنه تقرر تنفيذ حكم الإعدام بعدد من المعتقلين!

وسارع يضيف وقد لاحظ ، كما يبدو ، الدم ينحسر من وجنتيها :

– وقد لا يكون إسماعيل ضمن هذه الوجبة .

– أو قد يكون!

أجابته فاطمة وهي ترمقه بنظرة تأنيب تاركة إياه يتأمل فظاعة أن يحدث (ذلك الأمر) بغياب زوجته .

بدتْ عكا هذه المرة ، والسيارة تقترب منها ، مجردة من أي سحر أو فتنة ؛ فعلى العكس من زياراتها السابقة تخطت بعينيها السور المحيط بالمدينة – هذا السور التاريخي الذي اعتاد زكريا أن يحدثها عنه ، وكيف اندحرت جيوش نابليون بونابرت أمامه – تخطت بعينيها ذلك السور ، كما تجاهلت خضرة أشجار الزيتون والبرتقال والنخيل لتثبت نظرها على برج القلعة الذي يحدد موقع السجن القائم إلى الشمال من جامع الجزار . وبقي ذلك البرج الرهيب يطالع عينيها حتى لحظة دخولها بيت ذلك القريب حيث ذرفت الكثير من الدموع وهي تعانق نساء الأسرة وبناتها .

ذلك اليوم بقيتْ متحصّنة بالبيت ولم تغادره للتبضع ، كما كان شأنها في زياراتها السابقة ، مستعيدة بحسرة الأمنية التي كانت تداعب خيالها في كل زيارة آملة أن تكون الزيارة الأخيرة تعود في ختامها بإسماعيل إلى بيته في القدس وقد أطلق سراحه ، أمنية كانت تستمدّ منها العزم للقيام بجولات في المدينة معرّجة ، في كل مرة ، على مدافن الأولياء والكنائس التي تعج بها ، شأنها شأن أغلب المدن الفلسطينية ، مثل مقام أبوعنبة ومقام الشيخ يانس والشيخ غانم ومدفن الشيخ علي نور الدين اليشرطي مؤسس الطريقة الشاذلية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت هناك أيضاً الكنائس : كنيسة سانت أندروز وسانت جونز وسانت جورج . كانت تحرص على المرور بكل تلك الأماكن ناذرة لهذا المقام أحد نذورها ، موقدة في تلك الكنيسة شمعة ، داعية هؤلاء الأولياء والقديسين ألا ينسوا زوجها إسماعيل الذبيح في محنته . وكان لا بد لها من المرور كذلك بالأسواق ولا سيما السوق الأبيض المسقفة والتي تباع فيها المجوهرات والقطع التذكارية فضلاً عن الخضار والفاكهة .

بهذه الطريقة سرعان ما عرفت فاطمة – وهي خالية البال مما تخبئها لها الأيام من كوارث – المدينة شارعاً شارعاً ، فألّت بأبرز معالمها مثل حمّام الباشا وخان الجزار القائم قرب الميناء والمزدان بأعمدة رشيقة وببركة رخامية فضلاً عن برج ساعة كان قد أقيم عند المدخل بمناسبة مرور ربع قرن على تولّي السلطان عبد الحميد سدة الخلافة العثمانية . وكان هناك خان آخر يعرف بخان الإفرنج ويعدّ من أقدم معالم المدينة حيث اتخذ التجار الأجانب منه مستودعاً لبضائعهم في الحقبة العثمانية ، وإلى الشمال منه يقع دير الآباء الفرنسيسكان وكنيستهم .

وكانت تعود من جولاتها تلك ، وقد اقتنت ما تحتاج إليه ، لتستعد بعدها لمقابلة زوجها صباح اليوم التالي داعية الله في سرها أن يعينها هذه المرة فتصمد عند لقائه فلا تنخرط في البكاء شأنها في كل مرة ، بيد أن هذه الأمنية لم تتحقق قط ؛ إذ إن الدموع كانت تجول في عينها تلقائياً لحظة اندفاعها مع أعداد الداخلين لتمر بالجبخانة التي كانت تخزن فيها الأسلحة والذخائر في زمن الأتراك ، متجهة نحو باحة الثكنة العثمانية الواسعة المحاطة بالأروقة المعقودة وقد أضحت السجن المركزي في فلسطين منذ فرض الانتداب البريطاني عليها : يقاد إليه

عادة معظم المعتقلين السياسيين والمحكومين بالإعدام . حتى إذا ما التقت إسماعيل دست كفها الراجفة كالعمياء وسط راحته الخشنة كابحة رغبة قاهرة بالارتماء على صدره العريض لتنهال على وجهه المتورد الذي زاده السجن بياضاً ووسامة موسعة إياه لثماً وتقبيلاً ، رغبة لم يكن يمنعها عن تنفيذها إلا وجود هؤلاء المحيطين بها فضلاً عن شقيقها رمزي ، فكانت تكتفي بسفح الدموع مفتعلة ، في الوقت نفسه ، الضحك وهي تفرغ أمامه أكياسها معددة ما حملته إليه من أشياء ، فكان إسماعيل ينادي اثنين من أصدقائه من أبناء مدينة الخليل كان قد ارتبط بهما بعلاقة وثيقة أثناء قيامه برحلاته الدورية إلى هناك حين كان يعمل بائعاً متجولاً ، يدعى أحدهما عطا الزير والآخر محمد جمجوم ، كان يناديهما متحدياً إياهما إنْ كانت زوجتاهما قد جلبتا لهما مثلما جلبت فاطمة له من أشياء؟ فكانا يردان عليه ضاحكين :

– ليس كثيراً عليها أن تفعل ذلك وأنت الذي لم يمنعك حلول الليل ولا بُعْد المسافة من القدوم إلى الخليل لتحمل العنب إكراماً لها!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٢)

كانت فاطمة تمتلئ فخراً وهي تستعيد حكاية وحامها بالعنب في الأيام الأولى لحملها وكيف أن زوجها هبّ واقفاً حين صارحته بالأمر وهو يقول :

– لا أيسر من ذلك ؛ فأسواق الفاكهة في القدس تعجّ بالعنب في هذه الأيام ؛ فهذا موسمه .

لكن فاطمة اعترضت قائلة إنها تريده من عنب الخليل على وجه التحديد ، فسألها إسماعيل مستنكراً :

– ولماذا عنب الخليل بالتحديد؟

– لأنه ما من مرة جئتني بشيء منه ، في زياراتك إلى هناك ، إلا واستمتعت بحلاوته ، وكبر حباته الخالية من البذور .

أجابته وهي تتلمظ بفمها دلالاً ، فطمأنها أنه سيأتيها بهذا الصنف . بيد أن فاطمة اعترضت متشككة :

– وكيف لك أن تتأكد جازماً أنه من عنب الخليل؟

– سأسأل الفاكهاني .

– وما أدراك أن ذلك الفاكهاني سيصدقك القول؟

واعترفت فاطمة ، وهي تكاد تبكي ، أن الأمر خارج عن إرادتها ؛ فقد تحكّم فيها الوحام ، فلا بد لها من أن تلتهم عنقوداً كاملاً من عنب الخليل لا غيره ، فتأملها إسماعيل لحظات صامتاً قبل أن يعمد إلى

استبدال ملابسه ليغادرها طالباً منها ألا تقلق إن تأخر بعض الوقت . والحق أنه تأخر كثيراً ؛ فقد غادر البيت عصراً ليعود ، وقد قارب الليل منتصفه ، محمّلاً بسلة من عنب الخليل .

- أيعقل أنك سافرت إلى الخليل لأجلي؟

تساءلت فاطمة وهي تلطم صدرها بحركة تقريع ، فهوّن إسماعيل عليها الأمر قائلاً إنها ليست أول مرة يذهب فيها إلى هناك ؛ فلقربها من القدس - إذ إنها لا تبعد أكثر من أربعين كيلومتراً - كان قد اعتاد المرور بها بين أسبوع وآخر شأنها شأن المدن المجاورة مثل بيت لحم ورام الله وأريحا .

وكان إسماعيل قد اعتاد أن يشكو إلى فاطمة ، منذ استقراره في القدس عقب زواجهما ، ندرة الأعمال المتوفرة في فلسطين ؛ إذ إن سلطات الانتداب البريطاني أهملت أبناء البلاد مكبّلة إياهم بقوانين وأنظمة ضيّقت فرص العمل أمامهم ، في حين كانت تسعى إلى رعاية حشود المهاجرين اليهود الذين كانوا يتدفقون بالآلاف .

وكان قد أخذ يمارس تجارته المتواضعة على طريقته الخاصة : يغادر القدس إلى إحدى المدن المجاورة محمّلاً بما اشتهرت به مدينته من صناعات يدوية - مثل البسط التي حاكتها زوجته بنفسها ، والصلبان وإطارات الصور والمرايا المزدانة بالأصداف ، فضلاً عن المسابح والتماثيل المعمولة من خشب الزيتون - ليعود من تلك المدن محمّلاً بما اشتهرت به من صناعات : فمن بيت لحم يجلب الثياب المطرّزة ، ومن رام الله يأتي بالحلويات .

وكانت مدينة الخليل تشكّل المركز الرئيس لـ(تجارته) ليس لاشتهارها بصناعات عديدة فحسب - كدباغة الجلود ، وصناعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الزجاج ، والغزل ، والنسيج ، والفخار ، والحلويات ، فضلاً عن اقتران اسمها بأجود أنواع العنب - بل لكونها موطن عطا الزير ومحمد جمجوم اللذين ارتبطا به بصداقة حميمة كانت تذكّره بالصداقات التي عقدها مع أكثر من واحد أثناء إسهامه في الثورة العربية .

وكان إسماعيل يحدّث زوجته عن علاقته التي توثقت بهما منذ اكتشف الاثنان ، ذات يوم ، وهم جالسون في أحد مقاهي المدينة يصغون إلى نشرة الأخبار من إذاعة فلسطين ، أنه كان قد تطوع في جيش الشريف حسين : فقد ناقشاه طويلاً عن النتيجة التي تمخضت عنها تلك الثورة ؛ فها هي فرنسا وبريطانيا وقد تقاسمتا حصتيهما كاملتين غير منقوصتين على وفق مقررات اتفاقية (سايكس - بيكو) تاركتين فلسطين غنيمة باردة لليهود . وكان ما يؤلم ذينك الصديقين كثيراً تغلغل اليهود في مدينتهما الخليل وسعيهم للاستيلاء عليها وذلك لاحتوائها على الحرم الإبراهيمي وعلى مغارة مكفيلة التي تشمل قبور طائفة من الأنبياء : النبي إبراهيم وزوجته سارة ، وإسحق ويعقوب ويوسف وزوجاتهم ، لذلك تراهم لا يكتفون بتكثيف الهجرة إليها فقط ، بل العمل على إنشاء مدارس يهودية خاصة بهم فيها . وكان عطا الزير لا يستطيع ضبط نفسه كلما تطرقوا إلى ذكر ما يجري في الخليل أثر كل لقاء لهم هناك ؛ فقد اعتاد أن يردد ساخطاً :

- لن يكفّوا عن أطماعهم بمدينتنا ما دامت وسيلتنا لحمايتها لا تتخطى الشجب والاستنكار فقط!

فكان محمد جمجوم يؤيده في ما يذهب إليه ، مضيفاً إلى ذلك قوله :

- من المؤكد أنهم لن يتوقفوا عند حدهم إلا بعدما يوقنون بأن الدم

الفلسطيني ليس وحده الذي سيُسفح بسخاء حينما يجدّ الجد ، بل الدم اليهودي أيضاً!

فكان إسماعيل يسارع إلى تحذيرهما مذكّراً إياهما بأن محاكم الانتداب البريطاني اشتهرت بانحيازها إلى جانب اليهود ، وإصدارها أقسى الأحكام على الشبهة بحق الفلسطينيين!

وكان إسماعيل يسرّ إلى زوجته فاطمة ، كلما عاد إلى القدس عقب إحدى زياراته إلى الخليل ، بخشيته على صديقيه بسبب ما يجري في مدينتهما ليكتشف أن مدينة القدس بدورها غير محصنّة من تلك الأحداث : فذات يوم أفضت به إحدى جولاته ، خلال الأزقة الضيقة المحاطة بالبيوت الحجرية ذات المشربيات ، إلى ممر البراق ، فتنبه للغط غريب تتخلله أصوات ندب وبكاء سرعان ما تبين أن مصدره ذلك الحائط : إذ لم يكد يشقّ سبيله بين أعداد المتسولين والعميان المتجمعين هناك حتى فوجئ بمئات اليهود الغارقين بملابس الحداد وقد اعتمروا قبعات سوداً وهم يتمسّحون بذلك الحائط ؛ فتذكّر من فوره أول زيارة قام بها إلى هذا الموضع منذ تسعة أعوام حينما قدم بصحبة ذياب رؤوف مرافقين رمزي الخالدي عقب انسحابهم من الجيش العربي : يومذاك لم يكن عدد اليهود المتجمعين في هذا الموضع يتجاوز أصابع اليدين ؛ ذلك لأن الانتداب لم يكن قد فرض على فلسطين بعد ، ولم تكن حشود المهاجرين اليهود قد قدمت برعاية هربرت صاموئيل أول مندوب سام ، في حين أن الأمور تغيرت كثيراً الآن ؛ فها هي أعداد يصعب أن يحصرها العدّ من اليهود وقد احتشدوا كالنمل عند الحائط وهم ينوحون ويندبون ، وقد حمل كل واحد منهم توراته ليتلوّى مؤرجحاً نصفه العلوي إلى الأمام والخلف لاثماً بخشوع الجدار

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصخري الذي صُقل من اللمس إلى المستوى الذي يقع في متناول الأيدي ، في حين بقيت المواضع العالية على حالها تغطيها الطحالب وتتدلى خصل النباتات الطفيلية من بين مفاصل كتل الحجارة الضخمة .

(٣)

لم تكد تمر شهور حتى وقع ما كان إسماعيل يخشى وقوعه : ففي الخامس عشر من شهر آب – هذا التاريخ الذي لن تنساه فاطمة أبداً – اقتحم رمزي غرفتهما طالباً من زوجها بانفعال الإسراع بمرافقته إلى الحرم القدسي .

– لماذا؟ ما الذي حدث هناك؟

صاح إسماعيل متسائلاً ، فرد عليه رمزي ، وقد استدار على عقبيه مغادراً البيت ، بكلام لم تفقه فاطمة منه إلا عبارة (ممر البراق) ، فسارع إسماعيل بارتداء قمبازه وغادر البيت وهو يغرق رأسه في طربوشه ، وحينما حاول زكريا الالتحاق بهما تصدّتْ له فاطمة بحسم . قالت له وهي تحتضنه لاثمة خده :

– دعك من هذه الأمور يا حبيبي ، وانصرف إلى مراجعة دروسك .

– ألا ترين أنه لا يعقل أن تعامليني بهذا الشكل وقد وصلتُ إلى المرحلة الخامسة من دراستي الثانوية؟

صاح زكريا بها محتجاً وهو يغادرها داخلاً غرفته ، فشيّعته فاطمة بنظرة حانية مفكرة أنه سيبقى في نظرها ذلك الطفل الذي أخذتْ على عاتقها مسؤولية تربيته منذ وفاة أمهما وهو لا يزال في عامه الثاني .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حينما عاد إسماعيل ، بعد مضي أكثر من ساعة ، حدّثها عن آلاف اليهود وهم يتدفقون نحو الأرض المحاذية للحائط الغربي من الحرم القدسي قادمين من جميع الاتجاهات ، وثمة أعداد منهم ينفخون في أبواق ، في حين يردد الجميع هتافاً واحداً :

- الحائط حائطنا!

وعرف من رمزي أن هؤلاء اليهود قدموا من شتى المدن الفلسطينية بمناسبة عيد يسمونه عيد الغفران معلنين عن ذلك بالنفخ في الصور ، فعلّق إسماعيل متهكماً :

- ها هم اليهود الذين اعتادوا أن يشيعوا عن أنفسهم أنهم لا يضمرون للفلسطينيين شراً بقدر ما يهدفون إلى أن يحيلوا هذه البلاد ، بفضل ثرواتهم الطائلة وخبراتهم المعروفة في شتى المجالات ، إلى فردوس تجري فيه أنهار اللبن والعسل ، ها هم يكشفون حقيقة مطامعهم دون لبس .

منذ ذلك اليوم طلبتْ فاطمة من زوجها وضع حد لجولاته (التجارية) في المدن المجاورة للقدس ولا سيما مدينة الخليل ؛ ذلك لأن الأوضاع لم تعد مأمونة : فقد عثر على أكثر من جثة بائع متجول مرمية على قارعة الطريق قرب المستوطنات اليهودية وقد اغتيل بأيدٍ مجهولة . وأخذت الأوضاع تزداد اضطراباً حتى أن المسلمين اضطروا إلى تأليف جمعية لحماية الأماكن الإسلامية المقدسة عُرفتْ باسم جمعية حراسة المسجد الأقصى . كما أن حكومة الانتداب سعت جهدها إلى تسوية المشكلات بين المسلمين واليهود محاولة عقد اتفاقيات بينهما ، ولكنْ دون جدوى ؛ فقد أخذ اليهود يتهيّأون علانية للقيام بتظاهرات جديدة ضد المسلمين .

وكان خبر عقد اليهود مؤتمراً في زيورخ مصدر قلق للجميع ؛ فقد اعتادت فاطمة أن تسمع شقيقها رمزي يؤكد خطورة مقررات هذا المؤتمر الذي دعا فيه رئيس الحزب اليهودي الإصلاحي جابوتنسكي إلى ضرورة أن يتسلح اليهود ليسلكوا طريق العنف والقوة لتحقيق أهدافهم . ولم يستطع رمزي ، ذات ليلة ، أن يخفي عن الأسرة - وقد التقوا في غرفته كما اعتادوا في أغلب الليالي - قلقه لكون الأمور باتت تنذر بشرّ مستطير ، فتساءل زكريا ببرارة :

- وما الجديد في ما تقول؟ فالشر ماضٍ في الاستفحال منذ احتلال الجنرال اللنبي القدس .

لكن رمزي أصرّ على أن ثمة أمراً ما يُعدّ في الخفاء . وتابع وهو يتنقّل بعينيه بين الوجوه المحيطة به :

- لقد أخذ عدد من الضباط البريطانيين يزودون اليهود ، هذه الأيام ، بأحدث الأسلحة مجنّدين إياهم في الفرق النظامية ليتقنوا استعمال هذه الأسلحة ، وآخر هؤلاء الضباط الميجر ساندرس ، متحججين في ذلك بحماية أنفسهم من الخطر العربي .

فعقب زكريا قائلاً :

- ما يحدث الآن يأتي في سياقه الطبيعي ؛ فمنذ حصول أول صدام بين الفلسطينيين واليهود في الرابع من نيسان سنة ١٩٢٠ والعمل جارٍ على تهويد البلاد دون توقف .

وأوضح رمزي وقد التفتَ نحو إسماعيل :

- لقد وقع ذلك الصدام أثناء احتفالنا بعيد النبي موسى الذي يتوافق عادة مع احتفالات الطوائف المسيحية الشرقية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٤)

وتذكّرتْ فاطمة ، وهي تصغي إلى شقيقيها ، انطلاقها في طفولتها ، وسط حشد من صديقاتها ، نحو باب العمود حيث كان من المألوف وصول موكب مدينة نابلس إلى هناك يوم الخميس السابق لأحد الشعانين ليدخل المدينة متخذاً سبيله ، على صدح المزامير وقرع الطبول وضجّة المغنين والراقصين ، نحو الحرم القدسي ، حتى إذا ما حلّ يوم الأحد انطلقت فاطمة ، هذه المرة ، نحو باب الخليل حيث الشوارع والأزقة ، ومشربيّات البيوت ، وشرفات قلعة النبي داود تضيق بآلاف المحتفين وهم يستقبلون موكب مدينة الخليل الذي يكون قد تجمّع عادة في اليوم السابق عند دير مار ألياس ، فيتدفق الحشد داخلاً متخذاً سبيله نحو الحرم ، يتقدمه المتبارزون بالسيوف قبل أن يشدّ الجميع الرحال إلى قبر النبي موسى الواقع قرب البحر الميت ليعودوا بعد ثمانية أيام مع احتفال المسيحيين بالجمعة الحزينة .

بيد أن ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم جعل الفلسطينيين يتوجسون كلما احتفلوا بتلك المناسبة ؛ فقد فوجئوا ببعض اليهود يعترضون سبيلهم محاولين خطف العلم العربي منهم وإهانة حامله ؛ فنشبتْ معركة كان قد خُطط لها سلفاً ؛ إذ سارع الجنود الإنجليز إلى الانحياز إلى جانب اليهود برغم كونهم المعتدين ، حتى إذا ما تطوّر القتال عمد البريطانيون إلى محاصرة القدس ليصدروا ، في اليوم التالي ، بلاغاً كشفوا فيه أن المعركة

أسفرت عن قتل وجرح العديد من الطرفين .

تذكّرتْ فاطمة هذه الأمور كلها وهي تصغي إلى رمزي وهو يتحدث عن لجوء الجنرال اللنبي القائد العام لجيوش الحلفاء إلى توجيه دعوة إلى اليهودي البريطاني السير هربرت صموئيل ليساعده ، بعد استفحال الاضطرابات ، على تسوية شؤون فلسطين ؛ فعمد هذا اليهودي العريق إلى تسوية تلك الشؤون بطريقته الخاصة التي يتمثّل جوهرها بالإسراع بتهويد البلاد مستنداً في ذلك إلى أن مؤتمر الحلفاء في سان ريمو قرر تضمين صك الانتداب وعد بلفور قبل مصادقة عصبة الأمم عليه .

وكانت فاطمة تتابع كلام زكريا وهي موزعة بين توجسها مما تسمع واعتزازها بهذا الشقيق الذي أصبح فخر الأسرة بعدما أوشك على إنهاء دراسته في أرقى مدارس فلسطين ، المدرسة الرشيدية .

– لقد سارع هذا الرجل ، حال تسلّمه منصبه الخطير ، إلى تعيين اليهودي نورمان بنتويتش سكرتيراً قضائياً في حكومة الانتداب ليتولى وضع القوانين وسنّ التشريعات الكفيلة بالحد من نشاط العرب وحماية اليهود ، كما سلّم إدارة المهاجرة إلى يهودي آخر هو هايمون الذي تلخّصتْ مهمته بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين .

وقاطع رمزي شقيقه مخاطباً إسماعيل :

– أتدري ما الذي صرّح به وزير المستعمرات البريطاني تشرشل حين وصوله إلى القدس في السنة التالية على تلك الاضطرابات؟ لقد مجّد ، أمام حشود مستقبليه من الفلسطينيين ، القتلى الصليبيين والمياكبيين اليهود ، مؤجّجاً بذلك مشاعر الناس ؛ فقد انطلقت تظاهرات سقط على أثرها العشرات قتلى وجرحى بالرصاص الإنكليزي .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعوضاً من أن يتعظ تشرشل فيتراجع عن تصريحه الذي أشعل نار الفتنة عمد ، دون حياء ، إلى مشاركة اليهود في غرس شجرة في مكان إنشاء الجامعة العبرية ، مصرّحاً بأنه يأمل أن تكون تلك الشجرة في نموها رمزاً إلى مجهودات الحركة الصهيونية!

وعاد زكريا يعلّق ساخراً :

– وبحكم كون السير هربرت صموئيل رجلاً عملياً فقد بحث ونقّب في أساليب الفلاحين البسطاء في إدارة حقولهم ومزارعهم ؛ فوجد أنهم يهتمون بالزراعة الموسمية ؛ فشجّعهم على الاستدانة من المرابين اليهود ، حتى إذا ما انتهوا من جني الزيتون وحصاد القمح أصدر أمراً منع بموجبه تصدير الحاصلات إلى خارج البلاد ؛ فكسدتْ بضاعتهم وتردت أثمانها فتم حجز أراضيهم لتباع إلى اليهود سداداً للديون!

وتبارى الشقيقان في ذكر خطط هذا الرجل في تسليم بني قومه المزيد من الأراضي ؛ فقد منحهم مئتي ألف دونم من مرج ابن عامر مجلياً بذلك تسع مئة أسرة من قراهم ، كما منح اليهود أراضي الكبارة وعتليت وتلال قسارية فضلاً عن أراضي الغور التي كانت مسجلة باسم السلطان عبد الحميد وكان الفلاحون يعمرونها ويملكون ما يصلحون منها .

واستدرك زكريا ضاحكاً :

– ولكي لا نظلم الرجل لا بدّ من الاعتراف بأنه لم يكن الوحيد الذي تبنّى فكرة تهويد فلسطين بأسرع ما في وسعه ؛ فمنذ عامين عمد خلَفه اللواء بلومر إلى منح شركة يهودية امتياز الكهرباء فضلاً عن حقها المطلق باستعمال مياه نهري الأردن واليرموك وروافدهما على مدى سبعين سنة قادمة!

(٥)

صباح يوم الرابع عشر من آب ، قام اليهود بمظاهرة صاخبة تجرأ ، على أثرها ، عدد من شبابهم المتطرفين على القيام ، في اليوم التالي ، بمسيرة خلال شوارع القدس انتهت بالوصول إلى ممر البراق حيث رفعوا على الحائط علمهم المزدان بنجمة داود السداسية منشدين بأصوات صادحة النشيد القومي الصهيوني . وكان قد سبق لهم أنهم أخذوا ، مع اقتراب عيد الفصح ، يتحدّون المسلمين بوضع مقاعد لهم ومناضد عند ممر البراق ، غارزين المسامير في الحائط ليعلّقوا عليها الفوانيس رافعين ، في الوقت نفسه ، ستارة بينهم وبين موضع تحشّد اليهوديات .

في ذلك اليوم أخذت فاطمة تراقب أخاها المسكين رمزي وهو يتجول في فناء الدار على غير هدى وكمّه الأيمن الفارغ يتأرجح إلى جانبه مثل جناح طائر مهيض ليصيح وهو يكاد يبكي من فرط الانفعال :

– لا يعقل أن نهان ونذلّ بهذا الشكل!

– وما الذي في وسعك القيام به يا أخي؟

تساءلت فاطمة محذّرة ، فانفجر رمزي صارخاً :

– في وسعي أن أفعل الكثير ؛ لأنني لن أكون الوحيد الذي سيتصدى لإذلال على هذه الشاكلة ؛ بل سينطلق آلاف المسلمين غداً الجمعة ، ذكرى المولد النبوي ، في تظاهرة كبيرة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليلاً ، حين انفردت فاطمة بإسماعيل في غرفتهما ، أخذت تذكّره بالمخاطر التي عرّض لها نفسه في الحجاز والشام على مدى السنوات الماضية ، وأنه آن له أن يكفّ عن المجازفة بحياته دون غاية أو هدف ، فابتسم إسماعيل لها وربت على رأسها مطمئناً إياها . وفي صباح اليوم التالي غادر إسماعيل البيت في رفقة رمزي وهو يتجنب أن تلتقي عيناه عيني فاطمة .

كانت فاطمة تعرف أن وجهتهما ستكون المسجد الأقصى ؛ وذلك ما عرفته منهما عقب عودتهما : فبعد أدائهم الصلاة انطلقوا في مظاهرة اتجهوا بها نحو ممر البراق حيث عمد بعض الشباب إلى تحطيم مناضد اليهود الموضوعة على الرصيف ، وأخرجوا أوراق الشفاعات والتوسل ، التي كانوا قد دسّوها في شقوق الحائط ، ليضرموا فيها النار . وفي اليوم التالي تكررت مظاهرة جديدة انتهت بنشوب قتال بين شاب مسلم وآخر يهودي انتهى بإصابة الأخير بجروح خطيرة . ولم تكد تمر أربعة أيام حتى مات اليهودي الجريح ؛ فاستثمر اليهود جنازته في القيام بمظاهرة كبيرة مهددين علانية بنيتهم انتزاع (حائط المبكى) من المسلمين .

وفي يوم الجمعة سمعتْ فاطمة هلعة بتدفّق القرويين المسلمين على القدس مسلحين بالعصي والهراوات . حتى إذا ما أدوا الصلاة شنّوا هجوماً كاسحاً على الأحياء اليهودية . وسرعان ما سرت الاضطرابات إلى يافا وصفد ونابلس فسقط عشرات الضحايا من الطرفين ، بيد أن خسائر اليهود في الخليل كانت أكثر جسامة ؛ فقد هاجم المتظاهرون المدارس اليهودية والحي اليهودي فقتلوا أكثر من ستين واحداً منهم . وفي السادس والعشرين من آب آمنت فاطمة أن الأمور

أفلتت من عقالها ؛ فقد هاجم اليهود مسجد عكاشة في القدس وانتهكوا قدسية مراقد الأنبياء الموجودة فيه . وبعد ثلاثة أيام شنّ العرب هجوماً على الحي اليهودي في صفد فسقط العديد من الطرفين ضحايا . وسرعان ما شاع الخبر الذي تبادلته فاطمة مع جاراتها حول شروع سلطات الانتداب في توزيع الأسلحة علناً على رعاياها وبضمنهم عدد كبير من اليهود كانوا يحملون الرعوية البريطانية . كما أُشيع خبر عن شرطي من أصل يهودي عمد إلى إبادة أسرة فلسطينية كاملة تتكون من سبعة أشخاص!

وكانت الأنباء المتسرّبة من مدينة الخليل تشير إلى احتدام الصراع هناك وسقوط قتلى وجرحى بين المسلمين واليهود ، حتى أن إسماعيل لم يعد يطيق صبراً ؛ فعزم على الذهاب إلى هناك لتفقّد أحوال صديقيه عطا الزير ومحمد جمجوم ، فحاولتْ فاطمة التصدي له مانعة إياه من القيام بهذه الرحلة ، ولكن دون جدى ؛ ذلك لأنها فوجئت به يخاطبها بكل هدوء وكل ملمح فيه يؤكد عزمه وتصميمه :

- اسمعيني جيداً يا فاطمة : لقد علمت بأن عطا الزير أصيب بجروح وهو بين الحياة والموت ، وأنه تم إلقاء القبض على محمد جمجوم ؛ فلا بد لي إذن من تفقّد أحوالهما هناك إذ ليس من طبعي ، كما تعلمين ، التخلّي عن أصدقائي حينما يجدّ الجِد . سأقوم بهذه الرحلة حتى لو كلّفتني حياتي .

ومرّ بفاطمة يوم عصيب نفضت خلاله يديها عن أعمال البيت لترابط قرب الباب الذي كانت تعمد إلى فتحه ، من حين إلى آخر ، لتلقي بنظرة يأس على الزقاق . حتى إذا ما حل اليوم التالي انتشر نبأ ذلك المنشور الذي أصدره المندوب السامي تشانسلور وتهجّم فيه بعنف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على الفلسطينيين ، ولا سيما أبناء الخليل ، متهماً إياهم باقتراف (أعمال همجية لا توصف) كحرق المزارع والمنازل ، ونهب الأملاك وتدميرها ، معلناً أنه سيوقع القصاص الصارم بمن سيثبت عليه ارتكابه تلك الأعمال ؛ فلم تعد فاطمة تطيق صبراً ؛ فقررت السفر بنفسها إلى الخليل وليحصل لها ما يحصل ؛ فاضطر شقيقها رمزي إلى أن ينوب عنها في القيام بهذه الرحلة ؛ حتى إذا ما عاد مع غروب الشمس أدركت فاطمة ، لحظة دخوله البيت بوجه مظلم ، أن ثمة كارثة حصلت .

- كما توقعتِ يا أختاه ؛ لقد ألقي القبض على إسماعيل في أحد مقاهي الخليل حيث أقتيد إلى جهة مجهولة ضمن عشرات مثله كان يؤتى بهم مخفورين من بيوتهم وأماكن عملهم!

أعلن رمزي ليضيف قائلاً إن المندوب السامي عزم على إنهاء هذه الثورة وذلك باستدعاء سرب من سلاح الجو البريطاني يتكون من ثلاث عشرة طائرة!

وسرعان ما شوهدت تلك الطائرات ، في اليوم التالي ، تحلّق على ارتفاع منخفض فوق الحرم القدسي حينما كان آلاف المسلمين يؤدون فيه فريضة الجمعة الأخيرة من شهر آب . وبدأتْ حملة الاعتقالات لتشمل سبع مئة واثنين وتسعين فلسطينياً . وكانت فاطمة تتابع بهلع أنباء عقد محاكمات سريعة انتهت خلال أيام معدودة بالحكم على عشرين واحداً من المعتقلين بالإعدام ، وعلى ثلاثة وعشرين آخرين بالمؤبد ، ومئة وسبعة وثمانين بالسجن بين ثلاث وخمس عشرة سنة ، في حين حكم على الباقين بمدد أقل ، فضلاً عن الاكتفاء بإبعاد آخرين عن مدنهم ، وتحديد إقامة غيرهم مع فرض الغرامات المالية على بعض القرى .

(٦)

فجر يوم الثلاثاء ، السابع عشر من حزيران ، سنة ١٩٣٠ خرجتْ فاطمة خافقة القلب من ذلك البيت محاطة بعدد من قريباتها ، يتقدمهن شقيقها رمزي لتقف ، وسط حشد النساء الملتفات مثلها بملاءاتهن السود ، أمام سجن عكا الرهيب حيث الوجوه بدتْ واجمة ، والأنظار مصوّبة نحو البوابة الموصدة المحاطة بالحراس . كان الصمت ثقيلاً ، يتبدد ، من حين إلى آخر ، على بكاء طفل قابع في حجر أمه أو سجع حمامة جاثمة بين جريد إحدى النخلات . وكانت الأحاديث تجري أحياناً همساً ، وكلها تدور حول من سينفّذ فيهم الحكم ؛ ذلك لأنه لم يكن قد أُعلن عن أسماء المعتقلين الذين ستنفذ فيهم أحكام الإعدام .

حينما دقت ساعة البرج الثامنة فُتحت بوابة السجن مرسلة صريراً معدنياً مقبضاً للقلب ، وأطلّ أحد الحراس برأسه ليعلن ، بعدما اطمأن إلى أن الأنظار كلها قد صوّبتْ نحوه ، عن إعدام أول المحكومين ، وهو فؤاد حجازي ؛ فارتفعت صرخات أسرة المعدوم المنكودة في الوقت الذي امتلأ الفضاء فيه بصوت المؤذن وهو يؤذن من جامع الجزار ، وسرعان ما تجاوبت معه المساجد الأخرى بالأذان ، كما شرعت الكنائس تدق نواقيسها حداداً . في تلك اللحظة أحستْ فاطمة بأولى بوادر الطلق ، فتلفتت حولها مذعورة قبل أن تستقرّ بعينيها على رمزي الواقف وسط

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حشد الرجال ؛ تُرى كيف سيتصرّف حين يعلم بالأمر؟

بيد أنها سارعتْ إلى إبعاد تلك الفكرة عن بالها ؛ فما يهمها الآن يتمثّل بمن سيُعدم مع الدقة القادمة . وعضّت على شفتها حتى كادت تدميها متابعة بنظرات محمومة عقرب الثواني وهو يتواثب في ساعة البرج مع كل نبضة من نبضاتها ، حتى إذا ما أعلن مع الدقة التاسعة عن إعدام عطا الزير انهارت فاطمة بين أيدي قريباتها مطلقة صرخة جبارة حفزتهن ، وسط ضجة أصوات المؤذنين ودقات النواقيس ، إلى الإسراع بحملها إلى البيت قبل أن تضع مولودها في الشارع .

وكانت ساعة برج السجن آخر شيء لاح لها ، وعقرب الثواني فيها يواصل دورانه الرهيب في انتظار الدقة العاشرة والإعلان عن المعدوم الثالث . . . لحظتها تمنّت فاطمة الإصابة بالصمم لكي لا تسمع باسم المحكوم المنتظر!

(مقتطفات من أرشيف إسماعيل الذبيح)

كان انتهاء (ثورة البراق) بتلك الصورة الدامية مع ما رافقها من صدور أحكام بالإعدام ، هو الذي دفع بي إلى الاستعانة بأرشيف إسماعيل الذبيح سعياً مني لمعرفة سر ما حصل قبل تتبع الأحداث كما روتها لي مريم .

وكان من البديهي أن أبدأ بالملف الذي جمعه زكريا الخالدي - وكان بمثابة النواة التي تكوّن منها الأرشيف فيما بعد - لكونه أقدم الملفات ، بيد أن الحظ لم يسعفني بالعثور على ضالتي المنشودة ؛ فوسط مئات الأوراق لم أقع إلا على بضع قصاصات مصفرّة منتزعة من إحدى الجرائد الفلسطينية الصادرة آنذاك ورد فيها ذكر (تدخّل بعض رجالات العرب) وإبراقهم إلى (صديقتهم بريطانيا العظمى رافعين التماساً إلى مجلس الملك الأعلى بلندن بهذا الأمر ، باذلين أكثر من محاولة ذهبتْ أدراج الرياح) .

كما ضمّ الملف قصاصات من بعض الصحف التي تزامن صدورها مع (ثورة البراق) ، تطرقت إلى تلك الأحداث بالتفصيل ؛ فقد نشرت (الأهرام) المصرية في ٢٨/٨/ ١٩٢٩ برقية (تعلن فيها أن الأدلة تتوافر ، كل يوم ، على أن اليهود مسلحون ، وأن العرب يعتبرون عزلاً من السلاح) .

وفي الخامس من أيلول نشرت (الأهرام) أيضا برقية صادرة عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكالة رويتر تتحدث عن استمرار الطغيان الإنكليزي المصرّ على تهويد فلسطين بالتعاون مع السلطات الفرنسية (لتشدد قبضتها على حدود سوريا الفلسطينية حتى تمنع كل معونة محتملة ، وتسلّط جيشها على العرب في «المسحة» حيث استشهد منهم أربعة وعشرون عربياً) ، ثم عادت في ٢٨ تشرين الثاني ونشرت خبراً مفاده أن محكمة حيفا أدانت عدداً من العرب بالإعدام .

ووصفت جريدة (الزهور الفلسطينية) الصادرة في حيفا يوم التاسع عشر من حزيران سنة ١٩٣٠ بشكل مؤثر إعدام الأبطال الثلاثة : فؤاد حجازي ، وعطا الزير ، ومحمد جمجوم .

أما جريدة (الشورى) فنشرت في الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٩٢٩خبراً عن الغرامات الفادحة التي فرضت على الفلسطينيين بسبب تلك الأحداث مشيرة إلى قسوة اليهودي أبرامسون الذي عيّنه المندوب السامي لتحديد الغرامات على بعض القرى العربية التي شاركت في تلك الأحداث .

ونشرت الجريدة نفسها ، بعد أربعة أيام ، مقالاً لمحمد علي الطاهر يمزج فيه الألم بالسخرية مخاطباً أبرامسون بقوله (إلى المستر أبرامسون . . . أعاهدك يا حضرة المستر بالنيابة عن أخواني الفلاحين أننا لن نعود نذكر جمال باشا وطغيانه ، وعبد الحميد واستبداده ، ولن نذكر بعد الآن إلا المستر أبرامسون وغراماته . أعاهدك يا حضرة الحاكم بالنيابة عن أخواني الفلاحين أننا لن نسبّح الله قبل ذكرنا للوطن القومي ، ولن نصلّي على رسول الله قبل ذكرنا لوعد بلفور ؛ لذلك أرجوك أن تطلق لقلمك العنان لينشر الأصفار ذات اليمين لا ذات اليسار ، ولن أتوسّل إليك أن تدع عنك هذا النشر لأنني متأكد أنك ،

وأنت ترمي بالأصفار إلى اليمين ، تذكّر أنك تتحكم في حياتنا . . . في حياتنا نحن فلاحي البلاد . ولكن لي عندك رجاء . . . رجاء بحق العيش والملح الذي بيننا - وما أكثره! - أن تعمل حساباً في أموالنا التي تريد إدخالها في جيوب جماعتك . بالله عليك اعمله وتوسط لنا عندهم من الآن ليقرضونا إياها بالربح الذي تراه لنتمكن من دفع ما غرمنا)!

وكانت الجريدة نفسها قد تحدثت في العاشر من تموز عام ١٩٢٩ عن اتخاذ (بريطانيا كل أسلوب ضار بالعرب ؛ فما كاد الفلاح في ذلك العام يتم حصاد زراعته حتى أوقفت حركة التصدير إلى الخارج فهبط سعر الشعير ، وما كاد يتم حصاد القمح حتى ورّد اليهود الدقيق الأجنبي بكميات كبيرة فضربت المحصولات المحلية ضربة شديدة) .

وصورت جريدة (الجامعة العربية) الصادرة في القدس في تموز من عام ١٩٢٩ الوضع قائلة : (إن إدارة الأشغال بفلسطين أنفقت في٢١ شهراً نحو نصف مليون من أموال أهالي فلسطين على عمال اليهود الغرباء العاطلين عن العمل) .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٧)

بقدر ما فوجئ زكريا الخالدي بعودة أخته فاطمة من مدينة عكا محتضنة طفلها الذي ولدته هناك ، لم يستطع مغالبة دهشته وهو يصغي إلى رمزي يبلّغه بما حصل أمام بوابة السجن .

– ولماذا لم تخبراني بالأمر لأصحبكما إلى هناك؟

صاح موبّخاً وهم لا يزالون واقفين قرب البئر التي تتوسط الحوش حيث بضع دجاجات يقودها ديك ، كانت منهمكة بمنتهى الجديّة في النبش ، فأوضح رمزي أنه لم يكن الوحيد الذي لم يعلم بالأمر ؛ فكذلك كان شأن أشقائهم الثلاثة الآخرين ، منيف وحليم وسميح .

– ولكنْ لماذا أخفيتما الأمر عن الجميع؟

عاد زكريا يسأل وهو يتعقّب أخاه إلى غرفته تاركين شقيقتهما تنفرد بطفلها في غرفتها .

– لأنه لم تُعلن سلفاً أسماء الذين ستُنفّذ فيهم أحكام الإعدام .

أجابه رمزي وقد انصرف إلى استبدال ملابسه ، حتى إذا ما ارتدى ثوبه المنزلي الأبيض أضاف وهو يتمدد على سريره :

– لقد نُفّذ الحكم في ثلاثة فقط من مجموع المحكومين العشرين .

وعاد يجلس على طرف السرير ليسرّ إلى زكريا بصوت خفيض :

– ولكن ذلك لا يعني أنه نجا ؛ فما الذي يمنع هؤلاء الجلادين من الإجهاز عليه متى ما أرادوا وهم الذين لا يتورعون عن تنفيذ عمليات

إعدام جماعية بالمجاهدين فور إيقاعهم بهم مصادفة أثناء مداهمتهم القرى العاصية؟!

وتبادل الاثنان نظرة طويلة قبل أن يطرح رمزي سؤالاً آخر :

- أيكون لفايد العايد دور في نجاته هذه المرة؟

واستطرد قائلاً إنه ، ومنذ صدور الحكم ، بعث إليه بأكثر من رسالة مستغيثاً به على أمل إنقاذه مستثمراً في ذلك علاقاته في القاهرة بكبار الضباط الإنكليز الذين توثقت صلته بهم أثناء عمله الصحفي في جدة .

- عسى أن يكون الأمر كذلك .

خاطب زكريا أخاه وهو يغادره تاركاً إياه يستمتع بأخذ قسط من الراحة .

والحق أنه بقدر ما أثار إسماعيل نفور زكريا في بداية زواجه بفاطمة - لأنه وجد فيه منافساً خطيراً على قلب أخته التي كانت قد عوّدته على أحاطته برعايتها واهتمامها - أضحى فيما بعد مصدر اعتزازه وفخره ؛ فعلى أثر صدور الحكم عليه بالإعدام لإسهامه في ثورة البراق اشتهر أمره بين زملائه طلاب المدرسة الرشيدية ليتحول لديهم إلى بطل أسطوري وهم يتناقلون طرفاً من أخبار مغامراته في الحجاز .

وكان زكريا قد أوشك على أن ينهي المرحلة الثانوية في تلك المدرسة التي هي من أشهر مدارس فلسطين التي تعاقب على التدريس فيها أبرز الأساتذة ؛ ذلك لأنها كانت تضم كافة المراحل الدراسية من ابتدائية وثانوية فضلاً عن مرحلة لاحقة أمدها سنتان لتدريس المواد التحضيرية لدراسة الطب والهندسة .

وكان قد قضى سنوات طوالاً في رواح ومجيء يومي بين بيتهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القائم في زقاق سرايا الست وتلك المدرسة الشامخة بجدرانها الحجرية خارج سور القدس الشمالي قرب باب الساهرة مجتازاً آلاف المرات الأزقة المعقودة والأسواق المسقفة المزدحمة بالناس والشوارع المرصوفة بالأحجار قبل أن يدخل تلك البوابة العريضة التي تعلوها لافتة تحمل الكلمات الثلاث (المدرسة الرشيدية الثانوية) حيث يجتاز ممراً مرصوفاً ، تحفّ به الأشجار ، وتتوزع على جانبيه الملاعب المزدحمة بالطلاب ليرتقي درجات سلّم حجري عريض تقوده إلى شرفة تفضي به إلى تلك الردهة الطويلة التي تقوم على جانبيها الصفوف الدراسية والتي تنتهي بسلّم آخر يؤدي إلى الطابق العلوي .

في تلك المدرسة ، وعلى امتداد تلك السنوات الطوال ، بدأت أولى اهتمامات زكريا الثقافية التي ربطته بعلاقات صداقة بزملاء كانوا يشاركونه في الاهتمامات نفسها ، تلك الاهتمامات التي قادتهم إلى ارتياد المرافق المعنيّة بمثل هذه الأمور مثل حديقة البلدية التي أُعدّت فيها قاعة للمطالعة ، وحديقة الأمة القريبة من العمارة الروسية والتي كانت تعقد فيها حلقات يومية للنقاش في العلم والأدب .

في ذينك المكانين شاهد زكريا عن قرب أشهر الأدباء والمثقفين الفلسطينيين والعرب مثل خليل السكاكيني ، وشريف النشاشيبي ، وأمين الصيداوي ، وخليل بيدس ، والشاعر العراقي معروف الرصافي الذي كان قد انتدب أستاذاً في مدرسة المطران سان جورج .

وكانت هناك أيضاً سينما القدس الكبير القائمة قرب دار الحكومة ، على طريق باب العمود ، حيث كان في وسع زكريا التمتع بمشاهدة الأفلام العربية والإنكليزية كل يوم عدا يوم الجمعة الذي كان قد خصص للنساء . في تلك المنتديات ألمّ زكريا بقضية بلاده المهددة

بالغزو اليهودي ، وكان لجريدة الكرمل الفضل في تنبيهه على الخطر المتمثّل بإقبال اليهود المحموم على شراء الأراضي لينشئوا عليها المستوطنات الخاصة بهم (معرضين بذلك مرافق الفلسطينيين الزراعية والاقتصادية للبور والدمار) . كما كان لها الفضل في تنبيهه على كتاب بعنوان (الصهيونية : تاريخها ، غرضها ، أهميتها) كان من ترجمة صاحب الجريدة نجيب نصار ، وقد طبعه سنة ١٩١١ ؛ فمن خلال هذا الكتاب أدرك زكريا النهج الصهيوني الهادف إلى إنشاء بنية عسكرية في فلسطين لغرض السيطرة عليها تدريجياً .

وقد عمد نجيب نصار إلى نشر رواية من تأليفه في جريدته على شكل حلقات بعنوان (مفلح الغساني) وجد فيها زكريا ضالته ؛ فقد تتبع الروائي معاناة بطله مفلح في هربه ، عند نشوب الحرب العظمى ، من بطش الاتحاديين الأتراك بتهمة ميله إلى الإنكليز مما اضطره إلى التنقل متخفّياً بين مدينته حيفا وأماكن مختلفة قادته إلى دمشق مدركاً أنه لو ألقي القبض عليه فسيكون نصيبه النفي أو الحبس أو التشهير أو الجلد أو السوق إلى الديوان العرفي . ولعل ما صدم زكريا حقاً تشخيص بطل الرواية الصائب للرعب الذي بذره جمال باشا في النفوس بوساطة الديوان العرفي ؛ فأصبح الكثيرون يعمدون إلى الوشاية لإنقاذ أنفسهم (حتى أن الأخ كان يشي أحياناً بأخيه . وكان المتزلفون يتزاحمون على باب مقرّه ليتقربوا منه للدس على بعضهم بعض . . حتى بلغ الأمر بأن عمد والد أحد الشهداء إلى لقاء جمال باشا السفاح حين مر بجنين للسلام عليه متناسياً أنه هو الذي سفح دم ابنه . وكان ذلك سبباً لاعتزاز السفاح بنفسه ؛ إذ تحقق أن البلاد ليس فيها رجال أشداء يخشى بأسهم ، فلم يحترم أحداً . . . واحتقر جمال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طبعاً الأمة التي تعبد زعماء ويتظاهرون كذباً بالرضا عن تعليق أبنائهم على أعواد المشانق) .

وتمثلت ذروة الرواية باكتشاف بطلها للخيبة التي أوقع الإنكليز بها العرب بإصدارهم وعد بلفور :

(أحس مفلح بقشعريرة ، وقال لنفسه : أيمكن أن يكون صحيحاً ما قالته الجرائد التركية عن أن الحكومة الإنكليزية وعدت اليهود بأن تعطيهم فلسطين ، وأن نكون نحن العرب مخطئين في تأويلنا هذه الدعاية ، واعتقادنا أن الأتراك يقومون بها ليضعفوا ميول العرب إلى الإنكليز وثقتهم بهم؟) .

لقد هزّ هذا الأمر زكريا من الأعماق ؛ فقد اكتشف في إسماعيل الذبيح نموذجاً لبطل الرواية مفلح ، بل لعله فاقه بمراحل ؛ فقد تقلّبتْ به الأحوال دون اختيار منه - منذ هربه من رجال الجندرمة والتحاقه بحركة المجاهدين لاسترداد مدينة البصرة من المحتلين البريطانيين - لتضعه في النهاية - عند لقائه أصدقاءه في العقبة واكتشافهم المحزن اتفاقية (سايكس - بيكو) و(وعد بلفور) - إزاء قرار نهائي بالانسحاب من الجيش العربي وما ترتّب على هذا القرار من إسهام في التصدّي للغزو الفرنسي في واقعة ميسلون ، ومشاركة فعلية في الثورة السورية ، ليلعب بعدها دوراً كاد يكلفه حياته في ثورة البراق انتهى بإيداعه سجن عكا .

(٨)

لقد زاد هذا الاكتشاف زكريا إعجاباً بزوج أخته ترجمه بإغداق رعايته على ابنه عطا الذي كان يملأ البيت بفوضاه الساحرة وهو يكركر بضحكاته قبل أن ينفجر بالبكاء بسبب تعثره وسقوطه وهو يستميت لتعلّم المشي .

وكان زكريا يجد لذة لا توصف في ملاحقة ابن أخته ذاك وهو يقوم بـ(مغامراته) اليومية في الحوش بين حبو وخطوات متعثرة يتخللها الضحك والبكاء ، والسعي الدائم لاكتشاف أي جديد ؛ إذ كان يكفيه العثور على عشبة نامية قرب السور الصخري الواطئ المحيط بالبئر ليتأملها طويلاً قبل أن يقتطعها مواصلاً حبوه في أرجاء الحوش متوقفاً باستياء عند أبواب الغرف المغلقة ، مستنداً بكفيه الطريتين إلى أولى درجات السلم المؤدي إلى السطح وقد رفع وجهه المستدير متأملاً بذهول زرقة السماء ليعود بعدها إلى مواصلة تجواله الذي كان ينتهي بتلك الغرفة التي يتردد فيها ذلك الدقّ الرتيب حيث أمه فاطمة جالسة أمام نولها تمضي قدماً في حياكة بساط جديد ، فيتشبث بذيل ثوبها ويشرع في البكاء مما يضطرها إلى الكفّ عن مواصلة عملها والانصراف إلى رعايته بادئة ذلك بإرضاعه وهي ترمق شقيقها زكريا بنظرة باسمة .

صورة كانت تعيد زكريا إلى طفولته ، إلى تلك الفترة التي تعلّق فيها بأخته ؛ فعقب موت أمه ، وهو في الثانية من عمره ، وجد في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فاطمة البديل عنها : تعمل جهدها على إرضائه موفّرة له ما تكون به حاجة إليه ، فكان لا يكاد يفارقها أينما تحركت في أرجاء البيت وقد تمسّك بذيل ثوبها منادياً إياها بكلمة (ماما) التي كانت تجعل أشقاءه الثلاثة يغرقون في الضحك فيحاولون عبثاً إفهامه أن فاطمة ليست أمه بل أخته . وهكذا لم يستطع زكريا أن يتجاوز ، إلا بصعوبة ، لذعة غيرة شعر بها يوم عادت فاطمة من عكا تحتضن ابنها عطا الذي ولدته هناك ؛ لأنه لم يعتد أن يراها تنصرف إلى رعاية غيره بكل هذا الحرص والاهتمام والحنان .

والحق أنه لولا اتصاف أخته فاطمة بكل تلك الصفات لما كان في المستطاع التنبؤ بمصير أسرتهم التي تركت دون معيل منذ سوق رمزي إلى الخدمة العسكرية ؛ فبرغم أنها بدورها كانت تكاد تكون طفلة إلا أنها عرفت كيف تدير أمور تلك الأسرة اليتيمة لتستمر في أداء مهمتها (البطولية) حتى عودة رمزي المسكين بذراع واحدة لتعمل بعدها جهدها على تزويج أشقائها الواحد عقب الآخر : فزوّجتْ منيف من فتاة يتيمة من بيت لحم حيث استقر هناك مطوّراً عمله بتزيين الصلبان وإطارات الصور والمرايا بالأصداف فضلاً عن عمل التماثيل الصغيرة من خشب الزيتون . كما زوّجت شقيقها الآخر حليم الذي استأجر له بيتاً في حي الشيخ جراح الواقع شمالي القدس حيث يعمل في تنقير الحجارة . وكان آخر من زوّجتهم هو شقيقها الأثير إلى قلبها سميح هذا الذي كان لا يضيره كثيراً مناداة أشقائه له باسم سميحة معيرين إياه بـ(ميوعته) وميوله الأنثوية المتمثلة بمساعدة فاطمة في إعداد بعض الطبخات – ولا سيما الحلويات – أو عمل الخبز على الطابون!

وبلغ تعلّق فاطمة بسميح أنها لم تأذن له ، عقب زواجه ، بترك

بيت الأسرة والسكن خارج القدس القديمة في منطقة الشماعة إلا بعدما تمكّن رمزي من إقناعها بأن هذا الانتقال في صالحه ؛ وذلك لقرب تلك المنطقة من جورة العناب حيث تقوم ورشته للحدادة وسط ورش الحدادة والنجارة والسباكة في سوق نشأت هناك حديثاً ، بل حاولت جهدها إقناع رمزي بفكرة الزواج لولا إصرار هذا على الرفض ليكرر وهو يلوح ببقية يده المقطوعة :

- ومن التي تتورط بالزواج من إنسان معطوب مثلي؟

وكان يضيف بأسى :

- ليست الفتيات كلهن على شاكلتك يا أختاه .

تماماً ؛ لم تكن الفتيات كلهن على شاكلة فاطمة : فقد اعتاد زكريا أن يراها مرابطة أمام نولها أغلب ساعات النهار تعمل جهدها على زيادة دخل الأسرة وهي تعيش انتظاراً جديداً ؛ فبعدما سبق لها أن انتظرت إسماعيل تسعة أعوام قبل أن يستقرّ نهائياً في القدس ، ها هي محكومة بانتظاره مرة أخرى على أمل أن تتوج انتظارها هذا برؤية صغيرها عطا وهو يندفع مهرولاً ليرتمي في حضن أبيه لحظة انفتاح باب البيت على قامته وقد عاد .

تلك كانت أمنية فاطمة التي كانت تكاشف بها زكريا ، وكان زكريا بدوره يشاركها في ذلك الانتظار مع توجّسه من أن هذا الانتظار المرير لا يبعد أن ينتهي بكارثة ؛ فها هي التظاهرات تنفجر في شوارع القدس مجدداً ، والجميع ينادون في هتافاتهم بضرورة العمل على التسلّح وتوجيه الثورة ، هذه المرة ، ضد الإنكليز لكونهم المسؤولين المباشرين عما يحدث .

والتحق زكريا ، عقب إنهائه المرحلة الثانوية ، بالمرحلة الدراسية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخاصة بالهندسة ، فكان يتوجه صباح كل يوم إلى المدرسة الرشيدية ، ونصيحة فاطمة تتردد في ذهنه بضرورة تجنّب الاشتراك في تلك التظاهرات بحجّة أن الأسرة قد دفعت حتى الآن ما يكفيها من خسائر : بتر ذراع رمزي وسجن إسماعيل .

وكانت الأخبار التي يتبادلها مع زملائه في المدرسة تتعلق بـ(عصابة الكف الأخضر) وزعيمها أحمد طافش الذي أفلح في الإفلات من أيدي الإنكليز عقب قمع ثورة البراق فلجأ إلى التلال المحاذية للحدود السورية حيث التحق بمجموعته عدد من الثوار الدروز أخذ يقودهم في غارات بدأوها بالهجوم على الحي اليهودي في صفد .

وكان زكريا قد اعتاد المرور ، بعد انتهاء الدوام ، بحديقة البلدية والأمة للاطلاع على آخر الصحف فضلاً عن حضور تلك الندوات التي كانت تعقد في حديقة الأمة والتي كان يخصص بعضها لمناقشة الأوضاع في فلسطين .

وغالباً ما كان يفكر بقضاء سحابة نهاره في ورشة شقيقه سميح للحدادة : فيمر بحيّ جورة العناب الذي يشرف عليه سور القدس وقلعة النبي داود ، فيجتاز تلك السوق الضاجة بلغط المارة ونداءات الباعة المتجولين وقرع المطارق حيث تقوم على الجانبين ورش الحدادة فضلاً عن ورشتين أو ثلاث للنجارة والسباكة . وكان سميح يخفّ لاستقباله وسط ورشته المكتظة بالأدوات الحديدية ؛ ففضلاً عن المطارق والمبارد والملازم كانت المقاعد والكراسي والمناضد والطاولات والخزانات والرفوف كلها دون استثناء مصنوعة من حديد .

كان يستقبله بفرح حقيقي لم يكن يكتفي بالإفصاح عنه باحتضانه وتقبيله فحسب ، بل بإصدار الأوامر إلى عماله بترك ما كانوا

منشغلين فيه من أعمال والانصراف لخدمة شقيقه الصغير : فيبعث أحدهم لجلب الكعك بالسمسم من بائع بقي مرابطاً أمام ورشته طوال ساعات ليغيب في اللحظة التي جدّت الحاجة فيها إليه ، آمراً آخر بالمرور بصاحب المقهى ليذكّره بضرورة عمل شاي جديد بالهال ، منبهاً آخر على توصية صاحب مطعم معين بإعداد وجبة من المشويات وجلبها في الوقت المناسب .

وكان سميح ، طوال إصداره تلك الأوامر ، يخصّ زكريا بابتسامات ترحيب كلما التقت نظراتهما مذكّراً إياه بذلك الحنان العجيب الذي اعتاد أن يحيطه به منذ طفولته حتى الآن!

وبعدما كان سميح ينتهي من مهمة الترحيب كان ينصرف إلى توفير الأسباب التي تشجّع أخاه على المرابطة في ورشته أطول مدة ممكنة ؛ فيرفع صوته منبهاً صاحب ورشة النجارة المقابلة على وصول شقيقه ؛ ذلك لإدراكه مدى استمتاع زكريا بمبادلته الأحاديث في الأمور الراهنة التي تعصف ببلادهم . وسرعان ما كان يقدم ذلك النجار النحيف بنظارتيه اللتين كانت عدستاهما السميكتان ملطختين ، على الدوام ، بالغبار حتى أن زكريا كان يكبح بصعوبة رغبة قاهرة بانتزاعهما عن أنفه والتبرع بتنظيفهما بمنديله نيابة عنه .

ولم تكن حلقتهم تكتمل إلا حينما يلتحق بهم صاحب مسبك كان يُعدّ نفسه أحد مثقفي تلك السوق وذلك لكونه خرّيج مؤسسة شنلر الألمانية . وكان قصير القامة متين البنيان دائم التذمر والاستياء ، وثمة سيجارة مستقرة ، على الدوام ، خلف إحدى أذنيه هي من مخلّفات فترة أدمن خلالها على التدخين ، لا يدخّنها عادة إلا عند الضرورة . وبقدوم الشاي كان زكريا يلاحظ أخاه سميح وقد انزوى على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كرسيه مراقباً إياه باعتزاز - فهو يعرف أنه يعدّه فخر الأسرة ؛ ألم يقضِ أكثر من نصف عمره في التعلّم في المدرسة الرشيدية؟ - وكان سميح يسارع بالوثوب عن كرسيه ، مع مرور كل بائع جديد ، ليشتري لضيوفه شراب السوس مرة أو الخروب أخرى أو قطع التفاح الأحمر المشرّبة بالسكر مجبراً زكريا على تناول ما يقدمه إليه لينصرف بعدها إلى تأمله مأخوذاً!

وكانت الأحاديث التي يتبادلها زكريا مع النجار والسبّاك لا تخرج عن نطاق تلك الأحداث التي كانت تعصف ببلادهم منبئة بأنهم مقبلون على فترة عصيبة من تاريخهم ؛ فكلّما استجدّ أمر ما على جانب من خطورة عمدوا إلى التطرّق إليه مشبعين إياه بحثاً وتمحيصاً . وكانت لجنة شو[١] قد شكّلتْ محور إحدى جلساتهم ؛ إذ إن النجار أصرّ على كون هذه اللجنة واحدة من أهم اللجان التي قدمت إلى بلادهم حتى الآن ؛ ذلك بسبب أنها مثّلت الأحزاب الثلاثة المتنفذة في بريطانيا فأنيطت رئاستها بقاضي القضاة السير والتر شو .

---

(١) لجنة شو : هي تلك اللجنة التي عينتها الحكومة البريطانية برئاسة القاضي السابق (والتر شو) وعضوية ثلاثة نواب من البرلمان البريطاني يمثل كل واحد منهم حزباً من الأحزاب البريطانية الثلاثة لغرض التحقيق في الأسباب المباشرة التي أدت إلى اضطرابات عام ١٩٢٩ والتي عرفت باسم (ثورة البراق) ، وباشرت مهمتها في أواخر تشرين الأول من السنة نفسها ، واستمعت إلى شهود كثيرين من ممثلي السلطات الحكومية وكبار موظفي الإنكليز ومندوبي الهيئات العربية واليهودية ، وطافت في البلاد ثم قفلت عائدة إلى لندن بعد مرور شهرين من بدء مهمتها لتقدم تقريرها إلى وزير المستعمرات .

وبرهن على قوله بجرأة هذه اللجنة التي دفعت بها إلى كشف انحياز سلطة الانتداب إلى جانب اليهود ، هذا الانحياز الذي فضح نفسه بإضافة مادة خاصة إلى دستور فلسطين كان الغرض منها إضفاء صبغة شرعية على سلب الأراضي من الفلسطينيين لتسليمها لليهود ؛ ذلك لأن المادة الجديدة خوّلت المندوب السامي الصلاحية نفسها التي كانت أحكام الشرع الإسلامي قد خولت السلطان العثماني صلاحية تحويل الأراضي الميري إلى (أراضٍ ملْك) ، فعلّق السبّاك بعدما تململ طويلاً على مقعده :

- لا يُعقل أن تكون فلسطينياً مدركاً بخفايا الأمور وتولي لجنة على هذه الشاكلة كل هذه الأهمية!

فتساءل النجار ببراءة وهو يطرف بعينيه من خلف العدستين المغبرّتين :

- كيف ذلك؟ أوَلم تعقد هذه اللجنة سبعاً وأربعين جلسة علنية وإحدى عشرة جلسة سرية استمعت خلالها إلى ست مئة وعشرة شهود من موظفين عرب ويهود؟

- وهل تُقاس أهمية لجنة ما بعدد الجلسات التي تعقدها أو الشهود الذين تستجوبهم؟

- لا بطبيعة الحال ، بل ما يؤكد أهمية لجنة شو كونها رفعت تقريراً إلى وزارة المستعمرات في بريطانيا رأت فيه أن سبب الاضطرابات الأخيرة يعود إلى شعور العرب بالعداء والبغضاء لليهود بعدما خابت أمانيهم السياسية والوطنية وتعزز خوفهم على مستقبلهم الاقتصادي ، مع شعورهم بأنهم سيحرمون من وسائل عيشهم ، وسيسيطر اليهود عليهم سياسياً بسبب هجرتهم المستمرة وشرائهم الأراضي .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ولكن السؤال الجوهري يا صديقي هو : هل تفهّمت الحكومة البريطانية مغزى هذه المشاعر؟

سؤال ختم السباك به تلك الجلسة دون أن تسنح له الفرصة لتدخين سيجارته اليتيمة المثبتة خلف أذنه ؛ ذلك لاضطراره إلى العودة إلى ورشته تلبية لرغبة أحد زبائنه ، وعاد زكريا بدوره إلى البيت وقد أتخم شقيقه سميح جيوبه بأكياس يحوي أحدها على حبات ملبس ، وآخر على حلوى النعومة لعطا ، فضلاً عن معجّنات وأرغفة خبز بالزعتر لفاطمة .

(٩)

وبقيت الهموم التي أفصحوا عنها ، في تلك الجلسة ، تشغل زكريا على مدى أشهر كانت الاضطربات خلالها في تصاعد مطرد حتى أنه تعمّد ، ذات يوم ، المرور بورشة شقيقه سميح ليجدد لقاء السباك والنجار سعياً منه ليفهم مغزى ما يحصل إذ سارع ، حال وصولهما ، إلى إثارة الموضوع سائلاً النجار عما تمخض عنه عمل لجنة شو؟ فأجابه هذا طارفاً بأجفانه من خلال العدستين المغبرّتين :

– لقد استجابت الحكومة البريطانية لتقرير لجنة شو بإيفاد السير جون هوب سمبسون(١) للتحقيق في مسألتي الهجرة والأراضي .

واستدار نحو صاحبه السباك ليخصه بسؤال مفحم :

– أتدرك أهمية خطوة على هذه الشاكلة؟

– سأترك لعبقريتك كشف هذه الأهمية قبل أن أفصح لك عن رأيي!

---

(١) السير جون هوب سمبسون : هو الخبير العالمي في مسائل الإسكان والأراضي الذي أوفدته الحكومة البريطانية إلى فلسطين كي يدرس مسائل الهجرة والإسكان والأراضي وترقية الشؤون الإقتصادية ، وقد وصل إلى فلسطين في شهر مايس عام ١٩٣٠ وأقام فيها شهوراً طاف في اثنائها في البلاد باحثاً ومطلعاً على جميع المصادر الحكومية وغيرها ، ثم رفع تقريره إلى وزير المستعمرات في أواخر شهر آب ١٩٣٠ .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجابه السبّاك باستعلاء، فانطلق النجار يتحدث بحماسة عن طواف هذا المبعوث في مختلف أرجاء البلاد منقبّاً ومدققاً ليرفع في النهاية تقريراً إلى وزير المستعمرات فضح فيه انحياز سلطة الانتداب المطلق إلى جانب اليهود، مبدياً استغرابه من مغزى السماح ليهود من ليتوانيا أو بولونيا بالعمل في بلاد فيها شباب قادرون على ذلك ولا يجدون لأنفسهم عملاً ولا سيما أن اليهود يحرمون بشدة تشغيل غير اليهودي فيما يستولون عليه من أراض!

وهنا قاطعه السبّاك وقد فاض به الكيل:

- أيعقل أن تجهل أن غرض البريطانيين الرئيس من قدوم كل هذه اللجان لا يتخطّى تخدير الفلسطينيين وإضاعة وقتهم دون طائل في حين يمضون هم في تطبيق سياستهم القاضية بتهويد البلاد بموجب وعد بلفور المدعم بصك الانتداب الذي أقرّته عصبة الأمم؟!

لكن النجار مضى في عناده مصوّباً، في الوقت نفسه، عدستي نظارتيه العتيدتين نحو زكريا بنظرة استغاثة، فتحدّث هذه المرة عن الكتاب الأبيض الذي استند الإنكليز في إصداره إلى تقارير تلك اللجان مؤكدين فيه (عدم وجود أراضٍ في فلسطين صالحة لاستقرار المزارعين من المهاجرين باستثناء أراضي الوكالة اليهودية على سبيل الاحتياط).

فانفجر السبّاك صارخاً:

- سبحان الله!.. وما أهمية ذلك الكتاب وقد ألغاه الإنكليز بعد مرور عشرين يوماً فقط على إصداره؟ لقد تنصّلوا منه على أثر استقالة وايزمن من الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية فضلاً عن استقالة زملائه الصهاينة الآخرين. وليس هذا فحسب؛ بل إن الإذاعات الأجنبية تحدّثت مطولاً عن احتجاجات اليهود في أمريكا وأوربا

وقيامهم بتظاهرات صاخبة في مختلف البلدان استنكاراً لذلك الكتاب مع ما رافق ذلك من إرسال سيل من برقيات الاحتجاج من قبل ثمانٍ وأربعين دولة انهالت على عصبة الأمم مما دفع بأحد أعضائها إلى أن يتساءل ببراءة إن كانوا أمام مؤامرة عالمية؟

بيد أن النجار لم ينهزم ؛ فقد كان يتوهج حماسة حتى أنه بادر إلى انتزاع نظارتيه مطالعاً إياهم بعينين صغيرتين حسيرتي النظر محاطتين بحلقتين حمراوين . وبعدما مسح العدستين بأصابعه الملوثة بغبار النجارة أعادهما إلى أنفه ليتحدث ، هذه المرة ، عن انعقاد المؤتمر الإسلامي في القدس ليلة الإسراء والمعراج بحضور مندوبين من أكثر من اثنين وعشرين قطراً فضلاً عن إسهام عدد من كبار المفكرين والعلماء لينتهي بدعوة العالم الإسلامي إلى مقاطعة البضائع الصهيونية ووجوب وقف الهجرة اليهودية ، مقررين ضرورة إنشاء جامعة إسلامية في القدس فضلاً عن إنشاء شركة زراعية لإنقاذ أراضي فلسطين والحيلولة دون استيلاء اليهود عليها .

– صوغ القرارات شيء ، وتنفيذها شيء آخر يا صديقي ؛ إذ كيف السبيل إلى تطبيق هذه المقررات والأقطار الإسلامية محكومة بالاستعمار الإنكليزي؟

تساءل السبّاك بلؤم دون أن تأخذه شفقة بالنجار وقد اطمأن إلى أنه بصدد تحقيق انتصار كاسح عليه ؛ فاستطرد وقد استلّ سيجارته العتيدة من خلف أذنه ليدخّنها احتفاء بالفوز المرتقب :

– ثم لا تنسَ أن أثرياء العرب مقترون في مثل هذه الأمور على العكس من اليهود ؛ فبرغم اشتهارهم بالبخل لكنهم يسعون دائماً وأبداً ، وبكل الوسائل والسبل ، إلى جمع الأموال لدعم قضيتهم ليس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من البلدان الغربية فقط ، بل من البلدان العربية أيضاً!

وسكت السبّاك رامقاً زكريا بنظرة متواطئة ليقينه أنه يشاركه في إدراكه جهل (صاحبهم) تاركاً له مهمة الإجهاز على آخر آماله . وبرغم إشفاق زكريا على ضعف حجج النجار بيد أنه لم يكن يملك إلا الإقرار بصحة أغلب آراء السبّاك الذي تابع وهو ينفث الدخان في وجه النجار :

– لقد عمد المندوب السامي الجديد أرثر واكهوب إلى تبنّي هجرة ثلاثة وثلاثين ألف يهودي إلى بلادنا مؤخراً!

وهنا تدخّل زكريا مؤيداً :

– ذلك ما حصل فعلاً ؛ وبسبب ذلك بتنا جميعاً ، في هذه الأيام ، مهيئين للانفجار ؛ إذ لا تكاد تحل مناسبة وطنية – مثل ذكرى معركة حطين ، أو احتلال القدس ، أو ذكرى الشهداء ، أو يوم وعد بلفور – حتى نسارع إلى عقد اجتماعات شعبية مكرّسين إياها للدعوة إلى عدم التعاون مع سلطات الانتداب ، وضرورة مقاطعة حفلاتها ولجانها مع ما يرافق ذلك من تحدٍ لقوانينها .

وهنا انحنى السباك على المنضدة ليكلمهم بصوت خفيض حافل بالأسرار :

– لقد قررت اللجنة التنفيذية العربية تحدّي قانون منع التظاهر وذلك بالقيام بمظاهرة ضخمة يوم الجمعة الثالث عشر من تشرين الأول ، مظاهرة سيسمح للنساء ، أول مرة ، بالإسهام فيها!

وأضاف مخاطباً النجار بنبرة مصالحة :

– لذلك يفترض بنا ، نحن الرجال ، أن نكون سبّاقين للمشاركة فيها دون أن نولي اللجان القادمة من لندن وما شابهها من هراء أدنى اهتمام .

(١٠)

يوم الجمعة ، الثالث عشر من تشرين الأول ، بكّر زكريا في الذهاب إلى المسجد الأقصى متنصلاً بذلك عن وعده القديم لفاطمة بالامتناع عن الاشتراك في المظاهرات مستمدّاً من تحشّد مجموعة من النساء - بين مسلمات منقّبات ومسيحيات سافرات الوجوه - الحجّة على هذا الخرق . اتخذ المتظاهرون سبيلهم تلقائياً نحو درب الآلام ليتجهوا من هناك غرباً نحو كنيسة القيامة حيث الهتافات ضد الإنكليز شقّت عنان السماء لتتجاوب معها الأصداء المترددة بين جدران البيوت الحجرية والقناطر المعقودة فوق الرؤوس والمشربيات الممتلئة بالمتفرجين .

لم يكن زكريا يلمح على مدى البصر سوى بحر من الرؤوس ، رؤوس تعتمر الطرابيش وأخرى الحطة البيضاء والعقال ، ورؤوس ملفوفة بالملاءات ، وثمة قبضات مضمومة الأصابع ترتفع عالياً مهددة ومتوعدة . بيد أن تلك الأصوات النحيلة ، الأصوات الأنثوية الثائرة ، كانت تجعل عينيه تمتلئان بدموع الانفعال ؛ فكان يسارع بمسحها بظاهر كفه مطلقاً لصراخه العنان .

ما كادوا يقتربون من باب الخليل حتى لاحت لهم صفوف الخيّالة الإنكليز يسدون عليهم الطريق ، والخيول تراوح من تحتهم نافدة الصبر . ودوّتْ طلقات تحذير في الفضاء أعقبتها أصوات تدعو المتظاهرين إلى التفرّق ، لكن الحشود كانت تدفع بعضها بعضاً إلى الأمام على شكل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

موجات بشرية لا تكاد تنحسر إحداها حتى تغذّيها موجة جديدة .

وحدث ما كان متوقعاً : فقد خفّض رجال البوليس البنادق مصوبين الطلقات ، هذه المرة ، نحو الصدور ، ومع انطلاق العيارات النارية من جديد تساقط أكثر من واحد بين الأقدام ، وتصادمت الأجساد بعضها ببعض وكل واحد منهم ينشد النجاة . ولم يشعر زكريا إلا وهو ينجرف وسط مجموعة من الهاربين نحو زقاق جانبي والخيول تجدّ في أعقابهم من زقاق إلى آخر . وفجأة شعر بلسعة تكوي صدغه الأيمن ، ومعها ارتفعت كفه تلقائياً إلى ذلك الموضع فإذا بها تمتلئ بالدم . وتعثّر بغتة بجثة أحد المتظاهرين ؛ فتهاوى ساقطاً ليرتطم رأسه بباب بيت انفرج من فوره على مصراعيه ليرى نفسه وهو يتدحرج على امتداد ثلاث درجات أو أربع قبل أن يستقر على الأرض!

ما الذي حدث؟! سأل نفسه وهو يفتح عينيه بحذر على ضوء شمعة مثبّتة فوق خزانة خشبية إزاء صليب تدلّى منه تمثال صغير للمسيح . ولاحظ أن ملابسه غارقة بدم متيبّس .

هل أُغمي عليه فحُمل إلى هذه الغرفة دون أن يشعر؟

واكتشف أنه مضطجع على سرير في غرفة حسنة الأثاث تحيط به امرأتان : كهلة متينة البنيان ، وشابة تشع بياضاً وسحراً .

– اطمئن ؛ فجرحك ليس بالبليغ .

خاطبته الشابة وقد تسلّحت بمقصّ أخذت تزيل به ، وهي تمنحه بسمة اعتذار ، الشعر من خلف أذنه اليمنى ، فهرعت الأخرى تمدّ لها قنينة سكبت الشابة منها سائلاً على جرحه جعله يعضّ على شفته ليمنع صرخة ألم من الإفلات . ومن الخارج كانت تأتيه أصوات طلقات ، وخبب خيول تجيء وتذهب ، وصرخات ألم خيّل إليه وكأنها

تصدر عن ذلك المعلق على صليبه . ويبدو أنه نام ثانية ؛ فقد جفل مستيقظاً على همس يتردد خارج الغرفة ، فهبّ واقفاً مغالباً شعوراً مفاجئاً بالدوار . واستند إلى أقرب جدار قبل أن يخرج بخطى متعثرة وهو يفكر برعب بفاطمة واحتمال أن تكون قد أُصيبتْ الآن بمس من الجنون قلقاً عليه .

واستقبله في الرواق رجل كهل حليق الوجه يرتدي ملابس سوداً ابتسم له ورفع صوته منادياً المرأتين مسمياً الشابّة باسم ميلاد ، طالباً منه الانتظار لحظات ليتأكد من خلو الزقاق مما يريب قبل أن يغادر البيت . وقدمت المرأتان وكل واحدة منهما تنافس الأخرى في تأكيدها أنه في وسعه البقاء في ضيافتهما حتى صباح الغد ليطمئن إلى زوال أي خطر ، فكرر لهما شكره معتذراً لما سبّبه لهما من متاعب كانتا في غنى عنها ، فأجابته ميلاد وقد مطّت فمها الصغير بابتسامة رسمت من فورها غمازتين رائعتين على خديها :

- لم نقم إلا بما يفترض بأي فلسطيني القيام به في مثل هذه الحالة .

في الخارج كان الظلام دامساً حتى أن السبل اختلطت عليه ؛ فتحولت الأزقة من حوله أشبه ما تكون بمتاهة تطلبت منه وقتاً طويلاً قبل أن يهتدي إلى زقاق سرايا الست .

وفي البيت انقضّتْ فاطمة عليه كأنها تحاول الفتك به ، بيد أن منظره معصوب الرأس غارقاً في دمائه المتيبّسة جعلها تطلق صرخة رعب ، فاحتضنته مسندة إياه تاركة رمزي يسنده من الجانب الآخر موصّلين إياه إلى غرفته .

ولم يغادر البيت إلا بعد مرور فترة التأم الجرح خلالها بعض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشيء ونما الشعر مجدداً هناك . وكان البوليس البريطاني قد خفف من مداهماته البيوت في حملات مفاجئة لإلقاء القبض على من شارك في تلك المظاهرة .

وكان أول ما قام به زكريا هو التوجّه نحو درب الآلام ليذرعه في اتجاه كنيسة القيامة باحثاً عن بيت ميلاد ، ولكن دون جدوى ؛ فالبيوت والأزقة تشابهت من حوله بجدرانها الحجرية وبمشربياتها وقناطرها المعقودة فوق الرؤوس . لكنه لم ييأس ؛ كان واثقاً من أنه سيلتقيها يوماً ما ، وقد يحصل ذلك في واحدة من هذه المظاهرات التي باتت سمة ملازمة لمدينة القدس ؛ فبعد مضي أيام تقرر القيام بمظاهرة حاشدة تنطلق في مدينة يافا حيث ستلتقي حشود من مختلف المدن الفلسطينية ، وسرعان ما انتشر ، صباح اليوم التالي ، خبر تلك المجزرة التي أوقعها البوليس البريطاني بتلك المظاهرة مودياً بحياة ثلاثين رجلاً فضلاً عن جرح أكثر من مئتين!

وأخذت الاضطرابات تتصاعد بمرور الأيام ؛ إذ إن أعداد اليهود القادمين إلى فلسطين أخذتْ تتكاثف لتصل إلى ثلاثة وأربعين ألفاً ، ومن ثم إلى اثنين وستين ألفاً في السنة التالية ، فضلاً عن آلاف المتسللين دون الحصول على (أذونات) من سلطات الانتداب مما دفع بمجموعة من الشباب - أنضمّ زكريا إليهم - إلى محاولة مراقبة السواحل بأنفسهم لولا أن البوليس البريطاني منعهم عن ذلك بحجة أن عملهم ذاك غير قانوني . وكان قد أشيع خبر اكتشاف الإنكليز لشحنات ضخمة من الأسلحة والذخائر أتت من بلجيكا في براميل الأسمنت لتنقل من ميناء يافا إلى تل أبيب دون أن يتخذ الإنكليز أي إجراء بهذا الشأن .

ولعل أشد ما آلم زكريا وأثار اشمئزازه هو ذلك الخبر الذي حرصت الصحف اليهودية على نشره والذي مفاده أن وزير المستعمرات ملكوم مكدونالد خطب في حفل صهيوني أقيم في لندن لتكريمه وتكريم المندوب السامي واكهوب قائلاً :

- (إنني فرح جداً لأن اقتراح هجرة اليهود إلى كينيا قد أخفق ، وبصفتي وزيراً للمستعمرات أشكر الذين رفضوا اقتراح كينيا ؛ فنبوءة وايزمن تحققت وعاد اليهود إلى بلادهم ، ولو لم يعط وعد بلفور منذ ثماني عشرة سنة لأعطيناه اليوم) .

آنذاك كان زكريا قد عاود المرور بحديقة البلدية ليلتقي ، في القاعة الخاصة بالمطالعة ، عدداً من زملاء المرحلة الخاصة بالهندسة حيث اعتادوا متابعة آخر التطورات التي توّجت بإعلان الإضراب احتجاجاً يوم السابع عشر من تشرين الثاني موعد عودة المندوب السامي إلى فلسطين . ولم يكد يمر يومان حتى فوجئ زكريا ، لحظة وصوله إلى تلك القاعة ، بزملائه وقد علا الوجوم وجوههم ، وحينما سألهم عن الأمر أخبره أحدهم باستشهاد عزّ الدين القسّام!

فتهالك زكريا جالساً على أحد الكراسي مستعيداً مع نفسه بطولات هذا المقاوم الذي شهدت منطقة المثلث العربي (جنين ، نابلس ، طول كرم) العديد من عمليات الاغتيال للضباط الإنكليز ، فضلاً عن نسف القطارات ومهاجمة المعسكرات البريطانية ، وقتل الفلسطينيين الخونة الذين ثبت اتصالهم بالإنكليز لأغراض التجسس على أبناء شعبهم .

وعلّق واحد من الحضور :

- يشاع أن الإنكليز أوقعوا بهذا البطل على أثر مقتل شاويش

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بريطاني في بيسان وما أعقب ذلك من قتل الإنكليز واحداً من أفراد مجموعة القسّام عند أحراش (يعبد) قرب مدينة جنين ؛ فمنذ ذلك اليوم عمدت القوات الإنكليزية إلى تطويق تلك الأحراش تساندها طائرات استكشافية .

(١١)

حينما كانت فاطمة تحاول أن تحدد تاريخ إطلاق سراح زوجها إسماعيل الذبيح كانت تعمد إلى اتباع تلك الطريقة الشعبية التي اعتاد الناس في زمانها اتخاذها (روزنامة) لأهم الأحداث :

- حدث ذلك في الأشهر المحصورة بين استشهاد الشيخ عز الدين القسّام وبدء الإضراب الكبير الذي اشتهر باسم (إضراب الستة أشهر) .

وتضيف محاولة أن تكون أكثر دقة وتحديداً :

- يومها كانت شجرة اللوز في حاكورة البيت قد نوّرت وتفتقت براعمها عن تلك الزهور البيض والحمر .

وتترك للسائل مهمة تحديد ذلك التاريخ بين أواخر شباط وأوائل آذار - موسم إزهار اللوز - لتسترسل في سرد ذكرى ما حصل :

- كنت أتطاول على أصابع قدميّ محاولة الإمساك بأكثر الغصون كثافة بالزهور لأقتطعه لعطا حين تنبهت له يقف على مبعدة أمتار مني بلحية كثة لم أعتد أن أراه فيها!

كان هو إسماعيل الذبيح يقف في الموضع نفسه الذي رأته فاطمة يقف فيه أول مرة منذ ثمانية عشر عاماً حين قدم في صحبة شقيقها رمزي من الحجاز . تبادل الاثنان النظر لحظات وكأنما يحاولان التأكّد من حقيقة ما يحصل ، ولولا أن عطا سحبها من ذيل ثوبها لبقيت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واقفة تغالب وجيب قلبها الموشك على الانفجار . ولم يحدث ما حلمت به طويلاً من أن ترى ابنها وهو يهرول راكضاً ليرتمي في حضن أبيه لحظة وصوله ؛ ذلك لأن عطا زاد من تشبّثه بثوبها وهو يتطلع نحو أبيه بريب .

يومذاك ضج البيت بأصوات المستقبلين : هرع رمزي وزكريا معانقين إسماعيل ، كما قدم الجيران : رجال لم يسبق لهم أن بادلوا إسماعيل أكثر من تحيات عابرة ، أخذوه بالأحضان ، عانقه الجميع عدا فاطمة التي لم ترفع عينيها عنه لحظة واحدة وكأنها لا تزال غير مصدّقة حقيقة ما يجري!

لم تمضِ ساعات حتى امتلأ البيت بضجة شقيقيها حليم وسميح اللذين قدما بأسرتيهما وأطفالهما الصاخبين . ولم يكد يحلّ العصر حتى قدم منيف بأسرته من بيت لحم ساحباً خلفه خروفاً شدّ حبله إلى وتد قرب البئر ، أما من الذي أبلغه بالأمر وهو في تلك المدينة التي تبعد مسافة عشرة كيلومترات عن القدس؟ فهذا ما لم يسأل عنه أحد . وكان سميح - كما هو متوقع منه - قد شدّ وسطه ليساعد فاطمة في إعداد عشاء لائق بذلك الجيش الجرار ، مجابهاً تعليقات أشقائه الساخرة ، وهم ينادونه باسم (سميحة) ، بهزّ ردفيه بحركات ماجنة وهو يتحرك هنا وهناك عامداً إلى شحذ سكين ضخمة انقضّ بها على الخروف ليشرع في ذبحه وسط احتجاجات عطا المصعوق الذي انفجر في البكاء لحظة اندفع الدم أحمر شاخباً من الرقبة المحزوزة التي كانت القصبة الهوائية لا تكف فيها عن الاختلاج ، ليصيح بخاله مترجماً ما يحمله تجاهه من مشاعر الحقد بكلمة واحدة :

- أكرهك!

فضحك سميح ، وأجابه وهو يمسح سكينه بصوف الذبيحة وقد تهيّأ للبدء بالسلخ :

– لكنك ستشكرني يا ابن أختي حين تزكم رائحة الشواء أنفك المرهف بعد ساعات!

وتجمّعوا ليلا في غرفة رمزي ليرتفع لغطهم فوق صوت المذياع الذي لم يفكّر أحد بإغلاقه . حدثهم إسماعيل طويلاً عما جرى له في السجن . بيد أن فاطمة لم تولِ سمعها لما يقول ، مكتفية بمراقبته من بين رؤوس المحيطين به ، ملاحظة التغييرات التي طرأت عليه ؛ إذ إنه كان قد نحل بعض الشيء ، وازدادت لحيته وشعر رأسه ، الذي خف عند القمة ، بياضاً . وفي ساعة متأخرة من الليل تسنّى لها أخيراً الانفراد به في غرفتهما مودعة بغمزات زوجات أشقائها وبهمساتهن الشبقة . وكان عطا قد نام في سريره وانتظمت أنفاسه ، وخيل إليها أن زوجها نام كذلك لولا أنها سمعته يناديها في الظلام هامساً :

– فاطمة .

فاكتفت بأن مدت كفها متحسسة بها سبيلها نحو كفه .

– ظننتك نائمة .

تابع ليضيف وهو يسحبها نحوه :

– الكارثة قادمة يا فاطمة ؛ فالعالم كله مع هؤلاء اليهود المتقاطرين علينا من شتى بقاع الأرض!

واستطرد بصوت متهدج وقد احتضنها بإحكام :

– ولكن ذلك لا يعني الإقرار بالهزيمة ؛ لأن المستقبل سيكون لنا . . وسلاحنا لتحقيق ذلك يتمثل بأن ننجب المزيد . . والمزيد . . والمزيد من الأطفال!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منذ ذلك اليوم تفاقم قلق فاطمة أكثر بعدما تعددت مصادره ؛ ففضلاً عن قلقها الدائم على زوجها إسماعيل الذبيح الذي بات عنصراً مريباً في نظر البريطانيين : يستدعونه ، من حين إلى آخر ، إلى مركز البوليس لا لشيء سوى تذكيره بأنهم لا يكفّون عن مراقبته في حركاته وسكناته ، كان هناك أيضاً وحيدها عطا الذي كبر في غفلة منها وحلّ موعد تسجيله في المدرسة في الموسم القادم . كانت تحلم أن يسجل في مدرسة خاله زكريا المدرسة الرشيدية لولا أن تفجّر الأحداث جعل ذلك ضرباً من المحال ؛ إذ كيف يطاوعها قلبها أن تتركه يجتاز كل تلك المسافة الفاصلة بين البيت وتلك المدرسة في وقت عصيب مثل هذا الوقت؟

(١٢)

وكانت الشرارة الأولى للاضطرابات قد اشتعلت في الخامس عشر من نيسان حينما انتشرت شائعة عن ظهور مجموعة سرية من المجاهدين الفلسطينيين نشطت على طريق نابلس طولكرم هاجمت تجمّعاً لليهود لتقتل منهم ثلاثة ، فعمد اليهود بدورهم ، في الليلة التالية ، إلى قتل عربيين قرب مستعمرة (بتاح تكفا) . وسرعان ما انقلبت جنازة أحد هؤلاء القتلى اليهود إلى مظاهرة في تل أبيب رافقتها اعتداءات على العرب الذين قابلوها بمثلها ؛ فوقع بين الفريقين عدد من القتلى والجرحى مما دفع بسلطة الانتداب إلى فرض نظام منع التجول في يافا وتل أبيب من المساء حتى الصباح . وأُعلن قانون الدفاع الذي خوّل المندوب السامي وضع قانون الطوارئ موضع التنفيذ .

وكانت فاطمة تلمّ بتلك الأحداث وهي قابعة أمام نولها تواصل حياكة البسط ؛ ذلك لأن جاراتها اعتدن المرور بها يومياً ليتبادلن آخر الأخبار . حتى إذا ما أفرغن ما في جعبتهن غادرنها تاركات إياها نهباً للقلق ، فكانت تنتظر قدوم الليل وتجمّع رجال البيت الثلاثة على مألوف العادة ، في غرفة رمزي - حيث تدور عليهم بأكواب الشاي وبآخر ما عملته لهم من معجنات مضيفة إليها أحياناً بما تحتفظ من حفنات لوز - على أمل أن تسمع منهم ما يكذّب مخاوفها تلك ، ولكن عبثاً ؛ فأحاديثهم لم تكن تخرج عن نطاق تأليف لجنة قومية في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نابلس ، ودعوة الفلسطينيين إلى إعلان الإضراب المستمر حتى يتم إيقاف هجرة اليهود إلى البلاد .

وكان زكريا أكثر الثلاثة حماسة في أحاديثه عن تأليف لجان في سائر المدن والقرى لغرض الإشراف على سير الإضراب وكأنه نسي تماماً تلك الرصاصة التي كادت تودي به لولا أن الله ستر فلم يصب إلا بجرح في صدغه الأيمن سيظل أثره يلازمه إلى الأبد . أما رمزي فكان يثني باعتزاز على دقة تنظيم تلك اللجان التي عم بسببها الإضراب فلسطين كلها ؛ فانتاب الشلل القطاع التجاري والصناعي ، وأوقفت الدراسة في المدارس . وحتى بحّارة ميناء يافا شاركوا في الإضراب ، وكذلك كان الشأن مع سائقي السيارات الذين يعود إلى إضرابهم الفضل في تعطيل السير بين مختلف المدن ، بل شمل الإضراب حتى المساجين كما حدث في سجن (نور الشمس) مما اضطر مدير البوليس الإنكليزي هناك إلى إطلاق النار عليهم مسبباً في استشهاد واحد منهم .

وكان ما يعجب إسماعيل في هذا الإضراب اتفاق الأحزاب واللجان القومية على تأليف لجنة عربية عليا للإشراف على هذه الحركة وإناطة قيادتها برئيس المجلس الإسلامي الأعلى أمين الحسيني ، وعضوية ممثلي الأحزاب الأخرى : الفرد روك ، والدكتور حسين الخالدي ، ويعقوب الغصين ، وجمال الحسيني ، وعوني عبد الهادي ، وأحمد حلمي باشا ، وراغب النشاشيبي ، ويعقوب فراج ، وعبد اللطيف صلاح ، ومحمد عزة دروزة ، وفؤاد سابا ، هؤلاء الذين أعلنوا أنهم لن يوقفوا الإضراب إلا بعد الاستجابة لمطاليب الجماهير المتمثلة بإيقاف الهجرة اليهودية نهائياً ، وضرورة منع انتقال الأراضي

الفلسطينية إلى اليهود ، فضلاً عن تأليف حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي .

وكانت فاطمة قد اضطرّت إلى التخلي عن طريقتها القديمة في الاعتماد على نفسها في تسوّق مؤونة البيت بعد تفاقم الأحداث معوّلة في ذلك على أشقائها الذين لم يبخلوا عليها بكل ما تكون بها حاجة إليه ، محذرين إياها من التجوال ، كما اعتادت من قبل ، بين أسواق الفاكهة والخضر واللحامين ؛ لأن التظاهرات قد بلغت الذروة لتتوج بحصول اشتباكات مع البوليس البريطاني سببت في استشهاد الكثير من الشباب مما اضطر اللجنة العليا إلى عقد مؤتمر في القدس حيث تقرر إعلان العصيان المدني وذلك بالامتناع عن دفع الضرائب وما أعقب ذلك من تطور الأحداث إلى ثورة مسلحة تمثلت بالهجوم على المستوطنات اليهودية ، وتدمير خطوط السكة الحديد ، وقلب القاطرات ، ونسف الجسور ، وتخريب الطرق ، وقطع أسلاك الهاتف ، ومهاجمة المخافر .

في تلك الفترة العصيبة فوجئت فاطمة بثلّة من البوليس الإنكليزي تقتحم البيت لتلقي القبض على إسماعيل بحجة أنه من (أصحاب السوابق) . وكانت سلطة الانتداب قد ألقت القبض على المئات وبضمنهم أعضاء (اللجنة القومية) لتسجنهم في معتقلات (عوجا الحفير) وفي سجن (صرفند) مسوغة حملتها الشرسة بحرصها على إعادة النظام لتهيئة الجو الملائم لقدوم (لجنة ملكية) من بريطانيا لغرض التحقيق في أسباب القلق وسر شكوى العرب واليهود . ولم يطلق سراح إسماعيل ، لقاء كفالة رمزي ، إلا بعد مرور أسابيع . وحين انفردت فاطمة به ليلاً في غرفتهما حاولت أن تخفف عنه ؛ فبشّرته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بكونها حاملاً ، فهمس لها بعدما قبلها في جبينها :

– آن لنا الإيفاء بحق الشهيد محمد جمجوم علينا وذلك بإطلاق اسمه على الطفل القادم كما كان شأننا مع زميله الشهيد عطا الزير .

وأضاف مداعباً :

– وبذلك لم يبق أمامك سوى أن تشدي همتك متحفة إياي بذكرين آخرين لأحيي بأحدهما ذكرى فؤاد حجازي والآخر ذكرى صديقي القديم جابر البنا .

فعلقت فاطمة مبتسمة :

– ذلك ما يجعلني أدعو ربي أن يكون ما أحمله في بطني أنثى لأجنبها بذلك (قانون الطوارئ) الذي لا أسهل من أن يحكم بموجبه على كل من يرمي بمفرقعة أو يقطع سلكاً بالإعدام أو المؤبد!

– في هذه الحالة سأترك لك حق تسميتها .

أجابها إسماعيل وهو يحتضنها .

وكانت الأخبار التي ألمّتْ بها فاطمة ، على امتداد الأسابيع اللاحقة ، تفيد بتدفق المتطوعين العرب من العراق وسوريا وشرق الأردن وأبرزهم القائد فوزي القاوقجي الذي لهجت الألسن بذكر اسمه والثناء عليه . واضحت الثورة مرهوبة الجانب : تصدر بلاغاتها ونداءاتها تباعاً ، ورجالها يخوضون معارك شرسة ، بل إنها نجحت في إسقاط عدد من الطائرات البريطانية ، وتدمير المرافق الرسمية ، فضلاً عن تدمير أنابيب البترول القادمة من العراق في منطقتي حيفا ومرج ابن عامر .

وكانت آخر الأخبار تفيد بورود برقية من الملك السعودي إلى اللجنة العليا يبشّرهم فيها بموافقة الحكومة الإنكليزية على أن يوجّه

ملوك العرب وأمراؤهم نداء مشتركاً إلى الفلسطينيين يدعونهم فيه إلى وقف الإضراب لقاء استعداد البريطانيين إلى النظر في مقترحاتهم. وفي اليوم المشهود لإذاعة ذلك النداء اجتمع شمل الأسرة في غرفة رمزي حيث عمدت فاطمة إلى مسح المذياع بخرقة مزيلة عنه ما تعلق به من غبار وكأنها بعملها هذا ستجعل الصوت أكثر صفاء ووضوحاً. ولم تكد الساعة تدق معلنة الموعد المحدد حتى هدر صوت المذيع وهو يقرأ نص النداء الموجه من قبل عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية، وغازي ملك العراق، ويحيى إمام اليمن، وعبد الله أمير شرقي الأردن:

- (إلى أبنائنا عرب فلسطين: لقد تألمنا كثيراً للحالة السائدة في فلسطين، فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم للإخلاد للسكينة حقناً للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل، وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم).

واختير يوم الاثنين الثاني عشر من تشرين الأول لرفع صلاة الشكر إلى الله في المساجد والكنائس والصلاة في المسجد الأقصى على أرواح الشهداء. وأعلنت سلطات الانتداب أن عدد قتلاها بلغ خمسة وأربعين، والجرحى مئتين وستين، في حين بلغ قتلى اليهود الثمانين وجرحاهم الثلاث مئة. أما شهداء الفلسطينيين فقد بلغ عددهم المئتين وجرحاهم الثماني مئة وعشرة. في تلك الليلة همس إسماعيل إلى فاطمة وهو يتحسس بطنها المكوّر:

– في وسعنا الاطمئنان إلى أننا سنعوّض واحداً من هؤلاء الشهداء المئتين!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(١٣)

لعل من المفارقات التي كانت تثير انتباه زكريا احتمال كونه الشخص الوحيد الذي لم يسعد بانتهاء (إضراب الستة أشهر) ؛ فبقدر ما رحب الجميع بذلك الأمر – ولا سيما أن موسم جني الحمضيات كان قد أزف – فعادوا إلى ممارسة أعمالهم مستبشرين ، كان زكريا التعيس الوحيد بينهم ؛ ذلك لأن المظاهرات انفضت من حوله دون أن يلتقي فيها ميلاد مصادفة .

كان يجد في تلك التظاهرات فرصته الأخيرة لحصول تلك المعجزة : فبعدما ضيّع كل أثر لميلاد اكتشف مذهولاً أن الزمن مر به بسرعة عجيبة دون أن يتحقق ذلك اللقاء ؛ فحاول استثمار تلاحق تلك المظاهرات للعثور عليها : يحرص ، وسط ضجة الهتافات المتصاعدة إلى عنان السماء ، على تقليب النظر بين حشود النساء اللائي بات من المألوف أن يساهمن في تلك المظاهرات ملهبات بذلك حماسة الرجال ، باحثاً عن ذلك الوجه الذي يشع بياضاً والذي يزدان بغمازتين فاتنتين مع كل ابتسامة ، حتى إذا ما خيّل إليه أنه وقع على بغيته تصاعد وجيب قلبه وهو يمعن في مطاردة تلك الفتاة حتى باب بيتها ليرتد على عقبيه خائباً لحظة التفاتتها نحوه رامقة إياه بنظرة استنكار لكونه أمعن ، دون حياء ، في ملاحقتها!

بيد أن خيبته لم تكن تطول ما دامت المظاهرات مستمرة دون أن

يخامره الظن باحتمال انتهاء الإضراب . حتى إذا ما حصل ذلك على غير توقع عاد يذرع درب الآلام وحيداً وسط ذلك الخليط من سكان المدينة المتوزعين بين مسلمين ويهود ومسيحيين من روم ولاتين وأرمن وسريان وأقباط وأحباش .

كان يصعد ويهبط تلك المسالك الضيقة التي تحف بها الأبنية الحجرية من الجانبين ، تتخللها تلك الكنائس التي أقيمت بعدد المراحل التي قطعها المسيح وهو يرزح تحت ثقل صليبه بدءاً بموقع قرب باب الأسباط وانتهاء بكنيسة القيامة التي أقيمت فوق تل الجلجلة حيث تم الصلب . وكثيراً ما وقف هناك متأملاً تلك الواجهة الحجرية الشاهقة التي تتخللها بوابة خشبية مفتوحة المصراعين ، يحوم بالقرب منها أعداد من المتسولين الذين يسارعون بمد الأكف نحو أي قادم جديد .

وكان يستمتع أحياناً بمراقبة حشود الداخلين والخارجين وهم يحتفلون بإحدى المناسبات الدينية ؛ فيلبث واقفاً في موضعه متأملاً وجوه الرهبان والحجاج والسياح في اختلاف سحنهم بين بيض وسمر وصفر وسود ، وكأنهم قدموا من شتى بقاع الأرض مختصرين الأعراق البشرية كلها دون استثناء . وحدث ذات يوم أن جفل على بياض وجه شع وسط تلك السحن ؛ فحاول أن يتقدم وهو يغالب وجيب قلبه ؛ ذلك لأن صاحبة ذلك الوجه الساحر لم تكن غير ميلاد نفسها!

رآها تخرج من تلك البوابة لتجول بعينيها حولها - مارة بهما عليه - قبل أن تواصل السير وفي أعقابها أمها وأبوها وهو بملابس الرهبان . تجمّد في موضعه لا يريم حراكاً ، ملاحقاً بعينيه هؤلاء الأشخاص الثلاثة وهم يدرجون مبتعدين عنه لينعطفوا إلى أحد الأزقة الجانبية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حينها فقط استفاق من ذهوله مكتشفاً مبلغ غبائه لأنه بدد تلك الدقائق الثمينة ؛ فانطلق في ذلك الاتجاه مشيعاً بلعنات متسول شاء له سوء حظه الاصطدام به . لكنه سرعان ما أدرك أنه ضيّع مجدداً كل أثر لميلاد ؛ فذلك الزقاق الجانبي الذي انعطف إليه تفرّع إلى أزقة متعددة ، تحفّ بها واجهات بيوت تتشابه بكونها تتألف من طابقين وقد ازدانت بالمشربيات المعهودة التي تكاد تحجب زرقة السماء ، فقفل عائداً إلى موضعه السابق قرب مدخل الكنيسة متجاهلاً المتسول الذي استقبله بنظرات عدائية . وانتظر مؤمّلاً نفسه أن تكون ميلاد قد لاحظته فتفكر بالعودة مجدداً ، ولكن عبثاً ؛ فالدقائق انصرمت دون أن تتحقق تلك الأمنية . وكان المتسول قد انفرد بزميل آخر له ليسرد له تفاصيل الجناية التي اقترفها زكريا في حقه كما يبدو ؛ ذلك لأن الاثنين تآزرا في ملاحقته بنظرات عدائية دفعت به إلى أن يغادر المكان .

في البيت استقبله إسماعيل مبتسماً ، حتى إذا ما وجده لا يستجيب له قطّب حاجبيه ليسأله وهو يدقق فيه النظر :

- ما لك تبدو كمن غرقت مراكبه؟ اطمئن ؛ سأعوّضك عن خسارتك إن رافقتني إلى (سوق الجمعة) ؛ لأنني سأدعوك إلى مطعم قرب دير الراهبات اليونانيات يُعمل فيه الخبز في الفرن تحت أنظار الزبائن .

شكره زكريا مؤكداً له أنه لن يخلف موعداً بهذه (الدسامة) . ومضى إلى غرفته لينفرد بنفسه سامعاً من غرفة فاطمة القريبة صراخ طفلها الوليد محمد .

صباح اليوم التالي بكّر في الذهاب إلى كنيسة القيامة ، ليحوم

قرب بوابتها وقتاً طويلاً دون جدوى ، فعاد إلى البيت ليكرر الأمر نفسه على مدى ثلاثة أيام كان يعود في أعقابها أكثر يأساً وحزناً ؛ فينفرد بغرفته ولا يغادرها إلى غرفة رمزي إلا تحت إغراء صوت المذياع القادم من هناك وهو يبثّ برامجه الموزعة بين الأغاني ونشرات الأخبار ، فيجلس في تلك الغرفة ساعات وهو يصغي - متذكّراً صديقيه السبّاك والنجار في لقاءاتهم الدورية في ورشة سميح - إلى أحاديث رمزي وإسماعيل التي لم تكن تخرج عن نطاق تحركات اللجنة الملكية التي قدمت من لندن للاستماع إلى شهادات رؤساء الدوائر الحكومية والزعماء الفلسطينيين واليهود لغرض معالجة الأسباب التي أدّت إلى حدوث الاضطرابات الأخيرة وما رافقها من إعلان إضراب شامل أصاب مرافق البلاد كلها بالشلل على مدى ستة شهور ، وكيف أن هذه اللجنة اصطدمت بمقاطعة الفلسطينيين لها بحجة محاباة الإنكليز الدائمة لليهود ، هذه المحاباة التي وقفت وراء فشل اللجان السابقة في أداء مهمتها كما ينبغي : ذلك لأن البريطانيين ماضون في غض الطرف عن تلاحق موجات المهاجرين اليهود إلى فلسطين حتى باتوا على وشك أن يشكّلوا أكثرية السكان .

وكان رمزي ، في أحاديثه تلك ، دائم الحنق والغضب ، يكاد يختنق من فرط الانفعال حين يتطرق إلى ذكر تعنت اليهود الذين نسوا وعودهم السابقة بالتعاون مع الفلسطينيين في إحياء البلاد حتى بلغ الأمر برئيس حزب الإصلاح الصهيوني جابوتنسكي إلى أن يعدّ شرقي الأردن من متممات فلسطين ، وأن اليهود يطالبون به كما يطالبون بفلسطين لتكون مملكتهم!

وكان إسماعيل ، على النقيض من رمزي ، أكثر تروّياً وهدوءاً ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يرى أن القضية الفلسطينية خرجت عن نطاقها المحلي لتصبح قضية العرب كلهم ، وأنه لا حل لها بمعزل عن تدخل الحكام العرب شريطة ألا يقتصر هذا التدخل على مصالح صديقتهم بريطانيا العظمى التي لا تسمح لهم عادة بالتحرك إلا حينما ترى نفسها في موقف محرج .

يوم الجمعة الموعود بكّر زكريا في الاستيقاظ من نومه استعداداً لمرافقة زوج أخته في جولته الأسبوعية التي سبق له أن رافقه فيها أكثر من مرة ؛ ذلك لأنه كان في واقع الحال يستمتع بهذه الجولات ؛ إذ إن إسماعيل كان يفاجئه فيها باصطحابه إلى أماكن لم يسبق له المرور بها برغم أنه من أبناء القدس أباً عن جد .

وكان زكريا لا يستطيع مغالبة دهشته وهو يلاحظ تعدد وتناقض تلك الصفقات التجارية المرتجلة التي يمارسها زوج أخته ؛ فمن صفقة في منطقة باب خان الزيت تنتهي بتحميل قافلة من الحمير بأكياس البقالة إلى جهة مجهولة ، إلى صفقة في سوق القطانين قوامها آخر البسط التي كانت فاطمة قد انتهت من حياكتها ، إلى صفقة تتألف من أنواع العطارة والأعشاب والتوابل في سوق العطارين الواقعة قبالة حمام السلطان!

وكان إسماعيل يتنقل بزكريا بين تلك الأسواق المسقفة بعقود جميلة ، بما فيها سوق اللحامين والبازار والباشورا ، لينتهي به بسوق الجمعة الواقعة خارج أسوار القدس القديمة بين فندق الملك داود وبركة السلطان حيث الباعة والمشترون يتزاحمون وسط ثغاء الأغنام وصهيل الخيول وفوضى الدواب المعروضة للبيع .

وكانا يعرجان ، أثناء تجوالهما ، على مشغل سميح للحدادة حيث يستقبلهما صاحبها بابتسامته المشرقة وبكرمه المفرط . كما كانا

يتوجهان أحياناً لزيارة حليم ؛ فيجتازان الشارع المحاذي للسور الشمالي الذي تتخلله الأبواب الثلاثة المشهورة : باب الجديد ، وباب العمود ، وباب الساهرة ، ليستديرا يساراً نحو شارع يتجه شمالاً تقوم إلى يمينه كاتدرائية سانت جورج قبل أن يصلا إلى حي الشيخ جراح حيث يقوم مشغل حليم الحافل بالكتل المرمية وأنواع الصخر .

وكان إسماعيل يحدّث زكريا ، أثناء جولاتهما تلك ، عن مختلف المهن التي مارسها في بغداد في صباه وشبابه ، مهن لم يسبق لزكريا أن سمع بها مثل قص الطابوق وتبييض القدور والندافة والتنقل بزورق بين شرائع دجلة لنقل الناس من هنا إلى هناك!

وكانت علاقة زكريا قد توثّقت بإسماعيل منذ إطلاق سراحه ؛ فقد فوجئ زكريا به يعامله معاملة الند للند برغم أنه يكاد يكون بعمر المرحوم أبيه . وما عزز هذه العلاقة وعمّقها أكثر ذلك الملف الذي كان زكريا قد أعّده عن ثورة البراق ووثّق فيه معظم ما نشرته الصحف عن تلك الثورة التي كادتْ تكلّف إسماعيل حياته . لقد سعد إسماعيل كثيراً بذلك الملف ؛ فزوّد زكريا بمقالات كثيرة كان جلبها معه من دمشق وبضمنها سلسلة المقالات التي نشرها كامل الأطرش في جريدته (اليقظة) تحت عنوان (مقامات إسماعيل الذبيح) لغرض إضافتها إلى الملف .

يومذاك لم يكد إسماعيل ينتهي من عقد آخر صفقاته في سوق الجمعة حتى خاطب زكريا ضاحكاً وهو يمسّد بطنه :

– علينا الآن بإخراس هذه القرقرة اللعينة!

قاد زكريا إلى ذلك المطعم القائم قرب دير الراهبات اليونانيات حيث جلسا منتظرين غداءهما على مائدة قائمة وسط موائد أخرى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحت سقيفة تشرف على شارع يعج بضوضاء السابلة ونداءات الباعة المتجولين ، مراقبين باستمتاع أرغفة الخبز الساخنة وهي تخرج من فرن في الجوار لتأخذ من فورها سبيلها نحو الزبائن .

- أهناك ما تود أن تفضي به إليّ؟

فوجئ زكريا بإسماعيل يسأله من الطرف الآخر للمائدة ليضيف موضحاً :

- منذ أيام وأنا أراك شارد الذهن مشغول البال وكأن هناك ما يؤرقك!

وعاد إسماعيل يتساءل وقد انفرج شارباه الكثان عن ابتسامة عريضة :

- أيتعلق الأمر بالقلب؟

وسارع يتابع وقد تحولت ابتسامته إلى ضحكة :

- يبدو من تضرّج وجهك أن الأمر كما حسبت .

هكذا : ببضع ملاحظات مشفوعة بالقليل من الكلمات استطاع زوج أخته أن يكشف سره ؛ فبرغم أن زكريا ظل محافظاً على صمته بيد أن صمته ذاك بدا أبلغ جواب حتى أن إسماعيل طفق يلح عليه في السؤال عمن تكون تلك الفتاة؟ وهل هي من بنات الجيران؟ أم إحدى القريبات؟

- بل إنها غريبة . . و . . مسيحية!

أجابه زكريا بشيء من وجل ، فتأمله إسماعيل لحظات قبل أن يقرّ بصعوبة الأمر :

- يبدو أن اختلاف الديانات سيظل أكبر عائق يقف في طريق معظم العشاق المساكين .

خاطبه إسماعيل قبل أن يحدّثه عن فترة من الزمن، كان يقاربه فيها في السن، أحب أيضاً مسيحية. كما حدّثه عن صديق دمشقي أحبّ بدوره مسيحية لتنتهي القصتان نهايتين غير سعيدتين: فمحبوبته البغدادية هجرت بغداد إلى لندن، ومحبوبة صديقه الدمشقي دخلت سلك الراهبات.

- هل تبادلك هي الحب أيضاً؟

عاد إسماعيل يسأله، فاعترف زكريا بأنه يجهل حقيقة مشاعرها نحوه؛ لأنه ما التقاها سوى مرتين: الأولى حدثت منذ فترة بعيدة، حين أصيب في إحدى المظاهرات بعيار ناري كاد يودي به، والثانية رآها خطفاً عند مدخل كنيسة القيامة يوم الأحد المصرم.

- أتعني أحد الشعانين؟

سأله إسماعيل قبل أن يضيف متأسّفاً:

- لقد ضيّعت على نفسك، بمرافقتي اليوم، فرصة ثمينة؛ إذ إن اليوم عند المسيحيين هو الجمعة الحزينة.

وتابع إسماعيل وهو يفسح لعامل المطعم المجال ليضع صحون الغداء على المنضدة قبل أن ينصرف إلى تقطيع رغيفه الساخن:

- لقد دفع بي تعلّقي بتلك البغدادية، وهذا أمر يفترض به أن يبقى سراً بيني وبينك ولا يصل إلى الآخرين ولا سيما أختك فاطمة، إلى الإلمام بكل الأعياد والمناسبات الدينية الخاصة بالمسيحيين؛ ولذلك أمامك فرصة أخيرة تتمثل بيوم الغد عليك استثمارها؛ إذ إن احتفالاتهم تبدأ عادة بأحد الشعانين الذي يبدأ به المسيحيون حجّهم الذي يستمر على مدى أسبوع الآلام والجمعة الحزينة لينتهي غداً بسبت النور وقيامة المسيح... فعليك بالغد إذن!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(١٤)

امتثل زكريا لنصيحة إسماعيل فبكّر، في اليوم التالي، في التوجّه إلى كنيسة القيامة حيث فوجئ بحشود هائلة تتقاطر داخلة من تلك البوابة المفتوحة على سعتها، فاندسّ بينهم ليتّجه معهم إلى قاعة فسيحة مستديرة يتوسطها قبر يسوع القائم تحت القبة الكبيرة. وكان الضريح يتكون من حجارة بيضاء وصفراء مصممة بشكل بالغ الروعة، تتدلى فوقه عشرات القناديل الذهبية والفضية المضاءة كالنجـــوم.

انزوى زكريا جانباً مراقباً بانبهار آلاف المصلين والحجاج وهم يدورون ببطء شديد حول القبر. وبغتة انبثق النور من كوّة في مبنى القبر، فامتدت آلاف الأيدي المحمّلة بالشموع نحوها؛ فإذا بالكنيسة كلها تتحول، خلال لحظات، إلى كتلة من الأضواء، في حين شرعت النواقيس تقرع في اللحظة نفسها، ومعها ارتفعت آلاف الأصوات بالتراتيـــل بالعربيـــة واليونانية والسريانية والأرمنية. وواصلت الحشود دورانها البطيء حول القبر، والجميع يستميتون ليكونوا أقرب وأقرب إلى القبر الذي كان قد بات محور تلك الدوامة البشرية الهائلة.

وفجأة لاحظ زكريا فتاة تنفصل عن تلك الحشود لتقترب منه؛ فإذا بها ميلاد!

– منذ دقائق وأنا أراقبك في انزوائك في هذا الركن!

كلّمته ميلاد مبتسمة قبل أن تردف ، وهي تتقدمه إلى خارج الكنيسة :

- افتقدتك البارحة ؛ فمنذ لمحتك يوم أحد الشعانين توقعت أن التقيك في الجمعة الحزينة .

لم يحر زكريا جواباً وهو يتذكّر جلسته مع إسماعيل البارحة في ذلك المطعم المحاذي لدير الراهبات اليونانيات .

تنسّم طراوة هواء نيسان الربيعي ، متأملاً ميلاد عن قرب في ضوء النهار الساطع ليراها أكثر سحراً من رؤيته اليتيمة إياها في بيتها .

- يبدو أن جرحك لم يندمل دون أن يترك وراءه أثراً .

- إنه ما انفكّ يذكّرني بك!

أجابها زكريا مبتسماً وهو يتحسس تلقائياً موضع جرحه القديم .

- في هذه الحالة لمَ لمْ تزرنا في بيتنا ولو مرة واحدة طوال هذه الفترة المديدة؟

- قد لا تصدقينني لو اعترفت لك بأنني لا أزال أجهل موقع بيتكم ذاك!

أجابها قبل أن يتابع :

- لذلك لم أفوّت مظاهرة إلا وشاركت فيها على أمل أن التقيك مصادفة في إحداها .

- يبدو أنك بحثتَ عني في المكان الخطأ ؛ ذلك لأنه لا شأن لي بالمظاهرات .

ردّت ميلاد لتضيف وهي تومئ برأسها نحو الكنيسة التي كانا قد أولياها ظهريهما :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– إنني أقتدي بهذا الذي تقدّسه كل تلك الحشود رسولاً للمحبة والسلام .

– وهل بقي ثمة أمل في السلام وهؤلاء اليهود يتقاطرون على بلادنا محمّلين بالبنادق؟!

– ليستْ أول مرة تغدو القدس فيها هدفاً لأطماع الغزاة .

أجابته ميلاد لتستطرد وهي تتقدمه مبتعدة به عن الكنيسة :

– لقد تعاقب الكثيرون منهم على امتداد قرون وانحسروا تباعاً لتبقى القدس من بعدهم رمزاً للمحبة والسلام .

– يدهشني أن يتطابق رأيك معي برغم أنني مسلم وأنتِ مسيحية!

فأجابته ميلاد مستنكرة :

– كأني بك تسلبني حقيقة كوني عربية وفلسطينية قبل أن أكون مسيحية ؛ فنحن من المسيحيين الشرقيين الذي استوطنوا فلسطين منذ زمن الكنعانيين ، وكنا من أوائل المؤمنين بالمسيح .

وأردفت قائلة :

– إنني على ثقة من أنك لست وحدك الذي يفكر على هذه الشاكلة ، بل لعل أغلب المسلمين يشاركونك في هذا الضرب من التفكير مساقين بذلك إلى ما يسعى الغرب ، منذ مئات السنين ، إلى تحقيقه : وهو جعل العرب يؤمنون بأن المسيحيين ليسوا أكثر من جالية دخيلة على المشرق العربي .

وتوقفت ميلاد لتتأمل زكريا لحظات قبل أن تعترف :

– ولعلني أنا شخصياً كنت أفكر على هذه الشاكلة لولا أن أبي – وهو رجل الدين – أخذ على عاتقه مهمة توعيتي منذ صغري مؤكداً أن

المسيح هو مسيحنا نحن العرب والشرقيين قبل أن يصادره الغربيون لصالحهم : فقد ولد هنا في مذود في بيت لحم وعاش في الناصرة ليصلب في أورشليم ؛ فهو إذن أقرب لنا من الغربيين ، وقد يكون هذا الأمر هو الذي دفع بالمسيحيين الشرقيين إلى الانضمام إلى جيش صلاح الدين الأيوبي ليحاربوا في صفه إيماناً منهم بأن الحملات الصليبية لم تأت بوازع ديني قدر ما كان هدفها استعمارياً .

وأضافتْ وهي تستدير به إلى زقاق جانبي قائم إلى اليمين :

– كما أن النبيّين موسى ومحمد ينتميان إلى هذا الشرق أيضا ؛ أوَ لم ينحدر الاثنان من سلالة أبي الأنبياء إبراهيم الذي ولد بدوره في بلاد النهرين في مدينة أور قبل أن ينزح عنها؟

منذ ذلك اليوم – وبعدما أرشدتْ ميلاد زكريا إلى بيتها وإلى مدرسة قريبة تعمل فيها معلّمة – دأب الاثنان على اللقاء كلما ساعدتهما الظروف . وكانت غالبية تلك اللقاءات تتم في كنيسة القيامة وسط عشرات المعالم التاريخية التي كانت تحيط بهما من كل جانب حيث الأعمدة الشاهقة تمتدّ فوق الرؤوس ، تتخللها ممرات تعبق برائحة البخور ، وثمة رهبان وحجاج يصادفانهم في طريقهما تسبقهم تراتيلهم التي تتردد أصداؤها تحت القباب الموغلة في علوّها ، ويمضون وظلالهم تتمايل في كل اتجاه بفعل أضواء الشموع التي يحملونها .

كانا يتجولان في تلك المواضع التي شهدت صلب المسيح والتي تبدأ بقطعة رخامية مستطيلة غطي بها حجر الزيت الذي سجي عليه جسده بعد إنزاله عن صليبه . وعلى مقربة من ذلك الموضع تقوم القاعة الفسيحة التي يتوسطها القبر . وكانا يصادفان ، في طريقهما ، تلك المصلّيات التي أقامتها مختلف الطوائف المسيحية ، والتي يتفاوت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعضها عن بعض حجماً وبهرجة ؛ فبقدر ما كان مصلى الأقباط أكثر المصليات تواضعاً ، ومصلى السريان أصغرها حجماً ، كان مصلى الروم أوسع تلك المصليات وأفخمها : يتكون مذبحه من حاجز مرتفع يمتد بامتداد المصلى وقد زيّن بالايقونات وبمصابيح كثيرة صيغت من الذهب والفضة .

وكانت هناك آجرّة رخامية مثبتة إلى الأرض محددة الموضع الذي وقفت فيه مريم المجدلية لحظة ظهر لها المسيح بهيئة جنائني . وعلى مبعدة أمتار كانت ثمة آجرّة أخرى تحدد الموضع الذي ظهر المسيح فيه لأمه بعد قيامته من الموت . أما الآجرّة الثالثة فقد حددت الموضع الذي عثرت فيه القديسة هيلانة ، بعد مرور ثلاث مئة سنة على صلب المسيح ، على الصلبان الثلاثة التي صلب المسيح على أحدها ؛ فكان ذلك الأمر سبب قرار ابنها الإمبراطور قسطنطين بناء كنيسة القيامة . وفي موضع آخر كانا يقفان أمام ستارة صغيرة يقبع خلفها جزء من العمود الأصلي الذي شد إليه وثاق المسيح حينما تعرض للجلد . وبالقرب منها كوة في حائط يقال إن قطعة من الصليب الأصلي كانت توجد فيها قبل أن تسرق على يد راهب من إحدى الطوائف المسيحية .

وكان (محبس المخلّص) يقوم في جانب معتم من الكنيسة على شكل مصلى صغير منحوت في الصخر حيث حبس يسوع قبل صلبه ، وهناك ، تحت المذبح وقرب الباب ، زوج من الدعامات الحجرية لربط الأرجل تدعى (رباط المسيح) . ووسط مصلى الروم كان ثمة عمود قصير يخترق الأرضية الرخامية محدداً مركز الأرض ، وهو الموضع الذي جبل من ترابه آدم ليدفن فيه بعد وفاته . وعلى مسافة من ذلك الموضع يقع المكان الذي قطع فيه كهنة المعبد يومذاك رأس ذلك الجندي

الروماني الذي حضر عملية الصلب ، وأنيطت به حراسة المسيح المعلّق على صليبه وسط اللصين ، فلجم الفزع لسانه حين تنبه للظلمة تغطي ذلك الموضع على حين غرّة ليحطم زلزال مفاجئ صخرة الجلجلة إذ انطلق ، على أثره ، الموتى بأكفانهم من هناك ليسيروا في وهج البروق المتخاطفة في شوارع أورشليم . وقريباً من ذلك المكان قاسم الجنود الرومان ثياب المسيح بينهم .

وكان مصلى القديسة هيلانة يمتد في تجويف تحت الأرض ، يتوسطه مقعد من الرخام يقال إن القديسة كانت تجلس عليه في ذلك الزمن الموغل في البعد ، مراقبة العمال وهم ينبشون بمعاولهم التراب منقبين بحثاً عن بقايا الصلبان الثلاثة . وعلى عمق اثنتي عشرة درجة امتدت مغارة محفورة في الصخر عثر فيها على إكليل الشوك ، ومسامير الصلب ، وصليب المسيح نفسه ، فضلاً عن صليب اللص التائب ، وبذلك استحقّت تلك المغارة أن تُسمّى بـ(مصلى ابتداع الصليب) حيث لا يزال سقفها يذرف الدمع حتى الآن . أما (مصلى التهكّم) فأقيم على مقربة من ذلك المكان ، تتوسطه قطعة من عمود رخامي انتصبت تحت المذبح محددة الموضع الذي سخر اليهود والرومان فيه من المسيح ؛ وذلك بتنصيبهم إياه ملكاً توجوّه بإكليل الشوك ، ووضعوا في يده صولجاناً من القصب . وبعدما عصبوا عينيه انهالوا عليه ضرباً آمرين إياه بأن يتنبأ من منهم يضربه!

وطوال تجوالهما لم يكن زكريا يكفّ عن التفكير بأعداد الرهبان والحجاج والسياح الذين سبقوهما ، على امتداد مئات السنين ، في المرور بتلك المواضع ، وعن كمية الدموع التي ذرفوها حزناً على آلام يسوع ، تلك الدموع التي قد لا يعادلها سوى سيل الدماء التي سفكت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بين مختلف الطوائف والأديان وهي تحارب بعضها بعضاً من أجل الاستحواذ على قبر نبي لم يضحِ بنفسه إلا لأجل أن يعم السلام الأرض .

وكاشف زكريا ميلاد ، ذات يوم ، بأفكاره تلك مفصحاً لها عن خوفه من أن ثمة عملية صلب جديدة يجري الإعداد لها منذ سنوات ستتخطى العملية القديمة بصلب بلاد المسيح كلها هذه المرة ، فشاركته ميلاد في خوفه مؤكدة أنه ما من وازع أخلاقي يمنع البريطانيين من تحقيق مآربهم الاستعمارية ؛ فبعدما سبق لهم استغلال دماء العرب في حربهم مع الدولة العثمانية ها هم يستثمرون الآن ثروات اليهود الطائلة لتحويل فلسطين إلى قاعدة لطموحاتهم الاستعمارية ضامنين ، في الوقت نفسه ، الإبقاء على سيطرتهم على قناة السويس .

– أيعقل أن تبلغ السذاجة باليهود مستوى التفريط بثرواتهم تلك حباً بزرقة عيون الإنكليز؟

تساءل زكريا مستنكراً ، فأجابته ميلاد معترفة :

– لا بطبيعة الحال ، إنهم ليسوا سذّجاً ، إنما لعلهم . . . لعلهم مغرر بهم ، وسيأتي اليوم الذي سيكتشفون فيه ، عاجلاً أم آجلاً ، أنه يستحيل عليهم إلغاء شعب ليحلوا في مكانه ؛ ذلك لأن ما حدث للهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية لن يتكرر مجدداً ، فلا مفر لهم إذن من العيش المشترك معنا .

تأمّل زكريا وجه ميلاد لحظات قبل أن يقول :

– آمل ألا تتوهمي فيّ كرهاً متأصلاً لليهود تحت شعار (العداء للسامية) ؛ فأنا مثلك ولدت في هذه المدينة التي قد تكون أكثر مدن العالم تعدداً بالأعراق والديانات والملل والنحل ، ولقد ارتبطت ، في

طفولتي وصباي ، بعلاقات حميمة بأطفال مقاربين لي في السن عرفت فيما بعد أنهم من اليهود ، إلا أن ذلك لا يمنعني من أن أستعيد بأسى تلك الأيام السعيدة التي كنا نقضيها في ألعاب بريئة لا علاقة لها باختلاف الأديان .

وتابع بعد وقفة قصيرة :

- تأكدي يا ميلاد أنني من المؤمنين بأن اليهود الذين يعودون بأصولهم إلى بلادنا هم أخوتي ، ومن العار أن أكرههم أو أسلبهم حقهم في الوجود ، بيد أنني لن أستطيع أن أقتنع بأنه يحق ليهودي قادم من أقصى أقطار الدنيا أن يحتل موضعي أنا أو موضع غيري من أبناء البلاد الأصليين!

- إنهم يعدّون فلسطين أرض الميعاد التي وعد ربهم بها إبراهيم لتكون له ولذريته من بعده من النهر الكبير النيل إلى الفرات .

- ليكن الأمر كما تقولين . ولكنْ . . . لم لا يؤمنون أن وعد الله تحقق بنا نحن العرب؟ أوَ لسنا نحن أبناء إبراهيم أيضاً؟ فإن كان اليهود والمسيحيون قد انحدروا من إسحق ، فنحن انحدرنا من إسماعيل الابن البكر ؛ وأنت لا تجهلين بطبيعة الحال الموضع الذي كان الابن البكر يحتلّه لدى الأقوام القديمة .

على تلك الشاكلة مضى الاثنان يواصلان حواراتهما في كل لقاء جديد من تلك اللقاءات التي لم تعد تقتصر على كنيسة القيامة ؛ فقد اكتشف زكريا أن ميلاد لا تكاد تقلّ عنه حباً بالتنزّه والتجوال : تعشق الإيغال في شوارع القدس الجديدة إلى أبعد مدى يستطيعان الوصول إليه مثل (البقعة الفوقا) و(الطالبية) و(القطمون) ، تلك المواضع التي كانت تُعدّ أماكن نزهة واصطياف للمقدسيين . ولأجل الوصول إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تلك الأماكن كانا يخرجان من باب الخليل ليجتازا سوق الخضرة المزدحمة بفوضى القرويات القادمات ، بدجاجاتهن وسلال بيضهن ، من الريف . ومن هناك كانا يسلكان شارع يافا قبل أن يستديرا إلى شارع (مأمن الله) المتفرع عنه والممتد جنوباً حيث اعتاد زكريا الوقوف لحظات يسرّح ببصره في تلك المقبرة الواسعة التي يقوم فيها قبرا أمه وأبيه فضلاً عن سلسلة أجداد لا يحصيهم العد ، قارئاً على أرواحهم سورة الفاتحة .

وكانا يمران كذلك بجمعية الشبان المسيحية التي أقيمت حديثاً في شارع يوليان ، ولا يتوقفان إلا على مشارف مستوطنة رجافيا اليهودية ليقفلا متخذين طريق العودة خلال الحي اليوناني وحي الطالبية مصعدين شمالاً بمحاذاة المعسكر البريطاني ومستوطنة منتفيوري اليهودية وبركة السلطان وفندق الملك داود ، محاذرين لقاء سميح وذلك بتجنّب المرور بسوق جورة العناب .

(١٥)

بيد أن حرص زكريا على ألا يضبطه شقيقه سميح ، وهو في رفقة ميلاد ، لم يجْدِهِ نفعاً ؛ فقد فوجئ بشقيقه يستقبله ، ذات يوم ، بحفاوة مبالغ فيها لم يكتفِ معها بتجنيد عماله لخدمته ، بل أعلن ، وهو يغمزه بإحدى عينيه ، عن استعداده ليقوم بـ(ما يلزم) . وحينما رمقه زكريا بنظرة متسائلة عاد سميح يطلب منه ألا يشغل باله بـ(التكاليف) وما أشبه ؛ ذلك لأنه على استعداد مطلق ليأخذ الأمر كله على عاتقه!

– أي أمر هو هذا الذي تتبرع بأخذه على عاتقك؟

سأله زكريا حائراً ، فأجابه سميح مبتسماً وهو يغمزه ثانية :

– أمر الخطوبة والزواج!

– وهل وقع اختيارك على (ابنة الحلال) التي ستتكفل بتزويجها إياي؟

سأله زكريا مازحاً ، فأجابه سميح وهو يعانقه مغرقاً وجهه بالقبل :

– وما حاجتي بالاختيار وقد سبقتني في ذلك؟

فبادله زكريا نظرة خاطفة انفجر الاثنان على أثرها مقهقهين وسميح يردد وسط ضحكته :

– كيف توهّمتَ أنك تستطيع الإفلات بتلك الحسناء التي في رفقتك دون أن أكتشف الأمر؟ أغاب عنك أن لي عيوناً مبثوثة تتمثل ليس بعمالي وحدهم فقط ، بل بصاحبينا النجار والسبّاك؟!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومضى سميح يمازح أخاه الصغير على تلك الشاكلة مذكّراً إياه بسنوات طفولته حينما كان يتعلق بطرف ثوب فاطمة أينما تحركت منادياً إياها بكلمة (ماما) التي كانت تجعله - هو ومنيف وحليم - يستلقون على ظهورهم من شدة الضحك ؛ فتلك كانت أول مرة يتوهّم فيها طفل بأن شقيقته هي أمه!

وأنقذ مقدم النجار والسبّاك زكريا من مزاح شقيقه ؛ إذ إن السبّاك عمد من فوره إلى إيقاد سيجارته العتيدة مفصحاً بذلك عن أن الأخبار الجديدة باتت أخطر من أن تُبدد وسط تسويغات النجار المشفوعة بنظراته القلقة وهو يطرف بعينيه من خلف عدستي نظارتيه المغبرّتين ؛ فقد أعلن دون لبس أن (الكارثة) أضحت حقيقة واقعة تكاد تطبق على البلاد!

- أية كارثة تعني؟

تساءل النجار ببراءته المعهودة وهو يتنقل بنظارتيه بين الوجوه ، فصاح السباك وقد خرج عن طوره نافثاً الدخان ملء فمه ومنخريه :

- سبحان الله! . . أيعقل أنك لا تزال تجهل حقيقة هذه الكارثة المتمثلة بإعلان الحكومة البريطانية ، في السابع من تموز ، عن مقترحات اللجنة الملكية التي قضت بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود؟

- من المؤكد أنني على علم بتلك المقترحات . لكنها لا تقلقني ؛ وذلك لكونها محض (مقترحات) قد لا تُنفّذ .

- أو تنفّذ ؛ إذ ما الذي يمنع البريطانيين من الأخذ بتلك المقترحات العجيبة ما دامت جاءت بوحي من المستر أندروز ضابط الاتصال البريطاني المعيّن في تلك اللجنة؟

تساءل السبّاك ليسترسل في كلامه ، وهو ينفث الدخان في وجه

النجار، متحدثاً عن الأعمال الشنيعة التي اقترفها هذا الضابط الإنكليزي الحاقد بحق الفلسطينيين والذي عُدّ من أعتى الضباط وحكّام الألوية الذين سلّطتهم حكومته على أبناء البلاد ليسومهم العذاب، لا يكاد يجاريه أحد في محاباته اليهود وتشجيعهم على تملّك الأراضي بعد سلبها من أصحابها حتى انتهى الأمر به إلى انتزاع وادي الحوارث من أهله ليسلمه اليهود على شكل هدية مجانية!

وأعقبه زكريا مؤيداً:

- مَنْ منّا ينسى تلك الفترة التي عيّن فيها مساعداً لحاكم القدس؟ إذ إنه شدد الرقابة على الصحف مانعاً إياها من أن تقول كلمة حق ضد الصهيونية.

وتدخّل سميح الذي كان من النادر أن يقحم نفسه في حواراتهم:

- لقد بلغ عداؤه للفلسطينيين أنه حوّل أحد المشاريع الإنشائية الضخمة إلى وكر للموظفين اليهود، وأقنع حكومته بإلغاء الجانب الذي كان من المفروض أن يسهم في مساعدة العرب الذين كانوا قد طردوا من أراضيهم.

وعاد السبّاك يواصل حديثه بحماسة، بعدما حظي بكل هذا الدعم، فأكّد أن أندروز حرّض أعضاء اللجنة الملكية على صياغة مقترحاتها غير المعقولة والتي لا تنسجم إطلاقاً مع واقع الحال؛ فبرغم أن البريطانيين لم يتركوا وسيلة إلا واتبعوها لأجل تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين، إلا أن تلك المناطق الساحلية التي اقترحت اللجنة تحويلها إلى دولة لليهود لا يزال العرب يشكّلون فيها ثلاثة أضعاف السكان، فضلاً عن أن مساحة الأراضي التي نجح اليهود في تملّكها هناك بشتى وسائل الترغيب والترهيب لا تتجاوز مليوناً وربع مليون دونم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الوقت الذي لا يزال العرب محتفظين بمساحة تبلغ ثلاثة ملايين وربع مليون دونم .

وأشار زكريا مستهجناً إلى اقتراح اللجنة المضحك بتبادل السكان بين الدولتين المزمع انشاؤهما متناسية أنه لا يعقل أن يكون هذا التبادل منصفاً حين يتم بين ثلاث مئة وخمسة وعشرين ألف عربي يعيشون في الدولة اليهودية المقترحة لقاء ألف ومئتين وخمسين يهودياً يعيشون في الدولة العربية ، فصاح السبّاك وهو يفرغ غيظه بسحق عقب سيجارته بعنف فوق المنضدة :

– بل الأدهى من ذلك يتمثل بالنصيحة التي أسدتها اللجنة للعرب واليهود بضرورة التضحية والقبول بالتقسيم ؛ أي أنها تطلب من العرب القيام بتضحية (حقيقية) تتمثل بتنازلهم عن أجزاء من وطنهم سفحوا دماءهم للاحتفاظ بها لقاء مطالبة اليهود بالقيام بتضحية (وهمية) تتمثل بتنازلهم عن شيء لم يملكوه بعد ، إنما يطمحون إلى امتلاكه لاحقاً!

وراقب زكريا النجار بإشفاق وقد أُسقط في يده فعاد يتنقّل بنظرات استغاثة بين الوجوه قبل أن يردد بحذر :

– أنا لم أغالط نفسي يوماً ما بحقيقة موقف الإنكليز منا ، بيد أنني ، في الوقت نفسه ، لن أستطيع الاقتناع بأن من مصلحتنا إثارة عدائهم ضدنا .

وأضاف ضارباً بالمذكرة الشديدة التي بعثت بها اللجنة العليا للفلسطينيين إلى الحكومة البريطانية ولجنة الانتداب الدائمة في جنيف مثلاً على ما يقول ؛ إذ كان في وسع الفلسطينيين الإفصاح عن موقفهم بلغة أكثر دبلوماسية عوضاً عن اللجوء للتفنيد واستنكار قرار التقسيم

والمطالبة بفرض شروط تعجيزية مثل المطالبة بالعدول عن تجربة الوطن القومي اليهودي وإلغاء الانتداب ووقف الهجرة وبيع الأراضي .

– عن أية لغة أكثر دبلوماسية تتحدث يا صديقي والبريطانيون لا يولوننا أدنى اهتمام؟

صاح السبّاك ليستطرد في طرح جملة أسئلة طاوياً أحد أصابعه مع كل سؤال :

– أوَلم تستنكر الدول العربية قرار التقسيم؟ أوَلم يعمدوا ، في الثامن من أيلول ، إلى عقد مؤتمر بلودان الذي بلوروا فيه موقفاً موحداً إزاء هذه المعضلة؟ أوَلم تشارك غالبية الدول العربية في هذا المؤتمر فضلاً عن ثوار المغرب الذين يقارعون الاستعمار الفرنسي في بلادهم ببسالة؟ ألم تأت مقررات المؤتمر تثبيتاً لما تم تأكيده في أكثر من مناسبة ، ولا سيما الفقرة الأولى التي أكدوا فيها كون فلسطين جزءاً لا ينفصل عن الوطن العربي؟ أوَ تعتقد بوجود لغة أكثر دبلوماسية من هذه اللغة؟

فتساءل النجار بثقة مفاجئة وقد تخلى عن تردده وحذره :

– وما الذي ناله العرب من لغة دبلوماسية على هذه الشاكلة؟ إذ لم تكد تمر ستة أيام . . أتسمع؟ ستة أيام لا أكثر على عقد ذلك المؤتمر حتى عرض وزير خارجية بريطانيا إيدن[١] سياسة حكومته في عصبة

---

(١) إِيدن : (أنطوني إيدن) سياسي بريطاني بارز انتخب عام ١٩٢٣ عضواً في مجلس العموم ، وأصبح وزيراً للخارجية بين عامي ١٩٣٥– ١٩٣٨ وقد عرض سياسة حكومته في مجلس عصبة الأمم في الرابع عشر من أيلول عام ١٩٣٧ معلناً باسمها أنها قبلت مقترحات اللجنة الملكية ، وأنها مستعدة لإرسال لجنة فنية خاصة إلى فلسطين لوضع خطة مفصلة لمشروع التقسيم وتخطيط الحدود .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأمم معلناً قبول مقترحات اللجنة الملكية ، واستعدادها لإرسال لجنة فنية إلى فلسطين لوضع خطة مفصّلة لمشروع التقسيم وتخطيط الحدود .

فصاح السباك متسائلاً وقد خرج عن طوره :

- وهل فلسطين من ممتلكات ابن العاهرة إيدن ليعلن موافقته على تقسيمها؟

(١٦)

عاد زكريا ، ذلك اليوم ، إلى البيت مثقل القلب بالهموم وقد أدرك أن ثمة اضطرابات جديدة ستجتاح البلاد مؤدّية إلى قتل المزيد من الشباب مع ما يرافق ذلك من ركود اقتصادي كان يزداد تفاقماً مع قدوم كل موجة جديدة من المهاجرين اليهود ؛ ذلك لأنهم ، بخبرتهم وتنظيمهم ودعم حكومة الانتداب لهم ، كانوا يستحوذون على المزيد من الوظائف الحكومية والمهن والصناعات دون أن يسمحوا لغير اليهود مشاركتهم فيها .

لقد بلغ سوء الأوضاع حداً دفع شخصاً مثل إسماعيل - وهو المعروف بتشعّب علاقاته في أكثر من مجال تجاري - إلى التفكير جديّاً بتحويل إحدى غرف البيت إلى (مصبنة) . أما الدافع الخفي لهذا المشروع فلم يكن يخفى على زكريا ؛ فقد أدرك أن ما يقف وراء حماسة زوج أخته لهذا الأمر يعود إلى سعيه لتوفير فرصة عمل لرمزي الذي بقيت عاهته مصدر مرارة دائمة له لشعوره أنه عالة على أشقائه الآخرين ؛ يضطر مجبراً إلى تقبّل يد العون التي لم يكونوا يبخلون بها عليه .

ووجد زكريا في العمل الجديد فرصته لكسب رزقه بعدما يئس من أن توفّر له شهادته عملاً وظيفياً ؛ فكان أكثر الجميع حماسة وهو يشمّر عن ساعديه صباح كل يوم ليشعل النيران تحت تلك القدور

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النحاسية الضخمة المملوءة بمزيج من الماء وحبات الزيتون ، مغذّياً إياها بالمزيد من الحطب . وكان دور رمزي يتلخّص بترتيب الأواني والأطباق المستوية من حوله تاركاً لإسماعيل إنجاز تلك المهمة الصعبة المتمثلة بسكب محتويات تلك القدور في الأواني والأطباق ، وانتظار الوقت اللازم لتبرد تلك المادة الكثيفة ، وتتماسك قبل أن يشرع الثلاثة في تقطيعها إلى قوالب صابون كان إسماعيل يتكفّل ببيعها إلى زبائنه من تجار الجملة ليعود بالنقود إلى البيت موزّعاً إياها بينهم بالتساوي مستمتعاً بذلك الاعتزاز بالنفس الذي كان رمزي يفصح عنه بكل حركة من حركاته بعدما أصبح له دور في إعالة الأسرة .

وسط انهماكهم بعملهم ذاك في (المصبنة) فوجئوا ، ضحى يوم أيلولي ، بسميح يدخل عليهم ، فاستقبلوه بحماسة مشوبة بشيء من الدهشة ؛ لأنه كان من النادر أن يزورهم إلا أيام الجمع والأعياد لانصرافه إلى إدارة ورشة الحدادة يومياً . وكان زكريا أول من لاحظ مسحة الجد التي تعلو وجه سميح الوسيم الذي كان من دأبه الشروع بحركاته التهريجية الباعثة على الضحك .

– ها . . . خير؟

سأله زكريا ، فتساءل سميح بدوره بشيء من دهشة :

– ألم تسمعوا بما حدث مساء البارحة؟!

واستهدفه الثلاثة بنظرات قلقة وهو يتنقل بعينه بينهم قبل أن يعلن :

– لقد أُغتيل حاكم لواء الجليل الإنكليزي المستر أندروز ؛ وهو نبأ لم يُعلن عنه رسمياً بعد!

مسح إسماعيل العرق المتفصّد من جبينه ، وبادل زكريا ورمزي

نظرة سريعة قبل أن يستقرّ بعينيه على وجه سميح في انتظار أن يكمل الكلام .

– مساء البارحة ، في اللحظة التي غادر فيها أندروز الكنيسة الأنجليكية في الناصرة وفي صحبته جوردون أحد مساعدي حكام الألوية ، فضلاً عن حارسه الشخصي ، فوجئ بأربعة من الشباب العرب ، يرتدي اثنان منهم الملابس الإفرنجية والآخران الكوفية والعقال ، يطلقون الرصاص عليه من مسافة أربعة أمتار ليردوه هو وحارسه صرعى خلال لحظات!

– إلى جهنم وبئس المصير .

صاح رمزي متشفياً قبل أن يضيف :

– لقد أنذره المجاهدون أكثر من مرة مطالبين إياه بالكفّ عن اضطهاد الناس وأن يحسب لحياته حساباً وهو يناصر الصهيونية ، بيد أنه لم يأبه لكل تلك الإنذارات معتدّاً بقوة الإمبراطورية البريطانية وجبروتها وتمسكها بسياستها التهويدية التي يجري تطبيقها خطوة خطوة .

وذكّر رمزي الجميع بأن ترقيته إلى حاكم لواء جاء بدفع من المسؤولين اليهود ؛ فكافأهم بدوره بالإمعان في نفي وسجن أبناء اللواء مطبّقاً على الكثير منهم قانون الطوارئ وقانون منع الجرائم ؛ فأصدر أمراً إدارياً بتجديد سجن جماعة الشهيد القسّام سنة أخرى بعد انتهاء مدة الحكم القضائي الأصلي . ودخلت فاطمة إلى (المصبنة) أثناء ذلك الكلام ، حتى إذا ما فهمت من زكريا حقيقة الأمر تساءلت بهلع وقد ثبتت عينيها على زوجها :

– في هذه الحالة ما الذي تتوقعون حصوله؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فأجابها إسماعيل مبتسماً وهو يعيد مسح العرق عن جبينه :

– ما سيحدث معروف : وهو الشروع بحملة اعتقالات جديدة ستشملني أنا بطبيعة الحال!

فأيّده سميح بقوله :

– ذلك ما دفع بي للإسراع بالقدوم لإنذارك ؛ فقد مرّ حليم على ورشتي ليخبرني بأنه قد تم اعتقال أكثر من واحد في حي الشيخ جراح!

وعادت فاطمة تستهدف زوجها بنظرة متسائلة ، في حين أكدّ سميح أنه لم يقدم إلا ليصحبه إلى بيته في الشماعة ليتخفّى عنده بعض الوقت ، فاستحسن الجميع الفكرة ؛ ولم يملك إسماعيل إلا الإسراع باستبدال ملابسه وارتداء قمباز نظيف . وبعدما قبّل ولديه عطا ومحمد أغرق رأسه في طربوشه وغادر البيت في أعقاب سميح .

لم يكد يمر يومان حتى صحا زكريا على ضجة عدد من رجال البوليس الإنكليزي وهم ينهالون على باب البيت ضرباً بأعقاب البنادق ، حتى إذا ما سارع باستقبالهم نحّوه جانباً ، وانتشروا في غرف البيت باحثين منقبين . وارتقى عدد منهم السلم نحو السطح ، وألقى آخرون بنظرة متفحصة في أعماق البئر . وحينما لم يعثروا على أثر لضالتهم ، خاطبهم قائد المجموعة بعربية مشوهة ، وقد تشرّب وجهه بالحمرة ، مؤكداً أنه سيبقى يجدّ في أثر إسماعيل الذبيح الذي كان يفترض بالإنكليز الإجهاز عليه يوم صدر الحكم بإعدامه عوض الاكتفاء بإيداعه سجن عكا!

وعلى امتداد الأسابيع اللاحقة خيّم على البيت جوّ مأتمي زادت من وطأته عمليات التنكيل العنيفة التي أنزلتها سلطة الانتداب بحق

العشرات ؛ فقد قامت قيامتها فبدأت باعتقال أعضاء اللجنة القومية لتسارع إلى إبعادهم إلى جزيرة سيشل . كما أُلقي القبض على قضاة الشرع . وحلّت اللجنة العربية العليا واللجان القومية كلها التي عُدّت غير مشروعة . وعزل رئيس المجلس الإسلامي الأعلى أمين الحسيني من منصبه . وظلت سلطة الانتداب تجدّ وتبحث عمّن أفلت منها سواء بالتخفي أو الخروج سراً من البلاد معلنة الحظر على عودتهم .

صباح ذات يوم جفل الجميع على طرق شديد على باب البيت ؛ فسارع زكريا بفتحه سائلاً نفسه عمن يكون الطارق؟ ففوجئ بدخول سميح وهو في غاية الارتباك ؛ فقد سألهم وهو يزدرد لعابه بصعوبة متنقلاً بعينيه القلقتين على وجوه المحيطين به :

– ألم يعد إسماعيل إلى البيت؟!

فسأله رمزي وقد زوى مابين حاجبيه مستنكراً :

– أليس إسماعيل عندك في بيتك؟

– كان عندي في البيت طوال الأيام الماضية . . .

وعاد يزدرد لعابه دون أن يكفّ عن تنقّله الوجل بعينيه على الوجوه ، فدنتْ فاطمة منه وقد غاض الدم عن وجهها ، فتوسلت إليه راجية إياه أن يخبرهم بحقيقة ما حصل ، فاعترف ، بعد طول تردد وإحجام ، بأن إسماعيل غادر بيته منذ أيام بصحبة رجال ملثمين ، فانفجرت فاطمة صارخة :

– ومن كان هؤلاء الملثمون؟ وأين ذهبوا به؟

– مَنْ كانوا؟ لا بدّ أنهم كانوا أصدقاءه ؛ وإلا لما ذهب في رفقتهم طوعاً! . . . أليس كذلك؟!

تساءل سميح بارتباك وقد أسقط في يده ؛ ذلك لأنه لم يكن قد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ألف المواقف المحرجة ؛ فأخذ يداور ويناور مكرراً سؤاله ذاك وهو يتنقل بعينيه بين وجوه المتجمعين حوله بحثاً عن معين ، حتى إذا ما أعياه الأمر تهالك متربّعاً على الأرض لينخرط في البكاء!

ولم يمنع اشتداد الاضطرابات وانتهاء زوج أخته إلى مصير مجهول ، لم يمنع زكريا من مواصلة لقاءاته المتباعدة ميلاد ، محاولاً ، ما وسعته الحيلة ، تخطّي ذلك (الروتين) الذي وسم علاقتهما بمرور الزمن محوّلاً إياها إلى ضرب من صداقة قد لا تختلف عن صداقته لعدد من زملائه من خريجي المدرسة الرشيدية .

وكثيراً ما كان يعزم أمره فيقرر مكاشفة ميلاد بحقيقة مشاعره نحوها حتى انتهى الأمر به إلى اصطحابها ، ذات يوم ، إلى حديقة الأمة وقد أعدّ سلفاً الكلمات التي سيرددها على سمعها ليعيش معها تلك اللحظات الحميمة التي سبق له أن قرأ ما يماثلها في الروايات العاطفية التي كانت تقع بين يديه . بيد أن ذلك اللقاء لم يسفر عما كان يتمناه ؛ فأرجأ الأمر إلى يوم آخر انفرد فيه بها ، هذه المرة ، في قاعة المطالعة في حديقة البلدية ، حيث الهدوء المخيّم ورفوف الكتب المحيطة بهما من كل جانب وفّرت له جوّاً مثالياً لتنفيذ خطته لولا أنه صادف واقتحم عدد من أصدقائه خلوتهما ؛ فتحوّل الغزل المرتقب إلى أحاديث في السياسة تمحورت حول إعلان البريطانيين قانون الطوارئ الذي خوّل محاكمهم العسكرية الحكم بالإعدام على كل من يطلق رصاصة واحدة حتى لو لم تصب أحداً ، فكانت النتيجة إلقاء القبض على مئات الثوار الذين تمّ إعدام مئة وثمانية وأربعين واحداً منهم في سجن عكا!

ذلك اليوم خاطبته ميلاد باسمة وقد اتخذا طريق العودة :

- لنقتنع بصداقتنا التي باتت متنفّسنا الوحيد وسط هذا الجحيم المحيط بنا من كل جانب .

آنذاك قدم منيف من بيت لحم ليطمئنهم على إسماعيل ؛ فقد مرّ عليه في بيته هناك ليخبره بأنه يعمل في صفوف المجاهدين بعدما اتصلوا به لمعرفتهم بماضيه في الجيش العربي وعمله في (مفارز التخريب) ، فتساءلت فاطمة باكية :

- أيظل عمله ذاك يلاحقه مع كل ثورة؟ ألا يرحمونه وقد طعن في السن وأصبح أباً لطفلين؟

وكان زكريا يحرص على متابعة ما تنشره الصحافة من أخبار الثورة ، كما كان الأصدقاء يزوّدونه ، في كل لقاء عابر ، بالمزيد منها ، وهي أخبار دفعت بسلطة الانتداب - وبنصيحة من بعض الاختصاصيين بمكافحة الإرهاب - إلى إنشاء سور من الأسلاك الشائكة بارتفاع ثلاثة أمتار وبعرض مماثل ، تتخلله سلسلة من القلاع المحصنة ، واضعة ، على مدى مسافات متقاربة ، مصائد ألغام . وأقامت ذلك السور بامتداد ثمانين كيلومتراً على حدود سوريا ولبنان ، وبامتداد أربعين كيلومتراً على حدود شرقي الأردن وذلك لمنع تموين الثوار بالسلاح والمال والمتطوعين . بيد أن ذلك لم يمنع الثوار من مهاجمة ذينك السورين وتخريبهما في أكثر من موضع فاتحين فيهما ثغرات جعلتهما دون فائدة .

وكانت أحدث الأخبار تتطرق إلى شروع الثوار في اقتحام المدن لينهبوا السلاح من مخافرها ، مدمرين في طريقهم المنشآت الحكومية حتى كادوا يسيطرون على اغلب البلاد مما اضطرت سلطة الانتداب إلى إغلاق دور البرق والبريد والمحاكم والمخافر لعجزها عن حمايتها . إلا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن ما أدهش زكريا حقاً هو أن كل تلك الأمور لم تمنع اللجنة الفنية من القدوم إلى فلسطين برئاسة السير جون ودهيد[١] ، فاستقبلت بالإضراب العام والمظاهرات . وقوطعت مقاطعة تامة ؛ فعمدت إلى الطواف ، تحت حراسة مشددة ، في كافة أنحاء البلاد وفي شرقي الأردن ، حتى إذا وجدت أنه لم يتقدم عربي واحد للإدلاء بشهادته أمامها اضطرت إلى أن تقفل راجعة إلى لندن . وكان الثوار قد احتلوا القدس القديمة أثناء وجود تلك اللجنة فيها . وفوجئ زكريا ، ذات يوم ، بباب البيت يقرع . وحين حاول فتحه نحّته فاطمة جانباً ، وهي تقول :

- حذار . . . قد تكون هناك مكيدة للإيقاع بك!

حين فتحت فاطمة الباب لمح زكريا رجلاً كهلاً لوّحت الشمس وجهه المؤطر بالحطة البيضاء والعقال . لم يكن غير إسماعيل الذبيح وقد ازداد نحولاً ؛ فضج البيت في استقباله . وتسلل عطا نحوه ليقبله على استحياء ، كما تقدمت فاطمة منه لا لتعانقه بل لترفع إليه ابنه محمد النائم بين ذراعيها .

تلك الليلة ، وقبل أن يحدثهم إسماعيل عن أخبار الثورة ، أخبرهم بسر استبدال زيه ؛ إذ إنه لم يعمد إلى ذلك من باب التنكّر ، بل جاء الأمر بقرار من الثوار ؛ فبعدما أخذت سلطة الانتداب تعمد إلى اعتقال كل من يلبس الكوفية والعقال من أبناء القرى الذين أذاقوهم الويلات قرر الثوار التخلّي عن الطربوش العثماني غطاء للرأس مستبدلين به

---

(١) السير جون ودهيد : عينته الحكومة البريطانية رئيساً للجنة الفنية التي بعثت بها إلى فلسطين في السابع والعشرين من نيسان ١٩٣٨ لأجل متابعة توصيات اللجنة السابقة الخاصة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود .

الحطة والعقال ليستحيل على سلطة الانتداب التفريق بين القرويين والثوار!

– ولكنْ أليس قدومك إلى البيت ضرباً من مجازفة قد ينتهي بإلقاء القبض عليك؟

سأله زكريا مستغرباً ، فأجابه إسماعيل باستهانة :

– يبدو أن البريطانيين بصدد إصدار عفو عن الثوار بسبب حرب عالمية جديدة قد تكون ألمانيا تتهيأ لإشعالها مجدداً كما كان شأنها في الحرب العظمى .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(مقتطفات من أرشيف إسماعيل الذبيح)

كان الملف الخاص بأحداث الثورة الفلسطينية الكبرى من أرشيف إسماعيل الذبيح يضمّ عدداً من الرسائل كانت إحداها مرسلة من فايد العايد يتحدث فيها عن الجهود التي بذلها في القاهرة - شاركه فيها كامل الأطرش - لإنقاذ إسماعيل وذلك بالاتصال ببعض معارفه القدماء من البريطانيين الذين أسهموا في الثورة العربية بصفة مستشارين أو مدربين ، مذكّراً إياهم بالدور المؤثر الذي قام به إسماعيل في (مفارز التخريب) مما دفع بالسلطات العثمانية آنذاك إلى رصد جوائز ضخمة لمن يأتي به حياً أو ميتاً .

وضمّ الملف مئات القصاصات الصفر المنتزعة من الصحف الصادرة آنذاك مما اضطرني إلى انتقاء نماذج منها تفي بالغرض المطلوب ملاحظاً أن غالبية هذه الصحف - وبرغم أنها لم تستقِ أخبارها إلا من وكالتي (رويتر) و(هافاس) الاستعماريتين اللتين لم تكونا تناصران العرب - لم تستطع التهرّب من ذكر إحصاءات يُستدل بها على حقيقة ما كان يجري آنذاك : فصحيفة (الشورى) الصادرة في١٩شباط ١٩٣٨ لخّصت ما حصل في الشهور الأخيرة من العام السابق (قتل وجرح ٣٤ شخصاً من العرب واليهود ، وإشعال أربعة حرائق بسبب القنابل التي ألقاها المجاهدون ، وشنّ ثلاثة عشر هجوماً على المستعمرات اليهودية أو أملاك اليهود . وقامت اثنتا عشرة معركة أو مهاجمة لمراكز البوليس والجيش .

وحدثت ثلاثة اعتداءات على خطوط التلفون والتلغراف ، وصحب ذلك ستة عشر حادث اعتقال بالجملة . وفي ٢٨ تشرين الأول ١٩٣٧ نفّذت بريطانيا حكم الإعدام في الشيخ فرحان السعدي ذلك الشيخ الكبير الذي يبلغ الثمانين عاماً ، وتجاوبت الأصداء في الوطن العربي كله باستنكار جرائم بريطانيا وإرهابها للشعب العربي في فلسطين ، وصدرت الاحتجاجات من سوريا والأردن والسعودية ومصر . وأعلن رسمياً أن عدد القتلى من رجال السلطة والجنود البريطانيين يقارب مئة قتيل عدا أضعافهم من الجرحى . واعترفت إدارة الشرطة في القدس أن مجموع الحوادث التي وقعت في فلسطين خلال عام ١٩٣٧ كانت ٦٦٣٨٢ قضية جنائية منها ٢٧٦ قضية قتل و٢٨١ شروع في قتل و٣٧٨٦ اعتداء فظيع على الأشخاص وانتهاك حرمات المنازل ، وتضيف إدارة الشرطة أن هذه الإحصائية لا تشمل خسائر الثوار لأنها مجهولة لدى الإدارة) .

وتطرقت (الأهرام) في ٢٤ من آب ١٩٣٧ إلى التحذير الذي وجهه المجاهدون إلى حاكم جنين المدعو موفات طالبين منه الكفّ عن إيذاء الفلسطينيين ، لكنه ركب رأسه (فنقل سكنه إلى معسكر الجيش البريطاني خارج جنين ، واشتدت حراسته بالمصفحات . ولم يبقَ أي احتمال لحصول أي اعتداء عليه ، لكن القائد الفلسطيني الصغير أبو درّة كان صادقاً في وعيده ؛ فبعد ثمانية أيام أرسل إليه اثنين من الفدائيين تسلّق أحدهما أنابيب المياه حتى وصل إلى الدور الذي به مكتب موفات ، فوجّه إنذاراً إلى سكرتيره العربي رأفت الدرهللي . واجتاز غرفته إلى غرفة الحاكم البريطاني وأفرغ فيه رصاص مسدسين كانا معه . واستمر يطلق الرصاص دون أن يجفل أو يخاف ، وعاد تاركاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المكان ، بينما أخذ رفيقه يطلق الرصاص خارج البناء لتغطية الانسحاب والحرس في ذهول وارتباك شديدين) .

ووصفت الجريدة نفسها طوال كانون الثاني من عام ١٩٣٨ العمليات التي قام بها المناضلون العرب فذكرت أنهم قاموا بالهجوم على مخفر للشرطة ، ووقعت مصادمة شديدة بينهم وبين الخفراء ، كما قام المناضلون بتفجير عدد من القنابل في تل أبيب فأصيب عدة أشخاص ، وأطلق الثوار وابلاً من الرصاص على قطار ركاب بين اللد والقدس ، وتبادلوا الرصاص مع رجال الشرطة في أماكن مختلفة بمنطقة الخليل . وفتحوا نيرانهم على يهوديين في القدس . ونشبت معركة شديدة في ضواحي الخليل اشترك فيها سرب من الطائرات البريطانية في مطاردة المجاهدين . وانفجرت قنبلة بجوار المعسكر البريطاني بالقدس . وهاجم المجاهدون عديداً من المستعمرات اليهودية . وقتلوا خمسة من اليهود حين هاجموا قافلة سياراتهم بين القدس وأريحا . ولم تفلح الطائرات البريطانية حين تعقّبت الثوار الفلسطينيين الذين هاجموا مخفراً بريطانيا حيث قتلوا قائدهم وأخذوا معهم جنوده أسرى ، وواصل المجاهدون تحركاتهم فهاجموا قرية يهودية ونشبت معركة مع سكانها ، وكان لهذه الأحداث الكبيرة رد فعل قوي لدى البريطانيين الذين قاموا بتفتيش المنازل والمحلات التجارية بحثاً عن مستودعات الأسلحة) .

ونشرت جريدة (الشباب) في٢٣ شباط ١٩٣٨ نصّ أحد المناشير التي كانت تصدرها دار المندوب السامي جاء فيه : (تعطي حكومة فلسطين مكافأة لكل من يقدم اخبارية تؤول مباشرة إلى القبض على الأشخاص المذكورة أسماؤهم أدناه) وبعدما يذكر مجموعة من الأسماء يختتم المنشور بالعبارة الآتية : (وبهذه المناسبة تعلن الحكومة البريطانية

لفلسطين عن مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه لمن يرشد إلى قاتل أو قتلة المستر أندروز حاكم لواء الجليل) .

وغطت جريدة الأهرام بتاريخ ١٣ آذار١٩٣٩خبر استشهاد القائد عبد الرحيم الحاج محمد الذي (كان اسمه يتداول بين جموع القوات البريطانية مخيفاً مرعباً ، وحين استشهد في المعركة المذكورة حزنت كل فلسطين لفقده وسط احتدام الثورة التي كان هو أحد أركانها ، ولم يخفِ الشعب الفلسطيني حداده على القائد الشهيد ، بل رفعت المنازل الأعلام السوداء ، وأقامت المساجد صلاة الغائب ، وأقيمت في أغلب المنازل التعازي والمآتم) ؛ فاضطرت الحكومة البريطانية أن تستجيب لبعض مطالب الثوار فأصدرت في السابع عشر من مايس ١٩٣٩ كتاباً أبيض أكدت فيه (أن بريطانيا اعترفت مبدئياً بحق فلسطين في الاستقلال ، وأنها عدلت نهائياً عن التقسيم ، وأنها أقامت وزناً للعامل السياسي في موضوع الهجرة اليهودية فحددتها تحديداً نهائياً ، وأنها أعارت وزناً لتقارير الخبراء في موضوع الأراضي فخوّلت المندوب السامي منع انتقالها وتنظيم هذا الانتقال) .

وهكذا بدأ اليهود حملتهم الإرهابية ضد البريطانيين والعرب معاً على أثر صدور هذا الكتاب ؛ فذكرت جريدة الأهرام في ٢٦و٢٧ مايس ١٩٣٩ (أن اليهود أطلقوا النار على جمهور من العرب بالقرب من المحطة الشرقية في حيفا فأصابوا خمسة أشخاص . . . فكان ردّ العرب أن رموهم بالحجارة - لعدم امتلاكهم للسلاح - وكذلك كرروا الأمر حين هاجم اليهود تجمّعاً للعرب في أحد أحياء القدس) . وبعد أيام (فجّر اليهود قنبلتين زمنيتين في دار سينما «ركس» في القدس ؛ فأصابوا ثلاثة عشر عربياً وثلاثة بريطانيين . . . وتكررت حوادث القنابل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اليهودية يلقونها حيث يجتمع العرب في دور السينما والأسواق ، وتكررت حوادث إطلاق الرصاص يطلقونه من سياراتهم المسرعة ، وشملت قنابلهم دوائر الحكومة وصناديق البريد ، ودار الإذاعة وتحت السيارات التي تحمل عمالاً عرباً) .

وذكرت الأهرام في١٥حزيران أن بريطانيا تحرّكت (فقررت عقوبة على اليهود ، ولكن تلك العقوبة لم تكن تتناسب مع الإجرام اليهودي ؛ فقد قررت السلطة العسكرية البريطانية ، التي كثيراً ما نسفت الأحياء العربية في يافا وطبرية ، والتي شمل تدميرها مئات القرى العربية عقوبة على أي حادث يقع فيها أو بجوارها ، أعلن أن هذه السلطات قررت نسف أربعة منازل يهودية في حي العقبة اليهودي ببلدة طبرية ، عقوبة على انفجار تحت سيارة حكومية تحمل العمال العرب) . وعادت الجريدة نفسها لتذكر في اليوم التالي أن السلطة (عدلت عن نسف المنازل الأربعة اليهودية في طبرية وأنها استعاضت عن ذلك بغرامة مالية على المدينة قدرها ٢٠٠ جنيه) . ونشرت الجريدة نفسها في ٢١ حزيران (أن اليهود في طبرية رفضوا دفع تلك الغرامة) .

هكذا استمرت الجرائد في نشر تلك الأخبار المروعة التي كان من ضمنها تفجير قنبلة كبيرة في التاسع عشر من يونيو في سوق الخضر في حيفا حيث يجتمع عادة عدد كبير من العرب لشراء الخضر والفاكهة ، وقد أسفر هذا الانفجار عن قتل ١٨شخصاً بينهم ٩رجال و٦ نساء وثلاثة أطفال ، وإصابة ٢٤ شخصاً بجراح مختلفة ، وانفجرت قنبلتان بعد حادث القنبلة الأولى بربع ساعة إحداها في غرفة للتلفون في شارع هرتزل في حي هدار كرمل اليهودي ، والأخرى عند ملتقى الخطوط التلفونية في شارع آخر .

(١٧)

لعل من المفارقات التي لفتت انتباه زكريا الخالدي الهدوء الذي ساد القدس على أثر نشوب الحرب العالمية الثانية ؛ فبقدر ما كانت الصحف تطالعه كل يوم بأخبار جديدة تتحدث عن اندفاع قطعات من الجيش الألماني لتبتلع المزيد من الدول المجاورة مثل النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا قبل أن تستدير نحو فرنسا ، كان الهدوء قد خيّم على شوارع القدس وأزقتها وأسواقها المعقودة السقوف حيث عاد السابلة إلى تزاحمهم المعهود ، في حين انصرف أصحاب الدكاكين ، من مختلف الطوائف والأديان ، إلى ممارسة المهن التي توارثوها أباً عن جد : فهنا ثمة تاجر سجادات انصرف ، وسط بهرجة ألوان السجادات المعروضة من حوله ، إلى قراءة القرآن . وأمامه ، في المحل المواجه ، انحنى مصلّح ساعات يهودي على ما بين يديه وقد افترشت لحيته المسترسلة صدره ، وثمة عدسة تدلّت ناتئة من أحد محجريه . وعلى مقربة منه انشغل بائع تحفيات مسيحي بترتيب صلبانه وأيقوناته المزدانة بالأصداف على الرفوف .

مشاهد كانت تبعث فيه الطمأنينة فيعمد ، حين عودته إلى البيت ، إلى أن يحدّث بها إسماعيل الذي كان يفاجئه بما لا يتوقع :

– لا تغتر بما رأيت ؛ فالهدوء الذي نعيشه هذه الأيام أشبه ما يكون بالهدوء الذي يسبق العاصفة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان يستطرد محدّثاً إياه عن آخر أسرار المؤامرة الخفية الجارية على أرض بلاده حيث الصراع النهائي بين الفلسطينيين واليهود بات محتماً . وكان إسماعيل يؤكد له أن اليهود يستعدون لخوض الجولة الحاسمة على قدم وساق ؛ فقد التحق الآلاف منهم ، بتشجيع من حكومة الانتداب ، بورش الجيش البريطاني ومطاراته وثكناته ، منخرطين ، في الوقت نفسه ، بوظائف رئيسية تأتي على قومهم بالفائدة مثل العمل في حراسة العنابر والمستودعات ، دون أن يكفّوا ، يوماً واحداً ، عن مواصلة تدريباتهم القتالية .

وكان يضيف :

– أصبح لليهود جيش رسمي كامل التسليح والتدريب ، لا ينقصه ، للأخذ بزمام المبادرة ، سوى اختيار الوقت الملائم للإعلان عن وجوده ، في حين لم نعد نحن نملك من سلاح سوى ما نغنمه من معسكرات الجيش البريطاني ومن غاراتنا على المستعمرات اليهودية حتى انتهى الأمر بنا إلى اللجوء إلى العصي والحجارة للرد على اعتداء اليهود علينا!

وكان يختم كلامه المغرق في التشاؤم بقوله :

– ولو أضفنا إلى ما ذكرت مسألة تشرّد القيادة الفلسطينية – فالمفتي أمين الحسيني لاجئ في لبنان ، وزعماء المجاهدين الذين أطلق سراحهم من جزيرة سيشل فضّل أغلبهم البقاء خارج البلاد – لأدركنا عمق المأزق الذي سيجابه المجاهدين حينما يتجدد الصراع .

ولم تكن هذه الأمور خافية عن زكريا ؛ فقد كانت مادة يومية لأغلب الصحف الفلسطينية ، بيد أن ما كان يحيّره هو سر انسياق إسماعيل ، طوال عقود من الزمن ، لمصير مأساوي على هذه الشاكلة

برغم معرفته بكل هذه الأمور! . . وقد جازف ، ذات يوم ، بمكاشفته بفكرته تلك ، فأجابه من فوره :

- وهل تركوا لنا خياراً آخر؟

تساءل إسماعيل بغضب ليستطرد متحدثاً عن يوم بعيد فوجئ فيه بالجندرمة العثمانيين يقتحمون عليه انفراده بنفسه في (زورخانة) قائمة في أحد أحياء بغداد ، فإذا به يتحول من نجم مشهور تلهج الجماهير بذكر اسمه كلما فاز على أحد منافسيه إلى مطارَد يعمل جهده على أن يجنّب نفسه الذهاب ضحية إحدى الطلقات الطائشة التي بقيت تجدّ في أثره سواء في بغداد أم في الروطة أم في الشعيبة حيث حُمل من هناك مكبّلاً بالأصفاد ، مع آلاف الأسرى ، على متن سفينة بريطانية مخرت بهم إلى الهند .

وتابع كلامه بعد لحظات صمت استجمع خلالها أفكاره :

- وما حدث بعد ذلك معروف لديك ؛ فهناك التقيت شقيقك رمزي الذي بقي يلازمني حتى هذه اللحظة عدا السنوات التي قضيتها في الشام .

وختم حديثه بقوله :

- لقد بقيتْ البنادق على اختلاف الممسكين بها - سواء أكانوا أتراكاً أم إنكليزاً أم فرنسيين أم يهوداً - تجدّ في أثري حتى هذه اللحظة ، فهل أملك خياراً آخر سوى إرجاء موتي قدر ما يسعني ذلك؟

سؤال بليغ أفضى به زكريا ، ذات يوم ، إلى ميلاد عند لقائهما في ذلك المقهى القائم عند باب الأسباط ؛ فحدثها عن زوج أخته ذاك ، هذا الإنسان الذي تشظّتْ حياته بين ثلاث حروب كانت اثنتان منها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عالميتين . بيد أن ميلاد سارعت تطمئنه مؤكدة له استحالة أن يعمد الإنكليز – وقد بلغوا ما بلغوا من مستوى التحضر والرقي – إلى التفريط بحق شعب ما لمصلحة شعب آخر ، فخاطبها زكريا بمرارة :

– ولكن ما يجري يناقض يقينك يا ميلاد ؛ فها هم هؤلاء القوم المتحضرون والراقون يتنصّلون من الكتاب الأبيض الجديد الذي ساعد على توقّف الثورة على أمل أن ينفّذ البريطانيون وعدهم بإعلان استقلال فلسطين بعد عشرة أعوام ، ها هم يخرقون تعهدهم بتحديد عدد اليهود القادمين والحد من تسرب الأراضي لهم ، متبعين في ذلك أساليبهم القديمة التي تسهّل لليهود تملّك الأراضي سواء عن طريق عمليات التسوية ، أو بقرارات نزع الملكية بمراسم يصدرها المندوب السامي تباعاً .

فأجابته ميلاد :

– لا مفر للبريطانيين من الاستجابة للضغط العالمي المسلط عليهم ؛ فبسبب سياسة هتلر النازية بتصفية بعض الأعراق ، وفي مقدمتهم اليهود ، عمد الآلاف منهم إلى الهرب واللجوء إلى فلسطين .

– ولكن ما ذنبنا نحن العرب لندفع ثمن حماقات أنظمة أوربية تصارع بعضها بعضاً؟

تساءل زكريا ليتابع قائلاً :

– الأمر غاية في الجدية ؛ فرئيس وزراء بريطانيا تشرشل عمد منذ سنوات إلى تأليف فرقة يهودية كاملة التجهيز . كما أن حكومة الانتداب لجأت ، على امتداد سنوات الحرب ، إلى تجنيد خيرة شباب اليهود مشركة إياهم في عملياتها الحربية ، كما استدعت الجنرال ويتجييت ، خبير حرب العصابات والذي قاد القوات البريطانية ضد

عصابات الملايو وبورما ، فكلّفته بتدريب منظمة (الهاجانا)[١] اليهودية المتطرفة على حرب العصابات .

واستطرد يائساً :

– والأدهى من ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية أخذت تنافس بريطانيا في تبنّيها لفكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ؛ فبعدما عمد أعضاء الكونجرس إلى توقيع عريضة بهذا الشأن ليقدموها لروزفلت تبرّع خلفه ترومان ، حال تسلمه مقاليد رئاسة الجمهورية بعد وفاة روزفلت ، بالطلب من الحكومة البريطانية إدخال مئة ألف يهودي إلى فلسطين .

وكانت الجرائد التي يتصفحانها ، أثناء جلوسهما في ذلك المقهى ، تكرّس مانشيتاتها وافتتاحياتها لأحداث الساعة مفاقمة بذلك من رعبهما ؛ إذ إنها لم تكن تكفّ عن التنويه بضرورة أخذ الحيطة والحذر مما قد يقدم عليه الرئيس الأمريكي ترومان ؛ فقد بات مرهوب الجانب على أثر فرضه الاستسلام على اليابان بعد ضربه هيروشيما وناكازكي بقنبلتين ذريتين تسببتا في مقتل آلاف اليابانيين . وكانت بعض الصحف تتطرق إلى مشروع أمريكي بريطاني قُدّم إلى هيئة الأمم

(١) الهاجانا : منظمة إسرائيلية إرهابية أنشأها بعض اليهود المتطرفين بعد اكتشافهم أن الاعتماد على سلطات الانتداب البريطانية لم يكن كافياً لحماية سيول المهاجرين اليهود القادمين من شتى أنحاء العالم إلى فلسطين ، وقد كان أعضاء هذه المنظمة من الشبان الأقوياء المتحمسين النازحين من دول شرق أوربا . وبدأت عملياتها الإرهابية بشكل منظم فقامت بمجازر جماعية بحق الفلسطينيين لأجل إرهابهم ونزوحهم وصولاً منها إلى الاستيلاء على الأرض وإقامة المستعمرات .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقضي بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وكانت صحف أخرى تتساءل متهكمة عن دور الجامعة العربية من كل هذه الأحداث؟ ألا يفترض بها العمل على تجنيب الفلسطينيين ما يعد لهم في الخفاء عوضاً عن إرسال برقيات الاحتجاج وعقد اجتماعات تتخذ مقررات سرية وعلنية لا ينفذ منها عادة إلا أوهنها وأقلها شأناً مثل إصدار أحكام مقاطعة البضاعة اليهودية ووضع طوابع بريدية ومالية في كل دولة عربية يرصد ريعها لعرب فلسطين؟!

وفي البيت كان زكريا يحرص على متابعة إذاعة لندن التي دأبت ، منذ الأيام الأخيرة من شهر تشرين الثاني ، على ملاحقة أخبار المشروع المعروض على الأمم المتحدة والذي كان يهدف إلى تقسيم فلسطين . وكان إسماعيل ورمزي يشاركانه في تلك الجلسات فضلاً عن عطا الذي كان يذكّر زكريا بتلك الفترة من عمره حينما كان يقاربه في السن يوم تعرّف إلى قضية بلاده عن طريق الصحف قبل أن يهتدي ، بعد سنوات ، إلى جريدة (الكرمل) وكتابات صاحبها نجيب نصار المتعلقة بهذا الشأن ، كان عطا مثله تماماً في تلك المرحلة من عمره : يكتفي بالإصغاء إلى ما يجري حوله من نقاشات متهيباً من المشاركة فيها .

وفضحت نشرات الأخبار عمليات تأجيل التصويت على ذلك المشروع أكثر من مرة حرصاً من الولايات المتحدة وبريطانيا على الوصول إلى إقناع العدد المطلوب من الدول - ترغيباً وترهيباً - للاقتراع في صالح المشروع . حتى إذا ما تحقق ذلك وتم الإعلان عن تقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية بادل زكريا الجالسين في الغرفة نظرة ذهول قبل أن ينسحب إلى غرفته ليلجأ إلى فراشه لا لرغبته في النوم - ذلك

لأنه لم يغمض له جفن حتى سماع صوت المؤذن يأتيه من المسجد الأقصى وهو يؤذن للفجر - بل لإمعان الفكر قبل اتخاذ القرار الحاسم الذي بقي يتهرّب من اتخاذه حتى الآن مكتفياً بالاشتراك في المظاهرات فقط .

وعمّت التظاهرات القدس ، ومدناً فلسطينينة عديدة ، بل غالبية العواصم العربية . حتى إذا ما حلّ يوم الثامن من كانون الأول أعلن أن اللجنة السياسية في الجامعة العربية بدأت سلسلة اجتماعات في القاهرة وسط هدير أصوات المتظاهرين لتصدر بعد أيام بياناً لم تكتف بالتنديد فيه بقرار التقسيم(١) وعدّه باطلاً فقط ، بل أكدت عزم الدول العربية ، وبعدما أغلقت الأمم المتحدة أبواب الحق والعدل أمام العرب ، على خوض المعركة سعياً منها لتستقرّ مبادئ الأمم المتحدة وتسود الأراضي المقدسة مبادئ العدالة والمساواة بين الناس أجمعين . . وهكذا قررت تلك اللجنة تقديم الأسلحة وتوزيعها على أهل فلسطين حالاً . يومها فكّر زكريا جاداً بالاستعانة بإسماعيل الذبيح ليلقّنه كيفية الرمي بالبنادق!

---

(١) قرار التقسيم : هو القرار الذي أصدرته (اللجنة الفنية) برغم اعترافها بأن العرب يشكلون الأغلبية الساحقة في فلسطين مقارنة بعدد اليهود ، ولكنها سارت على وفق السياسة البريطانية التي كانت تهدف جاهدة إلى خلق ركيزة استعمارية وسط الوطن العربي ؛ فجاءت توصيات هذه اللجنة داعية إلى تقسيم جديد لا يختلف في جوهره عن التقسيم السابق .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(١٨)

وسط رنين أجراس كنائس القدس ، وهي تدقّ محتفية بميلاد المسيح ، كان على فاطمة أن تتلقى من زوجها أشدّ قرار يبعث على الفزع في حياتها : التحاق ابنها عطا بإحدى الوحدات المقاتلة! . . وحينما حاولت إبداء الاعتراض ، وقد صعقتها المفاجأة ، لسعها زوجها بنظرة ثاقبة ليخاطبها بحسم :

– لقد كبر عطا يا فاطمة ؛ بات في السابعة عشرة من عمره . يفترض به الآن الاقتداء ليس بي أنا وحدي فحسب ، بل بأخواله الخمسة ، وفي مقدمتهم رمزي ؛ فبرغم وضعه المعروف كان أكثر أشقائك حماسة للتطوع حتى أنه صرخ بالمسؤولين ، حينما تلكأوا في تسجيل اسمه ، مذكّراً إياهم بأنه فقد ذراعه في حرب حقيقية خاض غمارها قبل أن يولدوا هم . وأكّد لهم أنه يكفيه أن يزود ببضع قنابل يدوية ليعرف كيفية التعامل معها مستعيناً على ذلك بأسنانه إن اقتضاه الأمر ؛ فهو على دراية تامة بهذا السلاح . والتفت نحوي مستشهداً بي على ما يقول .

وأردف إسماعيل بنبرة أكثر ليناً :

– لقد التحق أبناء منيف وحليم وسميح الكبار بالمقاتلين أيضاً ؛ فحريّ بعطا أن يصبح خير مثال لأشقائه الثلاثة الأصغر منه : محمد وفؤاد وجابر ؛ لأن الدلائل كلها تشير إلى أن مشكلة هذه البلاد مع

المهاجرين اليهود لن تُحل بخوض معركة أو اثنتين ، بل قد تمتدّ المعارك أعواماً ليشارك فيها حتى هذا الذي لا تزالين تحملينه في بطنك .

وغادرها بعدما لمس بطنها المكوّر بحركة مداعبة .

لم تكد فاطمة تختلي بنفسها في غرفتها حتى تنبهت إلى أجراس الكنائس وهي لا تزال تواصل الدقّ لتتردد الأصداء في سماء المساء ، فتهالكت جالسة أمام صندوق ملابسها متذكّرة أعواماً مضت كانت لا تزال فيها خالية البال مما يخبئه المستقبل من كوارث ومحن ستحيق ببلادها ؛ حينها كانت دقّات مماثلة لهذه الدقات تملؤها فرحاً وسعادة ؛ ذلك لأنها اعتادت مشاركة جاراتها المسيحيات في احتفالهن الذي ينهين به ، في اليوم التالي ، صوماً امتد على مدى ثلاثة وأربعين يوماً تجنّبن خلاله تناول اللحوم ، عدا السمك ، مع ما يرافق ذلك من إعداد الطعام بالزيت وحده ليتقاطرن بعدها ، مع حشود الرجال والأطفال ، على الكنائس ، ولا سيما كنيسة القيامة ، وهنّ يرفلن بأجمل زينة وقد تضمّخن بالعطور .

وأخذت فاطمة تقلّب ما بين يديها في الصندوق من قطع ملابس وقد اختلطت ألوانها ، بفعل الدموع التي ملأت عينيها ، فتداخل الأحمر بالأخضر والأصفر بالأزرق . . . ألوان أيقظ كل واحد منها لديها ذكرى مناسبة مماثلة لهذه المناسبة .

وبقيت فاطمة ، على امتداد الأسابيع اللاحقة ، لا تستطيع الإمساك بدموعها كلما خطر لها عطا ، شاعرة بكل رصاصة تنطلق في سماء القدس وكأنها تستهدفه هو وحده دون آلاف المقاتلين . وكانت العيارات النارية قد عادت تتردد بين ساعة وأخرى ، يتخللها دويّ انفجارات كانت تطيح ببيوت وأبنية حكومية ، يعقبها تصاعد أعمدة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حرائق يُحدد بوساطتها الحي المنكوب .

ولم تهدأ فاطمة إلا يوم قام عطا بزيارته الأولى إلى البيت وهو بملابس المقاتلين الكاكية ، فارتمت عليه لتشبعه لثماً ، سافحة فيض دموعها على صدره وهي تتنسّم رائحة عرقه النفّاذة التي طغت إلى الأبد على تلك الرائحة البريئة التي اعتادت أن تشمّها فيه منذ طفولته . فوجئت به وكأنه كبر خلال هذه المدة القصيرة ؛ فقد استطالت أطرافه وقست مفتقدة استداراتها الطفولية السابقة . وكان الزغب الذي يغطي عارضيه قد ازداد كثافة ، وأضحت حركاته أهدأ وأكثر رزانة حتى أن فاطمة غالبت ضحكها بصعوبة وهي ترى في ابنها نموذجاً فتياً لإسماعيل الذبيح .

حاولت جهدها تعويضه عمّا افتقده وهو بعيد عن رعايتها ؛ فسارعت تسخّن له الماء مجبرة إياه على الاستحمام ، لتنهمك بعدها في إعداد أشهى المأكولات إلى نفسه متخمة إياه بها . عملت كل ما في وسعها لإدخال السرور إلى نفسه ، بيد أنه كان في شاغل عن اهتمامها به بالحديث عما يجري هناك من عمليات قنص ونصب كمائن وإقفال طرق وتدمير أبنية تُعدّ أوكاراً لمؤسسات إرهابية متطرفة .

وكانت ترابط قرب فراشه حتى ساعة متأخرة من الليل ، ولا تتركه إلا بعدما تنتظم أنفاسه وقد نام . ولكنها كانت تفاجأ به أحياناً يسألها بما لا يخطر لها على بال ؛ فذات ليلة سمعته يغمغم متسائلاً :

– أسبق لك أن سمعت باسم عبد القادر الحسيني يا أماه؟

– ومن الذي يجهل هذا القائد المشهور الذي هو واحد من قلّة مثل فوزي القاوقجي وحسن سلامة لا يكفّ الناس عن الإشادة ببطولاتهم؟

ردّت وهي تتهيأ للانصراف . لكن عطا عاد يتكلم مجدداً :

- بيد أنك لم يسبق لك أن عرفت أنه خريج الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وأنه يحمل منها شهادة بالصحافة والتاريخ.

وانثنى جالساً في فراشه ليتابع وهو يغالب ضحكه:

- أتدرين كيف تصرف يوم تسلّم شهادته من تلك الجامعة؟ اسمعي... لقد بقي يتابع بعينيه زملاءه، خريجي دورته، وهم يسبقونه في صعود المنصّة كلما نودي أحدهم باسمه، حتى إذا ما حلّ عليه الدور وتسلّم شهادته تطلّع، من فوق المنصّة، إلى صف كبار الأمريكيين الجالسين تحت بصره في القاعة ليخاطبهم قائلاً إنه لا يتشرّف بشهادة يتسلّمها من جامعة يبارك المشرفون عليها الصهاينة في عملهم الدؤوب على سلب بلاده فلسطين، وإنه لا يسعه أن يفرح بشهادة منحت له من جامعة ليست أكثر من وكر للاستعمار والتبشير وقاعدة لأعداء العرب. ووسط ذهول هؤلاء الأمريكيين - وقد عقدت الدهشة ألسنتهم - مزق شهادته تلك ليلقي بنتفها في وجوههم قبل أن يغادر القاعة!

وتابع عطا ملخّصاً لها حياة هذا القائد الذي أسهم في الثورة الفلسطينية الكبرى؛ فجرح في موقعة قرية الخضر، ليحاصر بعدها في معركة بني نعيم التي أصيب فيها بجرح بليغ، ولم يسلم من الوقوع في أسر الإنكليز إلا لأنهم حسبوه من ضمن الضحايا، فعمد رفاقه، بعد إخلائه، إلى التوجّه به إلى مستشفى الخليل الذي بادروا بالسيطرة عليه. وبعدما قطعوا خطوط الهاتف أرغموا الطبيب البريطاني على علاجه ليحملوه بعدها على ظهر بعير إلى دمشق حيث أتمّ علاجه هناك.

منذ تلك الليلة اقترن اسم عبد القادر الحسيني لدى فاطمة باسم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ابنها عطا : لا يكاد أحدهما يخطر لها حتى تتذكر الآخر . وكان قد بات من دأبها ، كلما قدم أحد أفراد الأسرة المقاتلين إلى البيت ، أن تسأله بعد الاطمئنان على عطا ، عن آخر أخبار عبد القادر الحسيني!

سؤال بدا مثيراً للدهشة في أول الأمر ، حتى إذا ما انكشف السرّ من خلال أشقاء عطا الصغار الذين تدافعوا متحدثين عن مبلغ إعجاب شقيقهم الأكبر بهذا القائد ، اعتاد الجميع أن يحدّثوا فاطمة عنه مزودين إياها بشذرات من حياته الحافلة بالتحديات ، وكيف أنه أسهم في ثورة مايس العراقية سنة ١٩٤١ التي قادها رشيد عالي الكيلاني ؛ فاضطر إلى التسلل ، بعد فشل تلك الثورة وعودة الوصي على العرش العراقي إلى بغداد مصطحباً معه الجنود الإنكليز ، اضطر إلى التسلل إلى إيران ليبقى فيها مدة من الزمن قبل أن يعود من كرمنشاه متخفّياً إلى بغداد قاطعاً مسافة ألف كيلومتر سيراً على قدميه خلال خمسة وعشرين يوماً .

وامتلأت فاطمة إعجاباً حينما قيل لها إن هذا القائد اعتمد في خططه في عمليات النسف على عدد ممن سبق لهم الإسهام في الثورة العربية ؛ فمنذ صدور قرار التقسيم سارع عبد القادر الحسيني بالتوجّه إلى مصر خلسة ليبدأ بشراء الأسلحة مخزّناً إياها في مخبأ سري في ضواحي القاهرة . ولم يرجع إلى فلسطين إلا بعدما تمّ تعيينه ، من قبل أمين الحسيني ، قائداً لفرقة الجهاد المقدس ، إذ باشر من فوره في الاتصال بمن اشتهر بخبرته العسكرية وبضمنهم إسماعيل الذبيح بطبيعة الحال .

بدا جميع أفراد الأسرة متحمسين لما يجري عدا زكريا ؛ فقد لاحظته فاطمة وهو يزداد كآبة في كل زيارة له إلى البيت ؛ فكانت

تعمل جهدها على الاهتمام به ، شأنها مع عطا تماماً ، محاولة ، في الوقت نفسه ، اكتشاف سر معاناته ؛ ذلك لأنها عرفت بقصّة تعلّقه بتلك المعلمة المسيحية ميلاد ، هذه القصة التي أضحت ، بعد مرور هذه الأعوام كلها ، معروفة ليس عند أفراد الأسرة فحسب ، بل عند المعارف والجيران . وعمدت ، ذات يوم ، إلى سؤاله عن سر امتناعه عن الزواج وقد تخطى الخامسة والثلاثين من عمره؟ فأجابها مداعباً وقد أدرك ما يكمن وراء سؤالها كما يبدو :

– لأن التي أريدها زوجة لي لم تكبر بعد!

وسارع يضيف مغيّراً موضوع الكلام :

– أنا قلق مما يجري في بلادنا يا أختاه ؛ ذلك لأن البريطانيين لم يحددوا الخامس عشر من مايس موعداً لانتهاء انتدابهم إلا بعدما أيقنوا أنهم نفّذوا وعد بلفور عملياً بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

– ولكنكم ، أنت وآلاف المقاتلين ، لن تسمحوا لهم بذلك ؛ إذ إنكم تتصدون لهم ببسالة .

– الأمر كما تقولين ؛ فبرغم بدائية أسلحتنا وقلة ذخائرنا إلا أننا لم نسمح حتى الآن باحتلال مدينة أو قرية واحدة .

ومضى يعدد لها العمليات التي نفّذها المقاتلون على امتداد فلسطين : مثل نسف معمل السبرتو القائم عند مدخل يافا ، وكذلك نسف عمارة حسبون على طريق يافا القدس ، فضلاً عن تفجير مراكز مهمة أخرى في مستعمرة بيت يام ، وورشة النجارة الكبيرة في مدخل شارع هرتزل بتل أبيب ، والمصنع الكبير للطوب والجير في مجدل الصادق قرب مستعمرة بتاح تكفا ، والمركز العسكري اليهودي في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مستعمرة هاتكفا ، وعمارة المقاصد الكبرى ، وحصن قرب قرية البرج ، ومركز عسكري قرب مستعمرة ياجور وأهداف أخرى في اللد وصفد وطبريا .

وخلص إلى القول :

– ولو أضفنا إلى كل هذه العمليات نسف الوكالة اليهودية ، وإقفال شارع بن يهودا ، وشارع مونتفيوري ، وكذلك إقفال محور باب الواد الذي أدّى إلى حصار أكثر من مئة ألف يهودي في القدس لانتهينا إلى أن الحرب تجري في صالحنا . . .

فقاطعته فاطمة مستغربة :

– ذلك ما يبدو حتى لواحدة مثلي جاهلة بهذه الأمور فما مسوغ قلقك؟

تأمّلها زكريا لحظات قبل أن يقول :

– الأمر كما تقولين يا أختاه ؛ إذ تبدو الحرب ظاهرياً وكأنها تجري في صالحنا ، في حين تبرهن الوقائع على أن ذلك لن يستمرّ إلى النهاية ؛ فمن الواضح أن اليهود لم يضيّعوا وقتهم سدى في مجال التجارة والاقتصاد ، فما ظنك بهم في المجالات العسكرية إذن؟!

(١٩)

وكانت أكثر الأخبار مبعثاً لقلق فاطمة تلك المتعلقة بقرية القسطل ؛ فقد أخذ اليهود يستهدفونها بمعارك متواصلة كانت أخبارها تصل سريعاً إلى القدس ؛ إذ إنها تقع على مبعدة خمسة كيلومترات فقط إلى الغرب منها .

كانت فاطمة تعرف أن زوجها وابنها وأغلب أشقائها وأبنائهم يقاتلون في تلك القرية ؛ فكانت تدعو الله ، في كل صلاة من صلواتها ، أن يشملهم برعايته ، وأن يجنّبها مرارة فقد أحدهم . وكانت ، في كل تحركاتها على امتداد ساعات النهار ، مشدودة السمع إلى الباب ؛ ما أن تسمع طرقاً حتى تهرع نحوه خافقة القلب لا تكاد تبصر طريقها . ولم تكن تهدأ إلا عند قدوم الليل ؛ فبعدما كانت تتأكد من رقاد أبنائها الثلاثة على أسرّتهم كانت تطفئ الضوء وتتحسس طريقها نحو فراشها شاكرة الله لأن يوماً آخر قد مر بسلام .

بيد أن ما كانت تخشى حصوله وقع أخيراً ؛ فقد جفلت ، ذات صباح ، على طرق الباب لتفاجأ بأحد أبناء أخيها حليم يدخل عليها بوجه انحسرتْ الدماء عنه ليخبرها ، دون مقدمات ، بأن أباه قد أصيب بجروح عند مشارف القسطل!

وتحاملت فاطمة على نفسها - وقد هالها اضطراب الصبي - لتسأله إن كان قد جيء بأبيه إلى البيت؟ فهزّ الصبي رأسه نفياً قائلاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنه يرقد في المستشفى ، وإن أمه بعثت به إليها لتلحق بها هناك .

– ولكنْ . . . في أي مستشفى هو راقد الآن؟

سألته وقد فاض بها الكيل . وحينما وجدته يبادلها نظرة حائرة سارعتْ إلى استبدال ملابسها ، وتلفّعت بملاءة وهي تنعى على نفسها غباءها الذي دفع بها إلى أن تورّط أخاها المسكين حليم بالزواج من فتاة اشتهرت بين صديقاتها بالكسل وعشق النوم . وانطلقت تجوب أزقة القدس وشوارعها ، والصبي في رفقتها ، متسقّطة ، في سرّها ، مثالب زوجة أخيها وعيوبها وهي تهيّئ نفسها لخوض معركة مع هذه البليدة التي كان يفترض بها أن تذكّر ابنها الذي لا يقل عنها بلادة – من المؤكد أنه جاء على شاكلتها تماماً – باسم هذا المستشفى اللعين!

وغادرت القدس القديمة لتتنقل بين المستشفيات المبعثرة في أحياء متباعدة بادئة بحي الشيخ عكاشة حيث يقوم المستشفى الألماني المجيدي أكبر مستشفيات القدس ، لكنها فوجئت ببابه مغلقاً . وحين سألت أحد المارّة عن سر ذلك ، أجابها هذا مستغرباً :

– لا يعقل أن تكوني من قاطني القدس يا أختاه وتجهلي أن هذا المستشفى قد أغلق أبوابه منذ ثمانية أعوام على إثر قيام الحرب العالمية!

وحين فهم منها غرضها من السؤال نصحها بالتوجه إلى المستشفى الإيطالي ؛ إذ يقال إنه استقبل بعض الجرحى ؛ وهكذا عادت فاطمة إلى طريق القديس بولص لتدخل ذلك المستشفى القائم عند مفترق الطرق المؤدية إلى باب العمود في منطقة الطليانية . إلا أنها لم تجد شقيقها بين الجرحى الراقدين على الأسرّة ، فاتجهت بعدها إلى المجمع الروسي المشهور باسم المسكوبية حيث يقوم المستشفى الروسي . وحين لم تحصل على بغيتها عزمت أمرها فاتجهت نحو منطقة عقبة المنزل التي

يقوم فيها دير اللاتين الفرنسيسكان . وهناك عند باب المستشفى الفرنسي المعروف باسم مستشفى القديس يوسف الملاصق لدير نوتردام تنبهت لمن يناديها باسمها من وسط الجمع المتزاحم . لم يكن غير سميح الذي تقدّمها داخلاً المستشفى وهو يقول :

– منذ ساعة وأنا واقف في الباب في انتظار قدومك .

فأجابته فاطمة وهي تشقّ سبيلها وسط زحام المراجعين :

– إنها ساعة أضعتها – بفضل ذكاء زوجة حليم المعهود! – بالتنقّل بين مستشفيات القدس حتى أنني لم استثنِ منها إلا مستشفى روتشيلد ليس لبُعده ، بل ليقيني باستحالة أن يُسمح لجرحى فلسطينيين بالرقود في مستشفى مخصص لليهود!

واستقبلها حليم ، الراقد على سريره وسط عشرات الجرحى ، بابتسامة بددت قلقها ، فانحنت عليه تقبّله متجاهلة زوجته الجالسة على طرف السرير المجاور . وعلّق سميح ضاحكاً :

– لا خوف على حليم من شظايا القنابل ؛ ذلك لأن أطرافه تحوّلت إلى كتل صلدة لطول تعامله مع الرخام والحجر .

وحاول حليم أن يبرهن على صحة كلام شقيقه بأن رفع ذراعه الملفوفة بالضماد عالياً ليعيدها إلى موضعها مطلقاً صرخة ألم سوّغها سميح بقوله :

– لا ضير من ذلك ؛ فحتى الرخام لا يخلو من صدع هنا وهناك .

ولخّص سميح لفاطمة ما جرى في القسطل موضّحاً أن عصابات الهاجانا ألقت ، ومنذ الثالث من نيسان ، بكل ضغطها على مواقع المجاهدين هناك مستهدفة فتح الطريق إلى القدس الجديدة ؛ فمنذ أحكم الفلسطينيون السيطرة على تلك الأماكن مغلقين بذلك ممر باب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الواد باتت الأحياء اليهودية بحكم المحاصرة حتى أنهم اضطروا إلى تزويدهم بالمؤن والمعدات بإلقائها عليهم بالطائرات . وبلغت المعارك من العنف والضراوة أن ذخائر المدافعين عن القسطل أوشكت على النفاد ؛ فاضطرّ قائد فرقة الجهاد المقدس عبد القادر الحسيني إلى الإسراع بالذهاب إلى دمشق ليطلب السلاح والذخائر من اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية ، بيد أن القسطل وقعت بأيدي اليهود ، والحسيني لا يزال في دمشق .

وعلّق حليم بمرارة :

– لقد ذهب أحد قادتنا إلى رام الله القريبة لأجل استنهاض همّة الجيش لاسترداد القسطل التي تعدّ بمثابة البوّابة المؤدية إلى القدس ، بيد أن الجنرال البريطاني غلوب باشا(١) قائد ذلك الجيش رفض السماح لهم بالتدخّل .

ذلك اليوم أصرت فاطمة على مغادرة حليم المستشفى ما دام جرحه طفيفاً . لكن زوجته أبدت استغرابها منوّهة بضرورة أن يبقى في المستشفى حتى يتم شفاؤه ، فأجابتها فاطمة وهي لا تزال تصرّ على أن تتجاهلها :

– اطمئني يا أختاه : سأصحبه معي إلى بيتي أنا ، وأرعاه قدر ما يشاء ، وسيسعك النوم في بيتك ما طاب لك ذلك .

فردت المرأة بتسليم :

---

(١)غلوب باشا : جنرال إنكليزي عينته حكومة شرقي الأردن رئيساً لأركان حرب الجيش الأردني ، وكان هو الذي يقود ذلك الجيش أثناء الحرب العربية الإسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨ .

- أعدت إلى هذا الكلام القديم يا فاطمة؟ عن أي نوم تتحدثين وأنا محاطة بجيش من الأطفال؟

- ذلك ما يدهشني حقاً ؛ إذ كيف تسنّى لك أن تلدي ذلك الجيش وأنت لا تغادرين فراشك إلا فيما ندر؟

فغمز سميح فاطمة ليعلّق بمكر :

- ولكن مرابطتها في الفراش يسهّل على حليم البطل القيام بهذه المهمة!

فتعالى ضحك الشقيقين ، في حين أشاحت المرأتان بوجهيهما وهما تضحكان على استحياء ، وكان ابن حليم الوحيد الذي ضجّ في الضحك برغم يقين فاطمة أنه يجهل مغزى ما قيل!

لم يكد حليم يحظى برعاية فاطمة في بيتها مدة يومين حتى قدم سميح مجدداً ليعلن حال جلوسه قرب فراشه :

- لقد عاد عبد القادر الحسيني البارحة من دمشق قاطعاً المسافة التي تفصلها عن القدس خلال عشرين ساعة!

- وهل زوّدته اللجنة العسكرية بالسلاح اللازم لتطهير القسطل من المحتلين اليهود؟

سأل حليم ملهوفاً ، فردّ سميح وقد أظلم وجهه :

- لا بطبيعة الحال ؛ فالمشرف العام على جيش التحرير وعلى اللجنة العسكرية طه الهاشمي لم يبدِ حرصاً على تأمين السلاح والذخائر يوازي حرصه على المحافظة على مواعيده الدقيقة لزيارة نوادي دمشق وأماكن الترفيه الأخرى فيها!

وأضاف بيأس :

- وعلى كل حال ذلك هو دأب هذا الرجل ؛ فمن المعروف عنه أنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اعتاد أن يقابل بالرفض والصدود وعدم المبالاة مندوبي اللجان القومية والمدن والقرى المهددة بالاجتياح اليهودي كلما قدموا إليه ليزوّدهم بالأسلحة والذخائر المكدّسة في مخازن اللجنة العسكرية بعذر حاجته إلى ذلك السلاح لإنشاء فوج جديد لجيش الإنقاذ!

ومضى سميح يتحدث عن رحلة عبد القادر الحسيني الفاشلة إلى دمشق وعودته إلى القسطل بصحبة رفيقه الملازم له قاسم الريماوي ، وقد قرر الانتصار على الأعداء أو الاستشهاد .

ولم تستطع فاطمة السيطرة على نفسها أكثر من ذلك ، فأجهشت في البكاء وقد خطر لها ابنها عطا تلقائياً ؛ ترى كيف سيتصرّف الآن وقد سمع بهذه الأنباء دون شك؟

وأضاف سميح بأسى :

– وما أجج غضب عبد القادر الحسيني لحظة وصوله ورود أخبار تفيد بأن اللبنانيين جمعوا تبرعات اشتروا بها من بلجيكا ٧٨٥ بندقية و١٧٥ رشاشة وصلت في تكتم شديد إلى ميناء بيروت قبل وقوع معركة القسطل بأيام . وكان مقرراً تسليمها إليه هو شخصياً وإلى زميله القائد الآخر حسن سلامة ، بيد أنها أضيفت إلى كميات السلاح السابقة الموجودة في مقر اللجنة العسكرية لتكدس هناك ؛ فقرر الحسيني خوض معركة القسطل رافضاً الاستجابة لنصائح الذين طالبوه بالتريث ؛ ذلك لأنه صمم على الاستشهاد ليدين بذلك أولئك القابعين وراء مكاتب اللجنة العسكرية إدانة لن ينساها التاريخ!

لم يكد حليم يغادر فراشه ليرافق أخاه إلى القسطل حتى عادت فاطمة تغالب دقات قلبها ، من جديد ، مع كل طرق على الباب . وفي فجر اليوم التالي ، وهي تتهيأ ، للوضوء ، تنبهت للغط في الزقاق وحركة

رواح ومجيء ، فسارعت إلى فتح الباب لتبصر ، وسط خيوط المطر الذي لم يكف عن الهطول منذ البارحة ، أغلب شباب الجيران وقد تنكبوا البنادق حاملين (زواداتهم) وهم يستعدون لمغادرة بيوتهم . وسرعان ما عرفت منهم أن الأخبار الواردة من القسطل أفادت بأن عبد القادر الحسيني بصدد تنفيذ وعده بتحرير القسطل اليوم . ظهراً انتشرت شائعة في الزقاق تفيد باستشهاد عدد من المجاهدين أثناء محاولتهم تحرير القسطل ؛ فقضت فاطمة يوماً عصيباً كانت تتوقع خلاله ، مع كل دقّة على الباب ، سماع نبأ مروّع .

على هذا المنوال مرّ بها يوم آخر بدا بطول دهر ، حتى إذا ما حلّ نهار الثامن من نيسان تنبهت لضجة عدد من رجال الزقاق وهم يغادرون بيوتهم ببنادقهم لنجدة عبد القادر الحسيني وذلك بسبب إحاطة اليهود به من كل حدب وصوب بعد تمكّنه ، بمن معه من المجاهدين ، من اقتحام القسطل .

صباح ذلك اليوم عجزت فاطمة عن إعداد الفطور لأطفالها ؛ فحين حاولت إشعال النار انطفأ عود الثقاب بين أصابعها الراجفة ثلاث مرات ؛ فتركت الموقد وقد امتلأت تشاؤماً . ولم تكد تمر ساعة حتى ضجّ الزقاق بأخبار فكّ المجاهدين الحصار عن عبد القادر الحسيني ونجاحهم في دخول القسطل مكبّدين اليهود ثلاث مئة وخمسين قتيلاً ؛ فأسرعت فاطمة إلى إشعال نارها وقد استخفّ بها الطرب ، حتى إذا ما انتهت من إطعام أطفالها لتشرع في تناول فطورها غصّت بأول لقمة وهي تسمع المؤذنين يؤذنون من منائر المسجد الأقصى ومن المساجد الأخرى ، في حين شرعت الكنائس تدق نواقيسها حداداً!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحين هرعت نحو الباب لتسأل أول عابر سبيل عمن مات؟ أجابها أنه عبد القادر الحسيني!!

ما الذي حصل؟ وما معنى اقتران نجاح المجاهدين بتحرير القسطل بهذا الحادث الجلل؟ سؤال محيّر أفقد فاطمة القدرة على البكاء وهي تفكر بابنها عطا لحظة سماعه بهذا النبأ المروّع .

ضحى فوجئت بزوجة سميح تدخل البيت يتقدمها أطفالها لتخبرها أنها قدمت من الشماعة امتثالاً لنصيحة زوجها الذي مرَ عليها في البيت دقائق ليخبرها بضرورة الاحتماء بالمدينة القديمة المحصّنة بالأسوار بعدما أوشك طريق القدس أن يصبح مفتوحاً أمام اليهود . قالت إن سميح أخبرها بحقيقة ما جرى : فبعدما نجح المجاهدون في اقتحام القسطل فوجئوا بقائدهم عبد القادر الحسيني ممدداً عند أول البيوت مضرجاً بدمه وقد فارق الحياة ؛ فحملوه إلى المسجد الأقصى للصلاة عليه قبل دفنه تاركين في القسطل قوة صغيرة من المجاهدين سرعان ما أبيدوا على أثر مهاجمة اليهود لهم مستعينين بالمصفحات التي زودهم بها البريطانيون ، ليعمدوا ، حال سيطرتهم على القرية ، إلى تدمير كل ما فيها من بيوت وحصون ومساجد .

– معنى ذلك أنهم الآن بصدد مهاجمة كل القرى والأحياء العربية التي تفصلهم عن القدس!

هتفت فاطمة وهي تزدرد لعابها بصعوبة . وحين هزّت زوجة سميح رأسها مؤيّدة عادت فاطمة تصيح وقد فقدت السيطرة على نفسها :

– في هذه الحالة أما كان يفترض بزوجة حليم أن تكون قد سبقتك بالقدوم بأطفالها ؛ إذ إن بيتها القائم في حي الشيخ جراح يقع

على مرمى حجر من جبل سكوبس حيث يقوم مستشفى هاداسا والجامعة العبرية المركزان الرئيسان لتجمع اليهود؟

ليلاً ، وبعد نجاحها في إعداد عشاء مناسب لكل تلك الأفواه ، فوجئت بإذاعة لندن تعلن ، في نشرة أخبارها ، عن حصول مجزرة في قرية دير ياسين الواقعة بين القسطل والقدس ، ذهب ضحيتها العشرات من العجائز والنساء والأطفال ؛ فسارعت فاطمة بالتقاط ملاءتها وقد صممت على المجازفة بالذهاب إلى حي الشيخ جراح لتأتي بتلك (المرأة) قسراً ولو اقتضاها الأمر سحبها من أذنها . بيد أن زوجة سميح هدأتها محذّرة إياها من أن المدينة لم تعد مأمونة في النهار ، فكيف بها في الليل حين يتربص المتحاربون بعضهم ببعض خلف كل منعطف؟ ولبثت الاثنتان ساهرتين حتى الفجر متخذتين من زوجة حليم ضحية مثالية لهما تفرغان فيها كل ما تراكم في صدريهما ضدها من غيظ .

وحلّ صباح جهم لم يكفّ المطر فيه عن الهطول ، وبقدومه تحوّل قلق فاطمة إلى هلع حقيقي وهي تسمع إحدى جاراتها تحدّثها عما وقع في دير ياسين ؛ فقد ذُبح أكثر من مئتين وخمسين رجلاً وامرأة وطفلاً . قالت المرأة ، وهي تتهيأ للانصراف ، إنه يشاع أن بعض الجنود اليهود كانوا يراهنون على ما في بطون النساء الحوامل اللائي في أسرهم : أذكور هم أم أناث؟ ولأجل التحقق من نتيجة الرهان كانوا يعمدون إلى بقر البطون بحراب بنادقهم قبل أن يرفعوا بها الأجنّة!

– لن تفلحي هذه المرة في منعي عن الذهاب إلى حي الشيخ جراح!

أعلنت فاطمة بعزم مخاطبة زوجة سميح وقد التقطت ملاءتها ملقية بها على كتفيها لتتنبّه ، في اللحظة نفسها ، لباب البيت يفتح

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مرسلاً صريراً شعرت معه بالجنين يتحرك في أحشائها ؛ فالتفتت في ذلك الاتجاه وقد أنبأها قلبها بحصول أمر مروّع . رأتْ زوجها إسماعيل الذبيح يقف هناك تحت الرذاذ المتساقط يتأمّلها بعينين مفتوحتين على سعتهما وقد حاكى وجهه وجوه الموتى بياضاً . بقي الاثنان يتبادلان النظر دون أن يجرأ أحدهما على كسر الصمت . وبقي المطر وحده يرسل إيقاعه الخافت . تركت فاطمة ملاءتها تنزلق خلف ظهرها لتتكوم بين قدميها على الأرض وهي تغالب دقات قلبها لتتساءل بصوت بدا وقعه غريباً على سمعها :

- أهو عطا؟

وحين رأته يهزّ رأسه نفياً بذلت جهداً جباراً لتبتلع لعابها مراقبة إياه بعينيها وهو يدنو منها ليحتضنها بين ذراعيه - وكانت تلك أول مرة يحتضنها فيها على مرأى من الآخرين - ليرجوها بصوت متهدج :

- فاطمة . . أرجوك . . ساعديني . . أتوسل إليك . . لا تصعّبي عليّ هذه المهمة التي أراها أكثر ثقلاً من الجبال!

- أهو زكريا إذن؟

صرختْ وهي تضربه بكفيها في صدره . وتعقبته بعينيها وقد تركها ليتّجه نحو زوجة سميح التي بقيت تتطلع إليه بعينين لا تطرفان .

- سامحيني يا أختاه!

خاطبها وهو يقبّلها في رأسها ، فأعولت فاطمة صارخة :

- لا . . لا . . لا تقل إنه سميح! . . أتسمع؟ لن أسمح لك بقول ذلك!

كان ثمة أمل لا يزال يداعب خيالها ، لعلها تحلم . . وستستيقظ

لتتأكد أن كل ما يجري ليس أكثر من كابوس . بيد أن زوجها قفل راجعاً إليها والدموع تنهمر من عينيه مختلطة بقطرات المطر . . رأت ، أول مرة في حياتها ، إسماعيل الذبيح يبكي ، فانهارت على الأرض وهي تئن بلوعة :

- آه يا حبيبي سميح . . الآن انقصم ظهري!!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(مقتطفات من ملف إسماعيل الذبيح)

وكان الملف الخاص بالنكبة أضخم ملفات أرشيف إسماعيل الذبيح ، قضيتُ أياماً في تصفّحه قبل أن استقرّ على اختيار بضع قصاصات منه توزّعت مضامينها بين ثلاثة محاور يخص الأول منها وقائع مجزرة دير ياسين ، والثاني يكشف مدى سطوة نفوذ اليهود الاقتصادي قبيل حصول النكبة ، في حين يفضح الثالث اللامبالاة التي كانت تعم الأقطار العربية كلها إزاء ما كان يجري في فلسطين .

وكانت صحيفة - فات إسماعيل تثبيت اسمها - قد نشرت لقاءات مع شهود عيان نجوا مصادفة من مجزرة دير ياسين : وكان واحد من هؤلاء الناجين يدعى فهمي زيدان - وهو صبي في الثانية عشرة من عمره كان الناجي الوحيد من أسرته - تحدث عمّا حصل قائلاً :

- (أمر اليهود أفراد أسرتي جميعاً بأن يقفوا وقد أداروا وجوههم إلى الحائط ، ثم راحوا يطلقون علينا النار . أصبت في جنبي ، واستطعنا ، نحن الأطفال ، أن ننجو بمعظمنا لأننا اختبأنا وراء أهلنا . مزق الرصاص رأس أختي قدرية البالغة أربع سنوات . وقُتل الآخرون الذين أوقفوا إلى الحائط : أبي وأمي وجدتي وأعمامي وعماتي وعدد من أولادهم) .

وقالت حليمة عيد وهي شابة في الثلاثين من عمرها :

- (رأيت يهودياً يطلق رصاصة فتصيب عنق أختي خالدية التي كانت موشكة على الوضع ، ثم يشقّ بطنها بسكين لحّام . ولمّا حاولتْ إحدى النساء إخراج الطفل من أحشاء الحامل الميتة قتلوها أيضاً ، وأسمها عائشة رضوان) .

وشاهدتْ حنة خليل وهي في السادسة عشرة من عمرها (إرهابياً يهودياً يستلّ سكيناً كبيرة ويشق بها ، من الرأس إلى القدم ، جسم جارتها جميلة حبش ، ثم يقتل بالطريقة نفسها ، على عتبة المنزل ، جاراً آخر لأسرة يدعى فتحي) .

ووصف جاك دي رينيه ، رئيس بعثة الصليب الأحمر في فلسطين ، الإرهابيين الذين قاموا بالمجزرة قائلاً :

- (إنهم شبّان ومراهقون ، ذكور وأناث ، مدججون بالسلاح - المسدسات والرشاشات والقنابل اليدوية - وأكثرهم لا يزال ملطّخاً بالدماء ، وخناجرهم الكبيرة في أيديهم ، وقد عرضتْ فتاة ، من أفراد العصابة اليهودية تطفح عيناها بالجريمة ، يديها وهما تقطران دماً ، وكانت تحركهما وكأنهما ميدالية حرب)!

ويضيف قائلاً :

- (دخلتُ أحد المنازل ، فوجدته مليئا بالأثاث الممزق وكافة أنواع الشظايا ، ورأيت بعض الجثث الباردة ؛ فأدركت أنه هنا تمّت التصفية بوساطة الرشاشات والقنابل اليدوية والسكاكين . وعندما هممتُ بمغادرة المكان سمعت أصوات تنهّدات ؛ فبحثت عن المصدر لأتعثر بقدم صغيرة حارة . كانت فتاة في العاشرة من عمرها مُزّقتْ بقنبلة يدوية ، ولكنها لا تزال على قيد الحياة ، وعندما هممت بحملها حاول أحد الضباط الصهاينة منعي ، فدفعته جانباً ثم واصلت عملي ؛ فلم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكن هناك من الأحياء إلا امرأتان إحداهما عجوز اختبأت خلف كومة من الحطب ، وكان في القرية ٤٠٠ شخصاً هرب منهم أربعون ، وذبح الباقون دون تمييز وبدم بارد)!

وروى موشيه برزلاي ضابط استخبارات ليحي قائلا :

– (صببنا ثلاثة أوعية نفط على ثلاثين جثة في الشارع الرئيسي في القرية . وبعد نصف ساعة أدركنا أن هذا مستحيل ؛ فأصدر يهوشع زطلر – وهو قائد ليحي في القدس – أمراً بنقل الجثث المحترقة قليلاً في الشارع الرئيسي إلى ما وراء جدار ، فرفض رجاله فعل ذلك ، فسحب زطلر مسدسه عليهم . ولكنني قلت له : كن قدوة . وجررنا معاً إحدى الجثث فانفصلت يدها عن الجسم وبقيتْ معي ، فتقيأتُ) .

وروى شمعون مونيتا أحد أعضاء ليحي قائلا :

– (اعتقدنا أن الجثث ستشتعل ، ولكنْ لا يمكن إحراق جثث في الهواء الطلق ؛ فقد بنى النازيون من أجل ذلك موقداً خاصاً يشتعل بدرجة حرارة عالية جداً) .

ويصف دورون حسدأي ما شاهده قائلاً :

– (على امتداد عشرات الأمتار كانت تتوقد شعل من النيران وفيها جثث ، لا تزال رائحة اللحم المشعوط تطاردني حتى الآن . . . إنها محرقة . إنهم يحرقون بشراً)!

ويقول الدكتور حسين فخري الخالدي أمين سر الهيئة العربية للصليب الأحمر في مؤتمر صحفي :

– (إن مجزرة الأبرياء حصلتْ في القرية الوحيدة من قرى قضاء القدس التي لم تستنجد بأية هيئة عربية على أنها في خطر من اليهود . لقد كانت تعيش محاطة بالمستعمرات اليهودية التي عقدت معها اتفاقاً

حافظت عليه طوال الأشهر الأربعة السالفة) .

أما الإحصائية المتعلقة بسطوة اليهود الاقتصادية فقد أكّدت أن البريطانيين سعوا جاهدين، طوال فترة الانتداب، إلى تمكين اليهود من السيطرة تماماً على تجارة فلسطين . وكانت تلك الإحصائية قد اتخذت من مدينة القدس نموذجاً لها مبرهنة على صدق مزاعمها بشواهد دقيقة : فقد ذكرت أن عدد الدكاكين في القدس يبلغ خمسة آلاف ومئة وعشرة، يملك المسلمون والمسيحيون منها ألفين وثلاث مئة واثني عشر، في حين يملك اليهود ألفين وسبع مئة وثمانية وتسعين دكاناً .

أما الشركات العاملة لشراء الأراضي، والتي بلغ عددها اثنتين وستين شركة، لا يملك العرب منها سوى اثنتين . وفي الوقت الذي كوّن اليهود أربع وخمسين شركة للأشغال العامة والمقاولات الهندسية والبناء، لا يملك العرب للغرض نفسه سوى شركة واحدة . كما أن اليهود يملكون خمس شركات للآلات الزراعية والأسمدة وتعمير الأراضي إزاء شركة عربية واحدة . وفي الوقت الذي يملك فيه اليهود ست عشرة شركة لأعمال البوتاس والأدوية والأملاح والراديوم وثلاث شركات للسجائر، وست شركات لنشر العلم والتدريس، وخمساً وستين شركة للطباعة، وثماني شركات للأفلام والسينما، لا يملك العرب شيئاً منها .

وتطرقت الإحصائية بعد ذلك إلى ذكر البنوك والمصارف التي بقي الفلسطينيون، على مدى السنوات الماضية، مجبرين على الاقتراض منها للقيام بمشروعاتهم الزراعية تاركين تلك المصارف تمتصّ أموالهم عن طريق الفوائد المستمرّة حتى ترغمهم على التخلي عن أرضهم سداداً لديونها وحجوزاتها ؛ فهذه المصارف - وعددها أربعة عشر - كلها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يهودية ومنها بنك أنجلو فلسطين في يافا ، وبنك كوبان عام ، وبنك فلسطين للرهن والتسليف ، والبنك البولوني الفلسطيني ، وبنك أيللرن ، وبنك فويخت واغنر التجاري ، وبنك الخصم الفلسطيني .

أما المحور الثالث فيتحدث عن أن الحياة كانت تمضي في العواصم العربية على وتيرتها المعهودة غير آبهة بوقوع النكبة ؛ فقد نشرتْ جريدة الأهرام في١٦و٢٧ آيار ١٩٤٨(برامج السينما والمسرح : غداً . . غداً . . غداً . . سراج منير ، وهاجر حمدي : في البوسطجي . . . تمتّعوا بسهرة صيفية لطيفة بكازينو الجمل ، حديقة غنّاء مشروبات شهيّة . يوسف وهبي : آخر حفلة في الموسم التمثيلي الليلة في التاسعة والنصف مساء بمسرح الأزبكية (بنات الريف) . سينما الشرق بالسيدة زينب : عروسة البحر . سينما حديقة الأزبكية : (الوقت والمكان والفتاة) . السينما الأهلي في السيدة زينب : الهارب من السجن . سينما شبرا بالاس : المليونيرة الصغيرة . سينما مصر : ابن الحداد . سينما ريفولي : طريد القانون . سينما كايرو : أسرار دون جوان . أما الملاهي فتعلن عن : صفية حلمي : استعراض فن الرقص . كيت كات : ببا وفرقتها . بديعة مصابني وفرقتها الكبرى : الجائزة الأولى . البوسوفور : إحسان عبدة وفرقتها) .

وتعلن جريدة القبس الدمشقية في ١٦من آيار ١٩٤٨(مسابقة ذات جوائز مالية بمبلغ ١٠٠ ليرة سورية تقدمها إدارة سينما الشرق بمناسبة عرض فلم الموسم الاجتماعي الكبير الذي سيعرض الاثنين ١٧ فلم (سجن الليل) ، سينما الأهرام : شادية الوادي . سينما عائدة : برج الأهوال . سينما دنيا : الجبّار) . وتنشر جريدة صوت الأحرار البيروتية في ١٥ من آيار ، وهو يوم النكبة (سينما هوليوود : فلم سر

أبي (الفلم الغنائي العاطفي الراقص) . سينما روكسي : شمشون الجبار . سينما دنيا : (أيفي جون فونتين) . وتنشر إحدى الصحف البغدادية عن أخبار الفن في بغداد : (الافتتاح العظيم لكباريه دولاني روج شارع أبي نؤاس ، تفتح إدارة كباريه دولاني روج بالجوق الموسيقي الاستعراضي النسائي الإيطالي ليما جيمس ، وتزفّ للجمهور الكريم وصول غادات البوسوفور الرشيقات ليشتركن في المناهج الغربية مع جميع فنانات الملهى تركي ، إنكليزي ، إيطالي ، فرنسي ، إسباني ، حفلات للعائلات كل يوم سبت من الساعة الثالثة والنصف إلى الخامسة مساء) .

أما دور السينما في بغداد فقد كانت الأفلام التي تعرضها في يوم ١٥آيار١٩٤٨ (سينما روكسي : حكايات ماشهتان . سينما الرشيد : السهم الأخضر . سينما الحرية : لست ملاكاً . سينما غازي : السيدة تعارض . سينما الفردوس : الغروب . سينما ريجنت : الفارس الوحيد . سينما ديانا : غني حرب . سينما ميامي : سيسيل الجميلة . سينما الشرق الصيفي : بياعة اليانصيب . سينما أنطوني : رصاصات في القلب . سينما ريكس : مناورات الغواصات . سينما الفردوس الصغير : عنتر وعبلة . سينما الرشيد الصيفي : غدر وعذاب . سينما الوطني الصيفي : دنانير) .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٢٠)

(زار فلاح كرم عنب ، فقال له : إنني لن أعتني بك بعد اليوم . فرد الكرم ببرود : لا بأس ؛ إن لم تكن العناية اليوم فستكون غداً أو بعد غد . فأضاف الفلاح : إنني لن أسقي عروق الشجر منك . فرد الكرم : لا بأس ؛ فالأمطار هي الكفيلة بذلك . فقال الفلاح : ولن أقلّم الأغصان الطويلة في أشجارك . فقال الكرم : لا ضير عليّ منها . فقال الفلاح : إنني لن أزورك بعد اليوم . فرد الكرم بحدة : إياك ، إياك ؛ تستطيع أن تفعل أي شيء إلا أن تمتنع عن زيارتي) .

تلك هي الحكاية التي اعتادت مريم سماعها من أمها فاطمة ترويها حينما يكون أحد الأقارب بصدد الهجرة إلى الخارج : إلى الأردن في الغالب ، أو إلى لبنان ، أو سوريا ، أو العراق ، قبل أن تصبح السعودية ودول الخليج فيما بعد ، بسبب القفزة البترولية ، قبلة أنظار المهاجرين . كانت ترويها عادة من باب التحذير والتنبيه على مخاطر ترك الوطن . . . ولكنْ عبثاً ؛ فقد ألفت مريم منذ طفولتها - وكانت قد ولدتْ بعد أربع سنوات من وقوع نكبة - أن تسمع ، بين سنة وأخرى ، بأحد أقاربها - ولا سيما أبناء أخوالها - يعلن عزمه على الرحيل ، حتى إذا ما أزف الموعد وقدم إلى بيتهم للوداع وجد أنه لا مفر له من الإصغاء دقائق إلى العمّة فاطمة وهي تروي تلك الحكاية التي لم تكن تجدي نفعاً ؛ ذلك لأن الزائر يكون عادة قد أتمّ وثائق السفر الأصولية ،

وحصل على (الجواز) بعد بذل مساع مذلّة ، لا بل حجز مقعده في إحدى السيارات - إذ ندر السفر بالطائرة لارتفاع ثمن التذكرة - فلا يملك إلا أن يسوّغ قراره بذكر الأسباب المعهودة عن ضيق ذات اليد وعن حاجة الأسرة إلى (المصاري) الكفيلة بمواجهة متطلبات الحياة التي تزداد عسراً مع نمو الأطفال وتكاثرهم كالأرانب .

وبعد إطلاق ضحكة مصطنعة في محاولة لإضفاء ضرب من اللامبالاة على تلك اللحظات كان ذلك الزائر يؤكد ، وهو يشيح بوجهه عنهم مخفياً دمعة تجول في عينيه لا يملك لها منعاً ، أنه سيبعث لهم بعنوانه حال استقراره النهائي في المكان المنشود .

هكذا بقيت مريم ، على امتداد سنوات طفولتها ، تسمع أمها تعيد رواية تلك الحكاية عشرات المرات ، حتى إذا ما بدأ أبناؤها بدورهم هجراتهم واحداً عقب الآخر لم تعد تكتفي برواية تلك الحكاية ؛ بل ثارت وهددت وحذّرت لتنهار في النهاية باكية مستسلمة للأمر الواقع ليصبح هاجسها - مع صفقة باب البيت خلف كل راحل عزيز - عدّ الأيام والأسابيع والأشهر في انتظار وصول الرسائل : رسائل باتت تردها تباعاً من عمان ودمشق وبيروت ، والجميع يؤكدون فيها أنهم بخير ، وأنهم في انتظار أن تشدّ أمهم بدورها الرحال لتلتحق بهم ، فكان ردها الدائم وهي تمسح دموعها :

- هيهات ؛ لقد ولدتُ في القدس ، ولن أموت إلا فيها!

بعدها كانت تلتفت نحو مريم لتروي لها إحدى حكاياتها ، لا حكاية الفلاح الذي زار كرمه ، بل واحدة من تلك الحكايات التي مرت بها في حياتها قبل أن تنتهي بها الحال إلى ما هي عليه الآن ؛ تودّع كل يوم فلذة من فلذات كبدها إلى ديار الغربة . وكان رصيدها من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تلك الحكايات يبدو غير قابل للنفاد ؛ كأنها ، في جلساتها خلف نولها ، لم تكن تنسج ، على مدى سنوات عمرها ، بُسُطاً لحمتها وسداتها الخيوط ، بل تحوك عمرها على شكل حكايات لعل أبرزها حكاية شقيقها الأكبر رمزي يوم عاد من الحجاز بذراع واحدة ، وحكاية مخاضها بابنها البكر عطا أمام سجن عكا وهي في انتظار تنفيذ حكم الإعدام بزوجها إسماعيل الذبيح ، وحكاية أصغر أشقائها زكريا يوم جاءها مضرجاً بدمه وقد أصيب بإطلاقة بسبب اشتراكه في إحدى التظاهرات ، وحكاية شقيقها سميح - وهنا كانت تغالب دموعها بصعوبة - يوم فجعها زوجها بنبأ استشهاده وهي حامل بخامس أبنائها الذي سمّته باسمه .

وكان استشهاد سميح جرحاً دائم النزف في قلب فاطمة لا لأن النكبة وقعت بعده بخمسة وثلاثين يوماً فحسب ، بل لأنه لم يعد له قبر على وجه الأرض ؛ وكان قد دفن في مقبرة مأمن الله حيث ثوى أجداده فضلاً عن أمه وأبيه ، وهي مقبرة عمد اليهود ، حال استيلائهم على القدس الغربية ، إلى نقض قبورها ونثر عظام موتاها ليقيموا فوقها الملاهي والمراقص والمقاهي ودور المتعة . وكانت مريم قد اعتادت أن ترى أمها الغارقة بحدادها الدائم تتلفع ، مع قدوم كل عيد ، بملاءتها السوداء لتغادر البيت صامتة قبل أن تعود بعد ساعات ذابلة العينين لفرط ما ذرفت من دموع ؛ إذ إن مريم كانت تعرف أنها قضت وقتها في التنقّل بين مقابر القدس التي يناهز عددها العشرين لتستعيض بزيارتها عن زيارة مقبرة لم يبقَ لها من أثر إلا في قلبها . وحين يصادف أن يكون زكريا ، لحظة عودتها ، حاضراً كانت تسأله بأسى وثمة دموع جديدة تجول في عينيها :

- لا يصحّ نقض القبور ؛ ذلك ما تحرمه الأديان السماوية ، فما بالهم عمدوا إلى اقتراف هذه الخطيئة وهم أهل كتاب؟

- ما فعلوه يا أختاه يتطابق تماماً مع ما وعدهم به كتابهم عن كون فلسطين أرض الميعاد ، وهو وعد تطلب تحقيقه نقض بيوت الأحياء على رؤوسهم قبل مقابر الموتى!

كان زكريا يجيبها متهكماً ليتساءل بعدها بمرارة وقد التفت نحو مريم :

- أية مفارقة في أن ينجح اليهود في تحويل أسطورة إلى واقع في الوقت الذي نعمد فيه ، نحن العرب ، إلى تحويل الواقع إلى مجموعة أساطير؟

ويردف ضارباً بأبيها إسماعيل الذبيح مثلاً على ما يقول ؛ إذ ما الذي بقي من مجازفته بنفسه بإسهامه في عشرات المعارك على امتداد عمره غير مجموعة حكايات يتداولها الرواة عنه؟ سؤال كانت مريم دائمة الانشغال بطرحه على نفسها وهي تقارن بين ما سمعته عن ماضي أبيها وحاضره الآن : محض عجوز قليل الكلام أورثه الإفراط في التدخين الوقوع أسير نوبات سعال توافيه كل ليلة قبل استغراقه في النوم!

كانت مريم تحب أباها بطبيعة الحال ، تدرك أنه موضع تبجيل رجال زقاق سرايا الست ؛ يولون رأيه ، حينما تنشب المنازعات بين بعض الأسر ، الاحترام الذي يستحقه ، بل بلغ به الأمر أن يكون واحداً من قلّة من رجال المدينة (الختيارية) الذين كان أمناء القدس المتعاقبون يبعثون بطلبهم للتداول في بعض المشكلات ، ولا سيما المشكلات التي نجمت عن تشرّد آلاف الفلسطينيين على أثر قيام الدولة اليهودية ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والحرص على تجميعهم في مخيّمات للاجئين انتشرت على مقربة غالبية مدن الضفة الغربية ، برغم إدراك مريم ذاك عن مكانة أبيها بيد أن ما كان يحزنها رؤيتها إياه يلازم البيت لا يكاد يغادره ، في رفقة خالها رمزي عادة ، إلى المسجد الأقصى إلا يوم الجمعة لحضور الصلاة .

كان دائم الانفراد بخالها في غرفته ، يشاركه في الإصغاء إلى نشرات الأخبار ، متقبّلاً بابتسامة عريضة ، يفضح بها ما اعتور أسنانه من خراب ، الشاي الذي كانت مريم تدخل به عليهما أكثر من مرة في اليوم راجياً إياها أن تطلب من أمها التخلّي عن (بخلها) بأن تبعث لهما بحفنة من المعجّنات التي لا يخلو مطبخها منها عادة . وكانت فاطمة تصدع لطلبه ذاك مخاطبة مريم بقلق :

- لقد شاخ أبوك يا مريم أسرع مما توقعت ؛ لم تكد النكبة تقع حتى انطفأت تلك الجذوة التي اعتدتُ أن أراها دائمة السطوع في عينيه .

(٢١)

كانت مريم تدرك أن ما يكرب أمها انطواء أبيها على نفسه بعد حياة حافلة بالنشاط والتحدي ، تكاد تقتصر سعادته على وصول رسالة من أحد أبنائه المهاجرين مرفقة بحوالة مالية كان يلثمها ويضعها على رأسه ليردد جملة وحيدة اعتاد تكرارها وهو يتطلع نحو فاطمة بامتنان :

– بورك ذلك الثدي الذي أرضعه .

بيد أن المفارقة حصلتْ يوم قرر إسماعيل الذبيح تلبية دعوة ابنه البكر عطا بالسفر إلى عمّان – حيث كان عطا قد هاجر منذ أعوام مصطحباً معه أصغر أشقائه سميح ليستقرّ هناك إثر زواجه بأردنية – إذ لم يكد يمضي أسبوع على رحيله حتى لم تعد فاطمة تستطيع التكتّم على مشاعر القلق ؛ فكانت تجفل مع كل طرقة ، فتهرع سريعة نحو الباب برغم كبر سنها لتعود بعد لحظات بخطى متخاذلة معلنة أن الطارق لم يكن غير إحدى الجارات وقد قدمت طالبة قليلاً من الزيت بعدما فوجئت بنفاده وهي تستعد لإعداد الغداء .

وكان زكريا يراقب قلقها باستمتاع ، ويعمل جهده على تأجيجه منوّهاً بمكر أن زوجها لا يبعد أن يكون قد اقتدى بعطا فتزوج إحدى الأردنيات المتصفات بالجمال ، فكانت فاطمة تردّ كيده إلى نحره مذكّرة إياه بضرورة أن يكون هو أول من يقتدي بعطا بعدما شاب شعر رأسه ، منوّهة بذلك بقصة غرامه بتلك المعلمة المسيحية ميلاد ، هذه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القصة التي أمست مضرب المثل لدى الكثيرين لكون هذين العاشقين - اللذين امتنعا عن الزواج بسبب اختلاف الدين - قد ارتبطا ببعضهما بعلاقة عاطفية لم تفتر برغم كرّ السنين .

وكانت فاطمة تفصح أحياناً عن تبرّمها بهذه الرحلة منوّهة لمريم بأنه لا يبعد أن يكون أبوها قد عاود سيرته القديمة بالتجوال في أرض الله الواسعة . وتضيف بيأس :

- ما أدراك به يا ابنتي؟ لولاي أنا لما استقرّ به المقام في القدس ؛ فقد انتظرته تسعة أعوام كاملة قبل أن يفرّ من الشام مطارداً من قبل الفرنسيين .

ثم تستدرك بحزن :

- بيد أنني حينها كنت لا أزال شابة في مقتبل العمر أما الآن . . .

وكانت تسكت تاركة لدموعها مهمة الإفصاح عن قلقها . ويوم عاد أبوها بعد انتظار طويل خاطبته فاطمة ببرود :

- يبدو أنك استطبت العيش في عمّان!

فعلق زكريا غامزاً :

- حسبناك ستعود تتقدمك عروس أردنية!

فردّ إسماعيل بمكر مجارياً إياه في لعبته :

- لستُ في عجلة من أمري ؛ ففي وسع العروس الانتظار ريثما أتهيأ بالشكل الذي يليق بها!

وابتسم لهم عن أسنان صناعية نضيدة كان ركّبها في عمّان!

وبرغم أن سفرات إسماعيل تعددت فيما بعد إلى أبعد من عمّان لتشمل سوريا ولبنان ودول الخليج بيد أن فاطمة بقيت تعيش مشاعر

القلق نفسها مع كل سفرة اعتادت أن تستقبل في أعقابها زوجها ببرود مصطنع في الوقت الذي كانت كل حركة من حركاتها تفضح عمق فرحتها بهذه العودة .

وكانت فاطمة تحاول أن تسوّغ أحياناً لابنتها مريم سرّ قلقها على زوجها وعلى أبنائها الخمسة المغتربين بتعدد الكوارث التي بقيت تلاحق الأسر الفلسطينية منذ وقوع النكبة حتى الوقت الحاضر .

وكانت الحكايات التي ترويها فاطمة عما جرى لا تعدّ ولا تحصى ؛ فقد تفننت المنظمات اليهودية الإرهابية في ابتكار شتى الطرق التي تؤدي إلى فرار المزيد من الفلسطينيين سواء باللجوء إلى القيام بهجمات مباشرة على أماكن تواجدهم مقترفين بحقهم مذابح بشعة أبرزها مذبحة دير ياسين ، أو بإصدار أوامر الإنذار بالطرد ، أو باتباع طرق التخويف مثل إشاعة أخبار عن تهيؤ مجموعات إرهابية لاقتراف مجازر جديدة في بعض القرى ، أو احتمال أن تتعرض النساء الفلسطينيات للاغتصاب . وكانت النتيجة حصول عمليات فرار جماعية كانت مصدر رعب دائم لمريم ؛ فقد كانت تتخيل نفسها ضمن هؤلاء الهاربين وهم يجتازون السهول والوديان بحثاً عن مأمن وقد حملوا ما استطاعوا حمله من متاع بائس تاركين وراءهم بيوتاً ومكاتب أعمال ومصانع وبساتين وحقولاً لم تحصد بعد سرعان ما يشغلها يهود قادمون من شتى بقاع الدنيا .

وكان خالها زكريا يعزز تلك المآسي بذكر وقائع كانت تجعل مريم نهباً لمشاعر الظلم والغضب :

– تصوّري : لقد تم إفراغ ما يقارب أربع مئة بلدة وقرية عربية من سكانها لم تستطع السلطات الإسرائيلية إسكان المهاجرين فيها ؛

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فعمدت إلى نهبها قبل تسويتها بالأرض!

وكانت مريم لا تستطيع الإمساك بدموعها حينما كانت تسمع أمها وهي تحدّثها عن أسر تشتت أفرادها ، بل ضاع أطفال لها في فوضى النزوح الرهيب ؛ فأصبح همهم في الشتات هو العثور على الضائعين والعمل على لمّ شمل الأسرة .

– ولكن لماذا ترك العرب – وهم أكثر عدداً فضلاً عن كون الحق إلى جانبهم – اليهود ينفردون بنا بهذا الشكل؟

قاطعت مريم أمها ، ذات يوم ، بهذا السؤال ، فسارع خالها زكريا إلى إسعافها بالجواب :

– ذلك هو ديدن أشقائنا العرب منذ وقوع النكبة حتى الآن ؛ إذ إن الأمر ليس بأيديهم وإنما بأيدي حكامهم الذين اعتاد الإنكليز والفرنسيون – والأمريكيون لاحقاً – خداعهم .

ومضى يحدثها عن انصياع هؤلاء الحكام للإنذار الذي عدّت سلطة الانتداب بموجبه أي تدخل عسكري قبل الخامس عشر من مايس عام ١٩٤٨ – وهو الموعد المحدد لجلاء آخر جندي بريطاني عن البلاد – عدواناً عليها ستقابله بالقوة ، حتى إذا ما اطمأنتْ على التزام هؤلاء الحكام صاغرين بذلك الإنذار أخذت تجلو عن كبرى المدن الفلسطينية بالشكل الذي يؤدي إلى ترسيخ أقدام اليهود فيها ؛ إذ كانت تنسحب في البداية عن الأحياء العربية لتمكّن اليهود من احتلالها مانعة ، في الوقت نفسه ، دخول إمدادات عربية إليها!

وتابع قائلاً :

– وهكذا أفضى إخلاء البريطانيين للبلاد على تلك الشاكلة إلى عدم تمكّن العرب من حمايتنا ؛ فانفردت بنا العصابات الصهيونية

المنظّمة تنظيماً قتالياً مرتكبين في حقنا الفظائع ؛ فتدفقت سيول منا إلى لبنان وسوريا ومصر وشرقي الأردن مخلّفة وراءها كل ما تملك على أمل العودة السريعة عقب رجوع الجيوش العربية إلى فلسطين بعد انتهاء الانتداب .

– ولماذا لم تتحقق تلك العودة برغم دخول الجيوش العربية إلى فلسطين؟

– لأن الحكام العرب لم يتّعظوا مما حدث ؛ فلم تتزعزع ثقتهم بصديقتهم بريطانيا العظمى ؛ إذ ما كادوا يأمرون جيوشهم بالزحف على بلادنا من الشمال والشرق والجنوب ، على أثر مغادرة المندوب السامي البريطاني ميناء حيفا منتصف ليلة الخامس عشر من مايس ، حتى أعلن اليهود عن قيام دولتهم ؛ فسارعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الاعتراف بها بعد مرور دقائق فقط برغم أن القضية الفلسطينية كانت لا تزال معروضة على هيئة الأمم المتحدة!

وكان زكريا يستطرد بمرارة :

– وما حدث بعد ذلك بات مثالاً استثنائياً للخديعة والغدر ؛ إذ لم تكد الجيوش العربية تسيطر على الأماكن المخصصة لنا وتمهّد للإطباق على تل أبيب التي كانت أضحت في مرمى مدفعيتها فضلاً عن أنها باتت هدفاً يومياً للطيران المصري والسوري والعراقي ، لم يكد يحصل ذلك حتى هبّ الأمريكيون لنجدة حلفائهم اليهود وذلك باللجوء إلى مجلس الأمن زاعمين أن الحالة في بلادنا باتت تهدد السلم العالمي ؛ فبادرت بريطانيا بدورها إلى توجيه نداء طالبت فيه بوقف القتال مدة ست وثلاثين ساعة .

– وهل خضع العرب لهذا الابتزاز؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لقد حاولت اللجنة السياسية العربية رفض وقف إطلاق النار مستندة في ذلك إلى أنه ليست في فلسطين حرب رسمية بين دولتين ؛ فالعرب لا يقاتلون سوى عصابات خارجة على القانون تفتك بالآمنين وتشرّدهم ، بيد أن المندوب البريطاني سارع إلى تهديد الأردن ومصر والعراق بوقف إمدادات السلاح لها ، لتعمد بلاده بعدها إلى تقديم مشروع لوقف القتال مدة أربعة أسابيع .

ولم تكن مريم تجد لديها الرغبة بسؤال خالها لمعرفة المزيد ؛ إذ إن ما جرى بعد ذلك بات معروفاً لديها لأنه تكرر بصور وأشكال متعددة حتى الوقت الحاضر ؛ فقد دأب الإسرائيليون على استثمار كل هدنة يفرضها أصدقاؤهم على العرب بتعويض ما خسروه في القتال بادئين ذلك بالإخلال بشروط الهدنة ، والإسراع إلى تعزيز موقفهم الحربي بجلب كميات كبيرة من السلاح لا أسهل عليهم من جلبها من الدول الأوربية وأمريكا بفضل امتلاكهم شبكة دقيقة من المنظمات اليهودية في مختلف أنحاء العالم تيسّر عليهم عمليات تهريب الأسلحة وتجنيد المتطوعين وتدريبهم .

هكذا استمر اليهود على نهجهم الذي لم يحيدوا عنه قط ساعين ، ليس إلى احتلال المزيد من الأراضي فحسب ، بل العمل على إرهاب من جازف بالتشبّث بأرضه داخل حدود الدولة الإسرائيلية والعمل على تصفيته في حالة إصراره على البقاء ؛ وكانت مجزرة كفر قاسم واحدة من تلك المجازر التي ألقتْ بظلها الدامي على طفولة مريم ؛ فقد وقعت وهي في الرابعة من عمرها . وكانت أمها تحدّثها عن كيفية حصول تلك المجزرة ، معددة ضحاياها من رجال ونساء وأطفال .

وكانت فاطمة تنهي حكاياتها تلك بترديد جملة وحيدة أورثت

مريم القلق على امتداد سنوات طفولتها :

- لذلك لا أستطيع مغالبة قلقي على أبيك كلّما ابتعد عنّي متخيّلة احتمال أن يذهب ضحية عملية اغتيال مثلاً بعدما اشتهر أمره منذ استقراره في القدس .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٢٢)

كانت مريم ، على النقيض من أمها ، تجد في شهرة أبيها مصدر فخرها واعتزازها ولا سيما بعدما اكتشفت أن تلك الشهرة تخطت حدود زقاق سرايا الست لتصل إلى مدرستها وذلك بفضل صديقتها الأثيرة فدوى التي كانت أسرتها تسكن في الزقاق نفسه على بُعد بضعة بيوت من بيتهم ؛ فقد كانت مغرمة بدورها بحكايات إسماعيل الذبيح ، لا تكتفي بسردها على زميلاتها التلميذات ، بل أوصلتها إلى المعلمات اللائي أخذن يسبغن رعايتهن على مريم طوال سنوات دراستها الابتدائية الست مثنيات على سيرة أبيها الحافلة بالمآثر كلما ورد ذكر له .

كانت فدوى تحدث مريم عن مدى اعتزاز والديها بأبيها ، مرددين أنه كان في شبابه مثالاً للرجولة والشجاعة : يُضرب به المثل في التضحية والشهامة . وكانت تضيف ، وهي تلكزها بمرفقها في جنبها بحركة ألفت أن تفاجئها بها ، أنه اشتهر أيضاً بقصة عشقه لفاطمة : لم ينسها على مدى أعوام حافلة بأحداث جسام توّجها بالتقدم إليها خاطباً!

- هكذا يكون العشق والغرام ، ولا عشق قيس وليلى!

كانت فدوى تعلق متنهدة لتستطرد ، وقد انشغلت بتمشيط شعرها المسترسل الذي يصل إلى منتصف ظهرها ، في حديث حالم

عن أمنيتها بأن تحظى بحبيب على هذه الشاكلة حينما تكبر!

حتى إذا ما انتقلت مريم إلى المرحلة الثانوية اكتشفت أن شهرة أبيها كانت قد سبقتها إلى هناك ؛ ففي الأيام الأولى لدراستها في مدرستها الجديدة فوجئت بالمديرة تبعث في طلبها ، فتوجّهت إلى غرفة الإدارة خافقة القلب خوفاً من إنزال عقوبة بها لسبب تجهله ، بيد أن قلقها خفّ بعض الشيء حينما وجدتِ المدرّسات يستقبلنها ، لحظة دخولها تلك الغرفة ، بوجوه باسمة .

- هل يدعى أبوك يا مريم باسم إسماعيل؟

سمعت المديرة تسألها من خلف مكتبها وهي تشير إلى سجلّ مفتوح أمامها لتتابع بنبرة متشككة حين هزّت مريم رأسها إيجاباً :

- أهو نفسه المعروف باسم إسماعيل الذبيح؟

فعادت مريم تهزّ رأسها ثانية وقد بارحها القلق نهائياً ، فالتفتت المديرة نحو المدرّسات لتخصّ مدرّسة اللغة العربية بقولها :

- لقد صدق ظنك يا ست كوثر إذن ؛ وها هو نموذج من لحم ودم يعيش بيننا على شاكلة تلك النماذج الوطنية المضحّية التي تحفل بها بطون الكتب التي تدمنين قراءتها!

منذ ذلك اليوم لازم مريم شعور دائم بأن الست كوثر تخصّها برعاية استثنائية تترجمها ، في أثناء إلقائها الدروس ، على شكل ابتسامات رقيقة تحيطها بها وحدها دون الطالبات الأخريات . وشغفت مريم بدورها بهذه المدرّسة ؛ فقد وجدت فيها نموذجاً مثالياً للجمال الذي تحلم به : عينين شديدتي السواد ، وفماً مكتنزاً مشتهى دون الحاجة إلى تلطيخه بأحمر الشفاه . وكان خاتم خطوبتها المرهف يسطع بوهجه الذهبي وسط أصابع كفها اليمنى شديدة البياض . وكان ما يشدّ مريم إليها عفويتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي كانت تدفع بها أحياناً إلى أن تفاجئ الطالبات بما لا يخطر على بال ؛ فما أكثر ما جفلتْ مريم على صرخة صديقتها فدوى التي تجلس بجوارها على المقعد نفسه وذلك لكون المدرّسة قد أمسكت بها من ضفيرتها المفرطة في الطول لتخاطبها مازحة :

– إنك تشاركين الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان ليس بالاسم فقط ، بل بالشعر أيضاً مع كسر حرف الشين عندها ، وفتحه عندك!

وبرغم شغف الست كوثر بمادتها الدراسية كانت لا تقلّ شغفاً بالسياسة ؛ تحرص جهدها على أن تلقّن طالبتها – اللائي كانت تسمينهن (بناتها) – ما تحيق ببلادهن من مكائد ، حتى إذا ما سمعتْ تغريد طائر يبشّر بقدوم الربيع عمدت إلى إطباق كتابها منبهة طالباتها على أشجار الحديقة ، التي تطلّ عليها نوافذ الصف ، وقد تفتقت أغصانها عن براعم وزهور جديدة .

– الطبيعة تستصرخنا يا بناتي لنحرر أنفسنا مؤقّتاً من سجن الجدران .

ولا يكاد يمرّ يوم أو يومان حتى تقودهنّ في إحدى السفرات المدرسيّة إلى خارج أسوار القدس القديمة حيث تموج الوديان والهضاب ببساط أخضر مزدان بزهور بمختلف الألوان تتسيّدها حمرة شقائق النعمان . وكانت تقف بهنّ أحياناً على رأس أحد التلال طالبة منهنّ ، وهنّ يستنشّقن ملء صدورهن الأريج العذب تاركات النسيم يداعب خصلاتهنّ ، أن يتأمّلن مدينتهنّ الجاثمة على رؤوس التلال تشعّ ببياض جدرانها وقبابها الصخرية وسط خضرة الطبيعة ، أن يخمّن أسماء تلك المعالم التاريخية التي دأب البشر – من مختلف الطوائف والأديان – على إنشائها في هذه المدينة على مدى مئات من السنين ؛

فكنّ يتباريـن ، وهنّ يدقـقن النظر في كـتل تلك الأبنيـة الصـخـرية المتكومة على نفسها تحيط بها الأسوار ، في ذكر بضعة معالم أبرزها ، دون شك ، قبّة المسجد الأقصى الذهبية ، وقباب كنيسة القيامة ، وقبّة مسجد عمر ، وقلعة داود .

وكانت تنتظر دقائق تصغي إليهنّ باسمة لتعلّق وهي تشير بكفها البيضاء المزدانة بخاتم الخطوبة الذهبي :

- أرأيتنّ يا بناتي؟ فالقدس هي مدينة المدن : تنتمي إلى البشرية جمعاء ؛ فلا يحقّ لطائفة ادعاء حقّ امتلاكها دون الطوائف الأخرى .

وكانت ، وسط ضحكات الطالبات الخافتة وهنّ يلاحظن مدرّستهنّ تعاود تلقينهنّ الدروس برغم (استجابتها لنداء الطبيعة وتحريرهن من سجن الجدران) ، كانت تعاود سيرتها المعهودة في تأكيد أن سرّ عظمة هذه المدينة يتجلّى بكونها تضمّ معالم الديانات الثلاث مجتمعة : فهناك سبعة وعشرون مسجداً - فضلاً عن المسجد الأقصى - تقوم داخل الأسوار ، وهناك اثنان وعشرون ديراً لطائفة الروم الأرثوذكس ، وديران للأرمن ، وثمانية أديرة وكنائس للأقباط ، وهناك أديرة وكنائس لبقية الطوائف المسيحية من سريان وأحباش وروس وألمان وأمريكان وموارنة . أما اليهود ؛ فبالإضافة إلى قدس الأقداس هناك طبرة إسرائيل وتاوماتورة وبيت إيل ومدراش وطابية ومزغاب لاوخ .

وتتابع قائلة :

- ولو أضفنا إلى هذا الخليط من المعالم الدينية عشرات الزوايا والأضرحة والمقامات والأسبلة والمعالم الأربعة القائمة في المقبرة الخاصة باليهود والمتمثّلة بقبر زكريا ، ويعقوب وأبشالوم ، ويهوشافاط ؛ لأدركتنّ ما أرمي إليه بكلامي .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت تحرص على أن تذكّرهنّ بان اسم القدس القديم أورشليم – ويعني مدينة السلام – يعود إلى اليبوسيين الكنعانيين أجداد العرب الذين ثبتت التنقيبات الآثارية أنهم كانوا يحكمون هذه المدينة – فضلاً عن بيت لحم ورام الله – في عهد الفرعون المصري أخناتون ، أي قبل خروج النبي موسى باليهود من مصر بألف وثلاث مئة وخمسين عاماً قبل الميلاد . كما كانت تحرص أن تذكّرهنّ بضرورة ألا يخطر لهنّ لحظة واحدة أنها تحرّضهنّ على معاداة اليهود ؛ فاليهودية إحدى الديانات السماوية التي يعترف بها الإسلام ، والنبي موسى واحد من أعظم الأنبياء ، أما الصهيونية فهي مشروع استعماري يشكّل قاعدة متقدمة للأوربيين والأمريكيين تضمن لهم ، متى ما أرادوا ، السيطرة على قناة السويس والاستحواذ على النفط العربي .

هكذا زادت الأيام مريم تعلقاً بمدرّستها ؛ تصغي إليها بكل جوارحها وهي تحدثهن عن فلسطين : تخرج أحياناً عن موضوع الدرس لتحثّ (بناتها) ، على عدم الاكتفاء بالندب والبكاء على ما جرى ، بل العمل على استعادة الحقوق السليبة ، مكررة لهن مثلاً كانت تحبّ ذكره في تلك المناسبة وهو (ما ضاع حق وراءه مطالب) . وكانت تتخذ من قاطني مخيمات اللاجئين نموذجاً على ما تقول ؛ فوجودهم في أكواخ الصفيح والخرق لا يمنعهم من أن يزيّنوا الجدران من حولهم بلوحات من أشغال الإبرة أو محفورة على خشب الزيتون تتضمن عبارة (إننا عائدون) .

وكانت تؤكد لهن حتميّة قدوم يوم سيغادر فيه اللاجئون تلك الأكواخ عائدين إلى المدن والقرى التي نزحوا منها تاركين للآخرين مهمة ردم تلك المخيمات البائسة وتسويتها بالأرض لتحوّل أماكنها إلى

حدائق ورياض أطفال أو تركها شواهد على ما اقترف الإنسان بحق أخيه الإنسان من مظالم . وكانت تلهب حماستهن بالرجوع إلى التاريخ محدّثة إيّاهنّ عن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين زنكي اللذين نجحا في توحيد الدولة الزنكيّة على أثر انتصارهما على الصليبيين الذين كانوا يحتلون بلادهم فلسطين .

- أما صلاح الدين الأيوبي فهو غنيّ عن التعريف ؛ فعقب انتصاره على الصليبيين في معركة حطين(١) وحّد ، في ظل الدولة الأيوبيّة ، بلاد الشام ومصر وأجزاء من العراق .

وكانت تتمثّل كذلك بمحمد علي باشا الذي نجح في القرن الماضي في إقامة دولة عربية كبرى شملت مصر والسودان وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية . وكانت تقف بكلامها عند جمال عبد الناصر الذي فجّر أول ثورة عربية في العصر الحديث ردّاً على النكبة .

---

(١) معركة حطين : هي المعركة التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧ ميلادية وأسر فيها ملك القدس الصليبي (غي دي لوزينيان) وفتح بيت المقدس وعقد هدنة مع الصليبيين .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(مقتطفات من أرشيف إسماعيل الذبيح)

كان آخر ملف من أرشيف إسماعيل الذبيح مخصصاً للأحداث التي تسببت في انفجار ثورة جمال عبد الناصر وصولاً إلى الأيام العصيبة التي سبقت حرب حزيران ووقوع (النكسة) سنة ١٩٦٧ .

والحق أن هذا الملف لم يكن قد رُتب على غرار الملفات السابقة : مثل تثبيت عناوين الصحف وتواريخها ، إنما اقتصر الأمر على تجميع قصاصات سرعان ما صُرف النظر عنها بسبب هول ما حصل في الخامس من حزيران - حسبما أظن - مانحاً بذلك إياي - أنا الذي قُيّض لي أن أستثمر الأرشيف في كتابة هذه الرواية - فرصة اختيار ما يلائم غرضي .

كانت أقدم قصاصة تتطرق إلى تلك التجربة المريرة التي مرّ بها عبد الناصر حين كان من جملة ضباط الحامية المصرية التي شاركتِ الجيوش العربية الأخرى في حرب فلسطين ؛ فتلمّس بنفسه أبعاد تلك المؤامرة الدولية التي ضاعت بنتيجتها فلسطين .

وركزت قصاصة أخرى على معاناة هذا الضابط الشاب وهو يرى بنفسه اليهود وقد انفردوا بالقوات المصرية فكثّفوا حملتهم عليها لإجلائها عن النقب مستندين في ذلك إلى دعم أصدقائهم البريطانيين والأمريكيين الذين ضغطوا بدورهم على الأمم المتحدة لتفرض وقف إطلاق النار مجدداً تاركة اليهود يخرقون الهدنة على

هواهم بحجة إمداد مستعمراتهم المحاصرة بالمؤن .

ولعل أعجب ما حصل آنذاك - كما تذكر صحيفة أخرى - اغتيال اليهود الوسيط الدولي برنادوت[(١)] بسبب رفعه مقترحات جديدة إلى الأمم المتحدة تضمنت إخراج النقب من أيديهم وتدويل القدس ليواصلوا بعدها تطويق الحامية المصرية في فالوجا دون أن يحرك المجتمع الدولي ساكناً!

وهكذا لم يكن غريباً - كما نوّهت إحدى الجرائد - أن يخطط عبد الناصر ، حال عودته إلى مصر في العاشر من آذار من سنة ١٩٤٩ ، للثورة التي فجّرها في تموز من سنة ١٩٥٢ .

ووجدتُ أكثر من قصاصة تتحدّث عن التحديات التي جابهت عبد الناصر منذ أمم قناة السويس حتى وقوع العدوان الثلاثي[(٢)] -

---

(١) برنادوت (الكونت) : هو الوسيط الذي عينه مجلس الأمن عام ١٩٤٨ منتدباً من قبل هيئة الأمم المتحدة لغرض التوفيق بين العرب واليهود ، وقد اغتالته عصابة (شتيرن) اليهودية المتطرفة في القدس في السابع من أيلول من السنة نفسها مع مساعده الفرنسي لشك تلك العصابة من أنه يعمل على تقديم اقتراحات جديدة تتضمن إخراج النقب من أيدي اليهود وتدويل القدس .

(٢) العدوان الثلاثي (أزمة السويس) : على أثر إعلان الرئيس المصري جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس يوم ٢٦ تموز ١٩٥٦ قررت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا إحالة قضية القناة إلى مجلس الأمن الدولي في الخامس من تشرين الأول من السنة نفسها . كما أن إسرائيل أعلنت التعبئة العامة في اليوم نفسه . وبعد مرور ثلاثة أيام أنزل الإسرائيليون فوج مظليين شرقي القناة . وفي الخامس من تشرين الثاني أنزل البريطانيون مظليين لهم في مطار (الجميل) . وزحفت الكتيبة =

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي شاركت فيه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في هجومها على سيناء - وصولاً إلى تحقيق الوحدة مع سوريا ، هذه الوحدة التي سرعان انتهت بانفصال الدولتين .

وكانت هناك قصاصات أخرى دأبت على ذكر أن العالم مقبل على عصر جديد يبشّر بقرب غروب شمس الاستعمار : إذ لم يكد الفيتناميون يجبرون القوات الفرنسية على الاستسلام في معركة ديان بيان فو بعدما حاصرهم الجنرال جياب[1] ستة وخمسين يوماً بعد حرب دامت سبع سنوات - منهياً بذلك سبعين سنة من الاحتلال - ها هم يتصدّون للأمريكيين هذه المرة ؛ فعلى أثر لجوء الولايات المتحدة الأمريكية إلى تعطيل الانتخابات التي كان مؤتمر جنيف قد قرر إجراءها عاد الفيتناميون بقيادة قائدهم التاريخي العم هو شي

= (٨٩٠) الإسرائيلية نحو (شرم الشيخ) المصرية واحتلتها . وفي اليوم التالي نزلت القوات البريطانية والفرنسية في شوارع (بور سعيد) . إلا أن العدوان سرعان ما أوقف على أثر الإنذار السوفيتي بالتدخل وبذلك لم تحقق تلك الدول الثلاث هدفها الرئيس في إسقاط جمال عبد الناصر .

(١)جياب : هو القائد البارز الذي قاد حركة التحرر الفيتنامية المعروفة باسم (فييت مينه) في معركة (ديان بيان فو) والتي استسلمت بمقتضاها القوات الفرنسية في السابع من مايس عام ١٩٥٤ بعد حصار امتد ستة وخمسين يوماً لهذا الموقع الفرنسي الحصين . وبذلك انتهت الحرب التحررية الفيتنامية الأولى التي كانت قد بدأت منذ أواخر عام ١٩٤٦ .

منه[1] إلى حمل السلاح مجدداً لتحرير جنوب بلادهم دون أن يرعبهم الأمريكيون الذين عمدوا إلى تحشيد نصف مليون عسكري فضلاً عن مئات الآلاف من المجنّدين من فيتنام الجنوبية .

وكان من نتائج ما حصل في فيتنام أشعال لهيب حركات التحرر في أنحاء العالم الثالث ؛ فها هم ثوّار الجزائر يعمدون إلى تفجير ثورتهم بعد مرور ستة أشهر على الانتصار الفيتنامي ؛ ذلك لأن العديد من قادة هذه الثورة الفتيّة كانوا مجنّدين عنوة في صفوف الجيش الفرنسي بحكم كون الجزائر ملحقة بفرنسا ، كما أن كاسترو حرر بلاده كوبا برغم أنها تقع على مرمى حجر من الولايات المتحدة!

وتطرقت صحيفة أخرى إلى أنبثاق حركة (فتح) الفلسطينية وسط هذا المد الثوري . وأوردت نص بلاغ هذه الحركة على أثر قيامها بأول عمل فدائي لها ليلة الجمعة الحادي والثلاثين من كانون الأول ليعود أفرادها إلى معسكرهم سالمين .

وسوّغت صحيفة أخرى سبب انبثاق هذه الحركة مؤكدة أنه لم يعد ثمة مفرّ من اللجوء إلى هذه الوسيلة بعدما أمست القضية الفلسطينية تُعامل دولياً كونها قضية لاجئين : يغتنم العرب ، من سنة

---

(١) هو شي منه : هو الزعيم التاريخي الذي قاد الفيتناميين في حربهم ضد قوات الولايات المتحدة الأمريكية . وقد بلغت محبة شعبه له أنهم أطلقوا عليه لقب (العم) وقد توفي في عام ١٩٦٩ في أوج المعارك مع الأمريكيين ، بيد أن كفاح الفيتناميين ضد المحتلين استمر كما استمرت المفاوضات معهم في الوقت نفسه في العاصمة الفرنسية باريس لتتوج بانتهاء الحرب وتوحيد شطري فيتنام الشمالية والجنوبية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى أخرى ، فرصة تقديم مدير وكالة الغوث تقريره السنوي ليكرروا مجدداً أن حرمان الفلسطينيين من ديارهم هو الذي دفعهم إلى اللجوء ، مدركين سلفاً أن موضوع ذلك التقرير سيضيع في ضجة المجادلات والخطب التي يستمتع المندوبون في تبادلها في الجمعية العامة للأمم المتحدة ، في الوقت الذي تجد إسرائيل في صمت الدول الكبرى وتناسيها واستهانتها بما أصدرت من قرارات بهذا الشأن خير حافز لها لتتمادى في كسب (مغانم) جديدة ؛ كما حصل حين حاولت تحويل مياه نهر الأردن إلى صحراء النقب .

ونوهت صحيفة أخرى أن مشروع إسرائيل ذاك هو الذي جعل الرئيس جمال عبد الناصر يعمد إلى عقد أول مؤتمر للقمة للملوك والرؤساء العرب ، ليعقبه مؤتمران آخران انتهيا بتوقيع ميثاق للدفاع المشترك أنبثقت عنه قيادة عربية موحّدة تتولى الإشراف على القوات المسلحة للحكومات العربية ؛ فتشجع العرب على أن يستبقوا إسرائيل . بيد أن صحيفة أخرى نوهت أن تلك المقررات لم تأت بأية فائدة للفلسطينيين ، بل على العكس : فإسرائيل بعلاقاتها الوثيقة بالغرب وبامتلاكها جميع وسائل الدعاية والإعلام والإغراء ، استطاعت كسب عطف الرأي العام الدولي بالحصول على أحدث الأسلحة لتعمد بعدها إلى ضرب مواقع العمل في روافد نهر الأردن في سوريا!

وذكرت إحدى الجرائد أن تلك التطورات هي التي دفعت إسرائيل إلى اللجوء إلى العنف ؛ فعمدت صباح الثالث عشر من تشرين الثاني إلى مهاجمة قرية السموع التابعة لبلدة الخليل ، موقعة واحداً وعشرين شهيداً ، مسوغة اعتداءها ذاك بكون اللاجئين الفلسطينيين ، الذين بلغ عددهم أربعة آلاف لاجئاً في تلك البلدة ، أووا فدائيين تسللوا من سوريا!

يومها تساءلت إحدى الصحف بشماتة :

- لنر الآن قيمة تلك التواقيع التي ذيّل بها الملوك والرؤساء العرب ميثاق الدفاع المشترك ؛ فها هم الإسرائيليون يضعونهم أمام مسؤولياتهم ليبرهنوا للعالم على كون القيادة الموحدة للجيوش العربية حقيقية أم . . . محض وهم!

وتساءلت الصحيفة بمرارة عن كيفية قدرة تلك القيادة على المجازفة بالتصدي للإسرائيليين علانية ما دام الجيش المصري متورّطاً في حرب اليمن ، والجيش العراقي منشغلاً بحملاته المتعاقبة على الأكراد؟

وبعد مرور شهرين - كما ورد في إحدى الصحف - تشجعت إسرائيل على التمادي في التحدي والغرور ؛ فكانت النتيجة أنها خاضت معركة - في السابع من نيسان - مع السوريين على أرضهم ليعمدوا على أثرها إلى تحشيد قواتهم على حدودهم الشمالية .

وعلى امتداد الأسابيع اللاحقة تابعت الصحف توتّر الأجواء وما رافق ذلك من استعدادات عسكرية جارية على أكثر من جبهة وإعلان رابين رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي أن قواته مستعدة لدخول دمشق إذا ما استمرّت أعمال الفدائيين عبر الحدود السورية .

كما أن الصحف نفسها تطرقت إلى نبأ رفع القيادة المصرية حالة الطوارئ إلى أعلى الدرجات ؛ طالبة من الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت جلاء القوات الدولية عن سيناء ليتّخذ الجيش المصري مواقعه في شرم الشيخ قبل أن تعلن الحكومة المصرية إغلاق مضائق تيران!!

آنذاك تصدرت الصحف أنباء زيارات وزير خارجية إسرائيل إيبان المفاجئة إلى عدد من العواصم الغربية : فبعدما قابل في باريس الرئيس الفرنسي ديغول طالباً منه مساعدته في (الخروج من المأزق) - في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

محاولة منه لإظهار بلاده بمظهر الضحية البريئة وسط (بحر من الأعداء) - توجّه إلى لندن ليلتقى رئيس الوزراء البريطاني هارولد ويلسون ، ومن ثم طار إلى الولايات المتحدة الأمريكي حيث اختلى مطوّلاً بالرئيس جونسون!

(٢٣)

على امتداد الأيام التي سبقت الامتحانات النهائية بدت مريم وكأنها في سباق مع الزمن : تحاول جهدها تجاهل ما يجري حولها لتنصرف إلى تصفّح كتبها المدرسية ، مراجعة المواضيع التي لم تكن قد ألّمت بها بالطريقة التي ترضيها ، داعية الله في سرها أن يشمل عباده برحمته من ويلات حرب جديدة قد تنشب في أية لحظة .

كانت تتجول في فناء البيت ، بكتابها المفتوح بين يديها ، جيئة وذهاباً ، متجاهلة أفراد الأسرة في دخولهم وخروجهم وفي إثارتهم اللغط لما يحملون من أنباء جديدة ، حتى إذا ما يئست من قدرتها على التركيز غادرت البيت لتعرج على بيت فدوى القريب حيث الأمور كانت تجري هناك على المنوال نفسه!

- ألا يحتمل أننا مقبلون على كارثة جديدة قد تكون أشدّ هولاً ، هذه المرة ، من تلك الكوارث القديمة التي اعتدنا سماع أخبارها ممن يكبروننا في السن؟!

كانت إحداهما تجابه الأخرى أحياناً بهذا السؤال . وبعدما تتبادلان نظرة طويلة مثقلة بالحيرة كانتا تعودان إلى كتابيهما ساخرتين من هواجسهما المغرقة في التشاؤم ؛ إذ لا يعقل ألا تكون الحكومات العربية قد اتّعظتْ مما جرى حتى الآن فاستعدّتْ خير استعداد ، ثم هناك الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي ودول عدم الانحياز!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هكذا مضت مريم تتهيّأ لخوض الامتحانات النهائية موزّعة أوقاتها بين بيت فدوى والتجوال بكتابها المفتوح بين يديها في فناء بيتهم مكتشفة أنه لا سبيل لها للتهرّب مما يجري حولها من أمور أخذت تفاقم قلقها بمرور الأيام منبئة بأمر ما يُعدّ في الخفاء!

وبدت أمها فاطمة وكأنها تمر مثلها بفترة قلق عصيبة كانت تترجمها ، بين يوم وآخر ، بالتقاط ملاءتها على حين غرة لتغادر البيت على عجل موصية مريم بألا تنسى تفقّد قدر الطعام الموضوعة على النار ، حتى إذا ما عادت بعد ساعات انفجرت لأتفه عذر في نوبة غضب لم يكن يخفى سببها عن مريم ؛ فقد اعتادت أمها أن تزور ، من حين إلى آخر ، شقيقها حليم في محاولة منها لإقناعه بضرورة أن ينتقل بأسرته ليشاركهم مؤقتاً في السكن في القدس القديمة تحسباً لخطر اليهود المنتشرين في جبل سكوبس القريب من حيّ الشيخ جراح!

وتطوّر قلق فاطمة بتطوّر الأحداث حتى أن مريم فوجئت بها ذات يوم تغيب عن البيت حتى غروب الشمس لتعود مجابهة نظرة إسماعيل الذبيح المتسائلة بقولها إنها سافرت إلى بيت لحم في محاولة منها لإقناع شقيقها الآخر منيف هذه المرة بالانتقال بأسرته إلى القدس ، فتساءل زوجها مقرّعاً :

– ومن أوهمك بأن وجود شقيقيك بالقرب منك سيكفّل لهما ولأسرتيهما تجنّب الخطر؟!

فتساءلت فاطمة رامقة إياه بنظرة ضارية :

– أنسيتَ ما جرى لسميح في ذلك اليوم الأسود؟ أنسيت؟

وأسقطت ملاءتها عن رأسها لتطويها بحركات عصبية وهي تقول بنبرة تنذر بالبكاء :

- أما أنا فلن انسى . . . أبداً لن أنسى ذلك اليوم ما حييت!

وكانت مريم - وهي تتجول بكتابها المفتوح - تصادف خالها زكريا داخلاً ليمرّ بها ممسكاً بجريدة مطوية في إحدى كفيه . وبعدما يسألها عن مدى استعدادها للامتحان يستفسر باسماً عن أمها : أهي في البيت؟ أم غادرته لتتابع (مفاوضاتها الدولية) لاقناع شقيقيها بالقدوم بأسرتهما إلى بيتهم؟

ولاحظت مريم أن أباها لم يعد يكتفي بالانزواء في البيت منصرفاً إلى الإفراط في التدخين وهو يتابع نشرات الأخبار ، بل دأب ، في الأيام الأخيرة ، على ارتداء قمبازه الخاص بالمناسبات ، وبعدما يعتمر الحطة والعقال يغادر البيت مصطحباً خالها رمزي ليعود في الظهيرة : إذ لا يكاد يتناول لقمة أو اثنتين حتى ينحّي صينية الغداء جانباً ليشعل سيجارة جديدة مصارحاً أمها فاطمة ، وهو يرتشف شايه الساخن على مهل ، أن جهود أمين القدس روحي الخطيب في إعداد قوائم بأسماء المتطوعين للمقاومة الشعبية والدفاع المدني تصطدم ، كل يوم ، بعقبات يتفنن المسؤولون المحلّيون في وضعها في طريقه متحججين تارةً بأن الوقت لا يزال مبكراً للتفكير بمثل هذه الأمور ، وطوراً بأن هناك جيوشاً نظاميةً ستأخذ على عاتقها مهمّة الدفاع عن الوطن . وحين يصرّ الخطيب على أن تنظيم هذه الأمور لا يتعارض مع وجود الجيوش النظامية وذلك لأن الهدف الذي يتوخّاه منها حماية الأماكن المقدسة ؛ إذ لا يخفى على أحد أن الإسرائيليين المتربصين بالقدس على مرمى حجر منها ما انفكّوا يصرّحون علانية بأطماعهم فيها ، حين يكاشفهم بذلك يطلبون منه مراجعتهم بعد يوم أو يومين . . حتى إذا ما مرّ أسبوع عاد أبوها ليعلن وهو يحرر رأسه من العقال والحطة :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لا جدوى ؛ لقد جابه بعض المسؤولين روحي الخطيب بطريقة أقرب ما تكون إلى الطرد هذه المرة ؛ فقد طلبوا منه الانصراف إلى إدارة شؤونه الدينية تاركاً لهم إدارة الشؤون التي تخصّهم ، وحين لم ينهزم الخطيب - وهو المتّصف بالشجاعة والجرأة - وأصرّ على أنه ، في حالة عدم حصوله على إذن منهم ، سيشرع في العمل دون استشارتهم جابهوه بآخر ما في جعبتهم : فقد أكّدوا له أن ثمة (مصادر خاصة) طمأنتهم إلى أن الحرب لن تقع ؛ فالرئيس الأمريكي جونسون بعث برسالة مسهبة إلى الرئيس جمال عبد الناصر أشار فيها إلى (أن المنازعات الكبرى في عصرنا هذا يجب ألا تحلّ بالاجتياز غير المشروع للحدود وبالسلاح والرجال) . وبعدما أبدى رغبته بإرسال نائبه هامفري إلى القاهرة أكّد (أن الولايات المتحدة تعارض معارضة صارمة أي عدوان في المنطقة من أي نوع مكشوف أو في الخفاء) .

(٢٤)

وسط أجواء القلق والترقّب تلك بدأت الامتحانات النهائية إذ اعتادت مريم الوقوف دقائق بباب البيت مستظلّة بأشجار الحاكورة في انتظار فدوى التي سرعان ما تقدم بمرحها المعهود وقد احتضنت كتابها لتبادرها بتحية الصباح قبل أن ترافقها في مسيرتهما نحو المدرسة هابطتين درجات الزقاق الحجرية المتآكلة بفعل مرور السنين حيث ترتفع إلى يمينهما سرايا الست ، يسمع من خلف بوّابتها المواربة لغط الأطفال الأيتام الذين اتخذت تلك البناية التاريخية داراً لهم . وتمرّان كذلك بتربة الست القائمة إلى يسارهما هابطتين آخر درجات الزقاق قبل أن تتخذا سبيلهما خلال عشرات الأزقة المتشابكة وسط واجهات البيوت الحجرية المزدانة بالشرفات التي ترجّع أصداء صوتيهما وهما تتبادلان الأسئلة المتعلقة بامتحان ذلك اليوم مختبرتين مبلغ استيعابهما مادة الكتاب .

وفي المدرسة كانت إحداهما تلازم الأخرى وسط صخب الطالبات المنهمكات بإلقاء آخر النظرات القلقة على الكتب ، ولا تفترقان إلا عند ارتفاع رنين الجرس وهو يعلن بدء الامتحان ، فتشقّان سبيلهما إلى القاعة مع الحشود الداخلة لتتخذ كل واحدة منهما مقعدها الخاص بها بين المقاعد المتراصّة في صفوف منتظمة سرعان ما تجتاز المدرّسات الممرات الفاصلة بينها جيئة وذهاباً . ووسط الصمت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي كان أزيز المراوح السقفية الدائرة بأقصى سرعتها يزيده ثقلاً كانت مريم تنصرف إلى تسطير إجاباتها في الدفتر الإمتحاني رافعةً رأسها ، من حين إلى آخر ، لتتجه عيناها تلقائيّاً نحو ضفيرة فدوى الجالسة أمامها على مبعدة بضعة مقاعد .

كانت مريم تخمّن مستوى صديقتها في امتحان ذلك اليوم من خلال حركة ضفيرتها ؛ فحينما تراها لا تكف عن الأرجحة يميناً ويساراً تدرك أن فدوى في ورطة على النقيض من حالتها حينما تكون مستقرة في موضعها .

ضحى يوم الاثنين ، ومريم قد أوشكت على الانتهاء من الإجابة على آخر الأسئلة ، تنبّهتْ لصديقتها وهي تقوم نحوها بالتفاتات كانت تشفعها بإيماءات من رأسها نحو مقدّمة القاعة محاولة لفت انتباهها لأمر ما يجري هناك . حينها فقط لاحظت مريم أن المدرسات كنّ قد تجمّعن في ذلك الموضع حتى كدن يغفلن عن المراقبة لينصرفن إلى تبادل همسات محمومة . وكانت الست كوثر أكثرهن انفعالاً : لا تكاد تندفع داخلة القاعة لتبادل زميلاتها بضع كلمات حتى تغادرها بخطى عجلى يرنّ وقعها بجلاء في الصمت المخيّم .

ترى ما سر كلّ هذا الاضطراب؟ ساءلت مريم نفسها وهي تجيل بنظراتها على رؤوس الطالبات اللائي كانت غالبيتهن قد انتبهن لما يجري عند مقدمة القاعة . لم تكد مريم تسلّم دفترها وتغادر القاعة حتى التقت فدوى التي صاحت بها وهي ترتجف انفعالاً :

– لقد هاجمت إسرائيل مصر منذ الصباح!

وعلى الفور شعرت مريم بقلبها ينتفض في صدرها ؛ فها هي اللحظة التي ترقّبتها طويلاً بمزيج من اللهفة والتوجس ، وقد أزفت .

في الطريق إلى خارج المدرسة التقتهما الست كوثر وهي تكاد تهرول ، فاحتضنتهما بالتناوب مفعمة مريم بعطرها .

– اطمئنا ؛ فالأخبار تؤكّد أن المصريين أسقطوا العشرات من الطائرات المعادية!

وغادرتهما على عجل مهرولة نحو القاعة .

تُرى هل حان الأوان ليعود اللاجئون إلى مدنهم وقراهم التي طُردوا منها؟ كان ذلك أول سؤال تبادلتاه وهما تتخذان طريق العودة ملاحظتين وجوه الناس من حولهما تطفح بشراً وترقّباً . وكانت ضجة الأناشيد الحماسية تنطلق من مذياع فتح بأعلى صوته في هذا المقهى لتتجاوب معه ضجة نشيد آخر يصدح به مذياع في أحد الدكاكين . وكانت مريم وفدوى ترددان كلام الست كوثر فتتساءلان عن مصير المخيمات حينما تخلو من قاطنيها : أتهدم لتحوّل مواضعها إلى حدائق ورياض أطفال؟ أم تترك شواهد على ما اقترف الإنسان بحق أخيه الإنسان من ظلم؟

عند حاكورة البيت وقفت مريم متابعة بعينيها فدوى وهي تجتاز المسافة القصيرة المتبقية . وكان آخر ما لمحته منها ضفيرتها وهي تشمّرها خلف ظهرها بحركتها الرشيقة قبل أن يغيّبها باب الدار .

وجدت مريم أمها فاطمة في انتظارها عند البئر بادية القلق ، فسألتها وهي تتنقل بعينيها على الغرف المشرعة الأبواب على الحوش :

– أين الآخرون؟ أبي؟ وخالاي رمزي وزكريا؟

تأمّلتها أمها بنظرات شاردة قبل أن تتكلم كمن يخاطب نفسه :

– كل ما يحدث اليوم يعيدني تسع عشرة سنة إلى الوراء . . إلى العاشر من نيسان ، قبل النكبة بخمسة وثلاثين يوماً . . وكأنني بأبيك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سيخفّ في أية لحظة ليظهر من ذلك الباب ناعياً لي سميح . . . سميح الذي لم يعد له قبر على وجه هذه الأرض الملعونة!

كانت تتكلم وقد فاضت عيناها بدموع أخذت تتلكأ ، في انحدارها ، بين التجاعيد متخذة سبيلها نحو زاويتي فمها الراجف .

- لم تعد بي قدرة على تحمّل نعي آخر . . أبداً لم أعد أطيق أن أُفجع بعزيز آخر .

أضافت أمها في اللحظة التي دخل فيها زكريا البيت وشعره يتوهج ، تحت ضوء الشمس ، ببياضه الناصع . صاح مستبشراً وهو يدنو منهما :

- لقد حرر الجيش الأردني جبل سكوبس!

- معنى ذلك أن المعارك تدور الآن على مقربة من حي الشيخ جراح حيث تقيم أسرة حليم!

صاحت أمها بجزع ، فنهرها زكريا صارخاً :

- الإسرائيليون يحاربون على ثلاث جبهات تشمل مصر وسوريا والأردن ، وأنت تقلقين على ما يجري في حي الشيخ جراح؟

وقدم خالها رمزي أيضاً وفي أعقابه أبوها الذي قال :

- لم نجد مفرّاً من اللجوء إلى (أضعف الإيمان) وذلك بالتبرّع بالدم بعدما عجز روحي الخطيب عن الحصول على الموافقة لتنظيم المقاومة .

وعلّق رمزي بحيرة :

- إنها حرب غريبة تجري دون أن يظهر فيها للعدو أثر!

فأجابه زكريا من فوره :

- سيظهرون بالتوقيت الذي حددوه لأنفسهم ؛ فهم في منتهى الدقة في مثل هذه الأمور!

لم يكد الجميع يتناولون غداء مرتجلاً أعدّ على عجل حتى انصرفوا إلى الإصغاء للمذياع في غرفة رمزي . وصدح نشيد (الله أكبر) ملء الأسماع ، فعلّق زكريا :

- لقد أصبح هذا النشيد أشبه بكلمة السر لكل ثورة أو انقلاب : لا يكاد أحد الضباط العرب المغامرين ينجح في محاصرة قصر رئيسه حتى تبدأ إذاعته ببث هذا النشيد قبل قراءة المذيع نصّ البيان الأول!

وجدت مريم الجميع يتبادلون بوجوه مستبشرة التعليقات ، حتى إذا ما ارتفع صوت المذيع المصري أحمد سعيد[1] عمّ الصمت ليتسيّد ذلك الصوت الهادر على كل ما عداه وهو يتدفق متحدّثاً عن صواريخ الدفاع المصري في تصدّيها المستمر للطائرات الإسرائيلية مسقطة أعداداً جديدة من الطائرات .

- يبدو أن معين الإسرائيليين من الطائرات غير قابل للنفاد ؛ فمنذ ساعات والبيانات لا تكفّ عن ذكر طائرات لا يكاد يحصرها العد تمّ إسقاطها!

صاح رمزي محاولاً أن يعلو بصوته على صوت المذياع . وبغتة طغى هدير جبار على كل ما عداه : فقد انفجرت الأجواء بدويّ هائل شعرت مريم به يهزّ البيت من أركانه ، فاندفعت نحو الحوش والآخرون في أعقابها ، سامعة صليل أكثر من لوح زجاجي يتحطّم في غرف

---

(١) أحمد سعيد : مذيع مصري اشتهر في الستينات بتعليقاته النارية ضد إسرائيل ولاسيما في أثناء حرب حزيران ١٩٦٧ إذ إنه كان يذيع البيان تلو البيان عن تساقط الطائرات الإسرائيلية كالذباب وعن سيطرة القوات المصرية على الوضع تماماً ، وعن كون النصر قد أصبح قاب قوسين أوأدنى ، وأنه آن الوقت لإلقاء إسرائيل في البحر . وقد تبين فيما بعد أن كل ذلك الهذيان لم يكن سوى ضرب من ادعاءات فارغة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البيت . بدت زرقة السماء مغطاة بأسراب طائرات تمرق بالعشرات على ارتفاع منخفض توشك معه أن تمس رؤوسّ الأشجار والسطوح وهي تندفع شرقاً .

– أهي طائرات مصرية أم سورية؟

سمعت مريم خالها رمزي يسأل وهو يتطلع إلى السماء مظللاً عينيه بكفه الوحيدة ، فأجابه أبوها متابعاً بنظراته الطائرات التي واصلت مروقها من غير انقطاع :

– وما الذي تستهدفه الطائرات المصرية أو السورية في اتجاهها شرقاً في حين أن أهدافها تقع إلى الغرب؟!

– لا شك أنها طائرات إسرائيلية في طريقها إلى عمّان لضرب مطارات الجيش الأردني!

علّق زكريا ، فعاد رمزي يتساءل بازدراء :

– في هذه الحالة لم لا تتصدى لها المقاومات الأرضية؟

فأجابه زكريا متهكماً :

– ذلك لأنه لا توجد في القدس مقاومات من هذا النوع ؛ إذ (للبيت رب يحميه)!

وسرعان ما أطلّ أحد الجيران برأسه من باب البيت ليعلن على عجل أن الطائرات الإسرائيلية أخذت تُصلي الجيش الأردني ، الذي حرر جبل سكوبس ، بنيرانها منذ الساعة الثانية والنصف ، فصاحت فاطمة بصوت أقرب ما يكون إلى النواح :

– أما كان الأولى بحليم أن يلجأ بزوجته الكسول عاشقة النوم إلى بيتنا؟

عصراً خلا البيت من الرجال الثلاثة من جديد . ولبثت مريم تحوم

حول المذياع تارة لتنطلق نحو الحوش طوراً وهي موزعة بين الإصغاء إلى البيانات المتلاحقة وسؤال الجيران عن آخر أخبار القتال الجاري في جبل سكوبس ؛ إذ لم تعد المدافع تكفّ عن مواصلة دويّها . ومع غروب الشمس قدم خالها منيف بزوجته وابنته المقاربة لها في السن من بيت لحم معلناً أن الأوضاع أمست بالغة الخطورة ؛ فقد انتشرت في مدينته شائعات عن شروع الإسرائيليين بالزحف شرقاً محتلّين ما تبقّى من مدن الضفة الغربية . وأضاف وهو يرفع صوته على صوت أحمد سعيد الذي شرع في قراءة بيان جديد :

- كذب . . أخشى أن يكون كل ما يردده هذا المذيع محض كذب وتلفيق!

ليلاً عاد الآخرون إلى البيت مؤكّدين أن الإسرائيليين ألقوا بكل ثقلهم العسكري على القدس محاولين احتلالها بأقصى سرعة برغم تصدي الجيش الأردني لهم . وكانت السماء السوداء المرقطة بآلاف النجوم تسطع ، بين فينة وأخرى ، بوهج قنابل الإضاءة التي كانت الطائرات الإسرائيلية تلقي بها في مروقها الخاطف المصحوب بدويّها المزلزل للأعماق ، ومعها كانت أصوات القصف المدفعي تزداد اقتراباً . وأخذ رمزي يتنقّل بمؤشر المذياع على المحطات الأجنبية ليتوقّف به مطوّلاً عند إذاعة لندن التي نوّهت باحتمال أن تكون إسرائيل في طريقها إلى تحقيق نصر حاسم وسريع على العرب مجتمعين!

- بفضل تبنّيكم لها في كل مشاريعها العدوانية!

صاح خالها رمزي مخاطباً المذياع ، في حين انصرف أبوها إلى تدخين السجائر واحدة في أعقاب الأخرى . واكتفى الآخرون بتبادل نظرات زائغة ليلجأ كل واحد منهم إلى فراشه لأخذ قسط من النوم .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٢٥)

ولكنْ أيسعهم الليلة التمتّع بالنوم؟

كانت مريم تسأل نفسها وهي لا تكفّ عن التقلّب في فراشها مستسلمة لإغفاءات خاطفة سرعان ما كانت تصحو منها على هدير الطائرات أو المدافع التي لم تصمت لحظة واحدة . ولم تدر متى نامت حينما هبّت واثبة من فراشها على دويّ انفجار هائل عصف بالبيت ؛ ففتحت عينيها على ضوء الفجر الشحيح وقد ملأت سحب الغبار والدخان البيت!

- أمي!!

صرختْ تلقائيّاً . واندفعت خارجة من غرفتها لتصطدم بالآخرين في زحمة تفقّدهم بعضهم بعضاً وسط سحب الدخان المثقلة برائحة غريبة .

- لقد دُكّ بيت أحد الجيران!

جاءهم صوت زكريا من عند الباب ، فاندفع الجميع نحو الزقاق ومريم في أعاقبهم لتدرك من فورها أن بيت فدوى كان الهدف ؛ فوسط فوضى تقاطر الجيران كالأشباح رأت ذلك البيت وقد تحوّل إلى كومة أنقاض تتصاعد منها سحب الدخان . رأت بعينين حجّرهما الرعب أباها وأخوالها الثلاثة والجيران الآخرين وهم ينقّبون بحركات محمومة في تلك الأنقاض بحثاً عن ناجين ، فاقتربت منهم كالمنوّمة ، تتأمل ما

يجري أمامها، واطئة بقدميها العاريتين الشظايا الصخرية التي كانت قد تبعثرت في كل موضع. كانت تدرك عبث كل الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال في بحثهم المحموم؛ فكل شيء انتهى. وبغتة صرخت دون وعي:

- فدوى!!

ذلك لأنها فوجئتْ، حينما رفع أحد الرجال صخرة، بتلك الضفيرة الثقيلة تندفع من بين الأنقاض على غير توقع قبل أن ترتد ساقطة في موضعها وكأن ثمة يداً خفية شمّرت بها بتلك الحركة الرشيقة التي عرفت بها فدوى!

- فدوى... فدوى!

قفلتْ مريم مهرولة نحو البيت لتصطدم بعشرات الأشياء قبل أن تشعر بيدين حانيتين تطوّقانها لتضمّاها إلى صدر تمنّتْ أن يكون صدر أمها فاطمة؛ فما أحوجها في تلك اللحظة إلى ذلك الصدر!

- أين أمي؟

تساءلتْ برعب حين اكتشفت أن زوجة خالها منيف هي التي كانت قد احتضنتها في محاولة منها لتهدئتها.

- لقد افقدها قصف البيت المجاور رشدها فالتقطت ملاءتها لتندفع خارجة قائلة إنها ذاهبة إلى بيت حليم!

- ولمَ لم تمنعيها؟

صرختْ بها مريم وهي تقاوم رغبة قاهرة في ضرب صدرها بجمع يديها. واندفعت خارجة في أثر أمها تتعقبها زوجة خالها بصرخاتها وهي تطلب منها الرجوع. لم تكد تصل إلى سرايا الست حتى أدركها أبوها. طلب منها لاهثاً أن تعود إلى البيت مؤكّداً أنه سيذهب من فوره

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى حي الشيخ جراح . وكان أخوالها الثلاثة قد انضمّوا إليه ، فتابعتهم في ضوء ذلك الفجر الحزيراني الشحيح : أربعة اشباح وهم يدرجون هابطين الزقاق ليختفوا عن عينيها .

وقضت ساعات ذلك النهار وهي لا تكفّ عن التجوال في الحوش دون أن تولي امرأة خالها سمعها ، وهي تثرثر بكلام لم تفقه منه حرفاً .

وكانت الشمس قد ملأت أركان البيت وبدأت تميل غرباً ، ومعها تعاقبت الأخبار المرعبة ؛ فكلما أطلّت جارة برأسها من الباب فاجأتها بنبأ جديد : شروع بعض أهالي القدس بالنزوح عنها أو اللجوء إلى المساجد والكنائس والأديرة بسبب احتمال دخول الجيش الإسرائيلي في أية لحظة ، وانسحاب الجيش الأردني من المدينة ودخول من تخلّف عن ذلك الانسحاب إلى أقرب مستشفى بعد إخفاء السلاح الشخصي والتخلّص من الملابس العسكرية وارتداء صدرية طبية تجنّباً من الوقوع في الأسر!

وأعلنت إحدى الجارات عن استعمال الإسرائيليين لقنابل عجيبة يستحيل إطفاء نيرانها ؛ إذ إنها تظلّ تأكل الثياب واللحم لتصل إلى العظم ، حتى إذا ما ألقي عليها الماء طفت فوقه لتبخّره وهي مستمرة في أداء مهمتها بتحويل العظم إلى رماد!

وبقيت ضفيرة فدوى تتراءى لها وسط سماعها تلك الأنباء المرعبة ، فكانت تعمل جهدها على نسيانها منصرفة بذهنها إلى قاعة الامتحانات في ذلك اليوم وقد خلت من الطالبات والمراقبات فبقيت المراوح السقفية وحدها تدور بأقصى سرعتها ليتردد ، بين فينة وأخرى ، دويّ الانفجارات بين جنباتها وقد ضخّم خلو المكان من البشر من أصدائها .

كانت تفكر بأمور على هذه الشاكلة دون أن تكفّ عن الالتفات نحو الباب في انتظار أن تدخل منه أمها مصطحبة خالها حليم وامرأته المستسلمة لتقريعها الأبدي عن كونها كسولاً لا تكاد تغادر فراشها . كانت تفكر بكل هذه الأمور لحظة رأتْ ، في وهج الشمس المائلة للغروب ، أباها عند الباب . لم تكد تراه يدخل بتلك الطريقة عجوزاً أثقل كاهله عبء سبع وسبعين سنة حتى ارتفع وجيب قلبها . رأته يتقدم منها خطوة خطوة وقد دلف أخوالها في إثره وبضمنهم خالها حليم ليقفوا عند الباب واجمين . وعلى الفور أدركتْ كل شيء!

راقبته . . . راقبتْ إسماعيل الذبيح يدنو منها بتلك الطريقة التي حدّثتها عنها أمها يوم جاءها حاملاً إليها نعي سميح . . . رأته يجتاز المسافة نفسها مع فارق وحيد تمثّل بأن الجوّ كان صحواً ولا أثر لقطرات المطر . . كانت دموعه وحدها تتساقط من عينيه الذابلتين . رأته عن قرب وهو ينحني عليها ليحتوي وجهها بين راحتيه . قال لها همساً بعدما قبّلها مفعماً أنفها برائحة تبغه :

- تهيّئي يا مريم للرحيل إلى . . بغداد!

- وأمي؟!

سألته بهدوء غريب وقد أخذتْ عيناها تفيضان بالدموع ، فأجابها وهو يبتسم وسط دموعه :

- وهل يسعنا أن نثني فاطمة عن قرارها العنيد باستحالة أن تغادر القدس؟!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الروائي عبد الخالق الركابي

١ - مؤلفاته:

- (نافذة بسعة الحلم)/رواية/١٩٧٧/منشورات وزارة الإعلام .
- (من يفتح باب الطلسم)/رواية/١٩٨٢/منشورات دار الرشيد/ بغداد .
- (مكابدات عبد الله العاشق)/رواية/١٩٨٢/منشورات دار الرشيد/ بغداد .
- (حائط البنادق)/ قصص قصيرة/ ١٩٨٣/منشورات دار الرشيد/ بغداد .
- (الراووق)/ رواية/ ١٩٨٦/ منشورات دار الشؤون الثقافية العامة .
- (قبل أن يحلق الباشق)/ رواية/ ١٩٩٠/ منشورات دار الشؤون الثقافية /بغداد .
- (سابع أيام الخلق)/صدرت الطبعة الأولى عن دار الشؤون الثقافية العامة بغداد عام ١٩٩٤/ وصدرت الطبعة الثانية عن دار بيسان /بيروت عام ٢٠٠٠/ وصدرت الطبعة الثالثة عن دار المدى /دمشق/٢٠٠٩ وصدرت الطبعة الرابعة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت/ ٢٠١١ .
- (البيزار)/ مسرحية/١٩٩٩/ منشورات دار الشؤون الثقافية العامة . وصدرت الطبعة الثانية/دار الموسوعات العربية/بيروت .
- (نهارات الليالي الألف)/ مسرحية/ ٢٠٠١/ منشورات دار الشؤون الثقافية العامة/طبعة أولى . وصدرت الطبعة الثانية/ دار بيسان/ بيروت .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- (أطراس الكلام)/ رواية/٢٠٠٢/دار الشؤون الثقافية العامة بغداد/طبعة أولى/ وصدرت الطبعة الثانية عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت /٢٠٠٩ .
- (سفر السرمدية)/ نشرت عام ٢٠٠٣ في جريدة (الزمان) اللندنية على شكل ٢٧ حلقة ثم صدرت طبعتها الأولى عن المؤسسة العربية للدراسات في بيروت/ ٢٠٠٥ وصدرت الطبعة الثانية عن دار الشؤون الثقافية العامة/بغداد ٢٠٠٦ .
- (ليل علي بابا الحزين) المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ رواية / ٢٠١٣ .

٢ - الكتب التي أُلِّفتْ عنه:

- (ثلاثية الراووق/ الرؤية والبناء) للدكتور قيس كاظم الجنابي/دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد/٢٠٠٠ .
- (الركابي عرّاب اللاشعور الماكر) تأليف الدكتور حسين سرمك حسن/ بيروت/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/٢٠٠٩ .
- (البنية الدلالية في رواية «سابع أيام الخلق») حسن كريم عاتي/ بيروت/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/٢٠١٢ .
- (عبد الخالق الركابي . . . ليالي ما بعد الألف) تحرير د .حسن مجاد / دار نيبور/ ٢٠١٤/ بغداد .
- (سرد ما بعد الحداثة – رواية «سابع أيام الخلق» مفتاحاً إجرائياً) الدكتور سامي شهاب أحمد / دار الحامد للنشر والتوزيع / عمان – الأردن .

٣ - الرسائل الجامعية التي كُتبتْ عنه:

- (عبد الخالق الركابي روائياً) - بحث ماجستير لرحيم علي جمعة الحربي - جامعة الموصل - ١٩٩٨ .
- (بناء الشخصيات في روايات عبد الخالق الركابي) -بحث ماجستير للدكتور عباس محسن خاوي - جامعة لقادسية - ١٩٩٨ .
- (تحليل الخطاب الروائي في أدب عبد الخالق الركابي) / للدكتورة ماجدة هاتو هاشم/جامعة بغداد/ كلية الآداب/٢٠٠٣ .
- (النص التاريخي في روايات عبد الخالق الركابي) - بحث ماجستير لعادل عباس - كلية التربية - قسم اللغة العربية - جامعة القادسية - ٢٠١٣ .
- (شفرات السرد بين «مقامات إسماعيل الذبيح» لعبد الخالق الركابي و«دلشاد» لسليم بركات - دراسة مقارنة) أطروحة دكتوراه للباحث حسين سيتو - جامعة الموصل ٢٠١٣ .
- رسالة ماجستير للباحثة الايطالية (فالنتينا غابلييري) باللغة الإيطالية بعنوان (عبد الخالق الركابي : دراسة في أعماله مع ترجمة وتعليق لرواية سابع أيام الخلق) تحت إشراف البروفسور عقيل المرعي أستاذ اللغة الإيطالية في جامعة (سيانا) في إيطاليا .
- أطروحة دكتوراه باللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان (بين مأزق التاريخ ومنفذه : دراسة مقارنة لرواية «المحرقة الشاملة» لروبرت كوفر و«سابع أيام الخلق» لعبد لخالق الركابي) للدكتور زيد نعمان ماهر .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٤- الجوائز التي منحت له:

- أُختير ضمن خمسة روائيين عالميين من أجل كتابة التاريخ العربي الحديث على شكل رواية في إطار (جائزة قطر العالمية للرواية) إذ كتب روايته (مقامات إسماعيل الذبيح) سنة ٢٠٠٧ .
- فازت روايته (الراووق) بجائزة معرض الشرق الكبير في بغداد عام ١٩٨٧ .
- فازت روايته (قبل أن يحلق الباشق) بجائزة أفضل كتاب أدبي عام ١٩٩٠ عن دار الشؤون الثقافية العامة .
- فازت روايته (سابع أيام الخلق) بجائزة أفضل رواية عراقية عام ١٩٩٥ .
- فازت مسرحيته (البيزار) بجائزة الدولة للمسرح ٢٠٠٠ .

٥ - ترجمات:

ترجمت روايته (سابع أيام الخلق) إلى اللغة الصينية ضمن مشروع الاتحاد العام للكتّاب العرب حول أفضل روايات القرن العشرين العربية . كما ترجمت (دار صافي) في (سياتل) في واشنطن الرواية نفسها إلى اللغة الإنكليزية ، فضلاً عن ترجمتها إلى اللغة الإيطالية ضمن متطلبات رسالة الماجستير للباحثة فالنتينا غابلييري .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

TALES OF ISMAIL THE SLAUGHTERED

رواية
NOVEL

مكتبة بغداد

مقامات إسماعيل الذبيح

حينما دقت ساعة البرج الثامنة فُتحت بوابة السجن مرسلة صريراً معدنياً مقبضاً للقلب، وأطلّ أحد الحراس برأسه ليعلن، بعدما اطمأن إلى أن الأنظار كلها قد صوّبتْ نحوه، عن إعدام أول المحكومين، وهو فؤاد حجازي؛ فارتفعت صرخات أسرة المعدوم المنكودة في الوقت الذي امتلأ الفضاء فيه بصوت المؤذن وهو يؤذن من جامع الجزار، وسرعان ما تجاوبت معه المساجد الأخرى بالأذان، كما شرعت الكنائس تدق نواقيسها حداداً. في تلك اللحظة أحستْ فاطمة بأولى بوادر الطلق، فتلفتت حولها مذعورة قبل أن تستقرّ بعينيها على رمزي الواقف وسط حشد الرجال؛ تُرى كيف سيتصرّف حين يعلم بالأمر؟

بيد أنها سارعتْ إلى إبعاد تلك الفكرة عن بالها؛ فما يهمها الآن يتمثّل بمن سيُعدم مع الدقة القادمة. وعضّت على شفتها حتى كادت تدميها متابعة بنظرات محمومة عقرب الثواني وهو يتواثب في ساعة البرج مع كل نبضة من نبضاتها، حتى إذا ما أعلن مع الدقة التاسعة عن إعدام عطا الزير انهارت فاطمة بين أيدي قريباتها مطلقة صرخة جبارة حفّزتهن، وسط ضجة أصوات المؤذنين ودقات النواقيس، إلى الإسراع بحملها إلى البيت قبل أن تضع مولودها في الشارع.

وكانت ساعة برج السجن آخر شيء لاح لها، وعقرب الثواني فيها يواصل دورانه الرهيب في انتظار الدقة العاشرة والإعلان عن المعدوم الثالث... لحظتها تمنّت فاطمة الإصابة بالصمم لكي لا تسمع باسم المحكوم المنتظر!

ISBN 978-614-419-682-3
9 786144 196823